تاريخ ابن خلدون

المسمى بكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر

في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر

ملحق للجزء الأول

يشتمل على ما علّق به على غوامض أبحاثه

كاتب العصر الأكبر

الأمير شكيب أرسلان

محمد المهدي الحبابي

صاحب المكتبة التجارية الكبرى بفاس وتطوان

وفروعها بالأقطار المغربية

المطبعة الرحمانية بمصر

شارع الخرنفش نمرة ٣٥ تليفون ٥١٥٢٢



الأمير شكيب أرسلان

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

ابن خلدون أمة وحده

لم نعلم أحداً من العلماء والفلاسفة قبل ابن خلدون أفرد بالتآليف علم طبيعة العمران وما يسمّى اليوم بعلم الاجتماع ، برغم أن هذا العلم لم يكن من الأسرار الخفية ولا من المباحث التى لا تجول فيها أفكار الحكماء . وقد ثبت أن الفلاسفة قبل ابن خلدون لحظوا هذا العلم وأشاروا اليه فى تضاعيف مباحثهم ، ولكنهم لم يبلغوا فيه شيئاً من الإحاطة التى بلغها ابن خلدون ، ولا استقصوا فيه ذلك الاستقصاء الذى جعله فى هذا الموضوع نسيج وحده ، حتى ألقى إليه فيه بمقاليد الرئاسة . فهو واضع علم الاجتماع بالاجماع ، وهو الذى لم يدع منه عملا غير معلم ، ولا وشياً غير منمنم .

قال البارون المستشرق « كارادوفو Carra de Vaux » صاحب كتاب « مفكرى الاسلام » فى الجزء الأول من تاليفه هذا : أنجبت افريقية الاسلامية اجتماعياً من الطبقة الأولى فى شخص ابن خلدون الذى لم يعرف من قبله عالم أوتى تصوراً عن فلسفة التاريخ أصح ولا أجلى من تصوره ، فان أحوال الأمم الروحية والأسباب الطارئة عليها القاضية بتغييرها ، وكيفية تأسيس الدول ، وما تدخل فيه من الأطوار وتنوع المدنيات وعوامل نموها أو تقلصها ، كل ذلك كان من المباحث التى خاض فيها إلى أقصى ما يمكن الخوض فيه ، وذلك فى مقدمته المشهورة « Prolégomènes » ولم نجد فى أوربا إلا فى القرن الثامن عشر للمسيح أناساً حاولوا أن يستخرجوا أسرار التاريخ استخراجه بعد أن كانت أقفالا مستحجبة تعذر فتحها ، فكان ابن خلدون فى العقل والادراك من فضيلة « مونتسكيو Montesquieu » أو الأب « مابلى Mably » وهو من دون شك الجد الأعلى لعلمائنا الاجتماعيين المحدثين مثل « تارد Tarde » أو المستشرق « غوبينو Gobineau » اهـ .

ثم ذكر صاحب كتاب « مفكّرى الاسلام » شيئاً عن حياة ابن خلدون وقال إن الأب « بورغيس Bargues » قدح فى ابن خلدون وأنكر عليه الثبات على وتيرة واحدة ، وزعم أن قاعدته فى السياسة كانت التحوّل من حزب إلى حزب آخر بحسب ما كانت تقضى عليه به مصلحته الشخصية ، أو اتقاؤه للضرر ، ونسى بورغيس ما كانت عليه أحوال تلك الحقبة المضطربة الذى يجب تمهيد عذر من يلجأ فيها إلى ما لجأ إليه ابن خلدون . على أن بورغيس نفسه يسمى ابن خلدون « بالمؤرخ الفيلسوف » برغم ما زنّه به من عدم الثبات .

ثم ذكر كارادوڤو كيف ذهب فيلسوفنا المشار إليه سفيراً عن سلطان غرناطة إلى « بطرة » الغاشم سلطان قشتالة فى بعض المهمات ، وكيف حاول هذا الطاغية إقناعه بالبقاء عنده ولم يحصل من ذلك على طائل ، وذكر مجيئه إلى مصر وولايته للقضاء ثم صحبته لسلطان مصر فى خروجه إلى الشام لمحاربة تيمورلنك ، ثم ما جرى بينه و بين تيمورلنك من الأحاديث وكيف أقنعه بالاذن له فى الرجوع إلى مصر توفى سنة ٨٠٨ وفق ١٤٠٦ عن اربع وسبعين سنة . وقال : إنه كان رجلا سرياً بهىّ الطلعة ، حسن الصورة والشورَة ، خبيراً بالسياسة ، عارفاً بأخلاق الملوك .

ثم قال : إن عمل هذا الكاتب العظيم كان عبارة عن تاريخ عام مجموع من كتب كثيرة ملحق بتاريخ نفيس للبربر ترجمه المسيو « دوسلان de Slane » إلى الافرنسية ، وقدّم عليه مقدمة تضمنت فلسفته السياسية . وهذه المقدمة هى فى حد ذاتها انسيكلو بيدية شاملة ، تبحث عن جميع المسائل من جهتها الفلسفية ، والتاريخ نفسه معدود فيها من جملة فروع الفلسفة .

قال ابن خلدون « إذا نظرنا إلى التاريخ من جهة شكله الخارجى وجدنا مهمته تقيّد الحوادث التى تتابعت على مر الأعصار ، وتعاقب الأدوار ، مما كانت الأجيال الماضية شاهدة له ، و إنه لأجل سرد هذه الحوادث تنقّحت العبارات ، وتطرّز الانشاء بحلىّ البلاغة ، و بهذا التاريخ زهت مجالس الأدب ، وتداعى اليها الناس من كل حدب ، والتاريخ هو الذى يعلمنا كيف تقلّبت الأحوال على جميع الكائنات وهو الذى منه يعرف بناء الممالك ، وكيفية عمارة الأمم لهذه الأرض . كل أمة إلى

المدة المقدرة لها من الحياة ، فأما من جهة الأسرار الباطنة لعلم التاريخ ، فأعظم اسراره هو البحث عن الحوادث إلى درجة اليقين بها ، والتأمل فى الأسباب التى أنشأتها وفى كيفية جريانها وتطورها . فالتاريخ بالجملة إنما هو فرع من فروع الفلسفة ، وهو جدير بأن يجعل فى عداد العلوم الجليلة التى لها المكانة الأولى » .

فأنت ترى أن التاريخ فى نظر ابن خلدون هو عبارة عن تمحيص الحوادث والبحث عن أسبابها . وهذان الأمران يستلزمان معرفة أحوال الشعوب والبصر بطبيعة العمران ، وكان ابن خلدون يرى العمران فى زمانه قد أجحف به النقصان ، وأ كدى كما أرى فيذهب إلى أن المدنيات قد أشرقت شموسها على العالم من مشارق متعددة ولكنه قد غاب الكثير منها وانطوى بدثور المعالم ، فهو يقول: إن العلوم التى وصلت إلينا هى أقل من العلوم التى لم تصل إلينا ؛ فأين علوم الفرس ، والكلدانيين ، والبابليين ، والأشوريين ، والأقباط القدماء ، فانها كلها قد ذهبت . ولم يبق من العلوم التى وصلت إلينا سوى علوم اليونانيين التى انتهت إلينا بسبب اجتهاد الخليفة المأمون فى ترجمتها و إنفاقه الأموال الطائلة عليها .

وقد عقّب كارادوفو على كلام ابن خلدون هذا بقوله : إن فيه شيئا من المبالغة لأنه قد وصل إلى المسلمين أشياء لا تنكر أهميتها من معارف الفرس ، والهنود واليهود . ولكنه على كل حال كلام يدل على سعة عطن ابن خلدون من جهة العلم بالمدنية البشرية .

ثم إن ابن خلدون يتكلم عن الاجتماع البشرى فيقول : إن أساس الاجتماع الانسانى إنما هو ضعف الانسان منفرداً بنفسه ، فانه إذا عاش وحده فلا يكون مليئا بالقيام كما يلزم له من أجل قوام معيشته ، بل لو عاش وحده لما قدر أن يثبت فى وجه حيوان واحد من الوحوش المفترسة . ثم إن الاجتماع يستلزم السلطان الذى هو فى الحقيقة عبارة عن وازع يزع اعتداء الناس بعضهم على بعض ، فلا بد فيما بينهم من سلطة متينة كافية لردع اعتداء المعتدين ، فهذا فى الأصل هو منشأ السلطان قال : وهذا غير محصور فى الآدميين ؛ بل هو يوجد فى الحيوانات أيضاً ، فقد تحقق عند بعضها مثل النحل والجراد ، وغيرهما ؛ وجود رئاسة عليا ينقاد إليها أفراد ذلك النوع ، و يكون لصاحب

تلك الرئاسة امتياز فى الشكل أو بسطة خاصة فى الجسم . والفرق بين الانسان والحيوان هو أن الحيوان ينقاد إلى تلك الرئاسة بمجرد غريزة مركوزة فى فطرته ، وأن الانسان ينقاد إلى هذه الرئاسة بناءً على تفكّر وروية .

وقد أطال ابن خلدون البحث فى تأثير الأقاليم بطباع البشر ، وأورد على ذلك الأمثال ، واستخلص منها أن الأقاليم المعتدلة أحسن الأقاليم سكانا ، بخلاف الاقاليم الأول والثانى والسادس والسابع فان أهلها يسكنون فى بيوت من القصب أو الطين وأكثر طعامهم من الذرة أو الحشائش ، وهم فى الغالب عراة الأجسام و إذا اكتسوا فانما يخصفون على أبدانهم من ورق الأشجار . فأما الأقاليم المتوسطة فأهلها عندهم مزية التعديل فى الأمور واتخاذ الأليق من التدابير ، والألبق من مظاهر الحياة . وعندهم العلوم والصناعات والأمر والنهى ، والنظام والملك ، وفيهم ظهر الأنبياء وتأسّست الدول والممالك ، وسُنّت القوانين ، ووضعت العلوم ، وتشيّدت الأمصار وغُرست المغارس ، وحُرثت المحارث ، وتولّدت الصناعات النفيسة ، وترفّهت المعيشة ، و إنما الأمم التى تنسب إلى هذه الأقاليم هى العرب ، والرومان ، والفرس والاسرائيليون ، واليونان ، والهند ، والصين .

وقد أمعن ابن خلدون فى البحث عن أسباب اختلاف المشارب والأذواق فى البشر ، فهو يتساءل لماذا الزنوج مثلا تغلب عليهم الخفة والطرب ؟ وقد بحث عن ذلك من قبله المسعودى صاحب التاريخ المسمى «مروج الذهب» فقال : إن هذا يوجد عند الأمم التى يسهل عليها القوت ، بعكس الأمم التى تضرب فى المناطق الباردة التى لايسهل فيها إيجاد الغذاء . وضرب ابن خلدون مثلا مدينة « فاس » فقال : إنها لكونها محاطة بالبلاد الباردة تجد الواحد من أهلها سائراً وهو مطرق رأسه فى الأرض يظهر للناس أنه حزين ، وذلك من شدة تفكّره فى العواقب ، وقد يبلغ فيهم الاحتياط للمستقبل أنهم يخزنون الحنطة اللازمة لهم إلى مدة سنين ، وهم مع ذلك يذهبون كل يوم إلى الأسواق لابتياع لوازم معيشتهم ! ! ثم قال : إن لأنواع الأطعمة تأثيرات متنوعة فى طباع البشر ، فمن الأقوام من يعيشون فى أرضين دارّة بالخيرات ، وتتوافر لديهم الآلات ، فتكثر عندهم الحبوب والثمار ، بينما غيرهم يقلّ عندهم هذا النوع من

القوت فيكتفون لأجل معيشتهم بلحوم المواشى وألبانها ، وتقلّ عندهم الأخلاط . قال : و إن قلّة الأخلاط تزيد الناس بسطة فى العلم والجسم . فأجساد هؤلاء الشعوب أنعم وأقوى ، وأكثر تناسبا ، وعقولهم أسمى وأسرع استنتاجاً ، وأذهانهم أشد لحظاً وثقوباً .

فالقناعة عند ابن خلدون وشظف العيش هما من أحسن الفضائل التى يكمل بها الانسان . وهذا الفيلسوف غالب عليه الافتتان بسذاجة المعيشة ، و برغم أنه كان مترفاً متبحراً فى العلوم ، عارفاً بقدر الصناعات ، تراه يحمد دائماً معيشة البداوة ، ويراها أقرب إلى الطبيعة البشرية ، وهو يقول : إن البداوة أصل ، والحضارة فرع و إن الأمصار إنما عمرت بأهل البادية ، و إن هؤلاء هم أحسن أخلاقاً من أهل المدن لأنهم يحمون أنفسهم بأنفسهم . والحال أن أهل المدن ينغمسون فى النعيم و يتركون لولاة المدن مهمة حماية أنفسهم وأموالهم ، فالمدن والحواضر تعيش فى ظلال حامياتها وأسوارها ، بينما سكان البوادى يأنفون من السكنى وراء الأسوار ، وتحت خفارة الجنود ، و يرون أنفسهم أكفاء للقيام بالدفاع عن أنفسهم وأموالهم ، وهم دائماً على حذر شديد لا يعرفون النوم إلا غراراً ، لأنهم أبداً يلقون السمع حتى إذا سمعوا أقل نبأة هبّوا مستعدين لمقابلة الخطر الواقع ، وهكذا تصير فيهم هذه العادة طبيعة خامسة .

والذى يظهر من كلام ابن خلدون ، أنه كان نزاعاً إلى المجد ، ميّالا بطبيعته إلى الاستقلال وشمم الأنف ، وهو يقول : إن الشعوب لا ينبغى أن تكون على العموم سلسلة القياد ، مسرعة إلى تأدية الضرائب للملوك ، و يقول أيضاً إن القبائل التى ليس لها حظ من المدنية هى أقوم على فتح الفتوحات من غيرها ، ولقد ساق الله تعالى بنى إسرائيل إلى الصحراء وأخّرهم فى بادية التيه أربعين سنة حتى يعتادوا الاستقلال و يتمكنوا من فتح أرض الميعاد . وللدول عند ابن خلدون أعمار كأعمار البشر ، فالدولة عنده تنشأ وتشب ثم تكتمل ثم تدخل فى سن الشيخوخة — أى تهرم — ثم تأخذ بالتردّى — أى أرذل العمر — وهو يعرض للدولة ١٢٠ سنة من نشأتها إلى انقراضها وهنا قد قصّر ابن خلدون كثيراً من آماد الدول . ثم يقول : عند ما تنشأ الدول ينتقل الناس من البوادى إلى الحواضر ، و يأخذون بعادات أهلها الذين يكونون تغلبوا

عليهم . فلما تغلّب العرب على فارس ، وكانوا يجهلون مآخذ الحضارة ومنازعها ، قيل إنهم وجدوا فى مخازن كسرى أشياء لم يعرفوها ، ووضعوا الكافور في العجين مكان الملح ، ثم تعلموا دقائق المدنية شيئاً فشيئاً من الفرس ، ولكن هذه الخشونة لا يطول فى العادة أمرها ، بل أولئك الذين كانوا من أبناء الصحراء تراهم ينقلبون من الخشونة إلى الترف ، ولا يلبثون أن يتأنقوا فى المأكل والمشرب ، والملبس والمفرش، والمركب واتخاذ الآنية النفيسة ، وامتهاد البسط الوثيرة ، ولأجل إيجاد هذه الأسباب كلها لم يكن لهم بد من أنواع الصناعة ، و إفنان الفنون وكلما تعددت أسباب الترف تعددت الصناعات بقدرها .

قال : و إذا أدرك الهرم دولة من الدول بدأت سلطتها المركزية بالضعف ، وأخذ حكام الاطراف بالتمرد عليها . والخروج عن طاعتها . وقال : إن تأسيس الدول سابق لتأسيس الحواضر ، وذلك لأن بناء المدن يستلزم إيجاد الصنّاع ، والعملة الذين لا مفرّ لهم من أن يفيئوا إلى ظل نظام ثابت . وهنا يتكلم ابن خلدون بكلام طويل على الصناعة والتجارة و يقول : إن تقدّم الصناعة إنما يكون على نسبة استبحار العمران و يقول : إن الصناعات المبنية على الضرورات كالحياطة والحدادة والنجارة الخ تتيسّر فى كل مكان . ولكن الصناعات التى تتعلق بالترف لا توجد إلا فى المدن التى قد زخر عمرانها ، ففيها تجد الصاغة والزجاجين والعطارين والطباخين وما أشبه ذلك . وفى المدن وحدها توجد الحمّامات التى هى من لوازم الترف ورفاهة المعيشة .

قال كارادوفو : إننا لا نقدر أن نتابع ابن خلدون فى جميع آرائه وتعليلاته العلمية للقضايا التى تلقف كرة البحث عنها ، ولكنه على كل حال كان النظر إلى فلسفة هذه المبادىء ملازماً لتحقيقاته ، وفى الغالب كان على أثر سديد وكانت له نظرات صائبة وكثيراً ما يأتى فى مباحثه بالادلة المقانع والشواهد على آرائه ، وقد يستشهد بالكتب التى يستظهر بها و يسمّيها و يذكر أسماء العلماء الذين يتوكأ على أقوالهم . فمقدمة ابن خلدون تشتمل على مباحث قيمة فى السياسة ، والزراعة ، والنجارة ، والنساجة والحياطة ، وفن البناء ، والطب ، والتوليد ، وغيرها ، وكذلك تبحث فى الموسيقى

والوراقة ، والعلوم القرآنية ، والعلوم العددية ، والجبر ، والهندسة ، والفلك ، والكيميا والمنطق ، والنحو ، والبيان ، الخ . فهذا التنقيب الذى نقّبه ابن خلدون عن تاريخ الاختراعات البشرية وأطوارها فى جميع مناحى العمران يجعل عبد الرحمن بن خلدون الكاتب الافريقى الذى عاش فى القرن الرابع عشر نداً لأعظم فلاسفة أوربا الحديثة انتهى ملخصاً .

ولنذكر الآن على وجه الاجمال مَنْ مِن الحكماء سبق ابن خلدون إلى هذه المباحث الاجتماعية ، ولو لم يكن بلغ فيها شأوه فنقول :

إن القسم السياسى من فلسفة أفلاطون يمس جانباً من فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ، وكذلك يمسها من جهة ثانية القسم القضائى الحافظ للمجتمع الانسانى الكافل لانسجامه . وهو يرى أن المدنية العادلة هي « عبارة عن مجموع منتظم مؤلف من عناصر مختلفة » . وفى كتاب أفلاطون عن الحكومة الجمهورية كلام عن بداية الاجتماع البشرى يقول فيه : إن المدنيـة إنما هى وليدة الحاجة ، وهى فى الحقيقة استنباط الوسائل اللازمة الكافلة للقيام بها . وإن هذه الوسائل لا تتهيأ إلا بتوزيع الأعمال . فمتى اجتمع عدة أشخاص كل واحد منهم قادر أن يقوم بعمل يحتاج اليه الآخرون فهذه هى المدنية ، وكلما اختص الواحد منهم بشىء كان عمله له أكثر تجويداً لما يكون سبق من مرانه له . إذ المدنية ليست مجتمع أشخاص متماثلين متساوين فى كل شىء ؛ بل هى بالعكس مجمع أشخاص غير متشابهين ولا سواسية . والوظائف تزداد صعوبة كلما اتسعت رقعة المدنية وازدادت حوائجها . فبجانب الزارع مثلا يأتى المتخصص بعمل السكك الزراعية ، و بجانب أصحاب المحاصيل تأتى الطبقة القائمة بالأخذ والعطاء فى البر والبحر . وهذا إتقان للعمل و إكمال له ، ولكن المبدأ الأصلى واحد . ثم إن هذه المهن تتميز بعضها عن بعض بسمة المجتمع و يصير أصحابها طبقات متفاوتة فطبقة الصناع تشتغل بسد الحاجات المادية ، وطبقة العساكر تشتغل بالدفاع عن المدينة إذا اعتدى عليها جيرانها ، وطبقة الحراس أو الحفظة تهيمن على إجراء القوانين ، فهذه الطبقات الثلاث أى المشتغلون والجند وحفظة القوانين هم أساس كل مدنية .

ويقول أفلاطون : إنه لايجوز استغلال مدنيّة لفائدة شخص واحد ؛ وإن المقصد من بناء المدينة ليس ترفيه فرد أو طبقة ، وإنما هو إسعاد المدينة بأجمعها . فكل فرد من سكانها عليه واجب يقوم به ، فاذا قام به فهذا هو العدل . ومن رأى أفلاطون أن احتياجات المجتمع المنظم يجب أن ينظر فيها إلى طبيعة الخلق إذ مهما كان الثقاف ذا تأثير فان الأصل هو فطرة المخلوق وذلك كحب الكسب عند الصانع ، وعلو الهمة عند الجندى ، والحكمة والروية عند الحاكم .

ولأفلاطون مذهب آخر وهو : إن أقسام هذه الغرائز فى البشر هى تحت تأثير البيئات التى يعيشون بها ، فالعلوم الحسابية التى تدرّج بعض الناس إلى الفلسفة هى عند بعض الشعوب كالمصريين والفينيقيين وغيرهم زيادة فى التحيّل لا فى العلم (كذا) ولا نرى في هذا الرأى إلا تعسفاً .

ويوصى أفلاطون كثيراً باختيار ذوى الغرائز الممتازة كحب الحقيقة ، وسهولة الفهم ، وتغلب العقل على الهوى ، وشرف النفس ، والاقدام ، وحسن الذاكرة الخ .

ومن وصاياه تنظيم أعمال الوطنيين بحيث يقلد كل منهم ما هو أهل له فيجوده ويحصر حركته فى هذا العمل ولا يتجاوزه إلى غيره . وإذا تأمل القارىء فى عقلية أفلاطون الأجتماعية وجدها داخلة فى علم النفس ، وفي علم الاخلاق ، فهو يذكر الاحوال لا على ما تكون عليه فى الغالب ، بل على ما يجب أن تكون عليه .

فالأساس عند أفلاطون هو أدبى محض ، وهو قائم بتطبيق وظائف الاجتماع على القابليات الطبيعية فى البشر حتى يأتى العمل أجود ما يمكن . إلا أن أفلاطون يعتقد بأنه لا بد من اختلال النظام شيئاً فشيئاً وعند ذلك فلا مفر من التردى ؛ ويدخل أفلاطون حينئذ فى شرح كيفية الانحطاط وما ينشأ عن فساد النظام من فساد الاخلاق مما لا يلزم أن نستوفيه هنا ، لأننا لم نقصد إلا إجمالا . وإنما نذكر شيئاً ذا بال من فلسفته الاجتماعية وهو ذهابه إلى أفضل حاجز للمدنية عن التردى، وأحسن وسيلة لانتظام جهود المصالح ، إنما هو تسليم زمام أمورها إلى الحكماء ، وهو على حد ما قال بعضهم : لا تبلغ المدنية السعادة إلا إذا كان الفيلسوف ملكا ، أو الملك فيلسوفاً .

ومن رأى أفلاطون أن كل صفة بشرية قابلة للتغيير بحسب البيئات والطوارىء

و إن السياسة بنوع خاص لا تنضبط تحت قواعد يجب العمل بهـا فى كل زمان ومكان . و يترتب على رأى أفلاطون هـذا أن رجل الدولة يكون أحيـاناً فوق القواعد والاوضاع .

وأما أرسطو فعنده تفسرة المدنية أنها مجمع منازل وعائلات تتوخى فى معيشتها السعادة والاستقلال . وهو يخالف افلاطون فى حصره المدنية بتوزيع الأعمال ومجرد المبادلة ، و يقول : إن الاجتماع لم يكن للحياة المجردة ، بل للحياة المرفهة ، وإن علم السياسة هو العلم الباحث عن الأسباب والشروط الـكافلة للوصول إلى هذه الغاية وهو يأتى بمباحث تاريخية عن كيفية تولد المدن والمدنيّات . ومن رأيه أن الاستقلال الزراعى هو شرط فى صحة الأخلاق ، وأنه كلما استقلت مملـكة عن غيرها فى احتياجاتها المعاشية استقلت فى أمورها السياسية والعكس بالعكس ، وكلما كثر أخذ المملـكة وعطاؤها مع الخارج ضعف استقلالها السياسى وتعرضت للحروب ، وهى حقيقة قد انطبخت حتى احترقت ، وقضية قد ابتقرت حتى انفاقت . فالأمة التى ليس لها استقلال اقتصادى هيهات أن يتم لها استقلال سياسى .

ومما يذهب إليه أرسطو أن الرق أمر طبيعى لا ينبغى التعجب منه ، وأن الطبيعة فى قسمتها البشر إلى طبقتين سادة وأرقاء ليست ظالمة ولا مستبدة . قال أرسطو : وإنه يوجد فى آسيا فى الأقاليم الحارة أقوام ذوو ذكاء وسرعة خاطر ، لـكنهم مجردون من العزم ، لذلك هم مخلوقون ليكونوا أرقاء ! وقال : إن مناخ يونان المعتدل هو المناخ الوحيد الذى يمـكنه أن يولد سلائل جامعة بين الذكاء والعزم ، فاليونانيون أحرار بحسب الفطرة قبل التربية .

ولقد بالغ أرسطو فى ذلك أشد المبالغة ورأى الناس فى رأيه هذا مجرد تسويغ وتصويب لفتوحات صاحبه الاسكندر فى الشرق .

أما اعتدال أمزجة اليونانيين باعتدال اقليم يونان فلا نزاع فيه ، ولهذا كثُر فيهم الحـكماء ، وغلبت عليهم العلوم ، وهذا شبيه بما يقوله ابن خلدون عن تأثير اختلاف الأقاليم وهو :

« الاقاليم الرابع أعدل العمران ، والذى حفافيه من الثالث والخامس أقرب للاعتدال ، والذى يليهما الثاني والسادس بعيدان عن الاعتدال ، والأول والسابع أبعد بكثير . فلهذا كانت العلوم والصنائع والمبانى والملابس والاقوات والفواكه ، بل والحيوانات وجميع مايتكون فى هذه الأقاليم الثلاثة مخصوصة بالاعتدال وسكانها من البشر أعدل أجساماً وألوانا وأخلاقا وأدياناً ، حتى النبوات فانما توجد فى الأكثر فيها . ولما نقف على خبر بعثة فى الأقاليم الباردة الشمالية ولا الجنوبية التى فيها الحر الزائد ، وذلك لأن الأنبياء والرسل إنما يختص بهم أكمل النوع فى خلقهم وخلقهم » اه

هذا وأن أرسطو يرى للأسرة غاية أبعد وأسمى من الغاية الاقتصادية ، وهى أنه لا بد لكل عائلة من رأس ، وأن هذا الرأس هو الرجل الذى يدبر النفوس القاصرة أى نفوس النساء والأولاد . ومعنى النفوس القاصرة ليس أنها نفوس أرقاء ، بل معناه أنها نفوس ضعاف محتاجة إلى المعاونة . ولهذا كانت سلطة رئيس العائلة غير مطلقة على المرأة ، بل كان حكمه عليها حكم الوالى على رعيته ، وفى العائلة متوافرة جميع الشروط اللازمة لتأليف المدنية .

ثم إن أرسطو لا يعد فى الوطنيين الأحرار طبقة الصناع والأكرَةَ ، بل يقول إن أعمال هؤلاء خسيسة وليس عندهم من الوقت متسع لممارسة الفضيلة ، وللاشتغال بسياسة المجتمع . وهذا القول مردود من جهة شقه الأول ، وهو ممارسة الفضيلة التى تكون عند الصناع والزرّاع كما تكون عند غيرهم . ولكنه مقبول من جهة شقه الثانى وهو الاشتغال بسياسة المجتمع ، فان هذه الطبقات قلّما تشتغل بها .

وتعريف أرسطو للديموقراطية هو هذا : إنها توجد حيث يكون الرجالات الأحرار الفقراء هم القابضين على أزمة الأمور ، و إنها حيث توجد توأمين الحرية والمساواة . قال : وعكسها حكم الأصلاء والأغنياء . وقال : إن الفروق الكبيرة فى الثروة تؤدى إلى الحكم المطلق المنحصر فى بعض البيوتات ، وأن الغاية المقصودة من بناء المدنية هى تأمين سعادة السكان وتمكينهم من ممارسة الفضائل ، والتحلّى بمكارم الاخلاق وذلك لايكون إلا بخضوع الجميع للقوانين . وهذه القوانين لا تنفذ جيداً إلا ببعض

شروط اقتصادية لامناص منها مما يعود بترفيه الطبقات الوسطى التى لاتقدر أن تعيش إلا من كسب أيديها . فهى بطبيعة الحال تحافظ على حسن سير القوانين ، ولاتقصد الاجتماعات الشعبية إلاّ عند الضرورة . أما إذا وجد في المجتمع من يستغنى عن العمل ومن يعيش من رأس مال راتب لديه ، فان الديموقراطية تضعف فى مجتمع كهذا وتقوم حينئذ الأصوات والانتخابات مقام القوانين .

ولقد تكلم أبو نصر محمد بن محمد بن نصر الفارابى فى مبادىء العمران أيضا وأجاد وأفاد ونقل كارادوڤو أكثر نظرياته السديدة فى المدنيّة . ولننقل هنا ما ذكره عنه القاضى أبو القاسم صاعد بن أحمد الاندلسى المتوفى بعد زمن الفارابى بقرن واحد قال :

أبو نصر محمد بن محمد بن نصر الفارابى فيلسوف المسلمين بالحقيقة أخذ صناعة المنطق عن يوحنا بن جيلانى المتوفى بمدينة السلام فى أيام المقتدر ، فبذّ جميع أهل الاسلام فيها ، وأربى عليهم فى التحقق بها ، فشرح غامضها ، وكشف سرّها وقرّب تناولها ، وجمع مايحتاج إليه منها فى كتب صحيحة العبارة ، لطيفة الاشارة ، منبهة على ما أغفله الكندى وغيره من صناعة التحليل ، وانحاء التعليم وأوضح القول فيها عن مواد المنطق الخمس ، وأفاد وجود الانتفاع بها ، وعرّف طرق استعمالها ، وكيف تصرف صورة القياس فى كل مادة منها ، فجاءت كتبه فى ذلك الغاية الكافية ، والنهاية الفاضلة . ثم له بعد هذا كتاب شريف فى إحصاء العلوم[1] والتعريف بأغراضها لم يُسبق اليه ، ولا ذهب أحد مذهبه فيه ، ولا يستغنى طلاب العلوم كلها عن الاهتداء به وتقديم النظر فيه . وله كتاب فى أغراض فلسفة أفلاطون وأرسطاطاليس[2] يشهد له بالبراعة فى صناعة الفلسفة ، والتحقق بفنون الحكمة ، وهو أكبر عون على تعلّم طريق النظر ، وتعرف وجه الطلب . اطلع فيه على أسرار العلوم وثمارها علماً علماً ؛ وبيّن كيفية التدرُّج من بعضها إلى بعض شيئاً شيئاً (إلى أن يقول) : ثم له بعد هذا في العلم الالهى والعلم المدنى كتابان لا نظير لهما ، أحدهما المعروف « بالسياسة المدنية » والآخر المعروف « بالسيرة الفاضلة »[3] عرّف فيهما بجمل عظيمة من العلم الالهى

(١) وقد طبع فى مصر حديثا (٢) وهو مطبوع فى مصر أيضا
(٣) وهو مطبوع تحت اسم آراء أهل المدينة الفاضلة

على مذهب ارسطاطاليس فى مبادىء السنة الروحية ، وكيف تؤخذ عنها الجواهر الجسمانية على ما هى عليه من النظام واتصال الحكمة ، وعرّف فيها بمراتب الانسان وقواه النفسانية ، وفرّق بين الوحى والفلسفة ، ووصف أصناف المدن الفاضلة وغير الفاضلة واحتياج المدنية إلى السير الملوكية ، والنواميس النبوية . انتهى . ولكن ليس من هؤلاء واحد لا أفلاطون ولا أرسطو ولا الفارابى يُعَدّ واضعاً لعلم فلسفة التاريخ الذى هو حق ولىّ الدين أبى زيد عبد الرحمن بن خلدون مفخرة المغرب بل مفخرة الاسلام كله .

ولقد كان لمحرر هذه السطور من أول ما بلغت سن الحلم ولوع خاص بمقدمة هذا العبقرى العظيم ، إلى أنى كنت أطالعها المرة بعد المرة ، وفى كل مرة أجد لها طلاوة لاتمثّل وأ كشف فيها أسراراً جديدة لم تكن انكشفت لى فى الأول ، وأشرف منها على آراء طريفة ، ومباحث لطيفة ، كنت أحاول عبثاً العثور عليها فى غير هذه المقدمة التى لا تخلق ديباجتها ولا تذهب بهجتها . وكأنى استبرأت بطول الزمن الكتب العربية المعروفة فكنت أرجع فى النهاية إلى مقدمة ابن خلدون ، ولا أجد أمنيتى إلا فيها ، ولا أزال أستورى زناداً لا يلمع إلا من خلال ذلك الخاطر ، وأستسقى غيثاً لا يمطره غير ذلك العارض ، ولم يكن إعجابى بما فى كلام ابن خلدون من مبادىء سامية ، وأقوال سديدة ، وأنظار فريدة ، يعزّ وجودها فى كتب غيره من أساطين الحكمة ؛ بأقل من إعجابى ببلاغة عبارته ، ورصانة أسلوبه ، وجلالة تقريره ، حتى كأنه يخطب من فوق منبر ، ويصول فى المواضيع صولة غضنفر ، فينزل بيانه من نفوس الأدباء ــ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ــ المنزلة التى لا تعلوها منازل الأقمار ، فى أعين السّمار . فلو قرأ المتأدب مقدمة ابن خلدون متوخياً فيها مجرد الانطباع على أسلوبها فى الانشاء العربى دون أن ينظر إلى ما فيها من فلسفة عالية ، وتحقيقات سنيّة ، وعلوم جمّة ملخصة ، وحقائق ناصعة من أوضاع الوجود مستخلصة ، لكانت مقدمة ابن خلدون تكفيه عمدة فى فن الأدب ، وتغنيه عن غيرها من نفائس ما كتب العرب ، ولعل عشقى أسلوب هذا الامام فى كتابة التاريخ ، وغرامى بطريقته فى تعليل النوازل ، وتقرير طبائع العمران ، قد ترك أثراً فى ملكتى بلغ من العمق أنه

قلما كان يفارقني في طرق التعبير عن أفكاري والافضاء بجلاجل نفسي ، وخواس صدري ، إلى أن إماماً مثل السيد رشيد رضا رحمه الله حكم في المنار منذ خمس عشرة سنة بأن أسلوب كاتب هذه الأسطر كثير الشبّه بأسلوب ابن خلدون . أقول هذا و إن كان المشبّه لا ينبغي أن يعطى جميع حكم المشبه به ، وكان مثلنا لا يجهل مكانه من ذلك المدى المتطاول . ولقد أولعت بهذه المقدمة شاباً وكهلا وشيخاً ، و بقيت أنظر اليها نظرة المشتاق لا تخمد السنون من جذوة غرامي بمحاسنها ، ولكني لم أكن مطالعاً من التاريخ الكبير إلا لمحات يسيره ، ور بما طالعت من كامل ابن الأثير أكثر مما طالعت من تاريخ ابن خلدون بكثير ، فما زال يحز في صدري أن أقرأ هذا التاريخ قراءة مدقق وأعقد آخره بأوله عقد مستوثق ، وعُدَوَاء الأشغال تعدو عن هذه الأمنية ، وتحول بيني و بين هذا الغرض المُلِحّ ، والوجد المبرّح ، إلى أن جاءني في السنة الماضية من فاس المحروسة حاضرة المغرب أن الكتبي النبيه الساعي في نشر العلم بما أوتي من جودة الفهم « الحاج محمد المهدي الحبابي » أخذ الله بيده ، عزم أن يطبع تاريخ ابن خلدون طبعة جديدة رائقة مستوفية شروط التنقيح مطرّزة بالحواشي القيّمة اللائقة بمثل ذلك التاريخ العظيم ، مستجيداً لهذا الغرض من أدباء شباب المغرب فرقدين يقصر الشيوخ القرّح عن مداهما البعيد ، وتكاد فحول العلماء لا تحشر معهما في صعيد ، أعني كلا من المحققين الكاملين ، والجهبذين الحافلين ، السيدين محمد علال الفاسي الفهري ، وعبد العزيز بن ادريس زيّن الله بمثلهما مواسم الأدب وأمطر بغيث أقلامهما مربع العربية اذا جدَب ، فتلقيت من هذا الخبر بشرى أثلجت الصدر ، وصرت أترقب طلوع هذا الفجر بذاهب الصبر ، و بين أنا كذلك إذا بصاحب هذه الفكرة هو نفسه يريدني أن أعلق أنا أيضا على هذا التاريخ حواشي بما يعنّ لي من آراء وأنحاء متصلة بمواضيعه أخالف فيها المؤلف أو أوافقه . وأفارقه في وجهة النظر أو أرافقه ، وأبدي من النظريات العصرية في علم الاجتماع ماتتم به فوائد هذا الكتاب وتتجلى حقائقه .

وقد صادف مجيء هذا الاقتراح أنى كنت من « الحلل السندسية فى الأخبار والآثار الأندلسية » فى شغل شاغل عما سواها أكاد أنوء بها وحدها فضلا عن أن أتعداها فاعتذرت عن خوض هذا البحر العجاج وقلت : من ذا الذى يجرى مع ابن خلدون إذا أقرّ أنمُلَه على مَهْرَق ، وقد خاب من يساجل البحر الخضمّ ، ومن يزحم البحر يغرق . فما زال بى إبرام الاخوان و إصرارهم ، و إيرادهم فى هذه الحاجة و إصدارهم حتى رضيت برغم ما أنا عليه من كثرة الشواغل أن أعلّق بعض الحواشى على بعض المظان ، مجتزئاً من البحث بالمختصر المفيد ، ومكتفيا من القلادة بما أحاط بالجيد ، ولما كان قد ورد فى متن المؤلف ذكر الأمم الكبار ، ومن جملتها أمة الترك علقت تحت هذه اللفظة خلاصة صافية فى نسب هذه الأمة وأولياتها ومصايرها ، ثم لما كان لابد فى هذا النسب من الانتهاء إلى تاريخ بنى عثمان الذين تحملوا أعباء الخلافة الاسلامية ردحاً من الدهر ، دخلت فى هذا البحث وأنا على نية إجماله ما استطعت إلى الاجمال سبيلا ، فاذا بى مهما سلكت الطرق القاصدة لا أقدر أن أتخلص من هذا التاريخ إلا فى مجلّد كبير ، وكيف لا يكون ذلك وهناك دولة طويلة عريضة كانت من أعظم دول الأرض ، وشجت عروقها ، وامتدت شماريخها ، من حدود المغرب الأقصى غربا إلى بحر الخزر شرقا ، ومن أواسط أفريقية جنوبا ، إلى المانيا و بولونيا شمالا ، فكانت أيامها ملأى بالحوادث الكبار ، شاغلة ما بين دفّى الليل والنهار ، فمضيت فيه متوكلا على الله من أول تأسيس هذه الدولة إلى بداية الحرب العالمية متوخياً فى الوصف الحد المتوسط ، متجانفا عن خطتى المفرط والمفرّط ، ولا أظن كتاباً قد وُضع فى العربية عن الدولة العثمانية على غرار هذا الكتاب ، لاسيما فى العصر الحاضر . فأما القسم المتعلق من تاريخ هذه الدولة بالحرب الكبرى فقد أرجأته إلى فرصة أخرى ، ريثما أكون عرفت ما يجب أن أملكه فى هذا الموضوع من المواد ، وأسلكه من الجواد ، والله أسأل العون والتيسير ، إنه تعالى من وراء السداد .

جنيف ٢٦ شعبان المعظم ١٣٥٥ شكيب أرسلان

الصقالبة

تعليق على ما جاء بسطر ١٥ صفحة ١ جزء أول من ابن خلدون

الصقالبة هم الأمة التى يقال لها السلاف ، وهم أمة عظيمة من الأمم التى يقال لها هناك « الڤند » أو « الڤنيد » Wendes ou Wenedes واستقر آخرون على شواطىء البحر الأسود وضفاف الطونة ، ويقال لهؤلاء « يازيج Jazyges » و « باستارن Bastarnes » و « روكسولان Roxolans » وأول من سماهم السلاف « چورناندس » المؤرخ القوطى ، ومعنى السلاف الشرفاء ، وقد انتهى هـذا المعنى بأن يفهم منه الأمم المستعبَدَة ، وانقلب عن معناه الاصلى لجاء من لفظة السلاف « Slaves » لفظة إسكلاف « Esclaves » ومعناها عبد . وأيام زحفة البرابرة الكبرى على الدولة الرومانية كان السلاف ينقسمون إلى سلاف غربيين وهم التشيك الذين سكنوا بوهيميا ، والبوليز الذين سكنوا بولونيا ، والليتون أهل ليتوانيا ، والموراڤ أهل موراڤيا ، والسوراب أهل بوميرانيا وبراندبورج ، والسلاف الشماليون : وهم الذين منهم الشعب الروسى ، والسلاف الجنوبيون : وهم الذين عبروا الطونة وسكنوا على شطوط بحر الأدرياتيك ، وهم البشناق ، والصرب ، والحزوات ، والاسكلاڤون.

وأول ما عرف العرب هـذه اللفظة كان بسبب مجاورتهم للدولة البيزنطية وكانت كثيراً ما تمد سلطانها على السلاف الجنوبيين ، ولما كان العرب لا يوجد عندهم حرف الڤاء الفارسية ، وكانوا يقابلونها باء ، فلفظوا الاسكلاڤون أصقلابون ومنها جاءت لفظة صقلبى وصقالبة . ولما كانوا فى القرون الوسطى يسترقون منهم فقد صار الصقلبى بمعنى رقيق كما هو فى اللغات الافرنجية . وقد جاء فى اللسان العربى أن الصقلاب هو الرجل الأبيض ، وقيل هو الرجل الأحمر ، وأنه قيل له صقلاب على التشبيه بألوان الصقالبة كما فى معجم البلدان ، وقال المتنبى فى وصف حرب بين سيف الدولة وملك الروم :

يجمع الروم والصقالب والبلـــــغار فيها وتجمع الآجالا

فمن هنا يعلم أن الصقالبة والبلغار مثل اليونان كانوا يخضعون لملك الروم ، وأن العرب القدماء لم يكونوا يقولون «سلاف» بل صقالبة للجميع ، سموا الجميع باسم البعض الذين كانوا على شطوط الادرياتيك ، والآن الصقالبة هم الروس ، والاوكرانيون والروتينيون ، والروس البيض ، ويقال لهم صقالبة الشرق . وقسم من البلغار ، وجميع الصرب ، والحزوات ، والبوشناق ، والسلوڤين ، ويقال لهم صقالبة الجنوب والبولونيون ، والڤنيد ، والسلوڤاك ، والتشيك ويقال لهم صقالبة الغرب ، وأكثر الصقالبة تابعون للكنيسة الشرقية ، ماعدا البولونيين والتشيك والسلوڤين والحزوات فانهم كاثوليكيون ، ومن الصقالبة مسلمون وهم البشناق .

إغريقية هى ما يسميه الاوروبيون « إغريق » والافرنسيس يقولون «غريس» والألمان يقولون « غريش » . وهى تطلق على البلاد الممتدة من شبه جزيرة البلقان إلى الجنوب بين بحرى إيجه والادرياتيك ، فهى شبه جزيرة صغيرة ناتئة عن شبه جزيرة كبيرة . والقسم الشمالى منها يقال له تساليا والقسم الجنوبى يقال له بيلوپونيز . ومن جملة أقسامها البلاد المسماة إپير ، وبيوسية ، وايونية ، وأتيكيا ، على جانب البحر . ولمجاورة أيونية والاتيك للبحر كانتا أول البلاد اليونانية التى تلقت المدنية من الشرق فان الشرق هو أصل مدنية اليونان ، ومن لفظة يونية جاءت لفظة يونان التى عمت الجميع فيما بعد فى عرف العرب .

ويقال لليونان الهيلانيون أيضاً ، ولا يوجد أعرق فى الظلمة من تاريخ أوائل اليونان ، إلا أن المؤرخين بحسب ما عثروا عليه من الآثار يؤكدون أن اليونانيين هم من أصل آرى ، وأول اسم عرف من أسماء الأولين من سكان هذه البلاد هو اسم البيلاجيين « Pélasges » ثم عرفت أسماء الليليجيين « Leléges » والكاريين « Cariens » ثم « الآشيين Acheens ثم « الدُوريين Doriens » .

الأنساب

تعليق على ما جاء بسطر ٧ صفحة ٢ جزء أول من ابن خلدون

إن علم الأنساب هو العلم الذى يبحث فى تناسل القبائل والبطون من الشعوب وتسلسل الأبناء من الآباء والجدود ، وتفرع الغصون من الأصول فى الشجرة البشرية بحيث يعرف الخلف عن أى سلف انحدر ، والفرع عن أى أصل صدر ، وفى هذا العلم من الفوائد النظرية والعملية ، بل من الضرورات الشرعية والاجتماعية والأدبية والمادية ، مالا يحصى . فليس علم الأنساب بطراز مجالس يتعلمه الناس لمجرد الاستطراف أو للدلالة على سعة العلم ، وإنما هو علم نظرى عملى معاً . عملى لأنه ضرورى لأجل إثبات المواريث التى يتوقف توفيرها لأهلها على ثبوت درجة قرابة الوارث من المورث ، وهذا لا يكون إلا بمعرفة النسب .

وكذلك هو ضرورى لأجل الدول الراقية المهذبة التى تريد أن تعرف أصول الشعوب التى اشتملت عليها ممالكها ، والخصائص التى عرف بها كل من هذه الشعوب بما يكون أعون لها على تهذيبها وحسن إدارتها ، فكما أن العالم المتمدن يعني بتدريس جغرافية البلدان من جهة أسماء البلاد ومواقعها وحاصلاتها وعدد سكانها ومقدار جباياتها ، فانه يجب أن يعنى بمعرفة أنساب أولئك السكان وطبائعهم وعاداتهم وميزة كل جماعة منهم ، وغير ذلك من المعارف التى لايجوز أن تخلو منها هيئة بشرية راقية ، ولما كان من الحقائق العلمية الثابتة المقررة عند الأطباء والحكماء ، كما هى مقررة عند الأدباء والشعراء ، أن الأخلاق والميول والنزعات المختلفة تتوارث كما تتوارث الأمراض والأعراض الصحية ، والدماء الجارية فى العروق ، فقد كان لابد من معرفة الأنساب حتى يسعى كل فريق فى إصلاح نوعه بطريق الترقية والتهذيب ضمن دائرته الدموية بحسب استعدادها الفطري ، لأن الاجتهاد فى تنمية القرائح الطبيعية

والمواهب اللدنية لا يمكن أن يثمر ثمره فى قبيل إذا جاء مما كساً لاستعداده الفطرى وهذه الاستعدادات أحسن دليل عليها هو علم الأنساب .

وليس هذا العلم منحصراً فى العرب – كما يتوهم بعضهم ويظنون أن سائر الأمم قليلة الاحتفال به – فان الأمة الصينية الكبرى هى أشد الأمم قياماً على حفظ الأنساب ، حتى أنهم ليكتبون أسماء الآباء والجدود فى هيا كلهم ، فيعرف الانسان أصوله إلى ألف سنة فأكثر . وقد تناهوا فى الاعتناء بهذا الأمر إلى أن قدسوا آباءهم وجدودهم ، وعبدوهم كما يعبدون آلهتهم . وكذلك الافرنج كانت لهم عناية تامة بالأنساب فى القرون الوسطى والأخيرة ، وكانت فى دولهم دوائر خاصة لأجل تقييدها وضبطها ، ووصل آخرها بأولها ، وقد بقى ذلك معمولا به إلى أن ساد الحكم الديموقراطى فى أوروبا فضعف عندهم الاعتناء بهذا الأمر بالغاء الامتيازات التى كان يتمتع بها النبلاء ، وكانوا يدققون فى الأنساب من أجلها ، و بقى الاهتمام بالأنساب من الجهة العلمية لا العملية .

فأما العرب فلا شك فى أنهم فى مقدمة الأمم التى تحفظ أنسابها ، وتتجنب التخليط بينها ، فلا تجعل الأصيل هجيناً ، ولا الهجين أصيلا ، ولا تحتقر قضية الكفاءة فى الزواج ، بل تعض عليها بالنواجذ . ولا يقيم العربى وزناً لشىء بقدر مايقيم للنسب لاسيما فى البوادى التى اقتضت طبيعة استقلال بعضها عن بعض ، وتنافسها الدائم فيما بينها ؛ أن كل قبيلة فيها تعرف نفسها ، وتحصى أفرادها ، وتحفظ بطونها وأفخاذها حتى تكون يداً واحدة فى وجه من يعاديها من سائر القبائل . فاقتضى ذلك أن يكون العرب علماء بأنسابهم ، يحفظون سلاسلهم العائلية بصورة مدهشة لاتجدها عند غيرهم ، فتجد البدوى أحياناً يجهل أقرب الأمور إليه ، ولكنه إذا سألته عن أبيه وجده ومنتسبه فانه يسرد لك عشرين اسما ولا يتتعتع .

وأما فى الحواضر فليس الأمر بهذه الدرجة من الضبط ، وذلك لعدم الاحتياج الذى عليه البوادى من هذه الجهة ، فإن الحواضر مشغولة بصناعاتها ومهنها ومتاجرها ومكفولة بالسلطان الذى يغنيها عن تماسك الفصيلة أو القبيلة ، وعن اعتناء كل فريق

بجمع أفراده ليقف فى وجه عدوه . وكلما استبحر العمران فى مصر من الأمصار قل الاعتناء بالأنساب ، وصار الناس ينسبون إلى حرفهم ومهنهم ، أو إلى البلاد التى جاءوا منها . وكلما قرب المجتمع من حال البداوة اشتدت العناية بالأنساب ، واستفحلت العصبيات التى هى من طبيعة الاعتناء بالنسب . وقولنا إن البوادى أشد من الحواضر عناية بهذا الأمر لا يعنى أن الحواضر العربية لاتقيم للأنساب وزنا ، فالعرب غالب عليهم الاحتفال بالنسب حاضرهم و باديهم ، وأبناء البيوتات منهم ، ولو كانوا فى أشد الحواضر استبحار عمارة يحفظون أنسابهمو يقيدونهافى السجلات ، وكثيراً مايصدقونها لدى القضاة بشهادات العلماء الأعلاموالعدول ، و يسجلونها فى المحاكم الشرعية . و إذا كانوا من آل البيت النبوى — وهو أشرف الأنساب بالنظر إلى اتصالهم بفاطمة الزهراء التى هى بضعة الرسول عليه السلام ، وهو أشرف الخلق — حرروا أنسابهم لدى نقباء الأشراف ، وكتبوا به الكتب المؤلفة ، وهذا أمر بديهى لانزاع فيه ، لأن هذا الشرف هو مما يتنافس به ، ومما يستجلب لصاحبه مزايا معنوية ، وأحيانا منافع مادية ، فلا يريد منتسب إلى هذا البيت الشريف أن يفقد الدليل على نسبته هذه .

ولئن كان البيت النبوى هو أشرف الأنساب بالسبب الذى تقدم الكلام عليه فليس سائر بيوتات العرب من ذرارى الملوك والأمراء ، والأئمة والعلماء والاولياء بأقل حرصا على حفظ أنسابهم من آل البيت الفاطمى . وجميع قريش مثلا سواء كانوا من الطالبيين أو من غيرهم يفتخرون بنسبهم القرشى ، وكذلك ذرارىّ الأنصار من الأوس والخزرج يفتخرون بأنسابهم القحطانية ، وكذلك سلائل الملوك من لخم وغسان ، وأمثالهم من العرب القحطانية ليسوا بأقل حرصاً على حفظ أنسابهم من تلك البطون العدنانية الشريفة . والعرب بالاجمال سائرون فى النسب على مقتضى قوله تعالى (كل حزب بما لديهم فرحون) فكل قبيلة راضية بنسبها ، تحفظ مآثر قومها ، وتعتز بالاعتزاء إلى سلفها ، مع أن القبيلة الثانية التى تنافسها تحفظ لها عورات ومعرات تعيّرها بها عند المفاخرة والمنافرة .

ولشدة اعتنائهم بالأنساب تجد انتصار بعضهم لبعض على نسبة درجة القرابة

فكلما كانت القبيلة أقرب إلى القبيلة كانت أولى بنصرها ، لايتخلف ذلك فيهم إلا لعوامل غير معتادة . ومهما اشتدت العداوة بين أبناء فخذ واحد فانهم يجتمعون بطناً واحداً على بطن آخر يناوئهم من قبيلتهم ، وكذلك تجتمع البطون المنتسبة إلى عمارة لمقاومة عمارة أخرى ، وهلم جرا . ولا بد أن ينزع عرق النسب فى العربى فيميل به إلى الأقرب مهما كان هذا الأقرب بعيداً في الحقيقة ؛ فالقحطانى ينتسب إلى شعب طويل عريض يحصى بالملايين ، والعدنانى ينتسب إلى شعب لايقل عنه فى العدد والمدد ، ولكن إذا اختصما فى موقف من المواقف وجدت عرق العصبية نزع فى كل عربى ، فمال القحطانى إلى قبائل اليمن ، ومال العدنانى إلى قبائل الحجاز ونجد ، أى مضر وربيعة . وقد يؤاخى الفريق منهم من كان يعاديه بغضاً بفريق آخر أشد عداوة لأنه أبعد نسبا ، وعليه قول شاعرهم :

وذوى ضِبابٍ مضمرين عداوة قرحى القلوب معاودى الأفناد
ناسيتهم بغضاءهم وتركتهم وهمو إذا ذكر الصديق أعادى
كيما أعدّهمو لأبعدَ منهم ولقد يُجاء إلى ذوى الأحقاد

ومن أجل هذا التدقيق فى قرب النسب و بعده ، وترتيب الصداقة والعداوة على درجات هذا القرب وهذا البعد ؛ انقسم العرب إلى ذينك الشعبين الكبيرين عدنان ، وقحطان ، وغلب على قحطان اسم اليمن ، لأن أكثر منازل العرب القحطانية هي فى اليمن ، ومن وُجد منهم خارجا عن اليمن كالأوس والخزرج فى المدينة ، وكطىّ وغيرها فى نجد مثلا ؛ فانما خرجوا بعد أن انهدم سدّ مأرب ، وتفرقت القبائل فى البلدان .

وأشهر القحطانيين حِمْيَر ، ومنهم قضاعة ، ومن قضاعة بِلى ، ومنهم الآن في شمالى الحجاز ، وجهينة ، ومنهم على سواحل الحجاز يبلغون ١٠٠ الف نسمة ، وكلب وهم فى بادية الشام ، و يقال لهم اليوم الشرارات ، وعُذرة المشهورون بالعشق ، ولهم بقايا بمصر و بقايا بالشام ، و بهراء ومنهم مابين بلاد الحبشة وصعيد مصر ، ونهد ، وجرم ، وتنوخ وهؤلاء كانوا فى شمالى بلاد الشام .

ومن القحطانية كهلان ، ومنهم الأزد ، ومن الأزد غسّان وكانوا بالشام ، وكان منهم نصارى ، ولذلك تجد كثيرين من نصارى سورية ينتسبون إلى غسّان ـ أو يحبون أن ينتسبوا إلى غسان ـ ومنهم الأوس والخزرج فى المدينة المنوّرة ، وقد تفرقوا فى البلاد ولا يكاد يوجد منهم أحد فى المدينة فى هذه الأيام . ومن كهلان طيء وهم من أكبر القبائل ،و يقال لهم اليوم شمّر . و بطون طيء كثيرة منها ثُعَل ، وجَدِيلة، ونَبْهان و بولان ، وهِناء ، وسدوس ، وسلامان ، و بحتر الذين منهم البحترى الشاعر ، وزُبَيْد بضم أوله ففتح فسكون ، وكثير من قبائل الشام هى من زبيد ، وسُنبس ، وجَرم ومنهم فى بلاد غزة ومصر . وثعلبة ، ومنهم كثير فى الديار المصرية . وغزيّة ، ومنهم بطون فى العراق وفي الشام والحجاز . و بنو لام ، وهم بالعراق ومنهم الظفير

ومن كهلان مُذْحِج ، ومن هؤلاء خولان ، وجنب ، وسعد العشيرة ، ومن سعد العشيرة بنو جُعفى بضم فسكون والنسبة إليهم جعفى على مثل لفظه ، وكان المتنبّى الشاعر جعفياً . ومن سعد العشيرة قبيلة يقال لها أيضاً زُبيد بضم ففتح فسكون وهم زبيد الحجاز الذين ينتسب إليهم عمرو بن معد يكرب . ومن كهلان النخع ، ومنهم الأشتر النخعى عامل الامام على رضى الله عنه على مصر . ومنهم عنس ، الذين منهم عمار بن ياسر رضى الله عنه . ومنهم الأسود العنسى الكذاب . ومنهم بنو الحارث الذين يسكنون فى الجنوب الشرقى من الطائف ، ومن كهلان همدان ولا يزال منهم فى اليمن جموع غفيرة ، فضلا عمن تفرقوا فى البلاد . ومنهم الهمدانى صاحب كتاب «الاكليل» وكتاب «صفة جزيرة العرب» ومن كهلان كِندة ، وكان لهم ملك ومنهم امرؤ القيس الكندى الشاعر ، وأبو إسحق يعقوب الكندى فيلسوف العرب . وهم متفرقون فى البلاد فمنهم أناس فى اليمن ، وآخرون فى الشام ، ومنهم قوم يقال لهم السكون وآخرون يقال لهم السّكاسك ، جاء فى صبح الأعشى : أن النسبة إلى السّكاسك سكسكى ، رداً له إلى أصله ، وهذا صحيح . وقبلى صيدا فى سواحل سورية مكان يقال له السكسكية .

ومن كهلان مراد الذين منهم قاتل سيدنا على بن أبى طالب . وأنمار ، ومن أنمار تتفرع بطون كثيرة مثل بجيلة ، وخَثْعَم ، وهم متفرقون فى البلاد . ومن كهلان

جذام ، وقيل إنهم من العدنانية ، ولكنهم انتقلوا إلى اليمن . وكثير من أعقاب جذام فى الديار المصرية فى الصعيد ، وفى الشرقية ، والدقهلية ، ومنهم بنو صخر فى الشام ، ومن كهلان لخم ، وكان منهم ملوك الحيرة من بلاد العراق ، وكان منهم بنو عباد ملوك اشبيلية . ومن لخم أمراء لبنان الأرسلانيّون ، والتنوخيون ، وهؤلاء على الأصح ليسو من التنوخيين سكان شمالى سورية ، بل هم ينتسبون إلى جد يقال له تنوخ من سلالة اللخميين ملوك الحيرة . ومن لخم بطون كثيرة فى الديار المصرية ومن لخم بنو الدار رهط تميم الدارى الصحابى ، وذريته فى خليل الرحمن بفلسطين ومن كهلان الأشعريون رهط أبى موسى الأشعرى الصحابى . وعاملة ، ومن عاملة أهالى جبل عاملة بالشام بين صور وصيدا ، وهم شيعة الشام . إلا أن رؤساءهم بنى على الصغير ينتمون إلى وائل كما علمت منهم .

وأما العدنانية فهم بنو اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام ، وتواريخ العرب تتفق على أن هؤلاء يقال لهم العرب المستعربة ، وأن القحطانية هم العرب العاربة ، ولكن فى مسألة القحطانية يوجد خلاف ؛ لأن بعضهم زعم أن العرب العاربة ليسوا قحطان ولكن الذين قبلهم ممن يقال لهم العرب البائدة ؛ عاد وثمود وعمليق وطسم الخ . والرأى الذى عليه الجمهور أن العرب العاربة هم القحطانية ، وأن العرب المستعربة هم العدنانية ، وهؤلاء العدنانية هم سلالة اسماعيل بن إبراهيم تعلموا العربية من جُرهُم الذين هم من القحطانية ، جاء إلى مكة وأقام بها واختلطوا بذرية اسماعيل .

والعدنانية هم نِزار بن معد بن عدنان . ومنهم إياد الذين ينسب إليهم قس بن ساعدة ، ومنهم بنو أنمار بن نزار ، ومنهم ربيعة ويعرف بربيعة الفرس ، ومن ربيعة أسد وضبيعة وديارهم بالجزيرة الفراتية تعرف بديار ربيعة ، وفى نجد كثير من ربيعة الفرس ، وأسد أكثرهم أفخاذاً . ومن أسد بنو عنزة ، وكانت منازلهم خيبر من ضواحى المدينة . ثم رحل قسم كبير منهم إلى بادية الشام ، وهم أكثر عرب هذه البادية . فمنهم الرولة ، وولد على ، والمُعْجل ، والحسنة ، ويقال لهؤلاء ضَنَى مسلم ثم السبعة ، والفدعان ، ويقال لهم ضنى عبيد . وآل سعود الذين منهم ملك الحجاز

ونجد عبد العزيز بن سعود فى هذا العصر ليسوا من عنزة ، ولكنهم مجتمعون مع عنزة فى ربيعة . ومن ربيعة جديلة ، وكانت ديارهم بتهامة . ثم خرجوا إلى البحرين ومنهم فريق فى الجزيرة الفراتية ، ومن جديلة بنو وائل ، ولوائل بكر وتَغْلِب ، ومن تغلب بن وائل كليب الذى قتله جسّاس واشتعلت لأجله الحرب المعروفة بالبسوس .

وكان الحمدانيون ملوك حلب قديماً من تغلب ، وكان من تغلب نصارى كما كان من غسان ، ولما ظهر الاسلام أسلم منهم أناس ، وبقى الآخرون متمسكين بنصرانيتهم وأبوا أن يدفعوا الجزية كسائر النصارى بحجة أنهم عرب ، وأصرّ سيدنا عمر على أخذها منهم ، وكان سيدنا على فكّر فى منعهم من تنصير أولادهم وذلك حتى ينشأ أحداثهم فى الاسلام . ولهم حكم خاص فى الفقه الاسلامى ، واختلفت فى شأنهم الأقوال ، وجاء فى فتوح البلدان للبلاذرى عن ابن عباس قال : لاتؤكل ذبائح نصارى بنى تغلب ، ولا تنكح نساؤهم ، ليسوا منا ولا من أهل الكتاب وتظاهرت الروايات على أنه لما أراد عمر أخذ الجزية منهم لحقوا بأرض الروم ، فقال زرعة بن النعمان لعمر : أنشدك الله فى بنى تغلب فانهم قوم من العرب يأنفون من الجزية ، وهم قوم شديدة نكايتهم . فأرسل عمر فى طلبهم فردّهم ، وأضعف عليهم الصدقة . وكتب عمير بن سعد إلى عمر يسأله رأيه فيهم لانهم هموا باللحاق بمملكة الروم ، فكتب إليه عمر رضى الله عنه يأمره أن يضعف عليهم الصدقة التى تؤخذ من المسلمين فى كل سائمة وأرض ، وإن أبوا ذلك حاربهم حتى يبيدهم أو يسلموا ، فقبلوا أن يؤخذ منهم ضعف الصدقة ، وقالوا « أما إذا لم تكن جزية كجزية الأعلاج فانا نرضى ونحفظ ديننا » .

وقال الزهرى : « ليس فى مواشى أهل الكتاب صدقة إلاّ نصارى العرب الذين عامة أموالهم المواشى ، فان عليهم ضعف ما على المسلمين . وكان عثمان رضى الله عنه أمر أن لايقبل من بنى تغلب فى الجزية إلا الذهب والفضة ، فجاءه الثبت أنّ عمراً أخذ منهم ضعف الصدقة فرجع عن ذلك ، واتفقوا على أن سبيل ما يؤخذ من أموال

بنى تغلب سبيل مال الخراج ، لأنه بدل من الجزية . و بالاختصار أبت بهم عرو بتهم أن يؤدوا كنصارى الأعاجم ، وأبى الخلفاء الراشدون أن يعاملوهم معاملة المسلمين فوجدوا لذلك طريقاً وسطاً .

ومن بنى تغلب الأخطل التغلبى الشاعر النصرانى المشهور وهم كثيرون فى نجد .

وأما بكر بن وائل فنهم شيبان ، ومنهم بَنُو حَنيفة رهط مسيلمة الكذّاب وأكثر سكان الرياض عاصمة نجداليوم من بنى حنيفة ، ومن بكر بنو عجل بن لُجيم

وأما القسم الثانى من العدنانية فهم سلالة مضر بن نزار ، و يقال مضر الحمراء ولذلك تجتمع عدنان كلها فى ربيعة ومضر .

ولمضر فرع جمع عدة قبائل وهو قيس ؛ و يقال له قيس بن عيلان بن مضر وقيل هو قيس بن مضر لصلبه وعيلان مضاف إليه ، قيل فرسه وقيل كلبه . ولكثرة بطون قيس غلب على سائر العدنانية ، حتى صار فى مقابل اليمن كلها ، فصاروا يقولون قيس و يمن ، وفى جميع الديار الشامية انقسم العرب إلى قيس و يمن ، وكانت حروب القيسية واليمنية فى لبنان متصلة وانتهت بواقعة عين دارة منذ ٢٢٥ سنة . وأما فى فلسطين فلا تزال هذه القسمة موجودة . وأما فى الأندلس فكانوا يقولون المضرية واليمنية ، ومن أشهر قبائل قيس هوازن ، وهم بنو هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان ، ويقال لهوازن اليوم عتيبة . وهم من أكبر قبائل العرب منهم أناس فى الحجاز و آخرون فى نجد . وينقسمون اليوم إلى فرعين؛ الروقة ، والبرقة و بعضهم يرى أن أحد الفريقين وهو البرقة من عامر بن صعصعة . ومن هوازن بنو سعد الذين كان النبىصلى الله عليه وسلم رضيعا فيهم . و يقال لهم بنو سعد بن بكر ذكر صاحب صبح الأعشى أن منهم فرقة بنواحى باجة من المغرب . ومن هوازن بنو عامر بن صعصعة . ومنهم بنو كلاب ، وكان لهم فى الاسلام دولة باليمامة ، ثم انتقلوا إلى الشام وملكوا حلب مدة من الزمن . ومن بنى عامر بن صعصعة بنو هلال وهم أشهر قبائل العرب . وكانوا فى الحجاز ونجد . وقد انتقلوا إلى المغرب فملأوه . ثم إن قبيلة حرب الكبيرة فى الحجاز من بنى هلال ، وهم بطون ثلاثة ؛ بنو مسروح

وبنو سالم ، وبنو عبيد الله . هكذا فى صبح الأعشى . وأما في كتاب « الارتسامات اللطاف فى خاطر الحاج إلى أقدس مطاف » فقد جاء فى الصفحة ٣٧٢ ذكر قبائل الحجاز النازلة بين الحرمين ، وقد كنت نقلتها عن سجلات الحكومة فى المدينة المنوّرة فهنالك أقول : « أهم هذه القبائل حرب ؛ وهم بنوحرب بن هلال بن عامر بن صعصعة من العرب العدنانية . وحرب خلف أربعة أولاد : سالم ، ومسروح ، وعبد الله وعمرو . فمسروح أكثرهم ولداً ، وقد دخلت بطون بنى عبد الله و بنو عمرو فى مسروح » أما صبح الأعشى فيقول نقلا عن الحمدانى أنهم ثلاثة بطون ؛ بنو مسروح و بنو سالم ، و بنو عبيد الله . وقال : إن من حرب زبيد الحجاز ، وذكر أن منهم بنى عمرو . ومنازل مسروح من مكة إلى المدينة المنوّرة وعددهم يزيد على ستين ألف نسمة . وأما بنوسالم من حرب فمنازلهم من مكة إلى المدينة إلى وادى الصفر إلى الحديدة إلى ينبع البحر ، وهم يزيدون على خمسين ألفا . فحرب إذا اجتمعت تزيد على مائة ألف نسمة ، وكان شيخ مشايخ حرب خلف بن حذيفة الأحمدى ، وكان ناصر بن نصار الظاهر ، ومنصور الظاهرى ، من مشايخ المراوحة من بنى سالم من حرب . و بنو مزينة الذين بأطراف المدينة والذين منهم زهير بن أبى سلمى المُزَنى صاحب المعلقة ؛ داخلون الآن فى بنى سالم من حرب . والحال أن مزينة في الأصل هم بنو عثمان وأوس ابنى عمرو ابن أد بن طابخة ، واسمه عمرو بن الياس بن مضر على ما فى صبح الأعشى . وكان شيخهم حجاب بن نحيت معدوداً من مشايخ المراوحة من بنى سالم إلى آخر ما ذكرناه من أسماء شيوخ حرب فى العصر الأخير .

وأخبرنى العلامة النسابة الشيخ عبد الله بن بليهد قاضى قضاة المملكة السعودية أن ما ذكرته عن قبائل الحجاز هو أصح ما اطلع عليه فى هذا الباب . ومن بنى عامر ابن صعصعة أيضاً بنو عقيل ، وكانت مساكنهم بالبحرين ، وكانوا أعظم القبائل هناك واجتمعوا هم و بنى تغلب على بنى سليم بن منصور فأخرجوهم من البحرين ، ثم تغلب بنو تغلب على بنى عقيل فأخرجوهم إلى العراق ، ثم عادوا إلى البحرين وتغلبوا على بنى تميم . ومن بنى عقيل بنو عبادة ، و بنو خفاجة فى العراق ومنهم المنتفق .

ثم من بطون هوازن بنو جشم؛ كانت مساكنهم بالسروات بين تهامة ونجد ، ومن بطون هوازن ثقيف ، و يقال للطائف سوق ثقيف ، لأنهم سكانها ومحيطون بها من كل جهة . وفى كتابنا « الارتسامات اللطاف » استوفينا الكلام على ثقيف .

ومن قبائل قيس باهلة ، و بنو مازن ، و بنو غطفان ، ومن غطفان بنو عبس جماعة عنترة الشاعر الفارس المشهور ، ومنهم أشجع ، ذكر صاحب صبح الأعشى أن منهم حياً عظيما بسجلماسة فى المغرب . ومن غطفان ذبيان ، ومنهم النابغة الذبيانى ، ومن ذبيان فزارة ومنهم بنو صبيح فى برقة ومن هؤلاء رواحة وهيب بأرض برقة إلى طرابلس الغرب و بأفريقية والمغرب ، ومنهم جماعة بالديار المصرية .

ومن قبائل قيس بنو سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان وكانوا فى عالية نجد بالقرب من خيبر ، وفى وادى القرى وتيماء ، ولكن أكثرهم رحلوا إلى مصر ، ثم إلى برقة ، وأكثر عرب برقة منهم . ومن شاء أن يتوسع فى معرفة قبائل برقة فعليه بحواشينا على « حاضر العالم الاسلامى » فانه يجد فى الفصل المتعلق بطرابلس الغرب من صفحة ٦٤ من المجلد الثانى إلى صفحة ١٦٥ كل ما يلزم من المعلومات عن ذلك القطر ، ولا سيما عن القبائل بأسمائها القديمة والجديدة مما يطول بنا استيفاؤه هنا . ونحن إنما ذكرنا هنا مجمل أنساب العرب على سبيل التمثيل .

ومن قبائل قيس بنو عدوان وكانوا بالطائف ، ثم غلبهم عليها ثقيف فخرجوا إلى تهامة ، و بأفريقية منهم أحياء بادية ، وفى شرقى الأردن اليوم عرب العدوان ، وهم رؤساء البدو فى تلك الناحية ، ولا يعلم هل هم من عدوان هؤلاء ، أم هو اتفاق فى الاسم

ومن مُضَر الياس ، وكانت تحته خِنْدِف بكسر الخاء وسكون النون و كسر الدال وهى بنت حلوان بن عمران بن الحافى بن قضاعة ، عرف بنوه بها فقيل لهم خِنْدِف وغلب على سائر قيس قال الشاعر ــ وقد أهانه العدنانية فى أسوان وأعزّه القحطانية فى اليمن :

إذا تمّ لى فى أرض مأرب مأربى فلست على أسوانَ يوماً بأسوانِ
إذا جهلت قدرى زَعَانفُ خِنْدِف فقد عرفت فضلى غطارف همدانِ

ومن الياس طابخة ، ومن طابخة هذه تميم وهى من أكبر القبائل . ومن بطون تميم بنو العنبر ، و بنو حنظلة ، ومن قبائل طابخة بنو ضبة الذين منهم ضبَّة الذى هجاه المتنبى وقتل بسبب هجوه إياه . ومن بنى تميم قبائل فى نجد منهم الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله الذى ينتسب اليه أهل نجد ، فيقال لهم الوهابية . وهم يقولون لأنفسهم السلفية إشارة إلى أنهم على عقيدة السلف الصالح . ومنهم أناس فى الدرعيّة ومنهم كثير من سكان القصيم ، ومنهم فريق فى جوار حائل مثل أهل قفار والسميرة ، وقرى أخرى . ومن قبائل طابخة مزينة الذين منهم زهير بن أبى سلمى ولكنهم دخلوا فى حرب كما تقدم الكلام عليه . ومن هؤلاء الامام المزنى صاحب الامام الشافعى . ومن الياس بن مضر بنو قمعة ، ثم بنو مدركة ؛ ومن مدركة هذيل ومساكنهم جبال الطائف العليا ، وقد ذكرت ذلك في « الارتسامات اللطاف » وهم مجاورون لثقيف . ولمدركة خزيمة وله فرعان الهُون وأَسد . ومن بطون أسد الكاهلية وهم بنو كاهل بن أسد ومن خزيمة كنانة وهم قبيلة شهيرة ذات فروع منها ملكان ، وعبد مناة ، وغفار رهط أبى ذر الغفارى . و بكر بن عبد مناة ، ومن بكر الدُّؤَل الذين منهم أبو الأسود الدؤلى . والليث ، و بنى الحارث ، و بنو مدلج و بنو ضمرة . وجميعهم متفرقون فى بلاد العرب .

ومن كنانة عمرو ، وعامر ، ومالك . ومن مالك هؤلاء بنو فراس بن غنم الذين اشتهروا باعجاب سيدنا على بفروسيتهم : (لو أنَّ لى بالفٍ منكم سبعةً من بنى فراس ابن غنم) ومن العرب العدنانية قريش ، وهم فهر بن مالك ، ومنهم بنو الحارث بن فهر ، ومن هؤلاء أبو عبيدة بن الجراح أحد العشرة المقطوع لهم بالجنة رضى الله عنه وبنو محارب بن فهر ، ومنهم الضحاك بن قيس أحد الأصحاب . و بنو الجد الذين كانوا فى الأندلس ، ثم صاروا إلى فاس . ومنهم الأمراء والرؤساء والعلماء هم من بنى فهر . ومن قريش بنو غالب بن فهر ، ومنهم بنو لؤى بن غالب ، ومن هؤلاء بنو سعد و بنو خزيمة ، و بنو عامر بن لؤى ، و بنو كعب بن لؤى . ومن بنى كعب بن لؤى هُصَيص ، ومن هؤلاء بنو سهم رهط عمرو بن العاص رضى الله عنه . ومنهم بنو جمح

ومن كعب بن لؤى بن غالب بنو عدىّ ، ومنهم سيدنا عمر بن الخطاب ، وسعيد بن زيد رضى الله عنهما .

ومن قريش مُرّة بن كعب ، ومن بنى مرة بن كعب تيم ، ومن هؤلاء سيدنا أبو بكر الصديق ، وطلحة رضى الله عنهما . ومن مرّة بن كعب بنو يقظة ، و بنو مخزوم . ومن بنى مخزوم سيدنا خالد بن الوليد رضى الله عنه ، ومنهم سعيد بن المسيب التابعى المشهور .

ومن قريش كلاب بن مرّة ، ومنهم بنو زهرة ، ومن بنى زهرة الصحابيان سعد ابن أبى وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف من العشرة المقطوع لهم بالجنّة رضى الله عنهما ومن قريش قصىّ بن كلاب بن مرّة ، ومنهم بنو عبد الدار الذين بأيديهم مفاتيح الكعبة . ومن بنى عبد الدار بنو شيبة وهم الشيبيون الذين بأيديهم مفاتيح بيت الله إلى يومنا هذا . ومن قُصَىّ بن كلاب بن مرة بنو عبد العزّي . ومن هؤلاء بنو أسد الذين منهم سيدنا الزبير بن العوام أحد العشرة المقطوع لهم بالجنة رضى الله عنه . ومنهم خديجة أم المؤمنين رضى الله عنها .

ومن قريش بنو عبد مناف ، وهم بنو عبد شمس بن عبد مناف ، ومن هؤلاء بنو أمية ، وهم بنو أمية الأكبر ، وأمية الأصغر ابنى عبد شمس ، ومن بنى أمية الأكبر سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه ، ومعاوية بن أبى سفيان . ومن عبد مناف ابن قصى نوفل ، و بنو المطلب . ومن بنى المطلب الامام الشافعى رضى الله عنه . وأما هاشم بن عبد مناف فاسمه عمرو ، وسمى هاشما لهشمه الثريد أيام المجاعة ، وكان سيد قريش فى وقته . وله عبد المطلب بن هاشم ، وكان لعبد المطلب اثنا عشر ولداً عبد الله أبو النبى صلى الله عليه وسلم ، وأبو طالب والد سيدنا على ، والزبير وعبد الكعبة ، والعباس ، والد عبد الله بن عباس ، وضِرار ، وحمزة ، وحجل وأبو لهب ، وقُثم ، والغيداق ، والحارث ، والعقب منهم لستة : حمزة ، والعباس وأبى لهب ، وأبى طالب ، والحارث ، وعبد الله . فأما عبد الله فمن ولده سيد الوجود محمد بن عبد الله عليه السلام ، وأما العباس فمن ولده الخلفاء العباسيون ، وأما أبوطالب

فكان له عداأمير المؤمنين علياً كرم اللهوجهه جعفر ، وعقيل . وذرية أمير المؤمنين من فاطمة منتشرة فى جميع العالم الاسلامى . ويقال لهم آل البيت ، وهم السنام الأعلى فى الشرف .

ومن خيبر إلى الحائط ، والحويّط ، إلى الحرّة ، قبيلة هتَيْم . وليست من القبائل المعروفة بالأصالة فى العرب ، ولكنها كثيرة العدد تصادم شمّر ، وتصادم حرب وتصادم أية قبيلة كبيرة ، ويقال إنها نحو من مائتى ألف نسمة .

جاء فى انسيكلو بيدية الإسلام أن هتيما مشهورون بالقنص ، وأن منهم قيوناً كثيرين ، وأن بينهم وبين الشرارات مصاهرات .

ومن القبائل التى لا يختلط بها سائر العرب الصُّلَيْب ؛ ولا يعرف أصلهم . وقد ذهب بعضهم إلى أنهم من بقايا الصليبيّين ، واستدلوا على ذلك بمشابهة الاسم والحقيقة مجهولة ولا يعادون أحدا ولا يعاديهم أحد ، وكلما وقعت واقعة بين العرب وفشت الجراحات جاء الصُليب هؤلاء وأخذوا الجرحى من الفريقين ، وعالجوهم ، فهم يتخذون لأنفسهم مهنة الصليب الأحمر فى أوروبة . ولذلك لا يعتدى عليهم أحد وأحياؤهم آمنة .

وكل من العرب كما تقدم آنفا مفتخر بنسبه ، مستمسك بأصله ، فاذا كان عدنانياً لم يرض أن يكون قحطانياً ، وإذا كان قحطانياً ساءه أن ينتسب إلى عدنان قال الشاعر :

وما قحطانُ لى بأبٍ وأمّ ولا تصطادنى شبه الضلال
وليس إليهم نسبى ولكنْ مَعَدّيًّا وجدتُ أبى وخَالى

ومن أراد أن يطلع على سلاسل قبائل العرب وشجرات أنسابهم ؛ فعليه « بسبائك الذهب فى معرفة قبائل العرب » للسيد محمد أمين السويدى البغدادى ، فهو كتاب قد جمع فأوعى فى هذا الباب . على أن إفراط العرب فى التمسك بأنسابهم قد أوجد بينهم من العصبيّة بعضهم على بعض ما لا يوجد فى أمة سواهم ، حتى أن « دوزى » الهولندى المعدود من أوسع المستشرقين علماً ذكر فى كتابه عن مسلمى إسبانية أن

العداوة التى بين العدنانية والقحطانية قد تكون أشدّ من العداوة التى بين العرب والأعاجم . والحقيقة أن هذه العداوة نفسها هى التى كانت الأصل الأصيل فى فقدهم الأندلس ، بل فى نكوصهم عن قلب أوربة بعد أن وطئوه بأقدامهم ، وكادوا يستولون على تلك القارة . وقد كانوا كلما تم لهم الظفر فى واقعة على الأجانب عادوا فاقتتلوا فيما بينهم بين قحطانى ومُضرى ، ففشلوا وذهبت ريحهم ، واضطروا أن يعودوا من حيث أتوا . ولم ينحصر ضرر هذه العصبية فى الأندلس والمغرب ، بل قد أفنت القبائل العربية بعضها بعضا فى المشرق أيضا ، وصرفتهم عن التبسط فى الفتوحات فما كانوا قد حازوه بشجاعتهم وعلو هممهم ؛ فقد فقدوه فى منازعاتهم الداخلية بوقوع بأسهم بينهم ، لا سيما بين هذين القبيلتين ؛ قيس واليمن . وكثيراً ما كانت تقتتل ربيعة ومضر وكلا الفريقين من العدنانية ، ونظراً لكون مضر أكثر عدداً كانت ربيعة تلجأ إلى اليمن حتى تقف فى وجه مضر . وكل عربى تنزع فيه العصبيّة إلى قومه ، فلا يسلم من ذلك أحد ، حتى الملوك والخلفاء كانوا يتعصبون للقبائل التى هم منها وهم مع ذلك سادة الجميع .

ومن الأمثال التى تدلك على غلوّهم فى هذا الباب أن جرير بن عطية الشاعر — وكان من تميم — قال فى إحدى مفاخراته للأخطل التغلبى :

إن الذى حرم المكارم تغلبا جعل النبوة والخلافة فينا
مضرُ أبى وأبو الملوك جميعهم فاعلم فليس أبوكمُ كأبينا
هذا ابن عمّى فى دمشق خليفة لو شئت ساقكمُ إلىّ قَطِينا

فلما بلغ ذلك عبد الملك بن مروان الخليفة الأموى ضحك وقال : ما زاد ابن الفاعلة على أن جعلنى شرطيًّا عنده ! ! ثم قال وقد نبض به عرق العصبية لمضر : أما والله لو شاء لسقتهم إليه . ولم يكن ليفت فى عضد هذه العصبية الغالية سوى العقيدة الإسلامية التى جعلت الاسلام هو العروة الوثقى ، وجعلت أخوته فوق كل رابطة . ولذلك قيل : إن العرب لم يكونوا ليتحدوا فى يوم من الأيام إلا بالاسلام ، ولولا الاسلام لبقوا شعوبا وقبائل يقتتلون فى جزيرة العرب إلى يوم القيامة ، و بأسهم أبداً

بينهم . فلما جاء الاسلام ووحّد بينهم فى الدين ، وقال الله تعالى : (وكنتم أعداء فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً) لم يلبثوا أن خرجوا من جزيرة العرب بقوة هذا الاتحاد ؛ ففتحوا نصف العالم فى ثمانين سنة ، ولم يقف فى وجههم شىء ! ! ولكن بعد أن بعد عهدهم بعهد النبوة وخلافة الراشدين : ضعفت فيهم العقيدة التى كانت هى مدار العمل عند سلفهم ، وعادت فتجددت بينهم العصبيات الموروثة عن الجاهلية ، فرجعوا يقتتلون على المضرية واليمنية فى الاسلام ، كما كانوا يقتتلون قبل الاسلام ، ورجع بذلك زرعهم هشيما ، وبذْرهم عرجوناً قديماً .

فكما أن الانساب كانت تثير فيهم الحمية والنخوة ، وتبعث روح التنافس الحافز لهم على طلب المجد ؛ كانت تثير بينهم أيضاً العداوات والفتن التى تصدع وحدتهم وتخمد فى النهاية جمرتهم ، فأضرت من حيث نفعت . ولقد أجمع المؤرخون ، واتفق علماء الاجتماع ، أن سبب سقوط سلطنة العرب هو طبيعة هذه الأمة فى الانقسام والانفراد ، وغرامها فى منافسة بعضها بعضا .

ولولا آفة الانقسام هذه لكان التمسك بالأنساب هو من الفضائل الاجتماعية التى يتنافس بها ، ويتمكن بها المصلحون لحكوماتهم وأوطانهم من ترقية أقوامهم بالبحث عن سلائلهم ، والاعتناء بحفظ أصالتها ، ومنع اختلاطها بغيرها مما يشوب نقاوتها

أفلا ترى كيف ثار الألمان فى هذه السنين الأخيرة ، وأوجدوا قضية النسب « الآرى » ومنعوا بجميع الوسائل اختلاط « السامى » مع « الآرى » بالمصاهرات حفظاً للنسب الذى ينتمون اليه ، والذى لا يرون لهم رقياً إلا به وضمن خصائصه . وما فعلوا ذلك إلاّ بناء على نظريات علمية ثابتة ، وهم وإن كانوا غلوا فى هذا الأمر إلى حد أوجب انتقاد سائر الأمم لهم ؛ فلا يمكن أن يقال إن قاعدتهم هذه غير راجعة إلى أصل صحيح .

ونحن لو نظرنا إلى السبب فى حفظ النسب لا نجده منحصراً فى معرفة التاريخ ولا في الامتيازات المادية التى يحوزها أصحاب النسب فى العادة ؛ ولكن هناك غرض آخر أعلى من ذا وذا ، وهو توارث الأخلاق التى تهتف بالفضائل ، والأفعال المجيدة

وتزكى الأنفس . فمن المعلوم أن أصل البيوت الشريفة هو أن يبرع أحد الناس على أقرانه ، ويبذ أبناء زمانه بطبيعة ممتازة فى نفسه قد تكون أسبابها النفسية مجهولة ، و إنما تظهر آثارها فى أفعاله فيمتاز بين قومه وتحصل له رئاسة وسؤدد ، و يشيع ذكره ، و يرتفع شأنه ، وتتمنى الحوامل أن تلد مثله ، وهذا ما يقال له المجد الطريف و بعد ذلك إذا أعقب نسلا اجتهد نسله أن يقتدوا به بقدر الامكان ، حتى يمتازوا بالأخلاق التى امتاز بها أبوهم ، و يحوزوا مثلما حازه من الشرف والسؤدد ، وتعب رهطهم فى تقوية هذه الروح فيهم طمعاً فى استبقاء هذه الغرائز التى أورثهم إياها سلفهم وهى التى تغريهم بالفضائل ، وتبعدهم عن الرذائل ، وترتفع بهم عن سفاسف الأمور و يقال لهذا المجد التليد .

ولهذا كان من العادة أنه إذا أقدم أحد أبناء البيوتات الكريمة على عمل خسيس كان أول مايقرعه به الناس ، و يهيبون به إلى التوبة منه ؛ أن يقولوا له : أفلست أنت ابن فلان ؟ أو من آل فلان ؟ أيجمل بك أن تفعل ما هو كذا وكذا ! ! فماذا تركت للسوقة والطغام ؟ وأشباه هذه الأقوال التى تدل دلالة واضحة على أن الأصالة مفروض فيها أن تقترن بالنبالة ، و بعبارة أخرى أن الأصيل فى نسبه ينبغى أن يكون فاضلا فى عمله ، بارعا بأدبه . وما جاء على خلاف هذه القاعدة فيعد شاذاً .

فاذا تقرر عندنا هذا ؛ تقرر أن حفظ الأنساب هو عبارة عن حفظ الفضائل و إمتاع المجتمع بها . ومتى كثرت الفضائل فى المجتمع ترقّت الامة وعرجت فى سُلّم النجاح ، وأصبحت أمة عزيزة غالبة ، لأن الأخلاق الفاضلة هى الأساس الذى يبنى عليه كيان الأمم .

وقد تقدم لنا أن الأوروبيين شديدو العناية بالأنساب ، خلافا لما يتوهم الشرقيون ، وأن الكفاءة فى الزواج طالما كانوا يراعونها ولا يزالون يراعونها حتى اليوم و إن كان قد خف ذلك التمسك القديم بعض الشىء ، وذلك بأن النبلاء لايزوجون بناتهم من الطبقات التى ليست فى درجتهم . وأشد الاوروبيين منعة فى هذا الأمر هم نبلاء الانجليز ، الذين يأتى الاميركى المثرى فيبذل القناطير المقنطرة من الذهب حتى ينال شرف مصاهرتهم ، ولا ينالها إلا لأياً ، وكل هذا لأجل أن « يستقطر

بأنبيق ديناره دمهم الشريف فى دن نسبه » كما قال أحمد فارس فى « كشف المخبا عن فنون أوروبا » . وما قاله أحمد فارس من ثمانين سنة فى هذا الموضوع لايزال تصداقه جارياً إلى الآن .

وكذلك نجد النبلاء فى ألمانيا وفرنسا وغيرهما محافظين على أنسابهم ، مفتخرين بها ، مستظهرين على صحتها بالكتب والوثائق والشجرات التى يتقلدونها مع أنفس أعلاقهم وذخائرهم ، وكثيراً ما اجتمعنا بأناس من هؤلاء يرفعون أنسابهم إلى عهود بعيدة جداً ، ويذكرون أن أصول عائلاتهم معروفة من ألف سنة ، وألف ومائتي سنة ، ولم نجد أشراف العرب أشداعتناء بأنسابهم من نبلاء الافرنج ، وهم يزيدوننا فى شىء واحد ؛ وهى هذه الأشعرة « جمع شعار » التى تمتاز بها كل عائلة منهم وتحفظها من عهود متطاولة . ونحن العرب لا يوجد عندنا هذا الاصطلاح إلا ما ندر وأكثر ما يكون فى الاعلام والرايات . فالعباسيون رايتهم السواد ، والأمويون رايتهم بيضاء ، والفاطميون رمزهم اللون الاخضر ، وأمراء مكة رايتهم عنابية وما أشبه ذلك . فنحن نستظهر على حفظ أنسابنا بالتواريخ والوثائق والصكوك القديمة وكثيراً ما نثبتها بالمحاكم الشرعية ، فأما أن تتخذ كل عائلة من بيوتات العرب شعارا خاصاً تمتاز به كما هو الشأن عند الافرنج فليس بمعهود ، وإنما جرت العادات عند العرب بأن يتخذ عشائرهم أسماء خاصة يتنادون بها فى ميادين القتال ، فهؤلاء يقال لهم « إخوة بلجاء » وهؤلا يقال لهم « إخوة شيخة » وأولئك يقال لهم « رعاة العليا » أو « فرسان الصباح » وما أشبه ذلك من الألقاب والكُنى . فأما نبلاء الافرنج فلا تكاد تكون منهم أسرة شهيرة بدون شعار تجد صورته على آنيتها ومواعينها وحُلاَها وفى كتبها ، ويقال إن أصل هذا الاصطلاح عندهم هو من زمان الصليبيين .

وقد غلا نبلاء الافرنج فى التمسك بأنسابهم ، ورفعوها أحيانا إلى أبعد ما يكون من الأعصر ، حتى دفع ذلك العقل . وغلا أيضا علماء الانساب فى مراعاة قواعدهم ودخل بينهم المتزلفون الوضّاعون الذين كانوا يتقربون إلى الأسر النبيلة بزيادة رفع الأنساب ـ أو بوضعها اختراعا ـ حتى وقعت الشبهة فى الصحيح منها ، واتُّهم النسّابون جميعهم بالكذب ، وفى أوروبا مثل سائر يقولون « هو أكذب من نسابة » .

وكان يوجد عند الملوك في أوربة وظيفة اسمها وظيفة « نسّاب الملك » وهو ضابط من ضباط رهبانية روح القدس ، ترجع إليه مهمة تثبيت الأنساب ، لا سيما أنساب الفرسان الذين يقال لهم « شيڤالير Chevalier » وذلك أن النبلاء كانت لهم حقوق لم تكن للعامة ، فكان النبيل يدخل فى نظام الفرسان عند الملك مثل نظام مالطة ، وليون ، وسانت كلود ، وغيرها . فكانوا يحتفظون بأنسابهم لتكون لهم وسيلة إلى الدخول فى هذه الأنظمة ، وكان للنساء النبيلات أيضاً رهبانيات يدخلن فيها ، ويلتزمن لأجل الدخول فيها تثبيت أنسابهن .

وإثبات النسب كان عبارة عن إظهار ورقة المعمودية التى تثبت أن فلاناً هو ابن أبيه فلان ، وأن هذا هو ابن فلان وهلم جرا . وكانوا يقدمون مع أوراق المعمودية الوصايا ، وعقود الزواج ، وصكوك الشراء والبيع والهبة ، وما أشبه ذلك من الوثائق وكانوا إذا حرروا نسب عائلة وضعوا جميع فروعها فى السجل ، وجعلوا بجانب كل فرع جميع ما يتعلق به من وصايا وعقود أنكحة ، وصكوك مهمة بتواريخها مع براءات الملوك المتعلقة بذلك الفرع .

وهذه البراءات هى التي يقال لها فىالدولة العثمانية « الفرامين » جمع « فرمان » ومعناه الأمر ، ويقابل الفرمان فى الدولة المغربية « الظهير » . وكانوا فى أوروبة يذكرون أيضاً فى سجلات الأنساب تواريخ الأشخاص المشهورين ، ومن قتل منهم فى الحروب ، ويقال إن هذا الاصطلاح بدأ فى فرنسا منذ سنة ١٦٠٠ وإنه من قبل ذلك التاريخ لم تكن للأنساب دائرة خاصة بل كانت الحكومة عند ماتريد التحقيق عن نسب من يُدلى اليها بطلب ترسل مأمورين إلى البلدة التى ينتسب اليها طالب الوظيفة فيسألون الشيوخ وأهل الخبرة ، ويرفعون خلاصة التحقيق إلى الحكومة .

ولما قدمتُ إلى ألمانيا في أيام الحرب الكبرى ، كان ممن تعرفت إليهم من العلماء مؤرخ جليل اسمه الدكتور « ستراد ونتز » وكان مديراً لمصلحة الأنساب فى البلاد الجرمانية ، وقد تذاكرت معه طويلا في مسألة الانساب ، وذكرت له أنساب العرب وسألته عن أنساب الالمان فعلمت منه أن أقدم أسرة معروفة فى المانيا ينتهى قدمها إلى

القرن التاسع بعد المسيح ، ولا يوجد أسرة معروفة يعرف لها نسب لأبعد من هذا التاريخ . قال : وإن الاسرة المالكة فى الساكس هى أقدم بيت فى ألمانيا ، ويوجد من لهم نسب إلى القرن الثاني عشر للمسيح .

وذكر لى أسراً عريقة من جملتها آل هونلوهيه وكنت عرفت منهم برنساً ضابطاً وشاهدته في الأستانة ، وتكلمنا على نسب ال هوهنزولون قياصرة المانيا ، وأن أصلهم من جهة بحيرة كونستانزا فى بلاد باڤاريا ، ومنذ نحو من ستمائة سنة قام جدهم بخدمات جليلة للوطن فأعطاه الامبراطور سيجسموند لقب شرف وجعله أميراً على براندنبورغ ، وهذا هو مبدأ سيادتهم . ومن هناك لم يزالوا يعظمون ويغاظ أمرهم ويتسع ملكهم حتى أوائل القرن الثامن ـ أى منذ مائتين وعشر سنوات ـ إذ ترقوا إلى درجة الملك ، وصاروا ملوك بروسية . وفى سنة ١٨٧٠ بعد الغلبة على فرنسة توج الملك غليوم الاول امبراطوراً على المانيا كلها كما هو معلوم . ومما ذكره لى هذا الاستاذ المؤرخ أنه يوجد فى جبال سويسرة أسرة رومانية ، أى من الرومانيين القدماء محفوظة النسب ، يقال لها « پلانتا » وكان ذلك متواتراً عندهم والناس تنكره ولا يجدون له سنداً حتى كشفوا بطريق الاتفاق كتابة لاتينية على حجر كان قد طمسه التراب فاذا به يؤيد تواتر نسب هذه الأسرة ، فهى الآن أقدم عائلة معروفة فى أوروبا . انتهى .

وعلم الأنساب مهم جداً للتاريخ ، مشتبك به اشتباكاً تاماً ، لأنه به يعرف تاريخ مشاهير الرجال الذين قاموا بأدوار عظيمة فى العالم ، فيتبين من هذا العلم أصلهم ، كما يتبين من التاريخ فصلهم . وكذلك تعرف من الانساب علاقات المصاهرة ، وما يحصل بسببها من التوارث ، وما ينشأ عن هذا التوارث من دعاوى وخصومات قد تجر الى الحروب . ولم تنحصر الأنساب فى الفترة الآدمية ، بل للطبقة العالية من الحيوانات الداجنة أنساب معروفة ، ولحفظ أنسابها فائدة عظيمة فى تنشئة هذه الحيوانات وتنميتها ، فإن تأثير العرق غير مشكوك فيه ، وانتقال النجابة من بطن الى بطن هذا معدود من القواعد العلمية ، وإن كان قد تعرض أحيانا عوارض تمنع انتظام سير هذا التوارث .

ومن الغريب أن الانسان قد يهمل نفسه أحيانا ، ولا يحافظ على صحة بدنه ولا على متانةِ عقله ، ولا يكترث لقضية تسلسل النجابة فى عرقه ، ولا لصيانة المزايا التى انتقلت اليه بالإرث الطبيعى من آبائه ؛ وبينما هو يهمل نفسه هذا الاهمال ، تجده يعتنى بحفظ نسل حيواناته حتى لا يكون الفرع مقصراً عن الأصل . ولهذا كانت أنساب الحيوانات معتنى بها فى كل مكان ، وكان ذلك بها جدير ، وإن كثيراً من الكتب قد كتب لحفظ أنساب المجاوات . قال لاروس فى معجمه الكبير : « إن العرب سبقوا جميع الأمم فى حفظ أنساب حيواناتها ، وإذا كان الجواد العربي قد بقى محفوظا بجميع مزاياه الباهرة ، فما كان ذلك إلاّ بطهارة أصله وصفاء عرقه منذ قرون لا تحصى ، وهذا بفضل العرب الذين وجّهوا لصفاء عرق الجواد أشد الاهتمام ، وإن جميع حيوانات العرب الفارهة لها أنساب يعتنى العرب بحفظها بمزيد الدقة . قال : وليس عند العرب دفتر نفوس عمومى للخيول ، ولكن كل فرس كريم معه حجة يتبين منها نسبه ، فلا تختلط عندهم الخيل الأصيلة بغيرها . أما الانجليز فقد نظموا ذلك وجعلوا للخيل دفاتر نفوس رسمية ، منها مايسمونه « Stud - Book » يذكرون به أصل الحصان وسلسلة نسبه ، ومنها المسمى « Cing Calender » يذكرون فيها أوصاف الحصان وشِياته . وما عملوه لأجل الخيل وحفظ أرسانها ؛ عملوه أيضا لأجل البقر ، ولأجل الغنم . ولكن الفرق بين البقر والغنم أن النسب فى البقر يكون للثور بمفرده ، وأما فى الغنم فلا يكون للشاة بل للقطيع كله . ويرى العلماء فى تربية الحيوانات أنه لأجل إصلاح جنسها يكون ضروريا الوقوف على أنسابها » انتهى .

والانساب معروفة للهررة أيضا ، فهى كالخيل الأصيلة ، كلما كان الجواد عتيق الأصل كان أحسن جريا ، وكذلك كلما كان الهرّ أصيلا كان أحسن صيداً للفيران . وبالاجمال إصلاح الأجناس بالتزاوج ، وبالتربية ، وبالتغذية ، سواء كان فى الآدميين أو كان فى الحيوانات الداجنة ، يتوقف على حفظ الأنساب ، والعناية بعتقها . ولا يزال الحديث الشريف : (اطلبوا اكرام المناكح فانها مدارج الشرف) من أصدق القواعد العلميّة ، والحقائق العاليّة .

الخلافة واشتراط القرشية فيها

تعليق على ما جاء بسطر ١٠ صفحة ٣ جزء أول من ابن خلدون

لست هنا فى صدد وجوب الخلافة فى الاسلام ، وهو البحث الذى وفاه علماء هذه الملة حقه ، ولم يتركوا فى قوسه منزعاً ، وقد قال فى هـذا المقام ابن خلدون والماوردى وغيرهما كل مايجب أن يقال ، و إنما أقول: إنه اتفق المسلمون ــ إلا الخوارج والمعتزلة ــ على وجوب نصب الامام لحراسة الدين والدنيا ، فكان هذا المنصب جامعاً بين السلطة الروحية ــ لكن بدون العصمة التى يقول بها الكاثوليكيون فى البابا ــ و بين السلطة الدنيوية وهى ما يسميه النصارى بالسلطة الزمنية ــ لكن بدون الامتيازات التى تسجلها القوانين الأورو بية للملوك ــ ولا نبالى بما يتشدق به بعض الطاعنين فى الاسلام من أنه جمع بين السلطتين فكان فى ذلك عائق للمجتمع عن الترقى ، فهو قول عريق فى التحامل ، مخالف لسنة الله فى خلقه . إذ أن الدين متصل بالدنيا فى كل مجتمع بشرى ، والدنيا ممتزجة بالدين بدون انفكاك ، ولا يتصور وجود أحدهما بدون الآخر .

وقد وفّينا هذا الموضوع حقه فى « حاضر العالم الاسلامى » بما لا حاجة إلى إعادته هنا ، وأثبتنا ما فى جملة « فصل الدين عن السياسة » من السفسطة التى لا تستند على شىء من الواقع . لأن جميع الحكومات الأور بية التى جعلها الشرقيون هى المُثُل العليا فى العالم ، ولم يبق لهم عمل إلا أن يحطبوا فى حبالها ، و ينسجوا على منوالها ؛ لم تقدر أن تفصل الدين عن السياسة فصلاً حقيقياً . وغاية ما هناك أنها فصلتهما فصلاً إدار ياً لا غير ، بحيث أن للأمور الدينية مراجع مخصوصة ، وللأمور الدنيو ية مراجع مخصوصة . وهذا ما هو أيضاً فى الحكومات الاسلامية . وقد كان فى الدولة العثمانية كما يعلم كل أحد . فالصدر الأعظم كان ينظر فى الامور السياسية والادار ية خاصة وشيخ الاسلام كان ينظر فى الأمور الشرعية والدينية خاصة ، وكل من المرجعين كان يعود إلى السلطان .

و إذا نظرنا الى أوضاع الدول الأوربية ، نجد أن ملك انكلترة مثلا هو في المركز نفسه ، فكما أنه ملك الأمة الانكليزية ومرجعها فى الحكومة ؛ فهو رئيس الكنيسة الانكليكانية ، و بالتالى فمرجع الانكليز فى العقيدة . ومثل ذلك قيصر ألمانيا الذى كان رئيساً للكنيسة اللوثيرية ، فكانت له السلطة الروحية العليا لاتفترق فى شىء عن سلطة الخليفة فى الاسلام ، وهى مجموعة فيه الى السلطة الدنيوية التى تجعل فى يده زمام الأمة الألمانية فى الأمور الدنيوية . ولما آل أمر الالمان الى الجمهورية ـ وهى مؤقتة ـ قام مقام القيصر فى الأمرين رئيس الجمهورية الالمانية . وقد زعم بعضهم أن من الدول من فصل الدين عن السياسة بالمرة كفرانسة مثلا ، والحقيقة أن فرانسة اتفقت مع الطبقة الاكليريكية على وضع نظام خاص يكفل راحة الفريقين ، ولكن الحكومة لا تزال هى مرجع رجال الدين عند حدوث المشكلات لما تقدم من أن الدين والدنيا فى المجتمع لا يستغنى كل منهما عن الآخر . وليس فى عصرنا هذا حكومات لا دينية بالمعنى المفهوم من هذه اللفظة سوى ثلاث حكومات ، إحداها الروسية البلشفية والثانية الجمهورية المكسيكية ، والثالثة الجمهورية التركية الكمالية . وما دامت الأمة الافرنسية تعلن عن نفسها أنها أمة مسيحية ـ يتجلى ذلك فى جميع حركاتها وسكناتها ـ فيكون مخالفاً للمحسوس الزعم بان حكومتها فى واد والكنيسة فى واد ! ! إذاً فالاسلام لم يأت فى هذا المعنى بوضع مبتدع ، بل هى سنة الله فى أرضه . وما دامت الأمم لا تستغنى عن الأديان ؛ فلوكها وحكوماتها لا تستغنى عن الجمع بين الدين والسياسة .

غير أن الاسلام فى أصله يفترق عن غيره من الملل بأن الخلافة فيه و إن أشبهت الملك من جهة الأمر والنهى ـ على شرط مشاورة أهل الحل والعقد ـ فهى لا تشبه الملك فى مزايا الترف وخصائص الابهة التى يجيزها ملوك الأمم الأخرى . وقد سبق لنا أن تعرضنا لهذا المقام فى « حاضر العالم الاسلامى » فقلنا فى صفحة ٢٤٠ من الجزء الاول : (الخلافة فى الاسلام ليست بملك ولا سلطنة ، و إنما هى رعاية عامة للأمة لاقامتها على الشرع الحنيف ، وردع القوى عن الضعيف فى الداخل ، وصيانة الاسلام ودفع المعتدى عليه من الخارج . وهى لا تنعقد الا بارادة الأمة ، والسلطان الذى

يؤتاه صاحب الخلافة هو من الأمة لاسلطان له عليها الا منها . وقد فهم لوثروب ستودارد هذا الباب حق الفهم ، وعرف الخلافة التعريف الصحيح ، بخلاف كثير من الاوربيين الذين يتبجحون بزعمهم أن مبدأ كون السلطان القومى من الأمة إنما هو من الأوضاع الغربية الاوربية ، قاتلهم الله ما أجهلهم بتاريخ الشرائع ، وما أجرأهم على الخلط .

ومن أغرب الأمور أن كثيراً من الشرقيين – ومن المسلمين أنفسهم – يتابعون الافرنج متابعة عمياء فى هذا الوهم ولا يعلمون قاعدة الاسلام فى هذا الموضوع . ولو تأملوا ما كان عليه الخلفاء الراشدون الاربعة – وهو أشد صور الحكم الاسلامى انطباقاً على الشرع – لرأوه أمراً شعبياً محضاً ، ووضعاً ديمقراطياً بحتاً ، وأبعد شىء عن السلطان المطلق والقرآن فى هذا صريح بقوله تعالى : (وشاورهم فى الأمر) وقوله : (وأمرهم شورى بينهم) . نعم إن الخلفاء الراشدين لم يقع انتخابهم إلى أجل مسمى نظير رؤساء الجمهوريات اليوم ، ولم يكن العرب لذلك العهد – بسذاجة البداوة – يعرفون هذا الضرب من الترتيب ، ولكنه لاجدال فى أن الخليفة لم يكن شخصاً مقدساً غير مسؤول كما هو عند الأوربيين ، ولم تكن له مزية شخصية على سائر الامة ، وكان اذا أخطأ يقيد من نفسه . ولم يخطر ببال أحد من الخلفاء الراشدين أن يورث أولاده الخلافة ، بل كانوا يلقونها عن ظهورهم إلقاء من يريد الخلاص من تبعتها ، فاذا كان الانسان يريد أن يعرف ثمار شجرة الاسلام فليتأمل فى سيرة الخلفاء الراشدين ، فانها المرآة الحقيقية لروح الاسلام .

و يناسب أن نذكر هنا بعض الآثار الواردة فى ما كان الخلفاء الراشدون يفهمون من هذا الأمر ، جاء فى « الطبقات الكبرى » لمحمد بن سعد : أخبرنا محمد بن عمر قال . حدثنى قيس بن الربيع عن عطاء بن السائب عن زاذان عن سلمان أن عمر قال له : أملك أنا أم خليفة ؟ فقال له سلمان : إن أنت جبيت من أرض المسلمين درهما أو أقل أو أكثر ثم وضعته فى غير حقه فأنت ملك غير خليفة ، فاستعبر عمر . ثم قال أخبرنا محمد بن عمر قال : حدثنى عبد الله بن الحارث عن أبيه عن سفيان بن أبى العرجاء قال قال عمر بن الخطاب : والله ما أدرى ! ؟ أخليفة أنا أم ملك ؟ فان كنت

ملكا فهذا أمر عظيم . قال قائل : يا أمير المؤمنين : إن بينهما فرقاً . قال ما هو ؟ قال : الخليفة لا يأخذ إلا حقاً ولا يضعه إلا فى حق ، فأنت بحمد الله كذلك ، والملك يعسف الناس فيأخذ من هذا و يعطى هذا . فسكت عمر . ولما بويع أبو بكر قام خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أما بعد فانى وليت هذا الأمر وأنا له كاره ، والله لوددت أن بعضكم كفانيه ، ألا و إنكم إن كلفتمونى أن أعمل فيكم بمثل عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم لم أقم به . كان رسول الله عبداً أكرمه الله بالوحى ، وعصمه به ألا و إنما أنا بشر ولست بخير من أحد منكم ، فراعونى فاذا رأيتمونى استقمت فاتبعوني و إن رأيتمونى زغت فقومونى ») اه . إلى آخر ماذكرنا فى « حاضر العالم الاسلامى »

ومنه يظهر أن الخليفة ليس معصوماً عند أهل السنة ، وأنه لا يمتاز عن غيره من الرعية ، وأنه مقيد بالشورى ، وأنه ليس له أن يستبد بالأمر . ولعل قائلا يقول : إن ملوك العصر الحاضر أيضا مقيدون بالدساتير التى وضعتها الأمم التى يلون أمورها وليس لهم أن يستبدوا فى شىء ! وهذا لا جدال فيه وأن الأمم الحديثة قيدت الملوك ولكن يبقى بينهم و بين الخلفاء الراشدين الفرق العظيم بأن ملوك الأعصر الأخيرة هم غير مسؤولين فى أحوالهم الشخصية ، وأن الخلفاء فى الاسلام هم مسؤولون كسائر الرعية . و يبقى فرق آخر بأن الخلفاء كانوا من السذاجة والتقشف فى معيشتهم ما لم يكن أحد قبلهم ولا بعدهم ، ولم يكونوا يأخذون من بيت المال إلا ما يسد عوزهم الضرورى والحال أن الملوك ورؤساء الجمهوريات في الأعصر الأخيرة يتمتعون بالجرايات الوافرة و يعيشون فى ترف عظيم لا ينازع فيه أحد .

وكذلك الملوك فى هذا العصر ينتقل الملك منهم الى أولادهم فأحفادهم ، والخلفاء الراشدون كانوا يعهدون الى ذوى الكفاية من الأمة دون أولادهم . فروح الاسلام الحقيقى هى مراعاة الكفاية والأهلية دون أى اعتبار آخر . ولهذا لم أكن ممن يذهب الى اشتراط القرشية فى الخلافة ولو كان هو مذهب الجمهور ، فان حصر الامامة فى أسرة أو عائلة ، أو عشيرة ، لا ينطبق على هَدْىِ الخلفاء الراشدين الذين كان يمكن كلا منهم أن يعهد بالأمر لولده ، والحال أنهم لم يفعلوا ذلك . فلا أبو بكر فكر فى العهد

لمحمد بن أبى بكر ، ولا عمر فكر فى العهد لعبد الله بن عمر ، ولولا خروج معاوية على علىّ لكان علىّ أيضاً اقتدى بهما فى اختيار من هو الأصلح لأمر الأمة . ولو كان حصر الامامة فى قريش محتما ما كان عمر يقول : لو أدركنى أحد رجلين لجعلت هذا الأمر إليه لوثقت به ؛ سالم مولى أبى حذيفة ، وأبى عبيدة بن الجراح . وقد كان سالم مولى أبى حذيفة من الأعاجم كما لا يخفى ! . وقد رُد على هذا الدليل بأن عمر صحابى ، وأن مذهب الصحابى ليس بحجة . ولكن يرد على هذا بأن عمر بن الخطاب وإن لم يكن معصوما فهو الذى رُوى عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال فى حقه « لو كان نبى بعدى لكان عمر » . فهو صحابى ولكن ليس كغيره من الصحابة ولقد منع عمر المتعة واحتج بعمله الفقهاء من أهل السنة . وعلى كل حال لم يكن عمر بالذى يخفى عليه حكم الشرع فى مسألة هى أجل المسائل ، ولم يكن أيضاً سعد بن عبادة ورهطه من الأنصار بالذين يمارون قريشا فى أمر الامامة لو كانوا يعلمون أنها لا يجوز أن تتعدى قريشاً . وأين تذهب مع قوله صلى الله عليه وسلم : « اسمعوا وأطيعوا وإن ولى عليكم عبد حبشى ذو زبيبة » . فهل هذا ينتظم مع حصر الخلافة فى قريش ؟

إن الذين يقولون بحصر الخلافة فى قريش إنما يستندون على الحديث الشريف « الأئمة فى قريش » . ولكن هذا جاء فى زمن كانت الرئاسة فيه لقريش فكانت أولى بهذا الأمر من غيرها ، وكانت العرب فى صدر الاسلام تطيعها مالا تطيع سواها . ولا ينبغى من ذلك أن هذا الأمر يجب أن يكون أبداً سرمداً فى قريش مهما تقلبت الأحوال ، وتبدلت الأطوار ، ومادامت تطلع الشمس ، وما بلَّ بحرٌ صوفة . وما بالهم لا يذكرون أنه جاء فى رواية هذا الحديث . « الأئمة فى قريش ما أقاموا الدين » . وجاء هذا الحديث فى بعض المسانيد التى يعول عليها مثل صحيح مسلم . فان كان حصر هذا الأمر فى قريش معلقاً بهذا الشرط ؛ فيكون قد انحل الاشكال . وليس من ينازع فى رئاسة قريش فى كونها الأولى بالامامة من غيرها من عرب وعجم ، وإنما النزاع واقع فى أنه إذا وجد من الخارجين عن قريش من هم أقوى على حمل الخلافة

منها ، وأشد عصبية فى وقتهم ، وأقدر على حفظ حوزة الاسلام فى وجه الأجانب فهل يجب حصر الخلافة الاسلامية فى القرشى مع ضعفه و إقصاء غير القرشى عنها مع كفايته ورجحانه ؟ هذا هو المعترك الذى كان ينبغى أن يجرأ العلماء أن يفصلوا فيه فصلا يتلاءم مع روح الاسلام المبنى على قاعدة (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) وعلى قاعدة (وأن ليس للانسان إلا ما سعى) فليس فى الاسلام طبقات كما هى عند البراهمة : الدين فى هذه الطبقة ، والحكم فى تلك الطبقة ، والصناعة في هاتيك الطبقة ، الخ وليس الاسلام فى شىء من مشابهة اليهودية فى أن الملك هو فى السبط الفلانى ، وأن الكهنوت هو فى السبط الفلانى الخ . فكل هذه الأوضاع لا يعرفها الاسلام ، ولا يعرف إلا عمل الانسان نفسه . وكما قال عمر رضى الله عنه : « لو جاءت الاعاجم بالأعمال وجئنا بغير عمل فهم أولى بمحمد منا يوم القيامة ، فلا ينظر رجل إلى القرابة ، وليعمل لما عند الله ، فمن قصر به عمله لا يسرع به نسبه » أفتكون الشريعة التى يقول فيها عمر مثل هذا القول هى الشريعة التى تجعل الامامة إرثاً خاصاً بعشيرة خاصة إلى أبد الدهر ، مهما كان فى الخارج عنها من كفاية تزيد على كفايتها ، وقدرة على حفظ بيضة الاسلام ترجح على قدرتها ؟ ! لا جرم أن هذا غير معقول . ولذلك لا نعجب من أن يكون مثل القاضى أبى بكر الباقلانى وغيره من العلماء قد أسقطوا شرط القرشية فى الخلافة بعد أن رأوا ما رأوا من ضعف قريش ورجحان غيرها عليها .

ولو أن الذين اشترطوا القرشية فى الخلافة استدركوا الأمر بقولهم: إنه إذا تساوى القرشى وغير القرشى فى الاشتمال على شروط الخلافة فالقرشى بمكانه من قرابة الرسول عليه السلام ، ومن رئاسته القديمة ؛ أولى من غير القرشى لهان الخطب . ولكن مقتضى كلامهم أن القرشى بسلطان ذلك الحديث المتعلق بقريش فى عهد كانت فيه هى الأول ـ مهما بلغ من الضعف ومن عدم الكفاية ـ فإنه أولى من غير القرشى مهما بلغ من القوة على حفظ حوزة الاسلام ، ومهما بلغ من الضلاعة والكفاية . فهذا الذى نراه مخالفاً لروح الشرع ، ولما يتجلى من جميع أحكام الكتاب والسنة .

لقد كان لقريش التقدم على جميع العرب ، وعلى جميع المسلمين ، فكان ذلك الحديث

لو صح على ما رووه وارتفعت فيه كل شبهة ؛ مطابقاً لحالة قريش فى أيام تقدمها فأما من بعد أن غلبت الأعاجم ، وقام فيها من رجح ميزانه على قريش فى القوة والمنعة رجحاناً محسوساً لا يمترى فيه عاقل ؛ فقد أصبح من العبث أن نجعل المرجوح أولى من الراجح . ولعمرى أن ابن خلدون رحمه الله قد جمع فأوعى عند ما قال فى مقدمته : إذا ثبت أن اشتراط القرشية إنما هو لدفع التنازع بما كان لهم من العصبية والغلب ، وعلمنا أن الشارع لا يخص الأحكام بجيل ولا عصر ولا أمة ؛ علمنا أن ذلك إنما هو من الكفاية فرددناه اليها ، وطردنا العلة المشتملة على المقصود من القرشية وهى وجود العصبية . فاشترطنا فى القائم بأمور المسلمين أن يكون من قوم أولى عصبية قوية غالبة على من معها فى عصرها ليستتبعوا من سواهم ، وتجتمع الكلمة على حسن الحماية ، ولا يعلم ذلك فى الأقطار والآفاق كما كان فى القرشية . إذ الدعوة الاسلامية التى كانت لهم كانت عامة ، وعصبية العرب كانت وافية ، فغلبوا سائر الأمم ، وإنما يخص لهذا العهد كل قطر بمن تكون له فيه العصبية الغالبة .

وإذا نظرت سر الله فى الخلافة لم تعد هذا ، لأنه سبحانه إنما جعل الخليفة نائباً عنه فى القيام بأمور عباده ليحملهم على مصالحهم ، ويردهم عن مضارهم ، وهو مخاطب بذلك ولا يخاطب بالأمر إلا من له قدرة عليه . ثم إن الوجود شاهد بذلك ، فانه لا يقوم بأمر أمة أو جيل إلا من غلب عليهم ، وقل أن يكون الأمر الشرعى مخالفاً للأمر الوجودى . اه

فلعمرى ليس بعد هذا القول مجال لقائل ، فانه القول الذى لا يحسن بعده المراء وإن هذا الدين هو دين العقل لم يقم بالأسرار غير المفهومة ، ولم يمتحن اتباعه بما تعيى به العقول ، ولا بما لا تظهر فيه وجوه المصالح . وهو كما قال ابن خلدون : لا نجد فيه الأمر الشرعى مخالفاً للأمر الوجودى . ولا يمكن أن يتقدم فيه المرجوح على الراجح .وكل معترك هذه المسألة هى القدرة على حماية الاسلام ، وإقامة الشريعة على وجهها ، فمن كان أضلع بهذا الأمر من غيره بين المسلمين فهو الذى يريده الله ورسوله قياساً على ما لدينا من قواعد الشرع الأخرى التى هى ومبادىء العقل توأمان متلازمان .

مذهب النشوء والارتقاء

تعليق على ماجاء بسطر ٢١ صفحة ٤ من الجزء الأول من ابن خلدون

قول ابن خلدون إن النسابين كلهم اتفقوا على أن الأب الأول للخليقة هو آدم عليه السلام كما وقع فى التنزيل الخ . هذا ما كان عليه الناس فى القرون الوسطى التى عاش ابن خلدون فى آخرها ، وما لايزال عليه المتمسكون بالأديان فى عصرنا الحاضر ولكن علماء هذا العصر فى العلوم الكونية ، و إذا قلنا علماء هذا العصر فى العلوم الكونية فانما نعنى بهم علماء أوربة — قد عدلوا عن نظرية ابتداء العائلة البشرية بدم وحواء ، وعما يقوله اليهود والنصارى من أن عمر البشرية خمسة آلاف أوسبعة آلاف سنة ، ورجحوا — ولكن بدون جزم — أنه مضى على وجود العائلة الانسانية على وجه الارض نحو من مائة ألف سنة ! ! وذهب بعضهم إلى أكثر من ذلك فقدروا لوجودها مائتين وثلاثين إلى مائتين وأربعين ألف سنة ! ! وقد وقعوا لأجل ذلك فى مشكل من جهة تطبيق هذه النظريات على التوراة ؛ فمنهم من حل هذا المشكل برفض التوراة بتاتاً وهؤلاء هم الفئة التى لاتقول بالأديان ، والفئة المسماة بالالهيين وهم الذين يعتقدون بوجود الصانع ولا يقولون بالنبوءات ، ومنهم من بقى متمسكا بالديانة المسيحية ولكن مع الاعتقاد بأن التوراة دخلها تحريف كثير ، وأن فيها كثيراً مما أدخله اليهود .

وهذه الفئة تشابه أقوالها أقوال علماء الاسلام الذين يقولون إن التوراة كتاب منزل لاشك فيه ، ولكن اليهود قد حرفوها — بل بدلوها — إلى أن صاروا يقولون من جملة الأمثال : « توراة مبدّلة » وبالاختصار لايوثق بالنسخ الموجودة منها بين أيدينا . وكذلك يضعفون كثيراً من الروايات الواردة عن السلف الصالح بحجة أنها منقولة عن أحبار اليهود ، ويسمون هذا الضرب من الروايات الكونية والقصص (بالاسرائيليات) ويقولون إنها أدخلت فى الاسلام وليست منه . فما يقوله المسلمون عن التوراة المبدلة وعن الاسرائيليات هو بعينه الذى يقوله العلماء العصريون فى

أوربة الذين لايقدرون أن يطبقوا بين ماجاء في التوراة عن بدء الخليقة ؛ وبين ما يقرره العلم الحديث ، وهم مع ذلك لا يريدون أن يفارقوا العقيدة النصرانية التى فارقتها الفئة المعطلة ، والفئة الاخرى التى يقال عنها الالهيون .

وهناك الفئة الثالثة التى لاتقبل التأويل والتخريج فى التوراة ، ولا ترضى بأن يقال إن فيها من أوضاع اليهود — وبالتالى فليس من التنزيل — كما أنها لاترضى بأن يقال إن الكتب المنزلة إنما تخاطب الناس على قدر عقولهم وتتجنب التصريح بما هو فوق أفهامهم خشية الفتنة وإدخال الشك على العقائد . فهذه الفئة الثالثة هى الفئة المتدينة الباقية إلى اليوم على العقائد التى كانت عليها النصرانية فى القرون الوسطى وهى التابعة للكنائس سواء كانت الكنيسة الكاثوليكية ، أو الأرثوذكسية ، أو البروتستانتية التى يقال عنها الانجيلية ، ومن هذه الفئة السواد الأعظم فى الحقيقة من الأوربيين والامريكيين . وهم يقولون بأن البشر تناسلوا من آدم وحواء وفقاً لما فى التوراة ، ويردّون مذهب النشوء والارتقاء الذى يرده أيضاً أناس كثيرون من الفئة المعطلة ، ومن الالهيين ، لا من جراء مخالفته للدين ؛ بل من ضعف الأدلة اللازمة للقطع به ، وانخرام كثير من الحلقات التى يفترض وجودها بين الحيوان والانسان ، أو بين الانسان فى أصل تكوينه والانسان الحالى . وفقد هذه الحلقات وعدم وجود أثر لها فى الآثار الحفرية هذا لايساعد على الجزم عندهم بمذهب النشوء والارتقاء الذى غاب عليه اسم المذهب الداروينىّ نسبة إلى « دارون » وهو عالم طبيعى من علماء الانكليز مات فى أواخر القرن التاسع عشر للمسيح .

ولما كان تاريخ ابن خلدون مما يصلح لكل الأعصر بالنظر إلى ما فيه من قواعد أبدية ، ونظريات فى الخليقة والخلق لاتخلق ديباجتها ، ولا تنقضى حقائقها ، ولكنه كتب منذ خمسة قرون طرأت فى أثنائها على المجتمع الانسانى أفكار جديدة ، ومبادىء ناقضة لما سبقها ، ونظريات لم تكن معروفة فى أيام ابن خلدون ، أو كانت معروفة ولكن عند غير أتباع الأديان الثلاثة : الاسلام ، والنصرانية ، واليهودية .

وكان لا بد للناشئة الجديدة من الأمة الاسلامية من أن يطالعوا ما جد من هذه

النظريات المحدثة ، ويقارنوها بالنظريات القديمة ، فلم نشأ أن نمر بهذا الموضوع بدون أن نشير – ولو بجملة مختصرة – إلى ما عليه العلماء الأوربيون ، حاشا أتباع الكنيسة من جهة أصل وجود الانسان على وجه الأرض .

وقبل أن نشرع فى ذلك نقول : إن الاعتقاد بكون آدم وحواء هما أبوا البشر هو منصوص عليه فى الكتاب ، فأما المدة التى ضربها أصحاب التوراة لوجود الانسان فليس فى القرآن الكريم شيء يدل عليها ، بل هناك هذه الآية الكريمة (ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم) .

ثم نقول : إن الذين جزموا بقدم عهد الانسان بناء على ما كشفوه فى باطن الأرض ، وما نقبوا عنه في الكهوف والغيران ، وما عثروا عليه عرضاً واتفاقا فى قيعان البحيرات ؛ لا يزالون يقرون بأن معلوماتهم مفتقرة إلى الاكمال ، وأنه لا يصح الجزم إلا بالنظرية الاجمالية التى معناها كون الانسان وجد؛ لا من خمسة آلاف سنة ، ولا من سبعة آلاف سنة ؛ بل من أضعاف هذا العدد من السنين . وأنهم استدلوا على ذلك بوجود حجارة مصقولة على شكل الفؤوس كانوا يجهلون فى أول الأمر حقيقتها وكانت العامة تعتقد بأنها حجارة تتكون فى السحاب ! ! .

ولما قال بعض علماء القرون الوسطى بأنها من صنع أيدى البشر رفضوا كلامهم ومنذ مائتى سنة تواترت الأدلة بكثرة ما وجد من هذه الحجارة فى أعماق متفاوتة تحت التراب ، وتحت المياه ، ومنها ما بسقت من فوقه الأشجار ، ومنها ما تكونت من فوقه المعادن ، فحسب علماء الأزمنة الحديثة ما يستلزم وجود هذه الطبقات المتراكمة فوق تلك الأدوات التىصنعها البشر الأولون من الزمن الطويل والدهور الدهارير؛ فحكموا بأنه لا بد لذلك من عشرات ألوف من السنين .

وقد قسموا المدة التى قضاها الانسان منذ وجد على سطح الكرة إلى أن صار معروفاً عند أعقابه إلى جملة أدوار ، أقربها إلى الدور الحالى – بزعمهم – هو الدور المسمى بالرباعي ، ويقال له الجليدى . وهو الذى فيه كان الثلج دائماً فى أماكن أصبح الثلج فيها اليوم نادراً . وكانت البلادالسكاندينافية وهولاندة وجزر انكلترا وألمانياوالروسية

مغطاة بالثلوج . وكان في أوربة فى الاصقاع التى ينحسر عنها الثلج حيوانات لاتوجد اليوم عثروا على عظامها ، واستدلوا منها على التفاوت العظيم الذى وقع فى درجات البرودة والحرارة ، مما قضى بهلاك قسم من أنواع هذه الحيوانات ، والتجاء القسم الآخر إلى أصقاع أخرى من الكرة الأرضية . ومن أشهر هذه الحيوانات الحيوان الذى يقال له « الماموث Mammouth » و« الكركدن » اللذان بعد أن انحسرت الثلوج الدائمة عن القارة الأوربية رحلا إلى الشمال . وكذلك الحيوان المسمى « بالرنة Renne » الذي لا يزال فى القطب الشمالى مع أن له بقايا مستحجرة فى أواسط أوربة . وقد علت على هذه البقايا طبقات متكونة بكرور الأيام ، ومعادن لا يمكن أن تتكون إلا بعشرات ألوف من السنين . كما أنهم عثروا على عظام بشرية أيضاً تراكمت من فوقها تلك الطبقات ، و بقيت بشريتها ظاهرة .

ولم يقع الاستدلال على وجود الانسان فى تلك الأعصر بالرمم البشرية فحسب بل وجدت له آثار أخرى من أدوات وآلات وتصاوير يحكم على وجوده بوجودها والأثر يدل على المؤثر . فالإنسان وجد فى أواسط أوربة — مثلا — معاصراً للماموث وللرنة . وقد عثر العلماء فى القرن الماضى على عدة رمم بشرية ، منها ماوجد فى مغاور ووجدت بجانبه عظام حيوانات — كالكركدن مثلا — مما لم يبق له أثر الآن فى هذه المناطق . و بعد بحث وتنقيب واختلاف بين العلماء الجيولوجيين ، اصطلح الأوربيون على قسمة الأدوار التى يعرفونها عن الانسان إلى ثلاثة . وهذه الأدوار الثلاثة هى عبارة عن المدة التى مضت فى بداية العصر الجليدى إلى أن أصبحت الحالة الجوية مقاربة لما هي عليه أوربة اليوم . و يقدرون هذه المدة بألف قرن — أى مائة ألف سنة — فقد ذكروا الدور الثلاثى الذى سبق الدور الرباعى أو الجليدى . وقالوا : إن حيوانات كثيرة لم تطق التغيرات التى وقعت في أثنائه فانقرضت . وهنا اختلفوا في إمكان ظهور الانسان فى الدور الثلاثى وتحمله ما لم تتحمّله تلك الحيوانات الكبيرة وفى عدم إمكان ذلك .

فبعضهم ذهب الى أن الانسان وجد فى الدور الثلاثى بدليل وجود أدوات حجرية لا يمكن صنعها إلا بيد مخلوق هو على شيء من العقل ، وذهب المنكرون لوجود الانسان فى الدور الثلاثي إلى أن الأدوات المذكورة هى أحدث عهداً من ذلك الدور . فالمفروض ـ مع الترجيح التام ـ أن الانسان وجد فى الدور الرباعى .

وأعظم دليل من الآثار الحفرية على ذلك أنه وجد بقرب « هيدلبرغ » فى بلاد بادن من المانيا على عمق أربعة وعشرين متراً فك أسفل إنسانى ، ووجد فى المحل نفسه بقايا كركدن وفرس من أفراس البحر مما كان يعيش فى الدور الثلاثى وهذا الفك وجد ضخماً عظيما عريضاً جداً قليل الارتفاع ، ولم يوجد له ذقن ، ووجد فيه تشابه كثير مع فكوك القردة التى تشبه الانسان من النوع الذى يقال له «انترو بويد» « Anthropoides » بيد أن الأسنان هى أسنان بشرية بالتمام والكمال .

وعثروا فى انكلترة بقرب « بيتدون Piltdown » على جمجمة بشرية ولكنها منحطة عن الجماجم الحاضرة ، فاما من بقايا العصر الرباعي فقد وجدوا أكثر من رمة واحدة ، ووجدوها كلها متشابهة ، منها واحدة وجدت فى جبل طارق ، وأخرى فى «سبى Spy» من بلجيكا . وأخرى في فرنسة ، ووجدوا من هذا النوع نفسه فى إفريقية الجنوبية فى روديزيا . فثبت من تشابه جميع هذه الرمم وجود طبقة بشرية فى الدور الرباعى المذكور ، اصطلح العلماء على تسميتها بطبقة « نياندرتال Neanderthal » وذلك لأن أول مثال منها وجد فى واد اسمه وادى «نياندر تال» فى المانيا . وقد وجد مع رمم هذا الدور أدوات مصنوعة بالأيدى لا تدع شكا بأن أصحاب هذه الرمم كانوا بشراً ، ولكن كانت رؤوسهم مشابهة جداً لرؤوس الحيوانات ، وكانت الجمجمة مسطحة ، والجبهة ضيقة ، وكان القسم الأدنى من الرأس ضيقاً ، والوجه عريضاً ، والفكان ناتئين إلى الأمام ، والتقاطيع غير منتظمة ، والعيون كبيرة ، والأنف عريضاً مع ضيق فى مركزه ، والذقن منقبضاً ، وغير ذلك من الملامح التى تثبت أن طبقة « نياندرتال » هى من الطبقات البشرية ، لكنها أدنى من البشر الموجودين الآن . وهى من جهة الجمجمة والوجه تتشابه مع نوع القردة المسمى «بالأنترو بوئيد»

أي أقرب القردة للانسان . و بالاختصار آدميُّ نياندرتال مكانه هو بين القرد والانسان الأخير . وقد امتاز الآدمى فى هذا الدور الذى نحن بصدده بقوة العضلات و وجد العلماء القائلون بهذه النظرية أن السلسلة الفقارية ، وأن عظام الأعضاء والأطراف والجمجمة ؛ فيها تشابه كثير مع ما يقابلها فى القردة . وقد رجّحوا بحسب مادققوا فيه من الهيكل العظمى الذى كان عليه إنسان « نياندرتال » أنه كان يمشى منحنياً نحو أفخاذه ، ولم يكن يتنصَّب قائماً سوياً . ولما وصل علماء النشوء والارتقاء إلى هذه النقطة اختلفوا فيما يعولون عليه من جهة الانسان الأول ؛ فقالوا : إن إنسان نياندرتال هو على شبه كثير مع القردة المسماة أنترو بوئيد « Anthropoïde » ولـكن ثبت أيضاً أن هذا النوع من الانسان وجد فى أواسط الدور الرباعى ، ولهذا لا يمكن أن يقال إنه أقدم نوع في البشر ؛ لأنه قد ثبت وجود آثار الانسان فى أوائل الدور الرباعى . فصار العلماء يتساءلون كيف يمكن التافيق بين هذين الأمرين ؟ فذهب هيكل « Haeckel » الألمانى من أقطاب علماء النشوء والارتقاء إلى أن الانسان لم ينحدر من القرد المعروف بشبهه للإنسان الذى يقال له « أو رانج أوتان » .

وقال أضداد نظرية النشوء والارتقاء إنه لايزال بين أقدم الطبقات البشرية وأقرب القردة إلى الانسان مسافة شاسعة ، ولذلك يفترض وجود طبقة متوسطة وسمّوا هذا النوع بيتيكانتروپ « Pithécanthrope » فذهب بعض علماء أوربة إلى أنه إن كان قد وجد شبه بين آدمى نياندرتال و بين الآدمى المسمى بيتيكانتروپ و بين هذا و بين القرد المسمى أو رانج أوتان ؛ فليس يستلزم ذلك حتما أن يكون الانسان الحاضر هو من هذه السلائل ، بل انسان نياندرتال انقرض فى أواسط الدور الرباعى ولم يترك بقايا .

وقالوا إن الآثار البشرية التى عثروا عليها لاتصلح حتى الآن مداراً للحكم وخالفهم الذين قالوا إن بين إنسان نياندرتال والانسان الحالى وجوه شَبَه كثيرة وأنه لايمكن الحـكم بانقراض إنسان نياندرتال والتبدل منه إنساناً من نوع آخر أكمل من الأول وهو الذى سمّوه بالانسان العاقل ، و بالافرنجية «Home Sapiens»

عن أصل الانسان ، ننقله لقراء هذا الكتاب حتى لا يفوتهم شيء مما يجب معرفته على أهل هذا الزمن ، ومن قبيل العلم بالشيء ولا الجهل به .

ولا يزال فى أوربة عدد كبير من العلماء يردون بشدة نظرية داروين ، وليسوا هم فقط من أنصار الأديان ؛ بل يوجد من العلماء الطبيعيين من يقيم الأدلة على فساد هذا المزعم . ومنهم من ذهب مذهبا متوسطاً ، فوافق على بعض قضايا المذهب الداروينى ، وردّ بعضها بحجة فقد الأدلة الكافية . وعندى كتاب عنوانه « المذهب الداروينى وما فيه من صواب وخطأ » وممن اشتهر فى الردّ على مذهب داروين الانجليزى ، ولامارك الافرنسى فى النشوء والارتقاء ؛ الأستاذ « ڤيالتون Vialleton » المدرس فى جامعة مونبلييه ، والأستاذ موريس توماس البلجيكى ، وغيرهما ممن يقولون إن مذهب لامارك وداروين مناقضان للعلم ، وقال ڤيالتون : إن داروين قد ذهب فى نظريته مذهبا جاهلا ماهية القواعد التى تتنزل عليها الجزئيات ، وانخدع بعلاقات الأنواع بعضها مع بعض ، كما أن خلفاءه فى المذهب قد نظروا إلى المناسبات الصورية التى بين الأنواع نظرا سطحياً ، وقرروا النشوء والارتقاء بدون تأمل كاف فى كيفية قيام هذه الأنواع بوظائفها .

فلأجل الربط بين الحشرات وذوات الاثداء من الحيوانات اعتمدوا على النطاق الصدرى الذى يعهد فى ذوات الأثداء المتصلة بالطيور ، لكن إذا أنعم الانسان النظر لا يجد هذه الرابطة فى محلها ، لأن هذا النطاق ليس فى الحقيقة جزءاً من هيكل الصدر ؛ بل هو خارج عنه ، وليس له اتصال بالقلب ، ولا بالأعصاب كما هو عند الحشرات . فالمشابهة ليست أكثر من مشابهة سطحيّة . والحال أن طبيعة الحيوانات ذات الاثداء لا تمتاز فقط بالنطاق الصدرى ؛ ولكن بمميزات أخرى ظاهرة فى جميع تكوينها ، وفى أنسجتها العضوية ، وفى الجلد والشعر والعظام ، وكل مايعهد فى ذوات الأثداء . والخطأ نفسه وقع فى تقدير خصائص الأعضاء ؛ فداروين يرى أن أى عضو يقدر أن يقوم بأية وظيفة ، وهذا إهمال لحقيقة الوظائف الأساسية . فان الأعضاء تؤلف مع الأنطقة آلات محركة لها فى كل نوع وظائف محدودة لا يمكن أن عملها

يتعدى من وظيفة إلى وظيفة ، إذ ليس من وسيط بين الجهازين . فنى طبقة الحيوانات ذوات الأربع إذا وجد نوع طيّار مثلاً يجب أن الكتف التى كانت فى البطن تحت مركز الثقل تصعد إلى الظهر لأجل أن تحفظ موازنة الحيوان عند مايطير ، ولولا ذلك لا يتمكن من الطيران . فهذا المركز الذى تأخذه الكتف من جديد لا يمكن أن يحصل بالتدريج ، ولا مناص من أن يكون وضع أنُفاً بدون تدرّج . كذلك ذوات الأثداء السابحة التى يسير بها الذنب المتحرك من الأعلى إلى الأسفل ؛ فيجب أن يكون لهذا الذنب قوة وقطر عظيمان ، بحيث أن الشق الأسفل يندفع إلى الأمام فيكون أفقياً بدلا من أن يكون عمودياً كما هو فى سائر ذوات الأثداء .

و يقول ڤيالتون : إن القول بأن الجراثيم تعيد فى أثناء نموها الصور المتتابعة التى سبقت نوعها هو قول مرسل جزافاً ، وهو أشبه بالمجاز منه بالحقيقة ، فنى الجراثيم شيئان ؛ البدايات البسيطة التى هى عامة لجميع النوع ، ثم الأجهزة والصور التى تتلو هذه البدايات . فالبدايات لا يمكن أن يتكون منها نوع خاص ، لأنها حويصلات بسيطة جدا أشبه ببراعم تختلف كثيراً عما سيأتى منها ، بل هى بدايات ساذجة عامة لا ينتج منها أقسام خاصة إلا بعد النمو . فالحويصلة لا يمكن أن تشبه حيواناً تاماً مهما كان دنىء الطبقة ، ولكن تشبه حويصلاته . والحويصلة البشرية ذات الخلايا لا يمكن أن تشبه سمكة فى جهازها التنفسى ، ولكن قد تشبه حويصلة السمكة قبل أن يتكمل فيها هذا الجهاز ، وأورد أدلة كثيرة ليس هنا موضعها .

وكان الكيماوى الفرنساوى برتلو — وهو من أشهر علماء الطبيعة — ينعت مذهب داروين بقوله : « قصة داروين الخيالية » و « قصيدة لامارك الفكرية » مع أن برتلو كان يحفل بهذا المذهب . فمن شاء التوسع فى هذا الموضوع فليقرأ كتاب ڤيالتون المسمى « بأصل الكائنات الحية وخيال النشوء والارتقاء »

«L'origine des Êtres Vivants, l'illusion transformiste par Vialleton»

وقد طرق السيد جمال الدين الحسينى الافغانى هذا الموضوع ، ورد على نظرية داروين ، ونحن واضعون كلامه تحت أنظار القراء .

وقد اعترض بعضهم على خوض السيد جمال الدين فى حديث كهذا يلزم له تخصص فى العلوم الطبيعية ، وليس هذا الاعتراض بشىء ، لأن التخصص شرط فى المباحث التفصيلية ، فأما فى المبادىء العامة فالذى يلزم إنما هو الفلسفة ، ومن كان أطول فيها باعاً وأوسع نظراً كان أحق بأن يتكلم بها ؛ فالسيد جمال الدين إذاً يقدر أن يقول هنا ، وهو يقول ما يأتى فى رسالته المعروفة « بالرد على الدهريين »

« وذهب فريق إلى أن الاجرام السماوية والكرة الأرضية كانت على هيئتها هذه من أزال الآزال ولا تزال ، ولا ابتداء لسلسلة النباتات والحيوانات . وزعموا أن فى كل بذرة نباتا مندمجاً فيها ، وفى كل نبات بذرة كامنة ، ثم فى هذه البذرة الكامنة نبات وفيه بذرة إلى غير نهاية . وعلى هذا زعموا أن فى كل جرثومة من جراثيم الحيوانات حيواناً تام التركيب ، وفى كل حيوان كامن فى الجرثومة جرثومة أخرى ، يذهب كذلك إلى غير نهاية . وغفل أصحاب هذا الزّعم عما يلزمه من وجود مقادير غير متناهية فى مقدار متناه وهو من المحالات الأولية .

وزعم فريق ثالث أن سلسلة النباتات والحيوانات قديمة بالنوع ، كما أن الأجرام العلوية وهيئاتها قديمة بالشخص ، ولكن لاشىء من جزئيات الجراثيم الحيوانية والبذور النباتية بقديم ، و إنما كل جرثومة و بذرة هى بمنزلة قالب يتكون فيها ما يشاكله من جرثومة و بذرة أخرى . وفاتهم ملاحظة أن كثيراً من الحيوانات الناقصة الخلقة قد يتولد عنها حيوان تام الخلقة ، وكذلك الحيوان التام الخلقة ، قد يتولد عنه ناقصها أو زائدها .

ومال جماعة منهم إلى الابهام فى البيان فقالوا : إن أنواع النباتات والحيوانات تقلبت فى أطوار ، وتبدلت عليها صور مختلفة بمرور الزمان وكرور الدهور ، حتى وصلت إلى هيئاتها وصورها المشهودة . وأول النازعين إلى هذا الرأى « أبيقور » أحد أتباع « ديوجينس الكلبى » ومن مزاعمه أن الانسان فى بعض أطواره كان مثل الخنزير مستور البشَرة بالشعر الكثيف ، ثم لم يزل ينتقل من طور إلى طور حتى وصل بالتدريج إلى ما نراه من الصورة الحسنة ، والخلق القويم ، ولم يقم دليلاً

ولم يستند على برهان فيما زعمه من أن مرور الزمان علة لتبدل الصور وترقى الأنواع .

ولما كشفت علوم الجيولوجيا (طبقات الأرض) عن بطلان القول بقدم الأنواع رجع المتأخرون من الماديين عنه إلى القول بالحدوث . ثم اختلفوا فى بحثين ؛ الأول بحث تكون الجراثيم النباتية والحيوانية ، فذهب جماعة إلى أن الجراثيم على اختلاف أنواعها تكونت عند ما أخذ التهاب الأرض فى التناقص ، ثم انقطع التكون بانقضاء ذلك الطور الأرضى . وذهبت أخرى إلى أن الجراثيم لم تزل تتكون حتى اليوم خصوصاً فى خط الاستواء حيث تشتد الحرارة .

وعجزت كلتا الطائفتين عن بيان السبب لحياة تلك الجراثيم حياة نباتية أو حيوانية خصوصاً بعد ما تبين لهم أن الحياة فاعل فى بسائط الجراثيم ، موجب لالتئامها ، حافظ لكونها . وأن قوتها الغاذية ، هى التى تجعل غير الحى من الأجزاء حيًّا بالتغذية فاذا ضعفت الحياة ضعف تماسك البسائط وتجاذبها ، ثم صارت إلى الانحلال . وظن قوم منهم أن تلك الجراثيم كانت مع الأرض عند انفصالها عن كرة الشمس ، وهو ظن عجيب لا ينطبق على أصلهم من أن الأرض عند الانفصال كانت جذوة نار ملتهبة ، وكيف لم تحترق تلك الجراثيم ولم تُمح صورها فى تلك النيران المستعرة ؟ ! .

والبحث الثانى من موضع اختلافهم صعود تلك الجراثيم من حضيض نقصها إلى ذروة كمالها (نقول : وصل السيد هنا إلى مذهب النشوء والارتقاء) وتحولها من حالة الخداج والنقص ، إلى ما نراه من الصور المتقنة ، والهيآت المحكمة ، والبُنَى الكاملة . فمنهم قائل : إن لكل نوع جرثومة خاصة به ، ولكل جرثومة طبيعة تميل بها إلى حركة تناسبها فى الأطوار الحيوية ، وتجتذب إليها ما يلائمها من الأجزاء الغير الحيّة ليصير جزءاً لها بالتغذية ، ثم تجلوه بلباس نوعه . وقد غفلوا عما أثبته التحليل الكيماوى من عدم التفاوت بين نطفة الانسان ونطفة الثور ونطفة ــ الحمار مثلا ــ وظهور تماثل النطف بالعناصر البسيطة . فما منشأ التخالف فى طبائع الجراثيم مع تماثل عناصرها ؟ ! ومنهم ذاهب إلى أن جراثيم الأنواع كافة ــ خصوصا الحيوانية ــ متماثلة فى الجوهر ، متساوية فى الحقيقة ، وليس بين الأنواع تخالف جوهرى ، ولا انفصال

ذاتى . ومن هذا ذهب صاحب هذا القول إلى جواز انتقال الجرثومة . الواحدة من صورة نوعية إلى صورة نوعية أخرى بمقتضى الزمان والمكان ، وحكم الحاجات والضرورات ، وقضاء سلطان القواسر الخارجية .

ورأس القائلين بهذا القول « داروين » وقد ألف كتابا فى بيان أن الانسان كان قردا ، ثم عرض له التنقيح والتهذيب فى صورته بالتدريج على تتالى القرون المتطاولة ، وتأثير الفواعل الطبيعية الخارجية حتى ارتقى إلى برزخ « أوران أوتان » ثم ارتقى من تلك الصورة إلى أول مراتب الانسان فكان صنف « البيم » وسائر الزنوج ، ومن هناك عرج بعض أفراده إلى أفق أعلى وأرفع من أفق الزنجيين فكان الانسان القوقاسى (قد ثبت أن الداروينيين يستندون فى النشوء والارتقاء على جماجم وجدت فى أوروبة تحت الأرض ، وليست هذه الجماجم وهذه الهيا كل أقرب إلى الانسان القوقاسى منها إلى الانسان الزنجى ، ولا هى بالعكس ، بل هى ناقصة عن كل منهما) وعلى زعم داروين هـذا يمكن أن يصير البرغوث فيلا بمرور القرون وكر الدهور ، وأن ينقلب الفيل برغوثا كذلك ! ! .

(لا مبالغة فى قول السيد جمال الدين هذا عن مذهب داروين ؛ لأن هذا المذهب يجعل البيئة والاحتياج والضرورة والتأثيرات الخارجية هى منشأ التنوع وأن كرور الدهور تحت هذه التأثيرات يؤدى إلى ما يظهر عجيبا وربما يظهر مستحيلا وليس الأمر كذلك عندهم ، وأن الذى جعل كيماويا كبيراً مثل « برتلو » يسمى مذهب داروين قصصا متسع الخيال ، هو حكم داروين باطّراد هذا المبدأ فى المخلوقات)

فان سئل داروين عن الأشجار القائمة فى غابات الهند ، والنباتات المتولدة فيهامن أزمان بعيدة لا يحددها التاريخ إلا ظناً ، وأصولها تضرب فى بقعة واحدة ، وفروعها تذهب فى هواء واحد ، وعروقها تسقى بمـاء واحد ؛ فما السبب فى اختلاف كل منها عن الآخر فى بنيته ، وأشكال أوراقه ، وطوله ، وقصره ، وضخامته ، ورقته ، وزهره ، وثمره ، وطعمه ، ورائحته ، وعمره ؟ فأى فاعل خارجى أثر فيها حتى خالف بينها مع

وحدة المكان والهواء والماء ؟ ! أظن لا سبيل إلى الجواب سوى العجز عنه ! ! وهكذا لو عرضت عليه الحيوانات المختلفة البُنَى والصور ، والقوى والخواص ، وهى تعيش فى منطقة واحدة ، ولا تسلم حياتها فى سائر المناطق . أو عرضت عليه الحشرات المتباينة فى الخلقة ، المتباعدة في التركيب ، المتولدة فى بقعة واحدة ولا طاقة لها على قطع المسافات البعيدة لتخلو إلى تربة جديدة تخالف تربتها ؛ فماذا تكون حجته في علة اختلافها ؟ كأنها تكون كسفاً لا كشفاً ! .

بل إذا قيل له : أى هاد هدى تلك الجراثيم فى نقصها وخداجها ؟ وأى مرشد أرشدها إلى استتمام هذه الجوارح والأعضاء الظاهرة والباطنة ، ووضعها على مقتضى الحكمة و إيداع كل منها قوة على حسبه ، و نوطها بكل قوة فى عضو إزاء وظيفة ، و إيفاء عمل حيوى ، مما عجز الحكماء عن درك سره ، ووقف علماء الفسيولوجيا دون الوصول إلى تحديد منافعه . وكيف صارت الضرورة العمياء معلما لتلك الجراثيم ، وهادياً خبيراً لطرق جميع الكمالات الصورية والمعنوية ؟ لا ريب أنه يقبع قبوع القنفذ ، و ينتكس بين أمواج الحيرة ، يدفعه ريب و يتلقاه شك إلى أبد الآبدين . الخ)

قلنا : يجوز أن يكون فى كلام السيد جمال الدين هذا ما يعترض عليه بعض العلماء الطبيعيين من جهة أن السيد فيلسوف إلٰهى يستند على قواعد من الحكمة والمنطق أصبح كثير من الطبيعيين اليوم يرفضونها ولا يجعلونها معياراً للحكم ؛ ولكن لا يمكن هؤلاء ولا غيرهم أن يأتوا فى نقض كلام السيد فى هذا الموضوع بما يشفى الغليل ، أو بما يثلج به اليقين . فلا «داروين» ولا «مارك» ولا «بخنر» ولا خصومهم الكثيرون فى أوربا ، ولا « السيد جمال الدين » يقدر واحد منهم أن يقول قولا فى معضلة كهذه و يسلم من الاعتراض من جهة من الجهات ، و إنما هى نظريات يترجح بعضها فى نظر بعض العلماء ، ولا يكاد يجزم به حتى يقوم فى وجهه ما يمنعه من الجزم .

وما أحسن قول جمال الدين : لايزال يرفعه ريب و يتلقاه شك إلى أبد الآبدين.

ولهذا نجد علم التكوين بنوع خاص بين مد وجزر ، وأخذ ورد ، وعكس وطرد لاينتهي . وكيف يمكن أن ينتهى والآثار التى بني أصحاب مذهب النشوء والارتقاء عليها آراءهم هى آثار ضئيلة جداً ، نسبتها إلى الموضوع نسبة النقطة إلى الغدير ! ! وقد اعترفوا هم بأن كل ماعثروا عليه في باطن الأرض إن هو إلا هيكلان أو ثلاثة فى القارة الأوروبية ، ولم يعثروا حتى هذه الساعة على شيء فى القارات الأخرى التى هى أوسع من أوروبة بكثير ! وما دامت الشواهد ضئيلة إلى هذه الدرجة ومنحصرة فى بقعة واحدة ؛ فانه يستحيل القطع بشيء . هذا ولقد كان أول من كتب عن مذهب داروين باللسان العربى الدكتور شبلى شميِّل اللبنانى ، نشر فى ذلك كتاباً فى مصر ضمّنه مذهب داروين الانجليزى ، وبخنر الألمانى ، وجعل له مقدمة جاهر فيها بالمذهب المادي مجاهرة لم تسبق لأحد غيره في الشرق ، ورد عليه إذ ذاك الأستاذ الشيخ ابراهيم الحورانى من علماء المسيحيين الذين يردّون المذهب المادّى . وكذلك رد عليه اليسوعيون فى بيروت ، وبعض القسيسين المارونيين واشتدت المناقشات بين الفريقين ، وكنا نطالعها أيام الطلب قبل هذا التاريخ بخمسين سنة . وكان نشر الأستاذ الشيخ محمد عبده رسالة أستاذه جمال الدين التى نقلنا عنها هذه الجمل لذلك العهد أيضاً . فمذهب داروين معروف فى أوروبة منذ ثمانين سنة ، وفى العالم العربى منذ خمسين سنة .

نوح وولده وقضية الطوفان والسلائل البشرية

تعليق على ماجاء بسطر ٣ صفحة ٦ جزء أول من ابن خلدون

إن ما ذكره ابن خلدون فى هذا الموضوع لايخرج عما اصطلح عليه المؤرخون القدماء مستندين فيه على التوراة ، ولكن المؤرخين اليوم قد عدلوا عن هذه الروايات ، وعن القول بأن سام وحام و يافث هم آباء البشر الحقيقيين ، وأن سام أبو العرب ، ويافث أبو الروم ، وحام أبو الزنج ، إلى غير ذلك . و إذا ذكروا هذه الأمور فانما يذكرونها وفقاً للتوراة وللتقاليد القديمة ، ومن باب العلم بالشيء ولكنهم لا يعتقدونها . فأما الطوفان فانهم يعتقدون بوقوع حادث عظيم من هذا القبيل ـ إن لم يكن عم الأرض كلها فلا شك في أنه غمر جانباً منها ـ وذلك لأنه وجدت روايات تشابه خبر الطوفان عند الأمم الأخرى .

وقد أجمع المسلمون والنصارى واليهود على وقوع الطوفان لورود ذكره فى كتبهم المنزلة وزعم « أوسيليوس » العالم اللاهوتى الانجليزى من رجال القرن السادس عشر للمسيح أن الطوفان وقع سنة ٢٣٤٨ قبل المسيح ، وتابعه فى ذلك المطران الافرنسى « بوسويت » وذهب « كلنتون » الانجليزى إلى أن الطوفان إنما وقع سنة ٢٤٨٢ وهؤلاء ممن يعتقدون أن العالم وجد قبل المسيح باربعة آلاف سنة . ومن المعلوم أن هذه الروايات مردودة اليوم عند جميع علماء أوربة ـ تقريباً ـ وهؤلاء يقولون بمئات ألوف من السنين مضت على وجود الانسان ، فضلا عن وجود المادة الأرضية نفسها وفى القرآن لا يذكر عدد السنين التى مرت على الانسان ، و إنما يقول الله تعالى : (ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم) وهو أصح الأقوال . وقد روى بيروز الكلدانى رواية تشابه رواية الطوفان ، وهو أن الملك « كيزوتروس » نجا بسفينة صنعها لنفسه عند ما غرق جميع النوع البشرى . وجاءت رواية عن اليونان بأنه وقع فيها طوفان فى القرن الثامن عشر قبل المسيح ، وكذلك طوفان آخر فى القرن

السادس عشر ، وأما بيروز الكلدانى فقد كتب تاريخ بابل فى أقدم الأعصر ، وأخذ عنه يوسيفوس اليهودى .

فأما تقسيمات البشر الى سلالة حام وسام و يافث ، فقدقام مقامها اليوم تقسيمات أخرى ، فقالوا سلالة العصر الحجرى ، وسلالة العصر الحديدى ، وسلالة عصر سكب الرمل. وجعلوا تاريخظهور البشر على حسب التغييرات الجوية ، وتقلص الجليد التدريجى فانهم استدلوا بالآثار الباقية فى الأرض على مرور الانسان ببعض البقاع فى عصر من الأعصر ، مما يدل على أن تلك البقعة كانت قد أصبحت صالحة للسكنى ، على حين أن غيرها فى ذلك الوقت كان لا يزال غير قابل لسكنى الانسان ، فالأرض هى التى يصح أن يقال إنها أم البشر ، و إنها واضعة التقسيم بين السلائل البشرية . وليس ذلك من سام وحام و يافث كما قال الأولون .

وذهبوا إلى أن الانسان قطع من الحيوانية الدنيا إلى أن صار إنسانا ــ شبيهاً لما هو اليوم ــ عشرات ألوف من السنين ، حتى قالوا : إن السلالة المسماة نياندرتال « Nèanderthal » عاشت نحواً من مائتى ألف سنة ، وأنه لما بدأ العصر الجليدى الرابع يضمحل أمام أحوال جوية أميل إلى الاعتدال ظهر نوع جديد يظنون أنه بدأ ظهوره فى جنوبى آسية ، أو شمالى أفريقية ، أو فى الأماكن التى غمرها البحر المتوسط فيما بعد ، وأنه مضى مئات من القرون حتى تكملت أعضاء هذا النوع الجديد الذى سماه علماء السلالة البشرية بالانسان السابى « Homo - Sapiens » وهذا النوع البشرى فى جمجمته وأيديه وأسنانه وعنقه يشبه تماماً الانسان الحالى . و يذهبون إلى أنه ربما كان قد وجد سلالات أخرى غير هذين النوعين ، وربما يكون قد وجد أنواع متوسطة بينها و بين النوع الانسانى الحاضر . وقد وجدوا فى كهوف « كرومانيون Cro-Magnon » هيا كل أجسام بشرية ترجع إلى نهاية العصر الحجرى ، وهى تامة الخلقة ، فأطلقوا على هذه السلالة اسم سلالة كرومانيون ، ووجدوا آلات من الصوان ومن الصدف مع هذه الأجساد ، كما أنهم وجدوا فى مغارة غريمالد بقرب منتون جنوبى فرنسة هيا كل أجساد بشرية مشابهة لأجساد الزنوج اليوم ، فترجح وجود سلالتين بشريتين

في ذلك العصر الأقدم يختلف إحداهما عن الأخرى . فسلالة كرومانيون ربما كانت متحدّرة من سلالة غريمالد ، ويجوز أن يكون فى ذلك الوقت قد بقيت بقايا من سلالة نياندرتال .

ويظهر أنه كلما كان الجو يميل إلى الاعتدال ، والجليد يتقلص ؛ كان الانسان يتكمل وتعلو طبقة عقله ، ويزداد التناسب فى أعضائه . وبالاختصار لم يكن اختلاف السلائل عند العلماء العصريين ، والتباينات التى أوجدت الشكل القوقاسى ، والشكل المغولى ، والشكل الزنجى ، والشكل الامريكى القديم ؛ إلا نتيجة العوامل الجوية باختلافها وتحولها من طور إلى آخر ، وما يستتبع تحولاتها من تغير النبات والحيوان . فالهواء والغذاء هما اللذان كانا الأصل فى هذه التباينات بين البشر حتى تكونت هذه السلائل المختلفة . وهذا قد أجمع عليه علماء الوقت الحاضر ، وإن كانوا لا يزالون غير متفقين فى نسبة الشعوب إلى سلالة سلالة ، وذلك لفقد الوثائق التاريخية ، وقلة الآثار التى فى الأيدى . فأكثر ما عندهم من التعليلات لإثبات أن هذا هو من هذه السلالة ، وأن ذاك من تلك السلالة ؛ إنما هو افتراض ، وأحياناً تخرص ، والجزم غير ممكن . وأكثر العلماء يقولون إن تحقيق هذا الباب متعذر ، ولكن مأمول ازدياد المعلومات بالعثور على الآثار البشرية القدمى ، لاسيما فى آسية وأفريقية وأميركا . وقد قيل بناء على الآثار البشرية القدمى التى وجدت فى أميركا : بأن الانسان قبل أن يتكمل ويصل إلى درجة الانسانية الحاضرة لم يوجد فى القارة الاميركية ؛ فما قطع الانسان بوغاز بيرين بين آسية وأميركا ، وأخذ ينتجع أميركا حتى وصل إلى القسم الجنوبى منها إلا بعد أن كان قد صار إنساناً كاملا . فالعالم القديم وحده ، أى أوروبا وآسية وافريقية ؛ هو العالم الذى وجدت فيه السلائل المتوسطة بين الحيوانية والانسانية ومرجع هذه الفروق والتباينات بين أصناف السلائل هو اختلاف البيئة ، فكل بيئة أثّرت فى سكانها تأثيراً خاصاً ، وطبعته بطابعها . وقد يقع الاختلاط بين السلائل المختلفة بسهولة ، حيث لاتوجد الموانع الطبيعية ، وهذه الموانع هى من قبيل الاوقيانوس الاطلانطيكى ، ومنها فى آسية الوسطى جبال عالية منعت اتصال الأمم بعضها ببعض

وقالوا إنهم وجدوا فى جزيرة تسمانيا « Tasmanie » بقرب استراليا شعباً صغيراً بقى عائشاً من خمسة عشر إلى خمسة وعشرين ألف سنة فى الحالة التى كان فيها فى أواخر الدور الحجرى . ! ولما كشف الهولنديون سنة ١٦٤٢ هذه الجزيرة وجدوهم لعدم اختلاطهم بغيرهم على ما كانوا عليه منذ آلاف من السنين ، وقالوا : إن التاسمانى الأخير مات سنة ١٨٧٧ ، و به انقرضت هذه السلالة .

وقد لوحظ أن سكان شرقى آسية ، وسكان أميركا فى القديم ، يغلب عليهم اللون الأصفر ، والشعر الأجعد ، كما أن سكان أفريقية جنوبى الصحراء الكبرى يغلب عليهم اللون الأسود ، والأنف المفرطح ، والشعر المفلفل ، والشفاه الضخمة . كما أن سكان شمالى أوربا وغربيها شقر الألوان ، زرق العيون ، مع الشعر السبط ، والجلد البَضّ ، وعلى شواطىء البحر المتوسط نجد الشعوب بيض الألوان لكن مع سواد العيون والشعور ، وفى جنوبى الهند نجد الشعوب غالبة عليها سمرة اللون ، وجعودة الشعر . ولكن كلما ذهب الانسان شرقا مالت الألوان إلى الاصفرار . ولا يجب أن تخلو هذه القواعد من استثناءات ، ففى أفريقية مثلا أقوام ملامحهم آسيوية ، وفى بلاد اليابان جنس يقال له الأينوس « Oinos » هم أشبه بالأوربيين منهم باليابانيين وقد وجدوا قوماً أشبه بالزنوج فى جزر أندمان « Andamans » فى خليج البنغالة من الهند ، كما أنه فى بعض أقسام الهند يوجد أناس يغلب عليهم السّواد الزنجى وليس من المحقق كون هؤلاء الهنود من أصل واحد مع سودان أفريقية ، فإن تأثير البيئة واستمرار هذا التأثير ألوفاً من السنين هما اللذان أوجدا الفروق التى ميزت السلالة البيضاء عن الصفراء ، وعن الحمراء ، وعن السوداء ، بحيث أنه فى أواخر الدور الحجرى فى أوروبة ـ أى منذ اثنى عشر ألف سنة ـ كانت السلائل البشرية قد تميزت بعضها عن بعض .

قال الفيلسوف المعاصر ولز الانجليزى « H. G. Wells » إن العلماء كانوا لايزالون يقسمون البشر إلى ثلاث أو أربع سلائل منفصلة بعضها عن بعض منذ القدم وهى سلالة سام ، وحام ، و يافث اعتماداً على قصة نوح ، الواردة فى الكتب المقدسة

ولم يبدأوا باخراج البشرية من هذا التقسيم ، وبالاعتماد على نظرية أخرى معناها أن البشرية كلها كتلة واحدة تباين بعضها عن بعض بالتأثيرات الجوية ، والعوامل الارضية والقوى المختلفة ، إلا منذ خمسين أو ستين سنة . ولكن العلماء لايزالون مختلفين فى بعض الشعوب هل هى عائدة إلى هذه السلالة ، أو تلك السلالة ؟ لأن الجزم بذلك غير ممكن . فالسلائل المشهورة هى أربع ، وكل منها مختلط بالآخر ؛ فأوربا وشطوط البحر المتوسط وآسيا الغربية تسكنها منذ آلاف من السنين أمم يقال لها السلالة القوقازيّة ، وهى ثلاثة أقسام ؛ الجنس الأشقر الشمالى ، وقد زعموا أنه جنس متوسط بين سلالتين ، والجنس الألبي الذى في وسط أوروبة ؛ والجنس الايبيرى أوالساكن على شواطىء البحر المتوسط . ثم تأتى السلالة الصفراء وهي فى شرقى آسية ، وفى أميركا ، ويقال لها السلالة المغولية . وفى أفريقية السلالة السوداء ، ومنها فى استراليا وفى غينيا الجديدة ، ثم إن السلالة الايبيرية المشتقةمن السلالة البيضاء كانت فى الماضى تسكن أقطاراً أوسع مما تسكن الآن ، فلذلك لاتعلم فى الحقيقة التخوم التى تفصلها عن السلالة السوداء ، ولا الفواصل التى تفصلها عن شعوب شرقى آسية . وقد ذهب « فيلفريد سكاڤن » إلى أن « هوكسلى » Huxley — وهو عالم طبيعى انجليزى ممن يقول بالنظرية الداروينية — كان يقول : إنه يوجد بين المصريين وبين الدارفيديين — شعب أورال الثانى جاء إلى الهند واستقر فى جنوبيها — وحدة فى الأصل ، وأن هناك نطاقاً بشرياً مستطيلا من ذوى اللون الأسمر كان يمتد فى القدم من الهند إلى أسبانية .

قال ولز : ويجوز أن هذا النطاق يكون قد امتد حتى شطوط الاوقيانوس الباسيفيكى . وربما كانت الشعوب الشمالية الشقراء ، والمغولية الصفراء ، فرعين من أصل واحد .

وهذه الشعوب الشمالية انفصل بعضها عن بعض ، فتباعد ما بينهما باختلاف

البيئة ، و يظهر أنه جاء وقت على التاريخ البشرى انتشرت فيه ثقافة أولية حجرية ذات خصائص مميزة لها ، وكان انتشارها على شواطىء البحر المتوسط بين الشعوب المائلة إلى السمرة ، ثم امتدت إلى الهند و إلى شواطىء الصين ، ثم إلى المكسيك والبيرو ، ولذلك تجدها دائماً على الشواطىء البحرية غير متوغلة فى الداخل .

وذهب « اليوت سميث » إلى وجود عادات وعقائد عامة لهذه الأقوام الساكنة على هذه الشواطىء لا تجدها عند الأمم الشمالية ، ولا عند الأمم الجنوبية . ومهد هذه الثقافة الحجرية كان قبل المسيح بخمسة عشر ألف سنة على ضفاف البحر المتوسط ، والقسم الشمالى من افريقية . والمدنيات الاولى أى مدنية مصر ، ووادى الفرات ، ودجلة ، قد تولدت من هذه الثقافة الحجرية . وكذلك مدنية العرب الرحّل الساميّين . اه ملخصاً .



التوراة وهل وقع فيها تبديل أم لا ؟

تعليق على ما جاء بسطر ٣ صفحة ٨ جزء أول من ابن خلدون

هـذا مقام جليل دقيق لا بد للباحث فيـه من أن يبلغ نهاية التروى حتى لا تدحض قدمه ، ولا يقع فيما يؤاخذ عليه . والذى يظهر من رأى ابن خلدون أنه لا يعتقد بتبديل التوراة أخذاً بقوله تعالى : (وعندهم التوراة فيها حكم الله) قال : فلو كانوا بدّلوا من التوراة ألفاظها لم يكن عندهم التوراة التى فيها حكم الله . ونقل عن ابن عباس قوله : معاذ الله أن تعمد أمة من الأمم إلى كتابها المنزل على نبيها فتبدله . أو ما فى معناه . ثم قال : إن ما وقع فى القرآن الكريم من نسبة التحريف والتبديل فى التوراة إلى اليهود فإنما يراد به التأويل فيها . ثم استدرك بقوله : (إلا أن يطرقها التبديل فى الكلمات على طريق الغفلة وعدم الضبط وتحريف من لا يحسن الكتابة بنسخها ، فذلك يمكن فى العادة ، لا سيما وملكهم قد ذهب ، وجماعتهم انتشرت فى الآفاق ، واستوى منهم الضابط وغير الضابط) الخ .

قلت : وليس هذا مذهب جميع المسلمين ، فإن قضية التبديل فى التوراة معروفة من صدر الاسلام ، ومشار إليها فى القرآن نفسه بأن اليهود كانوا يحرّفون الكلم عن مواضعه ، وأنهم كانوا يتعمدون كتمان بعض ما أنزل عليهم ، وقد ضربوا مثلا لذلك كون النبى صلى الله عليه وسلم سأل اليهود عما جاء فى التوراة بشأن رجم الزانية فأخفوا عنه آية التوراة المتعلقة بهذا الأمر . ومن المعلوم أن هذا وأمثاله مما شهد به القرآن على اليهود ، وجاء مثله فى الحديث ؛ لايخرج عن كونه تبديلاً ، ولذلك صارت قضية التبديل فى التوراة مثلا مضروبا . كنت أسمع أستاذنا الشيخ محمد عبده رحمه الله يقول : « هذه توراة مبدّلة » ولا أرى فى نسبة التبديل إلى التوراة مايخالف قوله تعالى : (وعندهم التوراة فيها حكم الله) لأن العبرة بالغالب ، أو لأنه

يريد أن يقول : إن التوراة فيها حكم الله إذا كانت على وجهها الصحيح . وبالجملة فالمسلمون منهم من حصر معنى التبديل في تحريف الكلم عن مواضعه ، ومنهم من اتهم اليهود بتبديل التوراة نفسها .

ومقدم هذه الطبقة هو أبو محمد بن حزم . فقد ذكر في كتابه « الملل والنحل » وجود مناقضات ظاهرة ، وأكاذيب واضحة في « الكتاب الذي تسميه اليهود التوراة ، وفي سائر كتبهم ، وفي الأناجيل الأربعة ، يتيقن بذلك تحريفها وتبديلها وأنها غير الذي أنزل الله عز وجل » ثم ذكر ابن حزم المواضع التي حكم فيها بوجود الكذب والتناقض ، وقال : « إنها من الكذب الذي لا يشك كل ذي مسكة تمييز في أنه كذب على الله تعالى ، وعلى الملائكة عليهم السلام ، وعلى الأنبياء عليهم السلام » . ثم قال قبل أن شرع في إيراد الأمثلة : « إننا لم نخرج من الكتب المذكورة شيئاً يمكن أن يخرج على وجه ما وإن دقّ ، وبعد فالاعتراض بمثل هذا لا معنى له . وكذلك أيضا لم نخرج منها كلاماً لا يفهم معناه ، وإن كان ذلك موجودا فيها . لأن للقائل أن يقول قد أصاب الله به ما أراد ، وإنما أخرجنا ما لا حيلة فيه ، ولا وجه أصلا إلا الدعاوى الكاذبة التي لا دليل عليها أصلا لا محتملا ولا خفيّا »

وقد جاء في الانسيكلوبيدية الاسلامية بقلم المستشرق الالماني اليهودي هوروفتز — وكانت لنا معرفة به وهو الذي ترجم لنا شِعْراً ارتجلناه عند زيارة بيت غوته شاعر الألمان الأكبر ، ونشر ذلك في الصحف ولهوروفتز ترجمة شعر الكميت أيضا — أن ابن حزم أورد ٥٧ موضعاً بيّن فيها تناقضات التوراة والمستحيلات التي فيها .

قلنا : إن أبا محمد بن حزم ذكر أن بأيدي السامريّة توراة غير التوراة التي بأيدي سائر اليهود ، يزعمون أنها المنزلة ، ويقطعون بأن التي بأيدي اليهود محرفة مبدلة وسائر اليهود يقولون إن التي بأيدي السامرية محرفة مبدّلة ؟ ! قال : ولم يقع الينا توراة السامرية ، لأنهم لا يستحلون الخروج عن فلسطين والأردن أصلاً ، إلا أننا قد أتينا ببرهان ضروري علي أن التوراة التي بأيدي السامرية محرفة مبدلة عندما

ذكرنا فى آخر هذه الفصول اسماء ملوك بنى اسرائيل » انتهى . قلنا إن اختلاف توراة اليهود عن توراة السامرية مسموع ، وقد كنا فى نابلس منذ ثلاثين سنة ، وكان يتردد علينا اسحق كاهن السامريّة ، ودعانا مرة الى الكنيس الذى لهم وهو شىء قديم جدا ، وأطلعنا على توراتهم وقال : إن تاريخ نسخها يرجع إلى ألف سنة . ومما أتذكره من كلامه ـ وكان عالماً بمذهبهم ـ أن بين توراتهم وتوراة اليهود بعض الاختلاف ، وربما يكون ذكر لى مواضع الاختلاف أو بعضها ، ولكنه لم يبق فى خاطرى ما ذكره لطول العهد به .

ونعود الى كلام ابن حزم ؛ فهو يأخذ مثلا عبارات من التوراة و يبين ما فيها من الاستحالة مثل « ونهر يخرج من عدن فيسقى الجنان ، ومن ثمّ يفترق فيصير أربعة أرؤس ، اسم أحدها النيل وهو محيط بجميع بلاد زويلة الذى به الذهب وذهب ذلك البلد جيّد ، و بها اللؤلؤ و حجارة البلّور . واسم الثانى جيحان وهو محيط بجميع بلاد الحبشة ، واسم الثالث الدجلة وهو السائر شرق الموصل ، واسم الرابع الفرات ، فقال : فى هذا الكلام من الكذب وجوه فاحشة قاطعة بأنها من توليد كذّاب مستهزىء ، أول ذلك إخباره أن هذه الأربعة تفترق من النهر الذى يخرج من جنات عدن . وأفاض ابن حزم فى تكذيب ذلك بما لاحاجة الى نقله هنا . ثم قال : فإن قال قائل : فقد صح عن نبيكم صلى الله عليه وسلم أنه قال : « النيل والفرات وسيحان وجيحان من أنهار الجنة » قلنا نعم هذا حق لا شك فيه ، ومعناه هو على ظاهره بلا تكلف تأويل أصلا ، وهى أسماء لأنهار الجنة كالكوثر والسلسبيل فإن قيل قد صح عنه عليه السلام أنه قال : « ما بين بيتى ومنبري روضة من رياض الجنة » قلنا هذا حق ، وهو من أعلام نبوته ، لأنه أنذر بمكان قبره فكان كما قال وذلك المكان لفضله وفضل الصلاة فيه يؤدى العمل فيه الى دخول الجنة ، فهى روضة من رياضها ، و باب من أبوابها .

ومعهود اللغة أن كل شىء فاضل طيب فإنه يضاف الى الجنة ، وليس كذلك الذي فى توراة اليهود ، لأن واضعها لم يدعها فى لبس من كذب ، بل بين أنه عنى النيل

المحيط بأرض زويلة بلد الذهب الجيد ، ودجلة التى بشرق الموصل ، وجيحان المحيط ببلد الحبشة ، فلم يدع لطالب تأويل حيلة ولا مخرجاً . ثم قال نقلا عن التوراة : « وقال الله هذا آدم قد صار كواحد منا فى معرفة الخير والشر ، والآن كيلا يمدّ يده ويأخذ من شجرة الحياة ويأكل ويحيي إلى الدهر ، فطرده الله من جنات عدن » قال ابن حزم : حكاية عن الله تعالى أنه قال : هذا آدم قد صار كواحد منا مصيبة من مصائب الدهر ، وموجب ضرورة أنهم آلهة أكثر من واحد . وقد أدى هذا القول الخبيث المفترى كثيراً من خواص اليهود إلى الاعتقاد أن الذى خلق آدم لم يكن إلا خلقا خلقه الله تعالى قبل آدم ، وأكل من الشجرة التى أكل منها آدم فعرف الخير والشر ، ثم أكل من شجرة الحياة فصار إلهاً من جملة الآلهة ، نعوذ بالله من هذا الكفر الأحمق ، ونحمده إذ هدانا للملّة الزهراء التى تشهد سلامتها من كل دَخَل بأنها من عند الله تعالى .

ثم قال فى إحدى الأماثيل التى أوردها من التوراة : فلما ابتدأ الناس يكثرون على ظهر الأرض ، وولد لهم البنات ، فلما رأى أولاد الله بنات آدم أنهن حسان اتخذوا منهن نساء ! ! وقال بعد ذلك : كان يدخل بنو الله إلى بنات آدم ويولد لهم حراماً ، وهم الجبابرة الذين على الدهر لهم أسماء ، وهذا حمق ناهيك به ، وكذب عظيم ، إذ جعل لله أولاداً ينكحون بنات آدم وهذه مصاهرة تعالى الله عنها . حتى أن بعض أسلافهم قال : إنما عنى بذلك الملائكة ، وهذه كذبة إلا أنها دون الكذب فى ظاهر اللفظ ، ثم مضى ابن حزم بلهجته الشديدة المعهودة المشهورة فى تكذيب التوراة ، أو بالأحرى ماينسب إلى التوراة مما ليس بالحقيقة منها ، فأملى نحواً من تسعين صفحة فى هذا الموضوع .

ومن جملة ما ذكر قضية لوط ، وأنه أقام فى المغارة هو وابنتاه ، فقالت الكبرى للصغرى : أبونا شيخ وليس فى الأرض أحد يأتينا كسبيل النساء ، تعالى نسق أبانا الخمر ونضاجعه ونستبق منه نسلا ، فسقتا أباهما خمراً فى تلك الليلة ، فأتت الكبرى فضاجعت أباها ولم يعلم بنومها ولا بقيامها ، فلما كان من الغد قالت الكبرى

للصغرى : قد ضاجعت أبي أمس تعالى نسقيه الخمر هذه الليلة وضاجعيه أنت ونستبقى من أبينا نسلا ، فسقتاه تلك الليلة خمراً وأتت الصغرى فضاجعته ولم يعلم بنومها ولا بقيامها . وحملت ابنتا لوط من أبيهما ، فولدت الكبرى ابناً وسمته مواب وهو أبو الموابيّين إلى اليوم ، و ولدت الصغيرة ابناً سمته ابن عمون وهو أبو العَمونيّين إلى اليوم » الخ . قال ابن حزم : فى هذه الفصول فضائح وسوآت تقشعر من سماعها جلود المؤمنين العارفين حقوق الأنبياء عليهم السلام ، فأولها ما ذكر عن بنتى لوط عليه السلام من قولها ليس أحد فى الأرض يأتينا كسبيل النساء ، تعالى نسق أبانا خمرا ونضاجعه ونستبق منه نسلا ، فهذا كلام أحمق فى غاية الكذب والبرد ! ! أترى كان انقطع نسل ولد آدم كله حتى لم يبق فى الأرض أحد يضاجعهما ؟ إن هذا لعجب » اه .

وسحب ابن حزم سائر اعتراضاته هذا السحب مما لا حاجة لاعادته ، فمن شاء فليراجعه فى كتاب « الملل والنِّحل » و إنما أوردنا ما أوردناه هنا على سبيل التمثيل ولا شك فى أن مثل هذه الأقاويل لا تجوز على كتاب منزل ، وأن نسبتها إلى كتاب منزل مضرة جداً بالدين ، ومفسدة للأخلاق ، وأن المسلمين لا يعتقدون بأن مثل هذا يكون من التوراة الحقيقية .

ومن العجب أن التوراة مع اشتمالها على هذه الفصول المستهجنة ، وهذه العبارات الغريبة المدهشة ، قد صدقها المجمع الكاثوليكى التارنتى الذى قرر أن التوراة الصحيحة فى نظر الكنيسة الكاثوليكية هى خمسة أسفار موسى التى يقال لها الناموس وكتاب الأنبياء المشتمل على كتب يشوع ؛ والقضاة ، والملوك ، ونبوات أشعيا و إرميا ، وحزقيال ، ودانيال ، والاثنى عشر نبيّا صغيراً ، وكذلك كتب « باراليبونسيس » و « إسدراس » و « نيحميا » و « طوبيا » و « يوديث » و « أستير » و « أيوب » والمزامير ، والأمثال ، والكهنوت ، ونشيد الانشاد ، والحكمة ، وكتابى المكابيّين . ولم يخرج الكاثوليكيون من التوراة إلا كتاب أنوخ ، وثلاثة أو أربعة كتب من إسدراس ، وثلاثة أو أربعة كتب من المكابيّين ، وكتاب منشّى .

١٢٢٦٧

أما اليهود والبروتستانت فانهم يخرجون من التوراة كتاب طوبيا ، ويوديث والحكمة ، والكهنوت ، وكتاب باروخ ، وبعض أقسام من كتاب أستير ، وقصة سوسان ، وقصة الشبان العبرانيين الثلاثة ، والكتابين الأولين من المكابيين ، وقصة أوثان بعل ، وداغون . هذا ما كان من العهد القديم ، فأما العهد الجديد فهو الذى يشتمل على الأناجيل الأربعة : متّى ، ومرقص ، ولوقا ، ويوحنا ، وأعمال الرسل ، و١٤ رسالة من بولس ، وسبع رسائل من بطرس ، ويعقوب ، ويهوذا ، ورؤيا ، يوحنا . وقد أخرج المجمع التارنتى من العهد الجديد رسائل برنابا ، ورسائل بولص إلى اللاوديقيين وإلى سنيكا وكتاب السيد المسيح إلى أبقار ، وكثيراً من الأناجيل .

وقد جاء فى كثير من الكتب — حتى التى ألفها مؤلفون مسيحيون — تخطئة للعهد الجديد أيضا ، فضلا عن العهد القديم . وتجد فى معجم لاروس تخطئة إنجيل متّى فى نَسَب المسيح ، فبعد أن ساق ما قاله متّى من أنه من سبى بابل إلى المسيح أربعة عشر بطنا ، قال : إن فى هذه النسبة مشكلات لاتقبل الحل ، لأنه لايوجد من سبى بابل إلى المسيح أربعة عشر ، وإنما هي ثلاثة عشر بحسب كلام متّى نفسه . فأما الذين أنحَوا على الأناجيل الأربعة بالتخطئة ممن لم يبق عليهم من المسيحية إلا الاسم فانهم كثيرون جداً . وقد ازدادت الكتب المتعلقة بهذا المبحث بعد الحرب العامة كثيراً ، فقد عرضوا الأناجيل على المحكّ ومحّصوها تمحيصاً لا بأس بأن نشير إلى بعضه ، ونورد عليه بعض الأمثلة ، لأن الاستقصاء فى هذا الباب يستغرق مجلدات كثيرة ، ونحن إنما نتوخّى مجرد الاشارة إلى الموضوع ، حتى إذا كان للقارىء رغبة يمكنه أن يراجعه فى مظانه ، ولو كانت هذه الحواشى للاستقصاء لم تكن لتنتهى .

جاء فى الكتاب المتعلق بالسيد المسيح من تأليف الدكتور « بينيه سانغليه » « Binet - Sanglé » أحد أساتيذ علم الروح فى فرنسة ، وذلك فى الجزء الأول من الطبعة الثالثة من الكتاب المذكور فى صفحة ٢٠ إلى صفحة ٧١ ما يأتى ملخصاً « إن أكثر رجال العمل لا يفكرون فى الكتابة والتأليف ، وترى المتهوسين من أصحاب الدعاية الدينيّة لا يهتمون بتقييد أعمالهم وتخليدها إلا بعد أن يدخلوا من العمر فى الطور الذى يقتضي الراحة ، فأما تلاميذ المسيح فقد تأخروا عن كتابة تاريخ

معلمهم بهذا السبب ، و بسبب آخر هو اعتقادهم أنه لم يبق وقت للكتابة لأن القيامة قريبة ، فبقيت أعمال المسيح مدة عشرين إلى ثلاثين سنة محفوظة فى الصدور لا فى السطور .

وقد ذكر « پاپياس Papias » الذى عاش فى النصف الأول من القرن الثانى وكان مطراناً على هيرابوليس ، وهى البلدة التى أقام بها فيلبّس الرسول أن المكتبة الأولى للأنجيل كانت ذاكرة شمعون الصفا ، و يعقوب بن زبدى ، و يوحنا بن زبده ولاوى بن الفايوس أى متّى ، وتوما ، واندريا ، وارستيون ، و يوحنان ، وفيلبس نفسه . فان هؤلاء الذين كانوا يحفظون تاريخ المسيح ، وكانوا يروون حركاته وسكناته للناس شفهياً ، إلى أن ألحّت جماعات المؤمنين عليهم بكتابتها فى الورق فكانت من أجل ذلك الأناجيل الأولى التى يشهد بوجودها الانجيلى لوقا ، و يشهد پاپياس نفسه ، فان لوقا يقول ما يأتى : « إن كثيرين أرادوا أن يسطروا روايات الوقائع التى تمت طبقاً لشهادة من شاهدوا عياناً » .

وانظر إلى ما يقول پاپياس فى مقدمة كتابه المسمى « شرح أحكام الرب » خطاباً لأحد أصحابه : « لا أتردد من أجلك أن أحرر ما سمعته من الزكينيم ـ الزكينيم بالعبرية تقوم مقام الشيوخ فى العربية . وهى مشتقة من فعل زكن بمعنى عَلِم وفطِن وأنت تعلم أن العربية والعبرية من أصل واحد والميم فى العبرية كالنون فى العربية فقولك الزكينيم هو كقولك الزكينين ـ وما وعته ذاكرتى لأجل إثبات حقيقة الشرح الذى شرحته ، ولم أكن ناقلا عن الرواة المعروفين بفصاحة اللسان وذلاقة التعبير كما يفعل الكثيرون ؛ بل ناقلا عن معلمى الحقيقة . فانى لا أحبّ أن أروى عمّن يدخلون مبادىء أجنبية فى كلامهم ؛ و إنما أحب أن أروى الوصايا التى فرضها الربّ والتى هى وليدة الحقيقة . فاذا كنت صادفت بعض من كانوا فى عشرة الزكينيم ـ أو الزكينين ـ فكنت أتحرى أن أعلم ما قال أندريا ، أو بطرس ، أو فيلبس ، أو توما ، أو يوحنان ، أو متّى ، أو تلميذ آخر من تلاميذ السيّد . ولم أكن أعتقد أن ما هو فى الكتب أفيد لى من سماع كلمة حيّة من أفواه هؤلاء ، فمرقص كان ترجماناً

لبطرس ، وكان يكتب كل ما سمعه من بطرس عن أقوال المسيح وأفعاله ، لأن مرقص لم يسمع المسيح ولم يصحبه ، وكان يتبع بطرس حيث ذهب ، وكان بطرس يعلّم بحسب الظرف الذى يوجد فيه ، و بدون أن يهتم بربط الروايات بعضها مع بعض ، فمرقص لم يكتب إلاّ ما سمع من بطرس ، ولم يكن له همّ إلاّ فى تقييد كل ما سمع بدون زيادة ولا نقصان »

ثم إن پاپياس يقول عن متى : « إن متّى جمع كلمات يسوع باللغة العبرية وترجمها كل بحسب استطاعته » فالأناجيل الأولية إذن كانت إنجيلين ؛ أحدهما إنجيل مرقص الأصلى ، والثانى مجموعة متّى . وكان إنجيل مرقص خاليا من الترتيب ، وكان مرقص هذا و يقال له أيضا يوحانان من سلالة اللاويّة ، وكان يحمل لقبا يونانيا بحسب العادة فى ذلك الوقت ، وكانت أمه تدعى مريم وفى بيتها كان يجتمع حواريّوا المسيح وكان قد قطع إحدى أصابعه حتى لا يعود صالحاً للكهنوت اليهودىّ . فكان « هيپوليتوس » القديس يقول له : « مرقص ذو الاصبع المقطوعة » وقد روى « أوزيبيوس » أنه لما كان بطرس الملقب بالصفا يعظ فى رومة ؛ كان الناس الذين يتلقون البشارة منه يترجون مرقص أن يقيد ذلك بالورق و يدفعه لمن يريد ، فعرف بطرس بالأمر فما نهاه ولا شجعه فى البداية ، ولكن بعد أن كتب مرقص إنجيله صار يتلى فى الكنائس ، ثم ذهب مرقص إلى إسكندرية وأسس هناك الكنيسة المسيحية ــ ولا يزال القبط يسمون كنيستهم بالكنيسة المرقصية ــ وعاش هناك بين سنة ٤٥ و ٤٧ للمسيح .

أما مجموعة متّى فقد كتبها هذا بين سنة ٥٠ و ٦٠ وكان متّى من الحواريين وكان متصوفا متقشفاً لا يأكل اللحم ، ولا يشرب الخمر ، و بقى فى فلسطين اثنتى عشرة سنة بعد المسيح ، ونشر إنجيله بلغة العبريين ، بينما كان بطرس و بولس يؤسسان كنيسة رومة . فهذان الانجيلان هما أقدم الأناجيل .

وجاءت بعد ذلك الأناجيل الثانوية وكثر عددها ، ولما تغلبت الكنيسة فى الدولة الرومانيّة أحرقت جانبا عظيما من هذه الأناجيل الثانوية ، بحيث لم يبق منها

إلا أسماء فقط . فمنها إنجيل « أندرياس » جاء ذكره فى منشور من البابا جيلاسيوس الأول سنة ٤٩٤ ومنها إنجيل « بارنابى » الذى ذكره « جيلاسيوس » ولم يكن يفترق عن إنجيل متّى . ومنها إنجيل « باسيليديس » ذكره « أور يچينيس » وقد كتب سنة ١٢٥ . ومنها إنجيل « قيرنيتوس » وكان يهوديا مال إلى شريعة عيسى وكتبه فى نحو سنة ١٨٠ وكان يقول إن عيسى هو ابن يوسف من مريم . وقد ذكر هـذا الـكتاب القديس « هيپوليتوس » . ومنها إنجيل « هيز يشيوس » الذى ذكره « إيرونيموس » (سنة ٣٤٠ إلى سنة ٤٢٠) ومنها إنجيل يعقوب الصغير ذكره «جيلاسيوس» ومنها إنجيل يهوذا ذكره «اير ينابوس» (١٧٧ — ٢٠٢) وكان هذا الانجيل مستعملا عند القايينيين وهى نحلة كانت تتمسك بكل شيء تحرمه الـكنيسة وكانت تعظم قايين . ومنها إنجيل « تاداى » ذكره جيلاسيوس . ومنها إنجيل « مقريون » ابن مطران سينوب ألفه سنة ١٣٠ وذكره ايرنايوس وهو مأخوذ من إنجيل لوقا ، ولـكنه لا يذكر الفصل المتعلق بميلاد يسوع ، ولا قصة الـكرمة ولا الابن الشاطر . ومنها إنجيل متّى الذى ذكره « أور يچينيس » ومنها إنجيل « ساتور ينوس » ذكره هيپوليتوس وتاريخه سنة ٢٢٠ . ومنها مجموعة الأناجيل الأربعة بقلم « تاتيانوس » الآشورى تلميذ يوستينوس وكان من النّحلة التي تحرم أكل اللحم وشرب الخمر والشهوات البدنية . وقد كتب هذا الـكتاب سنة ١٧٢ باللغة الآرامية ولا يوجد فى هذا الانجيل النسبة الداودية .

وفى سنة ٤٥٣ وجد «تيودور يتوس» أسقف سيروس ـ مدينة بقرب الفرات ـ مائتى نسخة من هذا الانجيل بين رعيته فمنعها . وفى سنة ٥٤٥ اطلع ڤـكتور أسقف « كابرى » على ترجمة لاتينية لهذا الـكتاب . ثم أناجيل الناسينيين « Naasseniens » والبيراتيين « Perates » والسيتيين « Sethiens » ذكرها كلها هيپوليتوس وفى الانجيل الأول منها خطب ليعقوب بن يوسف أخى يسوع . ومنها إنجيل السمعانيين « Simoniens » جاء ذكره فى المقدمة العربية لمجمع نيقية المنعقد سنة ٣٢٥ . ومنها الانجيل الأبدى ، جرى تأليفه فى القرن الثانى عشر بقلم راهب اسمه « جيوفاشينو »

« Giovacchino » وحرمه البابوات سينيبالدو الذى عاش من سنة ١٢٤٣ إلى سنة ١٢٥٤ ؛ و بطرس الذى عاش سنة ١٢٧٦ . ثم تاريخ فرار مريم العذراء و يوسف إلى مصر ، وهو منسوب إلي « ثيوفيلوس » الاسكندرى وقد ذكره السمعاني فى المكتبة الشرقية (١٦٨٧ ـ ١٧٦٨) ومنها أسئلة مريم التى ذكرها « أبيفانوس » (٣٢٠ ـ ٤٠٣) وفيها قضية تطهير الأنفس . ومنها إنجيل الكمال ذكره أبيفانوس ومنها الانجيل الحيّ كان منتشراً بين المانويين .

و يوجد أناجيل أخرى محفوظة منها بعض قطع ، وذلك مثل إنجيل حوّاء وكان معروفا عند الأوفيتيين « Ophites » الذين كانوا يعبدون الثعبان ، وهو مشابه لانجيل الكمال . ومنها إنجيل « بارتلماى » الذى حرمه جلاسيوس ، وجد فيه بعض المؤلفين قطعاً مهمة باليونانى والقبطى مترجمة عن العبرى . ومنها إنجيل فيلبس من القرن الثانى وكان هذا يحرم الزواج ، و يذهب إلى أن النسل نتيجة مبدأ غير حسن ، ولم يبق منه إلا قطعة ذكرها أبيفانوس .

ومنها إنجيل شمعون الصفا و يذهب يوستينوس إلى صحته ، وليس بينه و بين إنجيل متى إلا فرق قليل وتاريخه من سنة ١٦٠ إلى ١٧٠ و بقى معمولا به إلى سنة ١٩٠ وفى سنة ١٨٨٧ وجدوا فى أخميم بمصر فى قبر راهب قطعة منه . ومنها إنجيل توما المحرر فى القرن الثانى بقلم بعض مسيحيين من سورية باللغة اليونانية . ومنها إنجيل الحقيقة محرر سنة ١٥٠ ذكر منه هيپوليتوس بعض قطع . ومنها تعاليم الرسل الاثنى عشر ، عثروا عليه بشكل مخطوط يونانى و يقال إنه كان فى القرن الثانى . ومنها إنجيل الاثنى عشر حوارياً وجده ريفيليو « Revillout » باللغة القبطية ، ومنه مخطوط فى مكتبة ستراسبورج وكاتبه يزعم أنه غمليل القديم الذى كان يدافع عن شيعة يسوع أمام مجلس اليهود . وهذا الانجيل تاريخه يرجع إلى القرن الثانى . ومنها ذكريات الرسل أشار إليها يوستينوس سبع عشرة مرة ، وكانوا يقرأونها كل يوم أحد فى النصف الثانى من القرن الأول . ومنها الانجيل بحسب العبرانيين أو الناصريين كتب باللغة الآرامية فى أواخر القرن الأول ، وهو يشبه إنجيل متّي . و يذهب

«إيرونيموس» ، و«ريشارد» سيمون إلى أن هذا الانجيل أعلى درجة من إنجيل متى . فالغلطة التي غلطها متى فى جعله زكريا ابناً لبريكيا مصححة فى إنجيل العبرانيين الذى يجعله ابن يُوادا . وقد كان هذا الانجيل مستعملا فى فلسطين وسورية و بقى منه اثنتا عشرة قطعة وأشار إليه « إغناطيوس » فى رسائله إلى أهل إزمير و « طيطوس » و « فلاڤيوس » و « كليمان » و « أوريچينيس » و« أوريڤيموس » . وليس فى هذا الانجيل ذكر لبكارة مريم . ثم إنجيل العبرانيين الإبيونيم وهم جماعات فى السامرّية كانوا يحافظون على بعض عادات اليهود لكنهم كانوا يمتنعون عن أكل اللحم وكانوا يحبون الاغتسال كثيراً ، و يعيشون فى الفقر . و إنجيلهم هذا مشتق من إنجيل الحواريين الاثنى عشر ، وليس فيه نسبة يسوع ، ولا حمل مريم له بصورة عجيبة ولا قصة ملوك المجوس ، ولا قصة فرار مريم بيسوع إلى مصر . وهم يقولون : إن يسوع هو ابن يوسف من مريم ، ولم تكن مريم بكراً ، ولا كان يسوع إلهاً . وقد حفظ أبيفانوس قطعة من هذا الانجيل . ثم الانجيل بحسب المصريين كتب باللغة الآرامية سنة ١٥٠ يقرب من إنجيل لوقا ، و إنجيل متى ، وهو ينسب إلى يسوع ألفاظاً غريبة . وقد ذكره تيتوس ، وفلاڤيوس ، وكليمان ، وغيرهم . ثم الانجيل المتهوّد وهو منسوب إلى « فوسطُس كليمانس » ولا يوثق به . ووجد « بيكل » « Bickel » فى ڤينا قطعة من إنجيل لم يعرف صاحبه . و يوجد كتاب فيه كلمات منسوبة إلى يسوع لا توجد فى الأناجيل واسمه أغرافا « Agrapha » وكشف « ريفليو » قطعاً فيها أخبار عن مريم فى صغرها كان يسوع يحدث بها الرسل ، ونشر ذلك فى الجريدة الآسيوية . و وجد طرس فى البهنسا من مصر يحتوى واحداً وعشرين سطراً على الوجهين ، يظهر أن تاريخها راجع إلى سنة ٢٠٠ . ووجد خبر موت القديس يوسف الناصرى النجّار والد السيد المسيح ــ بحسب زعمهم ــ عثروا على ثمانى ورقات من هذا الكتاب . ووجد خبر موت العذراء مريم فى مخطوط قبطى نشره «ادوار دولوريه Dawrulier»

ثم إنه يوجد أناجيل محفوظة بتمامها ووثائق أخرى ساميّة متعلقة بالسيد المسيح وعائلته منها الكتاب المسمى عقيدة أداى « Addai » وهو مؤلف سريانى من القرن الرابع

كتب تحت إملاء بارسلناك كاتب أبقار « Abgar » الأسود ملك الرها من سنة ١٣ إلى سنة ٥٠ وجد من هذا الكتاب مخطوط تاريخه القرن الخامس عشر عليه « كيرتون Cureton » سنة ١٨٧٦ وقد وجد فى هذا الكتاب مكتوب من « أبقار » إلى يسوع يرجوه أن يحضر إليه فى الرها حتى يشفيه من مرض هو مصاب به . ومكتوب من يسوع إلى أبقار يذكر له فيه أن كل من يؤمن به ينال الخلاص ، وأنه سيرسل إليه أحد تلاميذه ليشفيه من مرضه . وقد ذكر أوزيبيوس (٢٦٥ — ٣٤٠) هذين الكتابين فى تاريخ الكنيسة ولم يشك كثير من العلماء في صحتهما ، منهم « تيلمونت Tillemont » والسمعانى و « كاف Cave » و « جراب Grabe » و « رنك Rinck » وفيلبُّس .

ثم إنجيل برنابى وصاحبه يزعم أنه عاش فى زمن يسوع ، وكان مخالطا له ولأمه وهو يذكر أنه لم يكن إلا نبياً من الأنبياء ، وأن الصلب إنما وقع على يهوذا الاسخريوطى لشدة شبهه بعيسى ، وأن عيسى رجع إلى أمه وتلاميذه ولم يصلب وهذا الكتاب هو تأليف أحد المسلمين .

قلنا : إن الحكم بدون دليل لا يصح ، فقول الدكتور بينيه سانغليه إن هذا الكتاب تصنيف أحد المسلمين بدون ذكر المسلم الذى صنفه بل بمجرد الظن ليس بوارد ، فالظن لا يغنى من الحق شيئاً ، وكان عليه أن يأتى بالأدلة على هذا الزعم فان كان الدليل عنده على هذا هو نفى الصلب ، والقول بأنه وقع على غير عيسى تشبيهاً له به ؛ فليس المسلمون وحدهم قالوا بهذا ، وهذه الرواية موجودة من زمن عيسى نفسه . حتى أن أميل لودفيج اليهودى الألمانى المشهور بتأليف التراجم ذكر فى آخر كتابه الذى ألفه لهذا العهد عن المسيح أنه لما سرق النصارى جثة عيسى من المغارة بعد الصلب جاء اليهود وشكوا الى بيلاطوس النبطىّ سرقة جسد عيسى وقالوا له : كيف يمكن بدون التواطؤ مع الحكومة أن يتمكن النصارى من إخراج الجسد من المغارة! . وشائع اليوم كثيرا أن عيسى لم يصلب ، وأن الصلب إنما وقع على غيره . وقد استوفينا قضية الصلب هذه فى حواشينا على « حاضر العالم الاسلامى » فى عرض

الـكلام على كتاب « درمنجهم » الذى أراد التوفيق بين الاسلام والنصرانية . فمن شاء فليراجعها هناك . وقد نشر الأستاذ صاحب المنار (رحمه الله) مباحث فى هذا الموضوع ورسالة سديدة لأحد الدكاترة المصريين .

و بديهى أن من الأناجيل المحفوظة بتمامها إنجيل مرقص ، و إنجيل يوحنا و إنجيل متّى ، و إنجيل لوقا ، وهى الأربعة التى يعول عليها النصارى .

ثم هناك كتاب يقال له طولدوس يشوع « Toldos Jeschou » وهو مؤلف عبرانى من القرن الثانى عثروا عليه فى أواخر القرن الثالث عشر ، ونشر سنة ١٦٨١ وفيه أكثر القصص المذكورة فى الأناجيل ، وفيه ذكر موت يعقوب أخى المسيح . ثم تلمود أورشليم وبابل ، وفيه ذكر المسيح . ثم قصة المسيح وهو صغير بقلم توما الفيلسوف الاسرائيلى يذكر معجزات عيسى وهو محفوظ بكل من اللغات السريانية واليونانية ، واللاتينية . ثم مكتوب يسوع النازل من السماء ذكره « ليسنيانوس » أسقف قرطاجنّة فى القرن الرابع للمسيح . ثم تاريخ يوسف النجار كتب فى مصر في القرن الثانى وهو بالقبطية . ثم قصة مولد مريم وهى ثلاثة أقسام ؛ اثنان منها كتبا فى القرن الثانى ، والثالث فى القرن السادس . وفى هذا الـكتاب مذكور ولادة مريم ومنشؤها فى الهيكل ، وزواجها وحملها بيسوع ، وغضب يوسف النجار عند ماعلم أنها حامل . وهذا الـكتاب محرر باليونانية . ثم كتاب ولادة مريم وطفولية عيسى لمؤلف مجهول اسمه متّى و يظهر أنه من القرن السادس ، وفيه قصص وردت فى كتاب ولادة مريم ، وفى كتاب توما الفيلسوف الاسرائيلى ، مع زيادات ، وهو محرر باللاتينى . ومثله كتاب عن ولادة مريم أيضاً كتب فى القرن الخامس باللغة اللاتينية . ثم مكاتيب السيدة مريم إلى أهالى مسّينى ، وفلورانسا ، وجواب السيدة مريم إلى أغناطيوس ، وهـذه المـكاتيب ظهرت سنة ١٤٩٥ فى خاتمة تاريخ توما دوكانتربورى « Thomas de Cantorbery » ثم كتاب عن مريم أيضا جاء ذكره فى منشور البابا جيلاسيوس وهو منسوب إلى يوحانان بن زبده . وقد وصل إلى الناس هذا الـكتاب بالعربية . وكتاب آخر يتعلق بمريم تأليف « ميلتون »

مطران السارد تاريخه القرن الثانى . ثم رسالة للقديس يوحانان اللاهوتى على قيامة مريم من بين الأموات مظنون أنه كتب فى القرن الثانى عشر . ثم الانجيل المسمى بانجيل الحداثة كتبه أحد النساطرة الذين ينكرون وجود المطهر ، ولا يقولون بعزوبة القسيسين ، وقد وصل إلى الناس باللغة العربية ، ولعله مترجم عن السريانى ثم الرسائل المنسوبة إلى يعقوب بن يوسف ، و إلى يهوذا بن يوسف إخوة المسيح . ثم أعمال الرسل تأليف لوقا ، ثم تاريخ الرسل تأليف أوباديا ــ أو عُبَادية ــ كتب بالعبرانى فى صدر النصرانية . ثم تاريخ الكنيسة لأوزيبيوس (٢٦٠ — ٣٤٠)

فجميع هذه الكتب ما عدا الأناجيل الأربعة عدت أحاديث خرافة ، وحرمتها الكنيسة ، واضطر الذين بأيديهم منها شيء أن يخفوه . و برغم هذا فقد كانت من القرن الخامس إلى القرن السادس عشر منتشرة جداً ، وربما كانت هى السبب فى انتشار العقيدة المتعلقة بمريم حتى انتهى الأمر بأن عبدوها . فأما الأناجيل الأربعة فقد تقررت صحتها فى المجمع اللاوديقى فى أيام البابا سلفستر الأول (٢٧٠ ــ ٣٣٧) وفى مجمع قرطاجنّة المنعقد سنة ٣٩٧ وقد ثبّت ذلك البابا جيلاسيوس الأول سنة ٤٩٤ وأقدم هذه الأناجيل الأربعة إنجيل مرقص ، وهو رأى « ڤيلكه » « Wilke » و « ڤايس Weiss » و « أرنست رينان » و « جول سورى » و « ألبير ريفيل » و « إدمون ستابفر » وليس فى هذا الانجيل صنعة ولا اهتمام بتأييد العقيدة ، بل هو يذكر الحوادث كما هى بدون زيادة ولا نقصان ، وليست فيه النسبة الداودية ولا أعجوبة الحمل ، ولا ميلاد المسيح ولا صعوده ، و إنشاؤه ساذج ، ولذلك فقيمته التاريخية عظيمة ، و يأتى بعده إنجيل متى وقد كتب بالعبرية ، وترجم إلى اليونانية ، وكاتبه يروى روايات غير مضبوطة ، فيها كثير من التعسف ، و يزيد و ينقص ، و يحرف و يبدل ، و يضع فى يوم واحد حوادث وقعت فى يومين مختلفين ولا يتنبه إلى أنه قد روى القصة مرتين ، و يحاول أن يعلل كيف أن يسوع الذى كان أكبر من يوحنا المعمدان جاء يطلب من يوحنا أن يعمده . وفى المحل الذى يذكر مرقص مريضاً واحداً نال الشفاء على يد عيسى يذكر هو مريضين ، وفى المحل

الذى يقول مرقص فيه لفظه « كثير » يقول متّى « الجميع » والفتاة النائمة يقول عنها إنها ميتة ، وقد ورد فى إنجيل مرقص : « لماذا تدعوننى صالحاً . مامن صالح غير الله » فمتّى يبدل ذلك قائلا عن لسان المسيح « لماذا تسألوننى عما هو صالح لايوجد إلا صالح واحد »و محل « طوبى للفقراء » يقول «طوبى للفقراء بالعقل » ومحل« الجياع » يقول « الجياع إلى العدل » ثم إن متّى يحذف الجملة التى وردت فى إنجيل مرقص من أن أقارب يسوع ظنوا به جنّة ، ومتّى يتعب كثيراً فى إثبات أن عيسى ولد فى بيت لحم وأن جميع النبوات المتعلقة بالمسيح قد تمت به ، وهكذا يؤوّل ما جاء فى العهد العتيق متعلقاً بحوادث لا صلة بينها و بين المسيح ، وهو يحذف ما جاء فى إنجيل مرقص من زيارة النساء لقبر المسيح وكونهنّ لم يكنّ منتظرات قيامه من بين الأموات . ثم إنه يذكر التوراة إحدى عشرة مرّة ، وفى نقله عنها يخلط خلطاً كبيراً ، إما فى النص أو فى اسم القائل ، إلى غير ذلك من التحريف والتبديل وفيه كثير من الخرافات . اهـ

فأنت ترى أن مؤلف هذا الكتاب الذى لا يوجد أوسع منه فى هذا الباب يطرى فى الصدق إنجيل مرقص ، و يبالغ فى انتقاد إنجيل متّى . والحال أنه منذ ثلاث سنوات ظهر كتاب عنوانه « لأجل فهم حياة يسوع » تأليف الأستاذ « بروسبير الفاريك Prospere Alfaric » المدرس بجامعة استراسبورغ ذهب فيه الأستاذ المذكور مذهب من يرى أن أكثر ما ورد فى إنجيل مرقص مطبق عمداً على نبوّات سبقت فى العهد القديم ، سواء كانت الحوادث المروية صحيحة أو غير صحيحة ، وهذا من قبيل الدعاية لا التاريخ . وقد اجتهد هذا المؤلف أن يثبت كل ما هناك من التناقضات تارة ، ومن الأخبار المخالفة للطبيعة طوراً ، مثل أن الدنيا كلها أظلمت من الساعة السادسة إلى الساعة التاسعة أثناء احتضار السيد المسيح على الصليب ، وأنه انشق حجاب الهيكل ، وغير ذلك من القصص . وكذلك ظهر كتاب جديد اسمه حياة يسوع للمسيو « موريس غوغويل Goguel » من علماء فرنسا توخّى فيه الرد على الدكتور « كوشو Couchoud » الافرنسى وغيره من

علماء الألمان والانجليز والهولنديين الذين لم يجدوا فى الأناجيل حقائق تاريخية تثبت على التمحيص ، بل كل ما وجدوا فيها تقريباً هو من باب الدعاية الدينية المحضة . ومنهم من رجح كون المسيح رمزاً ، وأنه لم يوجد أصلا . فالمسيو غوغويل يبين ما فى هذه الأقاويل من المبالغات، وهو يقول إن وجود عيسى محقق ، وأن الأخبار الواردة فى الأناجيل يمكن ربط بعضها ببعض وأخذ نتيجة تاريخية صحيحة منها ، وهو يرى أن ادعاء كون المسيح رمزاً فيه من المشكلات التاريخية أكثر من القول بأنه وجد بالفعل.

نعم أن المسيو موريس غوغويل يعتقد أن كثيراً من روايات الأناجيل غير واقعية ، بل مطبقة على التقاليد النصرانية تطبيقاً لمجرد الدعاية ، أو بحسب الاعتقاد وأن هذا فى واد والتاريخ في واد . وكذلك رينان فى كتابه الشهير « حياة يسوع » يعترف بتطبيق بعض الروايات على النبوات السابقة تعمّداً أو تعملاً .

ولنعد إلى بحث الدكتور « بينيه سانغليه » فهو يذكر أن انجيل لوقا كتب سنة ٦٤ وأن لوقا لم يكن من الذين عاصروا المسيح ، ولا كان يهوديا ، ولكن فى كلامه كثير من العبرى والآرامى فهو بدون شك من أصل سامى . وقد كان لوقا فيما يظهر من المتصوفة وكان مذهبه فى التاريخ أن يجمع و يرتب الحوادث بدون اعتناء فى أمر صحتها وعدمه . ولكنه لم يكن يسلم من التكرار والتناقض . و يظهر أنه كان طبيباً ، وله عدا الانجيل المذكور كتاب اسمه « أعمال الرسل » . وهذه الأناجيل الثلاثة لم يأت القرن الثانى للمسيح حتى كانت هى المساند المعول عليها عند جميع النصارى . أما إنجيل يوحنا بن زبدى فقد كتب بين سنة ٨٠ و ٩٠ في آسيا الصغرى وهو يأخذ عن الأناجيل السابقة ، وعن وثائق لم يطلع عليها مرقص ومتّى . وقد كان يوحانان هـذا يهوديا وكانت كتابته بالعبرانية ، وكان مطلعا على العهد العتيق ، وكان يجتهد فى إثبات أن المسيح هو ابن الله ، و يأتى بجمل من العهد العتيق ليستخرج منها إشارات إلى مجىء المخلّص، و يكثر من الكنايات والاستعارات والتأويلات ، وعند ما يذكر أن المسيح قال : « اهدموا هذا الهيكل وأنا أقيمه بعد ثلاثة أيام » زعم أن مراده بالهيكل إنما هو جسده ! و برغم كل هذا فالذين حكموا بصحة هذا الانجيل عدد لا يحصى من

العلماء ، وذهبوا إلى أنه ناقل أمين ، وأن يوحانان هذا كان أعلم بالأسماء والأعلام من أصحاب الأناجيل الأخرى ، وربما أوضح أموراً من أحوال المسيح وعلاقاته مع أحبار اليهود وأعماله فى القدس قد فاتت أصحاب الأناجيل الثلاثة الأولى .

وبرغم أن فى كلامه عن أيام المسيح فى القدس بعض سقطات فهو فى هذا الموضوع أعلى درجة من مرقص ومتّى ولوقا . وذهب بعضهم إلى أن يسوع فى إنجيل يوحانان هو يسوع الحقيقى التاريخى . وقال آخرون : إن أوثق الأناجيل هما إنجيل مرقص ، وإنجيل يوحنا المذكور . وطعن بعضهم فى يوحانان المذكور فقالوا : إنه كان جاهلا متكبراً متعصباً منتقما ، وكانت فيه ميول شاذة ، وكان تلميذا ليوحنا المعمدان وأن والده كان صياد سمك فترك والده واتبع المسيح ، وقال عن نفسه : إنه التلميذ الذى كان يسوع يحبه ، وبعد موت المسيح صار من رؤساء الفرقة المسيحية ، فحبس واضطهد ، وكانت وفاته فى أفسوس سنة ٩٨ . وقد كان لانجيله نجاح عظيم ، لأن الناس كانوا يعلمون خلطته بالمسيح من البداية ومن قبل متّى . وقد سأله بعض المؤمنين عن رأيه فى أصحاب الأناجيل الثلاثة التي سبقته فقال : إن الذى أهملوه من جهة المعجزات التى يجب أن تروى كان شيئاً قليلا . فرغب إليه المؤمنون بسدّ النقص الذى وقع فى الأناجيل الأخرى ، فكان ذلك هو الحامل له على وضع إنجيله .

وكانت هذه الأناجيل الأربعة مكتوبة على ورق البردى ، وما انتهى القرن الثانى حتى وجد منها ستون ألف نسخة ! ويقال إنه يوجد اليوم ١٠٧٧ مخطوطاً من الأناجيل الأربعة ، وإن أقدمها هو إنجيل تاريخه القرن الرابع عثر عليه «تشندورف» فى جبل سيناء فى ٤ فبراير ١٨٥٩ . انتهى .

ثم إن الدكتور بينيه سانغليه تكلم عن قيمة الأناجيل التاريخية فنقل أكثر الأقوال المختلفة فى هذا الموضوع ، ورجح الرأى القائل بأن أصحابها كانوا قوما سذّجاً رووا الأمور على علاتها ، وأنهم لو كانوا من أهل الصنعة والدهاء لم تقع فى أناجيلهم الأغلاط والتناقضات التى وقعت . نعم أن سذاجتهم أوقعتهم فى أخطاء كثيرة كما هو الشأن فى كل ساذج يريد أن يروى قصة ، لكن مما لاجدال فيه أنهم لم يضعوا

أكاذيب من عندهم ، وغاية ماهناك أن هوسهم كان يحملهم على نقل أشياء غير مطابقة للواقع . اه ملخصاً .

فالقارىء يرى مما لخصناه هنا عن العهدين العتيق والجديد أن الاختلاف واقع فى كل منهما . فالعهد العتيق قد أضاف إليه اليهود مالا يليق بالكتب المنزلة بوجه من الوجوه كما تقدم الكلام عليه ، فلم يكن التبديل منحصراً فى تحريف الكلم ، ولا فى تأويله كما ذهب إلى ذلك ابن خلدون رحمه الله ، هذا فضلا عما وقع من الاختلاف فى الأقسام التى يجب أن تعد من التوراة ، والأقسام التى يجب إخراجها منها .

وأما العهد الجديد فان التناقضات واقعة فيه من كل مكان ، فمنه أناجيل رفضتها الكنيسة بالمرة ، ومنه أناجيل لم ترفضها الكنيسة بالمرة ولكنها لم تدخلها فى الكتب الكنسية المعول عليها ، ومنه الأناجيل الأربعة التى قررت المجامع العمل بها . وليس رفض الكنيسة لبعض الأناجيل و بعض التواريخ المتعلقة بالعهد الجديد دليلا كافيا على عدم صحتها ، لأن الكنيسة تنفى كل ماهو خارج عن عقيدتها ، ودليل ذلك أن ما ينفيه الكاثوليك مثلا قد يثبته البروتستانت ، فالاختلافات بين الأناجيل المردودة والأناجيل المصدقة لا تكاد تحصى . وأهم من هذا أن الأناجيل المصدقة والمعول عليها هي أيضا لم تسلم من الاختلافات ولا من الأخطاء كما أجمع على ذلك العلماء الأوربيون الذين محصوها .

وقد يعترف العلماء المسيحيون أيضا بوقوع الاختلاف فيها ، لكنهم يردونه إلى التأويل ، و يجعلونه من الأعراض التى لا تمس جوهر الحقيقة ، وهذا فيه نظر . وعلى فرض جواز هذا القول فان وجوه الاعتراض الكثير الواقع على الأناجيل من جهة العلماء المدققين غير المؤمنين بالدين المسيحى إنما هى من مخالفة رواياتها للسنن الطبيعية ومن جهة كونها إنشاء جماعة إن لم يجز وصفهم بالكذب لم يجز وصفهم بالعلم وهذا كله لا ينفى ما يجب من حرمة التوراة والانجيل وتقديسهما وفقا لما فى القرآن العظيم الذى يوجب لهما هذه الحرمة من حيث وجودها الأصلى ، ولكنه لم يضمن صحة نسخ التوراة و نسخ الانجيل التى تعاورتها أيدى الناس بالحذف والتبديل بحسب الأهواء ، والله تعالى من وراء العلم .

تاريخ العرب الأولين

تعليق على ماجاء فى السطر ١٨ من الصفحة ٢٣ من الجزء الأول من ابن خلدون

لايزال المؤرخون عموماً ، والمتخصصون فى تاريخ الأمم السامية ، متفقين على كون تاريخ العرب القدماء غامضاً ، وأنه لايزال مفتقراً إلى وثائق كثيرة تجلو حقيقته ولقد عثروا على كتابات غير قليله كشفت بعض نواح منه ، إلا أن كثيراً من هذه الكتابات لايزال مجهولا ، وما دام هذا القسم من الكتابات لايزال مغيبا ، فلا يزال تاريخ العرب الأولين ناقصا . والآن تجد معول المؤرخين فى هذا التاريخ على بعض الكتابات التى تمكنوا من حلها فى بلاد العرب ، وعلى ماهو وارد فى تواريخ الأمم الأخرى من بابليين وأشوريين ومصريين وعبرانيين و يونانيين ورومانيين وكذلك على ماهو وارد عن علماء الاسلام بشأن عرب الجاهلية .

وقد جاء فى الكتابات البابلية الخزفية التى عثروا عليها مايدل على وجود ملك إسمه « مانيوم » كان ملكا على « ماغان » أو بلاد العرب الشرقية . و يظنون أن « ماغان » هذه هى معان ، كما أنه ورد فى محل آخر ذكر « ملوخ » الذى يظن أن منه اشتق اسم العمالقة . وكان السومريون ذوى علاقات مع هؤلاء . ثبت إذن وجود العمالقة فى التاريخ منذ ألفين وخمسمائة سنة قبل المسيح . فأما الكتابات التى عثروا عليها فى جزيرة العرب فهى ترجع إلى ألف سنة فأكثر قبل المسيح ، وأكثر من خدم العلم فى كشف هذه الكتابات المنقوشة على الصخور هو بحسب ماورد بالانسكلو بيدية الاسلامية؛ يوسف هاليفى «Goséphe Halevy» وأدوار غلازر «Edoird Glaser» وهذه الكتابات تنقسم إلى قسمين بحسب اللغة ؛ فالأول هى المعينية ، والثانى هى السبئية نسبة إلى معين وسبأ ، وهما قبيلان يقال إنهما من حضرموت . وفى سنة الخمسمائة قبل المسيح كان ملوك مأرب فى اليمن يطلق عليهم لقب ملوك سبأ ، ثم ظهر بعدهم الحميريون وتمكنوا فى مأرب أيضاً . وفى نحو السنة الثلاثمائة قبل المسيح كان يقال للواحد من

هؤلاء ملك سبأ وذى رَيْدَان وحضرموت ، ثم أضافوا إلى ذلك اللقب جملة « وعربهم فى الجبل وتهامة » و بقى ملك الحميريين هؤلاء إلى ما بعد استيلاء الأحباش على اليمن أى فى القرن الرابع بعد المسيح إلى القرن السادس .

وقد وجد العلماء كتابات منقوشة على الصخور من ذلك العهد . وكان غلازر الآنف الذكر هو الذى كشف الكتابة الطويلة المتعلقة بسيل العرم ، أى انفكاك سد مأرب ، وهو الحادث العظيم الذى وقع فى سنة خمسمائة وثلاث وأربعين بعد المسيح وهذه الكتابة كتبها أبرهة ونصها : (بقوة الرحمان «رحمانان» ولطفه ورحمته و بمسيحه والروح القدس نقشت هذه الكتابة على الحجر بأمر أبرهة الوالى من قبل الملك اليكسومى «رامفيس ذى بيامان» ملك سبأ وذى ريدان وحضرموت و يمنات وعربهم فى الوعر والسهل) . ثم يوجد فى هذه الكتابة إشارة إلى رسل ملك الروم وملك فارس والمنذر والحارث بن جَبَلة ، مما يدل على أن دسائس كل من الدولتين الرومية والفارسية كانت بدأت فى جزيرة العرب منذ ذلك العهد ، ولم يطل الأمر حتى خلع أبرهة عامل الحبشة آخر الملوك الحميريين الملقب بذى نواس ، وأزال مملكة حمير وأبرهة هذا هو الذى زحف إلى مكة ومعه الفيل و إليه أشار صاحب البردة بقوله :

كأنهم هرباً أبطال أبرهة   أو عسكر بالحصى من راحتيه رمى

وفى ذلك الوقت تغلب العجم على اليمن لعهد كسرى الأول ، فاستناب عنه رجلا يقال له وهريز . ولما ظهر الاسلام كان فى اليمن عامل لكسرى أبرويز الثانى يقال له « باذان » فأسلم ودخل بعد ذلك اليمن فى الحوزة المحمدية ، ولم يقدر العلماء أن يكشفوا شيئاً عن المملكة السبئية يرجع الى أقدم من سنة سبعمائة قبل المسيح .

فأما المعينيون فالمظنون أن الكتابات المتعلقة بهم ، تملأ تواريخها خمسة قرون و يظهر أن المعينيين كانوا معاصرين للسبئيين ، وغاية ما هنالك أنهم رجحوا أن أقدم الكتابات السبئية يرجع تاريخها إلى أحدث الكتابات المعينية ، وقد جاء فى الكتابات المعينية ما يثبت وجود دولة السبئيين فى اليمن . وكان ملوك المعينيين مثل « خالى كاريبا صادوق » و « يحتيل ريام أبو تبع كرب » فى الزمن الذى كان فيه

ملوك سبأ ، والمظنون أن هذا كان بين سبعمائة وستمائة سنة قبل المسيح ، وقد جاء فى كتابة معينية مايفيد أن السبئيين وقبيلةأخرى اسمها «خولان» كانوا يشنون الغارات على الطريق المؤدى من نجران إلى معان فى بلاد الشراة جنوبى سورية ، وقد أشار كتاب أيوب من التوراة إلى هذه الغارات .

ووجدت كتابات أشورية سابقه لسنة السبعمائة قبل المسيح فيها إشارة إلى وجود أمير من سبأ اسمه « أيطع آماده » يظن أنه كان فى بلاد العرب الوسطى . وفى المظنون أيضاً أن ملكة سبأ كانت مالكة لشمالى بلاد العرب . هـذا ولم تنفرد سبأ ومعين بملك اليمن ، بل كان هناك دولتان قحطان وحضرموت ، فالجملة دول أربع أعظمها سبأ .

وكان للمعينيين مستعمرة فى مدين نظراً لتجارتهم بالطيب ، وقد ثبت ذلك من كتابات كشفها العالم (أوتنغ Eutung) فى « العلى » شمالى المدينة المنورة . وسقطت دولة المعينيين فى نحو الستمائة والخمسين قبل المسيح ، وقد ورث السبئيون مستعمرتهم فى مدين . وفى ذلك الوقت تقدم نحو بلاد العرب دول أخرى مثل حكومة « نبوكدنصر » ، فقد كشف أوتنغ و «هوبر Huber» فى تيماء كتابات تدل على كون حكم الآراميين البابليين وصل إلى هناك ، وربما كان الملك العربى الذى أشار إليه هيرودوتوس بأنه عاش في نحو السنة الخمسمائة والعشرين قبل المسيح هو ملك اللحيانيين الذى قال بلينوس الرومانى المؤرخ « Pline » إن عاصمته كانت هَجَر . فاللحيانيون هؤلاء يجوز أن يكونوا ورثوا المعينيين والسبئيين ووجدوا قبل النبطيين أى كانت دولتهم بين الخمسمائة والثلاثمائة سنة قبل المسيح . ثم ظهرت آثار النبطيين فى القرن الثانى قبل المسيح ، وبقيت دولة هؤلاء النبطيين إلى سنة مائة وستة قبل المسيح ، إذ تغلب عليهم الرومان . وكانت مدينةالنبطيين هى بتراء ـ أى وادى موسى اليوم ـ وكان يمتد ملكهم إلى مدين وبلاد بنى سُليم الوارد ذكرها فى نشيد الانشاد من التوراة ، وقد عثروا فى وعرة الصفاة من حوران على كتابات مشابهة لحروف الهجاء العربية اليمنية . أما الكتابة النبطيه — موصولة الحروف — فهي مشتقة من

الفرع الآرامى من الكتابة الكنعانية ، أو يرجح أنها هى أصل الكتابة العربية التى اصطلحوا عليها فى القرن الثالث بعد المسيح .

وأقدم كتابة عربية معروفة اليوم هى كتابة « نماره » فى شرقى حوران ، تاريخها سنة ثلاثمائة وثمان وعشرين بعد المسيح ، وهذه الكتابة تتعلق بملك يقال له امرؤالقيس بن عمرو ملك العرب ، وملك أسد وطىء ونزار ، ومن هذه الكتابة يعلم أن ملك امرىء القيس هذا كان يمتد إلى نجران اليمن .

جاء فى الانسكلو بيديا الاسلامية أنه ربما كان امرؤالقيس هو أحد ملوك المناذرة اللخميين . قلنا : هذا محقق إذ جاء فيهم بحسب مافى تاريخ أبى الفداء ذكرامرؤالقيس ابن عمرو ، ثم عمرو بن امرىء القيس ، ثم امرىء القيس المحرق بن عمرو وهو والد النعمان الأعور ، ثم جاء امرؤ القيس بن النعمان . وقد تابع أبا الفداء فى ذلك جرجى زيدان السورى ، وعلى ظريف الأعظمى العراقى ، وقابلنا بين هذه السلسلة التى ذكرها كل منهما و بين تاريخ صالح بن يحيى التنوخى فوجدنا أن فى سلسلة صالح ابن يحيى ذكر امرىء القيس بن النعمان الأعور بن امرىء القيس المحرق بن عمرو بن امرىء القيس الأول بن عمرو بن عدى اللخمى ، وقابلناها مع سجل نسب العائلة الارسلانية اللخمية فوجدنا أن المنذر الذى أمه ماء السماء ، أى المنذر الأول هو ابن امرىء القيس الثالث بن النعمان الثانى بن امرىء القيس الثانى بن النعمان الأول ابن عمرو الثانى بن امرىء القيس الأول بن عمرو بن عدى اللخمى .

فمن هنا يعلم أنه يوجد عدة ملوك من اللخميين باسم امرىء القيس ، ولكن المقصود بالذات هنا هو الملك الذى تولى منهم بين سنة مائتين وخمسين وثلاثمائة وثلاثين بعد المسيح .

فهذا هو امرىء القيس الأول الذى يقال له المحرق ، و يقال له البدء ، فانه ملك بين سنة مائتين وثمان وثمانين ، وثلاثمائة وثمانية وعشرين . وقد كان اللخميون عمالا للأكاسرة كما كان الغسانيون عمالا للقياصرة ، وكان مقصد ملوك الفرس باستعمال ملوك الحيرة أن يكونوا فاصلا بين الفرس والعرب ، و يصدوا غارات القبائل العربية

على العراق . ومثل ذلك كان مقصد ملوك الروم بواسطة الملوك أولاد جفنة الغسانيين ردع العرب عن شن الغارات فى جنوبى سورية .

فهذا جل ما يعرف من تاريخ العرب قبل الاسلام ، وكلما توغل هذا التاريخ فى القدم يزداد غموضاً كما لا يخفى . غير أن هناك حقيقة اتفق عليها الباحثون من علماء الأفرنجة ، ولا سيما الذين نقبوا عن الكتابات الحجرية المبثوثة فى جزيرة العرب . وهذه الحقيقة أنه فى نحو الألف سنة قبل المسيح كانت للعرب ـ لا سيما فى اليمن ـ مدنية فى غاية الارتقاء والازدهار . وبعض العلماء يذهب ومنهم صاحبنا الأستاذ المستشرق « موريتز Morits » الألمانى إلى أن أصل إيجاد الكتابة بالحروف بعد الكتابة الهيروغلوفية كان فى اليمن ، وهو يعتقد أن اليمانيين هم الذين اخترعوا الكتابة ، وليس الفينيقيون هم الذين اخترعوها كما هو الرأى المشهور .

وقد أفضى موريتز إلىّ بأدلته على هذا الرأى وقال : إن الفينيقيين إنما بنوا كتابتهم على الكتابة العربية اليمنية ، ثم إن اليونانيين أخذوا الكتابة عن الفينقيين وعنهم أخذ الرومانيون ، فيكون العرب هم الذين أوجدوا الكتابة فى العالم ، وبهذا الاعتبار هم الذين أوجدوا المدنية .

وأما المستشرق « هومل Hommel » ففى الانسكلو بيدية الاسلامية يذكر أخذ اليونان عبادة أبولّون وأمه « ليتو ـ Leto » عن العرب . وقال روبيرتسون سميث «Robertson Smith» إن ليتو هذه هى اللات ، و إن اليونان بحسب رأى بريتوريوس أخذوا بعض أحرفهم عن كتابة عرب اليمن ، والبعض الآخر عن كتابة الكنعانيين قال هومل : إن جنوبى بلاد العرب كانت فيه مَدَنيّة فى أوائل الألف قبل المسيح بالغة الحد الأقصى من الازدهار بما تركته من معابد وحصون ، ومحافد وقصور ، وكتابات .

فأما الكتابة الحميرية وهى التى يقال لها الخط المسند ؛ فقد جاء فى الجزء الثامن من كتاب « الاكليل » للفيلسوف العربى الحسن بن أحمد الهمداني صاحب كتاب « صفة جزيرة العرب » تصوير هذه الكتابة كما سيأتى . وقد اشتهر كتاب « الاكليل » كثيراً ، ولكن أكثره مفقود حتى فى بلاد اليمن نفسها ، فقد بحثنا عنه فلم نجدهم

يذكرون إلا جزئين ، والحال أنه عشرة أجزاء ، الأول مختص بالمبتدأ وأصول الأنساب ، والثانى نسب ولد الهميسع بن حمير ، والثالث فى فضائل قحطان ، والرابع فى السيرة القديمة إلى عهد تبع أبى كرب ، والخامس فى السيرة الوسطى من أول أيام أسعد تبع إلى أيام ذى نواس ، والسادس فى السيرة الأخيرة إلى الاسلام ، والسابع فى التنبيه على الأخبار الباطلة والحكايات المستحيلة ، والثامن فى ذكر قصور حمير ومدنها وما حفظ من شعر علقمة والمراثى والمساند ، والتاسع فى أمثال حمير وحكمها باللسان الحميرى وحروف المسند ، والعاشر فى معارف حاشد و بكيل .

وقد اطلعت على الجزئين الثامن والعاشر فى المكتبة الملوكية فى برلين وأخذت صورتهما بالفوتوغرافيا ، وعلمت أن أحد هذين الجزئين لا يزال محفوظاً فى استانبول كما أنى علمت أن الجزء الثامن الذى يدور على القصور والمحافد والمساند قد طبعه الدكتور مولر وشرحه سنة ١٨٧٩ ، وأما سائر الأجزاء فما علمنا بوجودها .

و إليك الآن ما جاء فى الجزء الثامن عن الخط المسند ، قال الهمدانى : باب حروف المسند ، وهو كتاب حمير ومثلاته فى حروف ا . ب . ت . ث وغيرها . قال الهمدانى : أكثر ما يقع بين الناس الخلف فيما تقولوه فى لسان حمير من اختلاف صور الحروف ، لأنه ربما كان للحرف أربع صور وخمس ، و يكون الذى يقرأ لا يعرف إلا صورة واحدة ، فلما وقع الخلل فى هذا الموضع رأينا أن نثبت تحت كل حرف من حروف ؛ ألف ، باء ، تاء ، ثاء ، صورة جميعها . و إنما كان اختلاف صور الحروف على سبيل اختلاف الكتاب العربى ، وكانوا يطرحون الألف إذا كانت وسطاً مثل ألف همدان ، وألف ريام ، فيكتبون ريْم وهمدٰن ، كذلك تبع كتَّاب المصاحف الحروف فى مثل الرحمٰن ، وألف إنسان ، و يثبتون ضمة آخر الحرف و واو عليهمو .

(إلى أن يقول) : و يقرأون كل سطر بخط ، و يفصلون بين كل كلمتين في السطر بخط ، ومثال ذلك فى أول مسند هذه صورته :

والذى عليه جمهور المؤرخين والمنقبين اليوم وفى مقدمتهم سبرنجر ، وشرادر ؛ هو أن جزيرة العرب هى مهد الأمم السامية ، وأن المهاجرة بدأت منها إلى الخارج .

وقد خالف فى ذلك بعضهم وذهبوا إلى أنه يجوز أن يكون وقوع المهاجرة بالعكس أى بدلا من أن يكون العرب ارتحلوا من الجزيرة إلى بابل ؛ يجوز أن يكون بعض الأقوام الذين على شواطىء الفرات قد ارتحلوا منها إلى الجزيرة العربية ، فأما كون البربر هم من العرب ، وأنهم جاءوا من جزيرة العرب ، وأن اللغة البربرية هى من اللغات السامية ؛ فهذا سيكون البحث فيه بمكان آخر .

فبعض العلماء، ومنهم « نولدكه » المستشرق الألماني المعروف يقول بهذا الرأي

و بعضهم يردّه ، وقد ذهب « هومل Hommel » إلى أن السبئيّين كانوا فى الجوف فى شمالى بلاد العرب (التابعة لابن سعود اليوم) وأنهم تقدموا منها إلى الجنوب . وقد جاء ذكر سبأ فى التوراة مراراً ولكن بأقوال يناقض بعضها بعضاً ، و إنما يمكن الاتفاق على أن السبئيّين كانوا تجاراً فى تلك الأعصر يبيعون عود الطيب فى مصر والشام و يتجرون بالحجارة الكريمة . والتوراة تشير إلى ثروة السبئيّين ، و يؤيد ذلك مؤرخو اليونان والرومان .

وقد ذكر «سترابون» المؤرخ الجغرافى اليونانى ، أن الرومانيين فى زمن أغسطس غزوا سبأ ، وذلك سنة ٢٤ ـ أملا بالاستيلاء على أموال هذه الأمة ـ ففشلت هذه الغزوة الرومانية فشلاً تاماً ، ولكنها عرفت الرومانيين ببلاد العرب . فقد جاء فى كتب مؤرخى الرومان واليونان مثل « ديودور » و«هيرودوت » وغيرهما ، كلام كثير عن حضرموت واليمن ، و وجد مطابقاً للكتابات التى عثروا عليها فى جنوبى الجزيرة العربية . ومن ذلك كله يظهر أن أهالى اليمن كانوا أشداء فى الحروب ، أصحاب إقدام ونشاط فى الأعمال ، وكانت لهم زراعة راقية جداً ، وتجارة ممتدة إلى سائر الأقطار وعلاقات اقتصادية مع مصر وفينيقية ، وكان لهم قيام على الملاحة و ركوب البحر يعجب به المؤرخون .

وكان السبئيّون سبّاقين فى هذه المزايا كلها ، وكانوا أصحاب يسار وترف . ولكن يظهر أنه لما غزا الرومان تلك البلاد بقيادة « جالّوس Gallus » كان قد بدأ ظهور دولة الحميريين ، وكان قد تقهقر السبئيّون . فالقائد جالّوس يذكر أنهم ـ أى الحميريين ـ أصحاب الكلمة العليا فى اليمن .

وقد كان هذا فى القرنين الأول والثانى قبل المسيح . ولكن السبئيين بحسب ما جاء فى تاريخ « بلين الرومانى » كانوا لا يزالون ذوى سيادة ومكانة ، وكانت بقيت لهم بعض المدن ، وهذا مؤيد بالكتابات المنقوشة على الصخور ، و بآثار العمران ، من أقنية وسدود وصهاريج ، و بأقوال الهمدانى صاحب كتاب « الإكليل وصفة جزيرة العرب » .

وقد ذكر بلين الرومانى معادن جزيرة العرب ، واستخراج هذه الأمة للذهب الذى زاد فى ثروتها ، وسهل طرق مدنيتها . وأما محصول الطيب فقد كان خاصاً بالسبئيين والمعينيين .

و فى أوائل القرن الثانى قبل المسيح تقدم الأحباش إلى بلاد سبأ ، وصار «أيزاناس» يلقب بملك حمير وسبأ ، و يستدل من الكتابات المنقورة فى الصخور أنه من نهاية القرن الثالث إلى الربع الأخير من القرن الرابع للمسيح لم يكن فى اليمن ملوك من أهل اليمن أنفسهم ؛ وأن الحكم كان قد صار للحبشة ، ولذلك منذ أواخر القرن الرابع لا تكاد تجد ذكراً لسبأ فى كتابات اليونان والرومان .

وقد كان «سبرنجر» منذ نصف قرن لا غير يقول : إن مؤرخى اليونان و بلين الرومانى هم الذين نستقى منهم جميع المعلومات عن السبئيين ، وكذلك قبل هذا التاريخ كانت جميع المعلومات التى لدينا عن جنوبى بلاد العرب هى ما جاء فى العهد العتيق ، وما يتناقله العرب من القصص التى فيها من التخيّل أكثر مما فيها من الحقيقة . فلما عثر المنقبون على ما عثروا عليه من الكتابات هناك انكشف لديهم ما يجدر بأن يسمى تاريخاً ، والفضل أكثره فى كشف هذه الكتابات راجع إلى غلازر

وقبل غلازر كان « كارستن نيبور Caresten Nie Buhr» ذهب إلى جزيرة العرب فى بعثة علمية أنفذتها الحكومة الدانمركية سنة ١٧٦٣ ، وكان فيها « راتكن الألمانى » حدثنى بذلك حفيده الأستاذ راتكن فى هامبورغ .

فهذه البعثة التى هى أول بعثة علمية إلى جزيرة العرب تنبهت لقضية الكتابات المنقوشة على الصخور ، فجابت البلاد من لحية ، إلى مخا ، إلى تعز ، فصنعاء ، وكان غرضها معرفة الجغرافية وأحوال السكان ، وأصولهم وأنسابهم ، مع درس طبقات الأرض ونباتاتها ، لكنها علمت بوجود كتابات فى ظفار لم تصل هى اليها ، غير أن هولنديا كان قد أرسل إلى هذه البعثة نسخة عن كتابات عثر عليها . وعلى كل حال فأول من نبّه إلى هذه الكتابات ووجوب حلها خدمة للعلم هو « نيبور الدانمركى » ثم تلاه « ستزن Seetzen » من أولدنبورغ فانه نسخ الكتابات المنقوشة على صخور

ظفار وأرسل نسخة عن بعض جمل سبئيّة إلى أوربا وذلك سنة ١٧١١ ، ولم يفهموا مآلها فى أول الأمر ، ثم توصلوا إلى حلها فاشتدت رغبتهم فى معرفة غيرها .

وفى سنة ١٨٣٤ كشف الانجليزى «ولستيد Wellsted» كتابة فى حصن غراب على ساحل حضرموت ، وكتابة فى محل يقال له « نقاب الحجر » وفي سنة ١٨٣٦ كشف « كروتندن Cruttenden » خمس قطع سبئيّة فى صنعاء ، ثم نشر الرحالة « ڤريده Wrede » فى سنة ١٨٧٠ كتابات وجدها فى حضرموت ، ثم إنه جاء «أرنود Arnaud » وهو أول أوربى توصل إلى سد مأرب فنسخ عما وجده فى مأرب وفى صنعاء ٥٦ كتابة أكثرها كان جملا قصيرة ، ثم كثر الاطلاع على هذه الكتابات فى بلاد اليمن . وكان الفضل فى حل هذه الكتابات ومعرفة معانيها إلى « جيسنيوس Gesenius » و«روديجر Rodiger» سنة ١٨٤١ و إلى «أوزياندر Oseander» (سنة ١٨٥٦ — ١٨٦٣) واطلعوا على كتاب ليعقوب بن صافر اليهودى كتبه بالعبرى فى سنة ١٨٦٦ فانه ذهب من الحديّدة إلى عمان على طريق صنعاء ، وجاء فى كتابه بمعلومات ذات قيمة ، و بها استدل « هاليڤى Halévy » على الأماكن التى يجب ارتيادها لاجل الاطلاع على الكتابات الحجرية .

و يُظنّ أن هاليڤى كان أول أوربى تمكن من الايغال إلى وادى نجران ، و إلى الجوف اليمانى مركز بلاد معين . و بذلك تمكن من الاطلاع على كتابات كثيرة من أقدم عهود البشرية ، ولم يطلع عليها بعده غيره من الأوروبيين . فنسخ هاليڤى ٦٨٦ كتابا منها خمسون من الكتابات الطويلة ، ومن هذه الخمسين ثلاثون معينيّة .

وقد كان ما اطلع عليه هاليڤى هذا هو الأساس الذى اتخذه العلماء للتاريخ العربي المتعلق بجنوبى جزيرة العرب .

ثم ذهب إلى هناك الكابتن «ميلز Miles » ثم «هينرك ملتسان Heinrich Von Maltzan » الذى ارتاد سواحل حضرموت سنة ١٨٧٠ ثم «ميلنجن Millingen» الذى ذهب من الحديّدة إلى صنعاء سنة ١٨٧٣ ثم «مانزونى Manzoni» الذى جاب البلاد بين عدن وصنعاء والحديّدة سنة ١٨٨٠ ثم «شابيرا» الذى جوّل فى تلك البلاد سنة ١٨٧٩

ثم «هاريس Harris » الذى ساح فى اليمن سنة ١٨٩٣ . ولم يأت هذا الأخير بكتابات جديدة ، ولكنه أتى بمعلومات عن تلك البلاد مهمة . ثم جاء «لانجر Langer » النمساوى فتوصل إلى ٢٢ كتابة لم تكن معروفة من قبل ، ومات ضحية بحثه وتنقيبه ، كما مات ستزن من قبله ، وهو بر من بعده . و إن القارىء الذى يهمه هذا البحث جدير بأن يطالع كتاب « ڤبر Weber » الذى أسماه «العرب قبل الاسلام« Arabien vor dem Islam » وكتاب هومل المسمى برحلة هلبرخت .

وأما « غلازر » الألمانى البوهيمى فقد برع على الجميع لأنه تمكن من نقل ألفى كتابة حجرية ، و بدأ سياحته سنة ١٨٨٢ فذهب من الحديّدة إلى صنعاء ، وجاب البلاد ثلاث مرات فى الشمال ، والغرب ، والجنوب الشرقي ، والشرق . ثم ذهب إلى بلاد ظفار ، كما أنه ذهب إلى مأرب ونقل أربعمائة كتابة منها ، وحقق معلومات جغرافية أطلسية كثيرة ، ووقف على فوائد عظيمة من جهة اللغة ، واقتنى أكثر من ستمائة مخطوط عربى ، فنشرت أكاديمية باريس جانباً من هذه الكتابات . والآن يوجد حجارة عليها كتابات معينيّة فى لوندرة ، وأخرى فى برلين . فأما المخطوطات فأكثرها فى برلين ، ومنها جانب فى المتحف البريطانى . وأهم هذه الكتابات هى كتابة « حدقان » وكتابة « صرواح » التى منها يؤخذ أهم الوثائق التاريخية على جنوبى بلاد العرب .

ولما سافر غلازر المرة الرابعة إلى اليمن حصل أيضا على مائة كتابة لم نعرفها من قبل ، وعلى ٢٥١ مخطوطا عربياً ، وجمع معلومات كثيرة .

وأنه يعود أكثر الفضل فى تفسير الكتابات واستخراج معانيها إلى هاليڤى المار ذكره ، و بريتوريوس ، ومُوردتمان ، ومولر ، وهومل ، وغلازر . ثم قام بعض العلماء بسياحات أخرى فى اليمن منهم « دفلر Deflers » سنة ١٨٨٧ لكن غرض سياحته كان علم النبات ، ثم « هِرْش » ساح إلى حضرموت سنة ١٨٩٣ وهو أول أوربى دخل «شبام» ، و«تريم» ولم يكن باحثا إلا عن الأمور الطبيعية ، ثم فى سنة ١٨٩٣ جاء « بانت Beant » إلى حضرموت فدخل شبام وظفار ، ثم جاء « كارلو لاندبرج Carrlo

Landberg » في سنة١٨٩٦ وكتب رحلة مهمة ، ثم أرسلت أكاديمية ڤيناسنة١٨٩٨ بعثة أنفق عليها ملك السويد فلم تفز بكبير طائل ، فتحولت إلى جزيرة سقطرة وقامت هناك بمباحث طبيعية ولغوية . ثم إن « بورى Bury » جاء من قبل هذه البعثة إلى « بيحان وخولان » وصوّر عدة كتابات ، وفى سنة ١٩٠٢ أرسلت أكاديمية ڤينا رجلا اسمه «هاين Hein » إلى حضرموت رجع بمعلومات كثيرة لم يكونوا عرفوها .

هذا ويقال إن جميع ما اطلع عليه غلازر الذى هو إمام هذا الفن لم ينشر بأجمعه لأنه لم يتسع له الوقت ، ومات قبل أن يتمكن من نشر جميع معلوماته ، وبعد موته نشروا فى ڤينا جانباً منها لا كلها . وقد ذهب غلازر إلى أن الكتابات المعينية ترجع إلى ما قبل المسيح بألفى سنة ، ولذلك تكون أقدم من الكتابة الفينيقية التى لم تظهر قبل المسيح إلا بألف سنة ، فلذلك اعترض العلماء على غلازر في هذا الزعم بحجة أن الكتابة المعينية مستقيمة وأشكالها هندسية ، ولا يظن أن مثل هذا الشكل يكون متوغلا في القدم إلى تلك الدرجة .

جاء فى الأنسيكلو بيدية الاسلامية أنه لم يوجد بين كتاب العرب من جاء بتاريخ حقيقى عن اليمن ، وبمعلومات مؤسسة على قواعد متينة مثل الهمدانى . فقد كان هذا الرجل يمانياً مولوداً فى صنعاء ، فحمله حب وطنه والاعجاب بقومه على تأليف كتاب « الاكليل » الذى ذكر فيه تاريخ اليمن ووصف العاديّات التى هى فيها . والجزء الثامن من الاكليل كان نشره مع ترجمة ألمانية الدكتور «مولر H. Muller» كما تقدم . وقد أخذ من الجزء العاشر معلومات تكمل ماورد فى كتاب الهمداني الآخر المسمى « بصفة جزيرة العرب » وقد كان فى كتاب الهمدانى قصص أشبه بالأساطير نقلها الهمدانى على علاتها ، إلا أنه برغم ذلك هو الكتاب العربىّ الوحيد الذى يفهم منه القارىء ما اليمن ، ومن أهل اليمن ؟ وفيه تفاصيل عن أنساب اليمن ، وطبائع أهلها ، وعن مواقع مدنها ، وعن قصورها وحصونها لاتوجد فى كتب الافرنج برغم جميع تدقيقاتهم .

وكذلك فى أكليل الهمدانى عن سبأ وعن سيل العرم مالايتم تاريخ اليمن إلا به

وقد ذهب مولر إلى أن الـكتابات الحجرية لاتكفى لجلاء تاريخ سبأ ومعين و بلاد اليمن . فأما قول الهمدانى إن بانى سد مأرب هو لقمان بن عاد فهو قول تابع فيه العوام والحقيقة التى ظهرت من الـكتابات أن باني السدّ هو إثيعمر ، فأما وصف آثار السدّ بعد خرابه فان أرنود وهاليفى لم يصفا تلك الآثار بغير ماصورها به الهمدانى .

وقد قسم مؤرخو العرب أدوار اليمن قبل الاسلام إلى ثلاثة ؛ الأول من البدء إلى عهد تبع أبى كرب ، والثانى من عهد أبى كرب إلى ذى نواس ، والثالث من عهد ذى نواس إلى الاسلام . ولـكن علماء الأفرنج قسموا هذه الأدوار إلى ثلاثة بشكل آخر . فقالوا : الدور الأول هو السبئى المعينى . والدور الثانى هو الحميرى ، والدور الثالث هو الحبشى فالفارسى . ولعل الوقت يأتى بمعلومات أوضح مما تيسّر حتى الآن فان تاريخ الأعصر الغابرة كان ظلمات بعضها فوق بعض ، فانكشف جزء منها بالحفر والتنقيب وحل الـكتابات القديمة ، ولا يزال تحت التراب — وربما فوق التراب — كتابات كثيرة لم يصل المنقبون إليها .

ولما كنت فى الحجاز منذ ست سنوات ، وصعدت إلى جبال الطائف ، وجدت كتابات كثيرة على الصخور ، وقيل لى إنها مستفيضة فى كل مكان تقريباً من جزيرة العرب ، وقيل لى أيضاً إن بين المدينة ونجد كتابات لاتحصى . وكيف ضرب الانسان فى أرض جزيرة العرب يجد كتابات على الصخور ، فإن من عادتهم أن ينقشوا أخبار الحوادث التى تقع عندهم على الجنادل ، وقد شاهدنا من هذه الأخبار المحفورة على الصخر بالخط الـكوفى شيئاً كثيراً ، وأوردت أمثلة عليه فى رحلتى الحجازية .

ومرة قرأت فى طريق وادى ليَّة على صخر خبر قحط أصاب الناس وأجدبوا ثم بعث الله الغيث وسُقوا . على أن مؤرخى الأفرنج يعترفون بأن فى كتب مؤرخى الاسلام روايات عن مدنية سبأ القديمة والأدوار التى تلتها تنطبق أشد الانطباق على الـكتابات المنقوشة فى الحجر ، وعلى المنابع اليونانية والرومانية ، وكلها تفيد أن مدنية

سبأ كانت راقية جداً ، وأرقى من المدنيات العربية الأخرى ، فالمبانى القديمة الداثرة من آثار سبأ ، والنقوش والتماثيل ، و بقايا الأعمدة والهياكل ، والقصور والأسوار والابراج ، وسدود المياه ، مما شاهده سياح الأفرنج بأعينهم يطابق أشد المطابقة الأوصاف التى وصف بها اليونان والرومان تلك الآثار المدهشة ، ولا يجدون فيها مبالغة ، كما أنه عند ماينظر السائح إلى تلك الآثار الباهرة لايعود متعجباً مما جاء عنها فى كتب الاسلام مما كان يظنه من أساطير الأولين . وحسبك بما ذكره الهمدانى من قصر غمدان وغيره من قصور سبأ مثل قصر سالحين ، و بينون ، وما ذكره عن عظمة سد مأرب ، وما كتبه مؤرخو اليونان والرومان عن فخامة تلك القصور ، وهاتيك الأسداد والقلاع ، فهو مطابق للمحسوس المشهود بالعيان .

فقد كان العرب فى جنوبى الجزيرة فى حاجة إلى خزن مياه الأمطار لأجل زراعتهم ، فبلغوا من الاعتناء ببناء السدود والحياض أقصى درجة يتصوَّرها العقل وترقّت الزراعة فى اليمن لذلك العهد القديم إلى حدّ لايخطر ببال أحد .

وروى الهمدانى أنه كان يقال لليمن : اليمن الخضراء . لكثرة أشجارها وفواكهها ومحصولاتها ، ولم تكن الزراعة وحدها هى التى بلغت الأمد الأقصى من الرقىّ ؛ بل ضارعتها التجارة من جهة ، والصناعة من جهة أخرى . فأما خصب أراضى اليمن الذى روى عنه هذه الروايات مؤرخو اليونان والرومان متفقين فى ذلك مع مؤرخى العرب ؛ فقد اعترف به سياح الأفرنج الذين جوّلوا فى بلاد اليمن ، إلا أن هؤلاء أشاروا إلى تناقص الأشجار والغابات بالقياس إلى الماضى .

وقد ذكر الهمدانى اعتدال الاقليم فى جهات صنعاء بخاصة ، وهذا يطابق ماقاله غلازر وغيره من السياح الأوروبيين ، وهو أن أعالى اليمن معتدلة الهواء ، وأن هذا الاعتدال هو السبب فى كثرة محصولاتها .

ولقد شاهدت بنفسى فى سياحتى إلى اليمن السنة الماضية اعتدال بقعة صنعاء منذ صعدنا « عقبة آنس » حتى انتهينا إلى قرية يقال لها « القبّة » ثم إلى قرية أخرى يقال لها « المعبر » ومن هناك سرنا عدة ساعات بالسيارة الكهربائية فى بسيط من

الأرض يعلو ألفين إلى ألفين وخمسمائة متر عن سطح البحر ، إلى أن بلغنا صنعاء فررنا ببقعة من أحسن بقاع الأرض ، وأكثرها قابلية زراعية ، وأجودها هواء وماء ولما وصلنا إلى صنعاء سألنا هل يوجد كثير من نمط هذه البقعة فى اليمن ؟ فأجابونا بأننا لم نشاهد إلا جزءاً يسيراً من البسائط المريعة المحيطة بصنعاء من الجهات الأربع . وقد كاشفت بما فى نفسى من هذا الأمر الأمير الخطير السيد عبد الله بن الوزير أمير الحديّدة ــ وهو من العقل والفضل بالمقام الذى يندر مثله ــ فقال لى : إن اليمن فى الحقيقة هى عبارة عن جبالها .

ولم تكن الزراعة وحدها سبب ثروة اليمن المدهشة في ذلك العصر كما تقدم الكلام عليه ؛ فقد أفاض المؤرخون الأولون من اليونان والرومان مثل ديودور واسترابون ، وأغاترشيد ، فى ذكر تجارة سبأ ، واستخراجها للذهب والحجارة الكريمة التى كانت تبيعها من البطالسة بمصر ، و إلى الفينيقيين بالشام ، هذا مع تجارة العنبر وعود الطيب ، وأيدت التوراة هذه الروايات كلها .

جاء فى الانسيكلو بيديا الاسلامية أنه لامبالغة فيما نقلوه من أن أبواب منازل سبأ وجدرانها وسقوفها وأعمدتها كان منها الكثير مموها بالذهب والفضة ، مرصعاً بالحجارة الكريمة ، وأن آنيتهم كانت مصوغة من أنفس المعادن . وهذا ما ذكره الهمدانى والمسعودى وغيرهما من مؤرخي العرب ، وما أيدته الكتابات الصخرية نفسها فيما ترويه عن التقادم العظيمة من الذهب والفضة ونفائس الأحجار . وقد وجد كثير من المسكوكات السبئية ومن الحلى تؤيد أيضاً روايات الرواة من كل قبيل .

وقد عنى بعض علماء الافرنج بالتنقيب عن هذه الحياة الاقتصادية التى كانت فى اليمن السعيدة من جميع نواحيها ، وكان السابق فى هذه الحلبة « رودوكَنَا كِيس Rhodocanakis » الذي ألف كتاباً استخرج فيه من الكتابات الحجريّة مما أمكنه أن يستخرجه من المسائل الاقتصادية التى كان يعول عليها أهل اليمن ، والمسائل الحقوقية المتعلقة بها .

وثبت من هذه التدقيقات أنه كان يوجد عند العرب الأولين قانون صارم يقتضى استثمار الأرض بدون إهمال شيء منها ، وأنه كان يوجد إدارة خاصة لأجل تقسيم المياه وتوزيع الأعمال الزراعية . وهذه القوانين المتعلقة باستثمار الأرضين واستيفاء أسباب القيام عليها ؛ كانت متشابهة فى جميع بلاد العرب الجنوبية . وهذا البحث قد حمل « جرومان Grohmann » على تأليف كتاب خاص بهذا الموضوع وصف فيه طبقات الأرض والمناخ ، وكيفية توزيع المياه ، واستخراج المعادن ، وتربية المواشى والصيد وغير ذلك مما اعتمد فيه على الكتابات الحجرية من جهة ، وعلى شهادات المؤرخين والسياح من جهة أخرى . وقد استقى فى هذا التأليف من بعض منابع مجهولة حتى الآن نظير الآثار التى جمعها غلازر ولم يتيسر له نشرها كلها . و بالجملة فرأى محققى الافرنج عن بلاد العرب يتلخص فيما يلى :

الأول : أن المدنية العربية ــ لا سيما فى جنوبى جزيرة العرب ــ هى من أقدم مدنيات العالم وأرقاها ، وهم على خلاف فيما إذا كان الساميّون هم الذين نزحوا من جزيرة العرب إلى بلاد بابل ؛ أو كانوا نزحوا من بابل إلى الجزيرة ، وكل فئة من المؤرخين تفترض افتراضات لا يمكن معها الجزم بشيء .

الثانى : أن أهم أمة فى الجزيرة العربية فى الثروة والعظمة والآثار فى الأرض كانت أمة سبأ ، وكان يعاصرها ويضارعها المعينيون وقحطان وحضرموت ، وأن هاتين الأمتين « سبأ ومعين » بقيتا سائدتين إلى الزمن الذي ظهرت فيه الدولة الحميرية وأن هذه الدولة تغلبت على اليمن و بقيت فيه إلى أن جاء الأحبوش فاستولى على اليمن وأزال ملك الحميريين ، و بقيت اليمن خاضعة للحبشة حتى جاء الفرس فأزالوهم عنها و بقيت اليمن تابعة للأكاسرة حتى ظهر الاسلام .

الثالث : أن تاريخ اليمن و بلاد العرب أجمع لم يكن له منابع سوى العهد القديم وكتابات هيرودوتس ، واسترابون ، وديودور ، وأغتريد . وغيرهم من يونانيين ورومانيين ، مع بعض تواريخ للعرب أنفسهم بعد الاسلام مما اختلط فيه التاريخ

بالخرافة . فيجب على الناظر فى التواريخ العربية أن يجرد الأقاصيص من الأخبار التاريخية ، وأن أحسن ما كتب عن جزيرة العرب بأقلام العرب هو كتب الهمدانى أى « الأكليل وصفة جزيرة العرب » .

الرابع : أن تاريخ العرب الأولين لم يبدأ فى الحقيقة إلا منذ بدأ سياح الأور بيين بالاطلاع على الكتابات المنقوشة على الأحجار ، وأخذوا ينظرون فيها إلى أن تمكنوا من حلها وفهم معانيها ، فمنها ما وافق كتابات المؤرخين ، ومنها ما اختلف عنها ، إلا أن الكتابات قد جاءت بالجملة مؤيدة للتاريخ ، ولم يبق شك فى صحة المجموع ، و إن يكن وقع اختلاف فى التفاصيل . والقضية الأصلية وهى ارتقاء مدنية العرب إلى تلك الدرجة العليا فى تلك الأعصر المتوغلة فى القدم ؛ قد ثبت بالكتابات الحجرية التى أيدت أقوال المؤرخين كما أن أقوال المؤرخين قد أيدتها .

وهذه مسألة يجب أن تكون عبرة ودرساً للذين يحملون جميع ما يتناقله الناس من الأخبار القديمة محمل الأساطير والأقاصيص الوهمية ، وهو ظن باطل ، ورأى فائل . فانه مهما كان التواتر قد تداخله أقوال عامية ، وآراء ساذجة ؛ فانه يرجع إلى نصاب صدق فى الأصل لا شبهة فيه فى مجموعه ، وهذه قضية تاريخ جزيرة العرب شاهدة على ذلك ، بعد أن جاءت فيها المكتوبات الحجرية معززة للقراطيس والأوراق المخلفة عن اليونان والرومان والعرب ، تعزيزاً لم يكن لينتظره أحد .

الخامس : أنه وجد أقوام دخلت إلى جزيرة العرب ، كما وجد أقوام خرجت منها . وأنه بسبب استيلاء الحبشة على اليمن ، ثم استيلاء الفرس ، قد حصل اختلاط فى الدماء فى جنوبى الجزيرة ، كما حصل اختلاط فى شماليها بسبب تقدم الآراميين إلى مدائن صالح وتيماء ، وأن النبطيين كانوا أيضا تقدموا من بلاد الشراة إلى شمالى الحجاز .

السادس : أنه يوجد عرب بائدة ، وعرب عاربة ، وعرب مستعربة كما جاء فى تواريخ الاسلام . وأن من العرب البائدة عادا ، وثمود ، وطسما ، وجديس ، وكلهم

نزحوا من اليمن إلى الشمال . و بعضهم يذكرمنهم العمالقة ، وقد ورد ذكرهم فى التوراة وقد وجدت كتابات آرامية فى شمالى الحجاز كمدائن صالح منتشرة على الصخور و يذهب بعضهم إلى أن هذه الكتابات من بقايا النبط الذين اختلطوا بالعرب ولذلك يجد فيها الانسان ألفاظا عر بية مع الألفاظ النبطية .

وقد روى «هوارت Huart» فى « تار يخ العرب » أن الكتابات التى وجدت فى تيماء هي أقدم جدا من الكتابات التى وجدت فى مدائن صالح ، والمظنون أنها ترجع إلى ستمائة سنة قبل المسيح ، وهى خطوط بارزة كما هى خطوط العرب المحدثين بعكس سائر الخطوط السامية التى حروفها مجوفة .

السابع : على ظن محققى الافرنج أن الكنعانيين فى الأمم السامية نزحوا من الجنوب وأوطنوا فلسطين ، وأن الفينيقيين جاءوا من شواطىء خليج فارس الغر بية وأقاموا على شواطىء الشام ، واستدلوا على أن أصل الفينيقيين هو من شواطىء خليج فارس بوجود النواو يس ــ أى القبور المنحوتة فى الصخور ــ فى وطن الفينيقيين الأصلى كما فى سواحل سور ية ، وكذلك الرعاة فى مصر كانوا عر با فتحوا قسما من وادى النيل وخرجت منهم ملوك . وقد ثبت أن الأشور يين فى حرو بهم مع المصر يين قد تكلموا عن العرب ، ووجدت لذلك آثار فى كتاباتهم الخزفية .

وقد جاء فى هذه الآثار وجود دولتين فى شمالى جز يرة العرب يقال لإحداهما «موصرى Mousri » وللأخرى «ملوحه Melouhha » ولم يعلم شىء عن ملوحه هذه ولكن ظهر أن دولة موصرى هي المستعمرة المعينية التى كانت فى شمالى الحجاز فان تغلاط بيلسّر الثالث ملك الآشور يين الذى عاش بين سنة ٧٤٥ و ٧٢٧ قبل المسيح كان قد غزا العرب فى شمالى الحجاز .

فهذه لمحة دالة مما يتعلق بالعرب وتار يخهم القديم ؛ يقدر أن ينشد منها القارىء مظان البحث .

ولكن الذى لم أجده حتى الآن فى كتب الافرنج هو أصل اشتقاق لفظة « عرب »

ومن أين جاءت ؟ فعلماء العرب قالوا : إن هذه اللفظة جاءت من قولهم أعرب عن الشيء أي أبان عنه ، سمي العرب بذلك لفصاحتهم وحسن إعرابهم عن مقاصدهم . وقيل : إنهم انتسبوا الى ناحية بقرب المدينة المنورة اسمها عربة ، وذلك أن أولاد اسماعيل نشأوا بهذه الناحية فسموا عربا ، ثم غلب الاسم على الجميع . ورُدَّ على هذا القول بأن الغالب هو ان أسماء الأرضين والبلاد تنقل من اسماء ساكنيها ، أو من صفة ثابتة لها ، ولم يعهد أن الناس أخذت أسماءها من الأرض التي نزلت فيها إلا على وجه النسبة . والأكثرون على أن اشتقاق لغة « العرب » هو من مادة الاعراب أي الإبانة عن الضمير ، وذلك لما اتصفت به هذه الأمة من حسن البيان ، و بلاغة التعبير ، ومن كون لغتهم هي أشرف اللغات ، والله أعلم .



الترك

تعليق على ما جاء فى السطر ٢ من الصفحة ٢٧ من الجزء الأول من ابن خلدون

هذه الأمة هى بدون شك من أشهر أمم الكرة الأرضية ، وأكثرها عددا وأشدها شكيمة ، وأوسعها فتوحات ، وأمجدها تاريخاً . وقد حررت خلاصة تاريخها فى حواشى « حاضر العالم الاسلامى » بما أرى مناسبا إعادته هنا مع زيادة تفصيل .

قلت هناك : إن الترك هم من أكبر وأشهر الأمم الآسيوية ، وإنهم معدودون من الشعوب الطورانية ، وهم متشابهون فى الخلقة مع الصين والتبت واليابان . ولا عبرة بما تجده من سحناء أتراك الأستانة والاناضول ؛ فإن هؤلاء قد تولدوا وتناسلوا فى غربى آسية من قرون متطاولة ، واختلطوا بالأمم الأخرى كالقوقازيين ، والمكدونيين والأرناؤوط ، والروم ، والبلغار ، والأكراد ، والصرب ، وبقايا أهالى الاناضول القدماء وتولدت منهم أمة لا تشبه المغول ، ولا الصين ، ولكن الترك الاناضوليين الذين لم يختلطوا بهذه الأمم الغريبة يشبهون كثيرا أتراك بخارى ، وخيوه ، وكاشغر ، وهم ذوو ملامح ظاهرة الشبه مع أهل الصين ، والتبت ، والمغول .

كان الترك من على عنق الدهر فى جبل الذهب بين سيبيريا والصين ، ثم أخذوا ينتشرون فى الاقطار ، فهاجروا الى شمالى سيحون وجيحون ، والى الشرق الشمالى من بحر خوارزم ، والى الشمال الغربى من الصين والخطا . فكان منهم قسم فى الغرب وهم « المجار والفنلانديون » ـ أهل فنلاندا على البلطيك ـ والبلغار وهؤلاء هم الذين يقال لهم « الأوراليون » . وكان منهم قسم فى الشرق وهم الذين يقال لهم « المانشو والتونغوز » . وقسم في الجنوب الشرقى وهم « المغول » .

وكان لهم مناسبات ومحاربات مع الأمة الفارسية ، وقيل إن هيرودتس أبا المؤرخين أشار إليهم تحت اسم تاركيتاوس .

وباني أول دولةٍ منهم أوغوز خان بن قره خان ، وكان له ستة أولاد ؛ وهم كون خان ، وآي خان ، ويلديز خان ، وكول خان ، وطاغ خان ، ودكز خان . فمن هؤلاء ثلاثة سكنوا الشرق ، وثلاثة سكنوا الغرب . وكان لكل منهم أربعة أولاد ، فصار لأوغوز خان ٢٤ حفيداً هم رؤساء القبائل التركية ، هكذا قال نسّابوهم .

ومن البداية انقسم الترك إلى قسمين ؛ الساكنين فى شرقى تركستان ، وهم « الاويغور » والساكنين فى الغرب منها وهم « الترك أو التركمان » وكان « الاويغور » بادىء ذى بدء أرقى وأرق وأكثر مدنية ، وكان لسانهم لسان الترك الأدبى ، وكان لهم خط ومؤلفات . ثم جاء رهبان من النساطرة ونصّروا بعضهم وعلموهم خطًّا مأخوذاً من السريانية ، وموجود بهذا الخط كتب تركية إلى اليوم .

وفى سنة ٨٥ للهجرة غزا « قتيبة الباهلى » بالمسلمين العرب بلاد الترك ، وافتتح بخارى ، ومرو ، وخوارزم ، وسمرقند ، وغيرها . واجتمع عليه ملك السغد ، وملك الشاش ، وغيرهما . فهزمهم وأثخن فى الترك فصالحوه على أموال يؤدونها اليه ، وكان فى صلحه بيوت الأصنام والنيران فأخرجت الأصنام فسُلبت حليتها . وكانوا يقولون إن هناك أصناماً من استخف بها هلك ، فلما حرقها قتيبة بيده أسلم من الترك خلق وهذا أول إسلامهم .

وفى خلافة هشام بن عبد الملك تولى خالد بن عبد الله القسرى العراق ، وأخوه أسد بن عبد الله خراسان ، وغزا أسد بلاد الترك ومنها « جبال نمرود » فصالحه نمرود وأسلم . ثم استعمل هشام على خراسان أشرس بن عبد الله السلمى ، فدعا أهل ما وراء النهر إلى الاسلام ، وطرح الجزية عن الذين أسلموا ، فسارعوا إلى الاسلام ثم لما صارت الخلافة إلى بنى العباس وتولى المأمون خراسان ـ وذلك قبل خلافته ـ أخذ يغزو السغد ، وأشروسنة ، وفرغانة ، ويقول البلاذرى فى « فتوح البلدان » إنه كان مع تسريته الخيول اليهم يكاتبهم بالدعاء إلى الاسلام والطاعة والترغيب فيهما .

نعم ! ولما تولى المأمون الخلافة سنة ١٩٨ دخل فى الاسلام كاوس ملك أشروسنة

بعد حروب ومقاتلات تغلب فيها العرب على أهالى تلك البلدان ، وكان المأمون رحمه الله بينما هو يغزو الترك من جهة يدعوهم إلى الاسلام من جهة أخرى . قال البلاذرى : « وكان يوجه رسله فيفرضون لمن رغب فى الديوان وأراد الفريضة من أهل تلك النواحى وأبناء ملوكهم و يستميلهم بالرغبة ، فاذا وردوا بابه شرّفهم وأسنى صلاتهم وأرزاقهم . ثم استخلف المعتصم بالله فكان على مثل ذلك ، حتى صار جل شهود عسكره من جند أهل ما وراء النهر من السغد ، والفراغنة ، والاشروسنة ، وأهل الشاش وغيرهم . وحضر ملوكهم بابه وغلب الاسلام على من هناك » اه

ولا يخفى أن البلاذرى كان قريب العهد من هذه الحوادث ، لأن الخليفة المعتصم مات سنة ٢٢٧ والمؤرخ أحمد بن يحيى البلاذرى مات سنة ٢٧٩ .

وسنة ٣٥٠ أسلم سالورخان سلطان التركمان سلالة طاغ خان وتسمى قره خان وأسلم معه قومه ، وجاء ابنه فبنى جوامع ، وفتح عمه بغراخان كاشغر ، وأخذ بخارى من السامانية . وجاء بعده أحمد خان بن أبى نصر فأكمل إسلام من لم يهتد من الأتراك ، وازداد تردد الترك إلى بغداد ، وامتلأت منهم العراق وارضروم واذربيجان ووصلوا إلى الشام وصار منهم أمراء جيش الخلافة ، واستبدوا بأمورها وصاروا يكتبون بالعربى ، و بعضهم اتخذ اللسان الفارسى ، ولم يهتم أحد منهم بلسان « الاويغور التركى القديم » ولم يجعلوا التركى لساناً رسمياً إلا فى زمان بنى سلجوق فى الأناضول . ثم ترقى هذا اللسان فى زمان الأتراك آل عثمان الذين خلفوا آل سلجوق ، لا سيما فى أيام محمد الفاتح ، وسليم وسليمان . وفكر سليم فى جعل العربى لسان الدولة الرسمى فلم يطيعوه ، لكنه بقى لسان الدين والعلم . وأما لسان الاويغور فقد كان فى زمن جنكيزخان ترقى كثيراً ، لكنه عراه بعد ذلك التوقف ، وهو الذى يعرف « بجغطاى » ثم بتوالى الزمن تباعد « التركى الغربى العثمانى » عن « التركي الجغطائى » كثيراً . ثم هناك « تركى تتر القريم » وهو متوسط بين الفريقين .

وعلماء الألسن يجعلون التركى خمسة أقسام ؛ الأول الاويغورى أو الجغطائى الثانى التتارى ، والثالث القيرقيز ، الرابع الياقوتى ، الخامس العثمانى ، وليس للقيرقيز

والياقوت أدبيات فى ألسنتهم . والقرقيز مسلمون لكن الياقوت لا يزالون وثنيين . وقيل إن الياقوتى هو أصل التركى ، والباقى فروع عنه . و يقول المدققون : إن التركى يشبه فى الدرجة الأولى لسان التونغوز والمانشو من الألسنة الطورانية ، وفى الدرجة الثانية لسان المغول ، وفى الدرجة الثالثة لسان المجار والفنلانديين .

هذا والفرقة الأنقرية من الأتراك المستبدة بأمر تركيا اليوم تعلم فى مكاتب تركيا مذهبا جديداً فى التاريخ ، وهو أن أصل الترك الذين فى الأناضول وغربى آسية هم من الحثّيين ؟ وأن هذه البلدان هى لهم من أربعة آلاف سنة ، وهم في هذا الكشف التاريخى الجديد يستندون الى تخمينات بعض مؤرخين محدثين من أصحاب النظريات الجديدة فى أوروبة ، ولكن شيئا من هذا لم يثبت .

وأكثر مؤرخى الأوروبيين يقولون إن أصل الحثّيين من جهة الدم لم يتحقق بعد وغاية ما تقرر — تاريخاً — أنهم أخذوا مدنيتهم عن السومريين والأكاديين أهل بابل ، وقلدوهم فى الكتابة والديانة والشعائر الدينية ، ومزجوها كلها بمدنيتهم وديانتهم وتقرر أيضاً عند بعض المؤرخين أن الحثّيين هم كانوا الواسطة بين المدنية السامية والمدنية الاغريقية . ولا يزال تاريخ الحثّيين فى أول عهده ، ولا تزال العلماء لم تحلّ الكتابات الباقية عنهم ، ولا يعلمون هل لغة الحثّيين هى هندية أوروبية ، أم قوقاسية ؟ وغاية ما لحظوا أن فيها دخيلا من لغات أخرى .

أما الآكاديون من أهل بابل فانهم ساميون بلا نزاع ، ولغتهم سامية ، والأرجح أنهم جاءوا من جزيرة العرب مهد الساميين .

وأما السومريون فلا يعرف أصلهم ، وقصارى ما نرجح من أمرهم أنهم غير ساميين ، وأنه وجدت مدنية معاصرة لمدنيتهم فى جهات بحر الخزر .

ولا يعلم أحد مافائدة أتراك أنقرة من تعليم آراء تاريخية جديدة واهية لاتستند على قواعد متينة ؟ ! وهل إذا كان ترك الأناضول آتين من فرغانة وسمرقند وكاشغر من ألف سنة فقط يسقط حقهم بالأناضول ؟ ! ولا بد من أن يثبتوا أن هذه البلاد بلادهم منذ آلاف من السنين حتى يستحقوها ؟ ! كل هذا من جملة الغرائب التى ولدت

مع الانقلاب الأنقرى . انتهى ما كتبته فى « حاضر العالم الاسلامى » .

وجاء فى الانسيكلو بيدية الاسلامية أن لفظة « ترك » هى محرفة عن لفظة « توكو » عند الصينيين ، وهو شعب ظهر فى القرن السادس بعد المسيح وأسس ملكا طويلا عريضا امتد من بلاد المغول وشمالى الصين إلى البحر الأسود ، وكان أصحاب هذا الملك من القبائل الرحالة ، وكان مؤسس هذا الملك الكبير رجلا يقال له « تومان » عند الصينيين ، و« ترك بومين » عند الأتراك ، وقد مات سنة ٥٥٢ للمسيح . وكانت أكثر الفتوحات على يد خاقان الذى مات سنة ٥٧٦ والصينيون يقولون لهؤلاء : ترك الشمال والغرب وكانوا قد انفصلوا عن ترك الشرق . وفى القرن السابع للمسيح خضع الترك جميعا الشرقيون والغربيون لسلالة « تانغ » الصينية ، ولكن تُرك الشمال عادوا فاستقلوا فى سنة ٦٨٢ للمسيح ، وفي مدة هذه الدولة التركية الغربية وجدت الكتابة المسماة بكتابة «أورخون» نسبة إلى نهر فى بلاد المغول يقال له « أورخون » وهى أقدم كتابة تركية . واشتهر فى قبائل الترك الغربية قبيلة « ترغش » وحاز أمراؤها لقب « خان » فى أواخر القرن السابع المسيحى . وفى ذلك الوقت جاء العرب فقضوا على ملك الترغش هؤلاء فى زمان نصر بن سيار سنة ١٢١ للهجرة . اه كلام الانسيكلو بيدية .

قلت : فى زمان هشام بن عبد الملك تولى نصر بن سيار بلاد طخارستان ، فغزا « أشروسنة » وذلك فى أيام الخليفة مروان بن محمد الأموى . وقد كان مضاء العرب فى فتح خراسان وما وراء النهر من أبدع ما جاء فى التواريخ ، ومما يدل على أن العرب اذا استقام أمرهم لم يقف فى وجههم قبيل . فان الترك الذين تغلب العرب عليهم مشهورون بشدة البأس وقوة المراس ، وقد حشدوا للعرب من كل حدب فما نالوا منهم نيلا وتغلب العرب عليهم فى أوساط بلادهم ، وأثخنوا فيهم ، ولم يكفّوا عنهم حتى دخلوا فى الإسلام . فكان الاسلام هو الذى أنجاهم فى الدنيا فضلا عن الآخرة .

وفى زمن معاوية استولى العرب على خراسان ، وكان الوالى عبيد الله بن زياد وهو لايزال ابن خمس وعشرين سنة ، فقطع النهر فى ٢٤٠٠٠ مقاتل فأتى « بيكند » وقصد الى بخارى ، فأرسلت « خاتون » ملكة بخارى الى الترك تستنجدهم ، فزحفوا

إلى العرب فهزمهم العرب واستولوا على « بخارى ، ورامدين ، و بيكند » . ثم ولى معاوية سعيد بن عثمان بن عفان خراسان فقطع النهر بجنده ، وكان معه رجل يقال له رفيع أبو العالية الرياحى ، فتفاءل بهذا الاسم خيراً وقال : رفيع أبو العالية رفعة وعلو . و بلغ خاتون ملكة بخارى عبوره النهرفحملت إليه الصلح ، وأدت الاتاوة ، و بينا هى داخلة فى الطاعة أقبل الترك من « السغد وكَش ونَسَف » فى مائة وعشرين ألف مقاتل والتقوا ببخارى ، وندمت خاتون على طاعتها للعرب ، ونكثت العهد ، إلا أن العرب هزموا الترك فرجعت خاتون إلى الصلح . ودخل سعيد بن عثمان بن عفان مدينة بخارى ، ثم زحف إلى سمرقند ، وحلف أن لا يبرح أو يفتحها ، وما زال يضيق عليها الحصار حتى صالحوه وأعطوه رهائن من أبناء ملوكهم . ثم أقام على الترمذ وما زال يضيق عليها حتى فتحها ، ثم انتقض أهل الترمذ ففتحها قتيبة بن مسلم الباهلى

وفى فتح بلاد الترك استشهد قثم بن العباس بن عبد المطلب ، كان مع سعيد بن عثمان فلما بلغ خبر شهادته أخاه عبد الله بن عباس رضى الله عنه قال : شتان ما بين مولده ومقبره !! ولم يوجد أناس تباينت قبورهم مثل أولاد العباس بن عبد المطلب فقد توفى عبد الله بن عباس بالطائف ، وتوفى الفضل بن عباس شهيدا بوقعة أجنادين بفلسطين ، وقيل بطاعون عمواس ، واستشهد معبد وعبد الرحمن ابنا عباس بافريقية وقيل إن معبدا مات شهيدا بافريقية ، وعبد الرحمن مات بالشام . واستشهد قثم بن العباس بسمرقند ، ومات عبيد الله بن العباس بالمدينة ، وقيل باليمن . ثم إنه بعد موت معاوية ولى ابنه يزيد بن معاوية سلم بن زياد ماوراء النهر ، فصالحه أهل خارزم على أربعمائة ألف وحملوها اليه ، وقطع النهر ومعه امرأته أم محمد بنت عبد الله بن عثمان بن أبى العاصى الثقفى ، وكانت أول عربية عبرت النهر . وأقام سلم بن زياد بالسغد ، وسرح جيشا الى « خنجدة » وفيهم أعشى همدان الشاعر ، فانهزم هذا الجيش فقال الاعشى :

ليت خيلى يوم الخجندة لم تُهـــزم وغودرت فى المكر سليبا

تحضر الطير مصرعى وتروّحـــت الى الله فى الدماء خضيبا

ثم رجع سلم بن زياد إلى مرو وحشد هناك جيشا وغزا بلاد الترك ، فجمع له أهل السغد فقاتلهم ودوخهم . ثم إن سلم بن زياد انصرف عما وراء النهر وتولاها عبد الله ابن خازم السلمى بعهد من سلم بن زياد ، فعصاه سليمان بن مرثد من بنى سعد بن مالك من المراثد بن ربيعة واقتتلا ، وكان ذلك فى أثناء فتنة ابن الزبير مع بنى أمية . وطال القتال بين العرب فانتهز الترك الفرصة وشنوا الغارات حتى بلغوا قرب نيسابور ولكن انتهت هذه الفتنة بين العرب بالطائلة لابن خازم . وكانت العصبية العربية بين القبائل هى العامل فى تلك الفتن ، كما كانت فى الأندلس وفى بلاد الافرنجة . وكان عبد الله بن خازم لايتولى غير عبد الله بن الزبير ، ولا يطيع عبد الملك بن مروان فكتب عبد الملك إلى بكير بن وشاح يوليه خراسان ، فقاتل ابن خازم وتغلب عليه وقتله ، وأرسلوا برأسه إلى عبد الملك بن مروان فنصبه بدمشق ، واشتدت الفتنة بين العرب فى خراسان إلى أن كتب وجوه العرب إلى عبد الملك بن مروان أنه لاتصلح خراسان بعد هذه الفتنة إلا برجل من قريش ، فولّى عبد الملك على خراسان أمية ابن عبد الله بن خالد ، وغزا أمية بلاد الختل فافتتحها . ثم جاءت أيام الحجاج بن يوسف وكانت خراسان من جملة ولايته ، فولاها المهلب بن أبى صفرة من الأزد وذلك سنة ٩٩ فغزا مغازى كثيرة ، وانتقضت الختل فى أيامه فدوخها وفتح «خجندة» وأطاعت له « السغد » و « كُش » و « نَسَف » ومات المهلب فقام بعده ابنه يزيد ابن المهلب ، فغزا مغازى كثيرة فى بلاد الترك ، وفتح « البتم » ثم غزا يزيد « خارزم » . ثم ولى الحجاج بن يوسف المفضل بن المهلب بن أبي صفرة ففتح المفضل بلدانا منها « بادغيس وشومان » . وكان موسى بن عبد الله بن خازم السلمى بعد قتل أبيه قد امتنع بالترمذ ، فاستنجد أهل الترمذ الترك على موسى فهزمهم موسى ، وحدث مع موسى هذا وقائع كثيرة وحروب ذات بال تغلب فيها كلها .

وكان أهل خراسان يقولون عن موسى بن عبدالله بن خازم السلمى هذا : مارأينا مثل موسى ! ! قاتل مع أبيه سنتين لم يُفَلّ ، ثم أتى الترمذ فغلب عليها وهو فى عدة يسيرة وأخرج ملكها عنها ، ثم قاتل الترك والعجم فأوقع بهم ، إلا أنه لما تولى

المفضل بن المهلب خراسان أرسل جيشاً يقاتل موسى على الترمذ ، فانهزم موسى وقتل وتولى الترمذ مدرك بن المهلب ، وكان قتل موسى فى آخر سنة ٨٥ ، وقيل إن رجلا ضرب ساق موسى وهو قتيل ، فلما تولى قتيبة الباهلى وعلم به قتله . ثم ولى الحجاج ابن يوسف قتيبة ، وهو أشهر فاتح عربى لبلاد الترك ، خرج يريد بلاد « آخرون » فلما كان ببلاد الطالقان تلقاه دهاقين بلخ ، فعبروا معه النهر ، وقدم عليه ملك الصغانيان بهدايا وأعطاه الطاعة ، واستعان به على ملك « آخرون » و « شومان » الذى كان عدواً لملك الصغانيان ، ثم أقبل على قتيبة ملك « كفيان » وقدم له الطاعة فانصرف قتيبة إلى مرو ، وخلف أخاه صالحا على ماوراء النهر ، ففتح صالح « كاسان » و « أورشت » من بلاد فرغانة و « بيعنخر » و « خشكت » وكان فى جيش صالح هـذا نصر بن سيار المشهور . وأطاع ملك « الجورجان » وقدم على قتيبة ، ثم غزا قتيبة « بيكند » سنة ٨٧ فاستصرخ أهالى « بيكند » أتراك السغد ، فهزمهم قتيبة وفتح « بيكند » ثم فتح « تومشكت » و « كرمينيه » سنة ٨٨ ، ثم استخلف على « مرو » أخاه بشاراً ، وغزا « بخارى » ودخلها صلحاً ، ثم أوقع بالسغد وافتتح « كش » و « نسف » وكان ملك خارزم قد عصاه أخوه خرزاد فالتجأ الملك إلى قتيبة ، فوجه قتيبة أخاه عبد الرحمن بن مسلم بجيش فقاتل خرزاد فقتله وأوقع بجماعته ، وأعاد الملك إلى أخيه ، ثم وثب الأهالى بالملك فقتلوه ، فولى قتيبة أخاه عبيد الله بن مسلم على خارزم ثم غزا قتيبة « سمرقند » فاجتمعوا لقتاله ، وكتب ملك السغد إلى ملك الشاش (الشاش مايقال له اليوم طاشقند) فنهدوا إليه فى خلق كثير فقاتلهم المسلمون وهزموهم وصالحهم أهل سمرقند على ألف ومائتى ألف درهم فى كل عام ، وعلى أن يصلى قتيبة فى المدينة ، فدخل قتيبة سمرقند وصلى واتخذ مسجداً ، وخلف بها جماعة من المسلمين فيهم الضحاك بن مزاحم « صاحب التفسير » وكان فى صلح قتيبة بيوت الأصنام والنيران ، فأخرج قتيبة الأصنام وسلب حليتها وأحرقها ، وكانوا يعتقدون بها فلما رأوا قتيبة قد أحرقها بيده ولم يحصل له سوء أسلم منهم خلق .

وفى زمن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه وفد قوم من أهل سمرقند فرفعوا

اليه أن قتيبة دخل مدينتهم غدراً وأسكنها المسلمين ، فكتب عمر يأمر بنصب قاض للنظر فيما ذكروا ، فنصب لهم جميع بن حاضر الباجى فحكم بإخراج المسلمين على أن ينابذوهم على سواء ، فكره أهل سمرقند الحرب و بقى المسلمون فيها . ثم فتح قتيبة عامة بلاد الشاش و بلغ « اسبيجاب » وقالوا « إن قتيبة فتح خارزم وسمرقند عنوة . وقد كان سعيد بن عثمان بن عفان قد تغلب على سمرقند وخارزم صلحا ، ولكن قتيبة استقل هذا الصلح وأبى إلا فتحها بالقوة ، ثم فتح « بيكند، وكش ، ونسف » وقيل والشاش و بعض فرغانة ، وغزا « أشروسنة » . ولما تولى الخلافة سليمان بن عبد الملك كان قتيبة بن مسلم الباهلى مستوحشا منه ، كارها لخلافته ، فكتب سليمان إلى قتيبة يأمره باطلاق كل من فى حبسه ، وأن يعطى الناس أعطياتهم ، و يأذن لمن أراد القفول فى القفول ، وكانوا متطلعين إلى ذلك . وكان من مقاتلة أهل البصرة أربعون ألفاً ، ومن أهل الكوفة سبعة آلاف ، ومن الموالى سبعة آلاف . فلم يأذن قتيبة فى القفول ، فثاروا به فانتصر له العجم على العرب ، وكانت حرب بين الفريقين فظفر العرب بقتيبة وقتلوه ، وهو الذى مهد لهم بلاد خراسان وما وراء النهر ، وقتل معه جماعة من إخوته ، وقتلت زوجته ، ونجا أخوه ضرار بواسطة بنى تميم ، وأخذت الأزد رأس قتيبة وخاتمه و بعثوا به إلى الخليفة مع سليط بن عطية الحنفى ، وكان قتيبة يوم قتل ابن ٥٥ سنة . و بعد أن قتل قتيبة رحمه الله تولى خراسان وكيع بن حسان ابن قيس التيمى ، وأراد سليمان بن عبد الملك أن يثبته فى الولاية فقيل له : إن وكيعا ترفعه الفتنة ، وتضعه الجماعة ، وفيه جفاء وأعرابية ، وكان وكيع يدعو بطست فيبول والناس ينظرون إليه ، فلم يكن يصلح للولاية . فقدم عليه يزيد بن المهلب والياً فقدم يزيد ابنه مُخْلَدَا فغزا مخلد « البتم » ففتحها ، ثم نقض أهلها العهد فكر عليهم وفتحها ثانية ، وأصاب بها مالا وأصناماً .

ولما استخلف عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه كتب إلى ملوك ما وراء النهر يدعوهم إلى الاسلام ، فإن همه كان نشر الاسلام قبل كل شىء ، فأسلم بعضهم . وكان عامل عمر على خراسان الجراح بن عبد الله الحكمى ، فوجه الجراح أحد قواده

عبد الله بن معمر اليشكرى إلى ماوراء النهر ، فأوغل فى بلاد العدو وهمّ بدخول الصين فلما تكاثر عليه الترك رجع إلى الوراء وامتنع ببلد الشاش ، ورفع الخليفة رضى الله عنه الخراج عمن أسلم بخراسان ، وفرض العطاء للمسلمين منهم ، و بنى الخانات . وكان الجراح بن عبد الله الحكمى قد كتب للخليفة أنه لايصلح خراسان إلا السيف فاغتاظ عمر من كلامه هذا وعلم أنه وال يستخف بالدماء فعزله ، ولكن قضى الدين الذى عليه . ثم ولى عبد الرحمن بن نعيم الغامدى حرب خراسان ، وعبد الرحمن بن عبد الله القشيرى خراجها . وفى خلافة يزيد بن عبد الملك تولى خراسان سعيد بن عبد العزيز بن الحارث بن الحكم بن أبي العاصى بن أمية ، فنزل خراسان و بعث ابنه إلى ماوراء النهر فنزل « اشتيخن » فزحف إليه الترك فقاتلهم وهزمهم . ثم لقى الترك مرة ثانية فانهزم أصحاب سعيد ، فولى سعيد نصر بن سيار على الجيش . وشخص قوم من وجوه خراسان إلى مسلمة بن عبد الملك والى العراق وشكوا سعيداً ، فعزله مسلمة ، وولى سعيد بن عمر الجرشى على خراسان ، فافتتح الجرشى عامة حصون السغد.

وقال البلاذرى : إنه نال من العدو نيلا شافياً . وفى خلافة هشام بن عبد الملك تولى العراق عمر بن هبيرة الفزارى ، فعزل الجرشى واستعمل على خراسان مسلم بن سعيد ، فغزا « الأفشين » فصالحه على ستة آلاف رأس ، ودفع إليه قلعتَهُ . وتولى طخارستان نصر بن سيار كما تقدم الكلام عليه ، فخالفه خلق من العرب فأوقع بهم ثم سفرت بينهم السفراء فاصطلحوا .

ثم تولى العراق خالد بن عبد الله القسرى من قبل الخليفة هشام بن عبد الملك فولى خالد أخاه عبد الله بلاد خراسان ، و بلغ ذلك مسلم بن سعيد فسار إلى فرغانة وأناخ على مدينتها وعاث فيها ، فاجتمع عليه الترك وعليهم خاقانهم ، فارتحل عن فرغانة وغزا أسد بن عبد الله القسرى « جبال نمرود » فصالحه نمرود وأسلم ، وغزا «الختل» فلم يقدر عليها .

ثم استعمل الخليفة هشام أشرس بن عبد الله السُّلَمى فدعا أهل ما وراء النهر إلى

الاسلام وأمر بطرح الجزية عمن أسلم ، فسارعوا إلى الاسلام وانكسر الخراج . ثم استعمل الخليفة هشام سنة ١١٢ الجنيد بن عبد الرحمن المرّى على خراسان ، فحارب الترك وهزمهم وظفر بابن خاقان فبعث به إلى الخليفة هشام ، ولم يزل يقاتل الترك حتى دوخهم ، وأمده الخليفة بعمرو بن مسلم فى عشرة آلاف رجل من أهل البصرة و بعبد الرحمن بن نعيم فى عشرة آلاف من أهل الكوفة ، وحمل إليه ثلاثين ألف قناة ، وثلاثين ألف ترس ، وأطلق يده فى الفريضة ، ففرض لخمسة عشر ألف رجل وكانت للجنيد مغاز كثيرة . وفى زمانه عصت نواح من طخارستان ففتحها ، وكانت وفاته بمرو . فولى الخليفة هشام عاصم بن عبد الله بن يزيد الهلالى .

وكان نصر بن سيار غزا « أشروسنه » أيام الخليفة مروان بن محمد فلم يقدر عليها وكان من بعده من الخلفاء يُولّون عمالهم فينتقصون حدود أرض العدو ، و يحاربون من نقض العهد . و بقى الأمر كذلك إلى أيام المأمون يوم مقامه بخراسان ، فكان يغزو بلاد الترك من « السغد » و « أشروسنة » و « فرغانة » و يوالى عليهم الغارات ولكنه من جهة ثانية يدعوهم إلى الاسلام . وكتب إليه « كاوس» ملك «أشروسنة» يسأله الصلح على مال يؤديه على شرط أن لا يغزى المسلمين بلده ، فأجيب إلى ذلك فلما تولى المأمون الخلافة امتنع كاوس من الوفاء بالصلح . فأرسل المأمون أحمد بن أبى خالد الأحول الكاتب لغزو « أشروسنة » فى جيش عظيم ، فاستصرخ كاوس الترك فزحفوا لنجدته ، ولكن أحمد بن أبى خالد أناخ على «أشروسنة » قبل وصول الأتراك فاستسلم كاوس له ، وورد كاوس مدينة السلام وأظهر الاسلام ، وملّكه المأمون على بلاده . ثم ملك ابنه « خيذر بن كاوس » الملقب بالأفشين بعده (واسمه بالخاء المعجمة كما رأيت فى تاريخ أبى الفداء) وكان المأمون رحمه الله يكتب إلى عماله فى خراسان بغزو من لم يسلم من الترك ، و يُسنِى العطاء لمن أسلم . و إذا ورد ملوك الترك بابه بالغ فى تشريفهم و إكرامهم وأدرّ عليهم الأرزاق . ثم جاءت خلافة المعتصم فكانت رغبته فى الترك أكثر من كل الخلفاء ، وصار أكثر جيشه من أهل السغد ، وفرغانة ، والأشروسنة ، والشاش ، وغلب الاسلام على تلك البلاد ، وصار

أهلها يغزون من وراءهم من الترك . وأغزى عبد الله بن طاهر ابنه طاهر بن عبد الله بلاد « الغوزية » ففتح مواضع لم يصل إليها أحد قبله . وكان قتيبة الباهلى أسكن العرب فى أرض « فرغانة والشاش » .

والأفشين هذا هو الذى بعد أن أسبغ عليه الخلفاء النعم الجسام ، عاد فظهر أنه لم يكن إسلامه إلا خداعاً ، وأنه لم يكن طهر قلبه من عبادة أصنامه ، فانتهى الأمر بأن المعتصم قاتله وأخذه ، و بعد وقوعه باليد أحرقه . وفى ذلك يقول أبو تمام الطائى شاعر الحضرة :

يارُب فتنة أمة قد بزها ... جبّارها فى طاعة الجبّار
جالت « بخيذر » جولة المقدار ... فأحله الطغيانُ دار بوار
كم نعمة لله كانت عنده ... فكأنها فى غربة وإسار
كسيت سبائب لؤمه فتضاءلت ... كتضاؤل الحسناء فى الأطمار
صادى أمير المؤمنين بزبرج ... فى طيه حُمَةُ الشجاع الضارى
حتى إذا ما الله شق غباره ... عن مستكنّ الكفر والإصرار
ونحا لهذا الدين شفرته انثنى ... والحق منه قانىء الأظفار
هذا النبىُّ وكان صفوة ربّه ... من بين بار فى الأنام وقار
قد خص من أهل النفاق عصابةً ... وهو أشد أذًى من الكفار
واختار من سعد لعين بنى أبى ... سرح لوحى الله غير خيار
حتى استضاء بشعلة النور التى ... رفعت له سجفاً عن الأسرار

ومنها :

ما كان لولا فحش غدرة « خيذر » ... ليكون فى الاسلام عام فجار
ما زال سر الكفر بين ضلوعه ... حتى اصطلى سر الزناد الوارى
ناراً يساور جسمه من حرّها ... لهبٌ كما عصفرتَ شق إزار
مشبوبة رفعت لأعظم مشرك ... ما كان يرفع ضوءها للسارى
صلى لها حياً وكان وقودها ... ميتاً ويدخلها مع الفجّار

قد كان بوأه الخليفة جانباً من قلبه حرما على الأقدار
فسقاه ماء الخفض غير مصرد وأنامه فى الأمن غير غرار
فاذا ابن كافرة يسر بكفره وجدا كوجد فرزدق بنوار
وإذا تذكره بكاه كما بكى كعب زمانَ رثى أبا المغوار
دلت زخارفهُ الخليفةَ أنه ما كل عود ناضر بنضار
يا قابضا يد آل كاوس عادلاً أتبع يميناً منهم بيسار
واعلم بأنك إنما تلقيهم فى بعض ما حفروا من الآبار

وذلك أن « الأفشين خيذر بن كاوس » كان مقربا عند المعتصم ، ولخيذر جهاد عظيم فى حروب الروم ولا سيما فى فتح عمورية ، وهو الذى هزم «بابك الخرّمى» الذى خرج على الخلافة فى « جبال طبرستان » واشتد أمره ، وهزم عساكر المعتصم مرارا ، فرماه المعتصم بالأفشين ، فما زال يقاتله حتى أخذه. ولكن فى سنة ست وعشرين ومائتين غضب المعتصم على الافشين خيذر بن كاوس وحبسه إلى مات فى حبسه وأخرج فصلب الى جانب بابك كما هو مبسوط فى التواريخ .

وجاء في الانسكلو بيدية الاسلامية أن الخليفة هشام بن عبد الملك كان قد دعا ملك الترك الى الاسلام ، وأن مؤلفى العرب لم يبدأوا بالكتابة عن الترك الا فى القرن الثالث للهجرة . فذكروا من أصنافهم « الطوغوزغوز » و « الغزغِز » و « الكيماك » و « الغزُ » أو « الاوغُز » و « القارلُق » وكان الغزغز أبعدهم مكاناً عن العرب وكان الاوغز والقارلق هم الساكنين على حدود المملكة العربية مثل جرجان ، وفاراب وأربيجاب . وكان الطريق من المملكة العربية الى الصين ماراً ببلاد القارلق ، فكان المسافر يمشى ثلاثين يوماً من حدود فرغانة الشرقية فى بلاد القارلق الى أن يصل الى البحر المحيط .

وذكر ابن خرداذبه قبيلا من الترك كان يسكن بقرب مشاتى القارلق وهم « الخالاج » . وذكروا أن مدينة « خاقان ترغُش » كانت بقرب « نهركو » وكان الترغش ينقسمون الى « تخسى » والى « آز » وكان التخسى يسكنون على ضفاف

« كو » ولهم مدينة اسمها «صو ياب» . وكان الى الشرق منهم قبيل يقال له «الصيغل» وكان الى الجنوب من نهر « مارين » قبيل يقال له « يغمة » من الطوغوزغوز وفى بلادهم كانت مدينة « كاشغر » . وقال محمود الكشغرى : إن اليغمة والتخسى كانوا يسكنون على ضفاف نهر « اللى » وكان بالقرب منهم قسم من « الصيغل » وكان هؤلاء الصيغل ثلاثة أقسام « صيغل اللى » و « صيغل كاشغر » والصيغل الذين بقرب « تاراز » . وكان الأوغز يسمون جميع الترك من سيحون الى الصين «صيغل» و يقول محمود الكشغرى : إن الاوغز والقارلق كان يقال لهم « التركمان » .

وذهب بعضهم الى أنه قد يكون التركمان من سلائل الايرانيين الرحالة ، وقد استتركوا بكرور الأيام ، لان سحنتهم تختلف عن سحنة سائر الترك . و يظنون أن « التاتار » هم من قبائل « الكيماك » السبع ، وأصلهم من الطوغوزغوز . وقسم بعضهم الترك الى قسمين ؛ الشمالى ، والجنوبي ، وقالوا إن كلا منهما عشرة شعوب فالشماليون هم ؛ البجنك ، والقبجاق ، والاوغز ، واليمك ، والباشكرد ، والباسميل والقاى ، واليابا كو ، والتتر ، والغرغز . و إن الجنوبين هم ؛ الجيكيل ، والتخسى واليغمه ، والاغراق ، والجاروق ، والجومول ، والاو يغور ، والتنكوت ، والخيطاى والتفغاق . وقد يقع اختلاف فى هذا التقسيم ، لأن شعوباً منسوبة الى الشمال قد ثبت أنها سكنت فى الجنوب .

ومن شعوب القسم الشمالى من كانت لهم لغات مخصوصة بهم مثل القاى واليابا كو ، والتتر ، والباسميل ، ولكنهم كانوا يعرفون اللسان التركى العام . وكان اليابا كو يسكنون على ضفاف النهر الكبير « يامار » الذى يظن أنه النهر الذى يقال له اليوم « أومور » وقد روى بعض المؤرخين أن جيشاً إسلامياً عبر هذا النهر فى القرن الحادى عشر للمسيح تحت قيادة أرسلان تكين ، الذى ذهب يغزو اليابا كو والباسميل وأما الشعوب الجنوبية من الترك . فكان منهم شعب « الجومول » يتكلم بلغة غير التركى ، ولكنه يعرف التركى . وقيل مثل هذا عن « الاو يغور » فقد كانت لهم عدا التركى لغة خاصة . وأما « التنكوت » فكانوا قبيلا غريباً فى الحقيقة ، سكن

في وسط الترك . وكذلك أهل « خوطان » و « التبت » فقد كانت لهم لغات خاصة بهم . وفى بلاد الصين وماسين كان للاهالى لغة غير التركى ، و إنما كانوا يعرفون التركى وفى أصناف الترك « الجاروق » وكانوا يسكنون فى مدينة برقوق التى هى اليوم « ما رالباشى » وكان فى بلاد الأويغور خمس مدن ؛ منها « بشبالق » و « قوقو » و « قره خوجه » وكان الاويغور بوذيين يعبدون الأصنام . وقد ذكر محمود الكشغرى قبائل تركية أخرى ليست داخلة ضمن الشعوب العشرين التى ذكرناها ، من جملتها « الأدغيش » و « الكوجات » الذين كانوا فى خوارزم . وقد ذكروا من جملة من هم من أصل تركى « البلغار » و « الصوغار » وذهب الكشغرى إلى أن لغة البلغار والصوغار ، والبجنك ، كلها لغة واحدة . ولكن الاصطخرى يقول : إن لغة البلغار والخزر ، تفترق عن لغة الترك . وكانت لهجات القرغز ، والقبجاق ، والأوغز ، والتخسى واليغمة ، والصيغل ، والاغراق ، والكاروق ؛ تركية محضة ، و يقرب منها لغات الجكة ، والباشكير . و بالاجمال فالترك الرحالة الساكنين بين «الايتل» و « اليامار » كانوا يتكلمون بلغة أنقى من لغات أهل المدن ، وقد كانت اللغة الصُغدية مستعملة إلى جانب التركى فى المدن ، وكان يغلب على لغة الأوغز ــ أو التركمان ــ لهجة الشعوب التركية الجنوبية . ثم جاء فى الانسكلو بيدية الاسلامية ؛ أن ظهور العرب على الترك فى أول الدولة العربية لم يؤثر فى قضية اتخاذ الترك الاسلام ديناً ، وكانوا يروون الحديث النبوى : « إتركوا الترك ما تركوكم » . وما أسلم الترك إلا اختياراً فى القرن الرابع للهجرة (وقد ظهر لك مما تقدم أن الاسلام بدأ فى الترك من أيام بنى أمية ، ثم فشا فيهم لعهد المأمون والمعتصم) .

وأنه في سنة إحدى وتسعين ومائتين للهجرة ، كان زحف الترك الوثنيين على المملكة السامانية ، فدحرهم المسلمون ، وفى سنة اثنين وثمانين وثلاثمائة للهجرة ، دخل الترك المسلمون بخارى واستولوا عليها . وفى القرن الخامس للهجرة فتح الترك المسلمون تحت راية بنى سلجوق بلاد الاناضول . وقد رويت أحاديث عن الرسول عليه السلام بخلاف الحديث السابق ، أي أنه كان يحرض على تعلم لسان الترك لأنه سيكون لهم

ملك طويل العهد — وأظنه من الأحاديث الموضوعة — ولم يعلم شيء عن تاريخ الحادث الذى قيل فيه إن شعباً تركيا يبلغ مائتى ألف خيمة قد أسلم فى يوم واحد .

(قلت ورد هذا فى صبح الأعشى) والمظنون أن لهذا الحادث علاقة بدولة « ألك خان » من قبيلة « أفراسياب » وكان أمراء كاشغر المسلمون استولوا على بلاد « خوطان » ولم تعلم تفاصيل هذا الاستيلاء . وكانت بلدة « كوزن » وقامة «بوغور» وغيرها معدودة ثغور الاسلام في بلاد التركستان الصينى . وكان دخول الأتراك الذين فى الغرب متأخرا عن دخول الذين كانوا فى الشرق فى الاسلام .

وقد روى ابن الأثير أن شعبا تركيا كان يشتو فى بلاد « بالازاغون » و يصيف فى بلاد « بلغار » بقرب « الاورال » قد أسلم فى شهر صفر سنة خمس وثلاثين وأر بعمائة وروى أنهم كانوا عشرة آلاف خيمة . وكان « القبجاق » فى أواسط القرن السادس للهجرة لمّا يدخلوا فى الاسلام ، وذلك يستفاد من كتاب قيل فيه عن وصول أمير القبجاق إلى « جند » ثم يقول صاحب الرواية عنه : رزقه الله الاسلام . وكان الروس منذ أواسط القرن الثانى عشر للمسيح يسمون جميع أصناف الترك ما عدا القبجاق « سرنيكلو بوكى » أى الطرابيش السود . ومن هؤلاء قبيـلة « البكنج » يظن أن أصلها ليست من الترك بل أمة غربيّة ، وهم يخالفون الأتراك الطارئين من أواسط آسية بكونهم يربون البقر ، وقد أسلموا كسائر من أسلم من الترك . ولما تأسست سلطنة « قره خيطاى » التركية بعد سنة ثلاثين ومائة وألف مسيحية ، كان الاسلام قد فشا فى الترك ، ولـكن هذه السلطنة كانت وثنية فأخذت تضطهد الاسلام ولـكنها لم تقدر عليـه ، وكانت إمارة « بالازاغون » الواقعة فى الشمال إمارة إسلامية وعند انحلال سلطنة قرة خيطاى كانت توجد إمارات إسلامية فى شمالى « اللى » مثل إمارة « قارلق » و إمارة أخرى فى بلاد « قلجه » وكانت بلاد « ما ناس » هى الحد الفاصل بين الترك الاسلامية وغير الاسلامية .

أما دخول الأتراك فى الأناضول وقبل ذلك فى أزر بيجان فما بدأ إلا فى زمن السلاجقة ، وقد تم تتريك تلك البلاد فيما بعد .

وفى زمن صلاح الدين يوسف بن أيوب كان يوجد أتراك فى مصر ومنها دخلوا إلى أفريقية ، و بعد ذلك إلى الأندلس كما ذكر عبد الواحد المراكشى . ولكن لم يكن أثر يذكر للترك فى الأندلس . انتهى كلام الانسكلو بيدية الاسلامية ملخصا .
وفيه بعض خطأ ، وهو فى ظنه أن الترك لم يعرفوا مصر إلا فى زمن صلاح الدين بل عرفوا مصر قبل صلاح الدين بكثير ، وقبل الفاطميين .

وآل طولون هم من الترك وقيل : إنه كان فى مجالس الخلفاء الفاطميين أناس من الترك ، فبعد انصرافهم سئل عنهم فقال : هؤلاء الذين سيكونوا أمراؤنا فى الغد .

قلنا : إنه فى القرن الحادى عشر للمسيح كانت جميع بلاد الأناضول التى يقال لها « آسية الصغرى» مع بلاد «قيلقية» أى « ولاية أطنة » الحاضرة ، ومع شمالى سورية كانطاكية ، واللاذقية ، ومع أرمينية كلها داخلة فى ملك القسطنطينية . وكان الاسلام يومئذ منقسما إلى دولتين ؛ الخلافة العباسية فى بغداد ، والفاطمية فى مصر . وكانت فارس الغربية تخص بنى بويه الذين استأثروا بالأمر فى بغداد وحجروا على الخلفاء العباسيين ، وأما فى شرقى إيران فكانت الدولة السامانية تارة فى بخارى ، وتارة فى سمرقند . و بقيت مستتبة إلى زمان محمود الغزنوى التركى الذى استولى على خراسان وعلى قسم من بلاد العجم ، ولو لم يشغل بفتوحات الهند لربما كان تقدم إلى بغداد فشغلت الهند الدولة الغزنوية ، و بذلك اتسع المجال لدولة أخرى تركية من الغوز يقال لها « الدولة السلجوقية» . وكان آل سلجوق أتباعا للغزنويين فى بادىء الأمر ، فظهر منهم رجل يقال له طغرل بك ، واستولى على نيسابور قاعدة خراسان ، فأرادا الغزنويون أن يقضوا عليهم ولكن جاءوا متأخرين بما شغلهم من فتوحات الهند . وظهر طغرل بك على الغزنوية ، فتمكن طغرل بك من خراسان وانتشر أبناء عمه فى البلاد الغربية مثل إيران ، وكرجستان ، وأرمينية .

وكان طغرل بك أحسن السلاجقة سياسة ، وأوفرهم عقلا ، فاتخذ لنفسه خطة معينة ، وصار يفتح بلداً بلداً حتى وصل الى بغداد . وكان بنو بويه غلبوا على بغداد وحجروا على الخلفاء ، وكانوا شيعة متعصبين . فجاء طغرل بك الى بغداد ورفع منار

السنة ، وأيد الخلافة العباسية ، وقلده الخليفة السلطنة ، وسماه بملك الشرق والغرب . وكان فى ذلك الوقت أرسلان البساسيرى قد دعا للخليفة الفاطمى فى وسط بغداد وانهزم القائم العباسى من وجهه ، فجاء طغرل بك وهزم البساسيرى وقتله ، وأعاد الخليفة الى مكانه . ثم تزوج طغرل بك بابنة الخليفة ، وعاد أمر الخلافة العباسية كما بدأ من القوة ، وانتصرت السنة أيضاً على يد طغرل بك السلجوقى . ومنذ أن تمكن طغرل بك من بغداد نشر غاراته هو وأبناء عمه فى بلاد الاناضول ، وأخذ ينتقص أطرافها ، فبدأ السلاجقة بأرمينية وقارس ، وأغار عليها طغرل بك بذاته سنة ١٠٥٤ مسيحية . وكان امبراطور بيزنطية فى ذلك الوقت قسطنطين التاسع المسمى «مونوماك» فعجز عن دفعهم ، وجاء بعده قسطنطين العاشر الملقب « دوكاس » فوصل الترك فى زمانه إلى «سيواس» فى قلب الأناضول . ثم توفى طغرل بك وخلفه ألب أرسلان ابن أخيه ، فزحف صوب مملكة الروم واستولى على « أرمينية » وهزم ملوك الأرمن وهكذا انفتحت أمامه مسالك الأناضول ، فبث فيها الغارات من كل جانب ،ووصل الى قيصرية . وتولى الأمر فى القسطنطينية قيصر شديد الشكيمة اسمه « رومان ديوچينوس » فجهز الجيوش وزحف الى الأتراك ، وكانت الحرب بين الفريقين سجالا . وكان ألب أرسلان قد كرّ راجعا الى إيران بسبب عصيان أولاد عمه عليه ، فلما فرغ من قتالهم عاد الى الاناضول فنهد اليه « رومان ديوچينوس » بمائة الف مقاتل وذلك سنة ١٠٧١ مسيحية فتلاقى الجمعان فى ١٩ اغسطس سنة ١٠٧١ عند بلدة «مالازغرد» بقرب «خلاط» فدارت الدائرة على الروم ، وجرح «رومان ديوچينوس» ووقع فى الأسر ، وكان ذلك أعظم خطب حلّ بالنصرانية فى الشرق ، وانقصم بمعركة « مالازغرد » ظهر السلطنة الرومانية البيزنطية .

ووصلت الأخبار إلى الغرب فهاج هائج جميع العالم المسيحى ورأوا أن المملكة البيزنطية أصبحت لا تصلح خصما للاسلام ، ولا حاجزا دون تقدمه صوب أوروبة . ومن ذلك اليوم تولدت فكرة الحرب الصليبيّة ، ومعناها أن المسيحيين الشرقيين لا يقدرون أن يقفوا فى وجه الاسلام ، فيجب على المسيحيين الغربيين أن ينهضوا

و يزحفوا إلى الاسلام فى عقر داره . و برغم الحروب الصليبية لم يزل الترك يتقدمون فى آسيا الصغرى حتى بلغوا بحر مرمرة ، وذلك فى زمان ملك شاه بن ألب أرسلان و بمعاونة ابن عمهم « سليمان بن قطولمش » ووصل الأتراك إلى أزمير فى سنة ١٠٨١ وأخذ ظل الروم يتقلص عن تلك البلاد الواسعة . نعم أن الصليبيين أخروا تتريك الأناضول مدة من الزمن ، ولـكن عاد الاتراك فأتموا فتح هـذه البلاد ، ووجدت دوله ثانية تركية غير السلاجقة وهى الدولة « الدانشمندية » التى تأسست فى « كپادوكية » وكانت لها قيصرية ، وسيواس ، وأماسيه ، وأخيراً جاء بنو عثمان وخلفوا السلاجقة والدانشمندية ، وفتحوا بورسة وجعلوها دار مملـكتهم ، ثم أجازوا إلى الروملى ونقلوا دار ملـكهم إلى أدرنة قبل أن فتحوا القسطنطينية .

ثم وفق الله محمدا الثانى الملقب بالفاتح فاستولى على عاصمة النصرانية فى الشرق واستصفى بلاد الأناضول كلها ، وعاد فأكمل فتح الروملى واستولى على جميع ملحقات الملك القسطنطينى ، وأوغل فى بلاد البلقان حتى استولى على بلاد الصرب و بوسنة ، وأكمل خلفاؤه عمله فاستولوا على جميع الممالك التى فى شبه جزيرة البلقان وأدخلوها فى الحكم العثمانى ،واستلحقوا مملـكة المجار ، ووصلوا إلى بولونية ، وحصروا فينا ، ولولا قليل لكانت سقطت فى أيديهم . ولم يبدأ تقلص الأتراك عن شبه جزيرة البلقان إلا عند ظهور الروسية ، فأصبح الترك بازاء عدوين كبيرين معاً ؛ السلطنة الألمانية ، والسلطنة الروسية . فمامضى بعد ذلك أربعة قرون حتى عاد الأتراك فخرجوا من جميع تلك الممالك التى كانوا افتتحوها فى البلاد البلقانية ،ولم يبق لهم إلا القسطنطينية ور بضها الذى ينتهى عند أدرنة . وسنذكر شيئاً عن تتمة تاريخ الأتراك العثمانيين بعد الانتهاء من مبحث الترك الأصلى .

ونعود إلى تاريخ الترك فى أيام زحف المغول من الشرق إلى الغرب فنقول : إن المغول شعب آخر غير الترك ولـكنهم من أصل واحد ، وقد دخل من المغول كثير فى الترك فصاروا منهم ، ولما زحف جنكيز خان وأعقابه كان يقال لهم «المغول» و يقال لهم أيضاً « التتار » ولـكن بعد أن أسلمت الدولة المغولية فى القرن الرابع عشر

للمسيح غلب على المغول اسم التتار . فتأسست سلطنة فى « قازان » وسلطنة أخرى فى « استراخان » وسلطنة أخرى فى « القريم » وكلها كانت دولا تترية إسلامية . ثم تأسست دولة تترية إسلامية فى « سيبريا » بقرب « طو بولسك » الحاضرة وغلب اسم التتار على جميع الأتراك غير العثمانيين . وهـذا هو اصطلاح الروس واصطلاح كثير من الأوربيين . وذلك بأن يسموا بالترك أتراك السلطنة العثمانية و بالتتر الأتراك الذين فى الروسية الحاضرة .ومن هؤلاء شعب يقال لهم « الأوز بك » تغلبوا فى القرن السادس عشر المسيحى على « بخارى » و « خيوه » وأزالوا مملكة « الجغطاى » ثم أسسوادولة « خانات خوقند » . وجاء شعب آخر اسمه «النوغاى» من الترك فكانت لهم دولة فى بلاد « الفولغا » . ثم غلب عليهم شعب تركى آخر اسمه « الكلموك » . ومن الشعوب التركية المعروفة شعب يقال له « القزق » كانوا مستقلين ، و إن كانوا جيراناً للأوز بك .

وقد كانت تأست فى « كاشغر » من التركستان الصينى دولة تركية على أثر سقوط دولة الجغطاى ، واتخذت الاسلام دينا فى أواسط القرن الرابع عشر ، أى مذ نحو أر بعمائة وخمسين سنة . واشتهر منها أمير يقال له « محمود خان » اعتنى جدا بنشر الاسلام . وكان المغولى أو التركى الذى لا يلبس عمامة يدق له مسمار فى رأسه!! وأخذت الديانة البوذية تتقهقر من تلك الديار ، وكان « الأو يغور » من أشهر شعوب الترك لا يزالون بوذيين ، فانتشر الاسلام فيهم أيضا . ولم يبق على البوذية إلى يومنا هذا إلا قسم منهم يقال لهم « الأو يغور الصفر » .

ومما يجب أن يعرف أن الأتراك العثمانيين هم من جنس الترك الذى يقال له « التركمان » . وهؤلاء التركمان منهم قسم يقال له « الخروف الأسود » وقسم آخر يقال له « الخروف الأبيض » . وقد انتشروا فى غر بى آسية ، ودخلت منهم أقوام فى البلاد العربية . وفى القرن الثامن عشر والتاسع عشر للمسيح تغلب « الكلموك » على هؤلاء التركمان كما تغلب الكلموك على « القرغز » و « القزق » ثم سقطت دولة « الكلموك » . ومن القرغز فرقة تسكن فى بلاد « ينى زاى » و يقال لها اليوم

« خا كاس » ليسوا كسائر أصناف الترك تابعين للمدنية الاسلامية ، كما أنه يوجد فى « جبال الألطاى » ترك غير مسلمين ، والروس يقولون لهم « كَلْموك الجبال » وليس هؤلاء مسلمين . وكذلك الأمة المسماة « بالياقوت » هم أتراك غير مسلمين ، ولغتهم لغة تركية قديمة . وقد كانت جميع البلاد إلى النصف الأول من القرن السادس عشر للمسيح من شبه جزيرة البلقان ، وشطوط البحر الأسود إلى الصين ممالك إسلامية متصلة كما ورد فى الانسيكلو بيدية الاسلامية ، ولكن كان قد بدأ دخول هذه الممالك فى دور الانحطاط ، فتقلص ظل المدنية وعادت البداوة القديمة . وكان قد بدأ الروس من ذلك العهد يتغلبون على من جاورهم من الترك ، فاستولوا على مملكة « قازان » سنة ١٥٥٢ وعلى مملكة « استراخان » سنة ١٥٥٤ فقطعوا مابين الترك المشارقة والترك المغاربة أى العثمانيين .

ومذ ذلك الوقت أخذ الروس يزحفون صوب الشرق فيستولون على مملكة تملكة من هذه الممالك التركية الاسلامية ، واتفقوا مع الصين على أنه لا يجوز أن يبقى للاسلام ملك من بحر الخزر إلى حدود الصين . فالذى لم يدخل تحت حكم الروسية يجب أن يدخل تحت حكم الصين ، وقد انعقد هذا الاتفاق بين الروسية والصين بمعاهدة تاريخها (٢٤ فبراير ١٨٨١) و برغم هذا فيقول « بارتولد » محرر هذا الفصل من الأنسيكلو بيدية الاسلامية : إن الاسلام والتركية لم يرجعا إلى الوراء فى الروسية وأنه بعد الانقلاب الروسى والحكومة البلشفية تأسست للأتراك فى الروسية جمهوريات تابعة لموسكو مثل جمهوريتى « الأوزبك » و « التركمان » وجمهورية « أذربيجان » فى القوقاز . و بالاجمال فللأتراك تحت حكومة السوفييت الحاضرة سبع جمهوريات لها شبه استقلال ؟ وهى جمهورية القريم ، وجمهورية قوقاس ، وجمهورية الباشكيرد وجمهورية التتار ، وجمهورية القزق ، وجمهورية القرغز ، وجمهورية ياقوت . و يوجد أربع نواح لها أيضا إدارة مستقلة ، وأكثر أهلها من الترك وهى ؛ بلاد قره كاى و بالكار ، وقره كالبكيك ، وأويرات . و يقول إن هذا الدور قد أحيا أسماء القبائل التركية القديمة . و يذكر أن أكثر هؤلاء الأتراك قد عولوا فى الكتابة على الحروف

اللاتينية . أما « الـكوڤاش » و «الـكا كاس » و « الاويرات » فقد بقوا متمسكين بأحرف الهجاء الروسية . اه

قلنا : إن السبب فى هذا هو الدعاية الأنقرية والدعاية البلشفية نفسها ، فان كلا من موسكو وأنقرة أخذتا بالحروف اللاتينية ، فالأتراك المسلمون فى الروسية قلدوا فى ذلك أنقرة ، وأما الأتراك غير المسلمين مثل « الـكا كاس ، والاويرات » فبقوا متمسكين بالحروف الروسية ، وذلك لأنه لا يجمعهم بأنقرة جامعة اسلامية حتى يقلدوها ، وقد بلغ من انقلاب الأوضاع أن صارت الحروف اللاتينية هى موضوع دعاية الأتراك المسلمين ! ! و يقلد بعضهم بعضاً فيها ، وأن الأتراك غير المسلمين لا يعرفونها. وجاء فى الانسيكلو بيدية أنه فى إحصاء سنة ١٨٨٥ كان عدد الترك فى الروسية ٢٦ مليونا وقيل إن هذا العدد مبالغ فيه ، وأن أتراك الروسية ليسوا غير ١٦ مليوناً ، وأن جميع الأمة التركية فى العالم ثلاثون مليونا . ولـكن كتّاب الأتراك ومؤلفيهم يجعلون للترك أكثر من هـذا العدد بكثير . فأحمد أغاييف يقول : إنهم من سبعين إلى ثمانين مليوناً ، ومصطفى كمال باشا يقول : مائة مليون ! انتهى ما فى الانسيكلو بيدية الاسلامية .

والحقيقة أن الذين قالوا إن الترك بأجمعهم ثلاثون مليونا قد نقصوا عددهم كثيرا كما أن كتّاب الترك قد يكونون زادوا العدد على ما هو فى الحقيقة ، ولا شك أن الترك الذين فى الروسية لا يقلون عن ثلاثين مايونا ، كما أن الترك الذين فى التركستان الصينى يبلغون عشرة ملايين ، فيبقى ترك الأناضول ومن يليهم من الترك الذين فى تراقية ، و بلاد البلغار ، ورومانيا ، فهؤلاء كلهم لا يقلون عن خمسة عشر مايونا . و يجب أن نضيف إلى هذا العدد أتراك إيران وهم أر بعة إلى خمسة ملايين ، فالجميع ستون مليونا ، وهذا أقرب تعديل .

وقد جاء فى «صبح الأعشى» فى الجزء الخامس خبر كيفية استيلاء الترك على بلاد الاناضول بعد أن كانت كلها للروم قال : إن ثغور المسلمين كانت من جهة الشام « ملطية » ومن جهة أذر بيجان « أرمينية » إلى أن دخل بعض قرابة « طغرلبك »

أحد ملوك السلجوقية فى عسكر إلى بلاد الروم هذه فلم يظفروا منها بشيء ، ثم دخلها بعد ذلك « ثمانى » أحد أمرائهم بعد الثلاثين وأربعمائة ففتح وغنم ، وانتهى فى بلادهم حتى صار من القسطنطينية على خمس عشرة مرحلة . ثم فتح « قطلمش » ابن اسرائيل بن سلجوق « قونية » و « أقصرا » وأعمالها . ثم وقعت الفتنة بين قطلمش وبين ألب أرسلان السلجوقى وقتل قطلمش فى حربه سنة ست وخمسين وأربعمائة ، وملك البلاد من بعده ابنه سليمان ومات سنة ثمان وسبعين وأربعمائة . وملك بعده «قلج أرسلان» ثم خَلَفَهُ بقونية وأقصرا ابنه مسعود . ثم توفى مسعود سنة إحدى وخمسين وخمسمائة ، وملك بعده ابنه قلج أرسلان . وهـذا قسم المملكة بين أولاده ؛ فأعطى قونية وأعمالها ابنه غياث الدين كيخسرو ، وأعطى أقصَرا والسيواس ابنه قطب الدين ، وأعطى «دوقاط» ابنه ركن الدين ، وأعطى انقرة ابنه محيي الدين وأعطى ملطية ابنه عز الدين قيصر ، وتخلى الى ابنه غياث الدين عن الأبلستين ؛ ولابنه نور الدين محمود عن قيسارية ، وأعطى أماسية لابن أخيه . ثم ندم على هذه القسمة وأراد انتزاع هذه الأعمال من أولاده فخرجوا عن طاعته ، إلا ابنه غياث الدين فإنه بقى معه . وحاصر قلج أرسلان ابنه محموداً فى قيسارية فتوفى وهو محاصر لها سنة ٥٨٨. ووقعت الحروب بين الإخوة ، وتغلب عليهم أخيراً ركن الدين صاحب « دوقاط » وخلفه ابنه قلج أرسلان ، ثم قبض عليه أهل قونية وملّكوا عمه غياث الدين كيخسرو ، وبقى حتى قتل فى حرب مع صاحب القسطنطينية ، وملك بعده ابنه كيكاوس الغالب بالله ، وبقى حتى مات سنة ٦١٦ . وخلفه أخوه علاء الدين فتوفى سنة ٦٣٤ . وملك بعده ابنه غياث الدين كيخسرو وتوفي سنة ٦٥٤ . وملك بعده ابنه علاء الدين .

ولما جاء المغول واستولوا على بغداد كان الملك لعز الدين كيكاوس ، وركن الدين قلج أرسلان ، فخضعا لهولاكو سلطان المغول . وبعد هلاك هولاكو غلب ركن الدين على جميع ملك الترك فى الأناضول ، وكان هولاكو أقام رجلا اسمه «ألبرواناه» وكيلا من قبله فى بلاد الأناضول ، فغلب على ركن الدين قلج أرسلان ثم قتله ، وحجر على

ابنه غياث الدين كيخسرو . وفى تلك الأيام دخل الملك الظاهر بيبرس صاحب الديار المصرية إلى بلاد الروم سنة ٦٧٥ ولقيه «صمغان بن بيدو» الشحنة من« جهة التتار » فهزمهم ، وثار بيبرس إلى قيسارية فملكها وجلس على تخت آل سلجوق بها ، ثم رجع إلى مصر . و بلغ ذلك «ابغا» بن هولاكو صاحب ايران ، فسار فى جموعه إلى قيسارية ورأى مصارع قومه فشق عليه ، واتهم « البروانا ه » بممالأة الظاهر بيبرس فقبض عليه وقتله ، واستقل بالملك غياث الملك بن ركن الدين قلج أرسلان ، و بقى فى الملك حتى قتله أرغون بن أبغا صاحب ايران سنة ٦٨١ وجعل مكانه مسعود ابن عمه كيكاوس وجعل شحنة فى الأناضول رجلا اسمه «هولاكو » وليس لمسعود بن كيخسرو من الملك إلاّ الاسم . و بعد ذلك استقل الشحنة بالمملكة ، وصار ملوك التتر يرسلون إلى الأناضول شحنة بعد شحنة ـ أصل معنى الشحنة حامية البلد من قبل السلطان ـ ور بما عصى عليهم بعض هؤلاء فلجأوا إلى صاحب مصر ، وكثيرا ماتقلدوا الامارة بعهد من صاحب الديار المصرية مثل « الناصر محمد بن قلاوون » وصارت الأناضول من مضافات الديار المصرية ، وكان فى بلاد الأناضول ـ وصبح الأعشى يقول بلاد الروم ـ : طوائف كثيرة من التركمان كان « السلاجقة » يستعينون بهم فى الحروب ، فظهر منهم أمراء وأسسوا ممالك مثل « أولاد قرمان » أصحاب « أرمناك » و « قسطمونية » و « بنو الحميد » أصحاب «أنطالية» . و « بنو آيدين» أصحاب البلاد التى يقال لها «أزمير» اليوم . و « بنو منتشة » و بلادهم إلى الجنوب من أزمير . و « بنو أورخان بن عثمان جق» وهو صاحب « بورسة » . وكان قد اتخذ بورسة داراً لملكه ، لكنه لم يفارق الخيام إلى القصور . وكان ينزل بخيامه فى ضواحى بورسة ولم يزل على ذلك إلى أن مات.

قال القلقشندى فى صبح الأعشى : وملك بعده ابنه « مراد بك » وتوغل فى بلاد النصرانية فيما وراء الخليج القسطنطينى فى الجانب الغربى ، وفتح بلادهم إلى أن قرب من خليج البنادقة ، وصير أكثرهم أمراء ورعايا له ، وأحاط بالقسطنطينية من كل جانب حتى أعطاه صاحبها الجزية . ولم يزل حتى قُتل فى حرب الصقالبة سنة ٧٩١ وملك بعده ابنه أبو يزيد فجرى على سنن أبيه ، وغلب على البلاد فيما بين سيواس

وانطالية والعلايا ، ودخل بنو قرمان وسائر التركمان فى طاعته ، ولم يبق خارجاً عن ملكه إلا « سيواس » التى كانت بيد قاضيها ابراهيم المتغلب عليها ، و « ملطية » الداخلة فى مملكة الديار المصرية ، ولم يزل أبو يزيد حتى قصده « تمرلنك » بعد تخريب الشام فى سنة ثلاث وثمانمائة ، وقبض عليه فبقى فى يده حتى مات . وملك بعده ابنه « سليمان شلبى » و بقى حتى مات . وملك بعده أخوه « محمد بن أبى يزيد ابن مراد بن عثمان جق » وهو القائم بمملكتها إلى الآن . انتهى بتصرف .

قلنا : أيام زحف جنكيزخان على بلاد خوارزم جاء رجل يقال له « سليمان شاه ابن كيّالب » من بعض قبائل « الأوغوز » ومعه خمسين ألفاً من قبيلته ونزل على شواطىء الفرات بين أرزنجان وخلاط ، وذلك فى سنة ١٢٢٤ مسيحية ، وتوفى سليمان شاه هذا غريقاً فى الفرات ، وبعد وفاته رجع أكثر قومه إلى خراسان و بقى منهم أربعمائة عائلة مع ولديه « دندار » و « أرطغرل » . وتقدم أرطغرل إلى الغرب وكانت حصلت فى ذلك الوقت حرب مع « علاء الدين السلجوقى » فخدمه أرطغرل ونصره ، فأقطعه السلجوقى إقطاعات معلومة مكافأة له ، ثم تقدم عنده فأقطعه بلاداً على مقربة من « ينى شهر » . وولد لأرطغرل ولد سماه عثمان ، وكان عثمان يخطب ابنة شيخ من الأولياء اسمه (آده بالى) ووالدها يأبى أن يزوجه بها ، فرأى يوماً فيما يرى النائم أنه تزوج بملك خاتون ابنة الآده بالى وخرج من حجرها هلال وصعد إلى صدرها ، ثم ظهرت من جوانبها شجرة عمت البر والبحر ، إلى آخر ما تحدثوا عن هذا الحلم ، فلما أصبح الصباح قص رؤياه على الشيخ الآده بالى فأزوجه ابنته ، وولدت له ابنه أورخان . وكان عثمان كبير أولاد أرطغرل ، وكان المقدم عند سلطان قونية فحسده الأمراء على حظوته عند السلطان ، ثم ملك عثمان بلدة « قره حصار » وزاد السلطان فى إقطاعه ومنحه حق ضرب السكة ، وصار اسمه يقرن باسم السلطان فى صلاة الجمعة ، وكان (المغول) قد غزا بلاد الاناضول سنة ١٣٠٠ للمسيح ، فانهزم علاء الدين الثالث الذى كان يقال له سلطان الروم ، والتجأ إلى « ميشيل باليوغ » ملك القسطنطينية ، فمات فى حبسه . وصار كرسى ملك الإسلام فى الروم فارغاً .

فتولى عدة أمراء منهم « بنو قرمان » ومنهم « بنو قرهسى »ومنهم « بنو صاروخان» ومنهم « بنو آيدين » ومنهم « بنو حميد » ومنهم « بنو منتشه » ومنهم « بنوعثمان» الذين كان بيدهم يني شهر وما والاها .

وكان عثمان شديد البأس صارماً ، وكان لا يزال للقسطنطينية قلاع و بلاد فى الأناضول ، فأرسل عثمان الى قواد هذه القلاع يخيّرهم بين الاسلام أو الخضوع له وكان له صاحب من الروم اسمه « ميشيل كيوز » فأسلم ، وأقطعه عثمان بلاداً ، وهذا هو جد عائلة « ميكال أوغلو » التى لها ذكر شهير فى الدولة العثمانية . وخضع له بعض أمراء الروم وأدّوا الجزية ، ثم استولى ابنه أورخان على بورسة أخذها من أيدى الروم وكانت أحصن بلدة فى آسية الصغرى ، وذلك الفتح كان سنة ١٣٢٦ مسيحية . ومات عثمان وحزن عليه قومه لأنه كان بطلا مغوارا ، وهو الذى أسس هذا الملك فقيل الدولة العثمانية من ذلك الوقت ، وكان زاهداً يقتدى بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن يدّخر مالا بل يوزع كل ما يدخل فى يده على أصحابه وكان يعيش فى بيته من قطيع غنم لا يزال من ذريته حتى اليوم فى نواحي بورسه .

بو يع للسلطان عثمان مؤسس السلطنة العثمانية في سنة ٦٩٩ تسع وتسعين وستمائة .

وقد كان الادبالى الذى تزوج السلطان عثمان ابنته من علماء القرامان ، وتفقه فى البلاد الشامية ، وكان عاملا عالماً عابداً زاهداً ، وكانوا يرجعون اليه بالمسائل الشرعية

ومن العلماء المعروفين فى أيام عثمان : المولى طوسون ختن الأدبالى ، وقد قرأ عليه وقام مقامه فى أمر الفتوى . ومنهم المولى خطاب بن أبي القاسم القره حصارى ، قرأ أيضاً فى البلاد الشامية ، وله شرح نافع على منظومة الشيخ عمر النسفى فى الخلافيات . ومنهم مخلص بابا من بلاد قرامان ، وكان يرافق السلطان عثمان فى فتوحاته . ومنهم ابنه عاشق باشا ، وكان عابداً زاهداً متصوفاً . ومنهم ابن عاشق باشا المذكور ، وكان أيضاً على قدم الصلاح نظير آبائه . ومنهم العارف بالله الشيخ حسن ، وكانت له زاوية ببلدة بروسه .

وكان أكبر أولاد عثمان علاء الدين ، إلا أنه كان مشغوفاً بالعلم ، محباً للعزلة فعهد عثمان بالملك لولده أورخان ، فعرض أورخان على أخيه الأكبر قسمة المُلك فأبى علاء الدين ، وأراد الاعتزال جانباً واختار أن يقيم على ضفة نهر « نيلوفر » الجارى فى مرج بورسة ، فعرض عليه أورخان نصف قطعان الغنم التى خلفها لهم أبوهم فرفض أيضا ، فقال له أورخان : من حيث أنك رفضت أن تأخذ حصتك من الغنم والبقر والخيل ؛ فانى أعرض عليك أن ترعى رعيتى وتكون وزيراً لى ، فلم يسعه إلا القبول وصار وزيراً لأخيه ، وأحسن الادارة . وكان عثمان لم يضرب السكة باسمه فالذى ضربها هو ولده علاء الدين فى أيام أخيه أورخان ، ثم جعل علاء الدين للمملكة جيشا دائما . ولكن هذا الجيش لم يطل أمره ، فاتفق أورخان وأخوه علاء الدين على حله ، واعتمدا على طريقة أخرى أشار بها خليل جندرلى ، وهى تأسيس وجاق الانكشارية ، وكانوا يأتون بأحداث من أبناء النصارى وغيرهم فيربونهم فى الاسلام ، فأكثر الانكشارية هم من هؤلاء . ولما أسسوا هذا الجيش باركه « الحاج بكتاش » وهو الذى أعطاه اسم « ينى شارى » وفى البداية لم يكن هذا الوجاق أكثر من ألف جندى ، ولكنه صار يزداد سنة فسنة . وقضية أخذ أولاد النصارى وتربيتهم فى الاسلام وجعلهم جنودا كان العثمانيون قد أخذوها عن الروم أصحاب القسطنطينية الذين كانوا إذا غزوا بلاد الاسلام سبوا كثيرا من الأولاد وربوهم فى النصرانية ، وجعلوهم جندا يقاتلون به المسلمين . ولما استولى « نيقوفورفوقاس » على حلب سبى عشرة آلاف ولد من أهلها ورباهم فى دار ملكه وعمّدهم وصيرهم من أعز جنوده . وكذلك عندما استولى « البطريق ميشيل بورتسنريس » على انطاكية سنة ٩٦٩ سبى من أولاد المسلمين عشرة آلاف أيضا وربّوهم فى القسطنطينية فخرجوا نصارى وصاروا جندا . فالعثمانيون لم يعملوا إلى ما عمله البيزنطيون من قبل ورتّب أورخان وأخوه عدة أصناف من الجيوش ؛ منهم الجيش الذى يقال له « العزَب » ومنهم الخيالة وهم أنواع « السباهية » و « السلحدارية » و « العلوفه جية » و « الغرُباء » و « المسلمان » و « الايكنجى » وبقيت قيادة الايكنجى — وهم

الـكشافة ـ فى ذرية عائلة ميكال أوغلى مدة أعصر .

وجعل أورخان وأخوه مدينة بورسة قاعدة المملـكة ، وأخذا يفتتحان كل يوم بلدا جديداً وحاصرا « نيقية » التى كانت العاصمة الثانية لمملكة الروم ، و بعد حصار سنتين أخذاها عنوة وهى البلدة التى انعقد فيها المجمع النيقى الذي به تقررت العقيدة الـكاثوليكية ، فحوّل الأتراك كنيسة المجمع المقدس جامعا . وأسس أورخان وأخوه فى نيقية مدرسة عالية وملجأ للفقراء ، وشيّدا فيها عمارات كثيرة ، وعهدا بقيادة موقع نيقية إلى « سليمان باشا » كبير أولاد أورخان الذى صار فيما بعدخالفا لعمه علاء الدين فى الوزارة .

ثم مضى العثمانيون فى فتوحاتهم فاتسعت المملـكة . وكان أولاد أمير « قرَسِى » قد اختلفوا بعد موت والدهم ، فوضع أورخان يده على هذه الامارة . وعمرت بورسة فى ذلك الوقت واجتمع فيها العلماء ، والأدباء ، والشعراء ، وصارت عاصمة حقيقية ، ولا تزال عماراتها ومآثرها إلى اليوم تدهش الأبصار . وفيها مدافن ستة من السلاطين آل عثمان . وكان « دوشان » ملك الصرب جمع الصقالبة وافتتح بلاد البلغار وأراد أن يزحف على القسطنطينية فأرسل ملك القسطنطينية « يوحنا باليولوغ » وعرض على أورخان أن يزوجه ابنته حتى يستعين به على قتال الصقالبة . ولـكن دوشان مات قبل أن يتمكن من الزحف على بيزنطية ، وفى سنة ١٣٥٧ أجاز سليمان باشا ابن السلطان إلى البر الأور بى بستين مقاتلا فقط ، ثم أجاز بعده ثلاثة آلاف مقاتل واستولوا على « مدينة غاليبولى » على الدردنيل ، ثم على « كونور » و « بولايير » و « مالاجره » و « ابسالة » و « رودُستو » و بينما سليمان باشا يتقدم فى الفتوحات تردّى به جواده فمات ، ولم يلبث أبوه إلى أن لحق به .

بو يع للسلطان أورخان بالسلطنة فى سنة ست وعشرين وسبعمائة ، وقد نبغ فى زمانه المولى داود القيصرى القرامانى ، قرأ فى مصر ، وكان له قدم راسخة فى التصوف ، وشرح فصوص ابن العربي . ولما بنى السلطان أورخان مدرسته فى بلدة ازنيق انتدبه للتدريس بها . ومنهم المولى تاج الدين الـكردرى ، وكان فقيهاً علامة ، ولما مات داود القيصرى

جعله السلطان أورخان مكانه في التدريس . ومنهم المولى علاء الدين الأسود ، وقرأ في بلاد العجم وله مؤلفات ، ودرس في مدرسة ازنيق . ومنهم المولى خليل الجندري وهو أول قاض من قضاة العساكر ، وصار فيما بعد وزيراً ، وكان من أقارب الشيخ أدبالي . ومنهم المولى محسن القيصري ، وقرأ في البلاد الشامية ، وله نظم في علم الفرائض وشرح عليه . ومنهم الشيخ الغزال ومولده ببلدة (خوى) من بلاد العجم ، وكان يركب الغزال ، وحضر فتح بروسه مع السلطان أورخان وكان متجرداً عن العلائق الدنيوية ، وكان السلطان أورخان يحبه حباً جماً ؛ فأقطعه موضعاً قريباً من مقامه مع ماحوله من القرى فلم يقبل ذلك الشيخ وقال : الملك والمال هما مما يلزم الملوك والأمراء ومما لا يحتاج اليه الفقراء . ومنهم الشيخ العالم بالله قره جه احمد ، وأصله من بلاد العجم سلك مسلك الزهد . ومنهم الشيخ العارف بالله أخي أوران . ومنهم الشيخ المجذوب موسى ابدال ، حضر مع السلطان أورخان فتح بروسه . ومنهم ابدال مراد وهو أيضاً حضر فتح بروسه مع السلطان . ومنهم بداوغلو بابا وهو أيضاً من المجاهدين الذين حضروا ذلك الفتح .

ثم جلس على كرسى السلطنة مراد بن أورخان أخو سليمان باشا ، وكان سلطانا عظيما في حب الفتوحات ، وحسن التدبير ، وهو الذى استولى على « أدرنة » في البر الأوربي ونقل اليها كرسى ملكه ، وهى من أهم المدن واقعة في ملتقى ثلاثة أنهار ومن أدرنه زحفت جيوشه فاستولت على « كملجنه » في « تراقية » وعلى « ڤاردار » و « فيليپولى » و بنى مراد جامعاً كبيراً في « أدرنة » .

ولما رأى أهالى بلاد البلقان تقدم العثمانيين وتوالى فتوحهم ؛ هالهم الأمر وعمدوا إلى مصادمتهم ، وكان البابا « أوربانوس الخامس » نادى بالحرب الصليبية فزحف « أوروشق الخامس » ملك الصرب ومعه أمراء بوسنة ، والفلاخ ، والمجر قاصدين الأتراك في أدرنه . وكان السلطان مراد يحاصر بلدة « بيغا » في الاناضول فالتقاهم الحاج « إلْبِيكى » من قواد مراد وهزمهم هزيمة شنيعة سنة ١٣٦٣ ، واستولى الترك على أثر هذه الوقعة على « قيزِلْ أغاج » و « يَانبُول » و « إسْتِيمان »

و « سَماكوف » . ثم رجع مراد فاستولى على « قِرْق كِلِيسَه » و«آيدوس » ومُدُن أخرى . وفى تلك المدة أزْوَج مراد ابنه بايزيد المسمى « يِلْدِرِم » الذى تقدم أنّ تيمورلنك أخذه أسيرا ، وذلك من ابنة أمير « كوتاهية » واستولى عليها . وأجْبَرَ أمير حميد فى الأناضول أن يبيعه إمارته ، وسرّح « تيمور طاش » أحد قوّاده فافتتح « مناستير » و « بيرابِيَه » و « إشتيب » فى بلاد الصرب ، وافتتح أيضاً « صوفيا » من بلاد البلغار . ثم سرّح جيشا آخر بقيادة الصدر الأعظم « خير الدين » فافتتح «سلانيك» . وكان خير الدين هذا من أحسن الوزراء تدبيراً ، فلما مات طمع أعداء العثمانيين ، وزحف البلغار من جهة أوروبة ، وأمراء قرامان فى الأناضول فى وقت واحد ؛ فأسرع مراد إلى صدّ أمير قرامان وهزمه وأسره ، وعاد إلى البلقان لقتال الصرب والبلغار ، وزحف الوزير « على باشا » فاستولى على بلاد البلغار ، وأسر « سيسمان » ملك بلغاريا ولم يقتله ، وعيّن له مرتبا يعيش به . وصار ابن ملك البلغار من أتباع السلطان . وأما ملك الصرب « أليعازر » فكان قد جمع جموعه وزحف بالصرب والارناؤوط ، فالتقى الجمعان فى صحراء « قوصوَه » فكانت معركة من أشد ما عرف التاريخ ، وانهزم الصرب وأحلافهم ، و بينما السلطان مراد يسير على أشلاء قتلى الصرب نهض أحد الجرحى فأغمد فيه خنجره ، فجرح السلطان جرحاً بليغا مات به ، ولكن بعد أن أمات أليعازر ملك الصرب .

وكان لقبه عند الناس «غازى خداوندكار» بويع له سنة إحدى وستين وسبعمائة ونبغ فى زمانه المولى محمود قاضى بروسه ، وكان قاضياً بالعدل تقياً متورعاً ، وكان له ولد اسمه محمد فبرع فى العلوم إلا أنه مات شابا . وكان له ولد آخر اسمه موسى باشا ارتحل إلى بلاد العجم وقرأ على علماء خراسان وما وراء النهر ، و بلغ شهرة عظيمة واتصل بخدمة ملك سمرقند «أولغ بك» ، وكان هذا الملك محباً للعلوم الرياضية ، فقرأها عليه لأنه كان من علماء هذه العلوم ، ومن المؤلفين فيها ، وشرح أشكال التأسيس فى الهندسة . وله كتاب فى علم الهيئة ، وقرأ على السيد الشريف ولكن لم تحصل الملاءمة بينهما فتركه ، وقال السيد الشريف فى حقه : غلبت عليه الرياضيات . ومنهم

الشيخ جمال الدين محمد بن محمد الاقصرائى ، كان علامة فى العلوم العقلية والنقلية ، وله كتب منها كتاب فى الطب ، ويقال إنه من نسل الفخر الرازى . ومنهم المولى برهان الدين أحمد قاضى أرزنجان ، وكان عالما فاضلا ورعا وصار أميرا على أرزنجان وقتل فى أواخر سنة ثمانمائة فى إحدى الوقائع . ومنهم الحاج بكتاش ، وكان من الأولياء وجاء فى « الشقائق النعمانية فى علماء الدولة العثمانية » أنه انتسب إليه فيما بعد بعض الملاحدة نسبة كاذبة وهو برىء منهم . ومنهم الشيخ محمد الكشترى ، أصله من العجم توطن بروسه . ومنهم بيوستين بوش ، أصله من العجم بنى له السلطان مراد زاوية فى قصبة ينى شهر .

ثم تولى السلطنة بعد مراد ابنه « بايزيد يلدرم » أى الصاعقة . وفى أيام بايزيد صارت مملكة الصرب تابعة للملكة العثمانية ، ولكن بقى « إتيان بن أليمازر » أميرا عليها يؤدى الجزية لبايزيد . وكانت بقيت لمماكة القسطنطينية فى الأناضول بلدة فيلادلفيا والأتراك يقولون لها « آلاشهر » فأراد السلطان بايزيد أن يلحقها بمملكته وحاصرها ، فأرسل السلطان إلى ملك القسطنطينية باليولوج بأن يأمر القائد بتخلية البلدة فزحف باليولوج إلى البلدة وأجبر أهلها على تسليمها للسلطان . وفى ذلك الوقت استولى السلطان على إمارة « آيدين » وعلى قسم من إمارة « قرامان » ثم حاصر بايزيد القسطنطينية وزحف صوب بلاد « الفلاخ » من رومانيا الحاضرة ودوخها حتى ارتضى أهلها بدفع الجزية . ثم استولى بايزيد على مملكة « قرامان » كلها وعلى « طوقات » و « سيواس » فلم يبق فى آسية الصغرى مملكة تركية مستقلة إلا إمارة « قسطمونى » والتجأ اليها الأمراء الذين كان بايزيد أخذ بلادهم ، فطلب بايزيد من أمير قسطمونى تسليم أولاد أمراء « منتشة » و « آيدين » فرفض طلبه ، فزحف إليه واستولى على « صمصون » و « عثمان جيك » وغيرهما ، وفر أمير قسطمونى لاحقا بتمرلنك . وفى أيام بايزيد استلحقت السلطنة العثمانية مملكة البلغار تماماً ، وأسلم ابن الملك « سيسمان » فاعترض « سيجسموند » ملك المجر على استلحاق بايزيد لبلاد البلغار كلها ، وتأهب للحرب وأرسل يستصرخ الفرنسيس والبابا ، فأعلن البابا الحرب الصليبية على العثمانيين

وأرسل « دوق برغونية » ستة آلاف مقاتل لمعاونة المجر ، وانضم إلى ذلك الجيش أكابر أمراء فرنسة مثل « الدوق دوبوربون » و « الدوق دويار » أولاد عم ملك فرنسة ، والماريشال «بوسيكو» وانضم إليهم كثير من الألمان من «باڤاريا» و«استيريا» ولما تلاقى هذا الجيش مع المجر وزحفوا لقتال الأتراك كان عدد هذا الجيش الصليبي ستين ألفا . ولكن جيش آل عثمان كان مائتي ألف ؛ فعند ما التقى الجمعان هجم الفرنسيس على مقدمة العثمانيين فأحاط هؤلاء بهم فانهزموا ، فلما رأى الهزيمة جيش الميمنة من الصليبيين تحت قيادة « لازكوڤيتش » أمير ترانسلڤانيا تقهقر إلى الوراء وكذلك تقهقر « مانيس » قائد الميسرة المؤلفة من الفلاخيين ، وثبت القلب وكان فيه المجر والألمان ، واشتد القتال وكادت تتزلزل أقدام العثمانيين ، إلا أنهم تغلبوا فى الآخر على أعدائهم بعد معركة تشيب لها الأطفال هي من أشهر معارك التاريخ .

ويقال إن العثمانيين لم يقهروا الجيش الصليبي ذلك اليوم الا بعد خسائر تفوق التصور ، ، حتى أن بعض مؤرخي الافرنج ذكروا أن المسلمين خسروا فى تلك المعركة ستين ألف قتيل مما هاج غضب السلطان حتى أمر بقتل عشرة آلاف أسير من الافرنج واستحيي السلطان منهم « الكونت دى نيڤير Nevers » الذى يقال له « جان بلاخوف » وأربعة وعشرين أميراً من أعظم نبلاء فرنسة ، فهؤلاء لم يقتلهم السلطان بل اكتفى بأخذ الفدية منهم ، ولما سرّح الكونت « دى نيڤير De Nevers » قال له : « أنت فى حلٍّ من العهد الذي تعهدت به أن لا تقاتل عساكرى ، وذلك أنك لَوْ أتيتنى بكل جيوش النصرانية لما كان ذلك إلا سبباً فى انتصارى عليهم » وأدّى « باليولوج » ملك القسطنطينية الجزية السنوية لبايزيد ، وبنى جامعاً ومحكمة فى القسطنطينية ، وكان للمسلمين فيها قاض شرعى قبل أن فتحوها ! !

وقال بايزيد : إنه لا بد أن يطعم حصانه الشعير فى رومة ، وصارت ايطالية كلها ترتجف منه ، وبينا بايزيد في أوج عظمته إذ التجأ اليه « احمد جلاير » أمير بغداد الذى كان تمرلنك تغلب على بلاده ، فبعث تمرلنك الى بايزيد يطلب تسليم أحمد جلاير ، فقابل بايزيد تلك الرسالة بالازدراء ، فزحف تمرلنك الى الاناضول

واستولى على سيواس ، وقتل ارطغرل بن بايزيد فى المصاف ، فسار بايزيد الى قتال تمرلنك بجيوشه ، وتلاقى الجمان فى سهل أنقرة فكان بايزيد فى ذلك اليوم صاعقة كما هو اسمه ، ولكن طالع الحرب لم يكن معه فانهزم وتردّى به جواده فوقع أسيراً فى ٢٠ يوليو سنة ١٤٠٢ وأسر معه ابنه موسى ، ونجا أولاده الثلاثة سليمان ، ومحمد وعيسى ، واختفى ابنه مصطفى ولم يطل أسْر بايزيد إذ مات غمًّا فى السنة التالية . فأخذ الأمير موسى جثة والده بإذن تمرلنك ودفنها فى بروسة . ويقال إنه في زمن بايزيد ابتدأ فساد الاخلاق فى الدولة ، وانتشرت الرشوة ، الى أن السلطان أمر في يوم واحد بقتل ثمانين قاضياً .

بويع لبايزيد فى رابع رمضان سنة إحدى وتسعين وسبعمائة . ومن علماء زمانه شمس الدين محمد بن حمزة الفنارى ، قال ابن حجر : كان الفنارى عارفاً بالعلوم العربية ، وعلمى المعانى والبيان ، وعلم القراآت ، كثير المشاركة فى الفنون ، أخذ عن علماء بلاده ثم ارتحل إلى مصر ، ثم رجع إلى الروم وتولى قضاء بروسة ، وكان مقدماً عند السلطان ، ويقال إنه أثرى إلى الغاية ، حتى كان عنده من النقد خاصة مائة وخمسون ألف دينار ، وحج مرتين ، وزار القدس ، ثم أصابه رمد أشرف به على العمى ، ثم رد الله إليه بصره فحج بعد ذلك الحجة الأخيره ، وله كتاب يسمى « فصول البدائع فى أصول الشرائع » . وشرح « الرسالة الأثيرية فى الميزان » شرحاً لطيفاً ، وشرح « الفوائد السراجية » وعلق على « شرح المواقف للسيد الشريف » تعليقات تتضمن مؤاخذات لطيفة على السيد ، وبلغ من الجاه والثروة الدرجةالقصوى وتزاحم الناس على بابه ، وخلف عشرة آلاف من الكتب . وقيل إنه شهد السلطان أمامه شهادة فى قضية فرد شهادته ، فسأله عن السبب فى ردها فقال له : إنك تارك للجماعة ، فلم يترك السلطان الجماعة بعد ذلك . ثم اختلف المولى الفنارى مع السلطان والتحق بصاحب قرامان ، ولكن السلطان ابن عثمان عاد فاسترضاه ورجع إلى بروسه ومنهم المولى حافظ الدين بن محمد الكردرى المشهور « بابن البزازى » وله « الفتاوى البزازية » وكتاب فى مناقب الامام الأعظم أبى حنيفة رضى الله عنه ، وقيل إنه

تباحث مع المولى الفنارى فغلب عليه في الفروع ، وغلب الفنارى فى الأصول وسائر العلوم . ومنهم مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب بن محمد الشيرازى الفيروز آبادى صاحب القاموس ، وكان ينتسب إلى الشيخ أبى اسحق الشيرازى . قال صاحب « الشقائق النعمانية » . وربما يرفع نسبه إلى أبى بكر الصديق رضى الله عنه . دخل بلاد الروم واتصل بخدمة السلطان بايزيد يلدرم ، وأنعم عليه ، وحظى عند السلطان وجوّل فى البلدان ، وبرع فى العلوم كلها لاسيما الحديث والتفسير واللغة ، وله تصانيف كثيرة تنيف على الأربعين ، وأجل مصنفاته « اللامع المعلم العجاب ، الجامع بين المحكم والعباب » . وكان تمامه فى ستين مجلدا ، ثم لخصه فى مجلدين وسماه « بالقاموس المحيط ، والقابوس الوسيط ، فيما تفرق من كلام العرب شماطيط » . وكان آية فى الحفظ والاطلاع . ولد سنة تسع وعشرين وسبعمائة ، وتوفى باليمن قاضياً بزبيد ليلة العشرين من شوال سنة ست أو سبع عشرة وثمانمائة ، وهو ممتع بحواسه ، ودفن بتربة الشيخ اسماعيل الجبرتى ، قال صاحب « الشقائق النعمانية » : وهو آخر من مات من الرؤساء الذين انفرد كل منهم بفن فاق فيه أقرانه على رأس القرن الثامن ، وهم : الشيخ سراج الدين البلقينى فى الفقه الشافعى ، والشيخ زين الدين العراقى فى الحديث ، والشيخ سراج الدين بن الملقن فى كثرة التصانيف فى الفقه والحديث ، والشيخ شمس الدين الفنارى فى سعة الاطلاع على العلوم العقلية والنقلية ، والشيخ أبو عبد الله بن عرفة فى فقه المالكية ، والشيخ مجد الدين الشيرازى فى اللغة .

وممن نبغ فى زمان السلطان بايزيد يلدرم الشيخ شهاب الدين السيواسى ، وأصله عبد لبعض أهالى سيواس ، تعلم فى صغره ونبغ ومال إلى التصوف وتوطن فى بلاد آدين وأكرمه أميرها ، وله تفسير للقرآن العظيم ، وله رسالة فى التصوف سماها « رسالة النجاة فى شرف الصفات » . ومنهم المولى حسن باشا بن المولى علاء الدين الأسود له شرح « المراح فى الصرف » وشرح « المصباح فى النحو » . ومنهم المولى صفر شاه وكان من علماء ذلك العصر . ومنهم محمد شاه بن المولى شمس الدين الفنارى ، وكان مطلعاً على ما اطلع عليه والده من العلوم ، وفوض إليه فى حياة أبيه تدريس المدرسة

السلطانية فى بروسة وهو فى سن الثمانية عشرة ، وكانت وفاته سنة ٨٣٩ . وكان له أخ هو المولى يوسف بن المولى الفنارى ، وتولى التدريس بمدرسة بروسة واستقضى فيها . ومنهم الشيخ قطب الدين الازنيقى ، وكان زاهدا متورعا متصوفا ، علامة فى العلوم الشرعية ، قيل إنه لما اجتاز تمرلنك بالبلاد الرومية اجتمع مع هذا الشيخ فقال له : عليك أن تترك صنيعك هذا من قتل عباد الله وسفك الدماء المحرمة ، فقال له تمرلنك : ياشيخ إنى أنزل في منزل وباب خيمتى إلى الشرق فأجد بابها فى الغد إلى الغرب ، وإذا ركبت يركب أمامى خمسون رجلا لا يراهم غيرى فاقفو أثرهم . فقال له الشيخ : كنت سمعت أنك رجل عاقل ، فالآن علمت أنك جاهل . فقال : من أين علمت هذا ؟ قال : لأنك تفتخر بوصف الشيطان ، وهو كونه مظهراً لقهر الله سبحانه وتعالى . ومات هذا الشيخ سنة ٨٢١ . ومنهم المولى بهاء الدين عمر بن قطب الدين الحنفى كان من الفقهاء أرباب الفتوى ، ومثله المولى ابراهيم بن محمد الحنفى ومثله أيضا نجم الدين الحنفى . ومنهم الشيخ محمد بن محمد بن محمد بن على الجزرى المكنى بأبى الخير ، ولد بدمشق ، ورحل إلى الديار المصرية وقرأ بها وجلس للاقراء وولى قضاء الشام سنة ٧٩٣ وجاء إلى بروسة فى زمان السلطان بايزيد بن عثمان . ولما تغلب تمرلنك على السلطان المذكور أخذ تمرلنك هذا الشيخ معه إلى بلاد تركستان وقرأ عليه الناس في سمرقند . ثم بعد وفاة تمرلنك خرج من تلك البلاد إلى خراسان ودخل هراة ، ثم جاء إلى أصفهان ، ثم إلى شيراز . وكان الناس يقرأون عليه فى كل محل ، ثم جاء إلى البصرة ، ثم جاور بمكة والمدينة ، وكان متخصصا فى علم القراآت ، وله التصانيف فيه ، وتوفى سنة ٨٣٣ فى شيراز ، وله ولدان فاضلان أكبرهما محمد أبو الفتح ، وكان من العلماء الكبار ذوى التآليف . والثانى محمد أبو الخير وكان أيضا من العلماء ، وولد ثالث اسمه أحمد وكان أيضا كأخويه . ولما وقعت الفتنة التيمورية أرسله تمرلنك رسولا إلى الناصر فرج بن برقوق صاحب الديار المصرية ، وافترق عن والده نحواً من عشرين سنة ثم اجتمعا بمصر .

وأدرك أبو الخير ابن الشيخ الجزرى زمان السلطان محمد بن مراد ، ونصبه السلطان

موقعاً بالديوان العالى ، وأكرمه الى الغاية . ومنهم المولى عبد الواحد بن محمد بن محمد كان بارعاً فى العلوم العقلية والنقلية ، وله كتاب فى الاسطرلاب ، ودرس فى مدرسة كوتاهية ، وأصله من بلاد العجم . ومنهم المولى عز الدين عبد اللطيف بن الملك وكان عند الامير محمد بن آيدين . شرح « مشارق الانوار » للامام الصاغانى ، وله تصانيف أخرى . ومنهم أخوه محمد بن عبد اللطيف بن الملك . ومنهم الشيخ العارف بالله عبدالرحمن بن على بن أحمد البسطامى من أهل انطاكية ، وكان متخصصا بعلم الحروف والأوفاق والجفر ، وله معرفة بالتاريخ ، وسكن فى بروسه . ومنهم المولى علاء الدين الرومى ، أخذ عن العلامة التفتازانى ، والسيد الجرجاني ، وحضر مباحثهما وحفظ منهما أسئلة كثيرة مع أجوبتها . ومنهم الشيخ العارف بالله فخر الدين الرومى وكان من العلماء الزهاد . ومنهم الشيخ رمضان ، اتخذه السلطان بايزيد شيخاً لنفسه ثم جعله قاضياً للعسكر . ومنهم المولى احمدى ، أصله من كرمان ، وصار المولى أحمدى معلماً للامير ابن كرميان . وكان المولى احمدى شاعراً ، وابن كرميان كان محباً للشعر ثم صحب الأمير سليمان بن السلطان بايزيد ، ولاجله نظم المولى احمدى الديوان المسمى « اسكندر نامه » . ومنهم الشيخ بدر الدين محمد بن اسرائيل المعروف بابن قاضى سماوة . وكان قد تعلم فى الديار المصرية ، وقرأ مع السيد الجرجاني على مبارك شاه المنطقى المدرس بالقاهرة ، وعلى الشيخ أكمل الدين ، وقرأ عليه السلطان فرج بن برقوق ملك مصر ، ثم التحق ببلاد الروم . ولما تسلطن الأمير موسى الملقب بشلبى من أولاد عثمان وهو أخو السلطان محمد الأول ؛ نصب الشيخ بدر الدين قاضياً للعسكر . ثم وشوا به الى السلطان فأمر بقتله بافتاء مولانا حيدر العجمى ، وله تصانيف كثيرة . ومنهم المولى الحاج باشا ، وكان من رفاق الشيخ بدر الدين عند ما كان يقرأ بالقاهرة وتخصص بالطب ، وفوض اليه بيمارستان مصر فدبره أحسن التدبير ، وصنف كتاب «الشفاء» باسم الأمير محمد بن آيدين . ومنهم الشيخ العارف بالله حامد بن موسى القيصري وكان يبيع الخبز والناس يشترون منه تبركا به ، ولما بنى السلطان بايزيد الجامع الكبير بمدينة بروسه رغب اليه أن يكون واعظاً فيه ، ومات بمدينة آقسراى . ومنهم شمس الدين

محمد بن على الحسينى البخارى ، ولد فى بخارى وكان له قدم راسخة فى التصوف وجاء الى بروسه وأحبه أهلها واشتهر عندهم باسم أمير سلطان ، وأحبته بنت السلطان بايزيد فتزوج بها . وكان آل عثمان يتبركون به ، ومات فى بروسه . ومنهم العارف بالله الحاج بيرم الأنقروى ، ولد بقرية قريبة من أنقره ، ونبغ فى العلوم ، وصار مدرسا فى أنقره ، ومات بها . ومنهم الشيخ عبد الرحمن الأرزنجانى ، كان ساكنا فى الجبال بقرب أماسيه . ومنهم العارف بالله (طابدق امره) كان من الزهاد النساك يسكن بقرب نهر سقارية .

ولما أسر بايزيد ثارت الممالك البلقانيّة التى كان السلطان العثمانى قد أخضعها مثل بلغاريا ، والصرب ، ورومانيا . وكذلك ثار أمراء الأناضول من الأتراك مثل أمراء قرامان ، ومنتشه ، وآيدين ، وصاروخان ، واسترجعوا استقلالهم . ووقع الشقاق بين أولاد بايزيد فصاروا يقتتلون و يستأثر كل واحد منهم بشطر من المملكة ؛ ولكن تمرلنك انكفأ عن آسيا الصغرى قاصداً الصين ، و بقى القتال بين أولاد بايزيد بعضهم مع بعض ، و بينهم و بين أمراء الأناضول الذين استرجعوا استقلالهم ، وذلك مدة عشر سنوات والأمور فوضى إلى أن تغلب محمد على الجميع . وكان ملك القسطنطينية « باليولوج » حليفاً لمحمد ، فلذلك عند ما صفا الوقت له لم يحاول أن يستولى على بلدته بل ردّ له بعض المدن التى كانت من قبل تابعة للقسطنطينية ، وكان السلطان محمد هذا وهو محمد الأول عظيم الأمانة ، محباً للعفو ، وقد أجمع المؤرخون على وصف معالى أخلاقه ، وهو الذى مهّد المملكة تمهيداً جديداً ، ورتق جميع فتوقها بعد أن مزّقتها الفتن تمزيقاً ، وكان محبا للعلم والعلماء ، متمسكا بالدين الاسلامى ، منفذا لأحكامه .

وهو أول سلطان عثمانى أرسل صرّة الى أمير مكة ، وفرّق الصدقات فى الحجاز وفى زمانه نبغ كثير من الشعراء والأدباء والمؤلفين ، ومن جملتهم ابن عرب شاه صاحب تاريخ تيمور المسمى « بعجائب المقدور » وكان معلّما لأولاد السلطان محمد ، ومات السلطان محمد سنة ١٤٢١ مسيحية .

بويع له بالسلطنة سنة ست عشرة وثمانمائة ، وممن نبغ فى ذلك الزمان الشيخ

المسمى بأمير سلطان ونبغ فى زمانه برهان الدين حيدر بن محمود الحوافى الهروى من تلاميذ السعد التفتازانى ، له حواش على « شرح الكشاف للسعد » أورد فيها أجوبة على اعتراضات السيد الجرجانى ، وكان تقياً ورعا . ومنهم المولى فخر الدين العجمى قرأ على السيد الجرجانى ، ثم أتى الى بلاد الروم وصار مفتيا فى زمن السلطان مراد وتعين له ثلاثون درهما كل يوم ، فأراد السلطان أن يزيد عليها فلم يقبل وقال : حقى فى بيت المال ما يقوم بكفايتى ولا يحل الزيادة عليه . وكان شديد الوطأة على أتباع فضل الله التبريزى رئيس الطائفة الحروفية الضالةومات فى أورفه ، ولما مرض مرض الموت عاده المولى على الطوسى واستوصاه ، فأوصى بان لا يخلى ظهر العوام من عصا الشريعة . ومنهم المولى يعقوب الأصغر القرامانى ،وكان عالماً مدققاً ، وجاء الى بروسه وله رسالة فى دفع العارض بين الآيتين ؛ قوله تعالى (إنا ننصر رسلنا) وقوله تعالى (و يقتلون النبيين بغير حق) . ومنهم المولى المعروف بقره يعقوب من بلاد قرامان ومنهم المولى بايزيد الصوفى ، نصبه السلطان بايزيد معلماً لابنه محمد . ومنهم العلامة محى الدين الكافيه جي ، سمى بذلك لكثرة اشتغاله بكتاب الكافية فى النحو . قال السيوطى : شيخنا العلامة أستاذ الأستاذين محى الدين ابو عبد الله الكافيهجى ، ولد سنة ثمان وثمانين وسبعمائة . واشتغل بالعلم أول مابلغ ، ورحل إلى بلاد العجم وتبريز ولقى العلماء الأجلاء فأخذ العلوم عن شمس الدين الفنارى ، والبرهان حيدرة ، والشيخ واجد ، وابن فرشته شارح المجمع ، وحافظ الدين البزازى ، وغيرهم . ودخل القاهرة وأخذ عنه الفضلاء والأعيان ، وولى مشيخة الشيخونية لما رغب عنها ابن الهمام . وكان إماماً كبيراً فى المعقولات كلها ؛ الكلام ، وأصول الفقه ، والنحو ، والتصريف ، والاعراب ، والمعانى ، والبيان ، والجدل ، والمنطق ، والفلسفة ، والهيئة ، بحيث لا يشق أحد غباره بشىء من هذه العلوم . وله اليد الحسنة فى الفقه ، والتفسير ، والنظر فى علوم الحديث ، وألف فيه وأما تصانيفه فى العلوم العقلية فلا تحصى بحيث أنى سألته أن يسمى لى جميعها لأكتبها فى ترجمته فقال لا أقدر على ذلك .

قال السيوطى : وكان صحيح العقيدة ، حسن الاعتقاد فى الصوفية ، محباً لأهل الحديث ، كارهاً لأهل البدع ، كثير التعبد على كبر سنه ، كثير الصدقة والبذل لايبقى على شيء ، سليم الفطرة ، صافى القلب ، كثير الاحتمال لأعدائه ، صبوراً على الأذى ، واسع العلم جداً ، لازمته أربع عشرة سنة فما جئته من مرة إلا وسمعت منه من التحقيقات والعجائب مالم أسمعه قبل ذلك . قال لى يوماً : ما إعراب زيدٌ قائمٌ ؟ فقلت : قد صرنا فى مقام الصغار نسأل عن ذلك ! ! . فقال : لى فيها مائة وثلاثة عشر بحثا ؛ فقلت : لا أقوم من هذا المجلس حتى أستفيدها ، فأخرج لى تذكرتها فكتبتها منه . انتهى .

قلت : وما سبقنا الأوربيون فى المعارف العمرانية والوسائل المادية إلا بكثرة اشتغالنا بزيد قائم إلى الحد الذى يخرج عن اللزوم ، بينما كانوا يقضون أوقاتهم بالعلوم الرياضية ، والتجارب الطبيعية المفيدة ، وهكذا تفوقوا وتغلبوا علينا .

وممن نبغ فى زمان السلطان محمد الأول العثمانى ؛ الشيخ عبد اللطيف المقدسى وكان عالما ثم مال إلى التصوف ، وسكن بروسه ومات فيها . ومنهم العارف بالله عبدالرحيم بن الأمير عزيز المرزيفونى ، وكان متصوفاً أيضاً . ومنهم العارف بالله پير الياس الأماسى ، وكان من الزهاد الأتقياء ، وله مريدون . ومنهم عبدالرحمن شلبى ابن بنت پير الياس ومنهم شجاع الدين القرامانى . ومنهم بدر الدين الدقيق . ومنهم العارف مظفر الدين الأرندوى . ومنهم بدر الدين الأحمر . ومنهم بابا نخايش الأنقروى . ومنهم صلاح الدين البولوى . ومنهم مصلح الدين خليفة . ومنهم عمردده البروساوى . ومنهم الشيخ لطف الله . وكل هؤلاء من مشاهير الاتقياء رحمهم الله .

وخلفه ابنه مراد وكان عمر مراد عند ما تولى السلطنة ثمانى عشرة سنة ، و بدأ عمله بمهادنة أمير القرامان ، وملك المجر . وثار على مراد عمه مصطفى ، وعضده ملك القسطنطينية ، فتغلب مراد على عمه وأخذه أسيراً وشنقه ، وزحف على القسطنطينية وجرت معركة شديدة إلا أن الأتراك لم يقدروا ذاك اليوم على فتح البلدة ، أمافى الأناضول فاستولى مراد على أمارة « آيدين » بعد أن كان امراؤها استقلوا فى أثناء

الفتنة التي وقعت بين أولاد السلطان بايزيد ، وكذلك استولى على « صاروخان » وعلى « منتشة » وعلى « بلاد القرامان » وعلى نصف امارة « قسطموني » فاسترجع مراد جميع ما كانت معركة أنقرة المشؤومة مع تمرلنك أخسرته إياه من البلدان .

ولما استراح فكر مراد من جهة آسية ؛ وجَّه همته نحو أوربة ، وكان « جورج برانكوويتش » ملكا على الصرب ، و « سيجيسموند » ملكا على المجر ، فظفر العثمانيون بالمجر ظفراً عظيما ، فاضطر « برانكوويتش » خوفاً على ملكه أن يخضع ويؤدي سنوياً خمسين ألف دوكة للسلطان مراد ، ويقطع كل علاقة مع المجر .

واحتل العثمانيون « كروش واتس » في قلب بلاد الصرب ؛ ثم وجه السلطان قوته صوب بلاد « الارناؤوط » وكان الجنوبي منها يليه « بنو توكشي » والقسم الشمالي يليه « جان كستريوت » فاستولى السلطان على القسمين ، ثم زحف نحو بلاد الفلاخ أي رومانية فخضع أميرها « ڤلاد دارا كول » للسلطان ، ولكن « سيجيسموند » ملك المجر ثار ، ومالأه ملك الصرب وأمير الفلاخ من جهة أوربة ، وأمير القرامان من جهة آسية ، فقهرهم السلطان جميعاً ، واستسلم أمير الفلاخ للسلطان ، وطلب ملك الصرب العفو وأزوج السلطان ابنته . فبقي ملك المجر وحده برأسه ، فعاث الأتراك في بلاده ورجعوا بسبعين ألف أسير . ثم استأنف « برانكوويتش » ملك الصرب ثورته ، فزحف السلطان إلى بلاد الصرب ، وفر برانكوويتش » إلى المجر ، واستولى السلطان على أكثر بلاد الصرب ، إلا أنه لم يقدر على بلغراد فرجع عنها بعد حصار ستة أشهر . وأما المجر فكان ظهر فيهم بطل اسمه « جان هونياد » فهزم العثمانيين وقتل منهم عشرين ألفاً مع قائدهم مزيد بك . فأرسل السلطان « شهاب الدين باشا » ومعه ثمانون ألف مقاتل للأخذ بالثأر فكسرهم « هونياد » بفئة قليلة ، وأخذ أكابر قوادهم أسرى ، ووالى الهزائم على العثمانيين ، ثم زحف السلطان بنفسه فانهزم هو أيضاً في واقعة « نيشل » وخسر ألفي قتيل ، وأربعة آلاف أسير ، وتقهقر الى الوراء . ثم تقدم هونياد الى الامام ، واستولى على مدن كثيرة للعثمانيين ، فاضطر السلطان مراد للصلح وأعاد امارة الفلاخ الى أميرها « دراكول » .

وعقد هدنة مع المجر الى عشر سنوات ، وصارت بلاد الصرب و بلاد الفلاخ تابعة لمملكة المجر . فحزن السلطان من هذه الحوادث ، وعقب ذلك أن ولده « علاء الدين » توفى فخلع السلطان نفسه وذهب معتزلا الملك وأقام « بمغنيسيا » وتولى مكانه ابنه محمد الثانى وهو فى الرابعة عشرة من العمر ، ولم يصل السلطان إلى مغنيسيا حتى نقض المجر عهدهم بتحريض البابا الذى أرسل إليهم أن العهد ليس مسئولا إذا كان مع المسلمين فزحف « هونياد » واستولى على بلاد البلغار ، وحاصر « وارنه » فرجع السلطان إلى أوربة وزحف « هونياد » وهزمه ؛ وكان معه « الكردينال سيزاريني » رسول البابا ، فقتل الكردينال فى المعمعة . و بعد هذه الطائلة على المجر رجع السلطان إلى عزلته وأراد أن يستريح . و إذا بالانكشارية قد قاموا بثورة في أدرنة فجاء السلطان بنفسه فأطاعوا . ثم زحف بستين ألف مقاتل على بلاد اليونان فدوخها ، وانعطف نحو بلاد الأرناؤوط وكان أمير هذه البلاد المسمى أمير المردريت جعل أولاده الأربعة رهائن عند السلطان ، ومنهم « جورج » الذى تربى فى الاسلام ، وكان السلطان يحبه جداً لشجاعته وهو الذى أطلق عليه اسم « اسكندر بك » إلا أن اسكندر بك هذا لم ينس وطنه ، فانسل خفية وأثار الأرناؤوط على العثمانيين وهزم القائد « على باشا » واستقل بالبلاد . فسرح السلطان اليه « فيروز باشا » و « مصطفى باشا » بعساكر وافرة ، فتغلب اسكندر بك عليهما وأخذ مصطفى باشا أسيراً فاضطر السلطان مراد أن يخرج من عزلته مرة ثالثة وزحف بمائة ألف مقاتل وهزم الأرنؤوط واستولى على « دبرة » بعد معارك شديدة .

وانتهز هذه الفرصة « جان هونياد » المجرى وشن الغارة على العثمانيين بجيش عدده أربعة وعشرون الفاً ، منهم عشرة آلاف من الفلاخيين ، ولم ينضم اليه ملك الصرب خوفا من السلطان ، فتلاقي هونياد وجيشه فى صحراء قوصوه مع السلطان مراد وجيشه فبقى القتال ثلاثة أيام ؛ ولكن انتهت الواقعة بانكسار المجر وتفرغ السلطان لمحاربة اسكندر بك فلم يقدر عليه ، وبقى يناوشه القتال معتصما بالجبال

ومات السلطان مراد فى فبراير سنة ١٤٥١ .

بو يع له بالسلطنة سنة خمس وعشرين وثمانمائة ، ومن علماء عصره : المولى محمد ابن أرمغان ، انتهت إليه رئاسة الفتوى فى بروسة بعد المولى شمس الدين الفنارى . ومنهم ابنه محمد شاه استقضى ببروسة . ومنهم ابنه يوسف وكان مدرساً . ومنهم المولى محمد بن بشير ، وكان من مدرسى بروسة . ومنهم المولى شرف الدين بن كمال القريمى ومنهم المولى سيد احمد بن عبد الله القريمى ، ومات بالقسطنطينية بعد فتح السلطان محمد الثانى لها . ومنهم السيد علاء الدين السمرقندى ، وكان عالماً ثم مال إلى التصوف ومنهم احمد بن اسماعيل الكورانى ، كان فقيهاً أصولياً ، ارتحل إلى القاهرة وأجازه ابن حجر فى الحديث . وجاء الكورانى إلى بلاد الروم فأجله السلطان مراد الثانى وأعطاه مدرسة جده مراد الأول فى بروسة ثم مدرسة جده بايزيد يلدرم فى بروسة أيضاً . روى صاحب «الشقائق النعمانية» أن الأمير محمد بن السلطان مراد ــ وهو الذى صار فيما بعد السلطان محمد الفاتح ــ كان أرسل إليه والده عدة من المعلمين ليعلموه ، فلم يمتثل أمرهم ولم يقرأ شيئاً ، حتى أنه لم يختم القرآن . فطلب السلطان مراد رجلا ذا مهابة وحدّة ليتمكن من تعليم ابنه فذكروا له المولى الكورانى فجعله معلماً لولده ، وأعطاه بيده قضيباً يضرب به إذا خالف أمره ، فذهب إليه والقضيب بيده . فقال له : أرسلنى والدك للتعليم وللضرب إذا خالفت أمرى ، فضحك السلطان محمد من هذا الكلام ، فضربه المولى الكورانى فى ذلك المجلس ضرباً شديداً حتى خاف منه السلطان محمد وختم القرآن فى مدة يسيرة ففرح بذلك السلطان مراد وأرسل إلى المولى الكورانى أموالا عظيمة ، ثم إن السلطان محمد خان لما جلس على سرير السلطنة بعد وفاة أبيه عرض على الكورانى الوزارة فلم يقبل وقال له : إن من فى بابك من الخدام والعبيد إنما يخدمونك لأن ينالوا وزارة آخر الأمر ، وإذا كان الوزير من غيرهم تنحرف قلوبهم عنك فيختل أمر سلطنتك ، فاستحسنه السلطان محمد وعرض عليه قضاء العسكر فقبله . ولما باشر أمر القضاء أعطى التدريس والقضاء لأهلهما من غير عرض على السلطان ، فأنكره

السلطان ولكن استحيي من أن يظهره له ، فشاور الوزراء فأشار واعلى السلطان بأن يقول له : سمعت أن أوقاف جدى فى بروسة قد اختلت فلا بد من أن تداركها . فلما قال له السلطان هذا الكلام قال الكورانى : إن أمرتنى بذلك أصلحها ، فقال السلطان : هذا يقتضى زمانا مديداً . فقلده قضاء بروسة مع تولية الأوقاف . فقبل الكورانى وذهب إلى بروسة ، و بعد مدة أرسل السلطان إليه واحدا من خدامه بيده مرسوم السلطان وضمّنهُ أمراً يخالف الشرع ، فمزق الكتاب وضرب الخادم فاشمأز السلطان لذلك فعزله و وقع بينهما نفور ، فارتحل المولى الكورانى إلى مصر وسلطانها يومئذ قايتباى ، فأكرمه غاية الاكرام ، ثم إن السلطان محمداً الفاتح ندم على مافعله ، فأرسل إلى السلطان قايتباى يلتمس منه أن يرسل المولى الكورانى إليه فحكى السلطان قايتباى ذلك للكورانى وقال له : لاتذهب إليه فانى أكرمك فوق ما يكرمك هو . قال الكورانى : نعم هو كذلك ، إلا أن بينى و بينه محبة عظيمة كما بين الوالد والولد ، وهذا الذى جرى بيننا شىء آخر ، وهو يعرف أنى أميل إليه بالطبع ، فان لم أذهب إليه يفهم أن المنع من جانبك فيقع بينكما خلاف . فاستحسن السلطان قايتباى هذا الكلام وأعطاه مالاً جزيلاً ، وهيأ له أسباب السفر ، وأرسل معه هدايا إلى السلطان محمد ، فلما جاء إلى القسطنطينية ولاه السلطان قضاء بروسة ثانية سنة ٨٦٣ ، ثم قلده منصب الفتوى ، وعاش فى كنف حمايتــه عيشا رغدا وصنف تفسيراً للقرآن العظيم سماه « غاية الأمانى فى تفسير السبع المثانى » عقب فيه عل العلامتين الزمخشرى والبيضاوى ، وشرح البخارى وسماه « بالكوثر الجارى على رياض البخارى » وله تصانيف أخرى ، وكان قوالا بالحق ، وكان يخاطب الوزير والسلطان باسمه ، وكان إذا لقى السلطان يسلم عليه ولا ينحنى له ، و يصافحه ولا يقبل يده ، ولا يذهب إليه يوم عيد إلا إذا دعاه ؛ وكان رحمه الله ينصح للسلطان محمد الفاتح فيقول له : إن مطعمك حرام ، وملبسك حرام ، فعليك بالاحتياط . فاتفق فى بعض الأيام أنه أكل مع السلطان ، فقال له السلطان : أيها المولى أنت أكلت أيضا من الحرام ؟ ! فقال : ما يليك من الطعام حرام ، وما يلينى منه حلال

فحول السلطان الطعام ، فأكل المولى فقال السلطان : أكلت من جانب الحرام ؟ !
فقال المولى : نفد ماعندك من الحرام ، وما عندى من الحلال ، فلهذا حولت الطعام .
وتوفى الكورانى سنة ٨٩٣ فى القسطنطينية . ومنهم المولى مجد الدين ، صار قاضى عسكر فى زمان الفاتح . ومنهم المولى خضر بك بن جلال الدين ، أعطاه السلطان محمد مدرسة جده فى بروسة ، وكان علامة يلقب بجراب العلم .

ولما فتح محمد الفاتح القسطنطينية جعله قاضياً فيها ، وهو أول قاض بتلك العاصمة وتوفى فيها ودفن فى جوار أبى أيوب الأنصارى عليه رحمة الله . ومنهم المولى ابراهيم ابن الخطيب . ومنهم المولى خضر شاه من منتشة ، قرأ فى بلاده ثم ارتحل فى طلب العلم إلى مصر ، وعاد إلى الروم ، وكان زاهداً وتوفى قاضيا . ومنهم المولى محمد بن قاضى أياجلوغ وكان عالما زاهدا . ومنهم المولى علاء الدين على الطوسى ، وأصله من العجم وجاء إلى بلاد الروم ، ولما فتح السلطان محمد الثانى قسطنطينية جعل ثمانيا من كنائسها مدارس وأعطى واحدة للطوسى وهى مدرسة جامع زيرك . وجاءه السلطان محمد الفاتح مرة وأمر بأن الطوسى يدرس كالعادة، وجلس على يمينه وجلس محمود باشا الوزير على يساره وصار الطوسى يقرأ فى شرح العضد للسيد الجرجانى ، وحل كثيراً من الدقائق فطرب السلطان و يقال إنه قام وقعد من شدة طربه ، وخلع عليه بعد الدرس وأعطاه عشرة آلاف درهم ، وأحسن الى جميع الطلبة . ثم أعطاه السلطان مدرسة والدة السلطان مراد فى أدرنة ، وعين له كل يوم مائة درهم : ثم أمر السلطان محمد المولى الطوسى والمولى خوجه زاده أن يصنف كل منهما كتاباً للمحاكمة بين تهافت الامام الغزالى والحكماء . فكتب المولى خوجه زاده كتابه فى أربعة أشهر ، وكتب المولى الطوسى كتابه فى ستة أشهر ، ففضل الناس كتاب خوجه زاده ، وأعطى السلطان محمد كلا منهما عشرة آلاف درهم ، وزاد خوجه زاده خلعة نفيسة ، فكان ذلك سبباً فى ذهاب المولى الطوسى إلى بلاد العجم . ومنهم المولى حمزة القرامانى . والمولى ابن التمجيد ، وكان معلما للسلطان محمد . ومنهم المولى على العجمى ، حصل العلوم فى بلاده ، وقيل قرأ على السيد الجرجانى . ثم أتى بلاد الروم ونزل بقسطموني فأكرمه

أميرها اسماعيل بك غاية الاكرام . ثم أتى إلى أدرنة فأعطاه السلطان مراد الثانى مدرسة جده السلطان بايزيد يلدرم فى بروسة ، وعاش إلى زمان السلطان الفاتح . ومنهم المولى على القومنانى و بلده قريبة من مدينة طوقات . ومنهم المولى حسام الدين الطوقاتى . ومنهم المولى الياس بن ابراهيم السينابى . ومنهم المولى الياس بن يحيي بن حمزة . ومنهم المولى محمد بن ميناس . ومنهم المولى علاء الدين القوجه حصارى ارتحل إلى بلاد العجم ، وقرأ على التفتازانى . والسيد الجرجانى . ومنهم المولى قاضى بلاط . ومنهم المولى بخشايش صنف رسائل للسلطان مراد . ومنهم المولى محمد بن قطب الدين الأزنيقى ، ومنهم المولى فتح الله الشيروانى قرأ على السيد الشريف الجرجانى ، وقرأ العلوم الرياضية على قاضى زاده الرومى بسمرقند ، ثم أتى بلاد الروم وتوطن قسطمونى ومنهم المولى شجاع الدين الياس و يلقب بشيخ اسكوب ، درس فيها مدة أربعين سنة ومنهم المولى الياس الحنفى ، ومنهم المولى سليمان شلبى ابن الوزير خليل باشا ، وكان خليل باشا وزيرا للسلطان مراد خان . وتولى هو القضاء بالعسكر المنصور فى زمن والده . ومنهم المولى آقبيق ، وهو من العارفين . ومنهم الشيخ محمد بن الكاتب توطن غاليبولى منقطعاً عن الخلق . ومنهم الشيخ احمد بن الكاتب أخوه ، وسكن غاليبولى أيضا ، ومنهم المولى شيخى من بلاد كرميان ، ومنهم مصلح الدين المعروف بامام الدباغين بمدينة أدرنة . ومنهم الشيخ پيرى خليفة الحميدى ، ومنهم الشيخ تاج الدين ابراهيم بن بخشى فقيه . ومنهم الشيخ العارف حسن خوجه من بلاد قرسى ، ومنهم شمس الدين من خلفاء حسن خوجه .

وخلفه ابنه محمد الثانى الفاتح بويع له فى سنة خمس وخمسين وثمانمائة للهجرة، وكانت آسية الصغرى ـ أى الأناضول ـ كلها فى يده ، ماعدا إمارة القرامان وولاية طرابزون التى كانت تابعة للقسطنطينية ، أما فى أوربة فلم يكن للروم غير القسطنطينية وضواحيها وأما بلاد اليونان فكانت مقسمة بين البنادقة ، و بين بعض أمراء من الأهالى، وأما الأرناؤوط فكانت تحت حكم اسكندر بك ، وأما بوسنه فكانت لها امارة مستقلة وأما الصرب فكانت تؤدى الجزية للسلطنة العثمانية ، وكان باقى ما بقى تابعاً للسلطنة

رأسا ، فلما تولى محمد الثانى فكر فى فتح القسطنطينية حتى يجمع شمل المسلمين ، وكان « بايزيد يلدرم » بنى من قبل بازاء القسطنطينية حصناً من جهة آسية ، فجاء محمد الثانى فبنى حصناً يقابله من جهة أوربة ، فلما رأى الأمبراطور قسطنطين مباشرة السلطان محمد هذه البناية أرسل يستعطفه ، وعرض عليه دفع اتاوة سنوية ، فاستنكف السلطان عن قبول أى شىء ، وبدأت الحرب ؛ فاستأصل السلطان الروم الذين فى ضواحى القسطنطينية ، وأجمع كل من الفريقين على القتال ، وصنع رجل مجرى للسلطان مدفعاً كبيراً يرسل قذائفه إلى مسافة ميل ، كان موكلا به سبعمائة رجل ، فكان تأثير هذا المدفع عظيما بضخامته وبعد مرماه .

وكان السلطان محمد يقدر أن يحشد مئات ألوف من المقاتلة ، أما الامبرطور قسطنطين فلم يقدر أن يحشد إلا أربعة آلاف وتسعمائة وثلاثة وستين مقاتلا ، فهذا العدد كان يقابل مائتين وخمسين ألف جندى عثمانى ، معها أربع عشرة بطارية من المدافع ، يعاونها من البحر مائة وثمانون سفينة حربية ! ! ، فاستصرخ « قسطنطين باليولوغ » ممالك النصرانية فخذلته ، وكل ما أنجدته به هو أن البابا وعد باعلان حرب صليبية اذا كانت الكنيستان الشرقية والغربية تتحدان ، وأرسلت جنوة أسطولا صغيراً خمس سفائن ، وتمكن خمسة آلاف مقاتل من الغرباء من الوصول إلى المدينة ، فنقل السلطان مراكبه البحرية إلى البر ، وأزلقها على الشحم ، وأنزلها في خليج « قاسم باشا » فى ليلة واحدة ، ولما أصبح الصباح كان سبعون سفينة حربية فى وسط الخليج ، وبقى الحصار خمسين يوماً فتهدمت الأبراج ، فأرسل السلطان إلى قسطنطين يعرض عليه الاستسلام فامتنع ، فعرض عليه السلطان أن يوليه بلاد المورة بدلا من فروق فاستنكف أيضاً ، وفى ٢٩ مايو من تلك السنة قام العثمانيون بهجوم عام ، وكان المهاجمون مائة وخمسين ألفاً ، فدافع الروم فى ذلك اليوم دفاعا شديداً ولكن المسلمين دخلوا من الأسوار ، فلجأ الروم إلى كنيسة آيا صوفيا يرجون المعجزة التى تنقذهم ، فدخل عليهم العثمانيون من كل جهة ، وأخذوا البلدة عنوة ، وقتل الامبراطور قسطنطين وهو يقاتل بنفسه . وكان للاستيلاء على القسطنطينية دوى

لايوصف ، ووصلت الأخبار إلى المورة فحل من الرعب فى قلوب اليونانيين ما لا يحيط به تعريف ، وأخذوا يجلون عن بلادهم إلى حيث لا يعلمون ، وامتلأ البحر بالسفن التى تشحن الأثقال ، وتحمل الأنام ، ولجأ كثيرون من الأروام إلى الجزر الخاصة بالبنادقة ، والجنوية . فصدر أمر السلطان بتأمين الناس ، ونادي المنادى فى كل مكان بأن كل رومى يريد الرجوع إلى وطنه فهو آمن على حياته ودينه وماله ! ! وترك السلطان للأروام عدداً كبيراً من الكنائس ، وكان البطريرك قد قتل فى المعمعة فعين السلطان بطريركا جديداً اسمه « جناديوس » وسلمه العصا وقال له : إنى أعطيك الامتيازات التى كان يتمتع بها أسلافك . وصار البطريرك منذ ذلك اليوم رئيساً للأمة الرومية ، وكان له فى الدولة العثمانية « رتبة وزير » وكانت عنده محكمة ، ومجلس روحانى ، فكان يحكم بين الاروام فى جميع القضايا ، وكان المجلس الروحانى أشبه بمحكمة استئناف ، وكان أعضاؤه ذوى امتيازات أيضاً فلا يدفعون شيئا من الخراج وبالاختصار لم يتعرض الاتراك إلى الاروام فى دينهم ، ولا فى أملاكهم إلا كنيسة « آياصوفيا » فقد جعلها السلطان جامعا .

وبعد أن انتهى السلطان من فتح « العاصمة الرومانية » أخضع بلاد اليونان باجمعها ، ودخلت جيوشه بلاد الصرب ، وسبت خمسين الف نسمة من رجال ونساء فارسل « جان هوبناد » بطل المجر الى « برانكوويتش » ملك الصرب يعرض عليه التحالف للزحف معاً لقتال العثمانيين ، فبعث برانكوويتش الى هوبناد يقول له : ماذا تصنع فيما اذا تغلبت أنت من جهة الكنيسة ؟ فأجابه هوبناد : إنني أقرر العقيدة الكاثوليكية ، وكان سفراء برانكوويتش سألوا السؤال نفسه السلطان محمد الفاتح فاجابهم : بجانب كل جامع أبنى كنيسة ، وكل من الفريقين يعبد ربه كما يشاء . فسار السلطان بمائة وخمسين الف مقاتل ، وثلاثمائة مدفع ، وحاصر بلغراد لكنه لم يقدر عليها ، ولحقت به خسائر كثيرة فى الحصار . وكان « هوبناد » قد جرح فى المعركة ومات ، فضعفت المقاومة ولم تمض سنتان حتى دوخ العثمانيون جميع بلاد الصرب . وبعد ان انتهوا من الصرب زحفوا الى « بوسنه » وأخذ محمود باشا قائد

الاتراك أمير «البوشناق» أسيراً،ولكنه وعده بالامان على حياته ، ثم إن السلطان محمداً أخذ فتوى من شيخ الاسلام بجواز قتله. وأما الأهالى فمنهم من هاجر ، ومنهم من أسلم . وأكثر من أسلم كانوا من طائفة يقال لها «البوغوميل» وكانت مسيحية لكنها لم تكن تعتقد بألوهية عيسى كما يعتقد جمهور النصارى ، وكانت لها آداب خاصة بها ، وعقائد بعيدة عن العقيدة المسيحية ، وكان من هذه النحله اقوام فى بلاد البلغار . ونظراً لتعصب المجر للكنيسة الكاثوليكية طالما اضطهدوا هؤلاء البوغوميل وأرادوا اكراههم على قبول الكثلكة ، وكانت البابإوات لا تزال تلح على ملوك المجر باستئصال هذه الطائفة فكان هؤلاء يعانون الوان العذاب ، فلما دخل الأتراك الى بلاد البلقان التى يقولون لها « الروملى » بدأ هؤلاء البوغوميل يدخلون فى الاسلام ، وهذا قبل أن يفتح السلطان محمد الفاتح مملكة بوسنة . ولكن عندما دخل السلطان بجيوشه أسلم سائر البوغوميل اختياراً من تلقاء أنفسهم . فمؤرخو الافرنج يزعمون أنه لما دخل السلطان الى بوسنة خيَّر الناس بين الاسلام والنصرانية ، وأن الذى أسلم بقيت له أملاكه ومن لم يقبل الاسلام جرده الأتراك من ثروته ، وكل هذا من أكاذيب المؤرخين الأوروبيين ! ! والحقيقة هى ما ذكرناه . ولو كان السلطان محمد الفاتح عامل البوشناق هذه المعاملة لكان أولى به أن يعامل النصارى بها فى سائر البلاد ، والحال كما هو معلوم ومشهور أن السلاطين العثمانيين لم يتعرضوا لأحد فى دينه . « فالبوشناق » المسلمون لم يكن أصلهم نصارى بالمعنى المعروف ، بل كانوا من هذه الطائفة التى وصفنا شيئاً من عقيدتها ، والتى كانت أرقى من جميع سكان تلك البلاد .

ولنا رحلة الى بلاد « بوسنه وهرسك » جمعنا فيها كل المعلومات اللازمة عن أصل « البوشناق » وعن أصل « البوغوميل » ومرادنا نشرها فى أول فرصة . وقد رأينا باعيننا قبور « البوغوميل » القديمة وليس عليها شىء من الصلبان ، ولا من علامات النصرانية . وبديهى أنه لما كان البوغوميل هم فى الأصل ذوى الوجاهة فى بلاد بوسنه وهرسك ، صاروا هم ذوى الوجاهة فى الاسلام أيضا . وكان استيلاء الاتراك على بوسنه سنة ١٤٦٣ . وفى تلك المدة استولى السلطان محمد على بلاد « طرابزون »

التى كان يليها ملوك من الاروام من عائلة « كومين » . ثم زحف السلطان لفتح بلاد الفلاخ فقاومه أميرها « ڤلاد » مدة من الزمن ، لـكنه انهزم والتجأ الى بلاد المجر . فجعل السلطان أخاه « رادول » أميراً على الفلاخ ، فاما الارناؤوط فكانوا لايزالون عصاة ، وكان اسكندر بك لايزال مظفراً فى حروبه مع الاتراك ، فزحف السلطان بنفسه الى بلاد الارناؤوط واستولى على بعض المدن مثل « برات » وغيرها ثم رجع وترك القيادة « لبَلْبَان باشا » فلم يوفق ، و بقيت ألبانيا متمردة الى أن مات اسكندر بك .

واشتعلت الحرب بين السلطان و بين جمهورية البندقية . فأرسل السلطان أسطولا مؤلفاً من ثلاثمائة سفينة حربية ، عليها سبعون ألف مقاتل تحت قيادة « محمود باشا » فاستولى هذا الأسطول على جزيرة « نيفروبون » وأخذها عنوة واستأصل حاميتها فتحالف البنادقة ، ومملـكة نابولى ، والبابا ، مع لوزون حسن من أمراء التركمان فى شرقى الأناضول ، وذلك لمحاربة السلطان ، فزحف السلطان لصدّ أوزون حسن بمائة ألف مقاتل ، وقهره فى واقعة « أوقلق بيلى » وفى ذلك الوقت استولى على برالقرامان فى جنوبى الأناضول بعد مقاتلات شديدة ، وكان السلطان اعتزم فتح بلاد البغدان « من رومانية الحاضرة » فساق مائة ألف مقاتل لفتحها ، وكان أميرها « إيتيان الرابع » صلبا شديداً فقاوم أشد مقاومة ، وأوقع بالأسرى . فخنق السلطان وزحف من جهة الجنوب ، وأوعز الى تتر القرم بالزحف من الشرق ، وكان فى القرم عائلة مالـكة من التتر تنتسب إلى « جنكيزخان » . وكانت هذه المملكة تشتمل على شبه جزيرة القرم و بلاد قوبان ، و بلاد الشركى ، ولها جانب من بلاد البغدان ، و بسرابيا . وكان فيها عدة إمارات تخضع « للخان الـكبير » مثل آل « شيرين » و « آل منصور » و « آل سُجُد » و « آل إرغين » و « آل بارون » . وكل هذه العائلات كانت من سلائل أعوان « جنكيز خان » . وكان الجنويون قد استولوا على جانب من القرم وأوقعوا الشقاق بين أمراء التتر ، فجاء السلطان محمد الفاتح وطرد الجنوية من هناك بأسطول مؤلف من ثلاثمائة شراع ، واستولى هو على بلاد القرم ، و وضع على كرسى تلك

المملكة « منفلى غرانى » وصار من الملوك التابعين للسلطنة العثمانية . واستولى الاسطول العثمانى على مصابّ نهر الطونة ، وزحف بمائة ألف مقاتل لقتال « إيتيان الرابع » فكانت الحرب سجالا . وكانت أساطيل البندقية تجتاح سواحل الأناضول ، واشتعلت الحرب بين البنادقة والسلطان فى البانيا ، وبعد حصار شديد استولى السلطان على « اشقودره » سنة ١٤٧٩ ثم تصالحت جمهورية البندقية مع السلطان فتفرغ لقتال المجر ، وزحف أربعون ألف مقاتل من الأتراك إلى « ترنسيلفانيا » ثم إن الخلف وقع بين القواد فظفر بهم « إيتيان باتورى » أمير ترانسيلفانيا ، والجنرال « مايتاس كورفين » وهزموا الجيش الاسلامى ، وارتكبوا من فظائع التعذيب للأسرى ما روته التواريخ . ولكن السلطان لم يتوقف فى فتوحاته بل صمم على فتح « إيطالية » أيضاً وأرسل أسطولا ففتح عنوة مدينة « أوترانت » فى ١٤ اغسطوس ١٤٨٠ فوقع الرعب فى جميع إيطالية وكان مسيح باشا يغزو « رودس » لطرد فرسان مار يوحنا أورشليم ، وهم الذين كان يسميهم العرب بالاسبتارية ، ولهم ذكر شهير فى الحروب الصليبية ، ولما طردهم المسلمون من فلسطين جعلوا رودس مركزاً لهم ، وكانت قاعدة سياستهم محاربة المسلمين ، فجاء مسيح باشا بمائة وستين شراعا وحصر رودس ، وأنزل العساكر إلى البر ، وبقى الحصار مدة شهرين ، فدافع الاسبتارية دفاعاً شديداً ، واضطروا مسيح باشا إلى رفع الحصار . وبعد ذلك بقليل مات السلطان الفاتح فى ٢ مايو ١٤٨١ . وخلاصة أعمال السلطان محمد الفاتح هو أنه فتح القسطنطينية ، وكان ذلك فتحاً مبيناً انتهت به القرون الوسطى فصيّرها عاصمة للاسلام ، وفتح أيضاً ملحقاتها ، وفتح مملكتى الصرب وبوسنة ، وبلاد الأرناؤوط ، وجمع جميع آسية الصغرى فى ملكه .

ولم يكن السلطان الفاتح من أعظم الفاتحين فى الحروب فقط ؛ بل امتاز بحسن الإدارة ، وتنظيم الملك ، وهو الذى حرر النظام المسمى « بقانون نامه » وفيه جميع أنظمة السلطنة من علمية ، وإدارية ، وسياسية ، وعسكرية ، وسارت الدولة العثمانية بموجب هذه الأنظمة مدة طويلة ، ولا سيما التراتيب المتعلقة للقضاة والعلماء والمدرسين فانه اعتنى بها الفاتح أشد الاعتناء ، وكان الفاتح نفسه على جانب عظيم من العلم

وحسن الثقافة ، يتكلم بلغات متعددة وكان بدون شك من أعاظم رجال الدهر ومن حسنات الاسلام الكبرى ، وجميع هؤلاء السلاطين من عثمان إلى الفاتح لم يوجد منهم إلا بطل مجاهد وسلطان عظيم الشان ، وقلما تصادف ذلك فى دولة أخرى بهذا النسق خلفا عن سلف

وفى زمان السلطان محمد الفاتح نبغ من العلماء المولى خسرو قاضى العسكر المنصور أخذ العلم عن المولى حيدر الهروى ، وصار مدرسا بمدينة أدرنة ، ولما فتح السلطان القسطنطينية جعله قاضيا فيها مع التدريس في آياصوفيا ، وكان إذا دخل جامع آياصوفيا يقوم له من فى الجامع كلهم ، ويصلي عند المحراب ، وكان السلطان ينظر إليه من مكانه ويقول لوزرائه : أنظروا هذا أبو حنيفة رفاقه ، وكان كثير الاشتغال بالمطالعة ، وله تآليف متعددة ، ومساجد متعددة بناها فى القسطنطينية ، ومات فيها ونقل جثمانه إلى بروسة . ومنهم خير الدين خليل بن القاسم بن الحاج صفا . ومنهم المولى محمد الشهير بز يرك ، وكان مدرسا بمدرسة السلطان مراد فى بروسه ، ووقعت له مناظرة مع خواجه زاده أمام السلطان محمد الفاتح ، وكان السلطان مدققا متبحراً يحب مناظرات العلماء بعضهم لبعض ، ويميز بينها تمييزاً مدهشاً ، ففى ذلك اليوم استحسن السلطان قول خواجه زاده فوقع فى نفس المولى ز يرك شىء ، فترك القسطنطينية وذهب إلى بروسه فعاد السلطان يحاول تطييب خاطره وعرض عليه مناصب عالية فرفضها . ومنهم مصلح الدين مصطفى بن يوسف بن صالح البروسوى المشتهر بين الناس بخواجه زاده والمذكور كان أبوه من التجار فمال إلى تحصيل العلم برغم إرادة أبيه ، ولم يكن أبوه مع ثروته يعطيه شيئا ، فعاش معيشة الفقراء ، وتولى القضاء فى زمان السلطان مراد ولما انتهت السلطنة إلى الفاتح ـ وكان محبا للعلم والعلماء ـ صار هؤلاء يشدّون الرحال إليه ، وكان خواجه زاده ممن قصد السلطان فلقيه وهو ذاهب من القسطنطينية إلى أدرنة ، فلما رآه محمود باشا الوزير الأكبر قال له : أصبت فى مجيئك لأنى ذكرتك عند السلطان فاذهب إليه وعنده البحث ، فذهب إلى السلطان فسأل عنه فقال محمود باشا للسلطان : هو خواجه زاده ، فكان فى جانب السلطان المولى ز يرك ، وفى الجانب

الآخر المولى سيدى على ، فجلس خواجه زاده إلى جانب سيدى على واعترض على المولى زيرك وأفحمه ، حتى قال له السلطان : كلامك ليس بشيء ! ثم ذهب المولى زيرك و بقى خواجه زاده عند السلطان ، ثم جعله السلطان معلما لنفسه وقرأ عليه السلطان متن عز الدين الزنجانى فى التصريف ، وصار مقربا عند السلطان إلى النهاية حتى حسده محمود باشا الوزير وقال للسلطان : إن خواجه زاده يريد منصب قضاء العسكر . فقال السلطان : لأى شيء يريد أن يترك صحبتى ؟ فقال الوزير : هكذا يريد . ثم قال الوزير لخواجه زاده : أمرك السلطان أن تصير قاضى العسكر . فقال : أنا لا أريد ذلك قال الوزير : هكذا جرى الأمر . فامتثل خواجه زاده أمر الوزير وصار قاضيا للعسكر وكان والد خواجه زاده لا يزال فى الحياة ، وكذلك إخوته . فجاءوا يزورونه وهو فى منصبه العالى ، ورأوا ذلك الاقبال العظيم ، فقال خواجه زاده لوالده : لو كنت أعطيتنى مالا لما صرت إلى هذا الجاه الذى تراه الآن . يشير بذلك إلى أنه فى صغره لما عوّل خواجه زاده على طلب العلم وخالف مسلك أبيه فى التجارة أمسك أبوه عن الانفاق عليه ، فصار يكد و يجتهد حتى بلغ تلك الدرجة العالية ، وكان الشيخ ولى شمس الدين البخارى رأى خواجه زاده وهو يطلب العلم فى صباه وثيابه رثة ورأى إخوته متجملين بالثياب النفيسة ، فسأل أباهم ؟ لماذا أولادك هؤلاء كلهم عليهم علامات اليسار وولدك هذا وحده بحالة الفقر ؟ فقال له : هذا لأنى أسقطته من نظرى حين ترك طريقتى . فقال الولى شمس الدين : إن هذا الولد سيكون له شأن عظيم و يقوم إخوته أمامه بمقام الخدم ، وقد تحقق كلام الولى هذا ، لأن خواجه زاده عند ما صار قاضى العسكر صنع ضيافة عظيمة لأبيه ، وحشد إليها الأكابر والأعيان والعلماء ، فجلسوا على مراتبهم ، ونظراً للازدحام لم يوجد مكان فى السفرة لاخوة خواجه زاده فلبثوا واقفين كالخدم ، وتذكر خواجه زاده قول الولى شمس الدين .

وصنف خواجه زاده كتاب « التهافت » بأمر السلطان ، وقال المولى الفنارى : المصيبة كل المصيبة أن الخواجه زاده قَبِل القضاء إذ لو داوم على الاشتغال بالتأليف لظهرت له آثار تتحير فيها الألباب .

ثم إن السلطان جعل محمد باشا القرمانى وزيراً ، وكان متعصباً على المولى خواجه زاده لميل الوزير إلى المولى على الطوسى ، فقال للسلطان الفاتح . إن خواجه زاده يشكو هواء القسطنطينية و يمدح هواء إزنيق . فقال السلطان : أعطيته قضاء ازنيق مع المدرسة التى فيها ، فمضى خواجه‌زاده إلى‌إزنيق ، ثم ترك القضاء واشتغل‌بالتدريس فقط ، ثم رجع إلى القسطنطينية بعد وفاة الفاتح . ولما جلس السلطان بايزيد بن السلطان الفاتح على سرير السلطنة أعطاه المدرسة السلطانية فى بروسة ، مع منصب الفتوى فيها . وكان لا يكتب الفتوى إلا بعد النظر فى الفتاوى ، و إذا تكررت عليه مسألة واحدة لا يهمل أن يعيد النظر فى الفتاوى قائلا : لو سامحت نفسى في هذه لربما تسامحت فى‌غيرها . وكان إذا لم يجد المسألة فى الفتاوى سلك مسلك‌الرأى ، وكان يقول إنى قد أرجح‌وجها من الوجوه ثم إذاطالعت فى الكتب وجدت هذا الوجه قدذهب اليه بعض الأئمة قبلى . وكان يقول : مانظرت في كتاب أحد بعد تصانيف السيد الشريف بنية الاستفادة . وكان خواجه زاده يقول : إنى صاحب إقدام و إحجام . فقيل له : ما تريد بذلك ؟ فقال : إذا كملت مطالعتى لا أخاف أحدا كائنا من كان و إذا لم تكمل أخاف كل أحد . ونقل عنه أنه قال : إن العلوم على ثلاثة أقسام ؛ قسم منها ما يمكن تقريره وتحريره وهو المكتوب فى المصنفات . ومنها ما يمكن تقريره ولا يجوز تحريره وهو الجارى فى‌المباحثات . ومنها ما لايمكن تقريره ولا تحريره وهو ما لا يمكن التعبير عنه لدقته إلا إذا حصل لأحد تلك الحالة الذوقية فيتكلم بالايماء والاشارة . وأمر السلطان بايزيد خواجه زاده أن يكتب حاشية على شرح المواقف فامتثل أمره . وكان قد وقع شلل فى يده اليمنى فكان يكتب الحاشية باليد اليسرى وتوفى خواجه زاده سنة ثلاث وتسعين وثمانمائة ، وكان له ولد اسمه الشيخ محمد من العلماء الكبار مال فى آخر الأمر إلى التصوف .

ومن علماء عصر الفاتح المولى شمس الدين احمد بن موسى الشير بالخيالى ، وكان عالما عاملا ورعاً ، ولما توفى تاج الدين الخطيب مدرّس أزنيق طلب السلطان محمد الفاتح مدرّساً مكانه ، فعرض الوزير محمود باشا اسم الخيالى فقال له السلطان : أليس

هو الذى كتب الحواشى على شرح العقائد وذكر فيها اسمك ؟ قال الوزير : نعم هو ذلك . قال السلطان : إنه مستحق لهذا المنصب . وأعطاه المدرسة المذكورة وعين له كل يوم مائة وثلاثين درهما ، ومات وهو مدرس فيها وعمره ثلاث وثلاثون سنة وكان كثير العبادة . حكى من لازمه أنه لم يره فرح ولا ضحك . وكان دائم الصمت لا يتكلم إلا عند مباحث العلوم .

ومنهم المولى مصلح الدين مصطفى القسطلاني ، كان مدرسا فى مدرسة «ديموطقة» فى الروملى ثم لمّا بنى الفاتح المدارس فى القسطنطينية أعطاه واحدة منها وصار قاضيا بالعسكر المنصور بخافة محمد باشا القراماني لأن القسطلانى كان قويّا لا يدارى أحدا ، فقال الوزير للسلطان : الأولى أن يكون للعسكر قاضيان ؛ أحدهما القسطلانى يكون قاضيا لعسكر الروملي ، والآخر يكون قاضيا لعسكر الأناضول . وفى تلك المدة مات السلطان الفاتح وجلس السلطان بايزيد ، فعزل القسطلانى عن قضاء العسكر . وكانت له تصانيف عالية الدرجة ، ولم يتفرغ لأكثر منها لكثرة اشتغاله بالدرس والقضاء ، وتوفى سنة إحدى وتسعمائة ودفن بجوار أبى أيوب الأنصارى .

ومنهم المولى محيي الدين محمد بن الخطيب كان مدرساً باحدى المدارس الثمان بالقسطنطينية ، وادعى مرة أنه يقدر على مباحثة خواجه زاده ، فقال له السلطان الفاتح : أأنت تقدر على البحث معه ؟ قال : نعم لاسيا أن لى مرتبة عند السلطان . فعزله السلطان محمد لهذا الكلام . وكان طليق اللسان ، جرىء الجنان ، وقهر كثيراً من علماء زمانه . ويروى عنه أنه ذهب ومعه جماعة من العلماء الى السلطان بايزيد فقبّل العلماء يد السلطان ، وأما ابن الخطيب فلم يقبل يده ولا انحنى له ، فلما خرجوا من حضرة السلطان قالوا له : كان الأليق أن تنحنى له وتقبل يده ! ! قال : أنتم لا تعرفون ، يكفيه فخرا أن يذهب اليه عالم مثل ابن الخطيب وهو راض بهذا القدر . ثم إن السلطان بايزيد جمعه مع المولى علاء الدين العربى وغيره من العلماء وانتهى البحث الى كلام غضب منه السلطان ، فصنف ابن الخطيب رسالة وذكر السلطان بايزيد خان فى خطبتها وأرسلها الى السلطان بيد الوزير إبراهيم باشا ، فازداد السلطان غضباً وقال للوزير

ما اكتفى بذكر ذلك الكلام الباطل باللسان حتى كتبه فى الورق ! اضرب برسالته وجهه وقل له يخرج من مملكتى . فالوزير كتم ذلك عن ابن الخطيب ولم يشأ كسر خاطره ، وأرسل إليه عشرة آلاف درهم باسم السلطان والسلطان لا يعلم ذلك . وله مؤلفات كثيرة .

ومنهم المولى علاء الدين على العربي ، أصله من نواحى حلب ، قرأ أولا فى حلب ثم قدم الى بلاد الروم فقرأ على المولى الكورانى ، وقال المولى الكورانى له : أنت عندى بمنزلة السيد الشريف عند مبارك شاه المنطقى . وتحرير الخبر أن السيد الشريف كان قرأ شرح المطالع ست عشرة مرّة ، ثم قال فى نفسه : أريد أن أقرأ هذا الكتاب على مصنفه . فذهب إليه وهو بهراة والتمس منه أن يقرأ عليه شرح المطالع ، وكان الشيخ قد بلغ من الكبر عتيًّا ، فنظر الى السيد الشريف فقال له : أنت شاب وأنا شيخ كبير لا أقدر على التدريس ، فاذهب الى مبارك شاه فهو يقرئك كما سمع منى وكان مبارك شاه وقتئذ يدرّس بمصر ، فذهب السيد الشريف من هراة إلى مصر ومعه الكتاب ، فقال له مبارك شاه : نعم إلا أنه ليس لك درس مستقل ، ولا آذن لك بالتكلم بل تقنع بمجرد السماع . فرضى السيد الشروط كلها وحضر الدرس . وكان بيت مبارك شاه متصلا بالمدرسة وله باب اليها ، فخرج ليلة إلى صحن المدرسة و بينما كان يدور فيها سمع السيد الشريف يقول : قال الشارح كذا ، وقال الأستاذ كذا ، وأنا أقول كذا ، وكرر كلمات لطيفة أعجبت مبارك شاه حتى رقص من شدة طربه ، فأذن للسيد الشريف أن يقرأ و يتكلم ، وسود الشريف حاشية شرح المطالع هناك ، فالمولى الكورانى قص على المولى العربى هذه القصة وقال له : إنى أفتخر بك افتخار مبارك شاه بالسيد الشريف ودرّس المولى العربى باحدى المدارس الثمان فى القسطنطينية ، ثم صار مفتياً فيها . وكان رجلا قوى المزاج إلى الغاية يجلس عند الدرس مكشوف الرأس فى أيام الشتاء و يقال إنه كان يأتى النساء كل ليلة ، وكان يغتسل فى بيته مهما اشتد البرد ، ثم يصلى مائة ركعة ، ثم ينام ، ثم يقوم للتهجد ، ثم يطالع إلى الصبح وقد وُلد من صلبه سبع وستون نفساً ، ولما مرض مرض الموت

عاده الوزراء ومعهم طبيب ، فأشار عليه الطبيب بالاستحمام فلم يرض ، فحمله الوزراء جبراً على سرير قبض كل واحد طرفا منه وذهبوا به إلى الحمام .

ومنهم المولى عبد الكريم كان هو والوزير محمود باشا والمولى إياس عبيداً لمحمد أغا من أمراء السلطان مراد ، وقد جيء بهم من بلادهم وهم صغار ، فمحمود باشا صار فيما بعد وزيراً للسلطان الفاتح ، والمولى عبد الكريم قرأ العلوم بأسرها ، واشتهر بالفضل وأخذ عن المولى على الطوسى ، والمولى سنان العجمى ، ثم صار مدرساً بإحدى المدارس الثمان التى أحدثها الفاتح بعد فتحه القسطنطينية ، وصار قاضياً للعسكر ، ومات فى أيام السلطان بايزيد خان

ومنهم المولى حسن بن عبد الصمد الصمصونى ، كان عالماً فاضلا محباً للفقراء أخذ عن المولى خسرو ، ودرّس فى إحدى المدارس الثمان ، ثم معلما للسلطان محمد الفاتح ثم قاضيا للعسكر المنصور ، ثم قاضيا لمدينة القسطنطينية ، وكان محمود الطريقة فى قضائه ، وكان له خط حسن ، كتب للسلطان الفاتح صحاح الجوهرى بخطه . ومنهم المولى محمد بن مصطفى بن الحاج حسن . قرأ على علماء عصره ، وصار قاضيا بمدينة « غاليبولى » ثم أعطاه السلطان محمد مدرسة والده بمدينة بروسه ، ثم استقضى فيها ثم استقضى بالقسطنطينية ، ثم صار قاضيا للعسكر ومات فى سنة إحدى عشرة وتسعمائه فى زمان السلطان بايزيد خان . وله تآليف منها حاشيته على تفسير سورة الأنعام للبيضاوى ، وحاشيته فى المحاكمة بين الدوانىّ ومير صدر الدين ، وكتاب فى الصرف اسمه ميزان التصريف .

ومنهم علاء الدين على بن محمد القوشجى كان أبوه من خدام أولغ بك ملك ماوراء النهر ، وكان حافظ البازى « وهو معنى القوشجى بالتركية » قرأ على علماء سمرقند ، وقرأ على قاضى زاده الرومى العلوم الرياضية ، وكان الأمير أولغ بك أيضاً عالماً بهذه العلوم فأخذها عنه ، و بنى الأمير أولغ بك مرصداً فى سمرقند عظيما وتعين له المولى القوشجى هذا ، وله زيج شهير . و بعد وفاة أولغ بك لم يعرف أولاده قدر القوشجى فرحل إلى تبريز وكان أميرها السلطان حسن الطويل فأكرمه كثيرا ، وأرسله فى رسالة إلى

السلطان محمد العثمانى ، فلما جاء إلى الفاتح بالرسالة أكرمه فوق ما أكرمه السلطان حسن ورغب إليه أن يسكن فى ظل حمايته ، فوعده بالمجىء بعد إتمام الرسالة ، وعاد إلى السلطان حسن وأدى الجواب ، ثم أرسل الفاتح من جاء به إلى القسطنطينية بالحشمة الوافرة ، وقدم للسلطان رسالة فى علم الحساب وسماها المحمدية ، ولا يوجد أنفع منها فى هذا العلم . ثم حصلت حرب بين الفاتح والسلطان حسن الطويل فاستصحب السلطان المولى القوشجى وهو ذاهب إلى الحرب ، فصنف له فى أثناء السفر رسالة فى علم الهيئة سمَّاهَا «الفتحيّة» ولما رجع السلطان من فتح العجم أعطى القوشجى مدرسة أيا صوفيا وأكرم أولاده وأتباعه وكان معه مئتا نفس من الأتباع . ورووا أن المولى القوشجى ذكر مباحثة السيد الشريف مع العلامة التفتازانى ورجّح جانب التفتازانى وكان المولى خواجه زاده يقول : كنت أظن الأمر كذلك إلا أنى حققت البحث المذكور فظهر لى أن الحق فى جانب السيد الشريف فكتبت ذلك فى حاشية كتابى وطالعها القوشجى فاستحسن ما كتبت . ولمّا لقى القوشجى السلطان محمدا الفاتح قال له السلطان : كيف شاهدت خواجه زاده . قال : لانظير له فى العجم والروم . قال السلطان : ولا نظير له فى العرب أيضا . وللقوشجى حاشية على أوائل شرح الكشاف للتفتازانى توفى فى القسطنطينية ودفن بجوار أبى أيوب الأنصارى .

ومنهم المولى على بن مجد الدين محمد بن مسعود بن محمود بن محمد بن عمر الشاهرورى البسطامى الهروى الرازى العمرى البكرى الشهير بالمولى « مصنفك » والكاف علامة التصغير عند العجم ، ولقب بذلك لاشتغاله بالتصنيف مذ حداثة سنه ، وهو من ذرية فخر الدين الرازى ، ويقال إن الفخر الرازى صرح فى بعض مصنفاته بأنه من ذرية عمر ابن الخطاب رضى الله عنه ، وقيل بل هو من ذرية أبى بكر الصديق رضى الله عنه .

ولد المولى «مصنفك» سنة ثلاث وثمانمائة ، وسافر إلى هراة لتحصيل العلم سنة اثنتى عشرة وثمانمائة ، وصنف شرح الارشاد سنة ثلاث وعشرين وثمانمائة ــ أى وهو ابن عشرين سنة ــ وشرح المصباح فى النحو سنة خمس وعشرين ، وشرح آداب البحث سنة ست وعشرين ، وشرح اللباب سنة ثمان وعشرين ، وشرح المطوّل سنة اثنتين

وثلاثين ، وشرح شرح المفتاح للتفتازانى سنة أربع وثلاثين ، وصنف حاشية التلويح سنة خمس وثلاثين ، وشرح البردة والقصيدة الروحية لابن سينا فى تلك السنة ، ثم ارتحل إلى هراة وشرح « الوقاية » ثم شرح « الهداية » سنة تسع وثلاثين . ثم صنف حدائق الايمان لأهل العرفان ، ثم ارتحل إلى بلاد الروم سنة ثمان وأربعين وشرح المصابيح للبغوى ، وشرح شرح المفتاح للسيد الشريف ، وصنف شرح الكشاف للزمخشرى . وله عدة تآليف بالفارسية ، وقرأ العلوم الأدبية على المولى جلال الدين يوسف الأبهرى من تلاميذ التفتازانى ، وقرأ فقه الشافعى على الامام عبد العزيز بن الابهرى ، وقرأ الفقه الحنفى على الامام نصيح الدين محمد بن محمد علاء الدين .

وكان سريع الكتابة يكتب كل يوم كراسا ، وكان يدرس الطلبة بالكتابة يكتبون اليه مواضع الاشكال فيجيب كلاً فى ورقة ويدفعها إلى الطالب ، مات بالقسطنطينية سنة خمس وسبعين وثمانمائة ، ودفن عند أبى أيوب الأنصارى وأصيب بالصمم فى آخر حياته .

ومنهم المولى سراج الدين محمد بن عمر الحلبى ، لمّا أغار تمرلنك على البلاد الحلبية أخذه معه إلى ما وراء النهر فقرأ هناك ، ثم قدم إلى بلاد الروم فى زمن السلطان مراد خان ونصبه معلما لابنه السلطان محمد الذى فتح استانبول ثم أعطاه مدرسة بأدرنة وبقى يدرّس ويصنف حتى مات فيها .

ومنهم المولى محيي الدين درويش محمد بن خضرشاه ، كان مدرساً بسلطانية بروسة وكان فى غاية الورع والناس تتبرّك به . ومنهم المولى إياس ، وكان متصوّفا انقطع للعبادة والمطالعة ، وكان له غرام بتصحيح الكتب وكتابة الفوائد فى حواشيها ، وكان للناس فيه اعتقاد عظيم . ومنهم المولى خير الدين معلم السلطان محمد الفاتح ، وكان له جامع ومدرسة في القسطنطينية . وكان عالماً فاضلا متفنناً لذيذ الصحبة حسن النادرة . ومنهم المولى حميد الدين بن أفضل الدين الحسينى ، وكان على جانب عظيم من الورع والتقوى ، صبوراً على الشدائد ، تولى التدريس بمدرسة السلطان مراد فى بورسة

ثم عزل عنها فى أوائل سلطنة الفاتح ، وأتى إلى القسطنطينية . وكان الفاتح أحياناً يخرج ماشياً فى عدة من أعوانه فصادفه الشيخ حميد الدين فنزل عن فرسه ووقف فقال له السلطان : أنت ابن أفضل الدين ؟ قال : نعم . قال : احضر إلى الديوان غداً . فلما حضر أعطاه مدرسة السلطان مراد فى بورسة ، وأجرى عليه أرزاقا تكفيه وأوصاه بالاشتغال بالعلم وقال له : أنا لا أغفل عنك . ثم أعطاه السلطان إحدى المدارس الثمان فى القسطنطينية ، ثم استقضاه ، و بعد وفاة الفاتح صار مفتياً فى زمان ولده السلطان بايزيد . وكان شديد الحفظ قلّما توجد مسألة شرعية أو عقلية إلا وهو يحفظها ، ولم يكن يعرف الغضب ومنهم المولى سنان الدين يوسف بن المولى خضر بك ابن جلال الدين ، كان عالماً فاضلا واسع الاطلاع حادّ الذهن ، ولشدة ذكائه غلب عليه الشك فصار يشتبه فى أكثر الأشياء ، وكان والده يلومه على ذلك ، وكانا يأكلان مرة معاً فقال له والده : بلغ بك الشك إلى مرتبة أنك قد تشك فى أن هذا الظرف من نحاس ؟! فقال له : نعم يمكن ذلك لأن للحواس أغاليط . فغضب والده عليه وضربه بالطبق على رأسه . ولمّا مات والده كان فى العشرين من سنه . فأعطاه السلطان الفاتح مدرسة بأدرنة ، ثم أعطاه دار الحديث ، ثم جعله من خواصه ، وتعلم سنان الدين العلوم الرياضية على المولى على القوشجى الذى تقدّم ذكره ، ثم سفر الجو بينه و بين السلطان فعزله وحبسه . فلما عرف العلماء اجتمعوا فى الديوان العالى وقالوا : لابد من إطلاق سبيله و إلا نحرق كتبنا ونخرج من المملكة ، فأمر السلطان بتخلية سبيله ولكنه أخرجه من القسطنطينية إلى سفر حصار ، و بقى غضبان عليه . إلا أن السلطان بايزيد عاد فاستدعاه إلى أدرنة ، وجعله فى دار الحديث فيها ، وأنعم عليه وكتب هناك حواشى على مباحث الجواهر من شرح المواقف ، وأورد أسئلة كثيرة على السيد الشريف ، فنصحه بعض أصحابه قائلا له : لابد من انتخاب تلك الأسئلة لأن السيد رفيع الشان ، فأوعز للطلبة بأن يطالعوا تلك الأسئلة ، فأسقط منها ما أجابوا عنه ، ثم ترك المناصب ومات بقسطنطينية ، ودفن بجوار أبى أيوب الانصارى سنة إحدى وتسعين وثمانمائة . وكان ينفق كل ما فى يده ، ولما مات لم يوجد فى بيته حطب يسخّن

به الماء . ومنهم المولى يعقوب باشا بن المولى خضر بك بن جلال الدين ، وكان عالماً محققاً صالحاً ، استقضى فى مدينة بورسة ومات وهو قاض بها سنة إحدى وتسعين وثمانمائة . ومنهم احمد باشا بن خضر بك بن جلال الدين كان أيضاً عالماً فاضلا متواضعا محبا للفقراء ، أعطاه السلطان محمد إحدى المدارس الثمان وهو دون العشرين ثم صار مفتيا بمدينة بروسة فى زمان السلطان بايزيد ، ومات سنة سبع وعشرين وتسعمائة وقد ذرف على التسعين . ومنهم المولى صلاح الدين ، كان عالما عابداً جعله الفاتح معلما لابنه بايزيد ، وتوفى فى بورسة .

ومنهم المولى عبد القادر أصله من « اسبارتة » من ولاية حميد ، قرأ على المولى على الطوسى وترقى فى المناصب حتى صار من خواص السلطان الفاتح ، فنقل الوزير محمود باشا عنه إلى السلطان ما غيَّر خاطره عليه ، فذهب إلى وطنه ومات مكسور الخاطر . ومن نكاته أنه كان مع السلطان فى قونية ، فخرج العلماء لاستقبال السلطان مشاة ، وكان المولى عبد القادر راكباً ، فقال له السلطان : قد أضناك السفر فانظر إلى هؤلاء العلماء وقوة مزاجهم ، فأنشده بيتاً بالفارسية معناه : إن الفرس العربى و إن كان نحيفاً فهو أجود من جماعة الحُمُر ، فضحك السلطان واستحسن جوابه . ولكنه لم يستحسن منه قوله مرة : إنه لو كان العلامة التفتازانى والسيد الجرجانى فى عصره لحملا قدّامهُ غاشية سرجه ، فان السلطان اشمأز من كلامه ، وأمره بالمباحثة مع خواجه زاده فألحمه خواجه زاده ، كأن السلطان جعل ذلك عقاباً له . ومنهم المولى علاء الدين على بن يوسف بالى بن المولى شمس الدين الفنارى ، كان من العلماء المحققين ارتحل إلى بلاد العجم وأخذ عن علماء هراة ، ثم عن علماء سمرقند ، و بخارى ، ثم عاد إلى بلاده . وكان المولى الكورانى يقول للسلطان الفاتح : يجب أن يكون عندك أحد أبناء المولى الفنارى ، فلما بلغه وجود المولى علاء الدين من ذرية الفنارى استقضاه بمدينه بورسة ثم جعله قاضيا للعسكر المنصور ، وفى زمانه ارتقى شرف العلم وكانت للعلماء سيادة تامَّة . ثم عُزل ، ثم أعاده السلطان بايزيد لقضاء العسكر ، ثم عزل وأقام على جبل فوق مدينة بورسة يشتغل بالعلم ، وكان يقضى فى ذلك الجبل الفصول الثلاثة

و ينزل إلى بورسة فى الفصل الرابع . وكان لا ينام على فراش ، فاذا غلب عليه النوم استند على الجدار والكتب بين يديه . وكان ماهرا فى العلوم الرياضية ، وفى علم الكلام ، وعلم الأصول ، وفى الفقه والبلاغة ، وسلك أيضاً طريق التصوف ودخل فى خدمة العارف بالله حاجى خليفة ، ومع سعة علمه لم يرغب فى التأليف ، وليس له إلا شرح الكافية فى النحو . وكان ينفق كل ما بيده ولم يدّخر من رواتبه الكثيرة التى جرت عليه وهو قاض للعساكر أقل شيء ، فقيل له فى ذلك ؟ فقال : كنت رجلا سكران ولم يوجد عندى من يحفظ المال . يريد أنه كان سكرانا بخمرة الجاه . فقال له بعض الحاضرين : إذا رجعت إلى المنصب فيلزم أن تحفظ المال ، فقال : لا يفيد فانه إذا عاد المنصب يعود معه السكر . توفى سنة ثلاث وتسعمائة ، وقيل إحدى وتسعمائة .

ومنهم المولى حسن شلبى بن محمد شاه الفنارى ، كان عالماً عابداً محباً للفقراء وكان مدرسا بالمدرسة الحلبية فى أدرنة ، وكان ابن عمه المولى على الفنارى قاضياً بالعسكر فى أيام الفاتح ، فدخل عليه وقال : استأذن لى من السلطان لأنى أريد أن أذهب إلى مصر لقراءة كتاب «مغنى اللبيب» فى النحو على رجل مغربى سمعته بمصر يعرف ذلك الكتاب غاية المعروفة ، فأذن له السلطان وقال قد اختل دماغه . وكان السلطان لا يحبه لأنه صنف حواشيه على كتاب التلويح باسم السلطان بايزيد في حياة والده ، ثم ذهب إلى مصر وقرأ مغنى اللبيب على العالم المغربى قراءة تحقيق وتدقيق وكتب الكتاب بخطه وكتب له المغربى إجازة على ظهر الكتاب ، وقرأ البخارى على بعض تلاميذ ابن حجر وأخذ إجازة فى الحديث ، ثم حج ورجع إلى بلاد الروم فأرسل كتاب مغنى اللبيب إلى السلطان فلما نظر فيه رضى عنه وأعطاه مدرسة إزنيق ، ثم أعطاه إحدى المدارس الثمان . وفى زمان السلطان بايزيد سكن بورسة وعين له السلطان رزقا كافيا ، ومات ببورسة . وله حواشى على الشرح المطوّل للتلخيص وحواشى على شرح المواقف للسيد الشريف ، وحواشى على التلويح للتفتازاني .

ومنهم المولى مصلح الدين مصطفى بن المولى حسام ، وكان عالما فى العلوم الشرعية والعلوم الأدبية ، ومتصوفاً أيضا ، وكانت له اليد الطولى فى الانشاء ، وصار مفتياً فى

بورسة ، ومات بها . ومنهم محيي الدين محمد الشهير « بأخوين » قرأ على علماء الروم ودرّس فى إحدى المدارس الثمان فى قسطنطينية . ومنهم المولى قاسم المشتهر « بقاضى زاده » كان أبوه قاضيا فى مدينة قسطمونى ، وكان عالما عابدا ، وكانت له معرفة بالعلوم الرياضية ، وتولى القضاء فى بورسة ، وكان محمود الطريقة ، ومات وهو قاض فى بورسة ومنهم المولى محيي الدين الشهير «بابن مغنيسا» اتصل بخدمة المولى خسرو وهو مدرس بمدرسة آيا صوفيا ، وكان يسكن فى الطبقة العليا من المدرسة ، و يشعل سراجه طول الليل و يرى ذلك السلطان محمد من دار السعادة ، فسأل السلطان يوما المولى خسرو : من أفضل تلاميذك؟ فقال له : ابن مغنيسا . قال : ثم من؟ قال : ابن مغنيسا . قال السلطان: أهو رجلان ؟ قال: لا ولكنه واحد كألف ، فقال له السلطان : إنه ساكن فى الحجرة الفلانية ، وذلك لأن السلطان كان يرى سراجه موقداً طول الليل . ولما بنى الوزير محمود باشا مدرسته بالقسطنطينية أعطاها السلطان لابن مغنيسا ، ففى أول درس ألقاه قال أستاذه المولى خسرو بحضور جمّ من العلماء : حضرت درسين ؛ أحدهما لمحمد شاه الفنارى ، والآخر هذا الدرس . قال ذلك لشدة إعجابه بتلميذه . ثم صار قاضيا بالقسطنطينية ، ثم قاضيا بالعسكر المنصور . واتفق أن سافر السلطان الفاتح إلى الحرب فى الروملى فسأل ابن مغنيسا عن بيت من الشعر العربى فقال له : أتفكر فيه بالمنزل ثم أجيب . فقال له السلطان محمد : أيحتاج بيت واحد من الشعر إلى كل هذا وأمر بحضور المولى سراج الدين ـ وكان موقّعا فى الديوان العالى ـ فسأله عن ذلك البيت ففى الحال أجابه قائلا : هو للشاعر الفلاني من القصيدة الفلانية من البحر الفلانى . ثم قرأ السباق والسياق ، وحقق معنى البيت . فقال السلطان لابن مغنيسا : ينبغى أن يكون العالم هكذا فى العلم ، ثم عزله عن قضاء العسكر وأعطاه إحدى المدارس الثمان وقال هو محتاج بعد إلى التدريس . ثم بعد ذلك استوزره ثم عزله عن الوزارة . وفى زمان السلطان بايزيد رجع قاضيا للعسكر وتوفى وهو قاض .

ومنهم المولى حسام الدين حسين بن حسن بن حامد التبريزى المشهور «بأم ولد» لقّب بذلك لأنه تزوج أم ولد المولى فخر الدين العجمى ، كان عالماً عابداً منقطعاً عن

الخلق ، عاكفاً على الدرس والعبادة ، أعطاه السلطان الفاتح إحدى المدارس الثمان وكان يحبه لصلاحه و يحسن إليـه . ومنهم ابن المعرّف كان من ولاية بالى كسرى وكان معلّما للسلطان با يزيد ، وكان السلطان يقول : لولا صحبتى معه ماصحّت عقيدتى ومنهم المولى بهاء الدين بن الشيخ الحاجى بيرم ، كان عالمًا فاضلا عابداً ، صار مدرسا بمدرسة السلطان بايزيد بن مراد فى بورسة ، وأخذ عن الخواجه زاده ودرّس فى إحدى المدارس الثمان ، ولما بنى السلطان با يزيد بن محمد مدرسته بأدرنة أعطاها إلى المولى بهاء الدين المذكور . ومنهم المولى سراج الدين كان معيدا لدرس خواجه زاده ، ثم أعطاه السلطان الفاتح إحدى المدارس الثمان بقسطنطينية ، وكان يحفظ جيدا قصائد العرب ، و ينظم الشعر العربى ، وقد تقدم كونه تغلب على ابن مغنيسا فى معرفة الشعر العربى ، ومات فى عنفوان شبابه ، وحزن عليه الناس . ومنهم المولى محيي الدين محمد ابن كوبلو ، جعله الفاتح قاضياً بالعسكر المنصور ، وتزوج بأخته سليمان شلبى بن كمال باشا فولدله منها ولد اسمه أحمد شاه ، وهو المولى العالم الفاضل المعروف «بابن كمال باشا» ومنهم المولى محيي الدين محمد المعروف بمولانا « ولدان » وكان قاضياً بمدينة غاليبولى ثم جعله السلطان مدرسا فى بورسة ، ثم قاضيا بها ، ثم جعله قاضى العسكر ، ثم عزله و بقى إلى زمان ولده با يزيد خان فأعاده إلى قضاء العسكر وحصل فى زمانه أن أحد خدام السلطان في أدرنة ظهر منه فساد ، فأرسل نائب المحكمة أناسا من قبله لمنعه فلم يمتنع ، فغضب النائب وركب إليه بنفسه وقصد منعه فضرب هو النائب ضربا شديداً ، و بلغ الخبر السلطان فأمر بقتله لتحقيره نائب الشرع ، فشفع له الوزراء فلم يقبل شفاعتهم ، فالتمسوا من مولانا ولدان أن يتوسط فى الأمر فقال للسلطان : إن النائب مخطىء فى قيامه من مجلس القضاء بسبب الغضب . فلما ذهب فضربه ذلك الغلام لم يكن عند الضرب قاضيا بل كان قد أسقط نفسه ، فلذلك لايقال إنه حصل تحقير للشرع يستحق فاعله القتل . فسكن السلطان الفاتح ، ثم جىء بالغلام بين يدى السلطان فضربه ضربا شديدا مرض من بعده أربعة أشهر ثم برىء بعد ذلك وترقى وصار وزيرا للسلطان با يزيد ، وكان يترحّم على الفاتح و يقول : ماحصل لى

هذا الرشد إلا من ضربه . ومنهم أحمد باشا بن المولى ولى الدين الحسينى ، كان مدرسا بمدرسة السلطان مراد فى بورسة ، ثم صار قاضيا بأدرنة ، ثم جعله السلطان محمد الفاتح قاضيا بالعسكر ، ثم جعله معلما لنفسه ، وكان حلو الفكاهة يقرض الشعر بالتركية ، واستوزره السلطان ثم عزله ، وجعله أميرا على بورسة ومات بها . ومنهم المولى تاج الدين ابراهيم باشا بن خليل بن إبراهيم بن خليل باشا ، جده الأعلى خليل باشا أول قاض بالعسكر المنصور فى الدولة العثمانية ، وأما والده خليل باشا فكان وزيرا للسلطان مراد والد الفاتح ، فلما تولى الفاتح عزل خليل باشا ونكبه ومات محبوسا ، وكان ولده تاج الدين ابراهيم باشا قاضيا بأدرنة ، فعزله أيضا وتحولت به الأحوال وصار إلى فقر شديد ، ثم ولاه السلطان قضاء أماسيه ، ولما مات وتولى ابنه بايزيد استدعاه إلى القسطنطينية وجعله قاضيا للعسكر ، ثم جعله رئيسا للوزراء وكانت سيرته فى القضاء والوزارة محمودة ، وكان يأكل من مطبخه كل يوم ستمائة نفس من الفقراء ، وعند وفاته لم يوجد فى خزانته إلا ثمانية آلاف درهم ! ! وله جامع ومدرسة فى القسطنطينية . ومنهم المولى مصلح الدين مصطفى بن أوحد الدين البارحصارى ، كان عالما فاضلا عالى الهمة ، عظيم الحرمة ، أخذ عن خواجه زاده ودرّس فى أدرنة وفى القسطنطينية ، واستقضى فيها أيام دولة السلطان بايزيد ، ومات وهو قاض ، ولم يصنف كتبا إلا رسالة فى تجويز الفرار من الوباء . ومنهم المولى يوسف بن حسين الكرماسنى قرأ على خواجه زاده ، ودرس فى القسطنطينية ثم استُقضى فيها ، وكان سيفا من سيوف الحق لا يخاف فى الله لومة لائم ، خرج مرة إلى المسجد بعمامة صغيرة ، فطلبه الوزير ابراهيم باشا لمصلحة اقتضت حضوره فى الحال فلم يبدل عمامته الصغيرة ، فسأله الوزير عن ذلك فأجابه : حضرت خدمة الخالق بهذه الهيئة ، ثم لما استدعيتنى لم أجد فى نفسى رخصة فى تغيير الهيئة لأجل الوزير فوقع هذا الكلام عند الوزير موقع القبول ، ورواه للسلطان بايزيد فسرّ السلطان بذلك وأنعم عليه .

ومنهم المولى ابن الأشرف ، قرأ على خواجه زاده ، ثم على المولى على الطوسى

ونبغ نبوغا عجيبا ، ولكنه التحق أخيراً بزمرة الصوفية ورغب فى السياحة إلى أن مات . ومنهم المولى عبدالله الأماسى ، كان مدرساعظيم الشأن فى أماسية ، زاهداً فى الدنيا ومنهم المولى حاجى بابا الطوسى ، اشتغل بالتدريس وأخذعنه الكثيرون ، وله تصانيف كثيرة فى النحو . ومنهم المولى ولى الدين القرامانى والد الشاعر المشهور « بنظامى » توفى ولده نظامى فى حياته . ومنهم المولى علاء الدين على الفنارى ، وليس من أولاد المولى الفنارى تولى القضاء فى بورسة ، ثم صار قاضى عسكر الأناضول ، ومات فى أيام السلطان بايزيد ، وكان له ملكة فى الانشاء بالعربية . ومنهم سنان الدين يوسف المشهور « بقره سنان » كان ماهراً في العلوم العربية والأدب شرح مراح الأرواح فى الصرف ، وشرح الشافية فى الصرف أيضاً . ومنهم المولى مصلح الدين مصطفى بن زكريا القرامانى ، قرأ فى القاهرة ، ثم عاد إلى بلاد الروم ، وله التصانيف . ومنهم المولى مصلح الدين مصطفى أخو زوجة المولى عبد الكريم ، كان مدرّساً بمرادية بورسة . ومنهم المولى شمس الدين أحمد الشهير بقراجه أحمد ، كان مدرساً بمرادية بورسة ، وله تصانيف . ومنهم المولى شمس الدين أحمد الشهير « بدنقوس » كان مدرسا في بورسة وصنف شرح المراح فى الصّرف ، وله شرح على كتاب المقصود فى الصرف .

ومنهم المولى طشفون خليفة ، وكان متصوفا توفى فى زمان السلطان بايزيد ومنهم المولى مصلح الدين مصطفى الشهير « بالبغل الأحمر » وكان عالما حافظا لجميع المسائل درّس مدة فى بورسة ، ثم فى أدرنة ، وكان عظيم الجثة جداً لا يحمله إلا فرس قوى . ومنهم المولى شمس الدين أصله من ولاية « آيدين » ارتحل إلى بلاد العجم ، وقرأ على علمائها . ثم إلى بلاد العرب وقرأ أيضا على علمائها ، وبرع فى علم النغمات ، واتصل بالفاتح ثم غضب عليه فذهب إلى بورسة ، واختل عقله فى آخر عمره من حزنه لأجل مفارقته للسلطان . وكان ينظم القصائد العربية ، والفارسية والتركية ، وكل قصيدة إذا صُحِّفَت من أولها إلى آخرها يحصل منها هجو كما جاء فى « الشقائق النعمانيّة » .

ومنهم المولى المليحى ، مهر فى العلوم وذهب إلى بلاد العجم فأخذ عن علمائها وكان يحفظ صحاح الجوهرى كله ، ولكنه ابتلى فى آخر الأمر بالخمر وسقطت منزلته ونقل إلى السلطان الفاتح أن المليحى شرب الخمر فى سوق البزّازين ، وصبّ الخمر على الناس ، فأرسل فأتوا به فسأله لماذا شربت الخمر وصببته على الناس ؟ فكان المليحى يقول : عجبا للسلطان كيف صدّق قولهم أن المليحي صب الخمر على الناس مع أن المليحى إذا وجد الخمر لايضيّع منها قطرة ! ! وقد تاب المليحى عن الخمر فى زمان السلطان محمد ، فلما توفى رجع إلى شأنه عفا الله عنه والله يعفو عن كثير . ومنهم المولى سراج الخطيب ، وكان من بلاد العجم جاء إلى بورسة ثم إلى استانبول فجعله السلطان الفاتح خطيباً فى الجامع الذى بناه المعروف بالفاتح ، وكان له فى رعاية النغمات شيء عظيم لم يلحقه به أحد بعده .

ومنهم قطب الدين العجمى ، كان وزيراً لبعض ملوك العجم ثم جاء إلى بلاد الروم وخدم السلطان الفاتح فأكرمه جدا ، وكان يعرف علم الطب غاية المعرفة. ومنهم الحكيم شكر الله الشيروانى ، وكان طبيبا ماهرا وعالما بالعلوم العربية . ولما حج أقام بمصر وقرأ على علمائها كالشيخ السخاوى ، وغيره . وأجازه بالروم المولى الكورانى واتصل بخدمة السلطان محمد ومات فى أيامه . ومنهم خواجه عطا الله العجمى ، جاء من بلاد العجم إلى بلاد الروم فى أيام الفاتح ، ومات فى أوائل سلطنة بايزيد وكان ماهرا فى الفلك والرياضيات ، ومعرفة الأزياج واستخراج التقاويم ، قال صاحب « الشقائق النعمانية » : رأيت له رسالة كبيرة فى العلوم الرياضية لحل الأسطرلاب والربع المجيّب ، والمقنطرات ، ورسالة لطيفة فى معرفة الأوزان . ومنهم يعقوب الحكيم كان يهوديا وكان من أمهر الأطباء فحظى عند السلطان محمد لأجل طبه ، ثم أسلم فاستوزره السلطان ، ولما مرض السلطان الفاتح رحمه الله عالجه يعقوب الحكيم هذا فلم ينجع علاجه ، فأشار الوزير محمد باشا باستدعاء الحكيم اللارى فعالج السلطان بخلاف معالجات يعقوب فازداد ضعف السلطان ، فاستدعى يعقوب مرة ثانية ، فلما عاينه عرف أن مرضه غير قابل للشفاء ، فصوّب رأى الحكيم اللارى ولم يلبث السلطان

إلا قليلا حتى مات روّح الله روحه ، وجزاه عن الاسلام خيراً . ومنهم الحكيم اللارى العجمى ، اتصل بخدمة الفاتح . ومنهم الحكيم « عرب » حصّل الطب فى بلاد العرب ثم جاء إلى بلاد الروم واتصل بخدمة عيسى بك بن اسحق بك أمير أسكوب ، ثم اتصل بخدمة السلطان محمد ومنهم ابن الذهبى ، كان عالماً عابداً زاهداً ورعاً ، وكان ماهراً فى معرفة الأعشاب ، وكان لايؤتى إليه بشىء منها إلا عرفه باسمه ورسمه ومنافعه ! وكان طبيباً حاذقاً . ومنهم محمد بن حمزة الشهير «بآق شمس الدين» نجل العارف بالله شهاب الدين السهروردى ، ولد بدمشق الشام ، ثم أتى مع والده إلى بلاد الروم ، وكان مائلا إلى التصوف واتصل بخدمة الشيخ بيرم ، وكان طبيبا للأبدان كما هو طبيب للأرواح . ولما عزم السلطان محمد على فتح القسطنطينية دعا هذا الشيخ للجهاد فقال الشيخ آق شمس الدين : سيدخل المسلمون القلعة من الموضع الفلاني فى اليوم الفلانى ، وقت الضحوة الكبرى ، وكان الأمر كما قال . فاعتقد فيه السلطان محمد مزيد الاعتقاد ، وقال : ما فرحت بهذا الفتح كفرحى بوجود مثل هذا الرجل فى زمانى . ثم جاءه السلطان يوما من الأيام وهو مضطجع فى خيمته فلم يقم للسلطان فقبّل السلطان يده وقال له : جئتك لحاجة ! قال : ماهى ؟ قال : أريد أن أدخل الخلوة عندك أياما . فقال الشيخ : لا . فألح السلطان مراراً والشيخ يقول لا . فقال له السلطان وهو غضبان : إن واحداً من الاتراك يجىء إليك وتدخله الخلوة بكلمة واحدة فلماذا تمنعنى أنا وحدى ؟ فأجابه الشيخ آق شمس الدين : إذا دخلت الخلوة تجد فيها لذة تسقط السلطنة من عينك ، وتختل أمورها ، فيمقتنا الله ، والغرض من الخلوة إنما هو تحصيل العدالة ، فأنت عليك أن تفعل كذا وكذا ، وذكر ما بدا له من النصائح ثم قام السلطان من عنده والشيخ مضطجع لا يقوم له ، فقال السلطان لابن ولى الدين ما قام الشيخ لى ؟ ! ـ وكان مستاء من ذلك ـ فقال له ابن ولى الدين : إن الشيخ خاف عليك الغرور لهذا الفتح الذى لم يتيسر لغيرك من السلاطين العظام ، والشيخ كما لا يخفى هو مرشد . ثم دعا السلطان الشيخ فى الثلث الأخير من الليل وجاء والليل مظلم فما رآه بالبصر ولكن عرفه بالروح ، فعانقه وضمّه وجلس اليه حتى طلع الفجر ، فصلى

السلطان خلفه ، و بعد الصلاة قرأ الشيخ الأوراد والسلطان جالس أمامه على ركبتيه فلما أتمها التمس السلطان من الشيخ أن يعين له موضع قبر أبي أيوب الانصارى وكان يروي فى التواريخ أن قبره بموضع قريب من سور القسطنطينية ، فقال آق شمس الدين : إنى أشاهد فى هذا الموضع نوراً ، فلعل قبر أبى أيوب هو هنا . قال له السلطان إنى أصدقك ، ولكن أريد علامة يطمئن بها قلبى ، فتوجه الشيخ ساعة ثم قال : احفروا هذا الموضع من جانب الرأس من القبر مقدار ذراعين يظهر رخام عليه خط عبراني تفسيره كذا ، فحفروا مقدار ذراعين فظهر الرخام الذى قال عنه وعليه الخط ففسروه فاذا هو كما قال . فاندهش السلطان وغلب عليه الحال حتى كاد يسقط وأمر ببناء القبة على ذلك الموضع ، و ببناء جامع ، والتمس من الشيخ أن يجلس هناك مع مريديه ، فأبى الشيخ واستأذن أن يرجع إلى وطنه . فلم يشأ السلطان أن يخالفه فلما عبر البحر قال لولده : لما جاوزت البحر امتلأ قلبى نوراً ، وقد فسدت إلهاماتى فى قسطنطينية من ظلمة الكفر فيها . وعاد إلى وطنه « قصبة قومنك » و بقى فيها حتى مات . وله رسالة فى التصوف اسمها « رسالة النور » وكان ماهراً فى علم الطب ، وله رسالة فيه .

حاصر العرب القسطنطينية من سنة ٤٨ إلى سنة ٥٢ للهجرة ، ومنهم من يمدّ ذلك الى سنة ٥٥ و يقولون : إن أبا أيوب الانصارى رضى الله عنه وهو خالد بن زيد ابن كليب بن ثعلبة بن عبد بن عوف من بلحارث بن الخزرج الذى شهد « بدرا » « وأُحُداً » « والخندق » والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخرج غازيا فى زمان معاوية ومرض في غزو القسطنطينية ، فلما ثقل قال لأصحابه : إنْ أنا متُّ فاحملونى فاذا صافقتم العدو فادفنونى تحت أقدامكم ، وسأحدثكم بحديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو « من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة » . قال ابن سعد فى الطبقات الكبرى : ولما مرض أتاه يزيد بن معاوية يعوده فقال حاجتك ؟ قال : حاجتى إذا أنا متُّ فاركب بى ثم سُغ بى فى أرض العدو ما وجدت مساغا ، فاذا لم تجد مساغاً فادفنى ثم ارجع . فلما مات ركب به ثم سار فى أرض

العدو ما وجد مساغاً ، ثم دفنه ثم رجع . قال محمد بن عمر : توفى أبو أيوب عام غزا يزيد بن معاوية القسطنطينية فى خلافة أبيه سنة ٥٢ وصلى عليه يزيد بن معاوية وقبره بأصل حصن القسطنطينية ، ولقد بلغنى أن الروم يتعهدون قبره ويرمّونه ويستسقون به إذ قحطوا ، انتهى ماجاء فى الطبقات . وقد نقلته الى حواشى « حاضر العالم الاسلامى » ثم قلت : إن الاتراك عند ما فتحوا القسطنطينية بقيادة السلطان محمد الفاتح عثروا على قبر أبى أيوب الأنصارى وبنوا عليه قبة ، وجعلوا عنده جامعاً .

وجاء فى الانسيكلو بيدية الاسلامية : أن ابن قتيبة هو أول من ذكر قبر أبى أيوب . قلت : كانت وفاة ابن قتيبة فى ذى القعدة سنة سبعين ومائتين ، وقيل ست وسبعين ومائتين على ما فى وفيات الأعيان ، والحال أن وفاة محمد بن سعد صاحب الطبقات كان يوم الأحد لأربع خلون من جمادى الآخرة سنة ثلاثين ومائتين ، أى قبل وفاة ابن قتيبة كما فى وفيات الأعيان أيضا . فيكون جزم اصحاب الانسيكلو بيدية الاسلامية بأن ابن قتيبة هو أول من ذكر قبر أبى أيوب الانصارى هو بغير محله وذلك لأن ابن سعد سابق لابن قتيبة ، وأنت ترى أنه قد ذكره . وأما قضية كون الروم حفظوا قبره وكانوا يستسقون به فى القحط فقد جاء في الانسيكلو بيدية المذكورة نقلها عن الطبرى ، وابن الأثير ، وابن الجوزى ، والقزوينى ، والحال انها مذكورة فى طبقات ابن سعد الذى تقدم فى الزمن هؤلاء جميعاً ، وقد جاءت هذه القصة مع ترجمة أبى أيوب فى كتاب تركى للحاج عبد الله اسمه « الآثار الماجدية فى المناقب الخالدية » طبع استانبول سنة ١٢٥٧ . ثم ذكرت فى حواشى « حاضر العالم الاسلامى » رواية كون المولى آق شمس الدين كشف ضريح أبى أيوب ، وأن السلطان الفاتح بنى سنة ٨٦٣ جامعاً عند الضريح المذكور . وبعد طبع « حاضر العالم الاسلامى » اطلعت على روايات لا أتذكر الآن مظنتها بالتحقيق تدل على أن قبر أبى أيوب كان معروفا الى القرن السادس للهجرة . وقد حدّث أحد التجار المسلمين بأنه رأى بنيّة بيضاء فى ذلك الموضع ، فسأل عنها فقالوا له : هذا قبر أبى أيوب الانصارى . فان كان طمس القبر بعد ذلك حتى اختفى أثره وانكشف للمولى آق شمس الدين فهذا لا يتعارض مع هذا .

ومنهم الشيخ عبد الرحيم المعروف بابن المصرى ، اتصل بخدمة العارف بالله آق شمس الدين ، وله كتاب اسمه «وحدة نامة» . وهو من بلدة «قره حصار» ومات فيها . ومنهم الشيخ ابراهيم بن حسين السيواسى ، قرأ العلوم على المولى يعقوب بقونية ثم تولى التدريس بمدرسة خوند خاتون بمدينة قيصرية ، فلما اطلع على أن المدرسة للحنفية تركها لأنه كان شافعى المذهب ، وكان متصوفا وتوفى بقيصرية . ومنهم الشيخ حمزة المعروف بالشامى . ومنهم الشيخ مصلح الدين بن العطار وكلاهما من جماعة آق شمس الدين . ومنهم العارف بالله أسعد الدين بن الشيخ آق شمس الدين وكان على قدم أبيه فى الصلاح والانقطاع عن الدنيا ، وكان من علماء عصره . وكذلك أخوه فضل الله ، كان من العلماء والاتقياء . ومنهم أخوه أمر الله . ومنهم أخوه حمد الله المشهور « بحمدى شلبى » وكلهم كانوا على قدم والدهم رحمه الله . ومنهم مصلح الدين مصطفى الشهير «بابن الوفاء» وكان جامعاً بين العلوم الباطنة والعلوم الظاهرة وكان يعرف الموسيقى معرفة تامة ، وكان يختار الخلوة على الصحبة . وقصد السلطان الفاتح أن يشاهده فلم يقبل أن يجتمع معه ، وكذلك قصد ولده السلطان بايزيد فلم يرض هو أن يرى السلطان . وكان حنفى المذهب ، إلا إنه كان يجهر بالبسملة فى الصلاة الجهرية ، فأنكر عليه علماء الحنفية ذلك فأجاب عنه المولى سنان باشا قائلا : اىله اجتهد فيحق له ذلك ، فقالوا هل يمكنه الاجتهاد ؟ قال نعم شرائط الاجتهاد موجودة فيه ، فسكتوا . ومنهم العارف بالله عبد الله حاجى خليفة ، أصله من قسطمونى وكان من العارفين ، وله مناقب كثيرة ، ومثله الشيخ سناد الدين الفروى ، ومثله الشيخ مصلح الدين القوجوى ، وهو من العارفين أيضاً . ومثله الشيخ مصلح الدين الأبصلاوى وكان أيضاً عارفاً منقطعاً عن الناس ومنهم الشيخ محي الدين القوجوى وكان جامعاً بين الظاهر والباطن ، معرضاً عن أبناء الزمان مشغولا بتهذيب الفقراء . ومنهم العارف بالله سليمان خليفة ، وكان من المنقطعين إلى الله ، توطن بالقسطنطينية قريباً من جامع زيرك .

ومنهم الشيخ عبد الله الالهى من أهل الأناضول ، وذهب إلى ما وراء النهر

واتصل بخدمة عبيد الله السمرقندى وغيره ، ثم رجع إلى القسطنطينية وسكن فى جامع زيرك ، واجتمع عليه الأكابر والأعيان ففرّ منهم إلى بلاد الروملى ، فأقام عند الأمير أحمد بك الاورنوسى وأقبل عليه الطلبة ومات هناك . ومنهم العارف بالله عبيد الله السمرقندى ، ولد فى طاشقند من تركستان ، و يقول بعضهم إن نسبه ينتهى إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وكان يقول : الوحدة خلاص القلب عن العلم بوجود ما سوى الله ، و يقول : الاتحاد الاستغراق فى وجود الحق سبحانه وتعالى . و يقول : السعادة خلاص السالك عن نفسه فى مشاهدة الله تعالى . و يقول الوصل نسيان العبد نفسه فى شهود نور الحق ، والفصل قطع السر عما سوى الله تعالى توفى سنة خمس وتسعين وثمانمائة وقبره بسمرقند ، ومن تلاميذه الشيخ عبد الرحمن ابن أحمد الجامى . وله تآليف كثيرة بالعربية ، والفارسية . ومنهم العارف بالله علاء الدين الخلوتى جاء إلى القسطنطينية فخاف منه السلطان الفاتح لكثرة إقبال الناس عليه فأمره بالذهاب إلى بلاد أخرى فتوفى فى بلاد القرامان . ومنهم العارف بالله دَدَه عمر الآيدينى ، وأقام فى تبريز عند الأمير حسن الطويل . ومنهم الشيخ حبيب العمرى القرامانى ، كان عمريا من جهة الأب ، وبكريا من جهة الأم ، وكان من بلاد القرامان ، وكان من كبار المتصوفة . ومنهم المولى مسعود وتوطن بمدينة أدرنة واشتغل بتربية المريدين . ومنهم محمد الجمالى الشهير « بشابي خليفة » وكان أيضا من المتصوفة ومنهم الشيخ سنان الدين ، وكان من العارفين المنقطعين عن الناس ، يسكن بالقرب من القسطنطينية . ومنهم السيد يحيي بن بهاء الدين الشروانى . وكان يقول : يجوز إكثار الخلفاء بتعليم الآداب للناس ، وأما المرشد الذى يقوم بمقام الارشاد بعد شيخه فلا يكون إلا واحداً .

هذا ، و بعد وفاة الفاتح رحمه الله بويع بالسلطنة لولده السلطان بايزيد سنة ست وثمانين وثمانمائة . وكان محمد باشا القرمانى يميل إلى أخيه جمّ معجبا بمزاياه العالية فأرسل الى جمّ يعجل عليه بالحضور ، فعلم الانكشارية بذلك فثاروا بالوزير فقتلوه وكان بايزيد في أماسية ، فجاء ومعه جيش فاقتتل الاخوان بايزيد وجمّ فى صحراء

يني شهر ، فتغلب بايزيد على جمّ وفرّ هذا الى مصر . ثم إن أنصار جمّ مثل قاسم بك ومحمود صنجق بك الأنقرى دعوا جمّ ثانية الى القتال ، فجمع جموعه وتلاقى مع عساكر أخيه فانهزم هذه المرة أيضا ، واضطر أن يلتجىء إلى فرسان مار يوحنا فى رودس فاستقبلوه برا وترحيبا ، فأرسل بايزيد اليهم يعرض عليهم خمسة وأربعين ألف دوكا فى السنة بشرط أن لا يَدَعوا جمّ يفرّ من عندهم ، فاتفقوا مع بايزيد على ذلك وأرسلوا جمّ الى فرنسة واعتقلوه فى برج « بورغانوف Bourganeuf » ثم نقلوه الى رومة فى زمن البابا « اينوشنسيوس » الثامن ، ولما ارتقى اسكندر بورجيا إلى كرسى البابوية بعث الى السلطان بايزيد يعرض عليه هذه المساومة ؛ وهو أنه إن أراد أن يقتل له أخاه فهو يتقاضى على ذلك ثلاثمائة ألف دوكا ، وإن كان يكتفى بحبسه فهو يطلب على ذلك أربعين ألف دوكا فى السنة . وفى أثناء ذلك زحف كارلوس الثامن ملك فرنسة على ايطالية . فتخلص جمّ من البابا مدة قصيرة إلاّ أن ملوك النصرانية حاولوا أن يستعملوه لاثارة الفتنة فى المملكة العثمانية ، فاتفق فرسان رودس مع ملوك « إيكوسية » و « المجر » و « بولونيا » و « فرنسة » و « المرديت » من الأرناؤوط وغيرهم على أن يزحفوا بجم ويقاتلوا السلطان بايزيد فبلغ ذلك السلطان فأرسل الى البابا المبلغ الذى اقترحه من المال لأجل قتل جمّ فسموه فى نابولى فى ٢٤ فبراير ١٤٩٥ ومات مسموما ، وتخلص بايزيد من أخيه .

وبعد موت أخيه حاول بايزيد أن يشنّ الغارة على إيطالية إلا أن الأحوال لم تساعده إذ كانت الحرب قد اشتعلت بينه وبين الدولة المصرية ، فان المصريين كانو قد احتلوا بعض القلاع بقرب طرسوس وأطَنَه فأمر السلطان بايزيد قره جوز باشا والى القرامان بأن يطردهم من هناك ، ولكن المصريين تغلبوا على جيش بايزيد واشتدت الحرب بين الفريقين ، وبينما الحرب قائمة بين السلطان بايزيد وسلطان مصر مات ملك المجر « ماتياس كورفين » فاهتبل بايزيد هذه الفرّة وأغار على المجر من جهة ، وحاصر بلغراد من جهة أخرى . وكان قائد عسكره في المجر سليمان باشا فهزمه المجر ورجع أدراجه ، ورفع الترك الحصار عن بلغراد إلا أن السلطان

دخل فى بلاد الألمان مثل « كارنتيا » و « استيريا » وعاث وغنم وسبى ، وكان معه من المسيحيين خمسة عشر ألف أسير يجرّهم الجيش العثمانى من ورائه ، فزحف الألمان بقيادة الكونت « كينتز » والتقى الجمعان فى كارنتيا ، فأفلت الاسرى المسيحيون من الوراء ، ووقع العثمانيون فى الوسط ، فانكسروا . وفعل فيهم المسيحيون الأفاعيل وعذبوا الأسرى بألوان العذاب ، ولكن الأتراك فى السنة التالية بقيادة يعقوب باشا عادوا فشنوا الغارة على « استيريا » وهزموا الألمان .

وسنة ١٤٩٥ عقد الأتراك هدنة مع المجر ووجهوا قوتهم لقتال البندقية ، وقهر الأسطول العثمانى أسطول البندقية ، واستولى على « ليپانت » وغزا اسكندر باشا والى بوسنة بلاد «طارنت» وخربها تخريبا تاماً ، وكان أمير البحر داود باشا استولى على « مورون » و « ناڤارين » و « كورون » فوجدت البندقية نفسها عاجزة وحدها عن مقاومة العثمانيين ، فاتفقت مع دول النصرانية فرانسة واسبانية والمجر والبابا على مقاتلة السلطان بايزيد ، وبثوا أساطيلهم من كل جهة . وفى أثناء ذلك ثارت قبائل القرامان على السلطان فألجأته الضرورة الى عقد الصلح .

وفى ذلك العهد ظهر اسم « الروس » وكانوا من قبل تحت حكم المغول – أى التتر – ولبثوا تحت حكمهم الى سنة ١٤٨١ حينما ظهر منهم « الغراندوق ايڤان الثالث » فهزم التتر ووحّد كلمة الروس . وفى سنة ١٤٩٢ طلب إيڤان الثالث محالفة السلطان بايزيد ، وجاء سفراؤه بعد ذلك الى استانبول ، وانعقد الاتفاق بين بايزيد و إيڤان واضطر السلطان إلى السلم لأنه كان حصل زلزال خارق للعادة انهدم فيه سبعون ألف بيت ، ومائة وتسعة جوامع في القسطنطينية ، وخربت مُدُن كثيرة مثل أدرنه وغاليبولى ، وديموطيقه ، وشورلو .

وكان بايزيد قد قسّم ولايات السلطنة بين أولاده ، فأعطى كلا منهم ولاية وأخطأ فى هذا التدبير لأنهم بدأوا يقتتلون بعضهم مع بعض فى حياة أبيهم . بل ثار به ابنه سليم واستولى على بعض المدن ، فقام أخوه « قورقود » واستولى على مدن أخرى وكان الانكشارية يميلون الى سليم ، فطلبوا من السلطان أن يعتزل الملك وأن يولى

السلطان سليما فلم يجد بُدًّا من إجابتهم ، ومات بعد ذلك بقليل . و يقال إنه كان حليما محباً للعلم والعلماء ، وللشعر والأدب ، وإنه لم يكن يحب الحرب بفطرته ، و إنما كان يساق اليها بالضرورة . وقام باصلاحات كثيرة ، وفى زمانه وجدت العلاقات الرسمية بين الدولة العثمانية والدول المسيحية ، وفى زمانه نبغ من العلماء المولى محيي الدين محمد ابن ابراهيم البلكسارى ، وكان مدرساً فى قسطمونى ، ثم جاء الى القسطنطينية ، وكان السلطان يحضر درسه في جامع آيا صوفيا ، وكان بارعاً فى علم التفسير وصنف تفسيراً لسورة الدخان وأهداه للسلطان بايزيد . ومنهم يوسف بن جنيد الطوقاتى ، أخذ عن المولى خسرو ، وتولى التدريس فى بورسة ثم فى القسطنطينية .

ومنهم المولى قاسم بن يعقوب الأماسى المشهور «بالخطيب» كان مدرساً ببلدة أماسية واتّصل بالسلطان بايزيد يوم كان أميراً على تلك البلدة ، فلما تولى الساطنة جعله معلماً لابنه الأمير أحمد . ومنهم سنان الدين يوسف ، اتصل بخدمة المولى على القوشجى وقضى حياته فى التدريس والافادة . ومنهم سنان الشاعر ، أخذ العلم عن المولى خسرو ومنهم المولى شجاع الدين إلياس . وكان من المدرسين المعروفين . ومنهم شجاع الدين إلياس الشهير « بأوصلو شجاع » ومنهم المولى علاء الدين اليكانى ، وكان مفتياً بمدينة بورسة . ومنهم لطف الله الطوقاتى ، أخذ عن المولى على القوشجى ، وكان بارعاً فى فى العلوم الرياضية ، وصار أميناً على خزانة الكتب عند السلطان الفاتح ، وكان عالماً علامة ، إلا أنه كان يطيل لسانه على أقرانه ، وأحياناً يطعن على السلف فأبغضه العلماء ونسبوه إلى الزندقة ، وحكم المولى خطيب زاده بإباحة دمه فقُتِل ! ! وجاء فى تاريخه (ولقد متّ شهيداً) وقيل إنه لما قتل خرجت روحه وهو يكرر كلمتى الشهادة ، وجاء فى «الشقائق النعمانية» : أنه كان يُقرىء صحيح البخارى فتنزل دموعه على الكتاب . وحكى يوماً وهو يبكى أن علياً بن أبي طالب رضى الله عنه ضُرب فى بعض الغزوات بسهم فثبت نصل السهم فى بدنه فلم يقدروا على إخراجه ، فلما قام للصلاة أخرجوه من بدنه ولم يحس بذلك . قال المولى لطفى : هذه حقيقة الصلاة ، وأما صلاتنا نحن

فهى قيام وانحناء لا فائدة فيها ، فجاء الوشاة ونقلوا عنه أنه قال : الصلاة قيام وانحناء لا عبرة بها ، وشهدوا عليه بذلك . وأما المولى أفضل الدين فتوقف عن إباحة دمه وكذلك المولى محيى الدين القوجوى قال : أشهد بأن المولى لطفى برىء من الالحاد والزندقة .

ومنهم المولى قاسم الكرمياني ، وكان علامة فى عصره وكثر عنده الطلبة ، وكان مجلسه كثير الفوائد . ومنهم المولى قوام الدين قاسم بن أحمد الجمالى، تولى قضاء القسطنطينية ، وكان عالماً كثير الحفظ إلا إنه لم يصنف شيئاً . ومنهم المولى علاء الدين على بن أحمد الجمالى وقضى حياته مدرّساً ينتقل من مدرسة إلى مدرسة ، ثم صار مفتيا فى العاصمة ، وكان متواضعا خاشعا طاهر اللسان لا يذكر أحداً بسوء ، وكانت أنوار العبادة تتلألأ على صفحات وجهه ، وكان يقعد فى أعلى داره وله زنبيل معلق فيلقى المستفتى ورقته فى الزنبيل ويحركه فيجذبه المولى علاء الدين ويأخذ الورقة ويكتب جوابها ، وذلك حتى لا ينتظر الناس لأجل الفتوى . وكان السلطان سليم ابن بايزيد قد تولى السلطنة ، وكان سفاكا للدماء فأمر بقتل مائة وخمسين رجلا من حفاظ الخزائن ، فجاء المولى علاء الدين إلى الديوان العالى وقال للوزراء : أريد أن أقابل السلطان ، فعرضوا الأمر للسلطان ، فدخل عليه وقال له : وظيفة أرباب الفتوى أن يحافظوا على آخرة السلطان ، وقد بلغنى أنك أمرت بقتل مائة وخمسين رجلا لا يجوز قتلهم شرعا فيجب أن تعفو عنهم . فغضب السلطان سليم وقال له : إنك تتعرض لأمر السلطنة وليس ذلك من وظيفتك ، فأجابه المفتى : بل أتعرض لأمر آخرتك وإنه من وظيفتى ، فان عفوت فلك النجاة ، وإلا فعليك عقاب عظيم . فانكسرت عند هذا القول حدة السلطان وعفا عنهم ، وتحدث مع المفتى ساعة ولما أراد المفتى أن ينصرف قال للسلطان : تكلمت معك فى أمر آخرتك ، وبقى لى كلام متعلق بالمروءة قال السلطان : ما هو ؟ قال المفتى : إن هؤلاء من عبيد السلطان ، فهل يليق بعرض السلطنة أن يتكففوا الناس ؟ قال السلطان لا . قال فقرّرهم فى مناصبهم ، فقال له السلطان نعم إلا أنى أعزرهم فى تقصيرهم فى خدمتهم ، فقال المفتى : هذا جائز لأن

التعزير مفوض إلى رأى السلطان . ومرّة أخرى أمر السلطان بقتل أربعمائة رجل كانوا قد اشتروا الحرير خلافاً لأمر السلطان ، فعارضه المفتى فى ذلك . فغضب السلطان أيضاً وقال له : أيها المولى أما يحل قتل ثلثى العالم لنظام الباقى ؟ فقال : نعم لكن إذا كان هناك خلل عظيم . فقال السلطان : ليست هذه من وظيفتك . فقال: له بلى هى من وظيفتى لأنها متعلقة بالآخرة . وانصرف المفتى ولم يسلّم على السلطان فبقى السلطان واجماً مدةطويلة ، ولكنه عاد فعفا إجابة لطلب المفتى . ثم فكر فى استقامة هذا المفتى وولاه قضاء العسكر وقال له : إنى تحققت أنك تتكلم بالحق ، وتوفى سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة .

ومنهم المولى عبد الرحمن بن على بن المؤيد الأماسى . كان متبحراً إلى الغاية فى العلوم العقلية والنقلية ، شيخا فى العلوم العربية ، ناظما بالتركية والعربية والفارسية . وقرأ فى حلب كتاب «المفصل فى النحو للزمخشرى» وقرأ على المولى جلال الدين الدوانى فى بلاد العجم ، وجاء إلى استامبول فى أيام بايزيد خان ودرّس فى إحدى المدارس الثمان ثم استقضاه السلطان بالعسكر المنصور . ولما تولى السلطنة السلطان سليم بن بايزيد وسار إلى حرب الشاه اسماعيل كان المولى المذكور معه ، وفى أثناء الطريق اختل عقله فجاءوا به إلى استانبول حيث مات ، ودفن بجوار أبى أيوب الأنصارى . ومنهم المولى مصلح الدين مصطفى بن البركى زاده ، نصبه السلطان بايزيد معلماً لابنه احمد فى أماسية ثم استقضاه فى أدرنة ، ومات فى القسطنطينية . ومنهم المولى محيى الدين محمد الصامصونى ، قضى حياته مدرسا واستقضاه السلطان سليم فى أدرنة . ومنهم المولى سيدى الحميدى قضى حياته مدرسا بين بورسة ، و إزنيق ، والقسطنطينية ، ثم صار قاضيا فى العاصمة . ومنهم المولى سيدى القرامانى ، وكان مدرسا ثم صار قاضيا بالعسكر المنصور . ومنهم المولى نور الدين القراصوى كان مدرسا فى بورسة ، ثم صار مدرسا فى أسكوب ، ثم صار مدرسا فى إحدى المدارس الثمان بالقسطنطينية ، وصار قاضيا بالعسكر المنصور ، وكان قوّالا بالحق ، محافظاً على الشريعة ، ورعاً متعبداً . ومنهم المولى محيى الدين محمد القوجوى ، وقضى حياته مدرسا إلى أن استقضاه السلطان سليم

فى القسطنطينية ، ثم استقضاه بالعسكر المنصور ، ثم استعفى ثم جعلوه قاضيا بمصر وذهب من هناك إلى الحج ومات سنة إحدى وثلاثين وتسعمائة . ومنهم المولى بالى الآيدينى وكان من كبار المدرّسين . ومنهم المولى عبد الرحيم بن علاء الدين العربى وكان من عظام المدرسين أيضا . ومنهم المولى موسى بن حميد الدين بن أفضل الدين الحسينى ، وكان عالماً عابداً . ومنهم المولى محيي الدين العجمى وكان قاضيا بأدرنة متصلبا فى الحق . ومنهم المولى سنان الدين يوسف العجمى وكان من كبار المدرسين ، ومن الصلحاء ، ومن المؤلفين وله حواش على شرح المواقف للسيد الشريف ــ وقلما يوجد عالم كبير من علماء الترك ليس له حواشى على كتب السيد الشريف الجرجانى ، أو على كتب التفتازانى ــ ومنهم المولى السيد ابراهيم من سادات العجم ، جاء إلى بلاد الروم وكان معدوداً من أولياء الله ، وكانت تروى عنه الكرامات ، وتوفى سنة خمس وثلاثين وتسعمائة فى القسطنطينية . ومنهم المولى علاء الدين على الأماسى وكان مدرسا أرسله السلطان بايزيد إلى قايتباى سلطان مصر فأصلح بينهما ، ومنهم المولى بدرالدين محمود بن الشيخ محمد ، كان إماما للسلطان بايزيد . ومنهم المولى الحلبلى كان مدرسا ثم استقضى بالعسكر المنصور . ومنهم پير محمد الجمالى كان قاضيا فى صوفية بلاد البلغار ، ثم صار حافظا للدفتر بالديوان العالى ، ثم استوزره السلطان سليم خان ولقّبه پير باشا ، ثم عزل عن الوزارة وكان محمود السيرة ، كثير المبرّات ، توفى فى حدود الاربعين وتسعمائة . وكان السلطان سليم يقول : إن كان اسكندر يفتخر بوزيره ارسطو فأنا أفتخر بوزيرى پير باشا فى عقله ورأيه .

ومنهم المولى محمد المشهور « بابن زيرك » بعد أن قضى مدة من عمره مدرسا بين بورسة ، و إزنيق ، وكوتاهية ؛ تولى القضاء فى أدرنة ، ثم بالقسطنطينية ، ثم بالعسكر المنصور وأرسله السلطان سليم إلى السلطان الغورى صاحب مصر ، ومات سنة تسع وثلاثين وتسعمائة . ومنهم قوام الدين يوسف المعروف « بقاضى بغداد » كان قاضيا فى بغداد فلما حدثت فتنة ابن أردبيل ارتحل إلى ماردين ، ثم جاء إلى القسطنطينية ، وكان عالما علامة له شرح على « نهج البلاغة » للامام على بن أبى طالب كرم الله وجهه .

ومنهم المولى ادريس بن حسام الدين البدليسى كان من بلاد العجم ارتحل إلى بلاد الروم وأكرمه السلطان بايزيد غاية الاكرام ، وأنشأ تاريخ آل عثمان بالفارسية ويقال إنه تاريخ منقطع النظير . انتقل إلى رحمة ربه فى زمان السلطان سليمان القانونى . ومنهم المولى يعقوب بن سيدى على كان من كبار المدرسين ، له شرح على كتاب «شرعة الاسلام» وكان السلطان بايزيد يلقبه بشارح الشرعة لميله إلى الشرح المذكور . ومنهم المولى نور الدين حمزة كان حافظا لدفتر بيت المال بالديوان العالى فى زمان السلطان بايزيد .

ومنهم شجاع الدين إلياس الرومى كان من قصبة ديموطقه فى الروملى ، وكان من كبار المدرسين معروفا بالعلم والصلاح والزهد ، وله حواش على حاشية شرح التجريد للسيد الجرجانى ، وحواشى على حاشية المطالب للسيد أيضا ، وحواش على حاشية شرح الشمسية للسيد أيضا ، وحواش على حاشيه شرح العضد كذلك للسيد ، وكان أكثر اشتغاله بالعلوم العقلية . ومنهم تاج الدين ابراهيم الشهير « بابن الاستاذ» وكان من المدرسين فى زمان السلطان بايزيد . ومنهم ابن المعيد كان مدرساً فى اسكوب ومات فيها . ومنهم ابن المعبرى وكان من المدرسين . ومنهم شمس الدين أحمد اليكانى وكان من المدرسين أيضا . ومنهم عبد الرحمن بن محمد بن عمر الحلبى كان من أصحاب السلطان محمد الفاتح ، ونال عنده القبول التام ، ثم صدر منه ماغاظ السلطان فأبعده عن جنابه وقال : لولا أنه ابن أستاذى لدمَّرتهُ . ومات قاضيا فى كوتاهية . ومنهم المولى عبد الوهاب بن عبد الكريم كان حافظا لدفتر الديوان فى أيام سليم خان ، وتوفى فى زمان السلطان سليمان . ومنهم المولى يوسف الحميدى المشهور « بشيخ سنان » كان من العلماء المدرسين ، وله حواش على شرح المفتاح للسيد الشريف . ومنهم المولى جعفر بن التاجى وكان من أصحاب السلطان بايزيد وبلغ عنده حظوة تامة ، ثم غضب عليه وبقى الى زمان السلطان سليم فجعله قاضيا للعسكر ، ثم نكبه وقتله .

ومنهم المولى سعدى بن ناجي ودرّس مدة طويلة ، وكان متقنا للعربية يقرض

الشعر كأنه من فُصَحَاء العرب ، وله حواش على شرح المفتاح للسيد الشريف ، وقد نظم العقائد النسفية بالعربية نظما بليغاً .

ومنهم المولى محمود بن محمد بن قاضى زاده الرومى ، درس فى غاليبولى ، وفى أدرنة ثم جعله السلطان بايزيد من أصحابه ، وقرأ عليه العلوم الرياضية إذ كان لا يدانيه فيها أحد ، وفى زمان السلطان سليم بن بايزيد تولى قضاء عسكر الأناضول .

ومنهم المولى غياث الدين بن أخى العارف بالله آق شمس الدين ، قرأ على الخيالى وعلى خواجه زاده ، ودرّس بالمدرسة السيفيّة فى أنقرة ، ثم بالمدرسة الحسينية فى أماسيه ، ثم بالمدرسة الحلبية بأدرنة ، ثم بسلطانيّة بورسه ، ثم باحدى المدارس الثمان فى قسطنطينية ، ثم فى مدرسة ابى أيوب الأنصارى ، ومات سنة ثمان وعشرين وتسعمائة . ومنهم الشيخ مظفر الدين على الشيرازى ، قرأ فى بلاد العجم على صدر الدين الشيرازى ، والجلال الدوانى ، وارتحل الى بلاد الروم فأعطاه السلطان بايزيد مدرسة مصطفى باشا بالقسطنطينية ، ثم أعطاه إحدى المدارس الثمان ، ثم كُفّ بصره فتوطن مدينة بورسة . وكان شافعى المذهب ، وكانت له اليد الطولى فى العلوم العقلية والمنطق وعلم الكلام ، وكذلك فى الحساب والهيئة والهندسة ، وكان مع هذا صالحاً مؤثراً الفقر ، باذلا ماله للفقراء . ومنهم الحكيم شاه محمد القزوينى كان من تلاميذ الجلال الدوانى ومهر فى علم الطب ، وجاور مدة فى مكة المكرمة ، واستدعاه السلطان بايزيد الى استانبول ونال حظوة تامة عند ولده السلطان سليم ، ومات فى أيام السلطان سليمان القانونى لأن صاحب « الشقائق النعمانية » يقول : « ومات فى أيام سلطاننا الأعظم سلّمه الله تعالى وأبقاه » يريد به السلطان سليمان . وله حواش على شرح العقائد العضدية للدوانى ، وترجمة حياة الحيوان الى الفارسية ، وغير ذلك من التواليف ومنهم المولى السيد محمود ، كان نقيبا للاشراف فى زمان السلطان بايزيد ، وكان كريم الأخلاق ، طارحاً للتكلف ، مشتغلا بنفسه ، جواداً بماله . ومنهم المولى محيي الدين المشتهر « بطبل البازى » وكان مدرسا مشهورا . ومنهم المولى ابراهيم المشهور « بابن الخطيب» مات وهو مدرس فى بورسة . ومنهم المولى يحيي بن بخشى ، كان عالماً

واعظاً ، وكان يُقرىء الطلبة تفسير القاضى البيضاوى بلا مطالعة ، وله حواش على شرح الوقاية لصدر الشريعة . ومنهم كمال الدين اسماعيل القرامانى ، وكان من المدرسين الكبار ، وله تصانيف منها حواش على الكشاف ، وحواش على تفسير البيضاوى وحواش على شرح الوقاية لصدر الشريعة ، وحواش على شرح المواقف للسيد الجرجانى ومنهم المولى عبد الأول بن حسين الشهير « بابن أم الولد » قرأ على المولى خسرو الشهير ، وتزوّج بابنته ، وكان قاضياً فى البلدان الكبيرة ، ثم اعتقل لسانه فلزم بيته فى القسطنطينية ، ومات عن مائة سنة . ومنهم المولى شمس الدين احمد الأماسى كان مدرسا وتوفى فى أوائل سلطنة سليم خان . ومنهم علاء الدين على الآيدينى الملقب « باليتيم » وكان مدرسا زاهدا ، أرادوه على القضاء فلم يرض ، وكان يقرأ عشرين درسا فى اليوم ولا يأخذ أجرة من أحد ، و ربما قبل الهدية ، وكان راضياً من العيش بالقليل ، ومات عن تسعين سنة .

ومنهم المولى الشيخى ، كان مدرسا بمدرسة أبى أيوب الانصارى رضى الله عنه وأخذ عنه كثيرون . ومنهم المولى المعروف «بضميرى» أعطاه السلطان بايزيد إحدى المدارس الثمان ، فقال له المولى ابن المؤيد : إنه غير قادر على التدريس فيها ، فقال السلطان بايزيد : فليدرّس الشرح المتوسط للكافية لعلّه يقدر على ذلك . ومنهم عمر القسطمونى كان علامة بالقراآت . ومنهم علاء الدين على القسطمونى أخذ عن المولى عمر القراآت ، وأقرأها الطلاّب ، ومنهم ابن عمرزاده وكان أيضاً يعرف القراآت السبع وأقرأها للناس . ومنهم حسام المشهور «بابن الدلاك » كان خطيباً بجامع الفاتح فى القسطنطينية ، وكان عالماً صالحاً . ومنهم محيي الدين الطبيب جعله السلطان رئيساً للأطباء وأكرمه غاية الاكرام ، وكان عالما عابداً يحب المساكين ، وبعد موته جعل السلطان بايزيد مكانه الحكيم حاجى ، وكان السلطان يحب علاج الحكيم المذكور .

ومنهم محيي الدين محمد الأسكليبى ، وكان من رجال التصوف . وكان السلطان بايزيد أميراً على أماسية ، فذهب هذا الشيخ إلى الحج ولما ودع السلطان بايزيد قال له : سأراك بعد إيابى من الحجاز جالساً على سرير السلطنة ، فلما رجع من الحج كان

الأمر كما قال . فأحبه السلطان حبًّا جمًّا وبنى له زاوية فى القسطنطينية ، وكانت تزدحم فى بابه الوزراء وقضاة العساكر ، وكان يدعوه السلطان إلى مصاحبته فحصل له جاه عظيم ، لكنه لم يتغير طوره ، وبقي ملازماً الزهد والتقوى . ومنهم الشيخ مصطفى البروزى ، كان من خلفاء الشيخ الأسكليبي ، وكان عالما عابداً . ومنهم العارف بالله السيد « ولاية » من قصبة كرمستى فى الأناضول وكان شريفا صحيح النسب ، حج ثلاث مرات وكان فى غاية الورع . و يقال إن السلطان سليم عند ماطلب السلطنة فى أيام والده بايزيد وسلمه والده السلطنة ، التجأ إلى المشايخ الصوفية ، ومنهم السيد ولاية المذكور . فقال له السيد : ستصير سلطانا ولكن ليس فى عمرك امتداد . وهكذا كان لأن السلطان سليم لم يبق فى السلطنة أكثر من ثمانى سنوات . ومنهم الشيخ محيي الدين محمد الشهير « ببولولى شلبي » كان مدرسا ، ثم تصوف وصار مرشداً ومنهم شجاع الدين الشهير « بنيازى » وهو أيضا كان قاضيا ثم تصوف وترك الدنيا . ومنهم صفى الدين مصطفى ، وكان من الزهاد المرشدين . ومنهم الشيخ رستم خليفة البروسى كان ينتسب إلى الشيخ حاجى خليفة ، وكان عابداً متوكلا . ومنهم العارف بالله ابن على دَدَه خليفة العارف بالله ابن الوفاء ، وكان شيخاً عابداً زاهداً . ومنهم علاء الدين الأسود ، أخذ عن حاجى خليفة ، وكان متوجها إلى الله بكلّيته .

ومنهم السيد على بن ميمون المغربى الاندلسى ، جاء فى « الشقائق النعمانية » أنه أخذ عن ابن عَرَفة وعن الشيخ الدبّاسى ، وجاء إلى الشرق لأجل الحج ، ودخل مصر ثم الشام ، ثم جاء إلى بورسة ، ثم رجع إلى البلاد الشامية وتوفى بها سنة سبع عشرة وتسعمائة وكان على جانب عظيم من التقوى ، قوّالا بالحق ، وكان لا يخالف السنّة . فلا يقوم للزائرين ، وكان يقول : لو أتانى بايزيد بن عثمان لا أعامله إلا بالسنّة . وكان لايقبل الوظائف ولا هدايا الملوك . وجاء فى « شذرات الذهب » لعبد الحى ابن العماد الحنبلى ترجمة العارف بالله سيدى على بن ميمون فقال : إنه ابن ميمون بن أبي بكر بن على بن ميمون بن أبي بكر بن يوسف بن اسماعيل بن أبي بكر بن عطاء الله ابن حسّون بن سليمان بن يحيى بن نصر الهاشمى القرشى المغربى الغمارى أصله من

«جبل غمارة» وسكن مدينة فاس ، واشتغل بالعلم ثم درّس ثم وُلّى القضاء . ثم ترك ذلك ولازم الغزو على السواحل ، وكان رأس العسكر ، ثم ترك ذلك أيضا وصحب مشايخ الصوفية . منهم الشيخ عرفة القيرواني فأرسله الى أبى العباس احمد التوزى الدباسى ومن عنده توجه الى المشرق . قال الشيخ موسى الكناوى : فدخل بيروت فى أول القرن العاشر ، وكان اجتماع سيدى محمد بن عراق به أولا هناك .

ولما دخل بيروت استمر ثلاثة أيام لم يأكل شيئاً ، فاتفق أن ابن عراق قال لجماعته وقد أتوا بالطعام : ادعوا ذلك الفقير ، فقام السيد على وأكل ثم قال ابن عراق قوموا بنا نزور الامام الأوزاعى ، فصحبهم ابن ميمون فى أثناء الطريق لعب ابن عراق على جواده كعادة الفرسان ، فعاب عليه ابن ميمون . فقال له ابن عراق : أتحسن اللعب على الخيل أكثر منى ؟ قال : نعم فنزل ابن عراق عن فرسه فحلّ ابن ميمون الحزام وشكّهُ كما يعرف ، وركب ولعب على الجواد فعرفوا مقداره فى ذلك ، ثم انفتح الأمر بينهما إلى أن شهر الله تعالى سيدى على بن ميمون . وقال فى « الشقائق » : إنه دخل القاهرة وحج منها ، ثم دخل البلاد الشامية وربّى كثيراً من الناس ، إلى آخر ما نقل عن صاحب الشقائق . وقال ابن العماد الحنبلى : إنه كان من طريقته ما حكاه محمد بن عراق فى كتابه « السفينة » وهو أنه لا يرى لبس الخرقة ولا إلباسها وذكر الشيخ علوان أنه كان لا يرى الخلوة ولا يقول بها . ومن وصاياه اجعل تسعة أعشارك صمتا ، وعُشرك كلاما . وكان يقول : الشيطان له وحى وفيض ، فلا تغترّوا بما يجرى فى نفوسكم وعلى ألسنتكم من الكلام فى التوحيد والحقائق حتى تشهدوه من قلوبكم . وكان ينهى أصحابه عن الدخول بين العوام والحكام . ويقول : مارأيت لهم مثلا إلا الفأر والحيّات ، فان كلاًّ منهما مفسد فى الأرض ، وكان شديد الانكار على علماء عصره ، ومن كلامه : لا ينفع الدار إلا ما فيها . ومنه : لا تشتغل بأن تعد أموال التجار وأنت مفلس . ومنه : أسلك ماسلكوا تدرك ماأدركوا . ومنه : عجبت لمن وقع عليه نظر المفلح كيف لا يفلح . ومنه : كنزك تحت جدارك ، وأنت تطلبه من عند جارك . وله من المؤلفات شرح الجرومية على طريقة الصوفيّة ، وكتاب غربة

الإسلام فى مصر والشام وما والاهما من بلاد الروم والأعجام ، ورسالة لطيفة سماها «تنزيه الصدّيق عن وصف الزنديق » ترجم فيها الشيخ محيي الدين بن العربى ترجمة فى غاية الحسن والتعظيم .

وذكر ابن طولون أنه دخل دمشق فى أواخر سنة اثنتى عشرة وتسعمائة ، ونزل بحارة السكة بالصالحية ، وهرع الناس إليه للتبرك به . وقال محمد بن عراق فى « سفينته » إنه لم يشتهر فى بلاد العرب بالعلم والمشيخة والارشاد إلا بعد رجوعه من الروم إلى حماة سنة إحدى عشرة ، ثم قدم إلى دمشق سنة ثلاث عشرة وتسعمائة ، وأقام فى قدمته هذه ثلاث سنوات وخمسة أشهر وأربعة عشر يوما يربّى و يرشد ، و يدعو إلى الله على بصيرة ، واجتمع عليه الجمّ الغفير ، ثم دخل عليه قبْض وهو بصالحيّة دمشق واستمر ملازما له حتى ترك مجلس التأديب ، وأخذ يستفسر عن الأماكن التى فى بطون الأودية ورؤوس الجبال ، فذكر له محمد بن عراق « مجدل معوش » فهاجر إليها فى ثانى عشر محرم هذه السنة . قال سيدى محمد بن عراق : ولم يصحب غيرى والولد على ـ وكان سنه عشر سنين ـ وشخصا آخر عملاً بالسنة . وأقمت معه خمسة أشهر وتسعة عشر يوما ، وتوفى ليلة الاثنين حادى عشر جمادى الآخرة ودفن بها فى أرض موات بشاهق جبل حسبما أوصى به قال : ودفن خارج حضرته المشرفة رجلان وصبيّان ، وامرأتان ، وأيضا امرأتان و بنتان ، الرجلان محمد المكناسى ، وعمر الأندلسى ، والصبيّان ولدى عبد الله ـ وكان عمره ثلاث سنين ـ وموسى بن عبد الله التركمانى . والمرأتان أم ابراهيم و بنتها عائشة زوجة الذعرى ، والأخريتان ؛ مريم القدسية ، وفاطمة الحموية . وسألته عند وفاته أين أجعل دار هجرتى ؟ فقال : مكان يسلم فيه دينك ودنياك ثم تلا قوله تعالى (الذين تتوفاهم الملائكة) الآية .

قلت : قرية « مجدل معوش » هى فى قضاء الشوف من بلادنا فى جبل لبنان وكان أهلها مسلمين من أهل السنة ، ووقعت بينهم عداوة شديدة فخرجوا منها واشتراها النصارى وذلك منذ مائتى سنة . ولمّا دخلها السيد على بن ميمون المغربى كانت لاتزال قرية إسلامية ، و بقى قبر السيد من ذلك الوقت معروفا لا يجهله أهل القرية

وجاءنا مرة الخبر بأن بعض النصارى أرادوا استعمال ذلك القبر للدفن وكان في ذلك الوقت عمنا الأمير مصطفى أرسلان قائمقام قضاء الشوف فأخبرته بالخبر فأمر مدير ناحية العرقوب الشمالي التي منه تلك القرية بأن يتحقق هذا الامر و يمنع تعرض أحد للقبر ، ثم جمعنا إعانة مالية وأدى كل منا ما قدر عليه ، فبلغ المجموع مائة جنيه ذهب وجدّدنا القبر المذكور لأنه كان قد خرب تقريبا ، فخشينا بسبب خرابه أن يستعمله النصارى لدفن موتاهم .

و بلغ المرحوم الأمير على بن الأمير عبد القادر الجزائرى شروعنا ببناء هذا القبر فأراد أن يكون له حصة فى المثوبة ، فأرسل أيضاً شيئاً من المال وهكذا جددنا قبر الولى المشار إليه قدّس الله سرّه بعد نحو من أربعمائة سنة من وفاته وكان هذا العاجز السبب فى ذلك وأخمّن أن هذه القضية مضى عليها سبع وثلاثون سنة ، وقد أطلتُ فى ترجمة السيد على بن ميمون لكونه من أقمار أهل المغرب التى طلعت على المشرق ولكونى قمت له بخدمة قبره بعد دفنه بأربعة قرون ، والله على ذلك شهيد .

ثم نعود إلى ذكر العلماء الذين اشتهروا فى زمان السلطان بايزيد ، فمنهم العارف بالله الشيخ علوان الحميدى ، اتصل بخدمة السيد على بن ميمون وكان بحراً من بحار الحقيقة ، وكان شافعى المذهب ، توفى سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة . ومنهم الشيخ محمد الشهير « بابن عراق » كان من أولاد الأمراء الشراكسة ، وكان من طائفة الجند ، وكان صاحب ثروة وحشمة وافرة ، فترك كل هذا واتصل بخدمة السيد على ابن ميمون ، واشتغل عنده بالرياضة ، وكان عالماً زاهداً . وجاور مدة بعد وفاة ابن ميمون بالمدينة المنورّة ، ومات ودفن فيها . وأتذكر أنه يوجد فى بيروت زاوية منسوبة إلى ابن عراق . ومنهم « ابن صوفى » واسمه عبد الرحمن كان عالماً مدرساً ثم اتصل بالسيد على بن ميمون وصار من تلاميذه ، ولما ذهب السيد إلى الشام بعد أن سكن مدة فى بورسة نصبه خليفةً له فى بلاد الروم . ومنهم المولى اسماعيل الشروانى قرأ على جلال الدين الدوانى ، وخدم العلم طول حياته ، وتوطّن أخيراً فى مكة المكرمة ومات فيها . ومنهم الشيخ بابا نعمة الله ، وكان من السادة الصوفية ، سكن بقصبة

آق شهر وتوفي بها . ومنهم الشيخ محمد البدخشي كان زاهداً متجرداً من علائق الدنيا ، ثم ذهب إلى دمشق وسكن بها ، ولما دخل السلطان سليم دمشق زار هذا الشيخ مرتين : ففي المرة الأولى جلسا صامتين ، وسئل السلطان سليم عن ذلك فقال : فتح الكلام ينبغي أن يكون من العالي ، ولا علوّ لي عليه وقد تأدب الشيخ هو أيضاً واختار الصمت تنزُّلاً منه . وأما في الزيارة الثانية فقال الشيخ البدخشي للسلطان : كلانا عبداً لله تعالى ، وإنما الفرق هو أن ظهرك ثقيل من أعباء الناس ، وظهري أنا خفيف ، فاجتهد أن لاتضيّع أمتعتهم . ومات البدخشي بدمشق سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة . ومنهم السيد احمد البخاري الحسيني ، جاء من بخارى إلى بلاد الروم ، وصحب الشيخ الالهي ، وكان من أشد الناس ورعا ، وتعلق به الناس كثيراً وتركوا المناصب ، واختاروا خدمته ، فبنى مسجداً وحجرات حوله للطالبين وذلك في القسطنطينية ، وكان مجلسه في غاية الوقار ، تجلس فيه الناس كأن على رؤوسهم الطير ، ولا تجري في مجلسه كلمات دنيوية أصلا ، وكانت طريقته العمل بالعزيمة وترك البدعة ، واتباع السنة ، وإقامة الصلاة ، والانقطاع عن الناس ، والمداومة على الذكر الخفيّ ، والعزلة عن الأنام ، وقلة الكلام والطعام ، وإحياء الليالي وصوم الأيام . مات سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة .

ومنهم الشيخ مصلح الدين الطويل ، أصله من كرة النحاس من ولاية قسطموني كان من المشتغلين بالعلم ، ثم التحق بالشيخ الالهي واشتغل بالتصوف . ومنهم عابد شلبي من ذرية مولانا جلال الدين الرومي ، كان قاضياً ثم ترك القضاء واتصل بالشيخ الالهي وبنى مسجداً في القسطنطينية ، وحوله حجرات للفقراء . ومنهم الشيخ لطف الله الأسكوبي . وهو ممن اتصل أيضاً بالشيخ الالهي ، وكان في الآخر زاهداً ناسكا ساكناً على جبل من جبال أسكوب ، منقطعاً عن الدنيا . ومنهم بدر الدين بابا وكان أيضا من جماعة الشيخ الالهي ، ثم منهم علاء الدين خليفة ، وكان أولا من طائفة الجند ثم اقتدى بالشيخ علاء الدين أبدال ورووا عنه الكرامات وبنى زاوية بالقسطنطينية ومن هذا النمط الشيخ سليمان خليفة وبنى زاوية أيضاً . ومنهم الشيخ

سونديك الشهير « بقورجي دده » ومنهم العارف بالله ابن الامام من السادة الصوفية من أهل آيدين . ومنهم الشيخ صلاح الدين الازنيقى كان من مريدى شيخى خليفة ومنهم الشيخ بايزيد خليفة ، وكان عالماً متصوّفاً سكن بمدينة أدرنة . ومنهم الشيخ سنان الدين يوسف المعروف « بسنبل سنان » وكان مرشداً مربياً ، وعلى جانب من العلم . ومنهم الشيخ جمال الدين القرامانى المعروف « بجمال خليفة » جاء من بلاد قرامان إلى القسطنطينية وكان مربياً مرشداً ، وتاب على يده كثيرون .

وقال صاحب « الشقائق النعمانية » : إنه عاده فى مرض موته وطلب منه الوصية فقال له : لا تسلك مسالك الصوفيّة ، إذ لم يبق لها اليوم أهل . وقال : التوحيد والالحاد يصعب التميز بينهما ، فالوقوف على طريقتك أسلم . ثم قال له : فان غلب عليك خاطرك بالميل إلى التصوف فاختر من المشايخ من كان ثابت القدم فى الشريعة وإن رأيت فيه شيئا يخالف الشرع ولو قليلا فاحترز منه ، فان مبنى الطريقة رعاية الأحكام الشرعية . ومنهم الشيخ داود من قصبة مدرنى ، وكانت تروى عنه الكرامات . ومنهم الشيخ قاسم شلبى ، وكان متصوّفا جلس فى زاوية الوزير على باشا فى القسطنطينية ومنهم الشيخ رمضان كان من أتباع طريقة الحاج بيرم ، وكان مرشدا كبيراً . ومنهم الشيخ بابا يوسف السفر حصارى ، وكان منتسبا إلى هذه الطريقة ولما بنى السلطان بايزيد جامعه بالقسطنطينية حضر للصلاة فى أول جمعة بعد بنائه ، وصعد الشيخ بابا يوسف المنبر ووعظ الناس فحصل لكلامه تأثير عظيم فى السامعين ، وكان بعض النصارى يستمعون من خارج الجامع فأسلم منهم ثلاثة ففرح السلطان بايزيد بذلك وأنعم عليهم وصار السلطان يحب هذا الشيخ كثيراً وعند ماذهب الشيخ للحج أعطاه السلطان مقداراً من الذهب وقال له : هذا المال حصل لى من كسب يدى ، وأوصاه أن يجعله فى قنديل الصدقات فى التربة المطهرة بالمدينة وأن يقول عند التربة المطهرة : يا رسول الله إن راعى أمتك العبد المذنب بايزيد يقرئك السلام ، وأرسل هذا الذهب الحاصل من طريق الحلال ليصرف إلى زيت قنديل تربتك ، وتضرع إليك أن تقبل صدقته . ففعل الشيخ ما أمره به السلطان ، وكانت وفاة هذا الشيخ فى أوائل

سلطنة سليم خان ، ودفن فى جوار أبى أيوب الأنصاري عليه رحمة البارى .

ولما جلس السلطان سليم بن بايزيد على كرسى السلطنة ، وذلك فى الثانى عشر من صفر سنة ثمان عشرة وتسعمائة ، طلب الانكشارية زيادة رواتبهم ، فاضطر أن يرضيهم لأنهم كانوا السبب فى سلطنته ، وزاد الرسوم المضروبة على البضائع الواردة إلى بلاده ، رفعها من ثلاثة فى المائة إلى خمسة . وكان الأمير احمد أمير أماسيه استقل واستولى على بورسة ، واتفق مع مصطفى بك والى أنقره . فرأى السلطان سليم أن لا بد من قتل إخوته ، ولما وقع أخوه « قورقوت » فى يده قتله . وكذلك زحف إلى قتال أخيه أحمد ، فتلاقيا فى صحراء ينى شهر فكانت الطائلة للسلطان سليم ووقع احمد فى يد أخيه فقتله أيضاً فاتسق له الأمر ، وأرسلت الدول المجاورة تهنيه ما عدا الشاه اسماعيل سلطان العجم ، فكان هواه مع الأمير أحمد . وقد بلغ الشاه اسماعيل فى زمانه أقصى درجات القوة ، وكان فى يده جميع فارس ، وخراسان ، والعراق العربى ، وكردستان ، وديار بكر – أى من الفرات إلى سيحون وجيحون – فكانت الدولة الصفوية فى أوج مجدها . وكانت دولة شيعية خالصة ، وقد أخذت تبث التشيع فى البلاد العثمانية . فثار غضب السلطان سليم وزحف بمائة وثمانين ألف مقاتل ، فصار جيش شاه اسماعيل ينكصُ إلى الوراء ولا يقاتل ، فوصل العثمانيون إلى تبريز فاعتصم الايرانيون بأعالى الجبال المشرفة على صحراء « تشالديران » فقبل أن أصلاهم السلطان سليم نار الحرب عقد مجلساً حربياً ، فأشار الوزراء بإراحة العسكر أربعا وعشرين ساعة بالأقل ، وخالفهم فى ذلك پيرى باشا قائلا : تجب المناجزة فى الحال . فأعجب رأيه السلطان سليم وهجم على الايرانيين وتغلّب عليهم بواسطة مدافعه ، ووقع فى يد السلطان أثقال الشاه اسماعيل وأمواله مع حرمه ، وعدد كبير من الأسرى فأمر بقتل الجميع ما عدا النساء والأولاد .

وأراد السلطان سليم أن يشتو تلك السنة فى تبريز ، وأن يزحف في أول الربيع إلى فارس ، ولكن الانكشارية كانوا قد ملوا القتال والسفر ، وأصبحوا يريدون الرجوع . فعاد بهم إلى أماسيه ، وقيل إنه رجع لفقد القوت والعلوفة فى بلاد العجم

لأن الشاه اسماعيل كان قد خرب البلاد . ثم أرسل الشاه اسماعيل يطلب من السلطان سليم زوجته التى وقعت فى الأسر فى معركة « تشالديران » فرفض السلطان تسليمها إليه ، وأزوجها من وزيره جعفر شلبى . ثم ان الانكشارية ثاروا مرة ثانية في أماسية وأجبروا السلطان على الرجوع إلى القسطنطينية ، فأراد السلطان الانتقام من رؤسائهم ، وقتل اسكندر باشا ، وسقبان باشى عثمان ، وقاضى العسكر جعفر شلبى .
ثم إن بلاد كردستان كانت بعد واقعة « تشالديران » دخلت فى حوزة السلطان وجاء جيش من قبل الشاه اسماعيل يسترجع ديار بكر ، فهزمهم العثمانيون واستولوا على « حصن كيفا » و « سنجار » و « بيرجك » و «الموصل» . ثم فكر السلطان سليم فى فتح بلاد العرب ، فزحف إلى « حلب » وجاء من مصر السلطان قانصوه الغورى وكان شيخاً كبيراً بلغ سنّ الثمانين ، إلا أنه كان عالى الهمة ، فتلاقى مع السلطان سليم فى مرج دابق عند حلب ، وكانت مدافع العثمانيين جملت الرجحان فى جانبهم وانحاز جانب من جماعة قانصوه الغورى إلى السلطان سليم ، ومن هؤلاء «جان بردى» الغزالى و « خير بك » الجركسيان ، وكان معهما أمراء لبنان .

وكان الملك الأشرف قانصوه الغورى أمر الغزالى وخير بك أن يتقدماه أمام الجيش أملاً بأن يقتلا لوحشة كانت بينه و بينهما ، فراسلا السلطان سليما واتفقا معا وانحازا إلى جيشه ومعهما جمٌّ من رجال الجيش المصرى ومعهما أمراء لبنان منهم الامير « فخر الدين المعنى » والامير « جمال الدين الأرسلانى » وهو جدنا على عمود النسب والأمير «عساف التركمانى» ولما دارت المعركة كان النصر للسلطان سليم وقتل الغورى فى المعركة . وكانت هذه الواقعة سنة ١٥١٦ وقيل ١٥١٥ وهو الأصح . فدخل بعده السلطان سليم حلب . ثم دمشق بدون قتال . وقيل إن السلطان سليم صلى الجمعة فى جامع سيدنا زكريا فى حلب فخطب الخطيب ودعا له بالنصر ولقبه « سلطان البرين والبحرين . وصاحب الحرمين الشريفين » فأمر السلطان بأن يقال « خادم الحرمين الشريفين » وسجد شكراً لله .

ولما مر بحماة نزل فى دار آل الكيلانى السادة المشهورين من ذرية السيد

عبد القادر الكيلانى ، ورأيت بعينى الغرفة التى بات فيها وهى مطلة على نهر العاصى وأنعم السلطان على آل الكيلانى وأكرمهم . وكان شاعراً أديبا . فأطربه مركز حماه وأعجبه ماهم عليه السادة الكيلانيّة من الوجاهة والكرم فنطق لسانه بهذين البيتين :

بنى كيلان هُنّئتم بعيش أرى من دونه السبع الطباقا
أطاع لديكموا العاصى ولما تشرف بالجوار حلا وراقا

رواهما لى السيد عبد القادر حسنى الكيلانى كبير هذه الأسرة الشريفة اليوم .

وجلس على كرسى مصر بعد قتل الغورى « طومان بك » واستعد للقتال فزحف السلطان سليم إلى مصر واشتبكت معركة من أشد المعارك المعروفة فى التاريخ ولكن الأتراك بسبب مدافعهم تغلبوا على المماليك . ودخل السلطان سليم الى القاهرة وانهزم طومان بك بعد أن ألحق بالعثمانيين خسائر عظيمة ، ولم يقع طومان بك فى المعركة أسيرا ، بل انحاز بمن بقى معه الى الريف ، وشرع يهاجم العثمانيين . فأرسل السلطان يعرض عليه الصلح فأبى المماليك الصلح ، فزحف السلطان إليهم . وفى هذه الوقعة أخذ طومان بك أسيراً ، وشنقه السلطان وعاقه على باب القاهرة وذلك سنة ١٥١٧ فى ١٣ ابريل وبعد ذلك دخل الحجاز تحت حماية الدولة العثمانية . ويقال إن السلطان سليم كتب بيده على عمود المقياس الذي على شاطىء النيل هذين البيتين :

الملك لله من يظفر بنيل منى يردده حقا ويضمن بعده الدركا
لو كان لى أو لغيرى قيد أنملة فوق التراب لكان الأمر مشتركا

وقد ظن بعض المؤرخين أن هذين البيتين هما من نظمه لأنه كان شاعرا بليغا بالعربية والتركية والفارسية ، ولكننا وجدنا هذين البيتين فى لزوميات المعرى ، فيكون السلطان قد استشهد بهما .

ثم إنه بعد أن استودع إدارة مصر خير بك ، رجع إلى سورية وأخذ بتنظيم إدارتها ، وكان نشاط هذا السلطان غير معهود المثال ، وتوقد ذهنه فوق الخيال .

وكان محباً للعلماء والأدباء ، مغرماً بالعلم والعرفان . وكانت همته أعلى ما عهد في همم الرجال ، وكان يتنكر ويخرج متنكراً فيختلط بالشعب ليطلع على حقائق الاحوال ويعرف ممن تشكو الرعايا فيقتص من العمال الذين يتحقق خروجهم عن جادة العدل ولم يكن فيه عيب يذكر سوى شدة ميله إلى سفك الدماء ، وكم قتل من إخوته ووزرائه وعمّاله ، ولم يكن يجرؤ عليه إلا المفتى الجمالى ، الذى يلقبه الاتراك « بزنبيللى على افندى » لأنه كما تقدم الكلام كان عنده زنبيل معلق يضع فيه السائل سؤاله ويحركه فيجذبه الشيخ ويخرج منه السؤال ويجيب عليه ويعيده بالزنبيل الذى يسقط إلى أسفل فيؤخذ الجواب منه .

ويقال إن السلطان سليم أراد حمل النصارى الذين فى المملكة على الاسلام جميعاً ، أو يخرجوا من البلاد ، فعارضه زنبيللى على افندى — أى المفتى الجمالى — وقال له : لا يحل لك ذلك ، وليس لنا إلا أن نأخذ منهم الجزية والطاعة . ويروى الناس بالتواتر شيئاً آخر ، وهو أن السلطان سليم أراد أن يجعل العربية لساناً رسمياً للدولة فعارضه الأتراك فى ذلك ، ولم أطلع على هذه الرواية فى الكتب ولكن الناس يتناقلونها كثيراً والله أعلم .

فأما قضية حمل النصارى الذين فى المملكة على قبول الاسلام أو الرحيل منها فهو مروى بالتواتر ، وفى الكتب أيضاً فيكون قد ثبت أن الشريعة الاسلامية بعدالتها وأمانتها هى التى حفظت المسيحيين فى السلطنة العثمانية أيام كان السلطان يقدر أن ينفذ جميع ما يريده بهم ، ولذلك نجد ملاحدة الترك ينتقدون دائماً العمل بالشرع الاسلامى بحجة كونه السبب فى بقاء النصارى فى السلطنة العثمانية ، وأن بقاءهم كان السبب فى ضعف تركية ، فملاحدة الترك يجعلون الشرع الاسلامى مذنباً فى تهيئة الخطر السياسى الذى أصاب تركية ، ولذلك لما استولوا على الحكم بعد الحرب العامة أخرجوا جميع النصارى من تركية ، ولم يبق إلا النصارى الذين في القسطنطينية فقط لأن الدول فى مؤتمر لوزان لم توافق على إخلاء القسطنطينية من النصارى تماما ، وتقرر بمقابلتهم إبقاء مسلمى تراقية الغربية فى بلاد اليونان .

ومن العجب أننا نرى الأوروبيين يعملون بكل قوتهم لمحو الشريعة الاسلامية التي في ظلها ــ و بسببها لاغير ــ بقي النصارى في جميع الممالك الاسلامية ، وفي السلطنة العثمانية ، متمتعين بجميع الحقوق التي يتمتع بها المسلمون منذ ظهور الاسلام إلى يوم الناس ، هذا وكان نصارى البلاد العثمانية بضعة عشر مليون نسمة ، ومن العجب أننا نراهم مع ذلك يفضلون أن تكون الحكومات الاسلامية ملحدة ، ولو كانت تخرج جميع النصارى من بلادها ، وهذا أقصى مايتصوره العقل من التحامل والتعصب على الاسلام ! ! يكرهونه ولو حفظهم ، و يحبون زواله ولو كان في ذلك زوالهم ! .

هذا ومات السلطان سليم في ٢٢ سبتمبر سنة ١٥٢٠ فلم يقم في السلطنة أكثر من ثماني سنوات ، ولو طالت مدة هذا الرجل العظيم على كرسي هذه السلطنة العظمى لَمَا عرف أحد إلى أية درجة من الشوكة والبسطة كانت تنتهي السلطنة العثمانية ؟ !

وجاء في « شذرات الذهب » عن السلطان سليم ما يأتي :

وفي سنة ست وعشرين وتسعمائة توفي السلطان سليم بن أبي يزيد بن محمد السلطان المفخم ، والخاقان المعظم ، سليم خان بن عثمان تاسع ملوك بني عثمان . هو من بيت رفع الله على قواعده فسطاط السلطنة الاسلامية ، ومن قوم أبرز الله تعالى لهم ما ادخره من الاستيلاء على المدائن الايمانية ، رفعوا عماد الاسلام ، وأعلوا مناره وتواصوا باتباع السنة المطهرة ، وعرفوا للشرع الشريف مقداره ، وصاحب الترجمة منهم هو الذي ملك بلاد العرب ، واستخلصها من أيدي الشراكسة بعد ما شتت جمعهم فانفلّوا عن مليكهم ، وجدوا في الهرب . ولد بأماسية في سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة وجلس على تخت السلطنة وعمره ست وأربعون سنة بعد أن خلع والده نفسه عن السلطنة وسلّمها إليه ، وكان السلطان سليم مالكا قهاراً ، وسلطانا جباراً ، قويّ البطش ، كثير السفك ، شديد التوجّه إلى أهل النجدة والبأس ، عظيم التجسّس عن أخبار الناس ، وربما غيّر لباسه وتجسّس ليلا ونهاراً ، وكان شديد اليقظة والتحفّظ يحب مطالعة التواريخ وأخبار الملوك ، وله نظم بالفارسية والرومية والعربية ، منه ماذكره

القطب الهندى المكّى أنه رآه بخطه فى الكشك الذى بنى له بروضة المقياس بمصر ونصه

الملك لله من يظفر بنيل غنى يردده قسراً ويضمن عنده الدَّركا
لو كان لى أو لغيرى قيد أنملة فوق التراب لكان الأمر مُشْتَرَكا

قال الشيخ مرعى الحنبلى فى كتابه « نزهة الناظرين » : وفى أيامه تزايد ظهور شأن اسماعيل شاه ، واستولى على سائر ملوك العجم ، وملك خراسان ، وأزربيجان وتبريز ، وبغداد ، وعراق العجم ، وقهر ملوكهم ، وقتل عساكرهم ، بحيث قُتِل ما يزيد على ألف ألف ! ! وكان عسكره يسجدون له ، ويأتمرون بأمره ، وكان يدّعى الربوبية . وقتل العلماء ، وأحرق كتبهم ، ونبش قبور المشايخ من أهل السنة وأخرج عظامهم وأحرقها ، وكان إذا قتل أميراً أباح زوجته وأمواله لشخص آخر فلما بلغ السلطان سليم ذلك تحركت همته لقتاله ، وعد ذلك من أفضل الجهاد ؛ فالتقى معه بقرب تبريز بعسكر جرّار ، وكانت وقعة عظيمة ، فانهزم جيش اسماعيل شاه واستولى سليم على خيامه ، وأعطى الرعية الأمان ، ثم أراد الاقامة بالعجم للتمكن من الاستيلاء عليها فما أمكنه ذلك لشدة القحط ، بحيث بيعت العليقة بمائة درهم ، والرغيف بمائة درهم ، وسببه تخلف قوافل الميرة التى كان أعدّها السلطان سليم ، وما وجد في تبريز شيئاً . لأن اسماعيل شاه عند انهزامه أمر باحراق أجران الحَبّ فاضطر سليم للعود إلى بلاد الروم .

وفى أيامه كانت وقعة الغورى ، وذلك أن سليم لما رجع من غزو اسماعيل شاه تفحص عن سبب انقطاع قوافل الميرة عنه ، فأخبر أن سببه سلطان مصر قانصوه الغورى ، فانه كان بينه وبين اسماعيل شاه محبة ، ومراسلات وهدايا ،فلما تحقق سليم ذلك صمم على قتال الغورى أولا ، ثم بعده يتوجه لقتال اسماعيل شاه ثانيا ، فتوجه بعسكره إلى جهة حلب سنة اثنتين وعشرين كما تقدم ، فخرج الغورى بعساكر عظيمة لقتاله ، ووقع المصاف بمرج دابق شمالى حلب ، ورمى عسكر سليم عسكر الغورى بالبندق ، ولم يكن فى عسكر الغورى شىء منه ، فوقعت الهزيمة على عسكر الغورى بعد أن كانت النصرة له أولا ، ثم فقد تحت سنابك الخيل ، وكان ذلك بِمُخَامرة

خير بك والغزالى ، بعد أن عهد إليهما السلطان سليم بتوليتهما مصر والشام .

ثم بعد الوقعة أخليا له حلب لأنهما معه فى الباطن ، فأقبل سليم إلى حلب فخرجوا للقائه يطلبون الأمان ومعهم المصاحف يتلون جهاراً (وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى) فقابلهم بالاجلال والاكرام . ثم حضرت صلاة الجمعة فلما سمع الخطيب خطب باسمه وقال : « خادم الحرمين الشريفين » سجد لله شكراً على أن أهّله لذلك ثم ارتحل للشام بعد أن أخلاها له خير بك والغزالى ، فخرجوا للقائه ودعوا له فأكرمهم وأقام بها لتمهيد أمر المملكة . وأمر بعمارة قبة على الشيخ محيي الدين بن عربي بصالحية دمشق ، ورتّب عليها أوقافا كثيرة ، ثم توجه إلى مصر فلما وصل إلى خان يونس بقرب غزة قُتل فيه وزيره حسام باشا .

ثم لما دخل مصر وقع بينه وبين « طومان باى » سلطان الجراكسة حروب يطول ذكرها ، وقتل بها وزير سليم يوسف سنان باشا ، وكان مقداما ذا رأي وتدبير فأسف سليم عليه بحيث قال : أى فائدة فى مصر بلا يوسف ؟! وقاتل طومان باى ومن معه من الأمراء قتالا شديدا ، وظهر لطومان باى شجاعة قوية عُرِف بها وشهد له بها الفريقان ، وأوقع الفتك بعسكر السلطان سليم ، ولولا شدة عضده بخير بك والغزالى ومكيدتهما ما ظفر بطومان باى . ثم لما ظفر به أراد أن يكرمه ويجعله نائباً عنه بمصر ؛ فعارضه خير بك وخاف عاقبة فعله ، وقال لسليم : إنك إن فعلت ذلك استولى على السلطنة ثانياً ، وحسّن له قتله فقتله وصلبه بباب زويلة ، ودفنه كما أسلفنا .

ونزل السلطان سليم بالمقياس مدة إقامته بمصر بعيداً عن روائح القتلى ، وحذرا من المكيدة إلى أن مهدها ، ثم ولى خير بك أمير الأمراء على مصر ، وولى الغزالى على الشام ، وولّى بمصر القضاة الأربعة وهم ؛ قاضى القضاة كمال الدين الشافعى وقاضى القضاة نور الدين على بن يس الطرابلسى الحنفى ، وقاضى القضاة الدميرى المالكى ، وقاضى القضاة شهاب الدين أحمد بن النجّار الحنبلى ، واستولى على الأرض الحجازية وغيرها ، ورتب الرواتب ، وأبقى الأوقاف على حالها ، ورتب لأهل

الحرمين فى كل سنة سبعة آلاف إردب حَبّ . ثم عاد إلى القسطنطينية وقد صرف غالب خزائنه ، فأخَّرَ السفر إلى بلاد العجم ليجمع ما يستعين به على القِتال ، فظهر له في ظهره جَمرة منعته الراحة ، وعجزت فى علاجها حذّاق الأطباء ، ولا زالت به حتى حالت بينه و بين الأمنية فتوفى رحمه الله فى رمضان ـ أو شوال ـ بعد علة نحو أر بعين يوما . وذكر العلائى فى تاريخه «أنه خرج من القسطنطينية إلى جهة أدرنه وقد خرجت له تلك الجمرة تحت إبطه وأضلاعه ، فلم يفطن بها حتى وصل الى المكان الذى بارز فيه أباه أبا يزيد حين نازعه فى السلطنة ، فطلب له الأطباء فلم يدركوه إلا وقد تأكّلت و وصلت إلى الأمعاء ، فلم يستطيعوا لها دفعا ولا نفعا ، ومات بها ودفن بأدرنة عند قبر أبيه » . انتهى ملخصاً .

قلت : ونبغ من العلماء فى عصر السلطان سليم المولى شمس الدين احمد بن سليمان ابن كمال باشا ، وكان جدّه من أمراء الدولة العثمانيّة ، ونشأ فى حجر العزّ والدلال ثم غلب عليه حب العلم والكمال فاشتغل بتحصيل العلم ليلاً ونهاراً ، و بعد أن مهر في العلوم تولى التدريس ، وانتقل من مدرسة الى مدرسة ، ثم تولى قضاء العسكر ، ثم تولى الإفتاء فى القسطنطينية بعد وفاة زنبيللى على أفندى ، ومات وهو فى الإفتاء سنة أر بعين وتسعمائة . وله تصانيف كثيرة منها حواشى على الكشاف ، وله كتاب فى الفقه متن وشرح سماه «الإصلاح والإيضاح» ، وله كتاب فى الأصول متن وشرح وله كتاب فى علم الكلام متن وشرح ، وله كتاب فى الفرائض متن وشرح ، وله حواشى على شرح المفتاح للسيد الشريف ـ ومَن مِن فحول علماء الأتراك لم يكتب حواشى على كتب السيد الشريف ـ وله تآليف فى التركية والفارسية ، ومن جملة كتبه التركية تاريخ لآل عثمان . ومنهم المولى عبد الحميد بن على ، وقرأ فى بلاد العرب ثم فى بلاد العجم ، ثم جاء الى بلاد الروم وسكن ببلدة قسطمونى . ولما جلس السلطان سليم على سرير السلطنة اتخذه إماما لنفسه ، ومات بصحبة السلطان بمدينة دمشق بعد قفول السلطان من مصر . ومنهم المولى محيي الدين محمد شاه بن على بن يوسف بالى بن شمس الدين الفنارى ، وهم بيت علم كابرا عن كابر ، وتولى التدريس مدة

طويلة ، ثم استقضى بالقسطنطينية ، ثم تولى قضاء العساكر . ومنهم المولى محيي الدين محمد بن علي بن يوسف بن شمس الدين الفناري ، ودرّس مدة طويلة ، واستقضى بالعسكر المنصور ، وكان عالما ورعاً ، مدققا محتاطاً فى معاملاته مع الناس ، محبا للفقراء والصلحاء ، قال صاحب « الشقائق » : كان رحمه الله علامة فى الفتوى ، وآية كبرى فى التقوى .

ومنهم محيي الدين محمد بن علاء الدين على الجمالى المتقدم الذكر ، وهم بيت علم وفضل ، تولى التدريس ثم القضاء ، وكان من ذوى الطريقة الحسنة . ومنهم محمد شاه بن محمد بن الحاج حسن ، وتولى التدريس مدة طويلة ، وله تواليف منها شرح على مختصر القدورى . ومنهم المولى حسام الدين حسين بن عبد الرحمن ودرّس فى أكثر المدارس المشهورة ، ثم تولى القضاء . ومنهم مصلح الدين مصطفى بن خليل والد « صاحب الشقائق » ولد سنة فتح القسطنطينية ـ أى سنة سبع وخمسين وثمانمائة وكانت ولادته ببلدة « طاش كوبرى » . وأخذ عن علماء كثيرين ، وأشهرهم خواجه زاده ، وتولى التدريس تارة فى أنقرة ، وتارة فى بورسة ، وطورا فى أسكوب وطورا فى أدرنه ، ثم جعله السلطان بايزيد معلما لابنه السلطان سليم ، ثم استقضاه السلطان سليم بمدينة حلب ، ثم استعفى من القضاء ورجع الى التدريس ، وكان زاهداً عابداً صاحب أدب ووقار فيما يروى عنه ولده ، وقال : إنه لم يسمع منه كلمة فيها رائحة الكذب ، ولا كلمة فيها فحش ، وكان طاهر الظاهر والباطن ، وكانت أكثر براعته فى الحديث ، والتفسير ، وأصول الفقه ، والعلوم الأدبيّة . ولم يتبحّر فى المعقول . وله عدة تصانيف . ومنهم قوام الدين قاسم بن خليل ، وهو أخو المترجم السابق ، وكان مدرسا كبيرا ، وكانت أكثر مهارته فى العلوم الأدبية ، والعقليّة . ومنهم عبد الواسع بن خضر من أولاد الامراء أصله من بلدة «ديموطقة» فى الروملى وارتحل إلى بلاد العجم وخراسان ، وقرأ على شيخ الاسلام حافد العلامة التفتازانى حواشى شرح المطالع ، وحواشى شرح العضد للسيد الشريف ، ثم رجع إلى بلاد الروم فى أواخر سلطنة بايزيد ، وفى زمان السلطان سليم تولى التدريس ، وفى زمان

السلطان سليمان القانونى تولى قضاء العساكر ، وبعد أن بقى مدة فى القضاء و بنى مدارس ومكاتب ؛ ارتحل إلى مكة المكرمة واعتزل الناس ، وعكف على العبادة إلى أن مات سنة خمس وأربعين وتسعمائة .

ومنهم عبد العزيز بن يوسف بن حسين الحسينى الشهير « بعابد شلبى » وكان مدرساً ثم تولى القضاء . ومنهم عبد الرحمن بن يوسف بن حسين الحسينى ، وكان أيضاً مدرساً ثم انقطع عن الخلق لأجل العبادة . ومنهم پير احمد شلبى الآيدينى وكان من المدرسين الكبار . ومنهم محيي الدين محمد بن الخطيب قاسم ، وكان مدرساً وتولى تعليم الأمير احمد بن السلطان بايزيد ، وكان عالماً أديباً عابداً ورعاً ، وكان ينظم الشعر العربى والتركى ، ويحفظ المحاضرات والتواريخ . ومنهم زين الدين محمد بن محمد شاه الفنارى ، وكان عالما فاضلا خدم العلم الشريف مدة طويلة مع التقوى والورع ومنهم المولى داود بن كمال القوجوى ، وكان مدرساً كبيراً ، وله اليد الطولى فى العلوم العقلية . ومنهم بدر الدين محمود الشهير « ببدر الدين الأصغر » وكان أيضا من المشتغلين بالعلوم العقلية ، و بعلم الحديث أيضاً . ومنهم المولى نور الدين حمزة ، وكان من الفقهاء ولكنه كان حريصاً على جمع المال ، و بنى بماله مسجداً بالقسطنطينية وحجرات لسكنى العلماء . قال له الوزير ابراهيم باشا : إنك تحب المال فكيف صرفت هذه الأموال فى الأوقاف ؟ قال : هذا من غاية محبتى للمال ؛ حيث لا أرضى أن أخلّفه فى الدنيا ، وأريد أن يذهب معى إلى الآخرة . ومنهم المولى محيي الدين محمد البردعى وكان بارعاً فى العلوم العربيّة ، وصاحب أخلاق ، وله تصانيف . ومنهم محمود الشهير « بابن المجلد » وكان عالما زاهداً ، وتوفى فى أوائل سلطنة سليمان القانونى . ومنهم محيي الدين محمد بن يوسف بن يعقوب الملقب « باجه زاده » وكان من المدرسين ، ثم صار من القضاة فى زمان السلطان سليم . ومنهم محيي الدين محمد المشهور « بشيخ شاذلو » وكان من العلماء العابدين . ومنهم سنان الدين يوسف بن علاء الدين اليكانى كان مدرسا ثم صار قاضيا ، وفى زمان السلطان سليم تولى قضاء دمشق وله حواشى على شرح المواقف للسيد الجرجانى . ومنهم پير احمد بن نور الدين حمزة ، درّس فى أشهر

المدارس ثم تولى القضاء وصار قاضيا بمصر مرتين . ومنهم المولى باشا شابي اليكانى بقى مدة فى التدريس ، وله حاشية على شرح المفتاح للسيد الشريف . ومنهم باشا شابي بن زيرك ، وكان من المدرسين المعروفين . ومنهم محيي الدين بن زيرك استقضى فى عدة من البلدان . ومنهم عبد العزيز حفيد المولى المشهور « بابن أم الولد » وكان من العلماء الأدباء . ومنهم محيي الدين محمد بن مصلح الدين القوجي ، وكان عالما زاهدا ، وانتفع به خلق كثير ، وله عدة تصانيف .

ومنهم الشريف عبد الرحمن العباسى ، ولد بمصر ومهر في العلوم الأدبية ، وجاء إلى القسطنطينية فى زمن بايزيد خان ورجع إلى مصر ، ثم لما انقرضت دولة السلطان الغورى عاد إلى القسطنطينية . وتوفى سنة ثلاث وستين وتسعمائة ، وقد عاش نحواً من مائة سنة ، وله كتاب « معاهد التنصيص فى شرح شواهد التلخيص » وهو شهير . وقرأته أول مرة فى استانبول منذ ٤٥ سنة أعارنيه قبل أن اقتنيته الشريف عبد الاله باشا أمير مكة سابقا رحمه الله ، فوجدت الشيخ محمد بن التلاميذ الشنقيطي المعروف بالشنقيطى الكبير قد قرأ هذه النسخة ، وقرأت تعقيبات له على المؤلف من جملتها أنه ذكر احمد بن خلف ، وذكر أنه قُتل ، فقال الشنقيطى فى الهامش : « هو خلف بن احمد ، والمعروف أنه مات حتف أنفه » .

ومنهم المولى بخشى خليفة الأماسى ، ولد بأماسية وقرأ على علماء عصره ، ثم ارتحل الى بلاد العرب وقرأ على علمائها أيضاً ، ثم اختار طريق التصوف وجلس للوعظ والتذكير ، وانتفع به خلق كثير ، وتوفى فى جوار الثلاثين وتسعمائة . ومنهم محيي الدين محمد بن عمر بن حمزة ، كان جده من بلاد ما وراء النهر من تلاميذ السعد التفتازانى ، وضرب فى الارض فوصل الى انطاكية . وبها ولد محمد هذا ، وتفقه فى انطاكية ، ثم سار الى « حصن كيفا » و « آمد » ثم الى « تبريز » وأخذ عن علماء تلك البلاد ، ثم رجع الى انطاكية ، وحلب ، ثم ذهب الى القدس وجاور هناك وحج البيت الحرام . ثم ذهب الى مصر وأخذ عن السيوطى ، ولقى قبولا عظيما عند السلطان « قايتباى » وبقى عنده الى أن توفى . فسافر الى الروم من طريق البحر

وأول بلدة أقبل عليها « بروسة » فحصل له فيها إقبال عظيم ، ثم ذهب الى القسطنطينية فأحبه أهلها ، وسمع السلطان بايزيد وعظه فمال اليه كل الميل ، وألف له كتاباً اسمه « تهذيب الشمائل » فى السيرة النبوية . ولما خرج السلطان الى الغزو كان هذا الشيخ محمد بن عمر معه ، فلما فتح « قلعة مشون » كان هو ثانى الداخلين إليها أو ثالثهم ثم ذهب إلى حلب ورجع الى الروم فى زمن السلطان سليم ، وحرضه على الجهاد فى طائفة «قزلباش» ـ هى طائفة تؤله عليًا ـ وكان يعظ الجنود وعظاً مؤثراً ، ويذكر لهم ثواب الجهاد . ثم ذهب الى « الروملى » وأخذ يعظ أهلها ، فأصلح كثيراً من الخلق ، وأسلم على يديه كثيرون من غير المسلمين ، وبنى جامعاً فى سراى بوسنه ومسجداً فى أسكوب .

وأقام فى تلك البلاد عشر سنوات يعظ ويفسر القرآن الكريم ، وفى سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة غزا مع السلطان سليمان بلاد المجر ، ووافقهم الفتح المبين . ثم سكن فى بروسة ، وشرع فى بناء جامع كبير توفى قبل اتمامه فى رابع المحرم ٩٣٨ وذلك عن سبعين سنة . وولد من صلبه قريب من مائة نفس ، وله كتب ورسائل وكم أحيا من سنن ، وأمات من بدع . فهذا من الرجال الذين اشتغلوا فى حياتهم وفقدهم الناس عند مماتهم ! ! ومنهم خير الدين خضر المعروف « بالعطوفى » كان معلماً لعبيد السلطان بايزيد ، ثم اختار طريقة الوعظ فصار يفسر أيام الجمع فى مساجد القسطنطينية ، وكان ماهراً فى التفسير ، وله اليد الطولى فى علمى المعانى والبيان . ومنهم عبد الحميد بن شرف من أهل قسطمونى ، قرأ على علماء عصره ، ثم رغب فى التصوف ، وصحب مصلح الدين الطويل من شيوخ النقشبندية . وبعد وفاته اختار طريق الوعظ ، وعكف على التفسير ، وكان زاهداً فى الدنيا .

ومنهم عيسى خليفة من قسطمونى أيضاً ، وكان متصوفاً ، واختار طريق الوعظ وكان لكلامه تأثير فى النفوس . ومنهم المولى شعيب الترابى ، جعله السلطان بايزيد معلماً لعبيده ، ثم اختار طريقة الوعظ ، وكان على الفطرة ، وكان قوى البدن الى النهاية وقيل إنه كان فى شبابه يكسر نعال الدواب بأصبعيه !! ومنهم محيي الدين محمد الأماسي

وكان من العلماء المحدثين والوعاظ ، وكانت الناس تحبه لورعه وتقواه . ومنهم المولى الطوقاتي من أماسية ، لم يفارقها إلى أن مات ، ومات في أوائل سلطنة سليمان القانوني وكان مشتغلاً بالدرس والعبادة ، منقطعاً عن الناس . ومنهم المولى مصلح الدين موسى بن موسى الأماسي ، اشتهر بين الناس « بحافظ الكتب » لأنه كان قيماً على خزانة كتب جامع السلطان بايزيد ببلدة أماسية ، قرأ على علماء العجم ، ثم على علماء العرب . وكان صحيح العقيدة ، مرضى السيرة ، وكانت له اليد الطولى في الفقه والأصول وله تآليف نفيسة . ومنهم المولى الشهير « بابن المعيد الأماسي » وكان فاضلا محققا ، سالكا مسلك التصوف ، مقبلا على شأنه . ومنهم المولى عبد الله خواجه نزيل « قصبة كو برجك » اشتهر بعلم العربية ، والفقه ، وكان من الصالحين . ومنهم المولى ابن دده جك ، وكان مشهوراً بالقراآت العشر ، مرضى السيرة ، زاهداً عابداً

ومنهم المولى الشهير في علم القراآت صادق خليفة المغنيساوي ، وكان من القانتين العابدين . ومنهم المولى محمد بن الحاج حسن وكان عالماً ، ولكنه لم يكن على نمط العلماء في الزهد وخشونة العيش ، بل كان مائلا إلى الزينة والترف ، فجعله السلطان سليم من الأمراء ، وكان بارعا بالانشاء ، وله معرفة بالتواريخ . ومنهم محمد باشا حفيد المولى « ابن المعرف » معلم السلطان بايزيد ، وكان محمد باشا هذا من وزراء السلطان سليم ، وكان على جانب من المعرفة بالآداب السلطانية . ومنهم المولى عيسى باشا بن الوزير ابراهيم باشا ، وكان من العلماء ، ثم صار موقعاً بالديوان العالي ، ثم تولى الامارة في بلاد الشام . ومنهم المولى الشهير « بنهاني » و بقي مدة من حياته يشتغل بالتدريس ، ثم ذهب إلى الحج ، ومات بمكة المكرمة . وكان من العلماء الأدباء . ومنهم المولى حيدر ابن أخي المولى الخيالي ، وقرأ على علماء عصره ، ثم ذهب إلى مصر وأخذ عن علمائها ، ثم رجع إلى الروم وأقام ببروسة ، وتوفى في أواخر سلطنة سليم خان وكان جميل الطلعة ، مرضى السيرة ، جيد المحاضرة ، زينة المجالس . ومنهم المولى محمد ابن الحاج حسن ، تولى القضاء في عدة من البلاد ، وكان حليم الطبع معرضاً عن أبناء الزمان مشتغلا بنفسه . ومنهم محمود بن الكمال المشتهر « بأخي شلبي » كان أبوه من

الأطباء المشهورين ، وطلبه السلطان محمد ليصير طبيباً عنده فاعتذر وقال : كيف أختار الرق بعد الحرية . و بعد وفاته نبغ ولده محمود فى صناعة الطب ، حتى صار رئيساً للأطباء فى المستشفى الذى بناه محمد الفاتح بالقسطنطينية ، ثم صار رئيساً للأطباء في زمان ولده السلطان بايزيد ، ثم عزله السلطان سليم ، ثم أعاده إلى مكانه . ولما تولى سليمان القانونى عزله أيضاً ، ثم أعاده إلى مكانه . ثم حج بيت الله . ومات بمصر منصرفه من الحج ، ودفن عند قبر الامامى الشافعى رضى الله عنه .

ومنهم هدهد بدر الدين ، وكان من الأطباء المعروفين في دار السلطنة . ومنهم من أكابر الصوفية العارف بالله الشيخ نصوح الطوسى . ومنهم العارف بالله الشيخ مصلح الدين الامام بمدينة بروسة . والعارف بالله محمد الشهير « بابن أخى شوروه » . والعارف بالله محيي الدين محمد المعروف « بأبي شامة » والعارف بالله الشيخ عبدالرحيم المؤيدى المعروف « بحاجى شلبى » . والشيخ محيي الدين محمد بن المولى بهاء الدين أخذ عن العارف بالله محيي الدين الاسكليبى . والشيخ مصلح الدين مصطفى المنسوب إلى المولى خواجه زاده . والعارف بالله مصلح الدين مصطفى المعروف « بابن المعلم » . والعارف بالله الشيخ نبى خليفة . والشيخ محيي الدين الأسود . والشيخ لطف الله . والشيخ أمير على بن أمير حسن . والمولى خضر بك بن المولى أحمد باشا . والشيخ محمود بن عثمان بن على النقاش المشتهر « باللامعى » وسيدى خليفة الاماسى . والشيخ عبداللطيف من أتباع طريقة الشيخ ابن الوفاء . والحاج رمضان المتوطن فى قسطمونى . والشيخ سنان الدين الشهير « بسخته سنان » .

سلطنة السلطان الأعظم سليمان القانونى

هذا ثم تولى سلطنة آل عثمان ، السلطان سليمان خان بن السلطان سليم خان فى شهر شوال سنة ٩٢٦ .

وأكثر المؤرخين على أن سليمان خان هو أعظم سلاطين آل عثمان ، وعلماء الأفرنج يسمونه سليمان المعظم « Le Grand » أو سليمان الفاخر « Le Magnfique »

وكان عمره ستاً وعشرين سنة يوم تولى الملك ، وبدأ ملكه بالحلم والعفو ، فأطلق سبيل ستمائة أسير مصرى ، وكان أبوه السلطان سليم قد ضبط لتجار الحرير مقداراً عظيما من متاجرهم ، فعوضهم السلطان سليمان مما خسروه وأخذ على أيدى الولاة الظالمين وأمر بالعدل والاحسان ، وجعل هذه الآية القرآنية (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ) شعاره .

وعقد سليمان معاهدة مع البندقية ليس هنا محل ذكرها ، وبموجبها كانت البندقية تؤدى إتاوتين إلى السلطان عن بعض البلاد التى كانت تحت احتلالها . وفى زمن سليمان القانونى ثار الغزالى والى الشام الذي انحاز إلى السلطان سليم فى واقعة مرج دابق فأرسل السلطان سليمان جيشاً بقيادة فرهاد باشا ، فتغلب عليه وقتله . وغزا سليمان بلاد المجر فأرسل أحمد باشا لحصر « شاباتس » وبيرى باشا لحصر « بلغراد » ومحمد ميكال أوغلى فاجتاح « ترانسلفانيا » فاستولى على شاباتس ودخلها السلطان ظافرا ، ثم استولى على بلغراد وعلى سملين ، وكان نصراً باهراً . ثم فكر السلطان فى فتح « رودس » لأن فرسان رودس كانوا ملؤا البحر المتوسط اعتداء على المسلمين ، وكانوا يقطعون الطريق على الحجاج إلى مكة إذا ذهبوا فى البحر . ففى ١٦ يونيو سنة ١٥٢٢ سار الأسطول العثمانى عليه مائة ألف مقاتل . وضيق السلطان الحصار على رودس ووالى عليها الهجمات نحوا من شهرين بدون انقطاع . ويقول مؤرخو الأفرنج ــ وربما كانوا يبالغون فى تقدير خسائر العثمانيين ــ : إن هؤلاء فقدوا فى حصار رودس مائة ألف مقاتل ، منهم أربعون ألفاً ماتوا بالأمراض . إلا أن العثمانيين دخلوا أخيرا رودس عنوة واستولوا عليها وعلى الجزر التى فى جوارها . وأخرج السلطان قائد فرسان رودس وكان اسمه « Villiers de l'Sile-Adam » سالما فذهب إلى مالطة وهناك جددوا قوة الفرسان المذكورين ؛ فصاروا يقطعون الطرق على مراكب المسلمين كما كانوا يفعلون وهم فى رودس .

وفى زمن سليمان عصى أحمد باشا والى مصر وحدثته نفسه بالاستقلال ، فأرسل إليه السلطان جيشا فهزمه ، وانتهى الأمر بالقبض عليه فقطعوا رأسه وعلقوه على أسوار

القسطنطينية . ثم وقع الخلاف بين والى مصر والدفتردار ـ أى رئيس الجباية ـ فأرسل السلطان وزيره ابراهيم باشا وأصله مملوك صار مقربا عند السلطان وبلغ من الحظوة ما لم يبلغه أحد ، فابراهيم باشا عزل العاملين المتخاصمين ، ورتب الأمور ونصب واليا على مصر سليمان باشا الذى كان واليا على سورية . ثم غزا السلطان بلاد المجر بمائة ألف مقاتل وثلاثمائة مدفع ، فنشبت معركة هائلة . قاتل فيها الفريقان أشد قتال ، وانتهت بظفر السلطان وغرق « لويس الثانى » ملك المجر وهو منهزم هو وجانب من جماعته فى مستنقعات « موهاش » وسقط « بول طومورى » رئيس أساقفة المجر ومعه سبعة مطارين ، واثنان وعشرون أميراً . وخمسة وعشرون ألف جندى قتلى . وكانت هذه الواقعة فى ٢٦ اغستوس سنة ١٥٢٦ وعلى رواية كانت خسارة المجر مائتى ألف رجل . ولم تكن خسائر العثمانيين أكثر من مائة وخمسين رجلا .

وقيل : إنه وقع فى أسر الأتراك عشرة آلاف مجرى فذبحوهم عن بكرة أبيهم ودخل الأتراك بودابست قاعدة المملكة ، واستولوا على ما فيها من الخزائن والكنوز وأسروا مائة ألف نسمة من رجال ونساء ، ورجع السلطان إلى القسطنطينية بعد أن أجلس على كرسى المجر أمير ترانسلفانيا المسمى « سابوليا » . وكان المجر الذين فرّوا من أمام الترك نادوا بفرديناند ، أخى الامبراطور شارلكان ملكا عليهم ، وفى أيام سليمان حصلت فتن فى بلاد قرامان ، وكليكيا وثارت البكطاشية ، وسارت الجيوش تلو الجيوش ، وخسرت الدولة جنداً كثيرا إلا أن ابراهيم باشا قمع الفتنة .

وفى زمن سليمان اشتدت العداوة بين فرانسة والامبراطور شارلكان ، وكان الامبراطور شارلكان أعظم سلطان مسيحى فى عصره ، إذ كان يلى ألمانية ، واسبانية وايطالية ، وهولاندة ، وكانت له الكلمة العليا فى البحر المتوسط فأوشك أن يخنق فرانسة ، ولم يبق أمل للفرنسيس إلا بالالتجاء إلى العثمانيين لأن السلطان سليمان لم يكن يجد أمامه قرناً يقاومه فى أوربة غير الامبراطور شارلكان ، الذى كانت الوقائع متصلة بينه و بينه على حدود النمسا . فكان من الطبيعى أن فرانسة تتفق مع السلطان العثمانى عدو عدوها ، ولكن فرانسة المشهورة بكثرة حروبها الصليبية ، و بشدة

عداوتها للاسلام ، لم يكن من السهل عليها أن تحالف العثمانيين بدون أن تكبر هذا الأمر جميع أمم النصرانية ، والأمة الافرنسية نفسها ، غير أن « فرنسيس الأول » الذى كان وقع فى أسر شارلكان ، مضى فى عزيمته فى الالتجاء إلى العثمانيين ، ومد يده لمحالفة السلطان سليمان ، وكانت العلاقات الرسمية قد بدأت بين فرانسة والدولة العثمانية فى زمن السلطان بايزيد الثانى من جهة ؛ ولويس الحادى عشر من جهة أخرى ثم كتب السلطان بايزيد كتاباً إلى « شارلوس الثامن » . وفى سنة ١٥٠٠ كتب السلطان إلى « لويس الثاني عشر » يطلب منه التوسط بينه وبين البندقية .

وكان « فرنسيس الأول » لأول حكمه عرض على امبراطور المانية وعلى فرديناند الكاثوليكى صاحب اسبانية مشروعا مآله تقسيم السلطنة العثمانية بين ملوك النصرانية ولكن لم يتم هذا الأمر لأنه لم يكن سهلا عليهم هذا العمل . ثم اتفق أن الحرب وقعت بين الالمان والفرنسيس ، وأخذ فيها فرنسيس الأول أسيرا ، فأرسلت الملكة « لويزا دوساڤواى » بناء على مشورة وزيرها « دو براه Duprat » معتمدا بهدايا نفيسة إلى السلطان سليمان ، وذلك فى ٢٥ فبراير سنة ١٥٢٥ ثم كتب الملك فرنسيس الاول نفسه كتابا إلى السلطان يخطب صداقته . ولما كان شارلكان قد عرض من جهته الصلح على السلطان واقترح التحالف ؛ ففضل السلطان محالفة الفرنسيس لما كان الاتراك يعلمون من شدة الفرنسيس ، ولكن لم يرض الترك وقتئذ بكتابة حلف بالورق وإنما أجاب السلطان على كتاب الملك فرانسيس بكتاب تعالى فيه على ملك فرانسة ، وأظهر له مزيد عظمته . وهذا الكتاب لايزال مشهورا فى التاريخ بعد أن ذكر فيه سليمان جميع ألقابه السلطانية . قال لفرنسيس : قد انتهى إلينا ما قدمته إلينا من العرض عن أن عدوك قد استولى على مملكتك ، وأنك الآن في أسره ، وأنك تلجأ إلينا لأجل إنقاذك وحمايتك ، فكل هذا قد عرض على سدتنا السنية ملجأ العالم ، وأحاط به علمنا السلطانى ، وليس غير معهود أن تدور الدائرة على الملوك ، وأن يقعوا فى الأسر ، فليكن قلبك ثابتاً ، ولتكن نفسك طيبة الخ . ثم وعده خيراً .

ثم إن فرنسيس الأول تخلص من أسره بموجب معاهدة مجريط ، ولكنه لم

يعدل عن خطته من جهة محالفة السلطان سليمان وكتب إليه يشكره قائلا له : إننا مغتبطون بما نراه من كرم أخلاقك ، وما وعدتنا به من المساعدة فى حالتنا الحرجة . الخ
ثم أخذ فرنسيس الأول يجتهد فى إقناع شعبه بأن تقربه إلى العثمانيين يكون وسيلة لنشر نفوذ فرانسة فى الشرق ، ومحافظتها على المسيحيين الذين هناك ، وقد حصل بالفعل على امتيازات عديدة للفرنسيس بموجب الخط الشريف السلطانى المؤرخ فى ٢٠ سبتمبر سنة ١٥٢٨ . فان السلطان سمح للفرنسيس والكتالان أن يجولوا في مصر ويتجروا كما يشاؤون ، وأنهم فى الخصومات التى بينهم يراجعون قناصلهم فيما عدا الدم إذ يبقى الحكم فيه لقضاة الشرع . وأذن للفرنسيس والكتالان بانفاذ وصاياهم وأن القناصل يحررون التركات ، وغير ذلك من الامتيازات التى تساهل فيها السلطان ليتخذ من فرانسة ردءاً ضد المانية .

ثم إنه جرى كلام بين فرانسة والسلطان بموجبه يتولى أحد أولاد ملك فرانسة على عرش المجر . وكانت الحرب قد اشتعلت بين المجر والعثمانيين ، فكان العثمانيون من جهة ومعهم الأمير « سابوليا الترانسلفانى » المولى من قبلهم على المجر ؛ والمجر والنمسويون من جهة أخرى . فانكسر سابوليا ودخل فرديناند أخو شارلكان إلى بودابست . فزحف الجيش الاسلامى بقيادة ابراهيم باشا ـ وكان الجيش مائتين وخمسين ألف مقاتل ـ فدخل العثمانيون بودابست وأعادوا سابوليا إلى الملك . وجاء أمير البغدان وخضع للسلطان وسار السلطان سليمان فى شهر سبتمبر سنة ١٥٢٩ إلى فينا يحاصرها ومعه مائة وعشرون ألف مقاتل ، وأربعمائة مدفع ، ولاقاه فى نهر الطونة ثمانمائة قلع . ولم يكن فى فينا أكثر من ستة عشر ألف مقاتل ، واثنين وسبعين مدفعاً ، ولم تكن الأسوار متينة ، ولكن خوف الألمان على بلادهم بعث فيهم حمية خارقة للعادة ، فصدوا هجمات العثمانيين كلها . ويقال إن السلطان خسر فى هذا الحصار أربعين ألف جندى ، واضطر إلى الرجوع خائباً ، وهى أول خيبة عرفتها جيوش سليمان القانونى ! .

ولما رجع السلطان إلى بودابست توج سابوليا ملكا على المجر ، وكان فرديناند

أخو شارلكان يسعى فى استمالة ابراهيم باشا حتى يقنع السلطان بقبوله ملكا محل سابوليا ، فعرض على ابراهيم باشا الرشوة فلم يجبه إلى شيء ، و بقيت الحرب تشتعل وفى سنة ١٥٣٢ استولى العثمانيون على « غون Guns » بعد حصار شديد ، ثم بثوا الغارات فى إستيريا من بلاد النمسا ، وحصلت هناك معارك كانت فيها الحرب سجالا وجاء أمير البحر « اندرى دوريا » المشهور فعاث فى بلاد اليونان ، واستولى على الحصون التى كان بناها السلطان بايزيد على جوانب خليج ليبانت ، ثم حصلت متاركة بين السلطان و بين شارلكان أراد السلطان خلالها أن يتفرغ لمحاربة العجم وذهب ابراهيم باشا على رأس جيش جرار فاستولى على تبريز ، ولكنه عامل الأهالى بالرفق . وزحف السلطان بنفسه واستولى على بغداد ، ورجع ظافراً بعد أن غاب أربعة أشهر .

وفى ذلك الوقت اشتهر فى البحر المتوسط «أندرى دوريا» أمير الأساطيل المسيحية و بمقابلته «خير الدين بربروس» أمير الأساطيل الاسلامية ؛ وكان هذا فى مبدأ أمره هو وأخوه «عروج» من متلصصة البحر ، ثم دخلا فى خدمة السلطان محمد الحفصى صاحب تونس ، ومن هناك امتدت سلطتهما على سواحل الجزائر . وقتل عروج فى حرب بينه و بين الاسبانيول على تلمسان ، فانفرد بالأمر أخوه خير الدين ، وسماه السلطان أمير البحر سنة ١٥٣٣ ، وأخذ يعيث فى البحر المتوسط ، و يغزو سواحل إيطالية . ثم استولى على تونس فاضطر شارلكان الى غزو تونس وأخذها عنوة . وأطلق فيها خمسين ألف أسير مسيحى ، وأعاد سلطانها مولاى الحسن على شرط أن يؤدى له الاتاوة ، وأن تبقى هناك حامية اسبانيولية .

ثم إن فرنسيس الأول أرسل إلى السلطان سليمان يعرض عليه المحالفة مع معاهدة تجارية على أن سليمان وفرانسيس يحاربان شارلكان إذا كان شارلكان يمتنع عن إعادة دوقية ميلانو ، وجنوة ، و بلاد فلاندر ، إلى فرانسة . وطلب من السلطان سليمان أن يقرضه مليوناً من الذهب حتى يقوم بنفقات الحرب اللازمة ، وكذلك كان من جملة الاقتراحات أن يغزو خير الدين جزيرة صقلية ، ومملكة نابولى

وجزيرة سردينية ، وكان المتولى لهذه المهمة الوزير الافرنسى « جان دولا فوره Jean dela Forest » فانعقدت معاهدة تتضمن حرية التجارة بين المملكتين العثمانية والافرنسية براً و بحراً ، وأن تكون الدعاوى بين الفرنسيس جزائية كانت أو حقوقية متعلقة بقناصل فرانسة . واذا وقعت جناية من إفرنسى فلا يساق كسائر الناس إلى الحبس بل لابد أن يساق إلى الباب العالى ، وأن تجار الفرنسيس لايؤدون إلا خمسة فى المائة عن بضائعهم ، وأن الافرنج من غير الفرنسيس كالانكليز ، والكتلان والصقليين ، والجنوية ؛ ممن ليست بينهم و بين الدولة العثمانية معاهدات إذا سافروا تحت العلم الافرنسى يتمتعون بالحقوق التى يتمتع بها الفرنسيس ، ولكن برغم الحرية الدينية التى يكفلها السلطان لرعايا فرانسة لا يحق أن يملك الفرنسيس ، ولا تملك الكنائس اللاتينية عقارات فى بلاد الأسلام ، وكذلك الافرنسى الذى يتزوج بمسيحية عثمانية تكون أولاده من رعايا السلطان ، وتضمن الاتفاق تحالفاً عسكريا فى الهجوم والدفاع ، فالسلطان تعهد بمهاجمة مملكة المجر ، ومملكة نابولى ، والملك فرنسيس تعهد بشن الغارة على بلاد لومبارديا ، وجرى الاتفاق على أن المدن الايطالية التى يستولى عليها الاسطول العثمانى يكون للأتراك حق انتهابها وسوق أهلها أسرى ولكن ملكية هذه المدن تعود إلى ملك فرانسة . ولما انعقدت هذه المعاهدة كانت اليد الطولى فى عقدها لابراهيم باشا الصدر الاعظم ، و يقال إنه جعل توقيعه فى ذيل هذه المعاهدة باسم (سر عسكر سلطان) فغاظ ذلك السلطان سليمان وأساء فيه الظن وفى ٥ مارس ١٥٣٦ ذهب ابراهيم باشا إلى السراى بحسب عادته فقبض عليه وخنق وتولى مكانه إياس باشا الارناؤطى . وكان السلطان سليمان والملك فرنسيس اتفقا على ادخال جمهورية البندقية فى هذه المعاهدة ، فأبى البنادقة أن يدخلوا فى هذا العقد فغزاهم السلطان بأسطول يبلغ مائة شراع ، فاجتاح سواحلهم ورجع بعشرة آلاف أسير ، واستولى على جزر الارخبيل اليونانى .

وجاء أمير البحر اندرى دوريا قائد أساطيل شارلكان لينازل الاسطول الاسلامى

فدارت الدائرة على أندرى دوريا ، وذلك فى واقعة « بريفيزا » التى وقعت فى سبتمبر ١٥٣٨ . وفى السنة التالية حشد السلطان مائة ألف مقاتل فى ألبانيا ناوياً شن الغارة على ايطاليا ، وجاء خير الدين بربروس بسبعين بارجة حربية ، فأنزل عساكره فى مدينة « أوترانت » . وانتظر السلطان من ملك فرانسة أن يزحف على شمالى ايطالية ويرسل أسطوله لمعاونة الاسطول العثمانى ، فلما انتشر هذا الخبر فى الأمم النصرانية قامت له وقعدت ولم يجرأ فرنسيس على الاتيان بحركة . بل اشترط لأجل الهجوم على مملكة « بييمون » أن يخرج الأتراك من إيطاليا ، وعقد معاهدته مع شارلكان فلم يقع ذلك عند السلطان سليمان موقعاً حسناً ، لكنه اجتنب أن يخرق عهده لملك فرانسة ، واستمرت الحرب بين السلطان و بين شارلكان ومعه البنادقة ، وكانت الحرب بين السلطان والبنادقة سجالا ، إلا أن البنادقة اضطروا أخيرا إلى طلب الصلح وتركوا جميع جزر الأرخبيل الرومى ، وتخلوا عن دالماسيا ، ودفعوا غرامة حربية للسلطان ثلاثمائة ألف دوكة . وفى ذلك الوقت مات اياس باشا بالطاعون وكان أرناؤطياً فى الأصل من عائلة كاثوليكية ؛ وكان ممدوح السيرة ، فتولى مكانه لطفى باشا وكان ارناؤطيا أيضا . وكان السلطان أزوجه بشقيقته ، واشتعلت الحرب فى بلاد المجر بين العثمانيين والنمسويين ، وثار أمير البغدان متفقا مع النمسا ، فولى السلطان أخاه مكانه وفى أثناء هذه الحرب مات سابوليا ملك المجر من قبل السلطان سليمان فتولت الأمر امرأته ايزابيلا ، فزحف جيش النمسا لحصار بودابست ، فاستصرخت الملكة ايزابيلا السلطان سليمان فزحف بنفسه وجاؤا للسلطان بابن سابوليا وهو طفل عمره سنة واذا بالانكشارية دخلوا بغتة الى « بود » وتحولت هذه البلدة من بلدة مجرية الى بلدة إسلامية . فاعتذر السلطان للملكة ايزابيلا بأن مقصده بذلك تأمين بلاد المجر من عائلة النمسا . وأنه متى بلغ ابنها رشده يسلمه مدينة بود .

وكان « رنسون ــ Rincon » سفير فرانسة فى القسطنطينية يعمل ليلا ونهاراً لأجل بقاء الاتحاد بين فرانسة وتركية ، وكان هذا السفير يلوم مولاه فرانسيس الأول على مهادنته لشارلكان ، وفى أثناء ذلك انخدع فرانسيس بسياسة شارلكان وأرسل

الى السلطان سليمان يطلب منه مصالحة عدوه شارلكان ، فاستغرب السلطان هذا الطلب !! ولكن رنسون أصلح خطأ سيده ، فكتب السلطان الى فرانسيس قائلا له : « إن شارل ملك أسبانيا يلتمس الهدنة بواسطتك ، فاذا كان يريد الهدنة وكنت أنت تريد ذلك من قلبك فانا اشترط عليه بأن يرد لك جميع البلاد والحصون والأراضى التى أخذها منك ، فاذا قام بهذا الشرط ، وأنت أعلمت بابى العالى بذلك ، فأنا أعمل لك ما تشاء » .

وظهر أن الحق كان مع السلطان سليمان ، وأن الامبراطور شارلكان كان قد خدع ملك فرانسة ، ثم تجددت الحرب و بعث فرانسيس الأول يلتمس من السلطان تجريد الأسطول العثمانى كله لمباشرة الحرب ، وكان للسفير رنسون اليد الطولى فى ذلك. فأرسل شارلكان من قتل رنسون السفير الافرنسى غيلة بحجة أنه خائن للنصرانية فكتب فرانسيس الأول الى ندوة نور نبرغ يشكو عمل شارلكان ، و يتهمه بأنه زور وثائق لا صحة لها تبرئة لنفسه من ذلك الجرم .

و بلغ السلطان سليمان مقتل رنسون بينما كان فى « بود » فبلغ منه الغضب أنه كاد يقتل سفراء النمسا الذين عنده ، ولولا توسط المعتمد الافرنسى « بولين Boline » الذى أتاه بخبر قتل رنسون لكان السلطان من شدة غضبه قتلهم . وأما سياسة فرانسيس الأول فكان قد ظهر للسلطان أنها سياسة تذبذب ، وكاد يرغب عن صحبته الا أن بولين المعتمد الافرنسى التجأ الى خير الدين بربروس ، وكان هذا أصبح مقرباً جداً عند السلطان لا سيما بعد أن كسر أسطول شارلكان فى بحر الجزائر ، وكان بربروس يميل الى فرانسة . فما زال بالسلطان حتى أقنعه بارسال الأسطول العثمانى نجدة لملك فرانسة على الامبراطور شارلكان ، وذلك سنة ١٥٤٣ . فسار الأسطول العثمانى الى « نيس » بقيادة خير الدين بربروس ، وكان مركباً من مائة وعشر بوارج عليها أربعة عشر الف مقاتل ، فانضم اليه أسطول ملك فرانسة بقيادة الكونت « دانغين d'enghien » وكان مركباً من أربعين بارجة عليها سبعة آلاف مقاتل فاستولى العثمانيون والفرنسيس على نيس ، ولكنهم اختلفوا وقامت قيامة النصرانية

على فرانسيس الأول من أجل تحالفه مع المسلمين على النصارى ، ومن أجل موافقته على إذلال النصرانية فى بلادها ، حتى قيل : إن الكنائس فى سواحل نيس لم تكن تجرأ على قرع أجراسها مدة إقامة الاسطول العثمانى أمام نيس .

فتصالح فرانسيس الأول مع شارلكان ، و وجه السلطان قوته الى حرب المجر ففتح « ڤالبو » و « سيكلوز » و « غران » و « نيوغراد » و « ڤيس غراد » و « ڤيلكا » وغيرها ، فارسل شارلكان وأخوه فرديناند يلتمسان الصلح من السلطان وكاد السلطان يجنح الى الصلح لولا مساعى « جبرائيل دارامون d'Aramont » سفير فرانسا الذى كان يهون على السلطان أمر شارلكان ، قائلا له : إنه فى المقيم المقعد مع أمراء البروتستانت فى المانيا . فعاد السلطان سليمان وأجمع على الحرب وقرر الزحف ، وكتب بذلك الى الملك فرانسيس فى شهر مايو ١٥٤٧ ، فوصل كتاب السلطان الى فرانسة بعد وفاة فرانسيس الأول . فتبدلت الحالة ، وجنح السلطان الى مصالحة شارلكان ، وانعقدت بينهما متاركة لمدة خمس سنوات على أن يدفع الأمير فرديناند أخو شارلكان للسلطان العثمانى خمسين الف دوكة كل سنة جزية عن القسم الباقى من بلاد المجر تحت ولايته .

ولما استراح فكر السلطان من جهة أوربة وجه نظره إلى آسيا ، فاستنجده أمراء الاسلام فى الهند على البرتغال ، وأنجدهم ، وأرسل فاحتل اليمن ، ووقع القتال بين العثمانيين والزيديين ، وكتب السلطان إلى امام صنعاء يعاتبه على قتاله للجيش العثمانى ولكن الامام أجابه بجواب سديد قائلا له : إننا نعلم بلاءك العظيم فى حفظ بيضة الاسلام ، ولا نشكو منك ، و إنما نشكو من سوء إدارة عمالك ، وقد كان الأولى بهم أن يسوقوا هذه القوة على الكفار بدلا من أن يسوقوها على المسلمين الذين هم على كل حال تبعة السلطان . وهذا الكتاب مذكور فى تاريخ البرق اليمانى . ثم جاء ابن شاه العجم والتجأ إلى السلطان ، فزحف السلطان إلى تبريز ، وفتحها بعد أن فتح « وان » ثم فتح جانباً من « كرجستان » .

و بينما كان جيشه يتقدم فى آسيا إذ تجددت الحرب فى بلاد المجر ، وذلك أن

الملك سابوليا كان أوصى امرأته إيزابيلا بقسيس اسمه « جورج مارتيموزى » فصارت تعمل برأيه ، وكان هذا القسيس يشتغل لفصل الملكة ايزابيلا عن السلطان ولتأليفها مع الأمير فرديناند ، وأقنعها بأن تترك له « ترانسلفانيا » و « البانات » وكل ذلك لم يعلم به السلطان إلا فيما بعد . فلما بلغه الخبر سيّر ثمانين ألف مقاتل فعبرت نهر الطونة ، واستولت على « ليبا » واشتدت الوقائع ، ولكنها انتهت بظفر السلطان . وأرسل أحمد باشا على أثر الواقعة أربعة آلاف أنف من أنوف النمسويين إلى الاستانة ورجعت « أطمشوار » و « البانات » إلى حكم الدولة العثمانية ، وأخذ العثمانيون البارون « غوندن دورف » أسيراً مع أربعة آلاف مقاتل .

ثم استولى فرسان مالطة على طرابلس الغرب ، فأرسل السلطان الأسطول العثمانى فطردهم منها وضم تلك البلاد إلى السلطنة العثمانية . وكان هنرى الثانى بن فرانسيس الأول لا يقل رغبة عن أبيه فى محالفة الدولة العثمانية ، وفى سنة ١٥٥١ تعهد هنرى الثانى للسلطان بتأدية ثلاثمائة ألف قطعة ذهبية بدلا عن مساعدة الأسطول العثمانى لفرانسة ورهن تحت ذلك جانبا من سفنه ، واتفقا على أن السلطان ينجده بستين مركباً حربياً وخمسة وعشرين مركباً من مراكب القرصان وأنه إذا أراد ملك فرانسة أن يستعمل هذه القوة البحرية خارجاً عن بحر طوسكانة فعليه أن يؤدى مائة وخمسين ألف ذهب وتقرر أن جميع السفن التى يغنمها الأسطول العثمانى تكون ملكا للسلطان ، وأن المدن التى يستولى عليها العثمانيون يصير رجالها وأموالها ملكا أيضاً للسلطان ، إلا أن المدن نفسها تصير لملك فرانسة . وتقرر أن الأسطول العثمانى يكتسح ماشاء من ممالك شارلكان ، ويسبى بقدر مايستطيع . وسار الأسطول العثمانى بقيادة « طورغوت ريس » وانضم إليه الأسطول الافرنسى بقيادة « البارون لا غارد » فاكتسحا بلاد كالابرة وصقلية ، واحتلا كورسيكا ، ودانت لهما جميع المدن التى فى تلك السواحل .

إلا أنه لم يلبث الخلف أن وقع بين الحلفاء لأن الافرنسيس اعترضوا على عدم حرمة العثمانيين للدم ، والدين ، والمال ، فافترق الأسطولان ، وغضب السلطان على « طورغوت » وأرسل أسطولا آخر بقيادة بيالى باشا كان عدده سبعين بارجة حربية

ولكن هذه المرة أيضاً لم يقع الوفاق بين أمراء الأسطولين . والفرنسيس يقولون إن قواد الترك لم يكونوا يفكرون إلا فى النهب والسبى ، وأرسل هنرى الثانى إلى سفيره فى القسطنطينية يقول له : إنى مع الأسف لم أقدر أن أستفيد من عضد الجيش العثمانى لى لا لعدم رغبة السلطان فى ذلك ؛ بل لاهتمام قواده بالغنائم دون الاهتمام بتنفيذ إرادة مولاهم . ومن بعد هذه الواقعة تصالح هنرى الثانى ملك فرانسة مع فيليب الثانى ملك اسبانيا وملحقاتها ، وعادت المحالفة التركية الافرنسية من ذلك التاريخ حبراً على ورق ، لا سيما أن السلطنة العثمانية بعد السلطان سليمان بدأت بالتقهقر

وكان السلطان سليمان فى آخر حياته قد اختلف مع أولاده ، لأن وزيره الأعظم « رستم باشا » وشى للسلطان على ولده مصطفى ، وكان العسكر يحب مصطفى حباً جماً لكرمه وشجاعته ، وكان العلماء والأدباء يحبونه أيضا لاعتنائه بالعلم والأدب فزين رستم باشا للسلطان أن ابنه يريد أن يخلعه و يجلس مكانه ، ووقر ذلك فى نفس السلطان ، فأمر بقتل ولده مصطفى فى مخيمه وهو فى الأناضول ، وذلك فى ٢١ سبتمبر سنة ١٥٥٣ وكان لمصطفى ولد في بروسة فقتلوه أيضا ، وبكت المملكة كلها على مصطفى لما كان له من المنزلة فى قلوب الأمة ، ولا سيما عند العلماء وعند العساكر — أى رجال السيف والقلم معا — وكان مصطفى شاعراً له أغزال لطيفة نشرها تحت اسم مستعار (مخلصى) وكان له تفسير للقرآن ، وتعليقات على البخارى وكتب نحوية ، ورثاه الشعراء ولم يخشوا والده وكان لمصطفى أخ اسمه « جهانغير » فمات حزناً على أخيه ، وثارت العساكر على السلطان وطلبت عزل الصدر الأعظم رستم باشا الذى كان الواشى بالأمير مصطفى ، وكان السبب فى هذه المأساة التى جرحت القلوب بأجمعها ، وكان مرجع كل هذه الدسائس الى السلطانة «خورشم» التى كانت تهىء العرش للاولاد الذين منها . وكان رستم باشا صهرها ، وهى التى فى الحقيقة قتلت الصدر الأعظم ابراهيم باشا ، ثم قتلت الصدر الأعظم احمد باشا الذي كان قد خالف صهرها فى الوزارة . وهى التى قتلت الأمير مصطفى ابن السلطان .

ثم نشبت الحرب من جديد بين العثمانيين والمجر ، فزحف خادم على باشا على

بلاد المجر واستولى على عدة من المدن ، وقام المجر يقاتلونه وعلى رأسهم الامير فرديناند ، ولكن الدولة اضطرت الى توقيف الحرب والمتاركة ، نظراً لما طرأ من الحوادث فى بيت السلطنة ، لأن الامير بايزيد ابن السلطان ثار على أبيه على أثر دسائس بين الوزراء لا محل لذكرها هنا فجمع بايزيد عشرين ألف جندى وقاتل بهم عساكر أبيه ، فتغلب أبوه عليه وفر بايزيد مع ولده أورخان إلى أماسية ، ومن هناك كتب إلى والده يلتمس منه العفو ، فوقع الكتاب والرسول فى يد « لالا مصطفى باشا » الذى كان عدواً لبايزيد ، فأخفى الكتاب عن السلطان ، ولما لم يجد بايزيد جواباً من أبيه ذهب ملتجئاً الى شاه العجم ، وكان معه اثنا عشر ألف جندى ، فقبله الشاه طماسب براً وترحيباً فى ظاهر الحال ، ولكنه وضع نصب عينه استثمار هذه الحادثة بقدر الاستطاعة . وبالاختصار فقد قبض طماسب أربعمائة الف ذهب ، وقتل بايزيد مع أولاده الاربعة ، وكان لبايزيد طفل فى بروسة فى سن ثلاث سنوات فقتلوه أيضاً .

وكان قد تولى الوزارة على باشا ، وكان رجلا حليما كريماً ، يكره الشر ، فعقد مع النمسا صلحاً فى يوليو سنة ١٥٦٢ ، وبعد عقد هذا الصلح تفرغ السلطان لمشروعاته البحرية ، وأجمع غزو مالطة . فسير بيالى باشا قبطان البحر ، ومعه صالح بك أمير الجزائر ، ودراغوت أمير طرابلس ، وكان الاسطول العثمانى مؤلفاً من مائة وثمانين بارجة وفى ٢٠ مايو ١٥٦٥ أنزل الاسطول عشرين الف عسكرى فى مالطة وبدأوا بحصار قلعة « سنت إيلم Saint-Elme »وفى أول يوم من المهاجمة سقط « دراغوت » أمير طرابلس قتيلا ، وبقى الاتراك يضيقون على ذلك الحصن حتى أخذوه عنوة ولكن أدوا عنه ثمناً غالياً جداً .

وكان رئيس فرسان مالطة « بطرس لاڤاليت » فأرسل قائد الجيش العثمانى مصطفى باشا يعرض عليه الاستسلام ، فأجاب بأنه ليس أمامه سوى الدفاع أو الموت إلا أن الخبر ورد بأن الحرب نشبت من جديد فى بلاد المجر ، فأقلع العثمانيون عن مالطة ، وذلك أنه كان الامير « فرديناند » قد مات وخلفه ابنه مكسيمليان ، وكان

راغباً فى الصلح ، إلا ان إتيان بن سابوليا ملك المجر من قبل الدولة العثمانية تجاوز حدود النمسا ودخل بلدة « ساتمار » فلم يسع مكسيمليان إلا أن يحشد جيشه و يدخل الى بلاد المجر ، وكان على باشا الصدر الاعظم قد مات فخلفه « محمد باشا سوقولوفيتش » من بوسنة ، وكان راغباً فى الحرب . فدخلت الجيوش العثمانية فى « كرواسية » « وترانسلفانيا » وجاء السلطان سليمان الى بلاد المجر ، و دخل عليه اتيان بن سابوليا فوعده بأنه لن يفارق المجر قبل أن يوطد له ملكه ، فحصر السلطان بنفسه مدينة « سيغيت Szlgeth » و استولى عليها ، وامتنعت القلعة و بقى العثمانيون يحاصرونها مدة أربعة أشهر ، فى أثنائها مات السلطان سليمان فأخفى سوقولوفيتش خبر موته عن الجيش وكانت وفاة السلطان فى ٥ سبتمبر ١٥٦٦ وفى ٨ سبتمبر استولى العثمانيون على القلعة وذبحوا كل من فيها ، وبقى الصدر الاعظم كاتماً موت السلطان عن الجيش يقرأ الأوامر باسمه الى أن وصل السلطان الجديد من كوتاهية .

ولا شك فى أن السلطان سليمان القانونى كان أعظم سلطان أنجبه البيت العثمانى ، و برغم ما عابوه من انقياده للسلطانة التى كانت أحظى حظاياه المسماة « روكسلان» وبرغم قتله وزيره ابراهيم باشا الذي كان عماد سلطنته ، و قتله أولاده فقد قال المؤرخ « هامر Hammer » أشهر مؤرخ لسلطنة آل عثمان : إن هذه الاغلاط لا ينبغى أن تنسينا محاسن هذا السلطان الباهرة ، التى جعلت من زمانه العصر الأكبر للسلطنة العثمانية ، و ذلك بعلو همة هذا السلطان، وسعة عقله ، و متانة عزمه ، وشدة بأسه ، مع محافظته التامة على الشريعة الاسلامية ، و مع حبه للنظام والضبط ، و مع تشميره للمملكة وخيراتها ، ومراعاة الاقتصاد مراعاة لاتخل بشىء من إظهار عظمة الملك ، والبذخ فى مقام البذخ . وكان السلطان سليمان محباً للعلم والعلماء موقرا لهم عارفاً بأقدارهم ، لا يألو جهداً فى الاحسان اليهم ، والاعتناء بشأنهم » .

وقال المؤرخ الافرنسى «لاجونكيير La Jon quiere » : إن عصر سليمان القانونى لم يكن له نظير ؛ سواء من جهة الفنون والآداب ، أو من جهة المفاخر الحربية سوى عصر لويس الرابع عشر فى فرانسة ، مع الفرق بأن دور سليمان انتهى كما بدأ فى

عنجهية الظفر ، ولم تكن نهايته إدباراً و بدايته إقبالا ، ولم يعهد أن السلطنة العثمانية أنجبت فى عصر من الأعصر من أعاظم الرجال بقدر ما أنجبت فى عهد السلطان سليمان فقد نبغ فيها من رجال السياسة ؛ ابراهيم باشا ، و رستم باشا ، وصقولى باشا . ومن رجال البحر ؛ خير الدين بر بر وس ، وطور غوت ، ودراغوت ، و بيالى . ومن قادة الجيوش فرهاد باشا ، وأرسلان باشا ، وحمزة باشا ، وميكال أوغلى . ومن كتاب السلطنة جلال زاده ، ومحمد إيغرى عبدى . ومن الفقهاء ؛ ابو السعود افندى ، وابن كمال باشا

ونبغ فى عصره من الشعراء ؛ عبد الباقى الذي كان عند الاتراك كما كان المتنبى عند العرب ، وحافظ عند الفرس . وكان السلطان سليمان يجل عبد الباقى اجلالاً زائداً و يجعله حلية عصره . ولما كان السلطان سليمان نفسه شاعراً فقد بعث اليه بابيات يلقبه فيها بشاعر آل عثمان . ومن شعراء ذلك الوقت يحيى بك الذى رثى الامير مصطفى ابن السلطان سليمان ولم يحقد عليه السلطان بسبب ذلك ، بل خصّص له مرتباً . ومن شعراء ذلك العصر فضولى ، والر وانى ، والسامعى ، وغيرهم . ومن مآثر السلطان سليمان المعدودة ؛ جامع السليمانية الذى لا يوجد بناء أجل ولا أدق منه في أبنية آل عثمان ، وكذلك جامع السليمية الذى بنى على قبر السلطان سليم الأول . وجوامع محمد وجهانغير فى غلطة . وجامع السلطانة الخاصكى . وفى زمانه جرى إصلاح قناة المياه المسماة « بقناة يوستنيانيوس » فى استانبول . وكذلك جدد السلطان سليمان قناة جديدة على الحنايا الى دار السلطنة ، ولو شاء الكاتب أن يحصى جميع مآثر السلطان سليمان من الأبنية الفخمة ، والآثار الخالدة ، لاحتاج الى كتاب كبير ، وهو مع ذلك إنما تخصص بالقوانين حتى أطلق عليه المؤرخون اسم « القانونى » وكان له مزيد الاعتناء برتب العلماء ، وتوفير الجرايات لهم ، و إغنائهم عن الناس . وقد ميزهم فى أمو ر كثيرة وهذا دأب جميع آل عثمان .

وله قوانين كانت فى غاية الحكمة ، لولاها لم تكن السلطنة العثمانية بلغت ما بلغته من السعادة فى زمانه ، فان الحر وب بينه و بين دول النصرانية ، و بين دول آسيا أيضا كانت متصلة ، وكانت الجيوش تتلو الجيوش ، والزحوف تتبع الزحُوف ، وجميعها

تقدر بمئات الألوف من العساكر ، فلو لم تكن البلاد معمورة ، والنعم موفورة والارزاق فائضة ، والخيرات دارّة ؛ لم يكن يتيسر للسلطان قضاء نصف قرن فى الجهاد المستمر ، وتعبية الجيوش الجرّارة بدون استنزاف حياة المملكة . والحقيقة أن السلطان وجه عناية خاصة الى مسئلة تنظيم المالية ، وترتيب الخراج ، بشكل يفى باحتياجات الدولة بدون أن يرهق الرعية . و بلغت واردات السلطنة فى أيامه نحوا من تسعة ملايين وعشرين ألف دوكه ! ! هذا عدا واردات الخزانة الخاصة التى كانت تبلغ أيضا خمسة ملايين دوكة . هذا ولما بلغ سليمان سِنّ الكبر صار قليل الخروج إلى الديوان ، وصار الوزراء يستبدون و يسترسلون الى شهواتهم ـ وفى هذا أصاب سليمان من الانتقاد ما أصاب عبد الرحمن الناصر الأموى الذى يشبه سليمان فى طول مدة حكمه ، بل تولى عدة سنوات زيادة على حكم سليمان ـ و يشبهه فى سعة ملكه ، وعظمة أعماله ، وتوالى فتوحاته ، وسعادة الرعية فى ظله ، ولكنه في آخر الأمر اعتمد على خواصه ، وأخلد الى الراحة . فشكا الرعية من عمّاله ، وتناولوه باللوم ، وأشرعوا اليه أسنة الانتقاد ، ولكنه لم يمنع هذا أن يكون عبد الرحمن الناصر وسليمان القانونى كل منهما نسيج وحده ، وأن يكون مفخرة من مفاخر الإسلام الكبرى .

وجاء فى « شذرات الذهب » أنه فى سنة ٩٧٤ كما فى « النورالسافر » أو٩٧٥ كما فى كتاب « الأعلام » . توفى السلطان سليمان خان بن السلطان سليم خان الحادى عشر من ملوك آل عثمان . قال في الأعلام : كان سلطاناً سعيداً ، ملكا أيّده الله بنصر الاسلام تأييداً ، ولى السلطنة بعد وفاة أبيه السلطان سليم خان فى سنة ست وعشرين وتسعمائة ، وجلس على تخت السلطنة وما دَمِى أنف أحد ، ولا أريق فى ذلك محجمة من دم . ومولده الشريف سنة تسعمائة ، واستمر فى السلطنة تسعاً وأربعين سنة ، وهو سلطان غازٍ فى سبيل الله ، مجاهد لنصرة دين الله ، مرغم أنوف عداه ، بلسان سيفه وسنان قناه ، كان مؤيداً فى حروبه ومغازيه ، مسدداً فى آرائه ومعازيه ، مسعودا فى معانيه ومغانيه ، مشهودا فى وقائعه ومراميه ، أيان سلك ملك ، وأنّى توجه فتح وفتك ، وأين سافرسفر وسفك ، وصلت سراياه إلى أقصى الشرق

والغرب ، وافتتح البلدان الشاسعة الواسعة بالقهر والحرب ، وأخذ الكفار والملاحدة بقوة الطعان والضرب . وكان مجدّد دين هذه الأمة المحمدية فى القرن العاشر ، مع الفضل الباهر ، والعلم الزاهر ، والأدب الغض الذى يقصر عن شأوه كل أديب . وشاعر إن نَظَم فمقود الجواهر أو نثر فمنثورَ الأزاهر ، و إن نطق قلد الأعناق نفائس الدر الفاخر . له ديوان فائق بالتركى ، وآخر عديم النظير بالفارسى ، تتداولهما بلغاء الزمان ، وتعجز أن تنسج على منوالهما فضلاء الدوران . وكان رؤوفا شفوقا ، صادقا صدوقا ، إذا قال صدق ، و إذا قيل له صدّق ، لايعرف الغلّ والخداع ، بل يتحاشى عن سوء الطباع ، ولا يعرف المكر ولا النفاق ، ولا مساوى الأخلاق ، بل كان صافى الفؤاد ، صادق الاعتقاد ، منور الباطن ، كامل الايمان ، سليم القلب خالص الجنان .

وما تناهيت فى بثى محاسنه إلا وأكثر مما قلتُ ما أدع

وأطال صاحب الأعلام فى ترجمته وترجمة أولاده ، وذكر غزواته ، فذكر له أربع عشرة غزوة انتصر وفتح فى جميعها ، وذكر كثيراً من مآثره ، فمن ذلك الصدقة الروميّة التى هى الآن مادة حياة أهل الحرمين الشريفين ، فانه أضاف اليها من خزائنه الخاصة مبلغاً كبيرا . ومنها صدقات الجوالى ــ ومعناه مايؤخذ من أهل الذمة فى مقابلة استمرارهم فى بلاد الاسلام تحت الذمة وعدم جلائهم عنها ــ وهى من أجلّ الأموال ولأجل حلّها جعلت وظائف للعلماء والصلحاء ، والمتقاعدين من الكبراء . ومنها إجراء العيون ، ومن أعظمها أجراً عين عرفات إلى مكة المشرفة ، ومنها بمكة المدارس الأربع ، ومنها تكيّتهُ ومدرسته العظيمة بمرجة دمشق ، إلى غير ذلك مما لا يحصى فرحمه الله رحمة واسعة . انتهى ملخصاً . ومن أراد البسط الزائد فليراجع الأعلام . اه

قلت : كان سليمان القانونى يجمع أحياناً بين الأضداد ، فانه قد اشتهر عنه من الرأفة والعفو مالا خلاف فيه ، كما أنه ثبت كونه أمر بقتل أولاده الذين بلغه أنهم كانوا يريدون أن يخلعوه ، والملك ــ كما يقال ــ عقيم ، فلا تنفع فى جانب الاستئثار بالملك رأفة ولا شفقة ، وهذا من وجوه الشبه أيضاً بين السلطان سليمان القانوني

والخليفة عبد الرحمن الناصر الأموى ، الذى قتل أيضاً ابنه . وكان الحامل له على قتله سبب أشبه بالسبب الذى حمل السلطان سليمان على قتل ابنه مصطفى ، وهو ولوع الناس به ، وحوم القلوب عليه ، واشتهاره بالعلوم والآداب .

هذا وقد رثى السلطان سليمان المفتى أبو السعود العمادى الشهير بمرثية هى و إن كانت من شعر العلماء ، وعلى لهجة الفقهاء ؛ فهى لا تخرج عن طبقة الشعر العالى قال :

أصوت صاعقة أم نفخة الصور ... فالأرض قد ملئت من نقر ناقور
أم ذاك نعى سليمان الزمان ومن ... قضت أوامره فى كل مأمور
وَمَنْ وَمَنْ ملأ الدنيا مهابته ... وسخرت كل جبّار وتيمور
مجاهد فى سبيل الله مجتهد ... مؤيد من جناب القدس منصور
وصدق عزم إلى الخيرات منصرفٍ ... وحسن لحظٍ على الألطاف مقصور

ومنها :

يا نفس مالك فى الدنيا مخلفة ... من بعد رحلته عن هذه الدور
وكيف تمشين فوق الأرض غافلة ... أليس جثمانه فيها بمقبور
يانفس فاتئدى لا تهلكى أسفاً ... فأنت منظومة فى سلك معذور

وأما العلماء الذين نبغوا فى زمان السلطان سليمان القانوني ، فمنهم المولى خير الدين الذى كان معلماً للسلطان ، وكان قد حصل على حشمة وافرة بسبب جاهه عند السلطان سليمان ، ومع ذلك لم يتبدل مافى طبعه من التواضع ولين الجانب . ومنهم قادرى شلبى ، وتقلب فى المناصب العلمية حتى صار قاضياً للعساكر ، ثم عزل عن ذلك وتولى الافتاء بالقسطنطينية . ومنهم سعد الله بن عيسى ، وأصله من قسطمونى وتولى القضاء بالقسطنطينية ، ثم تولى الافتاء بها ، وكان محمود السيرة مرضىّ الطريقة . ومنهم الشيخ محمد بن إلياس المشتهر « بچوى زاده » تولى القضاء بمصر ، ثم صار قاضياً للعسكر المنصور ، ثم تولى الافتاء بالقسطنطينية ، ثم تقاعد عن الفتوى وعاد إلى التدريس وكان قوّالا بالحق ، صادعاً بالشرع ، وقال صاحب « الشقائق النعمانية » : إنه

كان من محاسن الايام . ومنهم المولى محيي الدين محمد بن قطب الدين ، وكان مدرساً وما زال يترقى حتى تولى قضاء العساكر ، ثم عزل عن القضاء فرجع الى التدريس ، ثم ترك التدريس وذهب إلى الحج ورجع ، وانقطع للعبادة واعتزل الناس . ومنهم المولى حافظ محمد بن احمد باشا بن عادل باشا أصله من بردعة ، فى حدود العجم ، قرأ فى تبريز وفاق أقرانه ، وبلغ الغاية من العلوم العقلية مع الرسوخ التام فى الفقه ، والتفسير والحديث ، ومع الأدب ، والتاريخ ، ولم يكن يفتر عن الكتابة ، وله تآليف كثيرة وشروح وحواش على كتب السيد الشريف الجرجانى ، وله رسالة اسمها « الهيولى » وله كتاب اسمه « مدينة العلم » جعله ثمانية أقسام ، وأورد فى كل قسم منها اعتراضات على ثمانية من العلماء المشهورين فى الآفاق ؛ كصاحب الهداية ، وصاحب الكشاف والبيضاوى ، والتفتازانى ، والشريف الجرجانى ، ونحوهم . وله رسالة اسمها « نقطة العلم » ورسالة أخرى اسمها « معارك الكتائب » ورسالة أخرى اسمها « السبعة السيّارة » وكان بالجملة من أعاظم العلماء ، ومنهم الشيخ محمد التونسى المغوشى ، قال عنه الطاشكُبْرى صاحب « الشقائق النعمانية » : إنه أجازه ، وقال إنه كان آية من آيات الله الكبرى فى العلم والفضل والتحقيق ، وكان يقرأ القرآن العظيم على السبع القراآت ، بل على العشر . وذلك بدون مطالعة كتاب ، وكان يحفظ الشرح المطول للتلخيص ، مع حواشيه للسيد الشريف ، و يحفظ شرح المواقف للسيد ، وشرح المطالع لقطب الدين الرازى ، والكشاف مع حواشى الطيبى ، وغير ذلك من الكتب يحفظها بأسرها . ولم يكن يحتاج إلى كتاب ، ولا إلى ورقة ، بل كان يملى كل شىء من حفظه ! وقد يكون شأنه فى هذا من خوارق العادة ، وفى آخر الأمر استأذن السلطان سليمان فى الذهاب إلى مصر فراراً من برد استانبول الذى لم يألفه ، وتوفى فى مصر .

ومنهم المولى عبد الفتاح بن احمد بن عادل باشا ، كان من المدرسين الكبار وتوفي وهو يدرّس بمدرسة الوزير ابراهيم باشا فى القسطنطينية ، ومنهم المولى علاء الدين على الاصفهانى ، وكان أيضا من كبار المدرسين ، وأصله من بلاد العجم . ومنهم مصلح الدين المشهور « بجاك » وأصله من بلاد منتشا ، وكان مدرساً ثم انقطع عن

التدريس ، وانقطع للعبادة . ومنهم شاه قاسم بن الشيخ المخدومى من أهل تبريز لما فتح السلطان سليم تلك البلدة أتى به معه إلى بلاد الروم ، وكان من الأدباء .

ومنهم قاضى زاده الاردبيلى ، وهو من تبريز أيضا ، فلما فتحها السلطان سليم أتى به أيضا الى بلاد الروم . وقد ترجم « تاريخ ابن خلكان » الى الفارسية وقتل مع الوزير احمد باشا نائب السلطان سليمان فى مصر . ومنهم محيي الدين محمد القراباغى قرأ فى بلاد العجم ثم أتى إلى بلاد الروم ، وعاش مدرسا ، وله تآليف منها شرح لرسالة « إثبات الواجب » للدواني ، وحواشٍ على شرح « الوقاية لصدر الشريعة » وكتاب فى المحاضرات اسمه « جالب السرور » وقد تلقى علماء عصره هذه الكتب بالقبول . ومنهم ابن الشيخ الشبشرى ، وقرأ فى بلاد العجم ، وجاء الى بلاد الروم وله قصيدة بالفارسية مقدار ستين بيتا مصراع كل بيت منها تاريخ الجلوس السلطان سليمان وكان المصراع الاخير تاريخاً لفتح قلعة رودس وله كتب وحواش على تآليف السيد الجرجانى ، وأثنى السيد الطاشكوبرى عليه فى أخلاقه .

ومنهم الشريف العجمى ، قرأ فى بلاد العجم ، ثم جاء الى بلاد الروم وعاش مدرساً ومات وهو مدرس فى إزنيق . ومنهم حسام الدين ابن الطباخ ، ولد فى مدينة غاليبولى وكان من المدرسين ، وتولى القضاء ثم ترك القضاء والتدريس ، وكان عالى الهمة لا يتذلل الى أرباب الجاه ولا يذكر أحداً بسوء . ومنهم محمد بن پير محمد باشا الجمالى قرأ على والده ، ثم على أحمد بن كمال باشا ، وتولى التدريس باحدى المدارس الثمان فى القسطنطينية ، ثم صار قاضياً فى أدرنة ومات وهو قاض بها . ومنهم المولى عبد اللطيف من قسطمونى ، وكان أيضاً من أكابر المدرسين ، ثم استقضى فى أدرنة ثم ترك القضاء وكان على جانب عظيم من الصلاح ، همّه فى آخرته لا فى دنياه . ومنهم المولى بايزيد الشهير « بنقيضى » وكان مدرساً صالحاً لا يلتفت الى الدنيا ، وكان يرضى من العيش بالقليل . ومنهم يعقوب الحميدى ، وهو من المدرسين أيضاً وكان عابداً متصوّفاً . ومنهم محمد الشهير « بابن المعمار » كان مدرساً فى أسكوب ، ثم جاء مدرساً فى احدى المدارس الثمان بالقسطنطينية واستقضى فى مدينة حلب مرتين ، ومات وهو

قاض بحلب ، وكان مرضىّ السيرة . ومنهم شمس الدين أحمد المشهور «بابن الجصّاص» صار قاضياً بدمشق ، ثم صار مدرساً باحدى المدارس الثمان فى القسطنطينية ، ومات وهو مدرّس بها . ومنهم علاء الدين على المشهور « بجرجين » وكان يدرّس فى المدارس المشهورة ، ومات وهو يدرّس باحدى المدارس الثمان . ومنهم سيدى المنتشوى الملقب « بالدبّ » وكان من المدرسين . ومنهم المولى حيدر الملقب « بحيدر الأسود » كان مدرساً ، ثم استقضى بمدينة حلب ولم تحمد سيرته فى القضاء فغضب عليه السلطان وعزله ، فعاش فى القسطنطينية وبنى مسجداً ووقف عليه أوقافاً إلا أن اشتغاله بأمور الدنيا كان أكثر من اشتغاله بالعلم عفا الله عنه . ومنهم عبيد الله شلبى بن يعقوب الفنارى من جهة الأم ، كان قاضيا فى مدينة حلب . قال صاحب الشقائق : إنه كان حميد الاخلاق الى الغاية ، وكان من الكرم بما لامزيد عليه ، وربما تجاوز حد الكرم الى الاسراف ، وملك أموالا عظيمة وكان ينفقها كلها ، وملك عشرة آلاف مجلد من الكتب ، وله شرح على «البردة الشريفة» من أحسن شروحها .

ومنهم حسام الدين حسين الشهير « بكدك حسين » كان من المدرسين الكبار ومات وهو مدرس فى طرابزون ، وكان من أهل التقوى والصلاح . ومنهم محمد الشهير « بابن القوطاس » أصل أبيه من بلاد العجم وجاء الى الروم ، وتوفى محمد المذكور وهو يدرس بمدرسة محمود باشا فى القسطنطينية . ومنهم سنان الدين يوسف ابن أخى الآيدينى الشهير « باخى زاده » قرأ فى بلاد العجم ، ودرّس فى بلاد الروم وكان عالماً سليم النفس على فطرة الاسلام . ومنهم المولى جلال الدين القاضى ، كان مدرساً ثم صار قاضياً ، وكان عالماً فاضلاً صالحاً محمود الطريقة فى قضائه . ومنهم محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عمر الحلبى ، كان مدرساً ثم تولى القضاء ، وكان مشتغلا بنفسه ، سليم الطبع خاشعاً متواضعا ، وقد بنى دار التعليم بالقسطنطينية . ومنهم ابن الكتخدا الكرميانى قرأ فى بلاد العجم على العلامة جلال الدين الدوانى ، وتولى التدريس فى الروم ، ثم صار قاضياً وحمدت سيرته فى القضاء . ومنهم بدر الدين محمود

من أولاد الشيخ جلال الدين الرومى ، كان مدرسا باحدى المدارس الثمان ، وكان صاحب أخلاق كريمة . ومنهم بدرالدين محمود بن عبيد الله ، كان مدرسا فى إحدى المدارس الثمان ، ثم تولى القضاء بحلب ، ثم بأدرنه ، ومات وهو قاض بها . وكان مستقيم الطريقة . ومنهم اسحاق الأسكوبى ، كان مدرساً باحدى المدارس الثمان ، ثم استقضى بدمشق ، ومات وهو قاض بها . وكان صدوقا صحيح العقيدة .

ومنهم أبو السعود المشتهر « بابن بدر الدين زاده » وكان قاضياً ومن أهل العلم ومنهم دلى برادر ، وكان من المدرسين ثم ترك التدريس وسكن فى القسطنطينية بقرب البحر ، وبنى مسجدا ووقف عليه حماما ، ثم ارتحل إلى مكة وجاور بها إلى أن مات . ومنهم جعفر البروسوى المشتهر « بنهالى » كان مدرساً ثم صار قاضياً فى غلطة من القسطنطينية ، ثم مال إلى العزلة وكان خفيف الروح ظريف الطبع . ومنهم باشق قاسم ، وكان من المدرسين وهو من أصحاب اللطائف والنوادر ، ولكنه كان من الصالحين ، وقد عمر نحواً من مائة سنة . ومنهم فخر الدين بن اسرافيل زاده ، كان من المدرسين ثم صار قاضيا بدمشق أولا وثانيا ، وكان له اختصاص بالعلوم العقلية . ومنهم شمس الدين احمد بن عبد الله ، كان من المدرسين ثم تولى قضاء دمشق ومات وهو قاض بها وكان محمود الطريقة . ومنهم حسام الدين حسن شلبى القَرَاصُوىّ كان مدرساً باحدى المدارس الثمان ، ثم استقضى بالقسطنطينية ، وكان من العلماء ومنهم أمير حسن الرومى ، كان من المدرسين ومات وهو يدرس بدار الحديث فى أدرنة . وله حواش على شرح الفرائض للسيد الشريف . ومنهم محمد الشاه بن شمس الدين اليكانى ، كان مدرسا باحدى المدارس الثمان ، ومات وهو مدرس بها وكان مشتغلا بنفسه لا يذكر أحداً بسوء . ومنهم سليمان الرومى ، كان مدرساً ومات وهو مدرس باحدى المدرستين المتجاورتين بأدرنة . قال صاحب الشقائق : وكانت وفاته فى مجلس خاص بالعلماء عند حضور سلطاننا الاعظم فى وليمته المباركة لختن أولاده الكرام ، وقد سقط مغشياً عليه ، فحمل من المجلس الى خيمة ومات هنالك وكان معرضاً عن أبناء الزمان لا يذكر أحداً إلا بخير — يريد بقوله سلطاننا الاعظم

السلطان سليمان القانونى . ومنهم قطب الدين المرزيفونى ، وكان من المدرسين ، ومات وهو يدرس فى طرابزان ، وله تعليقات على « شرح المفتاح » للسيد الشريف. ومنهم المولى پير احمد ، كان مدرساً ثم استقضى بحلب ، وكان صحيح العقيدة لا يذكر أحداً بسوء . ومنهم محمد بن الشيخ محمود المغلوى الوفائي ، كان من المدرسين ، وكان محباً للطريقة الوفائية ، وكان عالماً مؤلفاً وله حواش على حاشية شرح التجريد للسيد الشريف ومنهم احمد بن حمزة القاضى الشهير « بعرب شلبى » قرأ فى مصر الصحاح الستة من الأحاديث ، والفقه ، والأصول ، والهندسة ، والهيئة ، وجاء إلى القسطنطينية فبنى له الوزير قاسم باشا مدرسة بقرب مدرسة أبى أيوب الانصارى ، فدرس هنالك طول حياته . ومنهم ورق شمس الدين ، وكان مدرساً بمدرسة أبي أيوب الانصارى رضى الله عنه ، وكان صالحا لا يذكر أحداً بسوء . ومنهم محمد بن عبد الأول التبريزى كان والده قاضى الحنفية بتبريز ، ورأى المولى جلال الدين الدوانى وهو صغير ، وحكى أن علماء تبريز كانوا يجلسون بين يدى الدوانى مطرقين رؤوسهم . وجاء محمد المذكور إلى بلاد الروم فأعطاه السلطان بايزيد مدرسة ، ثم أعطاه السلطان سليمان مدرسة أيضا ، ثم استقضى بحلب ، ثم بدمشق ، ثم بالقسطنطينية ، وكانت له اليد الطولى فى العلوم العربية والانشاء ، وكان كثير الاهتمام بالمحسنات اللفظية ، ولم يكن يذكر أحداً بسوء . ومنهم محمد بن عبد القادر المشتهر «بالمعلول» كان مدرسا باحدى المدارس الثمان ثم تولى قضاء مصر ، ثم قضاء العسكر ، وكان من أصحاب الثروة بنى دار القراء فى القسطنطينية وغيرها . ومنهم محمد الشهير « بِرْجَا شَلَبى » كان من مدرسى المدارس الثمان ، وتولى قضاء دمشق ، ثم قضاء أدرنة ، ومات وهو قاض بها ، وكان محمود السيرة . ومنهم پير محمد بن علاء الدين على الفنارى ، كان من مدرسى المدارس الثمان ، وعلى جانب من العلم والورع . ومنهم علاء الدين على بن صالح ، كان مدرساً باحدى المدارس الثمان ، ثم استقضى بأدرنة ، ومات وهو قاض بها ، وكانت له يد فى الانشاء ، وترجم « كليلة ودمنة » إلى التركية ترجمة حسنة . ومنهم صالح الاسود

وكان مدرساً باحدى المدارس الثمان ، ومات وهو يدرس بها ، وكان عالما صالحاً كاسمه . ومنهم المولى أبو الليث وكان مدرسا باحدى المدارس الثمان ، ثم استقضى بحلب ، ثم بدمشق ، وتوفى وهو قاض بها ، وكان فاضلا حسن العقيدة . ومنهم فخر الدين بن محمد بن يعقوب وكان مدرسا باحدى المدارس الثمان ، فاضلا صاحب أخلاق ، مات فى عنفوان شبابه . ومنهم مصلح الدين مصطفى الشهير « بمصدر » درس باحدى المدارس الثمان ، ثم استقضى بمدينة حلب ، ثم صار قاضيا بمكة المشرفة واتصل بخدمة العارف بالله السيد على بن ميمون المغربى . ومنهم محمد الشهير « بشيخى شلبى » درس باحدى المدارس الثمان ، ومات وهو يدرس بها ، وكان محمود الطريقة لايذكر أحداً إلا بخير . ومنهم سنان الدين يوسف الشهير « كو برجك زاده » ودرس باحدى المدارس الثمان ، و بمدرسة أياصوفيا ، وأفتى ببلدة أماسية ، وكان مرضى الطريقة . ومنهم عبد الرحمن المؤيدى المشهور « بحاجى شلبى » وكان مدرساً بمدرسة أبى أيوب الانصارى ، ثم باحدى المدارس الثمان ، وكان عالما بالعلوم العربية ، و ينظم الشعر العربى الحسن ، ومات وهو شاب . ومنهم محيى الدين محمد بن عبدار الشهير « بمحمد بك » اتصل بخدمة الفاضل ابن كمال باشا ، ثم صار مدرسا بالمدارس المشهورة ثم ظهر اختلال فى دماغه ، ثم برىء منه فسافر إلى مصر ، فأسره النصارى واسترده بعض أصدقائه منهم ، وفى زمان السلطان سليمان تولى التدريس ، ثم استقضى بدمشق وكان ماهراً فى العلوم العقلية والعلوم الرياضية .

ومنهم مناسترلى شلبى ، درس فى مناستر ، ثم اختار العزلة واشتغل بالعلم والعبادة وكان من الصالحين . ومنهم الشيخ ابراهيم الحلبى . خطيب جامع السلطان الفاتح بالقسطنطينية ، وكان من حلب وقرأ فى مصر ، ثم أتى القسطنطينية فصار خطيباً بجامع السلطان محمد ، ومات عن تسعين سنة ، وكان فقيهاً أصولياً تقياً نقياً ، ملازماً لبيته لايراه أحد الا فى بيته أو فى المسجد ، واذا مشى فى الطريق يغض بصره عن الناس ، ولم يسمع منه ذكر أحد بسوء ، وله عدة تصانيف أشهرها كتاب فى الفقه سماه « بملتقى الابحر » . ومنهم محمد الحسينى الشهير « بسيرك محيى الدين » كان معلماً

للأمير محمد بن السلطان سليمان ، وكان من ذوى السمت الحسن . ومنهم محيي الدين محمد القوجوى الشهير « بمحيي الدين الأسود » كان معلماً للامير مصطفى بن السلطان سليمان ، وكان عالماً عاملاً مستقيم الطريقة ، لا يذكر أحداً بسوء . ومنهم المولى خير الدين خضر ، كان معلماً للامير مصطفى بن السلطان سليمان ، وتوفى وهو معلم له . ومنهم هداية بن يار على العجمى ، كان من المدرسين باحدى المدارس الثمان ، ثم صار قاضيا بمكة ، ثم ترك القضاء وجاء الى مصر وتوفى بها ، وكانت له مشاركة فى العلوم مع الأدب والتواضع . ومنهم محى الدين محمد بن حسام الدين ، تنقل فى المدارس الشهيرة بين بروسة ، وتيرة ، وأماسية ، وشورلو ، ومناستر ، ومغنيسيا ، وأدرنة وتولى القضاء بدمشق ، ثم فى أدرنة ، ثم فى القسطنطينية . وكان مطلعا على علم الكلام ، وله يد فى التواريخ والمحاضرات . ومنهم محيي الدين الآيدينى المشتهر « باهلجه » وكان من المدرسين ، ومات وهو يدرس بسلطانية بروسة ، وكان من الصالحين . ومنهم عبد القادر الشهير « بعبدي » كان من كبار المدرسين ، ثم صار قاضيا بمكة ، ثم فى مصر ، وتوفى وهو قاض بها ، وكان مرضى السيرة فى قضائه . ومنهم حسام الدين حسين شلبى القراصوِىّ ، وكان مدرسا باحدى المدارس الثمان وتوفى وهو مدرس بها ، وكانت له نسبة خاصة الى العلوم العقلية . ومنهم كمال الدين الشهير « بكمال شلبى » وكان من المدرسين باحدى المدارس الثمان ، واستقضى بدار السلام بغداد ، وتوفى وهو قاض بها ، وكان صحيح العقيدة كريم الاخلاق . ومنهم أمير حسن شلبى ، وكان مدرسا باحدى المدارس الثمان ، ثم بمدرسة أيا صوفيا ، وكان من أهل المروءة والفتوة . ومنهم محمد بن الوزير مصطفى باشا ، كان مدرسا بسلطانية بروسة ومات شابا . ومنهم محيي الدين محمد بن المولى خير الدين معلم السلطان سليمان كان مدرسا بمدرسة الوزير مصطفى باشا بالقسطنطينية ، ومات شابا . ومنهم فرج خليفة القرامانى ، وكان مدرسا باحدى المدارس الثمان ، ومات وهو مدرس بها . ومنهم شمس الدين احمد اللازبى المعروف « بشمس الأصفر » وتنقل فى التدريس الى أن صار باحدى المدارس الثمان ، ثم صار مدرساً بمدرسة السلطان سليمان

بالقسطنطينية . ومنهم شمس الدين احمد البروسوى ، وكان من المدرسين وتوفى فى أوائل أيام السلطان سليمان . ومنهم عبد الرحمن بن يونس الامام ، وكان مختصا بعلم الكلام ، وقد مات شهيداً . ومنهم عبدالكريم الويزوى ، كان مدرسا وتوفى مفتيا فى مغنيسيا . ومنهم شمس الدين احمد الشهير « بالقاف » تنقل فى المدارس الشهيرة ، ثم قضى بدمشق ، وكان حسن السمت ، ومنهم سعد الدين الأقشهرى تنقل فى المدارس الشهيرة وأفتى بأماسية ، ومات وهو مدرس بمدرسة السلطان مراد فى بروسة ، وكان عابداً زاهداً . ومنهم خير الدين الاصغر ودرس فى أسكوب ، ثم فى شورلو ، ثم مات وهو يدرس بها . ومنهم عبد الرحمن المشهور « بابن الشيخ » كان مدرسا ثم اعتزل التدريس وانقطع الى الله تعالى ، وكان لايذكر أحداً بسوء ، وكان يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، هذا مع القناعة والورع ، والرضى من العيش بالقليل . ومنهم حسن القرامانى ، وكان مدرسا ثم استقضى فى غلطة ، ثم فى طرابلس ، ثم فى سلانيك وتوفى بالقسطنطينية ، وكان صاحب ثروة مع الخير والدين وحسن السمت فى قضائه ولم يكن يذكر أحداً بسوء . ومنهم محيى الدين الشهير « بابن الحكيم » كان قاضيا بالمدينة المنورة صلى الله على ساكنها ، ومات وهو قاض بها ، و بنى مدرسة بالقسطنطينية ومنهم عبد الحى بن عبد الكريم بن على بن المؤيد من أماسية ، درس ببلده ، ثم بالقسطنطينية ، ثم صار قاضيا بعدة من البلاد ، ثم اعتزل القضاء و رغب فى التصوف وكان محمود الطريقة . ومنهم سنان الدين يوسف ، أصله من قره سى ، كان متصوفا واعظا يجلس للوعظ فى جامع الأمير محمد بن السلطان سليمان ، وكان عابداً زاهداً تتلألأ أنوار الصلاح من جبينه ، ذا شيبة جليلة .

ومنهم بدر الدين محمود الآيدينى ، توفى وهو يدرس بمدرسة محمد باشا فى القسطنطينية وكان مشتغلا بالعلم والعبادة . ومنهم علاء الدين الآيدينى ، وكان مشتغلا بالتدريس مع العبادة . ومنهم شمس الدين محمد بن عمر بن أمر الله بن الشيخ آق شمس الدين المشهور ، وكان معلماً للأمير سليم بن السلطان سليمان ، وهو الذى تولى السلطنة بعد أبيه ، وتوفى شمس الدين محمد هذا فى سن الشباب . ومنهم المولى خير الدين من

قسطمونى ، وكان مدرساً ثم صار معلماً لبعض أبناء السلطان سليمان . ومنهم المولى بخشى ، كان معلماً للسلطان سليم بن السلطان سليمان . ومنهم جعفر المنتشوى ، وكان معلماً للسلطان بايزيد بن السلطان سليمان ، وكان مشتغلا بنفسه . ومنهم المولى درويش سبط المولى سنان باشا ، وكان من المدرسين . ومنهم مصلح الدين بن المَنتشوى وكان من المدرسين المعروفين . ومنهم سعد الله المعروف « بابن شيخ شاذيلو » وكان من المدرسين أيضا ، وعلى الفطرة الاسلامية . ومنهم عبد الكريم ابن عبد الوهاب بن عبد الكريم ، وكان عالما صالحا وتوفى شابا . ومنهم الشريف مير على البخارى ، قرأ على علماء عصره فى بخارى ، وسمرقند ، ثم جاء إلى بلاد الروم فى زمان السلطان سليمان ، وله شرح لطيف على « الفوائد الغياثية » من علم البلاغة للعلامة عضد الدين . ومنهم حسام الدين حسين النقاش العجمى ، من أهل تبريز رأى العلامة الدوانى ، وكان رجل من العلماء يقال له غياث الدين منصور ، يريد أن يباحث الدوانىّ ، فقال ملك تبريز للعلامة الدوانى : يريد غياث الدين أن يتكلم معك فى بعض المباحث ؟ فقال الدوانى : يتكلم مع الأصحاب ونحن نتشرف باستماع كلامه ، ولم يتنزل إلى المباحثة مع غياث الدين . ثم إن النقاش العجمى المذكور جاء إلى بلاد الروم ، ثم جاور بمكة ، ثم جاء إلى القسطنطينية . وكان شافعي المذهب وكان حافظا للأحاديث والتواريخ ، وله شرح على « البردة الشريفة » . ومنهم مهدى الشيرازى الشهير « بفكارى » قرأ فى شيراز وأتقن علم الكلام ، والمنطق والحكمة ، وجاء إلى بلاد الروم وصار مدرسا بمدرسة فلبة ، ومات وهو مدرس بها وكانت له تآليف ، وكان كاتبا بالعربية .

ومنهم المولى سعي ، وكان أديبا بالعربية والفارسية والتركية ، وتوفى فى أوائل سلطنة سليمان خان . ومنهم المولى قاسم ، لازم خدمة العارف بالله ابن الوفاء ، ثم نصبه السلطان بايزيد معلما لخدّامه ، وذلك لعلمه وصلاحه ، وكان سريع الكتابة وسرعة كتابته لو وصفت لربما لم يصدق السامع . ومنهم ابن المكحل ، كان خطيباً بجامع الفاتح بالقسطنطينية ، وكان بليغاً صالحاً . ومنهم محيي الدين بن المرجون

وكان حسن الصوت عارفا بالقراآت ، وتولى الخطبة بجامع أيا صوفيا . ومنهم المولى پير محمد ، كان ماهراً بالقراآت ، وصار خطيباً بجامع السلطان بايزيد بالقسطنطينية ومنهم الحكيم سنان الدين يوسف ، ومهر فى الطبّ ، ونصب طبيبا فى مارستان أدرنة ، ثم فى مارستان القسطنطينية ، ثم صار طبيبًا للسلطان سليم خان « الثانى » وهو بعدُ أمير على طرابزان ، ولما تولى السلطنة جعله طبيبا لدار الساطنة . ثم جعله السلطان سليمان رئيسا للأطباء و بقى على ذلك إلى أن توفى سنة إحدى وخمسين وتسعمائة . قال صاحب الشقائق : وسألته عن مدة عمره قبيل موته بشهر أو شهرين فأخبر أن سنه مائة أو أكثر بسنتين . ومع ذلك لم يتغير عقله ، إلا أنه ظهر فى يديه رعشة ، فسألته عن ذلك فقال : إنها من ضعف الدماغ ، فتعجبت من إخباره عن ضعف الدماغ مع ماله من كمال الادراك والفهم . وكان طبيبا مباركا ، وله احتياط عظيم في معالجاته لقوة صلاحه ، وكان لا يذكر أحداً بسوء . ومنهم الحكيم عيسى ، كان طبيبا لمارستان أدرنة ، ثم صار طبيبا بدار الساطنة ، وكان متصفا بكرم الأخلاق ، مملوءاً بالخير من فَرْقِهِ إلى قدمه . ومنهم الطبيب عثمان أصله من العجم جاء فى زمان السلطان سليم إلى بلاد الروم وصار طبيبا بدار السلطنة ، وكان خيرا صالحا . ومنهم يحيى شلبى المعروف « بأمين زاده » كان أبوه من أمراء الدولة العثمانية ، وغلب عليه حب الكمال ، واشتغل بالعلم ، وكان صاحب كمال وجمال ، وقرأ على المولى كمال باشا زاده ، وعلى المولى على شلبى الجمالى ، ثم صار معيداً لدرسه ، ثم صار مدرساً وأخذ يتنقل فى المدارس الشهيرة ، ثم صار قاضيا ببغداد ، ثم صارمدرسا بدار الحديث التى بناها السلطان سليمان بالقسطنطينية وكان أبعد الناس عن ذكر مساوىء الناس . قال صاحب الشقائق : ولم يسمع منه كلمة فيها رائحة الكذب أصلا ولا كلمة فحش ، وكان ماهرا في العلوم الأدبية ، وفى التاريخ ، والمحاضرة .

ومنهم عبد الكريم القادرى الملقب « بمفتى شيخ » كان متصوفاً ، جلس فى زاوية أيا صوفيا الصغير بالقسطنطينية ، واشتغل بالارشاد ، ونصبه السلطان سليمان مُفتيا ، وظهرت مهارته فى الفقه ، وكان إذا قعد فى الخلوة الأربعينية يرتاض رياضة

قوية ، ويحفر فى الأرض كالقبر ويقعد في تلك الحفرة ، وربما تتعطل حواسه من شدة رياضته ، وبعد تمام الأربعين يخرج إلى الناس ويعظهم إلى وقت الخلوة من السنة القابلة ، وكان متواضعاً خاشعاً ، يستوى عنده الكبير والصغير . ومنهم الشيخ محمود شلبى ، انتسب إلى العارف بالله السيد احمدالبخارى وتزوج بابنته ، وبعد موته قام مقامه . قال صاحب الشقائق : وكنت لاأقدر على النظر إلى وجهه الكريم لانعكاس حيائه إلىّ ، وكان يقرأ عنده كتاب « المثنوى » يؤوّله على طريقة الصوفية ومنهم الشيخ پيرى خليفة الحميدى ، وكان من اتباع السيد البخارى ، زاهداً عابدا منقطعاً عن الناس . ومنهم حاجى خليفة المنتشوى ، كان من طلبة العلم ثم انتسب إلى خدمة الشيخ محمود شلبى الذى ذكرناه وحصل عنده التصوف ، وأكمله وأجاز له بالارشاد ، وكانت له كلمات مؤثرة فى القلوب ، وكل من جالسه يمتلىء قلبه خشية . ومات وهو مجاور بالمدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة وأزكى التحية . ومنهم الشيخ بكر خليفة السياوى ، وكان من المتصلين بخدمة الحاج خليفة المذكور ، وخلفه بعد وفاته ، وكان مشتغلا بالحقائق ، منقطعاً عن الخلائق . ومنهم سنان الدين يوسف الأردبيلى ، وكان من أتباع العارف بالله شلبى خليفة ، اشتغل بالارشاد ، وسكن بزاوية عند جامع أيا صوفيا ، ومات عن مائة سنة . ومنهم الشيخ رمضان وهو من المتصوفة أخذ عن الشيخ قاسم شلبى وجلس مكانه بعد وفاته فى زاوية الوزير على باشا بالقسطنطينية . ومنهم الشيخ بالى خليفة كان من خلفاء الشيخ قاسم شلبى ، ومات ببلدة صونية بعد الخمسين والتسعمائة . ومنهم مصلح الدين مصطفى الشهير « بمركز خليفة » وكان من أتباع العارف بالله الشيخ سنبل سنان ، صارفاً أوقاته للرياضة . ومنهم الشيخ سنان خليفة من خلفاء الشيخ سليمان خليفة . وكان رجلا أمياً إلا أنه كان صاحب أحوال سنية ، وجذبات عظيمة ! ومنهم مصلح الدين مصطفى الشهير « بكندر » كان متصوفاً اتصل بالشيخ محيي الدين القوجوى ، وخلفه بعد وفاته . وكان منقطعا عن الناس لايخرج من بيته إلا ليصلى فى مسجده . ومنهم محيي الدين الازنيقى ، وكان من أتباع محيي الدين الاسكليبى ، وكان من الزاهدين . وممن تربى

عند الأسكليبي الشيخ اسكندر دده بن عبد الله ، وكان رجلا أميًا حصل ببركة التصوف على معارف ذوقية تتحير فيها العقول ، كما يقال عن سيدى عبد العزيز الدباغ رضى الله عنه . ومنهم محيي الدين محمد ، كان ببلدة اشتب فى الروملى وكان من العارفين بالله . ومنهم الشيخ ادريس ، كان من خلفاء شلبى خليفة وتوطن بدمشق .

وكان من خلفاء الشيخ ادريس مريد اسمه الشيخ داود خليفة وكان عابداً إلا أنه كان يدعى أنه يصاحب المهدى ، وأن المهدى من جماعته . ومنهم الشيخ باباحيدر السمرقندى ، جاء إلى بلاد الروم و بنى له السلطان سليمان مسجداً فى ظاهر القسطنطينية وكان خاشعاً يستوى عنده الكبير والصغير . ومنهم صفى الدين الملقب « بشيخ السرّاجين » من أماسية . ومنهم الشيخ محيي الدين محمد من قرية بقرب أماسية ولم يكن يأكل إلا من زراعة يده . ومنهم الشيخ عبدالغفار من بلدة مدرنى ، وكان أبوه منتسبا إلى طريقة الزينيّة ، وكان فى شبابه تابعا لهوى نفسه ، فرأى فى منامه أن والده قد ضربه ضربا شديداً ووبخه ، فلما أصبح ذهب إلى الشيخ رمضان وتاب على يده . وكانت له توبة عظيمة . ومع هذا فقد كان من العلماء والأدباء ، قال صاحب الشقائق : وكان من محاسن الأيام . ومنهم الشيخ إسحق ، وكان طبيباً نصرانياً قرأ على المولى لطفى الطوقاتى المنطق ، والعلوم الحكمية ، واهتدى للاسلام ، فترك الطب والحكمة ، واشتغل بتصانيف الامام الغزالى ، وداوم على العمل بالكتاب و السنة ، إلا أنه أنكر التصوف لأنه لم يصل إلى أذواقهم . ومنهم الشيخ أحمد شلبى الأنقروى كان من العلماء ، ثم رغب فى التصوف ، ولما بلغ سن الشيخوخة أقام بمدينة أنقرة . ومنهم السيد الشريف عبد المطلب بن السيد مرتضى ، وكان سيداً صحيح النسب ، وحصل العلم والأدب ، ثم رغب فى التصوف وصحب الشيخ ابن الوفاء وأجاز له بالارشاد الشيخ يحيي الطوزلرى وزوّجه بابنته ، إلا أنه لم يؤثر العزلة والخلوة بل بقى يختلط بالناس . ومنهم الشيخ عبد المؤمن من أتباع السيد على بن ميمون ، انقطع فى مدينة بروسة ، ومن الناس من لم يكن يعتقد به ، ولكن يقال إنهم كانوا يفترون

عليه إتباعاً لأغراضهم . ومنهم الشيخ شجاع الدين الياس من الطريقة الخلوتية وكان أمياً تغلب عليه الجذبة . ومنهم الشيخ احمد بن مركز خليفة ، حصل العلم ، ثم مال إلى التصوف ، وانتفع به كثير من الناس . ومنهم نور الدين حمزة الكرمياني كان من طلبة العلم ثم رغب فى التصوف ، واتصل بسنبل سنان ، ثم بمحمد بن بهاء الدين ، وكان مواظبا على آداب الشريعة . ومنهم تاج الدين ابراهيم الشهير « بالشيخ الأصغر العريان » وكان منقطعاً عن الناس ، ساكناً بقرب « مغنيسيا » ومنهم محيي الدين المعروف « بامام قلندرخانة » صحب الشيخ حبيباً القرامانى والشيخ ابن الوفاء ، والسيد احمد البخارى ، وكان عالما ولكن انقطع عن الناس ، وكان خطيباً بجامع قلندرخانه . قال الطاش كو برى صاحب الشقائق : سألته عن سنه فقال مائة أو أقل منها بسنتين ، وعاش بعد ذلك مقدار ثمان سنين .

ومنهم مصلح الدين مصطفى من خلفاء السيد احمد البخارى ، كان متوطناً فى القسطنطينية فى زاويته المسماة « بذات الأحجار » منقطعا إلى الله مشتغلا باصلاح أصحابه . ومنهم العارف بالله الشيخ على الكازروانى ، وكان فى أول أمره اتصل بخدمة السيد على بن ميمون المغربى ، وكان له اطلاع على الخواطر وأحوال القلوب . ومنهم احمد بن مصطفى بن خليل الطاش كو برى صاحب كتاب « الشقائق النعمانية فى علماء الدولة العثمانية » ونشأ فى أنقرة ، وكان أبوه من العلماء فاعتنى به ، فقرأ على علاء الدين الملقب باليتيم النحو والصرف ، وقرأ على عمه ، وعلى أبيه ، وعلى خاله وعلى المولى محيي الدين الفنارى ، وعلى المولى محيي الدين القوجوى ، وعلى المولوى محمود ابن قاضى زاده ، وعلى الشيخ محمد التونسى ، وأجازه العلماء الكبار . وتولى التدريس بمدرسة قلندرخانه بالقسطنطينية ، ثم انتقل إلى إحدى المدارس الثمان ثم إلى مدرسة السلطان بايزيد بأدرنة ، واستقضى فى بروسة وتوفى وهو مدرس باحدى المدارس الثمان بالقسطنطينية وله كتاب اسمه «المعالم فى علم الكلام» وحاشية على «حاشية التجريد » للسيد الشريف ، وله كتاب كبير فى التاريخ جمع فيه ماذكره ابن خلكان وأضاف اليه . وقد جمع كتابه الشقائق النعمانية بعد أن أصابه الضرر فى عينيه ، لأنه

بعدأن تولى القضاء كف نظره ، فصح فيه المثل : إذا جاء القضاء عمى البصر . ومنهم يحيي بن نور الدين الشهير « كوسج الأمين » وتنقل فى المدارس الشهيرة ، ولما بنى السلطان سليمان مدرسته بالقسطنطينية ، وجعلها دار الحديث أعطاه إياها ، ثم بلغ السلطان عنه شيء فغضب عليه وعزله ، فأصابه غم شديد لم يعش بعده كثيراً . ومنهم محمود الآيديني المعروف « بخواجه قايني » وكان من كبار المدرسين ، وتولى القضاء بحلب ، ثم بمكة . ومنهم المولى مصلح الدين وكان مدرساً فى المدارس الشهيرة ، وتولى قضاء بغداد ، وقضاء حلب ، واستقضى فى أدرنة ، ثم فى القسطنطينية ، وأناف عمره على تسعين سنة . ومنهم مصلح الدين بن شعبان من غاليبولى ، وكان معلماً للامير مصطفى ابن السلطان سليمان ، وكان لا يقطع أمراً إلا بمشورته ، فلما قتل السلطان ابنه عند خروجه من طاعته وقع فى هوة الفقر ، وصبر على نوائب الدهر . ومنهم المولى محيي الدين الشهير « بجرجان » وكان يدرس فى المدارس الشهيرة ، ثم تولى الافتاء ، ثم عزل بكائنة خروج الامير بايزيد بن السلطان سليمان . ومنهم محمد بن محمد الشهير « بعرب زاده » وكان مدرسا فى إحدى المدارس الثمان ، وتولى قضاء مصر وسافر إليها بحراً فى قلب الشتاء فأصابتهم عاصفة فغرق هو وجماعة من رفاقه . ومنهم نعمة الله الشهير « بروشنى زاده » وتنقل فى المدارس الشهيرة ، ثم تولى قضاء المدينة المنورة ، وحمدت سيرته فى القضاء ، ولـكنه كان فى لسانه بذاءة يحذره الناس من أجلها . ومنهم شاه على شلبى بن قاسم بك ، وكان من أصحاب الزهد والصلاح . ومنهم شمس الدين احمد بن أبى السعود وكان مدرساً فى إحدى المدارس الثمان ، ثم فى مدرسة الامير محمد بن السلطان سليمان ، وتوفى وهو مدرس فيها . ومنهم قورد احمد شلبى ابن خير الدين معلم السلطان سليمان ، وكان مدرسا . ومنهم غرس الدين احمد ، نشأ فى حلب ، ثم قصد دمشق وأخذ الطب فيها عن رئيس الاطباء المشهور « بابن المكى » ثم ارتحل إلى مصر وأخذ العلوم العقلية والرياضيات عن الشيخ ابن عبدالغفار ، وأخذ علوم الدين عن القاضى زكريا . ومنهم عبدالباقى بن علاء الدين العربي الحلبى ، وكان من المدرسين المشهورين ، وتقلد القضاء فى حلب ، وفى مكة ، وفى مصر ، وكانت له شهرة عظيمة

إلا أنه كان مقبلا على الدنيا . ومنهم الشيخ عبد الرحمن بن جمال الدين المعروف « بشيخ زاده » وكان من جلة العلماء ، وأجازه المفتى أبوالسعود . ومنهم محمد بن المفتى أبي السعود ، وكان مدرسا وتقلد القضاء فى دمشق . ومنهم المولى صالح بن جلال وكان السلطان سليمان أمره بترجمة بعض الكتب الفارسية فأتمها فى قليل من الزمن ثم تولى قضاء حلب ، ثم قضاء مصر ، ومنهم محيي الدين الشهير « بابن الامام » وتولى قضاء حلب . ومنهم الشيخ تاج الدين ابراهيم بن عبد الله ، وكان يدرس بمدرسة سليمان باشا فى إزنيق ، وله تآليف من جملتها رد على ابن كمال باشا . ومنهم دده خليفة وتولى التدريس ثم الافتاء ، وله تآليف منها حاشية على «شرح التفتازانى فى الصرف» .

السلطان سليم الثانى

هذا وتولى بعد السلطان سليمان الكبير ولده السلطان سليم الثانى ، وذلك في أوائل ربيع الأول سنة أربع وسبعين وتسعمائة ، وكانت وفاة السلطان سليمان رحمه الله فى اليوم الثانى والعشرين من صفر سنة أربع وسبعين وتسعمائة ، وجاؤا بجنازته إلى القسطنطينية ، وكان يوماً عظيما ، و بقى خبر موته مكتوماً خمسين يوماً ، وجاء فى تاريخ سلطنة سليم الثاني : سليم تولى الملك بعد سليمان .

ولما جاء سليم بجنازة أبيه إلى القسطنطينية لم يوزع على الانكشارية العطايا التى اعتاد السلاطين توزيعها عند جلوسهم على عرش السلطنة ، فحصلت ثورة صارت تتفاقم ، وعجز الوزراء عن قمعها ، وخاف السلطان على نفسه فاضطر إلى إجابة طلب العساكر ، وأنفق جميع ما فى الخزانة حتى أسكتهم . وكان سليم الثانى أول سلطان انحرف عن الجادة التى كان يسير عليها آل عثمان ، فانهم كانوا بأجمعهم أبطالا يباشرون القتال بأنفسهم ، ولا يعرفون للراحة معنى ، ولم يكن لهم غرام إلا بالفتوحات وتأييد الاسلام ، وتحصين ثغور المملكة ، وقهر عداها . وكانت همم جميعهم سامية لا يعرف منهم نِكْس ولا وكَلَ ، فما بدأ دور التراخى في آل عثمان إلا فى زمن سليم الثانى . وكان محباً للدعة والراحة ، ملازماً للحرم مدمناً لشرب الخمر ، مسترسلا إلى الشهوات

وفى أيامه ارتفع التحريج عن الخمرة ، فكاد يعم شربها . وإنما روى صاحب الدر المنظوم أنه قبل موته تاب وكسر أدوات اللهو وأوانى الشراب ، وكان قد ألقى السلطان سليم بمقاليد الأمر إلى وزيره الصوقلى ، ولولا الصوقلى لسقطت هيبة السلطنة . ولم يمت سليمان القانونى حتى انعقدت فى ١٧ فبراير سنة ١٥٦٨ معاهدة بين الدولة العثمانية والمجر على أن كل فريق يحفظ ما بيده ، وأن النمسا تؤدى للدولة ثلاثين ألف دوكة سنويا ، وتعترف بسيادة الباب العالى على البغدان ، والفلاخ ، وترانسلفانيا . ولم تحصل النمسا على هذا الصلح إلا بعد أن رشت رجال الباب العالى بأربعين ألف دوكة .

وكان الصوقلى يريد أن يرسل عساكر تستولى على بلاد الفولغا فى شمالى الروسيا حتى يقطع ما بين الروس وبين آسيا ، فسرح جيشا إلى استراخان ولكن لم توفق تلك الغزاة برغم جميع ما بذله الصوقلى من العناية ، ولم يساعده خان القريم « دولة غرائى » كما كان ينتظر . وفكر الصوقلى فى فتح « ترعة السويس » لتتمكن الدولة العثمانية من البحر الأحمر والبحر الهندى ، ولكنه لم يتمكن من إجراء فكرته هذه بسبب توالى الحروب . وفى زمن السلطان سليم الأول كانت الحجاز واليمن دخلتا فى طاعة الدولة ، ولكن الزيدية لم يلبثوا أن ثاروا على العثمانيين بقيادة الامام مطهر وبعد أن دخل الأتراك إلى صنعاء أخرجوهم منها ومن سائر المدن ، ولم يبق ترك إلا فى زبيد . فأرسلت الدولة سنان باشا الأرناؤوطى فتغلب على الزيدية واعترف الامام مطهر بسيادة السلطان . وفى زمن سليم الثانى افتتحت الدولة « جزيرة قبرص » ويقال إن الذى رغّب السلطان فى فتحها رجل يهودى برتغالى اسمه « يوسف ناسى » مدح له خمر قبرص ، فجرد عليها أسطولا وفتحها ، وقيل إنه وعد هذا البرتغالى بتوليته قبرص ، ولكنه بعد الفتح استحيي من انجاز ذلك الوعد المدنى الذى حمله عليه الشرب ولكنه أعطى البرتغالى لقب «دوك ناكسوس» وكان الوزير الصوقلى غير مرتاح إلى فتح قبرص يفضل على ذلك إنجاد مسلمى الأندلس الذين كانوا يثورون المرة بعد الأخرى على الاسبانيول ، ويستنجدون آل عثمان . ولكن « لالا مصطفى باشا »

والوزير « بيالى » وقبطان البحر أرادوا السلطان على فتح قبرص . فساقت الدولة مائة ألف مقاتل إلى تلك الجزيرة ، ونزلت العساكر فى ١ آب سنة ١٥٧٠ . وحاصر العثمانيون « نيكوزيا » وأخذوها عنوة ، ويقال إنهم قتلوا عشرين ألفا من الأهالى واستولى الاتراك على « ليماسول » و « لارناكا » وامتنعت « فاماغوستة » وردّت هجمات الأتراك ، لكنها لم تقدر على المقاومة الى الآخر ، واستولى الترك عليها ، وقتلوا قائدها « براغادينو » الذى أبدى تلك المقاومة الشديدة . ولما وصل خبر قبرص الى أوربة اتفقت البندقية ، والبابا ، ودولة اسبانيا ، وفرسان مالطة ، وجهزوا أسطولا كبيراً منه سبعون سفينة اسبانيولية ، وتسع سفن لفرسان مالطة ، واثنتا عشرة سفينة للبابا ، ومائة وأربعون سفينة للبندقية ، فتلاقى هذا الاسطول بالاسطول العثمانى فى ٧ اكتوبر سنة ١٥٧١ وكان الاسطول العثمانى ثلاثمائة سفينة ، واشتبك القتال بازاء جزائر « كورزولارى » على سواحل بلاد الارناؤوط .

ووقعت سفينة قبطان البحر العثمانى بين سفينتى الأميرال الاسبانيولى ، والاميرال البندقي ، فجاءت أربع سفن عثمانية لأجل تخليص أمير البحر العثمانى ، وفى أثناء المعمعة أصابته رصاصة فسقط ، وهجم الاسبانيول وقطعوا رأسه ، ودارت بعد ذلك الدائرة على العثمانيين ، فأخذ الأسطول المسيحى منهم مائة وثلاثين سفينة غصباً ، وأحرقوا أربعاً وتسعين ، وغنموا ثلاثمائة مدفع ، وأسروا ثلاثين ألف مقاتل ، وأنقذوا خمسة عشر ألف أسير مسيحى . ولم ينج من الأسطول الاسلامى الا أربعون سفينة لأمير الجزائر . وكانت خسائر أسطول النصرانية لا تزيد على خمس عشرة سفينة ، وثمانية آلاف مقاتل . وبعد هذه المعركة المشهورة بمعركة « ليبانت » لم تقم للبحرية الاسلامية قائمة تحمد فى البحر المتوسط .

ولهذه المعركة قرعت طبول البشائر فى جميع العالم المسيحى ، ولا يزال أهل ايطاليا يحتفلون كل سنة بتذكار هذه الموقعة . ولما بلغ الخبر السلطان امتنع ثلاثة أيام عن الطعام ، وطرح نفسه على الأرض يستغيث بالله أن يرأف بالاسلام ، لأن القوة البحرية التى كان أسسها سليم الأول وسليمان القانونى استولى عليها البوار بهذه الكائنة

ولكن الصوقلي بمهارته لم يلبث أن شرع بتجديد الاسطول العثماني بسرعة خارقة للعادة ، وعضده في ذلك أمير الجزائر « أولوج علي » وتوجهت عليه أمارة البحر . فبنى العثمانيون مائة وخمسين سفينة حربية ، وكان القرار هو أن يبنوا مائة وخمسين سفينة ثانية ، فقال قبطان البحر : إنه يصعب على الدولة استحضار كل لوازم هذه السفن ، فأجابه الصوقلي الصدر الأعظم : بأن السلطنة بمنابع ثروتها تقدر أن تجعل جميع الأسلحة من الفضة ، وجميع الاشرعة من الاطلس . وهكذا خرج الاسطول العثماني في سنة ١٥٧٢ بمائتين وخمسين بارجة حربية ، فعادت البندقية تحسب للعاقبة حساباً . وفي ٧ مارس سنة ١٥٧٣ ارتضت بالصلح مع الباب العالي ، وتخلت عن جزيرة قبرص ، ودفعت ثلاثمائة الف دوكة تعويضات . ثم طرد العثمانيون الاسبانيول من تونس واستولوا على هذه البلدة ، وامتنع الاسبانيول بحلق الواد الا أن « الدون جوان دوتريش » جاء باسطول الى تونس وردّ مولاى حسن الحفصي الى الملك ، ولم يطل هذا الامر اذ بعد سنة ونصف جاء سنان باشا ومعه أربعون الف مقاتل ، فطرد الحفصي والاسبانيول معاً ، واستولى على قلعة حلق الواد التي كان امتنع الاسبانيول بها.

ثم عصت بلاد البغدان ؛ فارسلت الدولة جيشاً خلع أميرها ، ونصب مكانه رجلاً اسمه « ايڤونيا » وفر أمير البغدان السابق الى الروسيا حيث قتله « ايڤان » ملك الروس . ثم إن ايڤونيا نفسه عصى على الدولة ، وظاهره القوزاق ، واستولى على « برايلا » و « بندر » و « اكرمن » فزحفت اليه الجنود العثمانية فهزمته ووقع في الاسر واستؤصل القوزاق باجمعهم . ومات السلطان سليم في ١٢ دسمبر ١٥٧٤ . ومع ما كان عليه هذا السلطان من القصور فقد كانت وفاته مصيبة على الدولة لأنه بعد وفاته سقط الصدر الاعظم الصوقلي وكان رجلا من دهاة الرجال ، وكان نادر المثال .

وجاء في « شذرات الذهب » نقلا عن الاعلام أن السلطان سليم الثاني ولد سنة تسع وعشرين وتسعمائة ، وجلس على تخت السلطنة يوم الاثنين لتسع من ربيع الآخر سنة أربع وسبعين وتسعمائة ، ومدة سلطنته تسع سنوات . وسنه حين تسلطن

ست وأربعون سنة ، وعمره كله ثلاث وخمسون سنة ، وكان سلطانا كريما ، رؤوفا بالرعية ، رحيما ، عفواً عن الجرائم حليما ، محباً للعلماء والصلحاء ، محسناً إلى المشايخ والفقراء ، طالما طافت بكفيه الآمال واعتمرت، وصدع بأوامره الليالى والايام فأتمرت كم أظهرت لسواد الكفرة يد صارمه البيضاء آية للناظرين ، وكم جهز جيوشا للجهاد فى سبيل الله فقطع دابر القوم الكافرين .

فمن أكبر غزواته فتح جزيرة قبرص بسيف الجهاد ، ومنها فتح تونس المغرب وحلق الواد ، ومنها فتح ممالك اليمن واسترجاعها من العصاة . ومن خيراته تضعيف صدقة الحب على أهل الحرمين ، والامر ببناء المسجد الحرام . وتولى بعده ولده السلطان مراد ، وتاريخ جلوسه :

بالبخت فوق التخت أصبح جالساً ملك به رحم الاله عباده
وبه سرير الملك سر فأرخوا حاز الزمان من السرور مراده

اه . وهو من نظم الشاعر « ماميه » الرومى .

وفى زمان السلطان سليم الثانى نبغ من العلماء : الشيخ محيي الدين المشتهر « بحكيم شلبى » وكان من الاطباء . وعلاء الدين المنوغادى ، وكان من المدرسين الكبار ، وتولى قضاء بغداد . والمولى شمس الدين احمد بن أخى القرامانى ، وكان أيضا مدرسا ، ثم تولى قضاء المدينة المنورة . ويعقوب الشهير « بجالق » وكان مدرسا أخيراً باحدى المدارس الثمان ، ثم تولى قضاء بغداد . وتاج الدين ابراهيم ، وقضى حياته فى التدريس ، وكان في المدرسة التى بناها السلطان سليمان فى دمشق . ومحمد ابن عبد الوهاب بن عبد الكريم ، وأخذ عن أبى السعود المفتى ، وعن كمال باشا زاده ، وتولى قضاء حلب ، ثم قضاء الشام ، ثم قضاء مصر ، ثم صار قاضيا بالعسكر المنصور . ثم اختلف مع الوزير الكبير فاعتزل ، وكان من الاجواد الكبار فوق علمه وفضله . ولما جمع المولى محيي الدين سباهى زاده حواشيه التى علقها على « حاشية التجريد » للسيد الشريف صدّرها باسمه فأعطاه مائة دينار . ويقال إنه حصل لهمن قضائه بالعسكر سبعون ألف دينار ، أنفقها كلها ومات وعليه أربعة آلاف دينار .

وكانت له مقالات على منوال « مقامات الحريرى » وعلق حواشى على « حاشية الدوانى للتجريد » وله شعر عربى بديع ، ومنهم السيد حسن بن سنان ، خدم المفتى أبا السعود ، ودرس فى المدارس الشهيرة ثم تقلد قضاء حلب ، ثم انتقل إلى مكة وحمد أهل الحجاز قضاءه . ومنهم مصلح الدين داود زاده ، وتنقل فى المدارس حتى صار إلى إحدى المدارس الثمان ، ثم إلى مدرسة سليم خان ، ثم تقلد قضاء المدينة . ولما دخل الحرم الشريف أعتق مماليكه ومات بالمدينة ودفن بالبقيع .

ومنهم المولى محمود معلم الوزير الكبير محمد باشا ، وتنقل فى المدارس ، ثم تولى قضاء القاهرة ، وحمد الناس قضاءه . ومنهم مصلح الدين الشهير « بمعلم السلطان جهانكير » ابن السلطان سليمان ، وكان من العلماء العاملين . ومنهم محيي الدين الشهير « بابن النجار » نشأ فى اسكوب من الروملى ، وتولى التدريس مدة طويلة ثم تولى قضاء بغداد ، وكان فاضلا أديبا ، وله نظم بالتركى والعربى . ومنهم عبد الرحمن المعروف « بالدارزاده » كان مدرسا فى ديموطقة ، ثم في القسطنطينية ، وتولى قضاء المدينة المنورة ، وقضاء حلب . ومنهم مصلح الدين بستان ، وكان مدرساً فى احدى المدارس الثمان ثم تولى قضاء بروسة ، ثم قضاء أدرنة ، ثم قضاء القسطنطينية ، ثم قضاء العسكر المنصور . وكان من فحول العلماء ، وله تآليف قيمة . ومنهم مصلح الدين الشهير « كوجك بستان » وكان من كبار المدرسين . وأفتى فى بلاد مغنيسيا .

ومنهم المولى عبد الله الشهير « بغزالى زاده » وهومن ذرية الامام الغزالى ، وكان منسوبا إلى الوزير الكبير رستم باشا وولاه القضاء فى قصبة أبى أيوب الانصارى مع قصبة غلطة ، فلما عزل رستم باشا عزل هو أيضا معه ، وكان محمود الطريقة . ومنهم المولى جعفر ابن عم المفتى أبى السعود ، كان مدرسا ثم تولى قضاء دمشق ، ثم قضاء العسكر فى الأناضول ، وكان عالما عابداً . ومنهم شاه محمد بن حزم ، وهو من ذرية جلال الدين صاحب « المثنوى » وكان من أكابر المدرسين ، وتقلد قضاء القاهرة ، ثم قضاء القسطنطينية ، وكان من فحول العلماء إلا أنه كان معجباً مستبداً صعب المقادة ، وله حواش على كتاب « الاصلاح والايضاح » لكمال باشا زاده ، وحاشية

على «حاشية التجريد» للسيد الشريف . ومنهم احمد بن عبد الله المشتهر « بالغورى» ودرس بمدرسة السلطان بايزيد فى دمشق ، وكان عالما أديبا له رسالة « فى علم الخط » ومنهم المولى يحيي بن عمر من أماسية ، وكان من المدرسين العظام ، و بلغ السلطان عنه شيء فعزله عن التدريس ، فانقطع عن الوزراء واتخذ مسكناً فى بشكطاش من القسطنطينية ، و بنى أيضاً مدارس ومسجداً ، وكان يطعم الفقراء ، وكان الناس يعتقدون فيه الولاية ، ولما مات صلى عليه المفتى أبو السعود ، وكانت له جنازة عظيمة . ومنهم احمد بن محمد بن حسن الصامسونى ، وقضى حياته فى التدريس ، وتولى مرة قضاء حلب ، وحمده الناس فى قضائه . ومنهم المولى عطاء الله معلم السلطان سليم الثانى وكان يعلمه عند ما كان أميراً على مغنيسيا ، فلما جلس على كرسى السلطنة حظى عنده وصار يشاوره ، وصار يقدم رجاله ور بما قدم غير المستحق على المستحق ، فخاض الناس فى عرضه ونسبوه إلى التعصب ، ولما مات كانت له جنازة حافلة ، وصلى عليه المفتى أبو السعود ، ونزل السلطان إلى الباب العالى بنفسه . ومنهم الشيخ رمضان وكان خطيباً فى جامع احمد باشا فى « چورلو » وتوفى هناك ، وكانت له تآليف وحواش . ومنهم پير احمد المشهور « بليث زاده » كان أبوه قاضياً فى مصر وقضى حياته فى التدريس . ومنهم المولى سنان وكان أيضا من المدرسين المعروفين ، ومن مزاياه أنه كان يسعى فى مصالح الناس مقصداً لذوى الحوائج . ومنهم علاء الدين على بن محمد المعروف « بحناوى زاده » وكان مدرساً فى إحدى المدارس الثمان ، ولما بنى السلطان سليمان المدرستين اللتين بناهما غربى جامعه الكبير أعطاه إحداهما ، ثم تولى القضاء فى دمشق ، ثم في بروسة ثم في أدرنة ، ثم فى القسطنطينية ، ثم صار قاضى العساكر وكان من فحول العلماء ، وقد جمع الأدب إلى العلم ، وله بدائع النظم ، وله كتب كثيرة . ومنهم الشيخ يعقوب الكرمانى . وكان أبوه من الجند ، ولكنه رغب فى العلم والعبادة . ومنهم محمد بن خضرشاه المعروف « بابن الحاج حسن » ، وكان مدرساً شهيراً . ثم تقلد قضاء المدينة المنورة ، ثم قضاء مكة المشرفة . ومنهم مصلح الدين اللارى نسبة إلى « اللار » بالراء المهملة . وهى مملكة بين الهند وشيراز ، جاء من

بلاده إلى القسطنطينية ثم خرج إلى ديار بكر وآمد ، ومات هناك . وله تآليف وحواش على الكتب المشهورة ، وأراد معارضة المفتى أبى السعود في قصيدته الميمية فقصر عنه . ومنهم الشيخ أبو سعيد بن الشيخ صنع الله ، أصله من بلاد تبريز وكان من المرشدين ، ومن الأجواد ، وكانت له كلمة نافذة عند الملوك . ومنهم شمس الدين احمد بن مصلح الدين المشتهر « بمعلم زاده » يقال إنه من ذرية ابراهيم أدهم رضى الله عنه . وكان مدرسا ثم تولى القضاء ، وما زال يرقى فى القضاء حتى تولى قضاء عسكر الروملي .

قال صاحب « العقد المنظوم ، فى ذكر أفاضل الروم » : إنه كان مجبولا على اللطف والكرم ، غير أن فيه طمعاً زائداً ، وحرصاً وافراً ، سامحه الله أولا وآخراً . ومنهم الشيخ بالى الخلوتى المعروف « بسكران » وتعاطى فى أول أمره التدريس ، ثم تبع الطريقة الصوفية فترك التدريس والافادة ، وعكف على الزهد والعبادة . ومنهم على بن عبد العزيز المشتهر « أم الولد زاده » وكان مدرساً كبيرا ، ولكنه لم يكن له حظ فعانى كثيرا من الفقر ، ونكبات الدهر ، ثم تولى قضاء حلب ، ولم يكد يتولاه حتى مات . وعارض المفتى أبا السعود فى قصيدته الميمية لأنه كان ضارباً بسهم فى الأدب ؛ متمكناً من لغة العرب . ومنهم الشيخ محيي الدين بركيلو ، وكان عالما عادلا قوالا بالحق لا يهاب الحكام والامراء ، وربما وبخهم فى وجوههم . ومنهم محيي الدين فكسارى زاده وكان مدرسا ، وكان فى قول الحق صارماً . ومنهم عبد الكريم بن محمد بن أبى السعود ، وتولى قضاء القسطنطينية ثم قضاء العسكر ، وكان من أفذاذ العلماء وتوفى وما بلغ عمره الثلاثين سنة .

وأما أبو السعود افندى المفتى بن مصطفى العمادى الشهير ؛ فانه كان حسنة زمان السلطان سليمان ، وكان منه بمقام القاضى أبى يوسف من هرون الرشيد ، والقاضى الفاضل من صلاح الدين يوسف ، والقاضى منذر بن سعيد البلوطى من عبد الرحمن الناصر الأموى ، ولم تطر شهرة أحد من شيوخ الاسلام فى دولة آل عثمان مطار شهرته

ولد رحمه الله سنة ثمان وتسعين وثمانمائة بقرية قريبة من القسطنطينية ، من

خواص أوقاف الزاوية التى كان السلطان بايزيد خان قد بناها للمولى محيى الدين العمادى والد أبى السعود ، وقرأ المولى أبو السعود على والده ، وعلى الشيخ عبد الرحمن المشتهر « بشيخ زاده » و بدأ أبو السعود افندى بالتدريس يتنقل من مدرسة إلى مدرسة حتى انتهى إلى إحدى المدارس الثمان ، ولما فارقها ودعها بأبيات منها :

دنا النأى عن نجد فأصبحت قائلا وداعاً لمن قد حل هـذى المنازلا
فياحبـذا تيك المعـالم والربى بها كل من تهوى وما كنت آملا
نسيم الصبا عرج عليها ونادِها سقَتك الغوادى وابلا ثم وابلا
نأت عنك دارى لا لِقلى وسآمـة بلى فعَلَ التقدير ما كان فاعـلا
ولن تبرح الأشواق تزداد فى الحشا إلى أن أرى أمراً من الدهر هائلا

وتقلد قضاء بروسة ، ثم قضاء القسطنطينية ، ثم قضاء العسكر فى الروملى .

قال صاحب الدر المنظوم : «ولما انتقل المولى سعدبن عيسى بن أمير خان إلى رحمة ربه ؛ اضطرب أمر الفتوى ، وانتقل من يد إلى يد ، ولم يثبت سقف بيته على عمد حتى تسلم أبو السعودافندى زمام الافتاء وذلك سنة اثنتين وخمسين وتسعمائة ، و بقى فى عهدته نحواً من ثلاثين سنة ، وكتب الجواب مراراً فى يوم واحد . ثم قال صاحب الدر المنظوم : «وسارت أجوبته فى جميع العلوم مسير النجوم» وكانت وفاة أبى السعود فى أوائل جمادى الأولى سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة ، وصلى عليه المولى سنان مُحَشّى «تفسير البيضاوى» ودفن فى جوار أبى أيوب الأنصارى . ثم قال صاحب الدر المنظوم : « إنه تفرد فى ميدان فضله فلم يجاره أحد ، وضاقت عن إحاطته صدور الحصر والحد ماصارع أحداً إلا صرعه ، وما صمم شيئاً إلا قطعه ، وانقطع عن القرين . ولم يبق من يعارضه ويكايده ، وقد وصل تلاميذه وأصحابه إلى المناصب السميّة ، والمراتب السنية ، فكان لايضيع منه كلام ، ولا يفوت له مرام . وقد عاقه الدرس والفتوى والاشتغال بما هو أهم وأقوى ؛ عن التفرغ للتصنيف ، سوى أنه اختلس فرصاً وصرفها إلى التفسير الشريف ، وقد أتى فيه بما لم تسمح به الأذهان ، ولم تقرع به الآذان وسماه « بارشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم » ولما وصل منه إلى آخر

سورة ص ورد التقاضي من طرف السلطان سليمان خان ، وظهر كمال الرغبة والانتظار فلم يمكن التوقف والفرار ، فبيّض الموجود وأرسله بصهره المولى محمد المشتهر «بابن المعلول» فقابله السلطان بحسن القبول ، وأنعم عليه بما أنعم ، وزاد في وظيفته كل يوم خمسمائة درهم . وبعد ذلك تيسر له الختام ، ورتبه بالكمال والتمام ، وأرسله إلى السلطان ثانياً بعد إتمامه ، فقابله السلطان بمزيد لطفه وإنعامه ، وزاد في وظيفته مائة أخرى .

وكان يمنعه عن الاكثار من التأليف تواتر الفتوى من الآفاق . ومن شمائله أنه كان ذا مهابة عظيمة قلما يقع في مجالسه أخذ ورد ، ولكنه كان كثير المداراة للناس مائلا إلى مداهنة رجال الحكومة ، وكان طويل القد ، خفيف العارضين ، غير متكلف في اللباس والطعام . انتهى بتصرف . وله من النظم القصيدة الميمية المشهورة

أبعد سليمى مطلب ومرام	وغير هواها لوعة وغرام
وفوق حماها ملجأ ومثابة	ودون ذراها موقف ومقام
وهيهات أن يثنى إلى غير بابها	عنان المطايا أو يشدّ حزام
هي الغاية القصوى فان فات نيلها	فكل منى الدنيا عليَّ حرام
سلا النفس عنها واطمأنت بنأيها	سلوّ رضيع قد عراه فطام

وهي تسعون بيتاً شرحها كثير من العلماء . وله مشيراً إلى تعلق الانسان بالعالم الجسماني قصيدة مطلعها :

طال الثواء بدارة الهجران	مثوى الكروب قرارة الاشجان

ومنها :

حتى مَ ترتع في مراتع غفلة	وإلى مَ تسلك مسلك الخسران
فكأن قلبك في جناحي طائر	بادي التقلب دائم الخفقان
مازلت تبغي مطلباً عن مطلب	وتحل في مغنى عقيب مغاني
أو ما كفى ما قد بلغت من المنى	قد كان ما في حيز الامكان
ألقى الزمان إليك حبل قياده	مع مابه من شدةٍ وحران

لو أنت تملك كل ما قد رمته فاعلم بأن جميع ذلك فانى
سر فى فضاء العالم العلوى كم هـذا الجثوم بعالم الجثمان
قد آن من شمس الحياة طلوعها من حضرة الأشباح والأبدان

وجاءه كتاب من شريف مكة ، فأجابه بجواب فيه ما يأتى :

وخريدة برزت لنا من خدرها كالبدر يبدو من خلال غمام
عربيـة فتنـكرت وازّينت بمـلابس الأعجام والأروام
طوبى لمن رزق الوقوف ببابها فهو المرام وأىّ أىّ مرام
باب إليـه تشوقى وتوجهي حَرَم عليـه تحيتى وسـلامى
ياليت شعرى هل أفوز بزورة يوماً وقد ضربت هناك خيامى

السلطان مراد الثالث

وتولى بعد سليم الثانى ابنه مراد الثالث ، وكان محباً للعلم والادب ، إلا أنه استولى عليه شهوتان ؛ إحداهما حب المال ، والثانية حب الجمال . وأفرط فى معاشرة النساء الى الحد الذى أضرّ بعقله ، ولـكنه أصدر أمراً قاطعاً بمنع الخمر ، فثار به الانكشارية والسباهية ، حتى اضطروه الى الغاء هذا الامر ، فانعكس المثل ، وصار : اليوم أمر وغداً خمر . وفى زمانه خرقت النمسا الصلح ، فسارت العساكر العثمانية وهزموا جنودها وقتل « هربرت بارون اوسبرغ » فى المعركة وأرسل رأسه الى القسطنطينية . فطلبت النمسا الصلح ، ولـكن العثمانيين لم يزالوا يشنون الغارات على استيريا ، وكارنيتا فاضطر النمسويون الى القتال . وفى ذلك الزمان صار « اتيان باتورى » ملكا على بولونيا ، فاتفق مع البابا ومع امبرطور المانيا على حرب صليبية يصلونها الاتراك ، وبدأت المذاكرة فى كيفية تقسيم السلطنة العثمانية . وقد سبق لنا فى حواشى « حاضر العالم الاسلامى » أن الممالك الاوربية فى مدة ستمائة سـنة قررت تقسيم السلطنة العثمانية و بلاد الاسلام مائة مرة ، ذكرنا كل واحدة منها ، وكيفية المذاكرات التى جرت بها فمن شاء فليراجع ذلك هناك .

وقد كانت عزيمة إتيان باتورى هذا من أهم هذه العزائم النصرانية بحق دولة آل عثمان . وكان يريد أيضاً استئصال إمارة موسكو ، ولكنه مات قبل أن يضع عزيمته هذه موضع الاجراء . وفى مدة مراد الثالث ضعفت قوة الصدر الاعظم الصوقلى ، وتغلب عليه رقباؤه ، وتمكنوا من عزل حواشيه والمنسوبين اليه ، وما زالوا يقصون من أجنحته الى أن أرسلوا من قتله سنة ١٥٧٩ ففقدت الدولة بفقده رأسها المفكر ، وعقلها المدبّر .

وكان شاه العجم طهماسب قد مات مسموماً ، وخلفه ابنه حيدر فقتل فى يوم مبايعته ، وتولى أخوه اسماعيل فاستقر فى الملك ثمانية عشر شهراً ، فانتهز العثمانيون الفرصة وشنوا الغارة على أطراف العجم ، واستولوا على بلاد كرجستان كلها ، وقسموها الى أربع ولايات ؛ فتولى أزدمير عثمان باشا ولاية شيروان ، وتولى محمد باشا تفليس وحيدر باشا صخوم ، وتولى ابن اللاوند على كرجستان الاصلية . فأرسلت سلطنة العجم أربعة جحافل لاسترداد بلاد كرجستان ، فوقعت المعارك بين الفريقين ، وكانت الحرب سجالا بينهما . الا أن أزدمير عثمان باشا فى الداغستان كان دائماً مظفراً . فأتم فتح داغستان وكرّ على الروس .

ولما كان خان القريم تخلف عن مساعدة الدولة أراد أن يقاتله ، فزحف محمد غرائى خان القريم بأربعين الف فارس ، وكاد يوقع بأزدمير عثمان باشا ، الا أن إسلام غرائى اخا محمد تولى القريم من قبل السلطان ، فزحف على اخيه فتفرق عن محمد غرائى جميع جنده وقتل . فلما رجع أزدمير عثمان باشا الى القسطنطينية ، دخل بأبهة عظيمة لم تحصل لقائد قبله ، وتولى الوزارة العظمى مع قيادة الجيش الزاحف لحرب العجم . ثم إنه سار بمائة وستين الف مقاتل الى تبريز ، وهزم العجم ، ودخل تلك البلدة ، ولكن ساءت صحته فتعطلت الحركات العسكرية ، وظفر حمزة مرزا قائد العجم بالعثمانيين .. وفى أثناء ذلك مات عثمان باشا ، وتقهقر الجيش العثمانى ، ورجع العجم فحصروا تبريز وحملوا عليها خمسة عشر حملة ، وأصلوها ثمانية وأربعين معركة ولكنهم لم يقدروا عليها ، وأرسلت الدولة فرهاد باشا لنجدتها . وفى هيمة ذلك اغتيل

القائد حمزة مرزا ، وظفر فرهاد باشا ظفراً عظيما بالايرانيين ، فاضطر الشاه عباس الى طلب الصلح ، فانعقدت المعاهدة على أن تبقى كرجستان ، وشيروان ، ولورستان وتبريز ، وقسم من أذربيجان للدولة العثمانية . وفى زمن مراد الثالث اضطربت المملكة بكثرة الفتن ، وظهرت علامات اختلال الادارة ، فثار الانكشارية فى استانبول لأنهم أرادوا أن يؤدوا اليهم رواتبهم بعاملة ورق رقيق لم يرتضوا بها ، فهجموا على قصر السلطان .

وفى مصر ثار الجند على أويس باشا الوالى ، وفى تبريز خرج الجند أيضاً عن الطاعة فذبح منهم جعفر باشا ألفاً وثمانمائة ، وفى بود عاصمة المجر انتقض الجند بسبب تأخر أرزاقهم وقتلوا الوالى . وما زال الجند ـ لا سيما الانكشارية ـ يزدادون تمرداً حتى قررسنان باشا الصدر الأعظم الدخول فى حرب مع دولة أجنبية ليشغل الانكشارية عن العصيان ، فسرح جيشاً تحت قيادة حسن باشا والى بوسنة يهاجم النمسا ، فانهزم حسن باشا وزحف سنان باشا بنفسه ففتح « فيسبريم » و « بالوته » إلا أن قائد بود انهزم واستولت النمسا على تسع قلاع ، ثم ثارت « ترانسيلفانيا » و « الفلاخ » و « البغدان » واتحدت هذه الامارات الثلاث مع النمسا وقتلوا المسلمين الذين كانوا ساكنين فيها ، ولم تكن أحوال السلطنة العثمانية فى زمن هذا السلطان على ما يرام بل اضطرب الحبل ، ومات السلطان فى ٦ يناير سنة ١٥٩٦ .

ونبغ فى زمن هذا السلطان من العلماء : الطبيب الياس القرامانى ، وكان فى الأصل طبيباً ثم تبحر فى العلوم العقلية والنقلية ، ولكنه بقى يتعاطى الطب . وكان فرهاد باشا من وزراء السلطان مراد الثالث مبتلى بحبس البول ، فأشار عليه الطبيب الياس بتناول معجون تناوله ، فمات بعد ذلك بالزحير ، فاتهم الطبيب بأنه تعمد قتل فرهاد بإشارة من الوزير محمد باشا الذى كان رقيبه ، فدخلت زوجة فرهاد باشا على السلطان وطلبت قتل الطبيب ، فأخذ وحبس وأمر السلطان بالتحقيق ، فلم يثبت شىء على الطبيب وشفع به المفتى والعلماء . فأخرج من الحبس ، فجاء خدام فرهاد باشا وقتلوه . ولما وقف السلطان على ذلك غضب غضباً شديداً ، وقبض على ستين شخصاً

من جماعة فرهاد باشا ، وصلب منهم عشرة ، ونفى الباقين . ومنهم مصلح الدين بن علاء الدين المشتهر « بجراح زاده » ولد فى أدرنة وقرأ على المولى لطف الله بن المولى شجاع ، ثم تبع طريق الصوفية ، وصار من الأولياء ، ومات بأدرنة ، وتنسب إليه الكرامات الكثيرة . ومنهم عبد الرحمن بن على الأماسى ، كان من المدرسين ثم استقضى فى بروسة ثم فى أدرنة ، ثم فى العسكر المنصور ، ثم فى مكة المكرمة . وكان ذا خطوة عند السلطان سليم الثانى ، و بقى إلى زمن السلطان مراد الثالث . ولكن صاحب الدر المنظوم نبزه بمداهنة الوزراء وانهماكه بالرئاسة ، وليس ذلك مستحسناً فى العلماء . ومنهم الشيخ محرم بن محمد من قسطمونى ، وكان من المتصوفة . ولما أتم السلطان سليمان جامعه الشهير نصب له به كرسى ، فكان يدرس تارة و يعظ أخرى ومنهم المولى شمس الدين أحمد ، وكان من العلماء وأصحاب الأخلاق . ومنهم محمد بن أحمد المشتهر « بزَن » كان أبوه من ندماء السلطان سليم الأول ، وطلب العلم وانتهى بأن صار من المدرسين ، يتنقل من مدرسة إلى أخرى ، ودرس فى مدرسة السلطان سليمان بجزيرة « رودس » ، وكان أطلس بحيث إذا عرى عن زى الرجال يشتبه أمره على النظر ، و يكون مصداق ما قال الشاعر :

وما أدرى وسوف أخال أدرى أقوم آل حصن أم نساء ؟ !

يحكى أنه كان مع السلطان مراد الثالث ببلدة مغنيسيا ، وكان قد ظهر الجراد وأكل الزروع كلها ، فقال السلطان : كأنما الجراد لعب بلحية المفتى أيضاً . ومنهم أحمد بن حسن الصامسونى ، وكان من المدرسين ، ثم تولى قضاء حلب ، ثم قضاء دمشق ، ثم قضاء مكة ، وحمدت سيرته . ومنهم محمد بن عبد العزيز المشتهر « بمعيد زاده » من مرعش ، لازم المولى خير الدين معلم السلطان سليمان ، وصار يتنقل فى المدارس ، ودرس فى مدرسة السلطان سليمان فى دمشق ، ثم تولى قضاء بيت المقدس وكان عالماً أديباً ، وله نظم يمدح به أهل بروسة و يقول فيهم :

رأيناهم أشد الناس حبًّا لأهل العلم رأساً أو مسوساً
فلو كان البلاد بنى أبينا لكانت هذه فيهم عروساً

ومنهم المولى محمود المشتهر « بالكاتب » ولد فى سلانيك ، وكان من المدرسين المعروفين ، وتولى قضاء بغداد ، ثم قضاء آمِد . ومنهم المولى زين العباد من أولاد الشيخ ابراهيم التنورى القيصرى ، ولد فى قيصريه ، وطلب العلم ، واتصل بكبار العلماء ، وأخذ عنهم ، وصار من المدرسين ودرّس فى دمشق بمدرسة السلطان سليمان . ومنهم رمضان المشتهر « بناظر زاده » وكان من المدرسين المعروفين ، وتقلد قضاء الشام ، ثم قضاء مصر ، وكان عالماً عاملا حسن الصورة والسيرة ، احترز من التأليف خوفا من الخطأ . ومنهم المولى حسن ولازم المفتى أبا السعود ، ودرس باحدى المدارس الثمان ، وتقلد قضاء الشام ، ثم قضاء مصر ، ثم قضاء مكة ، ثم قضاء القسطنطينية . ومنهم المولى حامد من قونية . وكان من المدرسين ، وتقلد قضاء دمشق ، ثم قضاء مصر ، ثم قضاء بروسة . وتولى قضاء العسكر فى الروملى ، وكان من الفقهاء المشهورين وكان عظيم النفس مهيباً فى أعين الناس . ومنهم المولى محمد بن عبد اللطيف المشتهر « ببخارى زاده » تولى القضاء بطرابلس الشام . ومنهم المولى يوسف المشتهر « بسنان » قرأ على محيي الدين الفنارى ، وعلى علاء الدين الجمالى ، ودرس بدار الحديث فى أدرنة وتقلد قضاء حلب ، ثم قضاء دمشق ، وانتهى أمره بأن صار من قضاة العساكر ومات عن تسعين سنة . وكان شيخاً جميل الصورة والسيرة على أخلاق كريمة كثيرة وكتب حواشى على تفسير البيضاوى . ومنهم احمد بن محمد المشتهر « بنشانجى زاده » وكان مدرساً وتقلد قضاء مكة ، وقضاء مصر . ومنهم المولى محمد المعروف « همشيره زاده » وكان من المدرسين .

قال صاحب الدر المنظوم : إنه كان محباً للصلحاء ، مترددا إلى مجالسهم اللطيفة مستمدا من أنفاسهم الشريفة ، غير أنه كان كثير الاقتحام في مصالح الفئام ، باذلا عرضه الخطير فى الأمر الحقير . ومنهم محمد بن المولى سنان ، كان مدرسا بمدرسة داود باشا ، ثم بمدرسة خانقاه ، ثم بالمدرسة الخاصكية ، ثم باحدى المدارس الثمان ، ثم باحدى المدارس السليمانية ، وكان معروفا بحدة الذهن ، وفرط الذكاء ، وقوة البحث ، وله حواش على الشرح « الشريفى للمفتاح » . ومنهم المولى احمد المعروف «بالكاملى»

كان مدرساً بمدرسة مصطفى باشا باستانبول ، ثم نقل إلى مدرسة السلطان محمد بجوار أبى أيوب ، ثم باحدى المدارس الثمان ، ثم باحدى مدارس السلطان سليمان . ولما فتح السلطان سليم الثانى جزيرة قبرص تولى قضاءها ، وتسلم هناك زمام الحكومة ، لكنه عجز عن القيام بأمور قبرص ، فاستقال من ذلك المنصب وعاد إلى القسطنطينية . قال صاحب الدر المنظوم : إنه كانت له مكاتيب تارة يختار فيها الحروف العارية عن النقط ، وتارة يلتزم فى كلمة حرفاً واحداً فقط ، ومن الذى ما ساء قط . ومنهم محمود المشتهر « بمعلم زاده » وكان ملازماً للمفتى أبى السعود ، ودرس بمدرسة مرادباشا ثم بمدرسة داودباشا ، ثم بمدرسة رستم باشا فى القسطنطينية ، ثم بمدرسة بنت السلطان سليمان باسكدار ثم باحدى المدارس الثمان ، ومات شاباً . ومنهم محمود المشتهر « ببابا شلبى » قرأ على المولى القادرى ثم ذهب مذهب الصلاح ، واشتهر بالتقوى فنصب لتعليم بنت السلطان سليمان صاحبة الخيرات الحسان ، فلما تزوجت بالوزير الكبير رستم باشا أكرمه غاية الاكرام وجمع كتباً كثيرة نفيسة . ومنهم شمس الدين احمد بن بدر الدين المشتهر « بقاضى زاده » وكان مدرساً فى المدارس الشهيرة ، وتولى قضاء حلب ، ثم قضاء القسطنطينية ثم قضاء العسكر . وفى زمان السلطان مراد الثالث نال الحظوة التامة ، وتقلد الفتوى بدار السلطنة . قال صاحب الدر المنظوم : « إنه أفحم من عارضه بشقاشقه الهادرة وأرغم من عاناه بحقائقه النادرة ، كثير الاعتناء بدرسه ، دائم الاشتغال فى يومه وأمسه ، رفيع القدر ، شديد البأس ، عزيز النفس ، يهابه الناس ثم قال : إنه كان فيه من التهور المفرط والحدة ما زاد على المعتاد . ومنهم احمد المشهور « بمظلوم ملك » وكان معلماً لأبناء السلطان سليم ، فلما جلس على سرير السلطنة السلطان مراد الثالث وقتل إخوته الذين كان هذا الشيخ معلماً لهم — فقد قيل إن السلطان مراد قتل من إخوته خمسة — أصبح هذا الشيخ منكوباً . ثم قلدوه قضاء بيت المقدس ، ثم قضاء المدينة المنورة ، ثم قضاء مكة المشرفة ، ثم عاد إلى القسطنطينية ، وكانت سيرته مرضية . ومنهم عبد الواسع بن محمد ابن المفتى أبى السعود ، كان من المدرسين المعروفين وكان يكتب الخط النادر الجميل . ومنهم محمد بن نور الله المشتهر « بأخى زاده » أخذ

عن عرب شلبي ، وعن المولى عبد الباقى ، ولازم خير الدين معلم السلطان سليمان ثم درس بمدرسة خير الدين باشا فى بشكطاش وفى غيرها . ثم تقلد القضاء ، وانتهى بأن صار قاضياً للعساكر ، وكان بحراً من بحار العلوم ، أنظر أهل زمانه . ومنهم شمس الدين احمد المعروف « بالعزمى » ولد فى القسطنطينية ، وطلب العلم ودرس بالمدرسة الأفضلية ، ثم بمدرسة سنان باشا ببشكطاش . ومنهم المولى محمد المعروف « بصارو كرداوغلى » كان من ملازمى المفتى أبى السعود ، وتنقل فى المدارس الشهيرة . ومنهم المولى خضر بك بن عبد الكريم القاضى ، وكان من المدرسين ، وتوفى وهو مدرس فى بروسة .

قال صاحب الدر المنظوم : « وكان من الغائصين فى بحار العلوم ، غير أنه لا يخلو عن القيل والقال ، مطلق اللسان فى السلف ، ومزدرياً بشأن الخلف ، مع غاية الاعجاب بنفسه ، لطف الله به فى رمسه . »

السلطان محمد الثالث

وتولى بعد مراد الثالث محمد الثالث ، وكانت أمه من البندقيه (يافه) ولما تولى محمد الثالث كان له تسعة عشر أخاً فقتلهم جميعاً ! ! و برغم هذه الفعلة الغريبة كان حسن العقيدة ، صارماً فى إحقاق الحقوق ، مهتماً بتنفيذ الشريعة الغراء ! ! وفى زمانه تولى الأمور سنان باشا ، وحسن باشا ، وسيكالا زاده ، وعسفوا الرعية ، وأثقلوا كواهل الاهالى بالضرائب . ولم يقدر السلطان على إصلاح الحال ، وكانت الحرب مستمرة ، وكانت العساكر العثمانية غير موفقة فى بلاد الفلاخ حيث اتفق أمير الفلاخ مع أمير ملداقيا ، وأمير ترانسلڤانيا ، والامبراطور ردلف الثانى . فزحف سنان باشا واستولى على بخارست سنة ١٥٩٥ إلا أن ميشيل أمير الفلاخ عاد فهزم العثمانيين وقتل أسرى الأتراك « بالخازوق » وشوى « على باشا » و « كدجى بك » على النار !! وصار الفلاخيون يتقدمون كل يوم الى الأمام ، ولكن الدولة العثمانية لم تكن تستغنى عن بلاد الفلاخ لما كانت تستدره من أخلافها ، وتنعم به من خيراتها . و بينما

هى تفكر فى استرداد بلاد الفلاخ التى هى فى هذا العصر مصاص مملكة رومانيا مات الأمير ميشيل هذا فتخلصت الدولة العثمانية من شره .

وأما النمسا فكانت جيوشها استولت على «غران» و «ويسغراد» و «بابقشه» و «كليس» فهاجت خواطر العثمانيين جداً ، واضطر السلطان أن يخرج بنفسه الى الحرب سائراً على خطة أجداده الأوائل . فوقع المصاف فى سهل «كيرستس» فى ٢٦ اكتوبر ١٥٩٦ ودارت الدائرة على النمسويين والمجر ، وخسروا خمسين الف مقاتل فى تلك الموقعة ، إلا أن العثمانيين لم يحسنوا الاستفادة من هذا الظفر العظيم . وفى سنة ١٥٩٨ رجعت النمسا وهاجمت مدينة «راپ» وعرضت على «ساتورجى باشا» تسليم البلدة فرفض ، ولما وقع فى أيدى النمسويين قطعوه إرباً ! ! والتجأ ثلاثمائة من العثمانيين الى القلعة ، ووضعوا النار فى البارود فانفجر مخزن البارود ، وقتل فيه المحاصرون والمحصورون ، واستولى النمسويون بعد ذلك على «دولا» و «ويسپريم» و «پاپا» وانكسر حافظ أحمد باشا فى «نيقو بوليس» ثم فى «بود» . فزحف الصدر الأعظم ابراهيم باشا وانقذ «بود» واستولى على «كانيشة» سنة ١٦٠٠ واستعمل ابراهيم باشا حسن السياسة مع الصرب والفلاخيين ، فانقادوا الى الطاعة .

وأما حالة السلطنة فى الداخل فقد كانت من أسوأ ما يكون ، فلم تكن تسكن ثورة فى جهة حتى تثور ثورة فى جهة أخرى. وأهمها ثورة «قره يزيدجى عبدالحليم» فى الأناضول ، وكان استولى على «أورفه» ثم اتفق مع أخيه الدلى حسن والى بغداد وادعى السلطنة . ولم تتغلب الدولة عليه إلا بعد جهاد طويل ، وثار والى ديار بكر ، ووالى الشام ، ووالى حلب ، ووالى كوتاهيه ، ووالى بغداد الدلى حسن المذكور ؛ فتغلبت الدولة عليهم بعد عناء لا يوصف . ونقلت والى بغداد الى بوسنه .

ولكن أوجاق السباهية ثار على الحكومة بسبب تأخر أرزاقه ، ولو شاركه أوجاق الانكشارية لقلبوا الحكومة والسلطان معاً ، ولكن الانكشارية حافظوا على الأمانة . وفى أثناء ذلك مات محمد الثالث .

السلطان احمد الأول

وخلفه ابنه احمد الأول وهو لم يتجاوز الرابعة عشر من العمر ، وكانت السلطنة منهوكة القوى بكثرة الفتن ، وهي تحارب النمسا في أوربا ، والعجم في آسيا ، لأن الشاه اسماعيل كان أعلن الحرب ، واسترجع تبريز ، ووان ، وإيروان ، بينما العصاة في أكثر بلاد الاناضول قد رفعوا رؤوسهم ، وفي ذلك الوقت عصى الأكراد تحت قيادة « جان بولاد » في حلب ، وعصى الدروز الذين تحت قيادة الأمير « فخرالدين المعنى » فاسترضى مراد باشا الصدر الأعظم جماً من رؤساء العصاة ، وأرسلوا جان بولاد والياً على « طمشوار » في البلقان . وأرضوا « قلندر أوغلى » بولاية أنقرة فرفضت أنقرة ، قبول الثائر فعاد الى العصيان . فزحف اليه مراد باشا فهزمه . وأرسل من فتك « بموصلي شاويش » وهو من رؤساء العصاة ، كما أنه استجلب اليه يوسف باشا والى منتشة ، وآيدين الذى كان عاصياً أيضاً . فلما حصل في يده خنقه . وفر الأمير فخر الدين المعنى إلى البادية ، والخلاصة أن مراد باشا أتى بخوارق العادات من الحزم والدهاء حتى استأصل جراثيم الفتن التي كادت تقضى على كيان السلطنة العثمانية ، فلقبوه بمجدد السلطنة . وما انتهى من قمع الفتن الداخلية حتى وجه همته لمحاربة العجم .

ومن أغرب الأمور أن هذا الشيخ قام بجميع تلك العزائم والعظائم وهو في سن التسعين — أى كان أسنّ من موسى بن نصير يوم فتح الأندلس — ولكن أثر فيه التعب ، وفي ٥ آب ١٦١١ انتقل إلى رحمة باريه . فاستدعى السلطان أحمد للصدارة الوزير نصوح باشا والى ديار بكر ، فعقد الصلح مع العجم ، وأعاد لهم البلاد التي كانت الدولة أخذتها منهم . فأما من جهة النمسا فانه كان وقع بينها و بين المجر خلاف نفع العثمانيين ، و بايع المجر ملكا اسمه « بوسكاى » فدخل تحت حماية السلطان وزحف لالا محمد باشا بجيش استرجع « غران » و « ويسغراد » و « ويسپريم » . فعادت النمسا فصالحت « بوسكاى » ملك المجر ، و بقيت عساكر الدولة وحدها

تحارب النمسا . وكانت الدولة مضطرة إلى الصلح تطفى نيران الفتن المشتعلة فى الأناضول فانعقدت بين الدولة و بين النمسا معاهدة « سيتفاتوروك Sitvotorok » سنة ١٦٠٦ فنزلت الدولة عن الجزية السنوية التى كانت تدفعها لها النمسا وهى ثلاثون ألف دوكة ، واكتفت بقبض مائتى الف ريال غرامة حربية . وأعاد كل من الفريقين الأسرى الذين فى يده ، و بقيت للدولة « غران » و « ايرلو » و « كانيشة » . و بقيت فى يد النمسا « راب » و « كومورنو » وهذه المعاهدة هى أول معاهدة حصلت بها المساواة بين الدولة العثمانية والدول الأوربية ، لأنه إلى حد ذلك الوقت كانت الدولة العثمانيــة تعامل الدول الأوربية معاملة الأعلى للأدنى ، وتتقاضى الأوربيين جزًى سنوية ، و إتاوات متنوعة : و بهذه المعاهدة حصلت ترانسلفانيا على نصف استقلال وتخلصت مملكة المجر من دفع الجزية عن القسم الذى لم يكن العثمانيون يحتلونه .

ومن خصائص تلك المعاهدة أن الدول المسيحية أمكنها أن تناقش الدولة العثمانية فى كيفية تحرير الصك ، وقبل ذلك كانت الدولة تملى مثل هذه المعاهدات باللغة التركية ، وتبلغها أعداءها ، وكان عليهم أن لايراجعوا فيها . وبالاختصار كانت هذه المعاهدة أعظم إرهاص بين يدى تقهقر آل عثمان .

هذا وقد رفض أهالى ترانسيلفانيا الدخول فى طاعة النمسا ، فرجع الباب العالى عما تقرر فى المعاهدة ، وزعم أن « بوسكاى » لم يكن له حق بالتصرف بالامارة بدون رضى الأهالى فولى أمراء آخرين من قبله منهم « بيتلنغابور » وكان من أشد أعداء النمسا ، فاعترضت النمسا على ذلك ، فأجاب الصدر الأعظم بأن المتاركة غير شرعية ، لأنه لم يكن وقع عليها مفتى السلطنة . فثارت إمارة « مولداقيا » وطرد الأهالى « طومزه » الأمير الذى كان من قبل الباب العالى ، إلا أن اسكندر باشا جاء فقمع الثورة ، وأعاد طومزه إلى مكانه . ثم نشبت الحرب فى تلك المدة بين الدولة واسبانيا ، وجاءت سفن فرسان مالطة وصارت تعيث فى سواحل الدولة ، وغنمت أساطيل الطليان عدة سفن حربية عثمانية ، فوجهت الدولة قوتها البحرية إلى البحر المتوسط ، وانتهز القوزاق هذه الفرصة

ونزلوا فى سينوب ونهبوها . فغضب السلطان على الصدر الأعظم نصوح باشا وأمر بخنقه . وفى سنة ١٦٠٤ تجددت العهود التى كانت بين الدولة وفرانسا ، وزيد فيها وشددت الدولة فى منع الأعمال القرصانية فى البحر المتوسط ، وعزلت والى تونس ، وخنقت والى الجزائر ، ثم تجددت العهود بين الدولة و بولونيا وتعهدت بولونيا بمنع القوزاق من الغارة على مولداڤيا ، كما تعهد الباب العالى بمنع التتار من الغارة على بولونيا . وفى سنة ١٦١٢ انعقدت معاهدة تجارية بين هولاندة والباب العالى .

وفى ذلك الوقت ظهر التبغ بواسطة الهولانديين ، فأفتى شيخ الاسلام بمنعه بحجة أنه من الخبائث على نحو ما يذهب إليه اليوم الوهابية ، وأتباع الطريقة السنوسية أيضاً . ولكن الشعب ثار بالمفتى وقالوا إنه لا يوجد تحريم للدخان فى الكتاب أو السنة ، فمن أين للمفتى حق تحريم ما لم يرد على منعه نص ؟ فاضطر المفتى إلى إلغاء فتواه . وكان السلطان أحمد الأول قد بلغ رشده وظهرت مناقبه ، فكان عادلا كريماً محمود السيرة ، معتنياً بأمر المملكة ، وكان موصوفا بالتقوى والورع ، أهدى نفائس نادرة إلى الحجرة الشريفة النبوية ، ولو لم يكن له علة إلا أن رئيس الخصيان فى القصر السلطاني كان فى زمانه صاحب الأمر والنهى ! ! ولما مات السلطان أحمد الأول سنة ١٦٠٧ كان ابنه عثمان فى سن الثالثة عشرة .

السلطان مصطفى

فرجحت الأمة مبايعة السلطان مصطفى أخى السلطان أحمد ، وفى زمن السلطان أحمد هذا أجلى الأسبان بقية مسلمى الأندلس الذين كانوا أكرهوا على التنصر لكنهم لبثوا مسلمين في الباطن ، وسبب ذلك أن هؤلاء أرسلوا وفداً إلى السلطان أحمد يستغيثون به ، فخاف ملك اسبانيا من الدولة العثمانية فقرر إجلاءهم ودخل منهم ألوف إلى فرانسا ، فأرسل السلطان أحمد إلى هنرى الرابع ملك فرانسا يطلب منه ارسالهم إلى بلاده و بلاد الاسلام ، ففى الحال اركبوهم السفن إلى بلاد الاسلام .

وفى بداية زمن السلطان مصطفى وقعت حادثة كادت تشعل الحرب بين الباب

العالى وفرانسا ، وذلك أن أميراً من أمراء بولونيا كان معتقلا فى الأبراج السبعة بالقسطنطينية ، ففرمنها بمساعدة أحد كتاب سفارة فرانسا ، فقبضت الدولة على السفير واعتقلته ، ووصعت مأمورى السفارة تحت الاستنطاق ، ولبثوا في الاعتقال أربعة أشهر . فأرسلت فرانسا تهدد بالحرب وتطلب التعويضات ، فلم يصل معتمد فرانسا إلى الأستانة حتى كان العثمانيون خلعوا السلطان مصطفى .

السلطان عثمان الثانى

وبايعوا السلطان عثمان الثانى ابن أخيه ، فكانت مدة مصطفى ثلاثة أشهر فقط . واعتذرت الدولة لفرانسا ، وكتب السلطان والصدر الأعظم ، وقبطان البحر كتاب اعتذار إلى لويس الثالث عشر ، وانتهت المسألة . وفى ذلك الوقت وقع خلاف بين الدولة وبولونيا من أجل مسائل تتعلق بترانسلفانيا ، فأجمع السلطان على غزو بولونيا ، وكان ينوى ذلك حتى يتمكن من منع تجاوز الروسيا التى كان قد بدأ أمرها يستفحل . فزحفت الجيوش العثمانية وقطعت نهر « دينستر » وحملت على الجيش البولوني حملات شديدة لكنها لم تقدر عليه ، فلما رأى العثمانيون عقم هذه الحرب وكان البولونيون فى وجل شديد من الهزيمة ؛ انعقدت معاهدة الصلح فى ١٦ اكتوبر ١٦٢٠

وفى ذلك الوقت حصلت مؤامرة فى فرنسا على الدولة العثمانية يرأسها كارلس الثانى الملقب « بكارلس دوغنزاغ de gauzague » وزعموا أنهم يريدون الاستيلاء على القسطنطينية ، وكان منهم البرنس « دوكليف de Cleves » التى كانت جدته « مرغريت باليولوغ » من سلالة الامبراطور « اندرونيك باليولوغ » فبدأ هؤلاء الأمراء بالسعى لدى امبراطور ألمانيا ، وملك اسبانيا ، حتى يعضداهم فى هذه الحرب الصليبية ، وأرسلوا يوقدون نيران الفتن فى بلاد العرب وكرواسيا ، ودالماسيا ، والبانيا ومكدونيا . وفى ٨ سبتمبر ١٦١٤ حصل اجتماع حضره زعماء من الصرب ، والهرسك والبشناق ، والدالماسيين ، فى أرض القبيلة الألبانية الكاثوليكية المسماة « بكوتچى »

وكان في هذا الاجتماع بطريرك الصرب وكثير من الأساقفة ، وتقرر إدخال أسلحة وأعتدة من البحر إلى أرض الجبل الأسود وتوزيعها على القبائل الألبانية ، وأن تثور هذه القبائل وينضم إليها الصربيون ، وقدروا أن عدد الثوار لن يقل عن اثنين وأربعين ألف مقاتل ، منهم اثنا عشر ألفاً من الفرسان ، وأنهم يدهمون المدن مثل « ڤالونة » و « شقودرة » و « كاستلنوڤو » قبل أن يتنبه الترك للمكيدة .

وبلغ الخبر أمراء مولداڤيا والفلاخ فوعدوا بأنهم بمجرد اشتعال الثورة يعبرون نهر الطونة بجيوشهم وينضمون إلى الثوار المسيحيين ، وكان كارلس الثانى دوغنزاغ قد شرع بتكتيب كتائب من فرانسا ، وفى بناء سفن حربية على نفقة نفسه ! وتبرع البابا بمبلغ مائتى ألف ذهب لهذه الحرب ، وبتقديم ألفى مقاتل فى عشر سفن ! ووعد ملك اسبانيا بستمائة ألف ذهب ، وعشرين سفينة ، ووعد فرسان مالطة بست سفن وتعهد اليونان بالدخول فى هذه الثورة ، واتفق الكاثوليك والارثوذكس من يونانيين وألبانيين ، وصرب ، وبلغار ، وتعاهد الاساقفة على ذلك . وكان الرأى العام فى فرانسا مائلا جداً إلى اصلاء هذه الحرب الصليبية على المسلمين ، ونشر «ساڤارى دو بريڤ» « de Brèves » سفير فرنسا فى تركيا سابقاً ١٦١٩ نشرة فى وجوب محو السلطنة العثمانية ، ودعا القسيسون والأساقفة فى الكنائس ، وأعلنوا الحرب الصليبية سواء فى فرانسا ، أو فى النمسا ، أو فى بولونيا ، أو فى ايطاليا ، إلا أن كل هذا توقف من نفسه وحبط العمل ، ويقال : إن الأسطول الذى كان أعده كارلس دوغنزاغ المسمى «بدوك نيڤير » احترق بسبب لايزال مجهولا ، واضمحلت هذه المسألة من ذلك الوقت .

وقد أشرنا فى حواشى « حاضر العالم الاسلامى » إلى هذه المؤامرة الصليبية فى جملة المائة مشروع التى ائتمرت بها أوربا على الاسلام في مدة ستمائة سنة ، فمن شاء فليراجع ذلك هناك .

وكان السلطان عثمان قد صمم أن يتخلص من أوجاق الانكشارية ، ويستبدل به جيشاً يكون أطوع للسلطنة منه . فعلم الانكشارية بذلك وثاروا به ، وعينو

داود باشا صدراً أعظم ، وخلعوا السلطان وساقوه إلى الأبراج السبعة ، وهناك قتلوه في ٢٠ مايو سنة ١٦٢٢ . وهو أول سلطان قتل في الدولة العثمانية .

السلطان مصطفى ثاني مرة

وتولى مكان السلطان عثمان عمه السلطان مصطفى فما مضى يومان على مبايعته حتى ثار السباهية بداود باشا وطالبوه بدم السلطان عثمان ، فقال لهم : إنه ما قتله إلا بأمر السلطان مصطفى ، فلم ينفعه هذا العذر وأسقطوه من الوزارة ، وصارت الحكومة ألعوبة في أيدي العساكر ، حتى يقال إنهم أسقطوا ستة صدور عظام في مدة الخمسة عشر شهراً التي تولاها مصطفى ، وصارت الأمور في نفس الأستانة أشبه بالفوضى وعصى باشا طرابلس الشام فطرد الانكشارية من بلده ، وعصى باشا ارضروم وزحف إلى أنقرة وسيواس وعذب من سقطوا في يده من الانكشارية ، وانضمت بلدان كثيرة في الاناضول إلى الثوار كرها بالانكشارية ، وأراد العلماء أن يوقفوا الانكشارية عند حدهم فلم يفلحوا ، وأخيراً تولى الصدارة على باشا فرأى أنه لا يستتب النظام بوجود سلطان بلغ هذا الحد من ضعف العزم ، فقرر خلعه ومبايعة مراد أخي السلطان عثمان .

السلطان مراد الرابع

وكان مراد مراهقاً لم يتجاوز اثنتي عشرة سنة من العمر ، فلذلك بقي السباهية والانكشارية يسرحون و يمرحون كما يشاؤون ، و يعسفون الأهالي باسم السلطان .

واستفادت العجم من هذه الحالة فتجاوزت على ملك آل عثمان ، و زحف الشاه عباس على بغداد وفتحها بعد حصار ثلاثة أشهر ، وعذب أهل السنة ، وشنق نوري افندي قاضي بغداد ، وعمر افندي خطيب الجامع الأعظم . وكان والي بغداد في الاصل ضابطاً من ضباط الشرطة اسمه « بكير آغا » فعصى الوالي وأراد أن يستأثر هو بالولاية واعصوصب حوله جماعة على شاكلته ، فتغلب عليه حافظ باشا وكاد يوقع

به ، فأرسل بكير آغا الى الشاه عباس ليأتى الى بغداد فيسلمه البلد ، فلما جاء الشاه عباس وطلب مفاتيح بغداد وجد بكير آغا قد صالح العثمانيين على شرط أن يكون والياً فالتزم الشاه عباس أن يحصر بغداد ، وأخذ يغاديها القتال و يراوحها ، ولم يتمكن منها إلا بخيانة ابن بكير آغا الذى وعده الشاه عباس بأن يجعله والياً محل أبيه . فلما فتح الشاه عباس بغداد بقى يعذب بكير آغا سبعة أيام ، ثم وضعه فى زورق مطلى بالقطران الملتهب ، وتركه فى دجلة ، ثم قتل ابنه الذى خان أباه !

ولما وصل خبر سقوط بغداد الى السلطان مراد الرابع ، حاول على باشا الصدر الأعظم إخفاء الخبر عن السلطان ، ولكن المفتى أسعد افندى أخبره بالحادثة . فصدر أمر السلطان بقتل الصدر ، وعين مكانه « شركس محمد » وسرحه بجيش لقتال أباظة والى أرضروم الذى عصى الحكومة ، وأخذ يقتل الانكشارية فى كل سهل وجبل . فزحف اليه القائد حافظ باشا وهزمه ، ثم صالحه على أن يبقى والياً على أرضروم ، وفى أثناء ذلك مات الصدر الاعظم محمد باشا ، فتولى مكانه « حافظ باشا » و زحف الى بغداد لطرد العجم منها ، فما زال الانكشارية يثورون عليه حتى اضطر الى ترك حصار بغداد ، وانكفأ إلى الموصل ، ثم إلى ديار بكر . وعاد الانكشارية إلى الثورة ، فعزل السلطان حافظ باشا وولى مكانه خليل باشا ، فزحف هذا ليأخذ أباظة والى أرضروم فلم يقدر عليه ، فعزله السلطان وولى خسرو باشا ، فتمكن هذا من إخضاع أباظة ولكنه عوضه من أرضروم بولاية بوسنة .

وبقيت الثورات تتوالى فى وسط السلطنة ، والحالة تسوء ، ولكن الله فرج عن الدولة العثمانية بموت الشاه عباس أكبر سلاطين الدولة الصفوية . فخلفه ابنه وكان شابا غراً ، فزحف خسرو باشا إلى العراق وهزم جيوش العجم ، لكنه لم يقدر على فتح بغداد برغم مهاجماته الكثيرة لها ، ورجع خسرو باشا إلى الموصل ، فردّ السلطان إلى الصدارة حافظ باشا الذى لم يكن عنده مثله فى كفايته .

فلما علم العسكر أن السلطان عزل خسرو باشا ثاروا على السلطان وتقاضوه رأس حافظ باشا ، وكان المحرك للعسكر على هذا العمل هو خسرو باشا نفسه . فأذن السلطان

للمساكر فى الانضراف من العراق أملا بتسكينهم ، فلما وصلوا إلى الأستانة أزدادوا تمرداً وهجموا على القصر ففتح السلطان لهم الأبواب ، واستدعى اثنين من الانكشارية واثنين من السباهية ، وقال لهم قولا ليناً لعلهم يتناهون عن غيهم ، فلبثوا مصرين على أخذ رأس حافظ باشا ، فبذل حافظ باشا نفسه لأجل راحة مولاه ، وخرج إليهم حتى قتلوه طعناً بالخناجر ، ولكن لم يسقط رخيصاً برغم شيخوخته ، ولم يقتل إلا بعد أن قتل منهم عدة . وسكنت ثورة العسكر مؤقتاً ، ولكن السلطان لم ينس عصيانهم لأمره ، وكونهم إنما عملوا بدسائس خسرو باشا ، فأمر بخنقه . فثار العسكر مرة ثانية ونادوا بخلع السلطان مراد . وكان متولى كبر هذه الثورة رجب باشا ، فظهر فى هذه الحادثة أن السلطان الشاب كان بطلا غشمشما ، فانه أمر حالا بقتل رجب باشا والرمى بجثته إلى العسكر ولم يبالى بهم ! ! وطلب السلطان من أحمد آغا قائد السباهية أن يقبض على رؤوس الثورة ، فماطل فى إنفاذ الأمر السلطانى ، فأمر السلطان بقتله مع أربعة من رفاقه وجاء المفتى الأعظم يخوف السلطان من عاقبة استخفافه بغضب العلماء فقتله ، فعلمت السلطنة أن على رأسها رجلا غير الرجال الذين عرفتهم إلى ذلك الوقت منذ مدة طويلة ودخلت الناس فى الطاعة .

وكان الأمير « فخر الدين المعنى » أمير لبنان ثار بالدروز على الدولة ، وعقد معاهدات مع بعض الدول الأوربية ، ولما لم يقدر على مقاومة الدولة جاء إلى فلورانسة من إيطاليا ، ثم بعد أن أقام عدة سنوات فى فلورانسة فى خبر يطول شرحه ، ولا يسعه هذا المختصر ؛ زحف إليه « الكوجك أحمد باشا » بجيش جرار ، و بعد وقائع شديدة دارت الدائرة على الأمير فخر الدين ، وقتل ابنه الأمير على ـ وكانت أم الأمير على أرسلانية ـ فى واقعة حاصبيا ، فالتجأ الأمير فخر الدين إلى مغارة فى جبل الشوف اسمها « شقيف تيرون » و يقال لها اليوم « قلعة نيحا » . وهى كهف عظيم فى بطن جبل أشبه بالحائط لا يمكن الرقي إليه من الأسفل ، ولا النزول إليه من سطح الجبل ، ولا العبور إليه من الجانبين ! ! و إنما يدخلون إليه من أحد الجانبين زحفاً على البطن واحداً وراء واحد ، على صخرة ضيقة مشرفة على الوادى لا يمكن الانسان أن يمر بها واقفا .

وقد دخلت أنا بنفسي زحفاً على هذه الصورة إلى هذا الكهف الذي كان يلجأ إليه العصاة في كل حين ؛ وكان ممن لجأ اليه الضحاك بن جندل الخارجي في أيام الحروب الصليبية ، وهذا الكهف يسع نحواً من خمسمائة مقاتل ، وليس فيه ماء نبع ولكن آبار تجري اليها مياه تحت الأرض بأنابيب من عين يقال لها «عين الحلقوم» كانت في ذلك الوقت مطمورة ، فلما جاء الكوجك أحمد باشا ورأى استحالة الوصول إلى الكهف ، لأنه لا يؤتى لا من فوق ولا من أسفل ، ولا من عن أيمانه ولا من عن شمائله ، سأل عن مشرب أهل الكهف ؟ فقيل له إن الماء يجري تحت الأرض ، ولكنه غير معلوم أصله ، ولا مكان جريه . فأتى القائد المذكور بخيل تركها عدة أيام عطاشاً ، فلما أفلتها على سطح الجبل وهي عطاش شمّت رائحة الماء فصارت تضرب بأرجلها على الأماكن التي كان الماء يجري تحتها ! فعلم الكوجك أن الماء هو هناك ، فأمر بحفر الأرض حيث كانت الخيل تضرب بأرجلها ، فوجد أنابيب الماء ، فلم يقطع الماء لأنه لو قطع الماء والآبار التي في الكهف ملآى لبقي الأمير فخر الدين قادراً على الامتناع مدة طويلة ، فذبح الكوجك بقراً في مجرى الماء فجرى دماً إلى الآبار . وفي أحد تلك الأيام قام الأمير فخر الدين صباحاً فقال له جماعته : تعال فانظر الآبار ، فنظر فاذا هي دم ، فأمر الجند الذين معه بأن يخرجوا و يستسلموا للقائد ، وفي جوف الليل دلّى نفسه هو ومدبر أموره « أبو نادر الخازن » ومعهما خادم وذلك من الكهف إلى أسفل ، وهو علو خمسين متراً ، ومن هناك ذهب إلى كهف آخر يشابه « شقيف تيرون » واسمه « مغارة جزين » فأرسل الكوجك أحمد باشا جماعة نقبوا الصخور من تحت الكهف الثاني وما زالوا يحشونها بالبارود و يقطعون منها جانباً بعد جانب حتى أوشكوا أن يصلوا إلى المغارة ، فاضطر الأمير فخر الدين أن يستسلم إلى الكوجك أحمد الذي أرسله إلى الآستانة مع أولاده الثلاثة منصور وحيدر ، و بلك .

فلما وصل الأمير فخر الدين إلى الآستانة قال للسلطان : إنني مظلوم ، ولم أبن القلاع إلا حماية من الأعداء ، ولم أحارب إلا من كان عاصياً للدولة ، وقد أمنت

طريق الحج ، ومنعت الاعراب عن التعدى ، وأديت الأموال الأميرية ، وأيدت الأحكام الشرعية ، فعفا عنه السلطان . إلا أن الأمير «ملحم المعنى» جمع رجالا من حزبه القيسية ونهض لقتال الأمير « على علم الدين » الذى كانت الدولة ولته جبل الشوف ، فنهض الأمير على لقتاله ومعه اليمنية ، فجرى بينهم قتال دارت فيه الدائرة على اليمنية ، فكتب الكوجك أحمد باشا للسلطان بأن هذه المشاغبات كلها هى من دسائس الأمير فخر الدين ، فصدر أمر السلطان بقتله مع أولاده ، وذلك ٣ مايو ١٦٣٥ ، واستحيى السلطان من أولاده الأمير حسيناً ، واستخدم بالحضرة وترقى وعاش زمناً طويلا . وكان عمر الأمير فخر الدين يوم قتل اثنتين وخمسين سنة ، وكان قصير القامة طويل الباع ، عالى الهمة ، استولى على معظم سورية ما عدا دمشق وحمص ، وحماه ، وحلب ، وقيل له سلطان البر ، وكان عنده جيش دائم ١٢ ألفاً .

هذا ولقد تمكن السلطان مراد الرابع بحزمه وشدة بأسه من قمع الفتن الكثيرة وهدأت الأحوال فى زمانه ، وزحف لقتال العجم على رأس جيش جرار . وبينما كان زاحفاً كان يأتى من الصرامة أعمالا توقع الرعب فى قلوب الذين تحدثهم أنفسهم بالانتقاض ، وفى طريقه استولى على قلعة « أريوان » ثم على قلعة « تبريز » وأحرقها ثم عاد إلى القسطنطينية يستريح من وعثاء السفر ، فما كاد يستقر به المقام حتى رجع الايرانيون فحشدوا واسترجعوا أريوان وكسروا العثمانيين فى صحراء ميربان . فنهض السلطان مراد ثانية وزحف إلى بغداد ، ولبس ثياب جندى من عامة الجند ، ونزل بنفسه يقاتل فى الخنادق ! وكان معه الصدر الأعظم ، فلما حمل العسكر العثمانى كان السلطان والصدر الأعظم والوزراء يقاتلون بأنفسهم كسائر العسكر وأصابت الصدر الاعظم « طيار محمد باشا » رصاصة برأسه فسقط قتيلا ، وأخذ السلطان مراد بغداد عنوة على أثر حملة استمرت ثمانيا وأربعين ساعة ، ثم انعقد الصلح بين الدولة والعجم على أن بغداد تعود لآل عثمان ، وأن أريوان تعود للعجم

وكان مراد الرابع فى شدة بأسه ، ومضاء عزمه ، وعظمة مهابته ، أشبه بآل عثمان الأولين ، ولو طالت حياته لجدد عهد سليمان القانونى ، ولكنه بعد أن استولى على

بغداد استرسل إلى الشهوات البدنية ، وأدمن شرب الخمر فاعتلت صحته ، و بلغت منه العلة أن صارت الروح فيه ذماء . و بقى يأمر بسفك الدماء ، و يقال إنه بينما كان وصل إلى دور النزع أمر بقتل اخيه إبراهيم ! ! ولكن السلطانة الوالدة أمرت بعدم إنفاذ هذا الحكم ، وقالت له إنه نفذ ، وفى ٩ فبراير سنة ١٦٤٠ أسلم الروح وكان عمره تسعا وعشرين سنة . وهو الذى أنقذ السلطنة بعد أن كادت تتمزق أيدى سبا بالفتن والثورات وانتقاض الأمراء كل واحد من جهة . فأعاد مراد وحدة السلطنة بشدة حزامته وصرامته ، وأزال كثيراً من المظالم ، وأعاد النظام إلى الجيش . وفى أيامه ازدادت واردات السلطنة وحسنت جباياتها . ولم يكن يعاب إلا فى ظمئه إلى سفك الدماء ؛ فانه كان يتلذذ بالقتل . وكان له عيب آخر ؛ وهو شدة غرامه بالمال ، فكان يحب الأحمرين « الدم والذهب » ولم يكن لمراد الرابع أولاد ، فتولى السلطنة بعده أخوه السلطان ابراهيم ، ولولا وجود السلطان ابراهيم هذا لانقرضت عائلة آل عثمان لأنه لم يكن بقى منها غيره .

السلطان ابراهيم

و بدأ السلطان ابراهيم ملكه بمصالحة النمسا ، ولكن حصلت حادثة أدت إلى الحرب بينه و بين جمهورية البنادقة ، وهذه الحادثة من أغرب حوادث التاريخ ، وهى أن رئيس الخصيان فى القصر الذى يسمونه « قيزلر آغاسى » كان عنده فى الحرم جارية حسناء بارعة الجمال ، اختيرت لتكون ظئراً للامير محمد بن السلطان ابراهيم ، وكانت هذه الجارية قد حملت ثم وضعت ولايعلم من أين وقع حملها ، فشغف حبها السلطان حتى صار يفضل طفلها على طفله ، فوقعت الغيرة فى السراى وكاد السلطان يقتل طفله من شدة شغفه بالجارية وحبه لطفلها ، فلم يجد « القيزلر آغاسى » حيلة أحسن من أن يقصد الحج ويأخذ معه الجارية والطفل .

ومن المعلوم أن فرسان مالطة لم يكن لهم مهمة سوى قطع طرق البحر على المسلمين فهاجموا الاسطول الذى كان فيه « القيزلر آغاسي » فاشتبكت بين الفريقين معركة

ووقع «القيزلر آغاسى» قتيلا بعد أن دافع أشد الدفاع عن نفسه ، ووقعت الجارية وطفلها في أيدى فرسان مالطة ، فظن الفرسان أن الطفل هو ابن السلطان وبالغوا فى الاعتناء به وبأمه ، إلا أنهم عرفوا فيما بعد أن الطفل لم يكن ابن السلطان ، فربوه فى الديانة المسيحية ، ونشأ قسيسا وكان يطلق عليه اسم « الاب العثمانى Paere ottomani » وكان الناس فى أوربا يعتقدون أنه من ذرية السلطان . ثم إن فرسان مالطة بعد هذه الغنيمة عرجوا على قندية من جزيرة « إقريطش » ونزلوا على البنادقة هناك فأكرموهم فوصل هذا الخبر إلى السلطان فجن جنونه ، وأصدر أمره بادىء ذى بدء باستئصال جميع المسيحيين ، إلا أن شيخ الاسلام عارضه بشدة فتوقف عن إنفاذ هذا الامر وأمر بقتل جميع الافرنج ، فجاء الوزراء وأبدوا وأعادوا حتى أرجعوه عن أمره هذا وحسنوا الاكتفاء بقتل كهنة الكاثوليك، ولكنه رجع عن هذا أيضا . وإنما اعتقل سفراء الدول المسيحية كلهم ، وأرسل يقول لهم : إنه يجعلهم مسؤولين عن الاهانة التى لحقت به ، فأجابه سفراء البندقية وانكلترة وهولانده بأنه لا يوجد فى فرسان مالطة واحد من تبعة حكوماتهم ، وأن جميع فرسان مالطة هم فرنسيس . فهاج غضب السلطان ابراهيم على الفرنسيس ، وبينما هو يريد الانتقام منهم أغراه الصدر الأعظم بفتح جزيرة « كريت » أو « قريطش » وفى ٢٤ يونيو ١٦٤٥ كان الاسطول العثمانى المؤلف من ثلاثمائة وثمان وأربعين سفينة أمام هذه الجزيرة ، وأنزل إلى « خانيا » خمسين ألف مقاتل ، فجاء أسطول البنادقة متأخراً فأخذوا ثأرهم باحراق « باتراس » و « كورون » و « مورون » وأخذوا خمسة آلاف أسير من العثمانيين . فلما اتصل الخبر بالسلطان اشتد غضبه وأصدر أمراً جديداً بقتل المسيحيين فى السلطنة ، ورجع المفتى فعارضه أيضاً بشدة . وفتح العثمانيون « ريتمو » و « أبو كورونو » و « كسانو » من مدن « اقريطش » ولكن امتنعت عليهم « قندية »

وكان السلطان مسترسلا إلى شهواته البدنية ، منقاداً لجواريه الحسان يفعل لهن ما يشأن ، فاستنزفن خزانة السلطنة ، وأسفت الرعية من هذه الحالة التى عليها السلطان وكثر القال والقيل ، فعزم السلطان على البطش بقواد الانكشارية والسباهية ، فتجمعوا

وانضم إليهم العلماء وقرروا خلع السلطان ومبايعة ابنه محمد الرابع ـ وهو طفل ـ ووقع ذلك فى ٨ آب ١٦٤٨ وما مضى أسبوع على هذا العمل حتى قام السباهية يطالبون إرجاع السلطان ابراهيم إلى العرش ، فخاف المفتى والعلماء على أنفسهم إذا رجع وجاؤا بالجلاد « قره على » ودخلوا على السلطان ، فأخذ السلطان يستغيث وقال للمفتى: كان يوسف باشا سوّل لى قتلك وأنا لم أقبل منه ، واستحييتك وأنت الآن تريد قتلى أفلا تلوت القرآن وعلمت كيف يكون حكم الظالمين ؟ ! و بينما يقول هذه الكلمات إذ وضع الجلاّد دون الحبل فى عنقه وشدوه فأزهقوا روحه .

السلطان محمد الرابع

و بقى السلطان محمد الرابع على عرشه وهو ابن سبع سنوات ، ورجعت الفوضى كما كانت قبل أيام مراد الرابع ، واضطر العثمانيون لرفع الحصار عن قندية ، وانكسر الاسطول العثمانى فقتل الوزير صوفى محمد باشا بسبب هذه الهزيمة ، وزحف الثوار من الأناضول صوب القسطنطينية ، وقابلهم الصدر الأعظم « قره مراد » فهزموه وكادوا يستولون على الاستانة ؛ إلا أن الخلف وقع بينهم فتفرقوا ، وتمكنت الدولة من الايقاع بهم ، ومن استرضاء بعضهم .

وفى سنة ١٦٥١ ثار الانكشارية طالبين عزل شيخ الاسلام « بهائى » لأنه أفتى بجواز الدخان والقهوة ، وكانت الصدور العظام لا تستقر فى الدسوت إلا أياما قلائل . وفى سنة ١٦٥٦ ثار الانكشارية والسباهية بسبب تأخر رواتبهم ، وطلبوا عقاب الوزراء . فاضطر السلطان لارضائهم . ولحسن الحظ كانت النمسا مشغولة بحرب الثلاثين سنة . فلم تقدر أن تسترجع بلاد المجر . ولكن الحرب بين البندقية والدولة العثمانية لم تكن سعيدة الطالع للدولة وتغلب الاسطول البندقى على الاسطول العثمانى بازاء الدردنيل واستولى على « تيندوس » وعلى « لمنى » و بينما الحالة هى فى الدرجة القصوى من الخلل ، تولى زمام الصدارة الوزير « محمد باشا الكوبرلى الشهير » ولم يقبل الصدارة إلا على شرط إطلاق يده فى العمل فوعدته السلطانة الوالدة بعدم

معارضته بشيء . وأول ما بدأ به من الاعمال أنه ألغى الأمر الصادر بقتل سلفه ، ثم ثار العسكر فأنزل بهم العقاب الصارم ، ورمى فى البحر أربعة آلاف جثة . و بدت خيانة من « بطر برك الروم » فشنقه . ثم جدد الحرب على البنادقة بشدة عظيمة واسترجع تيندوس ولمنى . وجاء رسل « شارل غوستاف » ملك السويد يعرضون على الباب العالى محالفة دفاع وهجوم على بولونيا . فرفض الـكو برلى وألقى فى السجن معتمدى أمير ترانسلفانيا « را كوشى » الذى كان تحالف مع السويديين ومع القوزاق على البولونيين . ثم عزله الـكو برلى وأقام مكانه رجلا يونانيا . وانقرضت بذلك عائلة (باسارابية) التى نبغ منها عدة أمراء . فثار را كوشى على الدولة ، وانتصر فى أول الأمر ، إلا أن الـكو برلى تغلب عليه . ووقعت معارك فى بلاد رومانيا أوقع بها المسيحيون بالمسلمين الذين هناك . فزحف الـكو برلى على بلاد الفلاخ ، وظاهره التتار فزحفوا الى مولداڤيا وقهروا الرومانيين ، وأقاموا أميراً من قبلهم على تلك البلاد .

ثم إن التتار تجاوزوا حدود مملكة النمسا فوقعت الحرب بين النمسا والدولة من أجل ذلك فصارت الحرب بين الدولة من جهة ، والنمسا والبندقية من جهة أخرى وكادت تقع مع فرنسا أيضا . وكانت امتيازات فرنسا فى المملكة العثمانية مقررة ومسكوكاتها مقبولة ، وما عدا الانكليز والبنادقة فكل الامم لأجل أن تتّجر فى البلاد العثمانية يجب عليها رفع العلم الافرنسى . وكان الفرنسيس لا يؤدون شيئاً من الضرائب فى بلاد الدولة ، وكان قرصان الجزائر لا يقدرون أن يمسوا بسوء السفن الافرنسية ، وكان للفرنسيس حق اصطياد الصدف في سواحل الجزائر ، وأكثر من وطد هذه الامتيازات لفرانسا هو السفير « ساڤارى دو بريڤ » ولكن بعد انقضاء أيام هذا السفير أخذت المحبة بين فرنسا والباب العالى بالنقصان ، ولا سيما فى زمان مراد الرابع .

وكان الانكليز والهولنديون أقنعوا السلطان بطرد الجزويت ، وجاء سفير لفرانسا اسمه « هنرى دوغورنيه de Gournay » فأساء السياسة ، فصدر الأمر بأغلاق كنائس غلطة التى كانت تحت حماية فرانسا ، و بمنع الفرنسيس من حمل السلاح ، و بأجباره

على دفع الرسوم والضرائب . ثم إن الأروام فى القدس الشريف حصلوا على الاذن بحراسة الأماكن المقدسة ، وقد كانت من قبل فى أيدى الفرنسيسكان . وأخذ قرصان الجزائر يعتدون على مراكب الفرنسيس ، وانضم إلى ذلك أن سفير فرانسا عند ما تولى الصدارة « محمد باشا الكوبرلى » لم يقدم له الهدايا المعتادة ، وقد كانت هذه سنة متبعة ، ثم رأى السفير الموسيو « دولا هاى » أن هذا الصدر الأعظم طالت أيامه ، فقدم له الهدايا اللازمة وعوض ما فرط ، ولكن كانت سخيمة الصدر الأعظم تمكنت من قلبه ، فصار يترصد الفرصة ليوقع بين فرانسا والدولة

وكانت الحرب لا تزال مشتعلة بين البنادقة والدولة على « اقريطش » . وفى سنة ١٦٥٩ جاء افرنسى اسمه « ڤيرتامون » إلى الصدر الأعظم وسلمه رسائل واردة من جيش البنادقة فى قندية باسم المسيو « دولاهاى » سفير فرانسا فى الاستانة وكان هذا الافرنسى خائناً لقومه ، فسئل السفير عن ذلك وكان طريح الفراش بمرض الحصى ، وكان الصدر الأعظم وقتئذ في أدرنة ، فأرسل السفير ابنه ينوب عنه فبينما كان الصدر الأعظم يسأل ابن السفير عن معنى هذه المكاتيب لأنها كانت محررة بالأرقام ؛ أجابه الولد بغلظة ، فأمر الصدر بحبسه وقال : لا نتحمل من ابن سفير ما يجوز أن نتحمله من سفير ! فقام السفير من فراشه وذهب إلى أدرنة يحاول تخليص ابنه ، فسأل الصدر السفير عن معنى هذه المكاتيب ؟ فأبى السفير أن يجيب بشىء فبقى الولد في الحبس ، وأرسل الكردينال « مازارين » المار يشال « بلونديل » ومعه مكتوب من ملك فرانسا إلى السلطان يطلب فيه عزل الصدر الأعظم ، فلم يلتفت الكوبرلى لمعتمد فرانسا ، ولا أذن له بمقابلة السلطان . فتحمل الكردينال مازارين هذه الاهانة ، وانتقم لفرانسا بارسال متطوعين يساعدون البنادقة فى « اقريطش » وكان أمر الكوبرلى يغلظ يوماً فيوماً ، وكلما ازدادت سنه علواً ازداد بطشاً وعتواً . وحصلت بعض فتوق فى أيامه فسدها بدهائه وحزمه ، وأطفأ ثورة حصلت في مصر وقبل أن مات سأله السلطان عن الشخص الذى يليق بأن يخلفه ؟ فأشار عليه بابنه « أحمد باشا الكوبرلى » وكان كأبيه في الدهاء والحزم .

ولما تولى هذا الصدارة عرضت النمسا والبنادقة الصلح فلم يجب أحمد باشا الكو برلى هاتين الدولتين إلى الصلح ، وزحف وعبر الطونة عند « غران » وهزم الكونت « دوفورغا كس » وضيق الحصار على بلدة نوهيزل Neuhoesel وهى أمنع معقل فى بلاد المجر كان يقال إنها لا تؤخذ ففتحها الكو برلى عنوة بعد حصار ستة أسابيع ثم عاث الجيش العثمانى فى المجر ، ومراغية ، وسيليسية ، وسحب فى رجوعه ثمانين ألف أسير فاستغاث الامبراطور ليو بولد صاحب النمسا بدول النصرانية ، فدعا البابا جميع النصارى إلى حرب صليبية .

وكان « لويس الرابع عشر » غير ناس الاهانة التى لحقت بسفيره ، فوعد بتجهيز ستين ألف مقاتل لحرب الترك ، وأرسل بالفعل ثلاثين ألفاً بقيادة الكونت دوكليني de Coligny » وتطوع فى هذا الجيش أكثر أبناء بيوتات الشرف فى فرانسا وكان الكو برلى قد استولى على « سير ين ڤار » و « كورمورن » الصغرى ولكن عندما وصل جيش الفرنسيس صارت الحرب سجالا ، وقطع الكو برلى الأمل من محو قوة النمسا . فعقد الكو برلى الصلح المسمى بصلح « ڤازڤار » سنة ١٦٦٤ ووقع الاتفاق على أن ترانسلڤانيا لا يكون فيها عثمانيون ولا نمسويون ، وأن يتولاها أمير تحت سيادة السلطان ، وفى الولايات المجرية السبع يكون منها ثلاث للنمسا ، وأربع للدولة العثمانية . و بقى الفرنسيس فى البحر المتوسط يتجاوزون على سواحل الدولة و يتعرضون لمراكبها ، فاشتد غضب الأتراك ونادوا يا للثارات .

وكان فى فرانسا الوزير « كولبير Colbert » لا يرى فى هذه العداوة خيراً فأرسل ابن المسيو لاهاى لأجل السعى فى الصلح ، ولم يكن هذا الاختيار فى محله لأنه هو الذى أغلظ القول لمحمد باشا الكو برلى وأمر هذا بحبسه ، فلما وصل لاهاي الصغير وقابل الكو برلى الصغير اختصما فى الكلام فسمع لاهاى من الصدر الأعظم كلاماً مهيناً ، فخرج مغاضباً وقال للصدر إنه سيغادر القسطنطينية ، فلما وصل عند الباب قبضوا عليه وحبسوه . ولما بلغ الخبر السلطان أمر باطلاق لاهاى واسترضائه ولكن الكو برلى رفض تجديد امتيازات الفرنسيس ، ومنعهم من المرور بالبحر

الأحمر ومصر فى تجارتهم مع الهند ، وأذن فى ذلك للانكليز والجنويين . فأخذ الفرنسيس يوالون النجدات لجزيرة « اقريطش » وكان الحصار على قندية ، فركب أحمد باشا الكوبرلى بنفسه وضيق الخناق على تلك البلدة ، وأقبل فرسان مالطة وأكثر أبناء النبلاء فى فرانسا ينجدون قندية إلا أنهم انكسروا فى واقعة حاسمة وتركوا ميدان القتال منصرفين إلى بلادهم . فازداد ضغط الأتراك على تجار الفرنسيس فأرسل لويس الرابع عشر أربع سفن لأجل حمل السفير ورجال السفارة وجميع التجار الفرنسيس الذين فى القسطنطينية ، ثم جهز اثنى عشر تابوراً وثلاثمائة فارس فى خمسة عشر سفينة تحت قيادة « الدوك بوفور Beaufort » وأرسلها إلى كريت . ولكن هذه الحملة لم تكن عظيمة الفائدة لكريت والبنادقة ، ولم تمنع تغلب العثمانيين على الجزيرة . وانعقد الصلح فى ٦ سبتمبر سنة ١٦٦٩ ، ودخلت كريت كلها تحت حكم الدولة ، ما عدا ثلاثة مراس « كورابوزه » و « صوده » و « اسپينالونقة » وكان فتح العثمانيين لكريت هو آخر فتح لهم فتحوه من ممالك النصرانية . ولم يوجد فى التاريخ بلدة اشتد حصارها وطال نظير قندية ، واستمرت حرب كريت خمساً وعشرين سنة ، فى أثنائها قام العثمانيون بست وخمسين حملة ، ، وصدوا خمساً وأربعين هجمة ! ! وأحرق المحصورون ألفاً ومائة واثنين وسبعين « لغما » وأحرق الأتراك ثلاثة أضعاف ذلك . و بلغ عدد خسائر البنادقة أربعين ألفاً .

وذكر المؤرخ هامر أن خسائر العثمانيين بلغت مائة الف .

وكان لويس الرابع عشر وأكثر شبان فرانسا يريدون محاربة تركيا ، إلا أن « كولبير » الوزير المعروف كان لا يزال يعارض فى هذه الحرب ، وعزل السفير لاهاى وأرسل مكانه المركيز « دونوانتل de Nointel » فطلب من تركيا مطالب رفضها الكوبرلى ، وقال إن تلك الامتيازات التى كان يتمتع بها الفرنسيس كانت من قبيل الانعام لا غير ، وليست شرطاً لازماً ، فان لم يكن السفير يفهم هذا فما عليه إلا أن يرجع إلى بلاده . فلما علم لويس الرابع عشر بما جرى أمر بتجهيز أسطول خمسين بارجة حربية ، ولكن فى آخر الأمر تغلب الميل إلى السلام ، وأعيدت معاملة

الفرنسيس فى تركيا إلى ما كانت عليه ، واعترفت الدولة لفرنسا بحماية الكاثوليك فى الشرق . ومع هذا فان لويس الرابع عشر بقى طول حياته يكره تركيا و يفكر فى شن الغارة عليها ، ولم يتأخر عن ذلك إلا عجزاً ، لأن الدولة فى أيام أحمد باشا الكوبرلى عادت فصعدت إلى ذروة المجد .

وفى أيام الكوبرلى دخل القوزاق الروس فى طاعة الدولة ، وكانت الدولة أعلنت الحرب على بولونيا فى ١٨ آب ١٦٧٢ وزحف السلطان بذاته وكسر البولونيين ، وعقد ملك بولونيا « ميشيل ڤيسموڤيكي » صلحاً مهيناً ، وتخلى عن « پادوليه » للعثمانيين وعن « أوكرانيا » للقوزاق، وتعهد بدفع جزية سنوية عشرين الف دوكة . فالشعب البولونى لم يوافق على هذا الصلح ، وعاد القواد فاستأنفوا الحرب ، وكانت سجالا بين الفريقين . فتوسط خان القريم فى الصلح ، وانعقدت المعاهدة على أن يبقى قسم من أوكرانيا تابعاً للدولة العثمانية. ومن سوء حظ الدولة مات أحمد باشا الكوبرلى ؛ وكان لم يتجاوز إحدى وأربعين سنة ، وكانت وفاته فى ٣٠ أكتوبر ١٦٧٦ ، ولم يكن سفاكا للدماء كأبيه ، ولا كان شرهاً إلى المال . وكان محباً للعدل ، قائماً بالقسط . فتولى الصدارة بعده ابن عمه قره مصطفى باشا ، ولم يطل الامر حتى استؤنفت الحرب فى رومانيا ، و بلاد القوزاق ، فزحف قره مصطفى بجيش جرار ، واستولى على كورين من أوكرانيا .

و بينما العثمانيون يحاربون فى أوكرانيا إذ حصلت وقائع فى بلاد المجر حملتهم على عقد الصلح ، وذلك أن المجر كانوا قد اقتتلوا مع النمسويين ، وكانوا منقسمين إلى قسمين ؛ أحدهما حزب الكونت « تكلى Tekeli » وهؤلاء كانوا يعتمدون على تركيا ، والحزب الآخر كان يعتمد على النمسا ، فاستعان تكلى بالدولة ، وزحف قره مصطفى باشا على رأس مائة وأربعين ألف مقاتل ، وكان النصر حليف جيشه ، فاغتر بقوته وساق الجيش إلى ڤينا طامعاً فى أخذها . وكان الكونت تكلى والقائد العثمانى فى بود وأكثر القواد ضد هذا الرأى ، إلا أن قره مصطفى أصر على حصار ڤينا وكان قائد البلدة الأمير « اشتار نبرغ Stharemburg » فجند الأهالى كلهم ، وقابل

هجمات الأتراك بمدافعة نادرة المثال . وقام الترك بثمانية عشر هجمة ، وحمل النمسويون من الداخل أربعاً وعشرين حملة ، ووقع كثير من الحصون فى أيدى الأتراك .

ويقول المؤرخ الافرنسى « دولا جونكيير » : إنه لولا بخل قره مصطفى لربما كان الجيش العثماني استولى على ڤينا ، وذلك أنه كان يعتقد كون ڤينا ملأى بالأموال والكنوز ، فلو كان أمر بحملة عمومية واستولى الجند على البلدة لكانوا نهبوها لأنفسهم فكان يريد أن يأخذها بدون أن يترك للعسكر حق التصرف بالغنائم ، فبقى منتظراً النصر مع حفظ النظام إلى أن تمكن امبراطور النمسا « ليو بولد » من استجلاب البولونيين لنجدة ڤينا . وكان البابا استصرخ لويس الرابع عشر باسم النصرانية ، إلا أن شدة بغضاء ملك فرنسا لامبراطور المانيا حالت دون نجدة ملك فرنسا الذى كان يثبط سائر الدول المسيحية عن اصراخ الألمان .

وبرغم كل مساعى لويس الرابع عشر فى خذلان النمسا زحف « صوبيسكى » ملك بولونيا . وزحف أمراء « الساكس » و « الباڤيير » لنجدة النمسا وفى ١٢ سبتمبر ١٦٨٣ اشتبكوا فى معركة حاسمة مع العثمانيين ، فخاب السعد في هذه المعركة وفقد العثمانيون عشرة آلاف قتيل ، وغنم الألمان والبولونيون ثلاثمائة مدفع وخمسة آلاف خيمة وصناديق لا تحصى ملأى بالعدد . وسقط فى أيدى الألمان أعلام الجيش العثمانى عدا السنجق الشريف ، وتقهقر قره مصطفى باشا قاصداً إلى بود فتعقبه البولونيون وهزموه هزيمة ثانية ، وقتلوا من جيشه ثمانية آلاف واستولى الرعب على الأتراك فولوا مدبرين ، ووصلت الأخبار إلى الأستانة فثار ثائر الأمة ، واضطر السلطان محمد الرابع إلى إصدار الأمر بقتل قره مصطفى باشا ، وأرسلوا رئيس القرناء إلى بلغراد لأجل تنفيذ هذا الأمر ، وتولى الصدارة ابراهيم باشا فى أحرج وقت عرفته السلطنة ، وتألبت على الدولة العثمانية عصبة من دول النصرانية ؛ المانيا ، و بولونيا ، والبندقية ، والبابا ، وفرسان مالطة : وانضم اليهم الروس طمعاً فى دخول البحر الأسود ، وغزو بيزنطية ، وكان الشيخ العثمانى قد دب الرعب فى قلبه ، وكانت الخزانة خاوية ، وكانت فرانسا غير داخلة فى هذا الحلف بغضا بالمانيا ، ولكن كانت

المراكب الافرنسية تغزو سفن المسلمين . ووقع قتال بين الأسطول الافرنسى والمراكب العثمانية أمام جزيرة « شيو » وضرب أمير البحر الافرنسى « دوكين Duquesne » مدينة الجزائر بالقنابر ودمرها ، ولم يرجع الفرنسيس عنها إلا بعد أن أخذوا غرامة الحرب من إمارة الجزائر ، وتسلموا الأسري المسيحيين الذين عندهم . وضرب أيضاً دوكين مدينة طرابلس فأوقع بها ما أوقع بالجزائر . وجاء الفرنسيس فضربوا مراسى المغرب ، ودمروا الأسطول المغربى . ثم إن الهزائم التى وقعت على جيش قره مصطفى باشا فى النمسا تركت الطريق مفتوحاً للعدو ، فزحف إلى المجر كما أن البنادقة أعملوا الحركة لأجل فتح بلاد المورة ، ووقعت « بريفيزه » فى أيدى البنادقة ، ثم « ناڤارين » و « مورون » و « أركاديه » و « پاتراس » و « ليپانت » و « كورنتيه » و « أثينا » .

وأما النمسويون فانهم استولوا على « فيسغراد »و « ڤاكسن » ودخلوا «پست» وحصروا « بود » واستولوا على بعض مواقع للعثمانيين فى « كرواسية » ودحروا والى بوسنة . ثم استولى قائدالنمسا « الدوك دولورين » على « غران » و « نوهيزل » كما أن الكونت « هر بشتاين » استولى على « ليكة ، وكور باڤية ، ووادى أودڤينه » كما أن الجنرال « شولتس » هزم « تكلى » الأمير المجرى المولى من قبل العثمانيين فعين السلطان سليمان باشاصدراً أعظم وعهد إليه باسترداد شرف السلطنة التىأصيبت من النوائب بما لم يسبق له مثيل ! وكان سليمان باشا شديد البأس مقداماً إلا أنه كان ينقصه علم الحرب الذى كان موصوفاً به « الدوك دولورين» وهو القائد الاول فى زمانه وكان الدوك دولورين يحاصر بود وفيها القائد عبدى باشا ، وكان المحاصرون تسعين الف مقاتل ، فردهم عبدى باشا على الاعقاب مرتين . إلا أنه قتل فى المعمعة و بعد قتله دخل النمسويون وحلفاؤهم إلى بود ، وذلك فى ٢ سبتمبر سنة ١٦٨٦ وكانت بود هى آخر حدود الاسلام من جهة أوربا . و بقى العثمانيون فيها مائة وخمساً وأربعين سنة ، وكانت هيباب الجهاد ومفتاح السلطنة . وكانت فيها مساجد ومدارس

عديدة فلم يبق منها شيء سوى مدفن لمجاهد يقال له « كل بابا » حافظ عليه المجر إلى الآن وهو على رابية عالية من بود .

ومن آثار العثمانيين فى بود حمامات معدنية لا تزال إلى الآن . ثم اشتبك سليمان باشا مع العدو فى « موهاك » وهو مكان كان العثمانيون كسروا فيه المجر قبل ذلك التاريخ بمائة وستين سنة . فلم يسعدهم طالع الحرب هذه المرة ، وخسروا عشرين ألف مقاتل، مع المدافع، والذخائر . ودخل العدو بلاد ترانسلفانيا واستولى عليها ، واستولى على أربعة عشر حصناً فى « سلافونيا » وعلى كثير من القلاع فى كرواسية ، والمجر السفلى . فبعد توالى هذه المصائب على الدولة لم تجد الأمة أمامها وسيلة لاصلاح الحال سوى خلع السلطان محمد الرابع ، فخلعوه فى ٨ نوفمبر ١٦٨٧ و بايعوا أخاه السلطان سليمان الثانى .

السلطان سليمان الثانى

وكان سليمان الثانى محبوساً مدة ستة وأربعين سنة فى أحد القصور ، لا يخالط أحداً ولا يخالطه أحد ، وكان يقضى أوقاته بالمطالعة ، فلما عرضوا عليه السلطنة حاول الاستعفاء منها ، فأجبروه على القبول . ولكن الانكشارية والسباهية ثاروا على الحكومة وقتلوا الصدر الأعظم ، وأهانوا حرمه . فلما شاع الخبر فى الآستانة ثارت حمية الشعب ، وخرج العلماء تحت العلم النبوى ودعوا الأهالى إلى تأديب العسكر فانقضوا عليهم وفتكوا بهم ، وقتلوا كثيراً من رؤسائهم ، فأخلدوا إلى السكون . و بقى النمسويون والبنادقة يتقدمون فى فتوحاتهم فاستولوا على « أرلو » وطردوا العثمانيين من « دالماسية » وأخيراً دخلوا بلغراد ، فالتمس الأتراك الصلح فاشترطت النمسا شروطاً ثقيلة إلى الغاية ، فحاول العثمانيون الثبات فتقهقروا أيضاً ، وأخرجهم العدو من « نيش » و « ودن » وأصبحت أسكوب تحت خطر السقوط . وقال أحد الوزراء : لا يزال

أمامنا حملة واحدة ، و يصير العدو فى الآستانة . فعقدت الدولة مجلساً فى أدرنة للتشاور فيما يجب عمله لانقاذ السلطنة ، وعهد بالصدارة إلى مصطفى باشا الكو برلى ابن الكو برلى الكبير ، وأخو أحمد باشا الكو برلى . فقام بالأمور خير قيام ، و بدأ باصلاح السلطنة من الداخل وملأ الخزائن بالأموال ، واستأصل الرشوة ، وأخذ على أيدى الظالمين وسن قوانين عادلة للخراج . وكان جانب من موارد السلطنة تحول إلى الأوقاف فاسترجعها الكو برلى ، وقال : إن الجهاد أولى بها ، ثم بعد أن ملأ خزانة السلطنة بالأموال اللازمة ؛ نشر فرماناً يقول فيه : إن الله يأمر المؤمنين بالجهاد ، إلى آخر رمق من حياتهم ، و إنه يجب على المسلمين أن ينفروا خفافاً وثقالا ، فثارت الحمية فى رؤوس المسلمين ونفروا من كل صوب . وفى الوقت نفسه عامل النصارى بمزيد الرفق ، وأطلق حرية التجارة ، فاستفاد من ذلك اليهود والنصارى . ومن جملة ماشدد به هذا الصدر الأعظم الرشيد منع العساكر من الاعتداء على الأهالى ولو بمثل حبة الخردلة ، ومن خالف ذلك أنزل به العقاب الصارم : ثم نظر إلى أحوال القضاء فطهر المحاكم ، وأشعر الرعية وجودالعدل ، وأعادمجدالسلطنة كما بدأ ، و بحسن إدارته هذه حفظ للسلطنة بلاد « المورة » لأن الأهالى قاموا إذ ذاك وانتصروا للدولة على البنادقة ، لا سيما أن هؤلاء كانوا يسعون فى نشر المذهب الكاثوليكى بين الأروام الأرتوذكسيين . فلما رأى الأروام ما رأوا من عدالة هذا الصدر وحسن إدارته رجعوا إلى الدولة العثمانية من تلقاء أنفسهم .

و بعد أن سدد الكو برلى أحوال السلطنة وأعاد هيبة الحكومة كما كانت زحف إلى الثغور ووافاه خان القريم سليم غرانى ، فبدأوا ببلاد الصرب فدوخوها وهزموا جيشاً المانياً فى قوصوة . وهزم الأمير « تكلى المجرى » حليف الدولة الجنرال « هوسلر » وأخذه أسيراً . واسترجعت الدولة « نيش » و « ودن » و « سيمندريا و « بلغراد » وذلك سنة ١٦٩٠ . ثم مات السلطان سليمان الثانى .

السلطان احمد الثانى

وخلفه أخوه أحمد الثانى فى ٢٣ يونيو ١٦٩١ فكان للكوبرلى فى مدة أحمد من نفوذ الكلمة ما كان فى مدة سليمان ، حتى أن السلطان أحمد قال مرة : إنى لا أريد أن أعترض الكوبرلى فى شيء من أمور الادارة خوفا من أن يتعطل بذلك ما هو أدرى منى . إلا أن الأقدار أبت إلا حرمان السلطنة العثمانية من هذا الرجل العظيم ، فانه فى الحرب مع النمسا تلاقى فى « سالان كنيم Salan Kenem » مع جيش المانى يقوده « لويس فون بادن » . وكان الصدر الأعظم مخترطاً سيفه أمام الجيش ، فأصابته رصاصة فى صدره فخر قتيلا ، ودارت الدائرة على الأتراك وفقدوا ثمانية وعشرين ألف مقاتل ، ومائة وخمسين مدفعا ، وكانت مصيبة من أعظم المصائب على الدولة ، وفقدت بفقده وزيراً عاقلا ، عادلا ، نشيطاً ، جريئا ، مهذبا صادقا ، اجتمع فيه من الخلال الباهرة ما قلما وجد فى رجل من رجال السياسة . فبكاه المسلمون والمسيحيون معا ، وأسف الجميع لفقده . وبقيت الدولة مدة أربع سنوات لم يلتئم جرحها الذى تركه موت الكوبرلي .

السلطان مصطفى الثانى

ثم تولى السلطنة مصطفى الثانى بن محمد الرابع ، وكان عهده متسما بالمتانة والصلابة ورجع السلطان إلى دأب أجداده الأولين ، وأعلن أنه سيباشر قيادة الجيش بنفسه فقال له بعض وزرائه : إنه لا يجوز له أن يعرض للتهلكة شخصه المقدس ، فرفض كلامه وفى بداية أمره كسر الأسطول العثمانى فى خلج « شيو » أسطول البنادقة ، وزحف خان التتار إلى بولونيا ، وأوقع بأهلها ، ولم يتوقف إلا عند « لمبرغ » . وجاء الروس فحاصروا « آزوف » فهزمهم العثمانيون والتتار ، وقتلوا منهم ثلاثين ألفا . وذلك فى اكتوبر سنة ١٦٩٥ ، ثم دخل السلطان بنفسه بلاد المجر وفتح « ليپّه » وجاء الجنرال « ڤيتيرانى » ليصدّه فأحاط به الجيش العثماني ، وبعد عراك شديد كثرت

فيه الخسائر من الفريقين أخذ ڤيتيراني أسيراً وأمر السلطان بدق عنقه . ثم انتصر السلطان في وقعة « أولاش » على أمير الساكس . و بينما كانت الأمور جارية وفق مراد العثمانيين ؛ إذ تولى البرنس « أوجين دوساڤوا » قيادة الجيش الألماني .

سلطنة مصطفى الثاني ابن محمد الرابع التي ابتدأت سنة ١٦٩٥ كانت فاتحتها فاتحة حزم وعزم ، وما مضى ثلاثة أيام على استواء السلطان على سرير الملك حتى أعلن نيته أن يتولى قيادة الجيوش بنفسه خلافاً لما كان عليه أسلافه المتأخرون . وقد حاول بعض وزرائه أن يأفكه عن عزمه هذا فلم يستفد شيئاً ، وقال له السلطان : إني ماض في خطتي هذه ، ثم إن عهد هذا السلطان بدأ بالظفر ، فالاسطول العثماني كسر أسطول البنادقة أمام جزيرة « ساقس » واستولى العثمانيون على هذه الجزيرة ، و زحف خان القريم على بولونيا وأوغل وأثخن ، ولم يتوقف الا عند « لمبرغ » : وكذلك الروس تركوا حصار « آزوف » بعد أن فقدوا ثلاثين الف مقاتل ، وذلك في اكتوبر سنة ١٦٩٥ ثم إن السلطان نفسه دخل بلاد المجر وافتتح مدينة « ليپّه » عنوة وأسر الجنرال « ڤيتيرافي » وأمر بقطع عنقه . ثم تغلّب السلطان في واقعة « أولاش » على أمير الساكس قائد الجيش الألماني في السنة التالية ، فاشتعلت حماسة العثمانيين وصاروا يجودون بالعطايا لتجهيز الجيوش ، ولتكتيب كتائب من المتطوعة ، إلا أن طالع الحرب لم يستمر طويلا على هذا الشكل ، فان بطرس الأول قيصر الروسيا عاد فافتتح « آزوف » والبرنس « أوجين دوساڤوى » تولى قيادة الجيوش النمسوية فكسر الجيش العثماني على نهر « تيس Thaiss » حيث فقد العثمانيون ثلاثين الف مقاتل ، منهم عشرة آلاف غرقوا في النهر ، وقُتل الصدر الأعظم ، وفر السلطان ودخل العدو بلاد بوسنه وذلك سنة ١٦٩٧ فماد الخطر فأحدق بالسلطنة ، وعوّل السلطان على وزير جديد من آل كوبرلي وهو الكوبرلي حسين باشا ، وكانت الخزانة فارغة ، فجاء الكوبرلي هذا ورمّم الاحوال ، وحشد جيشاً عهد بقيادته الى « دالتبان باشا » وسرّحه الى بوسنه فأجبر النمسويين على الانكفاء الى الوراء فعبروا « نهرَ الساف » . وكان لويس الرابع عشر يغري تركيا بمتابعة القتال ، ويتعهد لها

بواسطة سفيره الماركيز « دوفريول » بأنه لا يصالح النمسا الا اذا استرجعت تركيا بلاد المجر وجميع البلدان التى فقدتها . ولكن سياسة النمسا تغلّبت فى ذلك الحين وقيل إن الذهب لعب دوره فى هذه المسألة ، وانعقد الصلح بين تركيا والنمسا على شرط ترك الأولى للثانية جميع المجر وترانسلفانيا . وسميت هذه المعاهدة بمعاهدة « كارلوفيتس » وتاريخ انعقادها ٢٦ يناير سنة ١٦٩٩ ، وبموجبها تقررت الهدنة بين الدولتين الى مدة خمس وعشرين سنة ، وصار نهر « الساف » ونهر « أنّة » فاصلا بين تركيا والنمسا ، واسترجعت بولونيا « كامينيك » و « ڤادولية » و « أوكرانية » وبقيت آزوف للروسيا . وصارت بلاد المورة وجميع دلماسية الى جمهورية البندقية ، وألغيت جميع الجُزَى التى كانت تدفعها الدول المسيحية الى الدولة العثمانية .

ومعاهدة كارلوفيتس هذه كانت الى ذلك العهد أعظم ضربة على السلطنة العثمانية ، فتراجع الأتراك عن بولونيا والمجر الى ما وراء نهر الدنيستر ، والساف والأنّة ، وظهر للجميع الضعف الذى كان قد بدأ يعمل عمله فى سلطنة آل عثمان .

وكان الخلل عاماً جميع فروع الادارة ، وكانت الفتن مشتعلة على حدود إيران وفى القريم ، وفى أفريقيا ، وفى بلاد العرب . فقام الكوبرلى حسين الذى اقتفى أثر عمه برأب الصدوع ، وسدّ الفتوق ، وأعفى أهل بوسنة و « البانات » مما كانوا يؤدونه باسم الجيش ، وترك لأهل الروملى مليوناً ونصف مليون من متأخر الضرائب وأصدر أوامر فى جميع السلطنة بأن جميع المأمورين يجب أن يكونوا علماء ، وأن يحفظوا القرآن وقواعد الدين ، وشدّد فى انتخاب المدرّسين ، ووضع الادارة وقيادة الجيش تحت رقابة شديدة ، وأصلح الأمور المالية ، وسنّ قانوناً للبحرية ، وبنى المساجد ، والمدارس ، والأسواق ، والثكن العسكرية ، ورمّم أسوار بلغراد ، وتمشوار ونيش . وشحنها بالأقوات ، ونظر فى أحوال المسيحيين من الرعايا فعاملهم على قدم المساواة مع المسلمين . ولكن هذه الاصلاحات كلها لم تقع بدون مقاومة ؛ فتألب على الصدر الأعظم حزب ممن كانوا يعيشون بالغلول من أموال الدولة ، وأخذوا يدسون الدسائس حوله وحول أعوانه ، الى أن اضطروه الى الاستقالة وكان أصيب

بمرض عضال وفى ٥ سبتمبر سنة ١٧٠٢ بعث الى السلطان بختم الصدارة ، ومات بعد ذلك بسبعة عشر يوماً ، وفقدت الدولة به رجلا عظيما ممن أخّروا أجل سقوطها نظير سائر آل الكوبرلى

وقد أحدث موت الكوبرلى هذا فتوقاً جديدة فى السلطنة ، وتولى الصدارة « دالتبَان باشا » وكان مغرما بالحرب يريد نقض المعاهدة التى انعقدت مع النمسا الا أنه لم يطل أمره وقُتل قيل بدسائس بعض العلماء - فتولى الصدارة « نامى محمد باشا» فأراد أن يحذو حذو الكوبرلى فى الاصلاح فأثار عليه المشايخ جيش الانكشارية وانتهى الأمر بخلع السلطان مصطفى الثانى ، ومبايعة أخيه احمد الثالث .

السلطان أحمد الثالث

وفى أول الأمر اضطر السلطان الجديد الى إرضاء الثوار ، وقتل المفتى فيض الله افندى بفتوى من خلفه محمد افندى وهو حادث لم يسبق له مثيل ، غير أن السلطان بعد أن تمكنت أقدامه فى السلطنة عاد فأخذ ينكل بزعماء الثورة فقتل منهم وغرّب وعهد بالوزارة الى صهره المسمّى داماد حسن باشا ، فسار بالمملكة سيرة حسنة ، وثارت فى أيامه بلاد الكرج فدوّخها ، واعتنى بتأمين قافلة الحج من الشام الى مكة ، و بنى مدارس ، وأنشأ دار صنعة بحرية .

وفى أيام احمد الثالث كان لويس الرابع عشر قد خاض الحرب المسماة بحرب الوراثة فى أسبانيا ، فعرض بواسطة سفيره على تركيا أن تدخل فى حرب مع النمسا وتسترجع ما فقدته ، ولكن حزب السلام كان فى تركيا غالباً ، فرفض السلطان طلب ملك فرنسا . وكانت الروسيا قد نجمت قرونها إذ ذاك ، فانتهزت فرصة اشتغال الدول الغربية بالحرب وخلا لها الجو ، ورأت تركيا قد مالت الى الدعة فجعلت تتأهب لقتالها ، وتركيا كانت لا تحمل بما تفعله الروسيا بقيادة بطرس الاكبر . وكان كارلوس الثانى عشر قد خشى مغبّة قوة الروسيا ، فحمل عليها وطلب معاونة السلطان فوعدوه بارسال خان القريم لمعاونته ، فاعتمد على هذا الوعد وأوغل فى أرض الروسيا

بستة عشر الف مقاتل لا غير ، فانكسر والتجأ الى « بندر » ضمن الحدود العثمانية وحاول أن يجر العثمانيين الى محاربة الروسيا فلم يفلح . وذلك لأن نعمان باشا الكوبرلى الصدر الأعظم كان يكره دخول الدولة فى الحرب ، وكان هذا الكوبرلى نظير أسلافه فى العدل ، الاّ أنه كان ينقصه علو أفكارهم ، فسقط أخيراً . وكان أكثر السبب فى سقوطه مشرفاً له ، لأنه عارض السلطان فى إسرافه ، وأبى أن يجعل معاشات الانكشارية من طرق غير شرعيـة . فقال له السلطان : إن سلفك « شورلولى » كان يجد طرقاً لتأديته رواتب العساكر ، فأجابه الكوبرلى : لى الفخر بأن أجهل مثـل هذه الطرق . فعزله السلطان وولى مكانه « محمد باشا البلطجى » الذى أعلن الحرب على الروسيا ، وتولى بنفسه قيادة الجيوش .

وكان بطرس الأكبر يؤمل أن المسيحيين فى السلطنة العثمانية يرفعون لواء الثورة فلم يتحرك منهم أحد ، وسار البلطجى بمئتى الف مقاتل من الترك والتتار وأحاطوا بجيش بطرس الأكبر على ضفاف نهر البروت ، وأوشك بطرس وجيشه أن يقعوا فى الأسر وكانت الروسيا لو أسروا ستسقط من عداد الدول ، فبادرت كاترينا بدهائها لتلافى الخطب ، ودخلت فى المذاكرة مع الصدر الأعظم ، وعزّزت الكلام بهدايا فاخرة قدمتها له ، وانعقدت معاهدة « فالكسن » وذلك سنة ١٧١١ وبموجبها تعهد قيصر الروسيا باعادة قلعة « آزوف » وبهدم القلاع التى بناها فى تلك البلاد ، وبعدم التدخل فى أمور القوزاق . فكانت هذه المعاهدة مفيدة لتركيا إلا أنها كانت أفيد جداً للروسيا ، لأنها أنقذت القيصر من الأسر . وثار غضب ملك السويد ووبّخ البلطجى على عدم أسره بطرس الأكبر ، فأجابه البلطجى جواباً بارداً وهو أنه لو أسر بطرس لبقيت بلاد الروس بدون رئيس . فهذا الكرم كان بغير محله ، بل كان نوعاً من الخبال . وجاء الكونت « بونياتوفسكى » سفير السويد وعرض القضية للسلطان وعضده خان القريم « دولة غرائى » فغضب السلطان على البلطجى وعزله ونفاه ، على أن خلفه يوسف باشا لم يكن أيضاً مغرماً بالحرب ، فعقد متاركة مع الروسيا إلى مدة ٢٥ سنة . وصدر الأمر لكارلوس الثاني عشر بأن يعود إلى بلاده ، وكان كارلوس

جباراً عنيداً فأبى أن يمتثل الأمر وبقى معلقاً أمله بجر العثمانيين إلى محاربة الروسيا فالتزمت الدولة أن تعالج إخراجه من أرضها بالقوة فعصى الأمر ، فساقوا اليه عشرين ألف عسكرى من التتار وستة آلاف من الترك ، فحاول مقاومة هذا الجيش بثلاثمائة من رجالة ولكن العثمانيين لم يريدوا أن يغدروا بنزيلهم ، وصبروا عليه حتى رجع إلى السويد من نفسه بعد أن أقام سنتين في تركيا .

وفي تلك المدة استفادت الدولة من الهدنة مع الروسيا ، وطردت البنادقة من جميع بلاد المورة ، ومن بعض البلاد التى كانت باقيـة لهم فى كريت . ولـكن جزيرة « كورفو » امتنعت على العثمانيين ، فالتجأت البندقية إلى النمسا وكان قائد جيوشها « أوجين دوساڤوى » الشهير فأعلن الحرب على تركيـا وهزم الجيش العثمانى فى « پترڤاردين » وذلك فى ٥ أغسطس سنة ١٧١٦ وقتل الصدر الأعظم فى الوقعة واستولى النمساويون على « تمشوار » وحاصروا « بلغراد » . فزحف الصدر الأعظم الجديد خليل باشا لنجدة بلغراد فانـكسر أيضاً ، فالتزمت الدولة أن تعقد الصلح مع النمسا ، وأخلت لها تمشوار و بلغراد وقسماً من بلاد السرب ، ومن بلاد الفلاخ ، ورجع بطرس الأكبر فاستفاد من هزيمة تركيا هذه وأخل بالمعاهدة التى كان عقدها معه البلطجى ، فتجددت معاهدة أخرى وأقنعت الروسيا عدوتها تركيا بالاتحاد معها على قضية النظام الارثى فى مملـكة بولونيا ، وغفلت تركيا عن كون بولونيا حصناً حصيناً لها فسايرت الروسيا .

وتولى الصدارة ابراهيم باشا ، فقام يحارب العجم ، وأثار السنية الذين فى بلادها فانتهز بطرس الأكبر الفرصة وأغار على الطاغستان وسواحل بحر الخزر ، فأرسل خان القريم ينذر الدولة بسوء المصير فزحفت الجيوش العثمانية على أرمينية وكرجستان وكادت الحرب تقع بينها و بين الروس فخاف بطرس الأكبر أن تدور عليه الدائرة هذه المرة أيضاً فوسط فرنسا بينه وبين الدولة ؛ فسعى «دو بوا »سفير فرنسا فى إرضاء الفريقين وذلك من أملاك العجم .

وكانت فارس يومئذ فى حال أشبه بالفوضى ، وكان الشاه مير محمود قد تغلب

عليه أشرف ابن عمه واستولى على الملك ونازعه طاهماسب ، وكان هذا أحق بالملك شرعاً فتحارب الاثنان وانتهى الأمر بهزيمة أشرف والتحاقه بسجستان حيث مات وكان عند طاهماسب قائد عظيم اسمه « نادر كولى » كان فى الأصل زعيم أشقياء فزحف صوب تركيا واسترجع الولايات الفارسية التى كانت قد دخلت فى الحوزة العثمانية ، فلم يشأ السلطان أن يثير على فارس حربا ، فغضبت الانكشارية وثاروا وطلبوا رأس الصدر الأعظم ، ورأس شيخ الاسلام ، ورأس القبطان باشى فامتنع السلطان عن إعطائهم رأس شيخ الاسلام ، ولكن قتل لهم الآخرين . فلم يزدهم ذلك إلا تمرداً ، وخلعوا السلطان أحمد وبايعوا محمود الأول

وفى زمن أحمد الثالث دخلت المطبعة فى تركيا وأفتت مشيخة الاسلام بجوازها إلا أنه بقى طبع المصحف الشريف ممنوعاً . وطبع فى ذلك الوقت كتب كثيرة مثل « جيهان نوما » وهو جغرافية للشرق مع أطالس وخلاصات تاريخية . و « تقويم التواريخ » وهو سلسلة ملوك الشرق وعظمائه إلى سنة ١٧٣٢ « وتحفة الكبار » وهي تاريخ البحرية العثمانية إلى سنة ١٦٥٥ « وتاريخ تيمور » من قلم نظمى زاده . و « تاريخ مصر للسهيلى » . و « تاريخ الافغان » مع « مختصر تاريخ الدولة الصفوية فى فارس » . و « تاريخ بوسنه » من سنة ١٧٣٦ إلى سنة ١٧٣٩ وهى مدة اتصلت فيها الحروب فى ذلك الاقليم . و « تاريخ الهند الغربية » . وكتاب « الفيوضات المغنطيسية » يتكلم عن خصائص المغناطيس و إبرته المعروفة . فهذه هى الكتب الأولى التى طبعت بالمطبعة العثمانية بحسب رواية المؤرخ « لاجونكيار LaJonquiére » وقد قرأت فى بعض المظان مايخالف هذا وهو أن أول كتاب طبع فى الأستانة هو « صحاح الجوهرى » . ثم ان الدولة عادت فمنعت المطبعة ، و بقى ذلك إلى زمن السلطان عبد الحميد الأول الذى أصدر خطاً شريفاً فى تاريخ ١٢ مارس سنة ١٧٨٤ باعادة المطبعة تحت ادارة محمد رشيد افندى ، وأحمد واصف افندى . فكانت مدة إهمال المطبعة أربعين سنة ثم إن السلطان محمود الأول اهتم بها مزيد الاهتمام .

وكان السلطان أحمد الثالث شاعراً أديبا ، وله شعر رقيق لا سيما فى الغزل . أحفظ من جملته :

عجباً لسلطان يذل له الورى ويصول سلطان الغرام عليه

وما أكثر الأدباء والشعراء فى آل عثمان ! ! .

السلطان محمود الأول

تولى السلطان محمود الاول سنة ١٧٣٠ ولأول سلطنته ثار الانكشارية وعلى رأسهم المسمى « بترونه خليل » فقمعت الحكومة ثورتهم وقتلت منهم سبعة آلاف وعاد السكون إلى العاصمة . ثم استأنفت الدولة محاربة العجم وأجبرت الشاه طهماسب على طلب الصلح ، فانعقد فى ١٠ يناير سنة ١٧٣٢ ونزلت العجم عن تبريز ، وأردهان وهمذان ، وجميع اللورستان ، وأيضا تركت لتركيا الداغستان ، وناختشيفان ، وأريفان وتفليس ، وغيرها . ولكن هذا الصلح لم يطل أمره ، فانه برز « نادر كوليخان » من قواد العجم وخلع الشاه طهماسب وصار هو كافلا للمملكة الفارسية ووصيًّا على القاصر الشاه عباس الثالث . فنقض نادر المعاهدة وغزا البلاد العثمانية وحصر بغداد فاشتبكت معركة شديدة على دجلة وانكسر العجم أولا وثانياً ، ولكنهم عادوا فانتصروا فى المعركة الثالثة ، ووقع السر عسكر طوبال عثمان باشا قتيلا . وكان هذا قائداً بطلا ، ووزيراً عادلا فاضلا ، خسرت تركيا بموته خسارة لا تعوّض . وأرسلت الدولة جيشاً آخر بقيادة السرعسكر عبد الله باشا الكوبرلى بن مصطفى باشا الكوبرلى فقتل هذا السر عسكر أيضاً فاضطرت الدولة إلى طلب الصلح وعقدته مع نادر شاه الذى كان تولى سلطنة العجم ، ورجعت مع إيران إلى الحدود التى كانت تحددت بين السلطان مراد الرابع والعجم سنة ١٦٣٩ وأكثر السبب الذي حدا تركيا على طلب الصلح هو نشوب الحرب بينها وبين الروسيا

وكانت بولونيا فى فوضى مستمرة ، فانتهزت الروسيا من جهة ، والنمسا من جهة أخرى الفرصة لأجل اقتسامها . وقاتل « ستانسلاس » ملك بولونيا قتالا شديداً إلا

أن الروس تغلبوا عليه فصارت بولونيا فى قبضة الروسيا ، بينما فرنسا مشغولة بالحرب مع النمسا .

وكان عند الدولة العثمانية رجل إفرنسى اسمه أحمد باشا أصله من البحرية الافرنسية وقد جرت معه وقائع خرج من أجلها من وطنه ودخل فى خدمة النمسا وامتاز بالبسالة فى الحرب بين النمسا وتركيا ، ثم وقع الخلاف بينه و بين البرنس أوجين فألقاه فى السجن ، فوجد وسيلة للفرار من السجن والتجأ إلى تركيا وصار قائداً وتسمّى بأحمد باشا ، وقدّم للسلطان تقريرا يطلعه فيه على أسرار السياسة الأوربية ، وأشار على السلطان بعقد محالفة مع فرنسا وأقنعه بها ، فرضى السلطان بذلك حتى يتمكن من قهر النمسا . ولما علم كارلس الثانى أمبراطور النمسا بمشروع هذه المحالفة مع فرنسا أسرع بمصالحة هذه ، وفى أثناء ذلك زحف الروس إلى تركيا بينما هى فى حرب مع العجم فاستولوا على آزوف ، والقريم ، وغيرهما .

ولما كانت النمسا قد صالحت فرنسا واستراحت من حروبها مع اسبانيا وسردانيا عبّت جيشاً كبيراً وغزت به بلاد السرب ، والفلاخ ، والبوسنة ، وظنّت نفسها قد نالت مرامها فانكسر جيشها فى بنالوقة ، والتزمت أن تخلى البوسنة . وكذلك انكسر جيشها فى الصرب تحت قيادة البرنس « هيلدبورهوزن » فطلب أمبراطور النمسا الصلح وذلك سنة ١٧٣٧ وتوسطت انكلترا وهولاندا فى إعادة السلام ، إلا أن الباب العالى اشترط أن يكون الصلح بواسطة فرنسا . واسترجعت الدولة فى تلك النوبة بلاداً كثيرة كانت قد استولت عليها النمسا . ولولا غفلة الحاج محمد باشا الصدر الأعظم لكان الجيش النمسوى قضى عليه بتمامه . فأما الحرب مع الروسيا فكانت سجالا ، ففى البداية انكسر الروس على نهر « الدينيستر » وأحرق الأسطول العثمانى أسطول الروسيا إلا إنهم عادوا فيما بعد فانتصروا على العثمانيين ودخلوا مُلداقيا . وبمساعدة المركيز « فيلنوف Villeneuve » انعقد الصلح بين الدولتين الروسيا والنمسا ، و بين الدولة العثمانية و ذلك بكفالة فرنسا . و بموجب هذه المعاهدة رجعت بلغراد و « وشاباتز » وجميع بلاد الصرب ، والفلاخ ، وقلعة أورزوفة إلى تركيا .

وجُعِلت هذه المعاهدة لمدة سبع وعشرين سنة ، وقد محت معاهدة كارلوفيتس السابقة التى كانت وصمة عار على العثمانيين .

فاما الروسيا فقد رضيت بالصلح على شرط أن تهدم قلعة آزوف ، ولا يكون لها سفن حربية لا فى قلعة آزوف ولا فى البحر الاسود ، وأعاد الروس جميع البلاد التى كانوا احتلوها من تركيا . وقال المؤرخ الألمانى «هامر Hammar» : إنه فى ذلك الوقت ساد النفوذ الافرنسى فى الآستانة الى أن صار كل شىء بيد فرنسا تقريباً وطلبت فرنسا تعديلات فى الامتيازات الأجنبية المعروفة بامتيازات سنة ١٦٧٣ فأجيبت اليها وذهب السفير العثمانى محمد سعيد ليقدم ذلك الى لويس الخامس عشر فى فرساى فقوبل باحتفال عظيم ، ورجع ومعه مدربون افرنسيس للجيش العثمانى بحسب طلب « بونفال Bonval » الافرنسى الذى كان أسلم وتسمّى بأحمد باشا ، وهو الذى مات سنة ١١٦٠ هجرية ودفن فى « بيره » من بلاد اليونان . ثم إن تركيا عقدت محالفة عسكرية هجومية دفاعية مع السويد فى وجه الروسيا .

وفى ذلك الوقت توفى الامبراطور « كارلس السادس » صاحب النمسا ، وترك الملك لابنته « مارى تيريز » فتحركت أطماع الدول الاوربية وأردنَ اقتسام النمسا . وكانت هذه أحسن فرصة للدولة العثمانية حتى تسترجع بلاد المجر ، وكانت فرنسا على رأس الدول التى تريد تمزيق النمسا ، فدعت تركيا الى الاشتراك معهن فأبى السلطان نقض العهد ، وشرع يرسل المواعظ الى تلك الدول حتى تمتنع عن إثارة الحرب . وأصدر الصدر الأعظم منشوراً طويلا يصف فيه أهوال الحروب بأبلغ العبارات ويختمه بدعوة الدول المسيحية الى السلام . وعبثاً حاول بونفال المسمى احمد باشا وسفير فرنسا وغيرها تحريك السلطان ورجاله لانتهاز هذه الفرصة ، وساعدهم فى ذلك أرسلان غرائى خان القريم الذى كان يعرف مقاصد الروسيا ، فالدولة العثمانية حينئذ أصرت على التزام السكوت وتوسطت انكلترا بينها وبين الروسيا واوستريا حتى عقدت بين الدول الثلاث معاهدة سلم دائمة . ثم ان الدولة وحّدت بين إمارة الفلاخ وملداڤيا وصارت ترسل إلى هناك أميراً تنتخبه من أروام استانبول ؛ فكان رجال

الدولة يضمون هذه الامارة بالمزاد فيذهب الأمير الرومى من الآستانة فيجمع مايقدر عليه من الأموال بالطرق الدنيئة وغير المشروعة ، و يرشو بها رجال الديوان لأجل إطالة امارته ، حتى إذا جاء من زاد عليه صرفوه عن الامارة وولوا الذى زاد . وهكذا ساءت إدارة الفلاخ والبغدان ، وكان هذا النسق فى الحكم يزيد بغضاء أهالى رومانيا للأتراك و يحملهم على محبة الروس . وقد جنت الدولة العثمانية من تحكيم هؤلاء الأروام فى بلاد رومانيا اتحاد الرومانيين مع الروس فى وجهها وكان ذلك و بالا عليها .

السلطان عثمان الثالث

وفى ١٣ ديسمبر سنة ١٧٥٤ توفى السلطان محمود الأول بعد أن ملك أربعاً وعشرين سنة وكان حليا رؤوفاً محبوباً ، فأسف عليه الناس أجمع ، وخلفه السلطان عثمان الثالث . وكان الصدر الأعظم هو على باشا فاستخف بأمر السلطان وأكثر الغلول من مال الدولة ، فأمر السلطان بقتله ووضع رأسه فى صحن من فضة على باب القصر السلطانى ، وولى الصدارة وزيراً اسمه محمد راغب باشا . وكان فى غاية الدهاء والحكمة مع الحزم والعزم ، وكانت له خبرة بالسياسة الخارجية . ولم يطل أمر عثمان الثالث ولم يحصل شىء فى زمانه سوى حريق لم يسبق له مثيل فى الآستانة التهم نصف هذه العاصمة . ومات عثمان الثالث فى ٢٩ اكتوبر سنة ١٧٥٧ .

السلطان مصطفى الثالث

وخلفه ابن أخيه وهو السلطان مصطفى الثالث ابن أحمد الثالث .

وقد بدأت سلطنته فى أثناء حوادث أثارت ثائر الأمة ؛ منها الاعتداء الذى جرى على قافلة الحجاج بين الحرمين ، ومنها أن سفينة أمير الماء ــ أى القبطان باشى ــ خرج منها جنودها و بقى فيها بعض النواتية من الأرقاء المسيحيين فذهبوا بها إلى مالطة .

غير أن السلطان بدأ بالاصلاح فعلا ، وأول ما وجّه اليه همه هو إصلاح الأمور المالية ، وضبط الجبايات ، واتباع سياسة التوفير ولا سيما فى القصر السلطانى . وأخذ

السلطان ادارة الاوقاف من يد « آغا القصر » وسلمها إلى الصدر الأعظم . وكان راغب باشا يبنى المحاجر الصحية توقياً من الطاعون ، و يقوم باصلاحات أخرى مثل بناء دار الكتب العظيمة التى بناها فى استانبول ، وكان مراده أن يشق بلاد الاناضول بترعة تتكون من نهر سقارية ، ومن بحيرة واقعة بين سقارية و إزنيق ، وذلك تسهيلا لنقل الحبوب والاقوات فمات قبل أن يتمكن من إجراء هذه الفكرة الحسنة وكانت وفاته سنة ١٧٥٢ .

و بينما كانت الدولة فى أشد الحاجة إلى مثل راغب باشا جرت حوادث فى غاية الخطورة ، منها قتل بطرس الثالث قيصر الروسيا وجلوس كاترينة الثانية على عرش تلك المملكة ، وموت أوغوست الثالث ملك بولونيا ، وكانت الروسيا قد دخلت فى صف الدول العظام ، وأخذت تنمو بسرعة فوجهت جميع دسائسها إلى إسقاط مملكة السويد ، ومملكة بولونيا والسلطنة العثمانية . وقد تغلبت على السويد ونزعت من يدها بموجب معاهدة « نيستاد » أحسن ولاياتها فى البلطيق الغربى ، ثم قضت الروسيا على مملكة بولونيا وأجلست على عرش هذه المملكة الكونت « ستانسلاس بونياثوفسكى » عشيق القيصرة كاترينة أو أحد معشوقيها الذين كان لا يأخذهم الاحصاء ، فاحتجت تركيا وفرنسا على عمل الروسيا هذا ولكن الدولة العثمانية كان بلغ منها فساد الادارة وفشو الرشوة والخيانة إلى أقصى حد يتصوره العقل وكان الانكليز يستعملون المال فى جميع مقاصدهم ، و ينالون به جميع مايريدونه من الدولة وكان السلطان يعرف كل ذلك ولا يقدر على الاصلاح نظراً لشمول الفساد وعموم البلوى حتى أنه قال لخان القريم : إن جميع الباشوات الذين عندى قد فسدت أخلاقهم ولم يبق لهم هم الا فى اقتناء الجوارى ، وآلات الطرب ، و بناء القصور . وفى أثناء ذلك اعتدى الروس على حدود الدولة ودخل القوزاق الى « بالطة » فأعلنت الدولة الحرب على الروس ولكن كانت جيوشها فى أسوأ حالة ، وكان مضى زمن طويل وهى خافضة فى السلم فنسيت أهم معدات القتال ، وكانت قلاعها قد تداعت الى الخراب ، وكانت المدفعية فى أشنع حال ، وكان الولاة قد أخذوا يستقلون فى ولاياتهم مثل احمد باشا فى بغداد

والحاج عكلى فى طرابزون ، والمملوك على بك فى مصر ، وغير ذلك . وثار يومئذ ظاهر العمر الزيدانى فى عكة .

هذا ولما أعلنت تركيا الحرب على الروسيا زحف خان القريم كريم غرائى فاخترق حدود الروسيا ، وهزم الروس وعاد الى بندر بخمسة وعشرين الف أسير منهم . ولسوء الحظ مات كريم غرائى فى أثناء ظفره هذا ، فزحف الروس وحاصروا « شوقسين » فامتنعت عليهم ، وجاء أمين باشا قائد العثمانيين لنجدة التتر فانهزم وأمر السلطان بقتله . وخلفه وزير يقال له « المولدوفنجى » فلم يتوفق لانه بينما كان يعبر نهر دِنَيستر طغت المياه فزعزعت أركان الجسرين اللذين على النهر ، فازدحم الجيش العثمانى ازدحاماً ساعد على انهيار الجسور فغرق منه عدد كبير ، بينما كان الروس يرمون على الجيش بنيرانهم فانكفأ العثمانيون الى نهر الطونه ، ودخل الروس الى بلاد رومانيا . ثم أرسلت الروسيا أسطولا الى البحر المتوسط فأثار بلاد الموره ، و بلاد الجبل الأسود ، فتوالت الوقائع بين الأتراك و بين الثائرين من الأروام ، ومن السلاف واشتعلت الحرب بين الأسطولين العثمانى والروسى ، واحترق الأسطول العثمانى فى « ششمه » . وكان يقود الأسطول الروسى « أورلوف » الشهير عشيق القيصرة كاترين الثانية ، ولكن قيادته كانت اسمية والفعل كان لأمير الماء الايكوسى المسمى « الفِنستون » وأراد الفنستون هذا أن يخترق الدردنيل فأبى أورلوف أن يطيعه وجاء فحصر جزيرة لمبى التى هى قبالة ذلك البوغاز . وكان العثمانيون قد بادروا الى تحصين الدردنيل ، وحشدوا على الضفتين ثلاثين ألف مقاتل ، وهكذا أمنوا خطر عبور الروس الى الأستانة .

وأما فى رومانيا فدارت الدائرة أيضاً على العثمانيين ، مع أنه كان عندهم هناك مائة وثمانون ألف مقاتل ، وأوشكوا أن يحيطوا بالروس ، ولكن بسوء إدارتهم تغلّب الروس عليهم فى معركة « كاهولو » وقيل إنهم فقدوا خمسين الف مقاتل . ولم يكن من يفكر فى حفظ شأن السلطنة غير السلطان وحده ، وكان الوزراء كلهم تحت تأثير الانكليز يريدون الصلح ، وقد طلبوا وساطة النمسا لذلك . وكان البارون « دوطوط

de Tott » الافرنسي يشتغل بأمر السلطان فى ترميم المدفعية العثمانية ، اذ بعد أن كانت هى المدفعية الأولى فى أوربا تقهقهرت الى الدرك الأسفل ! ! فأنشأ السلطان مدرسة للمدفعية والهندسة فى الكاغدخانه ، وكذلك بنى السلطان مدرسة للبحرية وذلك فى دار الصنعة التى يقول لها الأتراك « الترسانة » وكانت البحرية وصلت الى أقصى حدود الخلل وصار القبطان باشى - أى ناظر البحرية - يضع السفن تحت المزاد ، فالذى يزيد له فى الرشوة يقلده قيادة السفينة . ومما لا شك فيه أن البارون دوطوط خدم العثمانيين فى ذلك الوقت خدمة جزيلة فى ترميم المدفعية والبحرية .

وفى سنة ١٧٧١ هاجم حسن بك التركى ومعه أربعة آلاف متطوع جزيرة « لمنى » وهزم الروس وألجأهم الى الفرار بأسطولهم ، فكافأه السلطان بنظارة البحرية وانهزم الروس أيضاً فى كرجستان ، وفى طرابزون ، إلا أنهم تغلبوا على القريم وكانت هذه قاصمة الظهر لتركيا اذ أعلن البرنس الروسى قائد جيشهم استقلال القريم عن تركيا ، ووضعها تحت حماية الروسيا . ومن بعد ذلك صار البحر الأسود بين الدولتين بعد أن كان عثمانياً بحتاً .

أما النمسا فقد اتفقت مع بروسيا والروسيا على اقتسام بولونيا ، ثم توسطت النمسا فى الصلح بين تركيا والروسيا واجتمع رجال الدول الثلاث فى مولداڤيا ، وعندمابدأوا بالمذاكرات الصلحية اشتطّ الروس فى مطالبهم فرفضت تركيا صلحاً كهذا ، واستؤنفت الحرب . فانكسر الروس فى « روسجق » و « سيلستريه » من بلاد البلغار . فذهبوا الى « بازَرجيك » وهى مدينة غير محصنة فانتقموا عن هزائمهم بقتل الأهالى وفيهم النساء والأطفال ، وروى المؤرخ « هامر » أن حسن باشا قبطان البحر على رأس جيش من السباهية طرد الروس الى ماوراء الدانوب ، وغنم مدافعهم وأرزاقهم وقدور الطعام فيها اللحوم وهى نصف ناضجة .

ثم إن الدولة تغلّبت على علي بك الثائر بمصر بالاتفاق مع ظاهر العمر الزيدانى والى عكة الذى كانت السفن الروسية تمدّه بالمال والسلاح ، ولسوء طالع السلطنة مات مصطفى الثالث بينما كان يريد أن يقود الجيش المرابط على الدانوب ، وذلك

فى ٢١ سبتمبر سنة ١٧٧٣ وأسفت الأمة العثمانية بأجمعها عليه ، لأنه كان مصلحاً كبيراً ، وجاء فى زمن بلغت فيها الادارة أبعد ما يتصوره العقل من الخلل ، فعالج أمراض السلطنة بصبر عجيب ، وأصلح جانباً كبيراً مما كان ينوى إصلاحه .

وقد فكر السلطان فى خرق برزخ السويس وكلّف البارون دوطوط بأن يرسم له خطة لهذا المشروع الذى كان ينوى إجراءه بعد عقد الصلح .

السلطان عبد الحميد الأول

فتولى الملك السلطان عبد الحميد الأول والملك جمرة تضطرم ، ولم تصل الفوضى فى السلطنة العثمانية إلى مثل ما وصلت إليه لذلك العهد ، فان أحمد باشا والى بغداد كان قد أعان استقلاله ، وظاهر العمر الزيدانى كان قد استفحل أمره واستولى على بلاد الجليل التى يقول لها العرب « بلاد الأردن » وحصّن عكة واتخذها عاصمة له وكان محمد بك والى مصر ثائراً تقريباً ، وكان محمود باشا والى اشقودره فى شمالى ألبانيا قد انفصل عن الدولة ، وكان أهم منه على باشا والى يانيا الذى أسس في جنوبى ألبانيا مملكة مستقلة .

دخل عبد الحميد الأول على السلطنة وهى بهذه الحالة ، وجاءت الروسيا وأعلنت عليه الحرب انتقاماً عن هزائمها الماضية ، وأسرع القائد الروسى الكونت « رومانسوف » فقطع بين الجيش العثماني و بين ميرته التى كانت فى « ڤارنة » فوقع الرعب فى الجيش وتبدّد شمله ، ولم يبق مع السرعسكر إلا ١٢ ألف مقاتل . فرأى السلطان أن مداومة الحرب مستحيلة ، وعقد مع الروسيا معاهدة « كوتشوك قينارجى » فى ٢١ يوليو سنة ١٧٩٤ . و بهذه المعاهدة انسلخت بلاد القريم ، و بلاد بوجاق ، و بلاد قوبان عن تركيا ، واستولى الروس على كيلبورم ، و ينى قلعة ، وآزوف ، وصار لهم حق الملاحة فى البحر الأسود ، ورجعت الفلاخ والبغدان إلى تركيا ولكن مع الاعتراف للروسيا بحق إبداء رأيها فى شئون تينك الامارتين ، وكذلك صار للروسيا حق آخر وهو

التكلم فى الشئون العائدة للمسيحيين وكنائسهم ، مما كان السبب فى الحرب المسماة بحرب القريم سنة ١٨٥٤ .

قال هامر مؤرخ السلطنة العثمانية : من بعد هذه المعاهدة صار السلم والحرب مع الدولة العثمانية فى قبضة الروسيا ، وقلما وُجدت معاهدة على تركيا أشأم منها ، ولم ينشف الحبر على الورق حتى أعملت الروسيا دسائسها فى شبه جزيرة القريم ، فثار الأهالى وخلعوا « دولة غرائى » الأمير الشرعى وبايعوا «شاهين غرائى» الذى انضوى تحت لواء الروسيا . فلم يقبل أشراف البلاد أن يدخلوا فى طاعة الخان الجديد ، فاستنجد هذا كاترينة فارسلت اليه جيشاً سبعين الف عسكرى ، فقبضوا على أشراف البلاد وأعيانها ، وقتلوا منهم وغرّبوا وارتكبوا الفظائع ، وانتهى الأمر بخضوع القريم للحكم الروسى . و بعد أن قضت الروسيا وطرها من القريم رمت الخان شاهين هذا الى الخارج ، فلجأ الى تركيا فنفوه الى رودس ، وقيل إنهم قتلوه . وصارت القريم والقوبان من ذلك العهد جزءاً من الروسيا ، واعترف الباب العالى بذلك سنة ١٧٨٤ وكانت النمسا والروسيا متفقتين حينئذ ، وتعاهد الامبراطور يوسف الثانى صاحب النمسا ، والقيصرة كاترينة على اقتسام تركيا . فاضطر الباب العالى أن يعلن الحرب على الدولتين ، فزحفت الجيوش النمسوية من جهة بلغراد فكسرها الصدر الأعظم فى « لاغوس » واكتسح بلاد « البانات » التى كانت لتركيا من قبل . وهاجم الاتراك مدينة « كيلبورم » فامتنعت عليهم لان الروس أحسنوا الدفاع عنها ، واستولوا على « هوقسيم » وعلى « أوقزاقوف » وجاء قبطان البحر حسن باشا لينقذ « أوقزاقوف » فخسر خمس عشرة سفينة ، وأحد عشر الف مقاتل ، فكانت نتيجة هذه الفادحة أن الروس دخلوا « أوقزاقوف » وذبحوا ٢٥ الف نسمة من أهلها .

وفي أثناء هذه الحرب ظهر رجل فى الأناضول تسمى بالشيخ « أوعلان أولو » وزعم أنه المهدى ، وكاد يثير الأناضول كلها على الدولة . ومن الغريب أن هذا المهدى كان فى الحقيقة رجلا طليانياً اسمه الأصلى « جيوفنى فاتيستابوتى Jiovanni Battista Boatti » ولد فى « بيازانو » من إيطاليا ، ودخل راهباً عند الدومينيكان

فى « راڤين Ravenne » فأرسلوه إلى الموصل ، فاختلف هناك مع المطران وخرج من الدير وأخذ يجوب بلاد الأناضول ، و بلاد إيران ، وانقلب من الرهبانية إلى القيادة العسكرية ، و إلى الدعاية المهدوية ، وأخذ يخطب فى الأمصار فى إعادة الاسلام إلى نقائه الأول كما كان عليه السلف ، فانقاد الناس إلى كلامه وأطاعوه ، وزحف إلى أرضروم واستولى عليها وتلقّب بالمنصور ، وأراد أن يتقدم منها إلى سيواس . فأرسل الباب العالى رسله إلى هذا المهدى يقول له : إنه مادام المهدى المنتظر فليظهر حماسته الدينية فى محاربة الروسيا ؛ فاقتنع المهدى المنصور بهذا الكلام وسار إلى القوقاس يحارب الروس ، وانتصر فى الوقعة الأولى على القائد الروسى « أبركسين » ثم انكسر وما زال يحارب مدة أربع سنوات والحرب بينه و بين الروس سجال ، إلى أن وقع فى أيدى الروس أسيراً فعاملته كاترينة معاملة حسنة ، وأجرت عليه رزقا كافياً وعاش فى دير الأرمن الكاثوليك إلى سنة ١٧٩٨

أما السلطان عبد الحميد الأول فبعد توالى هذه المصائب على المملكة مات غماً وذلك فى ٧ ابريل سنة ١٧٨٧ .

السلطان سليم الثالث

وتولى مكانه ابن أخيه السلطان سليم الثالث ، وكان عبد الحميد بخلاف السلاطين السابقين برًّا بأهله ، فكان يعامل السلطان سليما معاملة الأب لابنه

فجلس السلطان سليم أسوأ ما كانت السلطنة حالا ، وكان سليم مقتنعاً بوجوب إصلاحها والأخذ فى إدارتها بالطرق العلمية الأوربية . وكانت هذه الفكرة قد ملأت دماغه فتجشم مشقة إجرائها ، وأنفذ كثيراً منها . وكان حميد الخصال عاقلا حليما ، فبدأ ملكه بالعفو والمرحمة ، وساعد المديونين بأداء ثلاثين فى المئة إلى دائنيهم من خزانة السلطنة تخفيفاً للازمة الاقتصادية ، ولكن طالع الحرب كان لا يزال مشئوماً . فان قبطان البحر حسن باشا انكسر فى «فورشانى» في ٢١ يوليو سنة ١٧٨٩ و بعد ذلك بشهرين لحقت بالعثمانيين هزيمة أخرى ، وكانت الفلاخ ، ومولداڤيا ، و بلاد السرب

فى أيدى الاعداء ، والروس يحاصرون قلعة اسماعيل التى هى معقل العثمانيين الأعظم على الدانوب ، وكانت الخزانة فارغة ، فكانت من كل جهة علامات الشؤم مُطبقة إلا أن حادثاً جاء فخفّف الازمة وهو موت يوسف الثانى أمبراطور النمسا سنة ١٧٩٠ فان أخاه ليوبولد خالف السياسة التى كان سائرا عليها أخوه فى عداوة تركيا وعقد الصلح مع الباب العالى ، وأعاد اليه جميع البلاد التى كانت النمسا احتلتها من تركيا سوى بعض أماكن على ضفة « نهر الأُنّة » ولكن الروس لبثوا ظافرين ، وفتحوا قلعة اسماعيل عنوة بعد حصار شديد يفوق الوصف ، فذبح الروس جميع المسلمين كباراً وصغاراً ، رجالا ونساء ، واستمرت المذبحة ثلاثة أيام ، ولما وصل الخبر إلى استامبول ثار الشعب وطلبوا الاقتصاص من رجال الدولة ، فقتلوا لهم الوزير حسن باشا الذى كان قبطان البحر برغم ما كان من بسالته وقيامه بواجباته ، وكان السرعسكر يوسف باشا قد انهزم أيضاً فى « مانشين » فتدخلت انكلترة وبروسيا فى الصلح ، وانعقدت معاهدة « ياسى » فى ٩ يناير سنة ١٧٩٢ وبموجبها استولت الروسيا على القريم ، وعلى شبه جزيرة طامان ، وقسم من قوبان ، وقسم من بساراببا ، ومدينة أوقزاقوف وغير ذلك .

ونبغ فى ذلك الوقت « كوتشوك حسين باشا » فتولى نظارة البحرية ، وكان صهراً للسطان ، وكان متحلياً بمزايا نادرة ، ولو لم يمت قبل وقته وذلك سنة ١٨٠٣ لبلغت تركيا بواسطة هذا الوزير الدرجة القصوى من الرقىّ ، فانه بدأ فطهّر البحر من القرصان بعد أن طال عَيْثُهم فيه ، ثم أخذ بترميم القلاع وشحنها بالمقاتلة ، ثم انتدب مهندسين من فرنسا والسويد ، ثم أخذ بانشاء الاساطيل ، وجدّد مدرسة المدفعية ، ومدرسة البحرية اللتين كان أنشأهما البارون الافرنسى دوطوط . وأنشأ خزانة كتب تشتمل على أحسن كتب الفن ، واعتمد فى أكثر اصلاحاته العسكرية على ضباط الفرنسيس وأدخل اصلاحات فى دار السبك فى الطوبخانة ، وكانت الروسيا تنظر إلى هذه النهضة العثمانية بعين الحذر ، وقد تحفّزت للنكث « بمعاهدة ياسى » وثار فى ذلك الوقت باشا

« ودِين » من بلاد البلغار ، فساقت الدولة عسكرا لمحاربته ولـكنها التزمت أخيرا أن ترضيه بترك ودين له مدة حياته .

وكانت هذه الفتن المصطلمة المستمرة فى السلطنة العثمانية فى داخلها ، وهذه الحروب المضطرمة المستمرة عليها من خارجها ؛ قد أطمعت فيها دول أوربا ، وصيرتها تفكر فى دنو أجل هذه السلطنة . وصارت كل دولة تتحفز للاستئثار بشقص من هذه التركة . وقد كان حديث اقتسام أوربا للسلطنة العثمانية قديماً ، وطالما تذاكرت الدول الأوربية جمعاء فى هذا الأمر ، أو تفاوض القسم الأكبر منها فى إتمامه ، وكان يحول دول ذلك الاختلاف فيما بينهن ، مع صعوبة إتمام العمل بنفسه ، لأنه ليس بسهل . وقد لخصنا فى حواشى « حاضر العالم الاسلامى » كتاباً لأحد وزراء رومانيا اسمه « مئة اقتسام لتركيا » يدل بالوثائق على قدم الفكرة الصليبية فى أوربا وعدم انقطاعها ، ومن الغريب أن الاوربيين فكروا فى هذا الأمر أيام كانت تركيا فى عنجهية أمرها ، وكانت جيوشها توغل فى قلب أوربا . فبديهى أنهم ازدادوا تفكيراً به بعد أن ظهرت عليها علامات الانحطاط ، وتوالت فيها الثورات ، وتحفز رعاياها البلقانيون المسيحيون كالصرب ، واليونان ، للانقضاض عليها .

فلما تولى سليم الثالث السلطنة كان الناس فى أوربا يعتقدون أن أجل السلطنة أصبح قريباً جداً ولذلك قررت الحكومة الفرنسوية غزو الديار المصرية ، وحاولت اقناع تركيا بان هذه الغزاة لا تنوى بها فرنسا العداوة لتركيا ، وإنما تريد بها سبيلا الى الهند ، كما أنها ترى حكم المماليك فى مصر شيئاً أشبه بالفوضى فتريد القضاء عليه . وكانت انكلترة فى غيرة شديدة من نفوذ كلمة فرنسا لدى الباب العالى ، فلما غزت فرنسا مصر اهتبلت فى ذلك الفرصة حتى تقربت الى الحكومة العثمانية ، وصارت معها يداً واحدة . فأعلنت الدولة الحرب على فرنسا ، واتحدت معها انكلترة والروسيا وقبضت الدولة على معتمد فرنسا وحبسته فى الأبراج السبعة بالأستانة ، وضبطت أملاك الفرنسيس فى جميع البلاد العثمانية . وكان الفرنسيس قد تغلبوا على المماليك فى واقعتى « الاهرام وامبابة » وسقطت مصر كلها فى أيدي الفرنسيس وجاء جيش

عثماني بقيادة مصطفى باشا عدده ١٨ الفاً فنزل عند أبي قير ، وقبل أن يتحصن فى مراكزه هجم عليه بونابرت ومزّقه شر ممزق ، الاّ أن الأسطول الانكليزى أحرق الأسطول الافرنسى فى مياه أبى قير ، فتعذّر على الفرنسيس إنجاد عسكرهم ، وصار كالمحصور . ومع هذا فقد زحف « بونابرت » الى سورية ، وما زال يتقدم حتى وضع الحصار على « عكة » وكان لو أخذها استولى على سورية ، وربما وصل الى الأستانة . وهذا شيء لا يقدر مؤرخ أن يجزم به ، وإنما يتفق العقلاء على أن فشل بونابرت أمام عكة قضى على آمال فرنسا فى هذه الحملة المصرية . « فاحمد باشا الجزّار البوسنوى » قائد الحامية العثمانية فى عكة « والاميرال سيدنى سمث » قائد الأسطول الانكليزى في بحر عكة ، ردّا بونابرت خائباً . فرجع الى مصر ومنها أبحر الى فرنسا ، وترك قيادة جيشه للجنرال « كليبَر » . فأخذ الانكليز يفاوضون كليبر فى الصلح ، ولكنهم طلبوا منه تسليم جيشه فأبى قبول هذا الشرط المهين ، فجاء واحد اسمه سليمان الحلبي سار من حلب الى مصر بمجرد حميته ، وطعن كليبر بخنجر فقتله ، فأنقذ الاسلام من عدو كبير . فخلفه الجنرال « مَنُو » فانكسر ، وأخيراً تم الاتفاق سنة ١٨٠١ على إخلاء الفرنسيس للديار المصرية .

وكان السلطان راغباً جداً فى عقد الصلح ، وذلك لأن الفتوق كانت متوالية من كل جهة ، فالانكشارية عصوا فى بلغراد واستولوا على القلعة . وكانت عصائب من الأشقياء تعيث فى بلاد البلغار ، ومكدونية . وكان السربيون بقيادة «قره جورج» جد العائلة المالكة اليوم قد رفعوا لواء الثورة . وكان « على باشا تبلنى » المتغلب على يانيا قد أعلن استقلاله عن الدولة ، وكان الوهابيون قد غزوا الحجاز واستولوا على الحرمين الشريفين ، وكانت فى نفس العاصمة ثورة أحدثها الانكشارية بالاتفاق مع العلماء بسبب التشكيلات العسكرية التى قام بها السلطان سليم مقتدياً فيها بالجيوش الأوربية ، وقد أطلق عليها اسم « النظام الجديد » فوقع القتال بين الانكشارية والنظام الجديد ، وانتهى الأمر بغلبة الانكشارية .

وفى ذلك الوقت رجع التقارب بين تركيا وفرنسا ، وأرسل بونابرت الجنرال

« سباستيانى » لأجل حمل الباب العالى على محاربة الروسيا ، وكان الباب العالى عزل أميرى الفلاخ ، ومولداقيا صنيعتى الروسيا ، فأرسل اسكندر الأول قيصر الروسيا عسكراً احتل تينك الامارتين وأعلنت الحرب .

ثم لم تكفِ الثورات الداخلية . والفتن والحرب مع الروسيا ، حتى جاء الانكليز يطلبون من الدولة أن تعقد تحالفا مع الروسيا وانكلترة ، وأن تعلن الحرب على فرنسا ، وتطرد الجنرال سباستيانى الذى أرسله بونابرت إلى الاستانة ، وأن تتخلى عن الفلاخ ومولداقيا للروسيا . وقد طلبوا أن يتسلموا الدردنيل والأسطول العثمانى . فأبى الباب العالى قبول هذه الشروط ، ودخل الأسطول الانكليزى من الدردنيل الذى كانت حصونه ضعيفة جداً بسبب إهمال الاتراك لها . وكان الأسطول العثمانى أمام غاليبولى فأحرقه الانكليز ، ولما وصل الخبر الى الأستانة عوّل رجال الدولة على الاستسلام لارادة الانكليز والروس ، وأشاروا على السلطان سليم بترك كل مقاومة ، إلا أن الانكشارية والأهالى ثاروا عليهم ، وأجبروا السلطان على المقاومة واستفاد من ذلك الجنرال سباستيانى والفرنسيس ، وانضم إليهم سفير أسبانيا ، وحرّضوا الأهالى على القتال ، وابتدأت التحصينات بالعاصمة بينما الأميرال الانكليزى دوكنورت يتفاوض مع رجال الديوان فى شروط الصلح . فما مضت خمسة أيام حتى كانت الحصون قد ترممت وصار فيها تسعمائة مدفع ، وكان ناظر البحرية من حزب المقاومة مخالفا لزملائه ، فجهّز عشر بوارج وأعدها للقتال . فلما رأى الاميرال دوكنورت أنه بهذه الايام الخمسة التى أضاعها فى المفاوضات الصلحية أصبحت الأستانة فى منعة عظيمة ، خاف على أسطوله فأسرع بمفارقة الاستانة ، و بينما هو عابر الدردنيل أطلقت عليه الحصون مدافعها فأغرقت له بارجتين وأهلكت ستمائة بحرى.

فغضب الانكليز وأرادوا الاستيلاء على الديار المصرية ؛ وكانت الدولة قد أرادت التخلّص من المماليك فثاروا عليها وتغلبوا علي خسرو باشا فى دمياط .

محمد على باشا

وكان هناك قائد ألبانى اسمه « محمد على » من ذوى التدبير استفاد من سوء إدارة المماليك ، واستجلب إلى ناحيته عواطف الأهالى ، فصار له حزب عظيم وثاروا على المماليك ، وثاروا أيضا على خسرو باشا الوالى من قبل الدولة وسفّروه إلى الاستانة . فأرسلت الدولة مكانه خورشيد باشا ، فأراد هذا أن يتخلص من محمد على فلم يقدر عليه بسبب انتصار الاهالى له . وألح المصريون على الدولة بتولية محمد على عَلَى مصر ، فرضيت الدولة بذلك تسكينا للفتنة ، وأصدرت الفرمان بولاية محمد على ، على أن يدفع لها خراجاً سنوياً سبعة ملايين فرنك ، وكان ذلك سنة ١٨٠٥ . فاتفق المماليك تحت رئاسة « محمد بك الألفى » مع الانكليز وشرع الفريقان بمحاربة الدولة ، واحتل الجنرال « فريزر » الانكليزى الاسكندرية سنة ١٨٠٧ إلاّ أن محمد على لم يكن على طرز المماليك فى الاهمال ، فتغلب على الانكليز ، واسترجع الاسكندرية ، وأعلنت الدولة الحرب على انكلترة وجرت معركة بحرية هائلة بين الأسطول العثمانى والأسطولين الانكليزى والروسى على باب الدردنيل .

وفى ذلك الوقت عادت الثورة إلى الاستانة ، وكان الصدر الأعظم غائباً مع أعوانه الوزراء فى سد الفتوق البعيدة فتولى الأمر قائمقام الصدارة ، فخان السلطان وأفسد بين الجند ، فهاجموا القصر وطلبوا من السلطان أن يسلمهم سبعة عشر شخصاً من رجاله ليقتلوهم . وكان السلطان توقف عن مقابلة الانكشارية بالعسكر الجديد تحرجاً من سفك الدماء بين عساكره ، ولكنه لم يشأ أن يوافق على تسليم رجاله للقتل ، وفى مقدمتهم « البُستانجى باشى » الذى عند مارأى استفحال الثورة وإحاطة الانكشارية والجيش المسمّى « يَمَك » بالقصر أراد أن يستسلم إليه ليقتلوه ويخلص مولاه السلطان من هذا المأزق وأخذ السيف يعمل فى جميع أنصار الاصلاحات الجديدة ثم ازداد تمرد الجند حتى طلبوا خلع السلطان سليم نفسه ، فاستفتوا شيخ الاسلام قائلين له : إذا كان السلطان مخالفاً لأحكام القرآن فهل يجوز بقاؤه على عرش السلطنة ؟

فأجاب شيخ الاسلام : كلاّ والله أعلم بما يجب . وكان رئيس الثورة رجلا يقال له « قاباقتجى أوغلو » فاستند على هذه الفتوى وخلعوا سليم الثالث

السلطان مصطفى الرابع

و بايعوا مصطفى الرابع بن عبد الحميد الأول ، ودخل شيخ الاسلام فأبلغ السلطان سليم فتوى الخلع و إرادة الشعب . فتلقى السلطان سليم هذا الأمر بالصبر الجميل واعتزل جانباً وأخذ يقضى أوقاته فى تعليم محمود ابن عمه الذى تولى السلطنة فيما بعد باسم محمود الثانى . ولما وصل الخبر إلى الانكشارية على نهرطونة زاطوا فرحاً ، وثاروا على الصدر الأعظم وجعلوا مكانه شلبي مصطفى باشا .

وصار الحكم فى استانبول لشيخ الاسلام ، وقائمقام الصدارة ، ولكن لم يطل الأمر حتى وقع الخلف بينهما واستفاد « قاباقتجى أوغلو » من ذلك فانحاز إلى شيخ الاسلام وأسقطا الصدر الأعظم فقام مقامه طيّار باشا فاختلفا معه أيضاً فأسقطاه فالتجأ إلى مصطفى باشا البيرقدار والى رُسجق . وكان البيرقدار من حزب السلطان سليم ، فقرر أن يزحف إلى الآستانة و يخلصها من هذه الفوضى و يرد سليما إلى السلطنة . فأرسل من قبله سعاة إلى الصدر الأعظم ـ وكان الصدر مصطفى شلبي ـ فأكد له أن كل مراده تخليص الآستانة من شيخ الاسلام وقاباقتجى أوغلى ، فوافق الصدر على ذلك ، ومال أهم السيد على ناظر البحرية ، وزحف البيرقدار بستة عشر ألف عسكرى على الاستانة ، فلما علم السلطان مصطفى الرابع بهذه الحركة صدر أمره بعزل شيخ الاسلام وأعوانه ، وحل نظام عسكر اليَمَك . وكان مصطفى البيرقدار على باب الاستانة ، فأظهر رضاه وظن السلطان مصطفى أن الفتنة قد انقضت ، وذهب إلى كوشك كوك صوتنيز-ه ولكن البيرقدار كان ناوياً أن لا يرجع حتى يرد السلطان سليما إلى السلطنة ، فهاجم القصر واتفق الانكشارية معه ، و بلغ السلطان مصطفى ذلك فرجع إلى القصر ، وأرسل إلى البيرقدار يقول له ليتمهل فانه لا يلبث أن يخرج إليه السلطان سليم . وفى الوقت نفسه أمر مصطفى الرابع جماعة من رجاله بقتل سليم الثالث ، وكان السلطان سليم

قوى البنية موفّق العضلات ، فصرع جملة ممن هاجموه قبل أن سقط قتيلا . ولما قيل للسلطان مصطفى أنه قد قُضى عليه جاء ونظر إليه وقال : قولوا لباشا روسجق ليأخذ الآن السلطان سليم الذى يريده ، وكان البيرقدار ويقال له أيضاً « العلمدار » قد دخل القصر عنوة ، فرأى السلطان سليم مدرجاً بدمائه فصاح وَىْ أفندم . وأخذ يلطم نفسه ويبكى . فقال له سيد على ناظر البحرية : ليس لباشا روسجق مصطفى العلمدار أن يبكى بكاء النساء، فلندع البكاء ولنقتصّ من قتلة السلطان السليم ولنخلص السلطان محمود الذى يجوز أن يقتل أيضاً . فرجع البيرقدار إلى رشده وخلع السلطان مصطفى وحبسه

السلطان محمود الثانى

وبايع أخاه محموداً بالسلطنة وذلك فى ٢٨ يوليو سنة ١٨٠٨ .

وفى سنة ١٩١٧ طفت أنا محرر هـذه السطور مع بعض زملائى نواب الامة العثمانية فى قصر طوب قبو مقر السـلاطين العظام قبل أن صاروا يسكنون فى قصر « طولمه بغجه » وكشك « يلدز » وكان يدلنا على آثاره التاريخية ، وأقسامه الـكثيرة المدهشة ، المؤرخ أحمد رفيق بك . ولما وصلنا إلى الغرفة التى قتل فيها السلطان سليم الثالث رحمه الله دلنا على المـكان الذى سقط فيه صريعاً ، وهو لا يزال معروفاً إلى الآن . وبهذه المناسبة روى لنا حادثة مصطفى العلمدار هذه بتفاصيلها وقال: إن الذين قتلوا السلطان سليما أرادوا قتل السلطان محمود أيضاً بحيث لا يبقى غير السلطان مصطفى فيضطر العلمدار إلى قبول سلطنته ، فانه كان لم يبقَ إلّا سليم ومصطفى ومحمود ، فجماعة مصطفى بعد قتل سليم جاسوا خلال القصر ليجدوا محمود ليقتلوه ، فـكان الجوارى أخذن محمود وخبأنه فى مدخنة لم تخطر على بال القَتَلة ، فبقى مختبئاً فى هذه المدخنة إلى أن قبض مصطفى باشا البيرقدار على السلطان مصطفى، فأخرجوا محموداً من المدخنة وبايعوه سلطاناً . ولو لم يوجد محمود لـكانوا مضطرين أن يبقوا طائعين للسلطان مصطفى . قال لنا رفيق بك ، إنه أدرك جارية عاشت طويلا ، وماتت فى زمان

السلطان عبد المجيد بن السلطان محمود ، وكانت تقص له كيفية قتل السلطان سليم الثالث لأنها شهدت ذلك عياناً .

ولما تولى السلطان محمود الثانى ولّى البيرقدار مقام الصدارة العظمى ، فبدأ هذا بقتل جميع أعوان السلطان مصطفى ، وزعماء عسكر اليَمَك . وانفرد البيرقدار بالأمر والنهى وعقد مجمعاً من جميع الاعيان والوزراء ، وأوضح لهم وجوب إصلاح أوجاق الانكشارية وتأسيس جيش يضارع الجيوش الاوربية فى تعليمه ومعداته . وقال الصدر الأعظم إنه هو من جملة الانكشارية ، وهو يفتخر بكونه من هذا النظام ، ولكنه يرى أن هذا النظام قد فسد ، وأنه كان نظاماً لا يُغلب لو لم ينحرف عن جادة تعاليم الحاج بيكتاش . ولكن هذا الجيش بعد أن كان مدة قرون هو عماد السلطنة ، وكان العالم يرتجف خوفاً منه ، آل من الفساد إلى أن فقد كل مزاياه القديمة ، ونسى جميع القوانين التى كان فرض عليه العمل بها السلطان سليمان القانونى ، وصار الترقى فيه بالرشوة وصارت الرتب تحت المزاد ، وعم الجهل بالفنون العسكرية فانحطت منزلة هذا الجيش انحطاطاً عظيما ، ولذلك فقد أمرنى السلطان بأن استأصل جميع هذه المفاسد من أوجاق الانكشارية ، وأن أجبر جميع الانكشارية غير المزوجين على السكن فى الثكن العسكرية ، وأن لا أدفع رواتب إلاّ للانكشارية المقيمين فى الثكن ، وأن أمنع بيع الجرايات والرواتب ، وأن أوجب على جميع الانكشارية التقيد بتعاليم السلطان سليمان واتباع الطرق العصرية الاوربية التى أفتى العلماء بوجوب اتباعها ، كما أن مولاى السلطان عازم على تأسيس جيش جديد من شبان المسلمين ، ومن أنفس الانكشارية يتلقى الطرق العصرية الأوربية التى يمكنه أن يقاتل بها الكفار بنجاح ، هذا مع المحافظة على نظام الطاعة والاتحاد الذى كان عند الانكشارية القدماء .

فوافق جميع الوزراء وأعيان السلطنة على هذا القرار ، وأفتى شيخ الاسلام بوجوبه وظن الناس أن كل شىء قد انتهى .

إلا أن فوز البيرقدار كان عظيما إلى حد أن غصّ به النظراء ، وصاروا يتربصون به الدوائر . وكان قد أغضب العلماء باحتقاره إياهم ، وبعزمه على التصرف بأوقاف

المساجد ، وارتكب البيرقدار خطيئة تبديد الجيش الذى دخل به الأستانة ؛ فانه كان أرسل منه اثنى عشر الفاً إلى مدينة « فيلبّه » لقتال « مولّا أغا » الثائر بها فلم يبق عنده إلاّ سبعة آلاف لم يكونوا بقوة كافية ليمنعوه من أعدائه ، فزحف الانكشارية إلى القصر لينقذوا السلطان مصطفى الرابع و يردّوه إلى السلطنة، فقابلهم البيرقدار بشرذمة من العسكر الجديد فلم يقدر عليهم لتفوقهم فى العدد ، فقتل السلطان مصطفى ورمى اليهم بجثته فازدادوا حنقاً ، وأحرقوا جانبامن القصر ، ودخلوا وأوشكوا أن يقبضوا عليه وعلى أعوانه ، فلجأ إلى مخزن البارود ووضع فيه النار ، فهلك هو وأعوانه تحت أنقاض مخزن البارود ، ولم يشأ أن يستسلم إلى أعدائه .

وانتصر للعلمدار رامز باشا ناظر البحرية ورمى الانكشارية بالقنابر ، وأسرع قاضى باشا بثلاثة آلاف من الجند للمحافظة على شخص السلطان ، وأخذ الانكشارية يتراجعون ، وأراد رامز باشا أن يعلن العفو إلاّ أن قاضى باشا خالفه فى هذا الأمر وأصرّ على الانتقام . فلما رأى الانكشارية أنهم قد أحيط بهم حلّ بهم اليأس فوضعوا النار بالبلدة وهى كما لا يخفى مبنية بالخشب ، فكادت النار تلتهم جميع الأستانة لتشاغل الناس بالفتنة عن إطفاء الحريق .

ثم إن رامز باشا وقاضى باشا وأعوانهما عند ماعلموا أن البيرقدار قد هلك فى مخزن البارود سُقط فى أيديهم ، وفروا إلى رسجُق وأرادوا هناك المقاومة فلم يتمكنوا فالتجأ رامز باشا إلى بطرسبرج لأن أصله من القريم وفرّ قاضى باشا و بهيج أفندى من أعوانه إلى بلاد القرامان فوقعا فى أيدى أعدائهما وقُتلا. وقد زعزعت هذه الثورة أركان السلطنة ، فاضطرت الدولة إلى عقد الصلح مع الانكليز ، فانعقد فى ٩ يناير سنة ١٨٠٩ أما مع الروسيا فلم يمكن عقد الصلح ، وزحف الروس وأخذوا « برايلا » على الدانوب ، وكسروا العثمانيين أمام « سيليسترية » . ولكن لم يقدروا على القلعة ودارت السنة الثانية والصدر الأعظم معتصم بقلعة « شُمله » لكنه لايقدر أن يحمى البلاد . فاستولى الروس على « سيليسترية » و « رسجُق » و « بيقو بوليس »

و « بزارجق » فجملت الدولة أحمد باشا صدراً أعظم فزحف بستين ألف مقاتل على الروس وأجبرهم على إخلاء رسجق .

وفى ذلك الوقت أعلنت فرنسا الحرب على الروسيا فاضطر قيصر الروسيا إلى طلب الصلح من الباب العالى ، فانعقد الصلح فى ٢٨ مايو سنة ١٨١٢ وصار « نهر البروت » هو الحد الفاصل بين المملكتين ، ولم يبق فى أيدى الروس سوى أفواه الدانوب ، وقسم من بسّارابيه . وندم السلطان على عقد هذه المعاهدة لأن الناس نبّهوه فيما بعد إلى أن الروسيا لم يكن لها مناص من قبول جميع شروطه ، وأن وزراءه أضاعوا الفرصة فمزلهم ، وتسمّى هذه المعاهدة بمعاهدة « بخارست » .

ولما تولى محمود الثانى كانت السلطنة فى الداخل ممزقة تمزيقاً ، فكان آل شعبان أوغلو حاكمين فى شمالى الأناضول ، وكان آل قره عثمان أوغلو متغلبين على البلاد المجاورة لأزمير . وكان فى سَرَس من مقدونية وفى فلبّه من تراقية أمراء أصحاب جيوش وقوة ومنعة لا يخضعون تمام الخضوع للحكومة ، وكانت بلاد العرب فى أيدى الوهابيين وكانت مصر فى يد محمد على ، وكانت بلاد الصرب ثائرة ، وكان على باشا والى يانيا مستأثراً ببلاد تساليا وأبيروس . وكان « مولاً أغا » غالباً على ودين ، فأخذ السلطان محمود يعالج أمراض السلطنة ، فرمى الوهابيين بمحمد على والى مصر ، فساق عليهم جيشاً بقيادة ولده طوسون باشا ، فتغلب الوهابيون على هذا الجيش فى الحجاز ، ولكن توالت النجدات من محمد على فهزم الوهابيين .

ثم صارت الحرب سجالا بين الفريقين ، ثم أرسل محمد على ولده ابراهيم باشا فبعد حروب شديدة حصر الوهابيين فى الدرعية ، واستولى عليها عنوة ، وأخذ الأمير السعودى أسيراً وأرسله الى أبيه ومعه ولده . فمحمد على أرسلهما الى استانبول ، وقال لهما : إنى أوصيت الدولة بكما ليحسنوا معاملتكما . فقال له ابن سعود : يكون ما أراد الله . ولكن لما وصل الأمير وابنه الى الأستانة شنقتهما الدولة . وكان محمد على قد ذبح المماليك واستأصلهم جميعاً فى القطر المصرى ، و بعد أن استراح فكره منهم وجّه همته الى إصلاح مصر ، وقام بأعمال مدهشة بحيث يمكن أن يقال إنه من أعظم

مصلحى الشرق ، بل مصلحى العالم لانه بعث مصر من قبرها ، وأنقذها من عيث المماليك ، وأنشأ لها جيشاً عظيما على طرز الجيوش الأوربية ، واعتمد فى تدريبه على ضباط من الفرنسيس وأنشأ أسطولا عظيما ، ودارصنعة بحرية ، ومعامل للسلاح ، و بنى مدارس ، وأرسل طلبة يحصلون العلم فى أوربا ، واحتفر ترعة بين الاسكندرية والقاهرة وفتح محمد على السودان ، وكان فى الحقيقة ملكا مستقلا لولا الخراج السنوى الذى كان يدفعه للدولة .

وفى ذلك الوقت ثار الصرب على الدولة لسببين ؛ أحدهما نزوعهم الطبيعى إلى استرداد ملكهم ، والثانى سوء الادارة وظلم العمال لهم . فلما انتقضوا أراد الوالى أن يسكّن الأمور باللطف وحسن السياسة فجاء الانكشارية وذبحوا الوالى ، وقتلوا من السربيين عدداً كبيراً . وكان المجر والنمسويون يساعدون السربيين ، وامتاز بين السربيين رجل اسمه « جورج » لقبه الأتراك « بقره جورج » أى الأسود . وكان صارماً جداً ، فاعصوصب حوله جماعة من السربيين وأرادوا عبور نهر « الساف » لينضموا إلى النمساويين ، و يقاتلوا العثمانيين . وكان والد قره جورج غير راغب في الثورة ، فراود ابنه على الرجوع فأبى ، فتنازعا وانتهى الأمر بأن الولد قتل الوالد . وامتدت الثورة واستولى قره جورج على « شاباتس » و « سمندرية » فأرسلت الدولة جيشاً للتنكيل بهم وعزّزته بجيش ثان ، ولكنهم لم يقدروا على قمع الثورة . وكان القائد ابراهيم باشا تراضى مع السربيين على إعطائهم الاستقلال الداخلى تحت سيادة السلطان ، وأن تقيم الحاميات العثمانية فى المدن ، فأبى الباب العالى تصديق هذا الصلح فاستؤنف القتال بشدة وحصر السربيون بلغراد وكان فيها سليمان باشا . فلما أوشك أن يسقط اتفق معهم على الخروج بجيشه وتسليم البلدة ، ولكن لما خرج نكث السربيون بالعهد وقتلوه مع جميع العساكر التى معه . ثم أرسلت الدولة جيوشاً للانتقام من السربيين ، فكانت الحرب سجالا . وازدادت شهرة قره جورج بين السربيين واستبد بالأمور فوقعت المنافسة بينه و بين كثير من أقرانه ، واستفادت الدولة من هذا الخلاف فساقت العساكر واسترجعت بلغراد و بدّدت شمل السربيين .

وفر قره جورج إلى بلاد المجر ، ورجع الحكم إلى الاتراك ، فبدأوا هم والارناؤط بالانتقام من السربيين ، وقتلوا ونهبوا . فعاد السربيون وتألبوا وثاروا ثورة ثانية وتجدد القتال بشدة . وكان « ميلوش أوبرنوفيتج » من زعماء السربيين قد عرض على القواد العثمانيين الصلح على شرط العفو العام ، وتأليف مجلس من ١٢ عضواً ينتخبهم الاهالى ويكون على يدهم توزيع الضرائب ، وتكون بلاد السرب متمتعة باستقلالها المدنى والدينى والقضائى ، ويكون لها أمير ، وأن يبقى فى بلغراد قائد عثمانى ومعه حامية . فانتُخب أوبرنوفيتج أميراً ، وصار بيده الأمر والنهى . ولم يبق فى يد الوالى التركى من الولاية إلا الأسم . وبلغ قره جورج خبر هذا الاتفاق بين الدولة وأوبرنوفيتج فثار به الحسد ، وجاء إلى بلاد السرب أملا باشعال الثورة فوصل إلى سمندرية فلما علم به أوبرنوفيتج أرسل اليه من قتله غيلة ، وبعث برأسه إلى الاستانة . فنصبت الدولة رأسه على حائط القصر وفوقه كتابة « هذا رأس الشقى قره جورج »

هذا ما كان من أمر السرب ؛ فأما على باشا التبكلينى فكان أرناؤطياً وكان أبوه رأس عصابة فورث العيث والفساد فى الأرض عن أبيه . ولكنه كان داهية حكيما وبطلا مغواراً معاً . ولم يكن عنده وجدان يردعه عن شىء . فدخل فى خدمة الدولة وأقنع ولاة الأمور بتوليته « ترحالة » و « تَبالين » أولا ، وسمت نفسه إلى الاستيلاء على يانيا ، فبث فى أطرافها عصائب من قطاع الطريق أقلقوا راحة الأهلين ، وبعث من جهة أخرى إلى الدولة يعرض عليها أن توليه يانيا وأنه يعيد الأمن إلى نصابه فقبلت الدولة اقتراحه وولته يانيا ، وكانت فرنسا استولت على جزيرة كورفو وأخواتها فخدع على باشا ضباط الفرنسيس ونال منهم الاذن بالملاحة فى بحر كورفو . ولما نشبت الحرب بين الدولة وفرنسا زحف على باشا على الفرنسيس واستولى على فونيتزة وبريفيزه . ثم وجّه قوته إلى محو الامارات المسيحية التى بين بلاد اليونان وبلاد الأرناؤوط ولا سيما جمهورية «شولى» فقهرهم بعد أن أعمل الحيل والمال والسيف لذلك وبعد هذا حاز على باشا والى يانيا شهرة عظيمة ، ولقبته الدولة بوالى الروملّى . ثم أعطت ولديه « ولى » و « مختار » باشويتى الموره ، وضمّت إليه بشوية برَاة . ثم إنه

كان فى أبيروس بلدتان لاتزالان مستقلتين ، وهما « أرجيروكاسترو » و« كارديكى » فشنّ عليهما الغارة واستأصل أهاليهما ، ولا سيما أهالى كارديكى

وكان له فى ذلك ثأر قديم غريب الشكل . وذلك أن أمه « خاميكو » بعد وفاة أبيه تولّت قيادة العصابة محل زوجها ، فوقعت فى إحدى المرات في أيدى أهل كارديكى هى وابنتها « شامينزه » فارتكبوا فيهما الفاحشة ، فاستحلفت ولدها علياً الذى كان قاصراً أنه متى بلغ رشده يأخذ بثأر أمهِ وأختهِ من أهل كارديكى . فلم ينسَ على هذا الثأر ، ولما وقع أهل كارديكى فى يده بحث عن الذين اعتدوا على عرض أمه وأخته فنظمهم بالسفافيد وشواهم على النار كما يُشوى لحم الغنم ولكن المذابح التى أجراها علىّ أثارت عليه السخط العام ، و بدأت الدولة تخشى غائلته فأرسلوا اليه من استانبول من يقتله فكان بحزمه ويقظته يطلع على ذلك ، فلم يصل أحد من المرسلين لقتله إلى يانيا ، بل كان يأخذهم السيف فى الطريق قبل وصولهم ، وكان جمع أموالا عظيمة لأن البلاد التى تولاها كانت مملكة فيها عدة ملايين ، و بقى والياً عليها نحواً من ستين سنة ، فتمكنت قدمه الى حد أنه أصبح لايعبأ بطاعة السلطان .

وكان أحد المقربين إلى على باشا واسمه اسماعيل باشو قد اختلف معه ؛ وجاء فعرض للسلطان جميع ما يعلمه من مظالم على وأقنع السلطان بعزل ابن على باشا عن ولاية المورة ، فلما علم على باشا بالخبر أرسل اليه من يقتله ، فهجم الجناة على اسماعيل باشو على باب جامع أيا صوفيا ولكنهم لم يوفقوا لقتلهِ ، فقبضوا عليهم واستنطقوهم فأقروا بأنهم مرسلون من قبل على باشا . فغضب السلطان غضباً عظيما وولّى إسماعيل باشو على يانيا ، ودلفينو ، وسرّح معه جيشاً عظيما لقتال على باشا ، فلما علم على باشا بأنه لم يبقَ له أمل فى عفو السلطان أجمع المقاومة ، وحاول أن يستجلب المسيحين الذين فى بلاد اليونان ، والارناؤط إلى صفه واعداً إياهم بالتحرر من حكم الاتراك .

فأجاب بعضهم نداءه وامتنع البعض الآخر . فأما الذين التفوا حوله فسكان الجبال من اليونان الغربية ومن تسّاليا ، وكان فى مقدمتهم أساقفتهم . وأما الذين رفضوا الانضمام إليه فالكاثوليك من الأرناؤوط ، لأنه لم يكن لهم ثقة به غير أنه بسبب سوء

إدارة اسماعيل باشو انضم أكثر المسيحيين إلى على باشا . و بدأت الحرب فانكسر على باشا في البداية وذلك في تساليا وانحاز اثنان من قواده عمر فريون وطاهر عباس في خمسة عشر ألفاً من الجنود إلى العسكر السلطاني . وخان علياً أولاده الثلاثة وسلموا القلاع التي في أيديهم إلى الدولة ، ولما بلغه خيانة أولاده له نادى أنهم ليس لهم حق أن يرثوه ، وقال إنه لا يعرف له أولاداً غير الذين هم أنصاره، ولم يبق مع على باشا سوى ثمانية آلاف مقاتل كانوا من نخبة جنوده و بينهم رجال مدفعية ماهرون ، فوقف بهذه القوة أمام عشرين ألف مقاتل من عسكر الدولة كانوا أحاطوا بمدينة يانيا ، وشرع على باشا يراسل المسيحيين الذين مع جيش الدولة ، وفتح خزائنه لهم ، وبث الدعاة إلى الثورة في جميع بلاد اليونان ، وكذلك في بلاد رومانيا . ثم لجأ إلى حيلة أخرى لأجل استجلاب النصارى إلى صفه وهو أنه زوّر كتاباً زعم أنه ورد إليه من خالد افندى أحد مقربي السلطان يقول له فيه : إنه في الربيع القادم يجب القيام بقتل عام يستأصل فيه جميع المسيحيين القادرين على حمل السلاح وتسبي نساؤهم ، و يؤخذ أولادهم المراهقون لينشأوا في الديانة الاسلامية . فصدّق النصارى هذا المكتوب المزور ، وثاروا بأجمعهم وفي مقدمتهم أهالي « جمهورية شولى » وانحازوا إلى على باشا ومعهم كثير من الارناؤوط المسلمين ، فتزعزعت مراكز الأتراك ونسبت الدولة عدم النجاح إلى سوء تدبير اسماعيل باشو فعزلته وعهدت بالقيادة إلى خورشيد باشا وذلك سنة ١٨٢١ فسار خورشيد باشا بعشرة آلاف من بلاد اليونان قاصداً يانيا . فلما وصل إلى « لاريسّا » بلغه أن أهالي مدينة « باتراس » رفعوا لواء العصيان ، فأمر بنزع السلاح من أيديهم وتغريم المسيحيين جميعاً ، فبدأت من ذلك الوقت ثورة اليونان . وكان أهالي الجزر اليونانية لم يفقدوا قوة المقاومة في وجه الأتراك ، وكذلك أهالي الجبال الغربية من بلاد اليونان فانهم كانوا حفظوا نوعاً من الاستقلال الداخلي . وكان لهم جند وطني يقال له « الارماتوليس » ـ ومعنى هذه اللفظة الرجل الشاكي السلاح ـ وكان الارماتوليس الذين في الجبال لا يخضعون للدولة إلا قليلا ، فأرادت الدولة أن تخضد شوكتهم ،

وشكّلت بأزائهم قوة مسلحة من الأرناؤوط المسلمين بقيادة الأتراك يقال لها « درفتد باشا » فتنبّه الأروام إلى أن مراد الدولة هو استئصال قوتهم والقضاء على الارماتوليس فلما عصى على باشا وساقت الدولة عليه الجيش حاول على باشا أن يستجلب إلى ناحيته هؤلاء الارماتوليس الذين كان هو من قبل آفة عليهم .

وكانت بلاد اليونان قد استعدت للثورة ، وذلك لأن الأروام أهل حركة ونشاط وهم أقوم على التجارة والملاحة من كل قوم ، وكانت ثروتهم قد ازدادت كثيراً عن ذى قبل بانصرافهم إلى التجارة ، وكانوا يجوبون البحار كلها ، وفى كل مكان من أوربا تجار من الأروام ، فلا يكاد يخلو منهم مكان . وكانوا هم الواسطة بين الشرق والغرب ، وكانت الدولة العثمانية نفسها تحتاج إليهم وتستخدم منهم فى سفنها وباحتكاك الأروام الدائم مع الأوربيين وحروب الأوربيين مع الدولة العثمانية ازداد نزوع الأروام إلى الاستقلال ، وانقسموا إلى قسمين : منهم من يريد الاستقلال العاجل بقوة السلاح ، وآخرون يرون المصلحة فى عدم مقاومة الدولة العثمانية بالسيف بل بتهذيب الأمة اليونانية وترقيتها حتى تنال تدريجاً حقوقها ، ويأتى وقت تتحرر من حكم الترك تماماً .

وفى سنة ١٨١٣ عند ما تألّبت جميع دول أوربا على نابوليون ظن الأروام أن دول الاتحاد المقدس ستمد إليهم يد المساعدة ؛ ولكن دول الاتحاد المقدس كانت تكره تحرير الشعوب لمخالفته لمباديها ، فخاب أمل اليونان فيها . ثم إن على باشا التبَلَينى كان قد ضرب التجارة اليونانية ضربة شديدة باستيلائه على مرافىء أبيروس وألبانيا ، فعند ذلك اتحد اليونان من تجار رأوا كساد تجارتهم ، وضباط تدربوا فى الجيوش الأوربية ، وناشئة تعلموا فى مدارس أوربا ؛ أنه لا خلاص لبلاد اليونان إلا بالثورة العامة . وكما يحصل فى جميع الأمم المقهورة تألفت الجمعيات السرّيّة ودخل فيها ألوف من الأروام ، وتألفت شُعَب لهذه الجمعيات السرية فى أوربا وفى نفس القسطنطينية ، ويقال إنه كان فى القسطنطينية عاصمة تركيا ١٧ ألف شخص تابعون للجمعية المركزية ، وكانوا مطلعين على كل شىء . وكانت لهم فى بلاد رومانيا وبسّارابيا

جمعيات تعمل بالاتحاد مع الأروام ، فتنبهت تركيا لهم و بطشت بكثير منهم . وكان أهالى باتراس فى بلاد اليونان قد ثاروا بالسلاح على الحامية التركية ، وانتظروا أن تأتيهم نجدة من الروس . وكان الثوار نحواً من عشرة آلاف ، فساقت الدولة جيشاً مزّق شملهم فاعتصموا بالجبال ، وامتدت حركة العصيان فى الجزر اليونانية ، و بلغت الحماسة من الأروام أن امرأة اسمها بُوبُولينه جهّزت بمالها ثلاث بوارج حربية وتولت قيادتها ، ووجد من أغنياء اليونان عدد كبير نزلوا عن كل ثروتهم لأجل ثورتهم . وكان أحد القضاة من الأتراك آتياً مع حرمه فى سفينة من مصر إلى الاستانة فظفر اليونان بالسفينة وأهانوا القاضى وضربوه ، ويقال إنهم اعتدوا على عفة زوجته ، ثم تركوا السفينة تمضى إلى الاستانة . فلما وصلت شاع خبر هذا الاعتداء فى العاصمة وكانت صدور الأتراك قد امتلأت وغراً من أخبار الثورة اليونانية ، فهاج الشعب التركى وهجموا على دار البطريركية وذبحوا البطريرك غريغوريوس مع ثلاثة من الأساقفة وقتلوا ألوفاً من الأروام . واحتج سفراء الدول الأوربية على هذه المجزرة ، فأجابتهم الدولة بأن دول أوربا كلها تقتص من جميع الذين يكيدون عليها بلا استثناء ، فأى حق لها فى الاعتراض على الذين يأتمرون بسلامة الدولة العثمانية ؟ وفتك الأتراك بالأروام فى مقدونيا وتراقيا والأناضول . وقيل إنه هلك ثلاثون ألف رومى منهم ثمانون أسقفاً .

ولما وصلت أخبار هذا الانتقام إلى بلاد اليونان ؛ اشتدت الثورة وانتخب « ديمتريوس إبسيلنتى » فى مدينة « هيدرة » قائداً عاما للثورة . ولكن الجيوش العثمانية كانت دوّخت « مون بازى » و« نافارين » وحصرت « باتراس » و « نابولى » و « تريبوليتزة » وغيرها ، وأرسل خورشيد باشا وهو يحاصر يانيا عساكر طهرت كثيراً من البلاد اليونانية من الثوار ، ولا سيما فى « آرتَة » إلاّ أن اليونان ذبحوا من الأتراك فى تريبوليتزة ١٢ ألف نسمة ، ثم وقع الخلف بين الأروام أنفسهم فكانوا ثلاثة أحزاب كل منها يخالف الآخر فى آرائه ، وكان على باشا لا يزال يدافع عن يانيا وخورشيد باشا يحاصره إلى أن تمكن خورشيد من الاستيلاء على قلعة يانيا ، ففر على باشا إلى بحيرة يانيا واعتصم بجزيرة فى وسط البحيرة حيث يوجد برج فيه مخزن بارود

جلس فيه ناوياً إذا وصل اليه العدو أن يضع النار فى البارود فيطير هو والعدو معاً ولكن بقية عساكره لم يطيعوه فاضطر إلى قبول شروط الصلح التى عرضها خورشيد باشا ، وأقسم له هذا على المصحف الشريف بأنه إذا استسلم يسلم ، فلما استسلم أمر خورشيد باشا الجند بقتله ، وكان ذلك الشيخ لم يفقد شيئاً من بأسه ، فلما هجموا عليه أعمل فيهم النار ثم هجم بيطقانة ، وما زال يصارعهم حتى وقع قتيلا ، وكان ذلك فى ٥ فبراير سنة ١٨٢٢ .

أما الأروام فضجروا من الشقاق ، وعقدوا مؤتمراً فى «أپيدور» وأعلنوا استقلال اليونان ، وذلك فى أول يناير سنة ١٨٢٢ وأعلنوا الحرية الدينية ، واحترام الملك الشخصى ، والمساواة التامة أمام القانون ، وانتخبوا مجلساً يقال له مجلس الشيوخ مؤلفا من واحد وخمسين عضواً ينوب كل واحد منهم عن مقاطعة ، ولهذا المجلس لجنة إجرائية مركبة من خمسة أعضاء ، وانتُخب « ديمتريوس إبسيلَنتى » رئيسا لمجلس الشيوخ ، وانتخب «ماڤروكورداتو» رئيسا للّجنة الاجرائية . ولكن إبسيلَنتى استقال من رئاسة الشيوخ ، وأبى كثير من رؤساء العصابات أن يعترفوا بهذا المجلس ، ومضوا فى أعمالهم ، كأنهم غير مرؤوسين .

وكان من أشهر هؤلاء قائد عصابة إسمه « أندروزوز » لم يكن أهالى تيسالية وليڤادية يخضعون لغيره ، فهذا الرجل عصى أوامر المجلس فأمر ماڤروكورداتو بعزله عن القيادة وأعلن خيانته . ولما سقط على باشا والى يانيا ساق خورشيد باشا عساكره إلى بلاد اليونان ليقضى على الثورة منتهزاً فرصة الخلاف الذى وقع بين زعمائها ، ولكن خورشيد أخطأ فى كونه أعلن على الأروام بياناً مهيناً لهم ، وفى أثناء ذلك جاء زعيم أرناؤوطى مسيحى إسمه « بوتزاريس » مشهور بالبسالة ومعه عصابة من نخبة رجاله فانضم إلى الأروام واشتدوا به ، وكان هذا الرجل أبىّ النفس شريف المبدأ ، فوبخهم على قتلهم نساء الأتراك وأطفالهم قائلاً لهم : إنكم بهذه الاعمال لوثتم القضية الوطنية بالعار ، وزحف ماڤروكورداتو لقتال خورشيد باشا فانكسر ، وانكسر أيضاً زعماء عصائب أخرى ، وسقط فى أيدى الاروام . ولم تعد اليهم حماستهم إلا بعد وصول

المتطوعين الاور بيين وكان خورشيد باشا استولى على «قورنتية» وفرّ رجال الحكومة الوطنية التى تألفت هناك واستولى اليأس على الاروام ما عدا الزعيم ابسيلَنتى ، وزعيما آخر اسمه « كولوكوترونى » فهذان بقيا يقاتلان واجتمع اليهما بقايا السيف ، وأخيراً هزما الاتراك فى «ستفانى» « وبارباتى » ومات بعد ذلك خورشيد باشا ، قيل إنه سم نفسه من شدة اليأس ، غير أن عمر غريّون استولى على جمهورية شولى ، وأجلى أهلها من هناك إلى جزيرة كورفو والجزر التى حولها .

وظهر أن الاروام لا يقدرون أن يقاوموا الدولة العثمانية فى البر ، لكنهم كانوا على جانب عظيم من القوة في البحر ، لأن مراكب القرصان كانت تملأ بحر اليونان وكانت تعتدى على الجميع . وكان عدد القرصان الاروام وافراً جداً ، وكانت الدول الأوربية تضطر أحياناً إلى تأديبهم ، فلما حصلت حرب الاستقلال الرومى اجتمع هؤلاء القرصان كلهم ونصروا القضية الوطنية ، وصار أكبرهم المسمّى « طومبازيس » ومعه مئة سفينة ، وأجبر الأسطول العثمانى على عبور الدردنيل راجعاً ، و بقى يجول فى الارخبيل الرومى ، ويجاذب الاسطول العثمانى الحبل . فاستنجدت الدولة الاسطول المصرى وأرسلت قوة بحرية عظيمة فتمكّن قرصان الاروام من أن يدهموها على غرة فى عيد رمضان ، وأن يحرقوا بارجة قائد الاسطول بدون أن يشعر أحد . فوقع الرعب فى سائر الاسطول ، ودارت الدائرة عليه . فأرسلت الدولة أسطولا ثانياً فلم يقدر على قرصان اليونان ، ودخلت سنة ١٨٢٣ والوقائع مستمرة ، والحرب سجال بين الفريقين إلا أنه فى هذه السنة قُتِل « بوتزاريس » المسيحى الذي يُعد هو « و إبسيلنتى » و « كناريس » أعظم رجال الثورة اليونانية .

ولما طالت هذه الثورة ثارت الحمية فى جميع بلاد أوربا لنصرة اليونان ، الذين يقاتلون لاجل استقلالهم . وهبّ الشبان فى فرنسا وانكلترة والمانيا يريدون التطوع فى هذه الحرب ، وتألفت الجمعيات لجمع الأموال ، واكتتب الناس فيها من كل فج وأقبل كثيرون من القواد والضباط يركبون البحر إلى بلاد اليونان وانضموا إلى الثوار

وقُتل كثير من هؤلاء المتطوعين ، وكان منهم أفراد من أشرف العائلات النبيلة وقواد من المشهورين بالبسالة .

وفى سنة ١٨٢٤ استولى الأسطول المصرى على جزيرة « كازوس » وقطع المصريون خمسمائة رقبة من الأهالى ، وأرسلوا ألوفا من الآذان المصلومة إلى الأستانة واستولى الأسطول التركى على « بسارة » ولكن لم يطل فرح الأتراك بهذا فان السفن اليونانية تغلّبت على الأسطول العثمانى وفرّ أمير البحر تاركا الجنود التى أنزلها فى « بسارَة » فهجم عليهم الأروام وذبحوهم ، فأرسلت الدولة أسطولا اجتمع مع الأسطول المصرى فى جزيرة « ساقس » إلاّ أن « ميوليس » اليونانى من أكبر زعماء الثورة تغلب على الأسطولين ، وفقد عدداً من جنودهما . فأرسل السلطان محمود إلى محمد على والى مصر يوليه بلاد « المورة » وجزيرة « كريت » ويعهد اليه بقمع الثورة ، فأرسل محمد على ولده ابراهيم باشا فأنزل عساكره فى المورة سنة ١٨٢٥ واستولى على « ناڤارين » و « كالاماته » وجميع السواحل ماعدا « نابولى » وهزم « كولوكوترونى » فى مدينة « تريكورفة » وهزم أبسيلنتى فى مدينتى « ريزس » و « إردوفه » برغم مساعدات المتطوعين الأوربيين الذين كانوا فى صفوف اليونان ، وكاد ابراهيم يسحق الثوار بأسرهم فصاروا يفرّون إلى الجبال ولم يبق ثائراً إلا زعيم اسمه « بابا فليشاس » فإن هذا الرجل لم يقدر على ابراهيم ولكنه ألحق بعسكره خسائر غير قليلة ، ولم يبقَ بلدة غير طائعة فى بلاد اليونان غير « أثينا » و « ميسولونكي » التى جاء القائد التركى رشيد باشا يحاصرها فدافعت هذه البلدة دفاعاً شديداً ، وكان فيها أربعة آلاف من نصارى الأرناؤوط ، وأقبلت عليها النجدات من كل فج بحيث لم يقدر رشيد باشا على فتح البلدة ، فاستنجد ابراهيم باشا فجاء وضيق الحصار على « ميسولونكي » فاشتدت المجاعة بالمحصورين حتى أكلوا الخيل والكلاب ، وأخيراً أجمعوا من يأسهم على الخروج وكانوا ثلاثة آلاف مقاتل ومعهم النساء والأولاد ، فقاتلوا قتالا شديداً ولكنهم لم يقدروا على النجاة ، فسحقتهم عساكر ابراهيم باشا ورشيد باشا واستولى المسلمون على « ميسولونكى » ومن بعد ذلك ذهب رشيد باشا يحاصر أثينا ، حيث اجتمع

ألوف من الثوار ومعهم قواد أور بيون فانتصر الأتراك عليهم . ثم أخذت البلاد اليونانية تقدم الطاعة لابراهيم باشا وكاد ينقطع كل أمل من استقلال اليونان الذين أخذ الزعماء منهم يقاتل بعضهم بعضاً ، وصارت الحالة عندهم أشبه بالفوضى ، فعند ذلك تدخلت الدول الثلاث فرنسا وانكلترا والروسيا وطلبت من الدولة ومن الثوار الأروام توقيف الحرب . فالأروام أسرعوا إلى القبول بطبيعة الحال . وأما الدولة فقد رفضت هذه المداخلة فى مملكتها ، واستمرت على القتال ، فاقترحت الروسيا تقسيم بلاد اليونان إلى ثلاث إمارات تحت حماية أوربا ، فرفضت ذلك الدولة واليونان معاً فالدولة رأت فى هذا التدبير خروجاً لبلاد اليونان من السلطنة العثمانية ، واليونان رأوه تدبيراً يخالف مبدأ استقلالهم ووحدتهم . وفى ذلك الوقت أى سنة ١٨٢٥ فى شهر ديسمبر توفى القيصر اسكندر وخلفه ابنه نقولا الأول الذى أجبر تركيا على عقد معاهدة تخول للروسيا حق الملاحة فى البحر الأسود ، وتجعل للفلاخ ومولداڤيا إمارتين ينتخب الأهالى أميريهما إلى مدة سبع سنوات ، وتجعل سربيا إمارة مستقلة استقلالا داخلياً تحت سيادة السلطان ، وإنما تبقى حاميات عثمانية فى بلغراد ، وثلاث قلاع أخرى ، وتدفع للدولة جزية سنوية . ثم قررت الدول توكيل انكلترا والروسيا بإيجاد طريقة حل للمشكلة اليونانية ، ووافقت النمسا ، وبروسيا ، وفرنسا على ذلك . فلما خاطبت انكلترا والروسيا الباب العالى بشأن حرب اليونان أجاب بأن السلطان لن يقبل تدخل الأجانب بينه وبين رعيته ، ولن يجاوب على اقتراحات كهذه .

فعند ذلك اتفقت الدول الثلاث فى ٦ يوليو سنة ١٨٢٧ على أن تفصل بلاد اليونان عن تركيا فصلا إدارياً وتجعلها إمارة مستقلة داخلياً ، وعليها أن تؤدى جزية للدولة العثمانية . فأجاب الباب العالى كالأول بالرفض البات ، فأمرت الدول الثلاث أساطيلها بمنع الجيوش العثمانية من الحركات العسكرية . فأبلغ أمراء البحر الانذار اللازم إلى ابراهيم ، وهو تعهد لهم بأن يتوقف عن كل حركة إلى مابعد ورود الجواب من السلطان ومن محمد على . فأما اليونان فلم يتقيدوا بانذار الدول الذى كان موجهاً إليهم أيضاً ، وهاجموا بقوتهم البحرية أسطولا صغيراً كان فى ميسولونكي فأحرقوه .

فثار غضب إبراهيم باشا وأرسل إلى أمراء البحر بأنه لا يمكنه أن يبقى مكتوف اليد بازاء اعتداء الثوار ، وكان ابراهيم قد جاءه الأمر من الأستانة بعدم توقيف القتال فكرر قواد الأساطيل الثلاثة إنذار ابراهيم بارجاع الأسطول العثمانى الى الدردنيل والأسطول المصرى إلى الاسكندرية ، وباخلاء بلاد المورة . وكان ابراهيم باشا غائباً فأجيبوا بأن هذا البلاغ سيرسل إليه ، فاجتمعت الأساطيل الثلاثة فى مياه ناڤارين وكان الأسطول العثمانى ثمانين قطعة مصطفا صفين على شكل هلال ؛ ولم يكن عند الفريقين نية القتال ، ولكن بطريق القضاء والقدر انطلقت رصاصة من جهة الاسطول العثمانى فأصابت رجلا انكليزيا من نواب المجلس البريطاني ، فقابل ذلك ربّان السفينة الانكليزية التى وقع فيها هذا الحادث باطلاق الرصاص المتوالى . ثم إن الانكليز أرسلوا إلى محرّم بك قائد الأسطول المصرى يقولون له إنهم حاضرون لتجنب الحرب إذا توقف العثمانيون عن إطلاق النار ، ولكن فى ذلك الوقت أصابت رصاصة أخرى جندياً انكليزياً فقتلته ، ويقول الافرنج إن هذه الرصاصة جاءت من بارجة الأميرال التركى . فنشبت الحرب واستمرت المعركة خمس ساعات إلى المساء فلم يبقَ من الاسطول العثمانى سوى خمس عشرة سفينة . ولما بلغ الخبر إبراهيم باشا تلقاه بسكون جأش وأعلن أنه يقتل كل من أراد الاعتداء على مسيحى . ووصل الخبر إلى الاستانة فأبلغ الصدر الاعظم سفراء الدول الثلاث الاقتراحات الآتية : الاول عدم التدخل فى قضية اليونان ، والثانى دفع غرامة عن السفن الحربية العثمانية التى احترقت فى ميناء ناڤارين ، هذا مع اعتذار الدول للدولة . فأجاب سفراء الدول الثلاث بأن دولهم قطعت علاقاتها مع تركيا ، وبرحوا الأستانة .

فأعلن السلطان محمود الجهاد باسم الدين الاسلامى ، وحرّض المؤمنين على القتال فأعلنت الروسيا الحرب على الدولة على حين أن الدولة كانت محقت أوجاق الانكشارية فبقيت بدون جيش تقريبا . ولما حصلت معركة ناڤارين تجددت آمال اليونان ، وزحفوا للقتال من كل صوب إلا أن الاتراك حفظوا مراكزهم فى ناڤارين ومودون ، وباتراس وكورون . وأما ابراهيم باشا فسحب أسطوله وعاد إلى الاسكندرية بموجب عقد هدنة

ولم يترك سوى اثني عشر ألف جندى فى بعض القلاع . وفى ١٦ نوفمبر سنة ١٨٢٨ انعقد فى لوندرة مؤتمر دولى لأجل تحديد المملكة اليونانية التى قررت الدولة تأسيسها واتفقوا على أن يجعلوا لها ملكا مسيحيا تحت حماية الدول الثلاث ، وجعلوا للدولة على هذه الامارة اليونانية جزية سنوية نصف مليون قرش . وكذلك قرروا التعويض على المسلمين الذين أجلاهم الاروام عن بلادهم ، و بعثت الدول إلى السلطان ليفيب عنه مندوباً فى المؤتمر فرفض السلطان هذا الطلب ، واستؤنفت الحرب فى بلاد اليونان ولكن الروسيا أغارت على بلاد الدولة وعبرت جيوشها نهر البرُوت واحتلت الفلاخ ومولداقيا ثم حاصر الروس قلعة سيلسترية ، وأحاطوا ببرايلة على نهر الطونة وكان السر عسكر حسين باشا فى قلعة « شُملة » وكان يوسف باشا فى « ڤارنة » فالروس الذين أمام سيلسترية انهزموا عنها ، ولكن برايلة سقطت فى أيديهم . وجاء القيصر نقولا الأول بنفسه إلى ساحة الحرب ، وضيّق الروس الحصار على سيلسترية وڤارنة وهاجموا شُملة واسكى استانبول ، ولكنهم فشلوا ، و بينما العثمانيون يدافعون الروس أحسن دفاع إذ باع يوسف باشا قائد موقع ڤارنة قلعة هذه المدينة من الروس وقبض على ذلك مبلغاً من المال وفرّ به إلى الروسيا يتنعّم بثمن خيانته ؛ فلما دخل الروس إلى ڤارنة امتنع ثلاثمائة من الاتراك بالقلعة وأبو تسليمها برغم الامر الصادر من يوسف باشا ، و بعد أخذ ورد ارتضى القيصر بأن يخرجوا بأسلحتهم و يلتحقوا بالعساكر العثمانية .

وأما فى آسيا فقد ظهر الروس على العثمانيين وأخذوا قارص وأردهَان وغيرهما وتولّى الصدارة فى استانبول رشيد باشا فاتح ميسولونكى وأثينا ، فزحف إلى البلقان وناجز الحرب الجنرال «رُوت» فخف الكونت ديابتش القائد الكبير للجيش الروسى لمعاونة الجنرال روت وهزموا الصدر الأعظم فى ١١ يونيو سنة ١٨٢٩ ثم استولى الروس على سيلسترية . فاعتصم الصدر الأعظم بقلعة « شُملة » فانتهز الروس هذه الفرصة وعبروا الطونة من وراء الصدر الأعظم ، ولبثوا يزحفون إلى أدرنة ، فاستسلمت البلدة لهم بدون قتال ، واحتل الروس « قرق كليسة » و « ديموطِقَة » وغيرهما .

وأما من جهة أسيا فاستولى الروس على أرضروم ، وكانوا سائرين إلى الأمام

وأما فى بلاد اليونان فاشتدت عزائم الأروام واسترجعوا كل المواقع التى خلت منهم

والخلاصة أن السلطان محمود شاهد فى هذه الحرب هزائم لم تحل بالدولة من قبل فطلب الصلح بواسطة بروسيا ، وانعقدت معاهدة أدرنة التى بموجبها استولى الروس على مصابّ الطونة ، وصار لهم الحق فى حرية الملاحة فى البحر الأسود والخروج منه إلى البحر الابيض . وأخذوا « پوتى » فى آسيا ، وفصلوا بين تركيا و بلاد القوقاس . فخسرت تركيا علاقتها بتلك الامم القوقاسية التى كانت من أشد أنصارها ! فسهل على الروسيا إدخالهم فى الطاعة تدريجا ، وتعهدت الدولة بأن لا تعزل أمراء الفلاخ ومولداقيا وأما سربيا فبقيت على حالها ، وتعهد الباب العالي بدفع غرامة حربية ١٢٥ مليون قرش يؤديها تقسيطا على عشر سنوات على شرط أن الروس لا يخلون بلاد الفلاخ ومولداقيا قبل دفع الأقساط كلها . وفى سنة ١٨٣٠ اعترفت الدولة باستقلال اليونان و بالحدود التى وضعتها الدول بينها و بين تركيا .

وكان السلطان محمود معتقداً أنه لا بد من الاصلاح فى داخل السلطنة والسير بتركيا على الطرق العصرية الأوربية ؛ ولما توالت الهزائم على الجيوش العثمانية فى زمان سليم الثالث ومحمود الثانى تحققت الناس أن السبب في هذه الهزائم انما كان قصور الانكشارية فى التعليم العسكرى عن الجيوش الاوربيـة ، وأنه لا بد للدولة من جيش مرتب على نسق الجيوش الاوربية حتى يمكنه أن يقاتلها بنجاح أو ثبات ، ولم يكن فى الامكان تنظيم هـذا الجيش الجديد مع وجود الانكشارية الذين كانوا يعارضون فى هذا الامر معارضة من يقاتل عن حياته . وكانت الدولة تعانى من ثورات الانكشارية ما لا يوصف ، وكم من مرة كانت ثوراتهم سبباً في الانهزام أمام الاعداء وكم استبدوا بالاهالى وعاثوا في البلاد حتى عاف الناس مجرد سماع ذكرهم ؛ فكانت الصدور ملأى من أعمالهم ، وكانت الامة ترجو الخلاص منهم . فلما أمر السلطان محمود بتنظيم الجيش الجديد كانت جميع الامة مؤيدة لفكرته هذه ، و بدأ السلطان بتنظيم هـذا الجيش ، وأخذت ضباط الانكشارية تتعلم الحركات العسكرية فى « آت ميدان » . و إذا بالانكشارية تآمروا وثاروا على السلطان بغتة، وزحفوا إلى

السراى يهددون السلطان و يطلبون منه رؤوس الذين وافقوا على النظام الجديد ، ولم يكن السلطان محمود خوّار العزيمة ولا ممن يهاب الاخطار ، فامتنع من إجابة طلبهم ونادى بالامة ، وأخرج السنجق النبوى ، فاجتمعت الامة تحته والعلماء فى مقدمتهم وصمدوا إلى الانكشارية ورموهم بالنيران ، وأطلقوا المدافع عليهم فكسروهم ، وبعد أن انهزموا أعملت الأمة السيوف فى رقابهم فقتلوا منهم عشرة آلاف رجل ، وقيل عشرين ألفاً ، وتخلصت الأمة من معرّتهم ، و بعد ذلك نشر السلطان خطاً شريفاً يقول فيه : إنه من المعلوم بين المسلمين أن السلطنة العثمانية إنما رقت ونمت واستولت على الشرق والغرب بقوة الدين الاسلامى ، وأن نظام الانكشارية كان فى أول الأمر يوم كانت الطاعة شعاره حصناً حصينا للدولة ، وطالما كان النصر معقوداً برايات هذا النظام ، ولكن فى العصر الأخير فشا فى الانكشارية روح التمرد وصاروا بلاء على الدولة ، وصاروا لا يلقون الأعداء إلا انهزموا ، فأجمعت الأمة على إيجاب التخلص من هذا النظام البالى ، وعلى تنظيم جيش جديد يمكننا أن نصادم به أعداء الدين الخ. وما اكتفى السلطان باستئصال الانكشارية ، بل أراد استئصال جميع جراثيم الفساد التى كانت آفة على المملكة ، فألغى الطريقة البكتاشية ، وقتل رؤساءها وأقفل تكاياها . ولكن بعد أن سار على خطة التجدد فى المملكة ، وغيّر الأزياء القديمة ؛ حاول الرجعيون الانتقام ، فأشعلوا النار عدة مرار ، وفى إحدى المرار أحرقوا ثُمْنَ الأستانة ! ولكن السلطان ضمّد الجروح ، وساعد المصابين . وفى مرة أخرى أحرقوا « بيك أوغلو » محلة الاوربيين ، وحصلت أيضا ثورة بالسلاح ، فقضى السلطان عليها ولم يثنه شىء عن عزمه ، ومضى فى سياسة التجدد ، و بنى المدارس ، وأسَّس المدرسة العسكرية الكبرى ، وأنشأ المراكب النارية ، وأسَّس المحاجر الصحية .

وكان بالجملة مقتنعاً بوجوب الاصلاح والتجديد ، حازما رابط الجأش ، غير هيّاب للموت ، عادلا بالرعية ، مهتما بالصغيرة والكبيرة من شئون الامة ، مساويا بين جميع أجناس رعيته . ولكن المصائب بسبب أطماع الدول الأوربية توالت على السلطنة فى زمانه .

وفى سنة ١٨٣١ استولى الفرنسيس على الجزائر فى خبر ليس هنا موضعه فعجزت الدولة عن دفع هذا الاعتداء ، لاسيما أن الجزائر كانت منفصلة عنها ولم تكن سيادتها عليها إلاّ بالاسم ، ثم خرج محمد على والى مصر على الدولة وأغزى ابنه ابراهيم بلاد الشام بخمسين ألف جندى فاستولى على غزّة ، و يافا ، وحيفا ، وحاصر عكة التى كان قائدها عبد الله باشا ، فأمر السلطان محمد على برد عساكره إلى الوراء ، فاشترط محمد علي على السلطان توليته سورية ، فأبى السلطان قبول طلبه ، وأرسل جيشا لقتال الجيش المصرى تحت قيادة حسين باشا ، فانكسر حسين باشا وفتح ابراهيم باشا عكّة عنوة ، واستولى على جميع سورية ، وفى ذلك يقول الشيخ أمين الجندى الشاعر :

لو قيل إبراهيم جاء محاربا ً سقطوا ولو كان الكلام تقوُّلا
قامت قيامة عكة من بأسه وأحاط من كل الجهات بها البلا
بمدافع ما إن لها من دافع وقنابر تحكى القضاء المنزلا
تنسيك بدراً والنضير وخيبراً وحروب مكّةَ والبسوس وكربلا
من مبلغ الأتراك أن جنودهم هُزموا وأن حسينهم ولّى إلى

ولم يقف فى وجه ابراهيم باشا غير الدروز ، فانهم اجتمعوا فى « وادى التيم » وناجزوا جيشه القتال فى وقائع متعددة أشهرها واقعة « وادى بكّا » حيث أحاط ابراهيم باشا ومعه اثنا عشر ألف مقاتل نظامى بخمسمائة من الدروز فقاتلوه طول النهار وأبوا أن يستسلموا إليه إلى أن ماتوا جميعاً . وما نجا منهم غير ٢٥ شخصا . اخترطوا سيوفهم وشقوا الجند النظامى على كثافته ، وخلصوا من بين الجند كله . وقد عرفت منهم واحداً عُمِّر طو يلا اسمه أمين المصفى من قصبة بعقلين ، وأما دروز حوران فالتجأوا إلى اللجاه واتفقوا مع عرب السلوط ، وساق عليهم ابراهيم باشا جيشاً فكسروه مراراً وقتلوا منه مقتلة عظيمة ، و بقى الدروز عصاة على ابراهيم إلى أن انصرف من سورية ولكن الأمير بشير الشهابى الوالى على جبل لبنان لان إلى ابراهيم باشا لأنه كان ذهب إلى مصر وتعاهد مع محمد على ، فلما زحف ابراهيم إلى الشام مهد له كثيراً من العقبات ولم تمنع ابراهيم باشا ثورة الدروز من أن يزحف إلى الأناضول و يهزم جيش الدولة عند

قونية ، وأن يتقدم من هناك إلى بورسة ، فوقع الهلع فى الأستانة ، وقد كان خوف الروس من محمد على أعظم من خوف الترك . وذلك أن الروس فكروا فى أن محمد على قد يستولى على القسطنطينية و ينظم تركيا كما نظّم شئون مصر ، و يؤسّس دولة جديدة شابة غير الدولة العثمانية التى كان حل بها الهرم ، فعرضت الروسيا على السلطان محمود محالفة عسكرية فى وجه محمد على ، وأنزلت خمسة عشر ألف جندى بقرب الأستانة ، وكانت على نية زيادة هذا الجيش حينما نبّه السلطان سفيرا انكلترا وفرنسا إلى خطر وجود العساكر الروسية فى الأستانة ، وقالا له : إن الأولى به أن يقبل شروط محمد على ، وهى إضافة سورية كلها وولاية « آطنه » إلى مصر تحت سيادة السلطان من أن يستعين بالروسيا صاحبة الطمع السرمد فى القسطنطينية ، وهكذا اقتنع السلطان باعطاء سورية وكيليكية إلى محمد على ، ولكن السلطان لم يكن ليرضى من قلبه مصالحة محمد على على هذا الشرط و بقى يجهّز العساكر ليقاتل ابراهيم باشا و يرده إلى الوراء فزحفت العساكر العثمانية تحت قيادة حافظ باشا ، وتلاقى الجمعان فى « نِزّبْ » وكان مع ابراهيم باشا جيش كبير من العرب ، فانكسر حافظ باشا كسرة شنيعة وغنم ابراهيم أكثر مدافعه ، ومات السلطان محمود من الغم عند سماع خبر هذه الهزيمة وذلك سنة ١٨٣٩

السلطان عبد المجيد

وتولى السلطنة ولده الكبير السلطان عبد المجيد ، وكانت الدولة أصبحت بدون جيش تقريباً ، وكان أمير البحر أحمد باشا اختلف مع الصدر الاعظم فذهب وسلّم الأسطول العثمانى إلى محمد على فى ميناء الاسكندرية . فصارت الدولة مضطرة إلى الصلح مع محمد على إلا أن الروسيا وانكلترا والنمسا و بروسيا عقدت مع السلطان عبد المجيد معاهدة سنة ١٨٤٠ بموجبها لايبقى لمحمد على سوى مصر التى تعود إمارة له ولذريته وفلسطين التى يتولاها بصورة مؤقتة ، وعليه أن يخلى سورية و بلاد العرب وجزيرة كريت ، و بقيت فرنسا خارجة عن هذا الاتفاق ، لكنها لم تصل فى مساعدة

محمد على إلى العمل ، وذلك بما رأته من تألب أوربا عليه . فصار محمد على يقاوم بدون سند من جهة الدول ، وكانت قوة ابراهيم باشا أكثرها فى عكّة ، فجاء الاسطول الانجليزى وضرب عكة بالقنابر ، وطيَّر مستودع البارود والذخيرة فاستسلمت عكة وسحب ابراهيم جيشه إلى مصر ، وكانت الدولة تريد الخلاص من محمد على تماما إلا أن الانكليز كانوا عقدوا معه معاهدة لابقاء مصر فى يده ، فأجبروا الدولة على مراعاة هذه المعاهدة .

وأما الأمير بشير الشهابى حليف محمد على فلما التزم ابراهيم باشا إخلاء سورية لم يتبعه إلى مصر ، بل بقى يرجو أن يصلح أموره مع الدولة ، وكان الأمر والنهي وقتئذ فى يد الانكليز ، فلما نزل إلى صيدا وقابل أمير البحر الانكليزى سمع منه مايدل على أن انكلترا لاتريد إبقاءه أميراً على لبنان ، ثم أتوا به إلى بيروت وأبلغوه أن الدولة العثمانية قررت عزله فليختر بلاداً يقيم بها ، فاختار فرنسا . فقال له الانكليز لك أن تسكن فى أى بلد شئت ما عدا فرنسا ، ومصر ، فاختار مالطة ، ثم وجد مالطة فى عزلة عن الدنيا كلها فسعى فى التحول إلى استامبول ، وجاء اليها و بقى فيها إلى أن مات . وكان قد تعين الأمير بشير قاسم الشهابى والياً على جبل لبنان وكان الفرق بينه و بين ابن عمه فى الحزم والعزم وحسن التدبير كما بين الأرض والسماء ، فما مضى على ولايته إلَّا أشهر قلائل حتى سخط عليه مشايخ الدروز أصحاب الاقطاعات ، لأنه كان بذىء اللسان ، فكانت بذاءته تجرح فى قلوبهم ، على حين لايوجد فى الدنيا بلد كجبل لبنان يهتم أهله قبل كل شىء بالآداب وحفظ اللسان فقرر الدروز الاجتماع لخلع الأمير بشير قاسم ، فانتصر له النصارى لأنه منهم ، فوقعت الوقائع بين الفريقين فى « دير القمر » سنة ١٨٤١ وتسمي هذه الوقائع فى لبنان بالحركة الاولى . فعزلت الدولة الامير بشير قاسم ، وأرسلت عمر باشا النمساوى إلى جبل لبنان فأخذت فرنسا تسعى فى إعادة الحكم إلى آل شهاب بناء على كون الطائفة المارونية ترغب فى ذلك ، إلا أن الدروز وسائر الطوائف غير المارونية عارضوا رجوع الحكم إلى الشهابيين ، فبعد أخذ ورد بين الدول تقررت قسمة الجبل إلى قسمين يفصل بينهما

طريق دمشق ، وجعلت الدولة الامير احمد عباس الأرسلانى والياً على القسم الجنوبى والامير حيدر اسماعيل أبى اللمع والياً على القسم الشمالى ، وألحقت بلاد جبيل بباشوية طرابلس . فأغضب هذا التدبير الطوائف الكاثوليكية وحاميتهم فرنسا . ولكن الدول الاخرى حباً بالتوازن و بمقاومة نفوذ فرنسا التى تريد السيادة فى جبل لبنان عضدت الدولة العثمانية فى الترتيب الجديد . وهنّ انجلترة ، و بروسيا . وأميركا والروسيا . وتألف فى كل من القائمقاميتين ديوان مختلط تتمثل فيه كل الطوائف وما مضت سنوات قلائل على هذا النظام حتى تشاجر الدروز والنصارى مرة أخرى ، وحصلت وقائع بين الفريقين ، فسكّنت الدولة هذه الفتنة .

وجاء شكيب افندى ناظر الخارجية من الأستانة فرتب الأمور ، وعزل الأمير أحمد أرسلان بسبب حصول الفتنة فى أيامه ، وجعل مكانه أخاه الامير أمينا فبقى إلى سنة ١٨٥٩ فخلفه ولده الامير محمد الأرسلانى ، وفى مدة هذا ثارت العامة فى قضاء كسروان وكلهم هناك من الموارنة ، وكانت ثورتهم على مشايخهم آل الخازن فطردوهم واستولوا على أملاكهم ، وقتلوا منهم فذهبوا إلى بيروت يشتكون إلى الوالى التركى ، فرأى الوالى أنه لا بد من حرب لقمع ثورة الاهالى ، فرأى الاولى أخذ المسألة بالسياسة فطال الامر ببنى الخازن ، فالتجأوا إلى مشايخ الدروز لأنهم أصحاب إقطاعات مثلهم ، و بين الفريقين تكافل إقطاعى طبيعى . فقرر مشايخ الدروز الزحف على كسروان وإعادة بنى الخازن إلى بيوتهم ، فقامت من أجل ذلك قيامة المارونيين الذين فى بيروت وفى بلاد الشوف وجزين ، وقالوا . إنهم لا يرضون بذهاب الدروز إلى كسروان يقاتلون إخوانهم ، فوقع التنافر بين الفريقين ، وبدأ المارونيون بالحركة . ثم انفجر الدم فى حوادث جزئية فى البداية ، واجتمع المسيحيون فى زحلة وزحف منهم عدة آلاف قاصدين قضاء الشوف على تفاهم مع نصارى الشوف بأن يثوروا من جهتهم فيضعوا الدروز بين نارين ، واعتمدوا على كثرة عددهم لأن الدروز لا يزيدون على السدس بالنسبة إلى النصارى ، ولكن الدروز المشهورين بالشجاعة وبحسن الانقياد إلى رؤسائهم فى الحروب قابلوا ذلك الجيش الذى زحف اليهم ، وذلك فى

« ظهر البيدر » شرقى عين صوفر ، وجرت معركة تقهقر فيها النصارى إلى « قب الياس »

ثم حصلت وقائع أخرى كان الفوز فى جميعها للدروز ، ثم جمع خطار بك العماد جمعا كبيراً من الدروز وقصد مدينة زحلة حيث تجمع فيها النصارى من كل جهة فوقعت واقعة شديدة انتهت أيضا بأن النصارى تركوا زحلة واستولى عليها الدروز وأحرقوها . وكانت قصبة دير القمر المسيحية الواقعة فى وسط بلاد الدروز تدافع بشدة الدروز الذين يهاجمونها ، فلما سقطت زحلة خارت عزائم أهالى دير القمر فاستولى عليها الدروز ، وأعمل الجهلاء منهم السيف فى أهلها ، وقتلوا مقتلة عظيمة . ولكن عند مابلغ الخبر آل أرسلان ، وآل جنبلاط ، وآل نكد ، أرسلوا رجالهم إلى دير القمر وأنقذوا ألوفا من بقايا السيف من المسيحيين وآووهم ، وقاموا بإعاشتهم إلى أن جاءت وزراء الدولة والدول وبدأوا بالتحقيق عن الحوادث ، وكذلك حصلت حادثة كهذه فى حاصبيا وأخرى فى راشيا وكان الدروز مع كونهم أقل عدداً يتغلبون على النصارى ، وكانت تقع من الجهلاء بعد الفوز حوادث مؤسفة لامراء فيها الا أنه فى جميع هذه الوقائع لم يكن الدروز هم البادئين بالشر ، وكيف يبدأون وزعماؤهم هم أصحاب الاقطاعات الوافرة وتحت حكمهم عشرات ألوف من النصارى وفى أيديهم أكثر الأملاك . فكان لا يخفى عنهم وهم عقلاء محنكون أن الفتنة تكون سبب انقراض نعمتهم ، وتؤول إلى جعل الحكومة على نسبة عدد الطوائف فيفقدون أكثر امتيازاتهم ، بخلاف النصارى الذين كانوا يرون أنهم لا يحصلون على المساواة ، ولا يتخلص ذلك العدد الكبير منهم عن حكم الدروز إلا بثورة تجبر الدولة على انصافهم ، فقضية أن الدروز كانوا مستولين على أكثر كثيراً مما يحق لهم بحسب العدد هذه قضية لا نزاع فيها .

وأما قضية كون الدروز هم الذين بدأوا بقتال النصارى وأنهم هم الذين اعتدوا عليهم فهى كذب محض قد حققته لجنة التحقيق الدولية التي وقفت على جميع الحقائق ولذلك أبى الجانب الأعظم من الدول أن يعد الدروز معتدين ، وإن كانوا حكموا على مئات منهم بالنفى ، فلم يكن ذلك مبنياً على اعتدائهم ، ولكن كان ذلك تسكيناً لخواطر النصارى الذين قتل منهم عدة آلاف بعد تغلب الدروز عليهم . ولقد حكمت

الدولة بالقتل على المشير احمد باشاقائد الفيلق العثمانى في دمشق وعلى مئات من المسلمين ممن كانوا المسئولين عن الحادثة التى وقعت على نصارى الحاضرة السورية ، ولكنها بالاتفاق مع الدول عدا فرنسا لم تقتل أحداً من الدروز لما ظهر من أن الاعتداء لم يقع منهم ، ولما ثبت بالوثائق والمناشير التى صدرت عن أساقفة النصارى من أن الرؤساء الروحيين كانوا هم المحرضين على الحرب ، وغير معقول أن الدول المسيحية مع شدة تعصبها فى النصرانية مثل انكلترا ، والنمسا ، و بروسيا ، والروسيا ؛ تساعد الدروز بقدر الامكان وتأبى مجاراة فرنسا على قتل جانب منهم لو تحقق عندها أن الدروز كانوا هم المعتدين ! ولا تبال أصلا بأقوال المؤلفين الافرنسيين الذين ينكرون هذه الحقيقة و يروون روايات إذا قرأها الانسان يضحك أو يحزن لشدة بعدها عن الواقع ، ولغياب الوجدان فيها تماماً ، ودعوى الفرنسيس أن الانكليز لأجل أن يتوكأوا على الدروز و يتخذوا لأنفسهم أنصاراً فى سورية قد اجتهدوا فى إنقاذهم على أثر تلك الحوادث المسماة بحوادث « الستين » ـ لوقوعها سنة ١٨٦٠ ـ هى دعوى لا ترتكز على أدنى أساس ، لأن الانكليز هم أشد تحمساً للنصرانية من أن يرضوا بذبح الدروز للنصارى و بأن يُتركوا بدون قصاص ، ولما وصلت إلى لندرة أخبار هذه الحوادث مقلوبة عن وجهها اشتد غضب الإنكليز ، وطلبوا فى أول الأمر من حكومتهم الاقتصاص من الدروز بكل صرامة ، إلاّ أنه كان بعض الانكليز المنصفين المقيمين بسورية لا سيما المستر « سكوت » صاحب معمل الحرير فى قرية شملان من لبنان قد كتبوا إلى انكلترة بحقيقة ماجرى ، وقالوا إن الدروز إنما كانوا مدافعين لا مهاجمين ، فهدأ عند ذلك الرأى العام الانكليزى .

ولما تألفت اللجنة الدولية فى بيروت ثبت أيضاً أن الدروز لم يكونوا هم البادئين بالقتال . وثبت أن الأمير محمد أرسلان أمير لبنان الجنوبى راجع الوالى خورشيد باشا لأجل إرسال جيش نظامى يكفى لمنع الحوادث ، واستمد أيضاً قناصل الدول كلها حتى يسعوا فى هذا الأمر لدى الوالى ، وهذا كان سبب خلاص الأمير محمد من القتل والنفى

ومن كل مسئولية ، ولا يُنكر أن الانكليز كانوا قد بدأوا بتأسيس علاقة مع آل جنبلاط وحزبهم من الدروز ، وربما كانوا لأجل حفظ التوازن . غير راغبين في استئصال هذه الطائفة القليلة العدد من جبل لبنان ، ولكنهم لو كانوا قد تحققوا كون الدروز هم المعتدين لكانوا وافقوا بالأقل على اجراء القصاص بحق عدة مئات منهم كما جرى في دمشق بحق المشير احمد باشا ومئات من المسلمين ، وأيضاً فان الروسيا والنمسا و بروسيا لم يكن عندهن أقل سبب سياسي يقتضي العفو عن الدروز ، والاكتفاء بنفي مئتين أو ثلاثمائة رجل منهم إلى الخارج ، مع أن النصارى قدموا جدولا إلى اللجنة الدولية يلتمسون فيها قتل سبعة آلاف من الدروز .

والخلاصة لما ثبت أن الدروز لم يكونوا إلا مدافعين عن حوزتهم ترفقت بهم الدولة العثمانية وجميع الدول عدا فرنسا ، و إنما نفى من نفى منهم نكالا وعبرة من أجل المذابح التي لا تنكر مما قام به جهلاؤهم بعد الغلبة ، ولقد قلب مؤرخوا هذه الوقائع من الفرنسيس حقائقها رأساً على عقب ، وجعلوا الابتداء والاعتداء من الدروز وليس ذلك بصحيح . ثم إنه قد ثبت أيضاً باعتراف عقلاء النصارى أنفسهم أنه لم يوجد واحد من الدروز سطا على عرض امرأة نصرانية ، ولا وجد منهم من قتل ولداً ، أو امرأة ، أو شيخاً عاجزاً . وقد اعترف بذلك صاحب كتاب « حسر اللثام عن نكبات الشام » المطبوع بمطبعة المقطم بمصر ، وفيه سرد حوادث سنة ١٨٦٠ وفيه من الطعن بالدولة العثمانية ومن الوقيعة بالمسلمين والدروز ما يزيد على كل وصف ، إلا أنه صرح بكون الدروز في جميع هذه الوقائع لم يتلوثوا بالاعتداء على أعراض النساء ، ولا قتلوا امرأة ، ولا ولداً ولا عاجزاً ، وهو يذكر أيضاً هم كثيرين من زعماء الدروز الذين أنقذوا النصارى ألوفا ، كما يذكر أن أعيان المسلمين في الشام مثل محمود افندي الحمزاوي وصالح أغا المهايني ، وعمر آغا العابد ، وعدداً كبيراً من الوجهاء ليس الأمير عبدالقادر الجزائري فقط ؛ قد حافظوا على النصارى ، وآمنوهم من خوف ، وآووهم من فقر ، مع أن مؤرخي الفرنسيس يحصرون هذه المحافظة في الأمير عبد القادر رحمه الله وحده وهو بدون شك قد حافظ على ألوف من المسيحيين ، وكان السبب في نجاتهم من الغوغاء

الذين اعتدوا عليهم بدون علم الرؤساء ، ولـكن الأمير عبد القادر لم يكن هو الوحيد الذى قام بذلك الواجب .

ثم إن السلطان عبدالمجيد أعلن التنظيمات المسماة « بخط كولخانة » ومآله أن حياة الأشخاص وأموالهم وأعراضهم تـكون مصونة ، وتـكون الأموال الأميرية عائدة إلى نظام واحد ، وأن تُلغى الاحتكارات ، وأن تـكون الضرائب بحسب الثروة وأن تـكون مدة الخدمة العسكرية خمس سنوات ، وأن تـكون المحاكات علنية وأن تـكون المساواة أمام القانون شاملة لـكل أصناف الرعية ، وأن يكون الناس أحراراً فى البيع والشراء ، وأن يكون ضبط أملاك المجرمين ممنوعاً ، بل تعود إلى ورثتهم .

وقد زعم بعض مؤرخى الفرنسيس أن الضرائب و إن أوجب خط كولخانه استيفاءها على نسبة الثروة ، فقد كانت تجبى بصورة جائرة على المسيحيين . وهذا الـكلام أيضا غير صحيح ؛ فالضرائب فى السلطنة العثمانية كانت على حسب مقدار الأملاك وريعها ولم يكن فيها تمييز طبقة على طبقة مما هو شأن الدول الاستعمارية الاوربية .

وأسست الدولة جامعة باسم « دار الفنون » وجعلت التعليم ابتدائياً ، واعدادياً وعالياً . وقامت باصلاحات كثيرة ؛ وفي سنة ١٨٤٨ ثارت الفلاخ ومولداڤيا ، وكادت الفتنة تؤدى إلى الحرب بين الدولتين العثمانية والروسية ، ولـكن الحرب لم تقع بينهما هذه المرة ، وتفادوها بتدابير سلمية .

وفى زمان السلطان عبدالمجيد نشبت حرب القريم ، وأساسها الخلاف بين الروم واللاتين على كنيسة بيت لحم التى فيها المغارة التى يقال إن المسيح ولد فيها ، فاللاتين كانوا يدعون حق الولاية على هذه الـكنيسة بموجب فرامين بأيديهم ، وزعموا أن الأروام بدسائسهم لدى الدولة قد استولوا على حقوق لم تـكن لهم من قبل ، وأخذوا مفاتيح كنيسة القيامة و بسطها وقناديلها بفرمان من السلطان محمود الأول . وزعم اللاتين أن السلطان سليمان الثانى كان خولهم هذه الحقوق سنة ١٦٩٠ فرجع الأروام واستردوا ما فقدوه فى سنة ١٧٥٧ ، ثم إن الروسيا سنة ١٨٠٨ ساعدت الأروام

لدى الباب العالى فاستولوا على جميع الأماكن المقدسة تقريبا ، فبقيت فرنسا تحتج على ذلك . وسنة ١٨٥١ طلبت فرنسا من الدولة تأليف لجنة مختلطة لأجل النظر فى الفرامين التى بأيدى اللاتين والروم ، وادعت الاستيلاء على كنيسة القيامة ، وعلى المكان الذى فيه مدافن ملوك الافرنج ، وعلى قبر العذراء ، وعلى كنيسة بيت لحم ، وغيرها .

فلما بلغ ذلك الروسيا اعترضت على هذا الأمر وقدمت إلى الدولة مذكرة لو قبلها الباب العالى لكان ذلك اعترافاً منه بحماية الروسيا لجميع المسيحيين الارثوذكسيين فلذلك رفض الباب العالى إجابة طلب الروسيا ، فقطعت الروسيا العلاقات مع الدولة وزحفت العساكر الروسية تحت قيادة البرنس « كورتشاكوف » فقطعت نهر الباروت بتسعين الف ماش وعشرين الف فارس ، وستة آلاف مدفعى ، فاحتل هذا الجيش الفلاخ ، ومولداقيا ، وكانت الحصون العثمانية عند الطونة خراباً تقريباً ولكن كان عند الدولة قائد اسمه « عمر باشا النمساوى » أصله خرواطى كان من عظماء القواد فرمم تلك القلاع وجمع جيشاً جراراً وصد الروس وردهم ، أما فى آسيا فتقهقر العثمانيون إلى الوراء ، وجاء أسطول روسى فأحرق أسطولا عثمانيا فى ميناء «سينوب»

وفى ذلك الوقت كانت انكلترة ترى من مصلحتها توقيف الروسيا على حدها خوفاً من استيلاء الروس على الأستانة ، وكان نابوليون الثالث أمبراطور فرنسا منقاداً إلى السياسة الانكليزية ، وكانت الامة الافرنسية الكاثوليكية ترى أن الدولة العثمانية قبلت هذه الحرب مع الروسيا من أجل عدم تسليمها حقوق اللاتين فى القدس فلما أحرق الاسطول الروسى السفن العثمانية التى كانت فى سينوب دخل الاسطول الانكليزى والاسطول الافرنسى من الدردنيل إلى الاستانة محافظة عليها من الروسيا

فأرسل نيقولا الاول قيصر الروس يحتج على هذه الحركة ، ونشر على شعبه منشوراً أشبه باعلان حرب على فرنسا وانكلترة ، فعقدت هاتان الدولتان محالفة هجومية دفاعية مع السلطان عبد المجيد فى ١٢ مارس سنة ١٨٥٤ وكان تحت قيادة « عمر باشا » — وكان يقال له السردار — مئة وثلاثون الف نظامى ، وخمسون الف

متطوع . وكان الجيش الروسى تحت قيادة البرنس « باسكيفتش » يبلغ مئة وتسعين الفا ، فهاجم الروس سيلسترية فدحرهم العثمانيون عنها ، فتقهقروا على طول الخط . وأراد عمر باشا أن يجتاز نهر البروت إلا أنه كان الفرنسيس والانكليز قد عمدوا إلى نقل ميدان الحرب إلى القريم ، وقرروا حصار سيباستوبول فانتقل السردار عمر باشا إلى القريم ، وهناك جرت الوقائع الكبرى . وثارت بلاد اليونان انتصاراً للروسيا وتجاوز الاروام على الحدود العثمانية فانهزموا . واحتل جيش إفرنسى آثينا ، وأما فى القريم فانتصر الانكليز والفرنسيس والعثمانيون فى وقائع « آلمة » و « بالا كلاڤة » و « انكرمان » و « ترا كثير » وافتتح عمر باشا « أوپاتورية » عنوة . وفتح الحلفاء « برج مالا كوف » بعد معارك شديدة ، قيل إن الفرنسيس هناك فقدوا عشرة آلاف مقاتل . ودمَّرت أساطيل الحلفاء مرافىء الروسيا فى البحر الاسود ودخلت أساطيلهم من البلطيك ، واستولوا على بومارسوند ،وانضم إلى فرنسا وانكلترة وتركيا فى هذه الحرب مملكة الساردوا ، والبيمونت ، فأرسلت ١٥ الف مقاتل ، فلما توالت هذه المصائب على الروسيا طلب القيصر نقولا الصلح ، فانعقد مؤتمر فى فينّا فى أول فبراير سنة ١٨٥٦ وتقررت فيه شروط الهدنة ، ثم انعقد مؤتمر الصلح فى باريز وكان الجانب الواحد هو فرنسا وانكلترة وتركيا ومملكة الساردوا ، والجانب الآخر الروسيا . وكانت بروسيا والنمسا كفيلتين ، وبهذه المعاهدة تقرر استقلال السلطنة العثمانية التام ، وعدم تدخل أية دولة فى شئونها الداخلية ، وذلك بموجب المادة التاسعة كما أنه بموجب المادة العاشرة تقرر عدم مرور السفن الحربية من الدردنيل ، وبحسب المادة الحادية عشرة تقررت حرية التجارة والملاحة فى البحر الاسود ، وكذلك بحسب المادة العشرين تقرر أن الروسيا تتخلّى لمولداڤيا عن قسم من بسارابيا . ثم جعلت مصابّ الطونة تحت إشراف لجنة أوربية ، وبهذه المعاهدة جرى إلغاء حماية الروس على بلاد السرب ، والفلاخ ، ومولداڤيا ، ورجعت هذه الامارات تحت سيادة الباب العالى وحماية أوربا . وبمقابلة معاهدة باريز هذه جددت الدولة العثمانية مآل خط كولخانه

من جهة إعلان المساواة التامة بين أصناف رعاياها ، ومن جهة حرية المذاهب وغير ذلك من الاصلاحات .

وفى ١٣ يوليو سنة ١٨٥٨ هجم بعض أهالى جدة بالحجاز على قنصل فرنسا ومعاون قنصل انكلترا فقتلوهما ، فجاء أسطول انكليزى إفرنسى فضرب البلدة بالقنابر وفى سنة ١٨٦٠ جرت الوقائع التى سبقت الاشارة إليها بين الدروز والنصارى فى جبل لبنان ، وكانت الدولة سكّنت الأمور ، واستدعت زعماء الفريقين إلى بيروت ووقع الصلح بينهما ، إلاّ أن بعض الجهلاء فى دمشق طمعاً بالنهب والسلب استفادوا من غفلة الحكومة فانقضّوا على حارة النصارى وفجروا الدماء الغزيرة ، وارتكبوا الموبقات الكبيرة ظلماً وعدواناً ، فكانت هذه الحادثة المشئومة سبباً فى احتلال جيش افرنسى لبيروت ولبنان تحت قيادة الجنرال « بوفور دوبول Beaufort D'haipoul » فأرسلت الدولة فؤاد باشا المشهور إلى سوريا ، فأخذ فؤاد باشا يضمد جروح المسيحيين ووزّع عليهم تعويضات بالملايين ، و بحسن سياسته سكّن الأمور وقتل عدداً من الجناة فى حادثة دمشق يبلغ ١٣٠ ، ونفى كثيراً من العلماء والأعيان وفى مقدمتهم الشيخ عبد الله الحلبى مفتى الشام ، وقد كان نفيهم لأجل السياسة لأنهم كانوا بالحقيقة أبرياء من كل ما وقع على المسيحيين .

وما رجع فؤاد باشا من سوريا إلى الأستانة إلاّ بعد أن استرجعت فرنسا عساكرها ، وكانت يومئذٍ انكلترا والنمسا مساعدتين لتركيا . وفى ٢٥ يوليو سنة ١٨٦١ توفى السلطان عبد المجيد ، وكان سلطاناً كريم الأخلاق عادلا حليما متواضعاً ، وكانت الرعية العثمانية من جميع الطبقات تحبه وتحترمه ، ولذلك أسف عليه الجميع .

السلطان عبد العزيز

وتولّى مكانه السلطان عبد العزيز . وفى زمانه لم تحصل حوادث تذكر سوى ثورة كريت التى قمعتها الدولة بالقوة ، والسلطان عبد العزيز هو أول سلطان زار أوربا عند ما دعاه نابليون الثالث سنة ١٨٦٧ إلى معرض باريز مع سائر الملوك ، وفى زمانه

أيضاً جرى خرق بوغاز السويس بواسطة شركة افرنسية يرأسها المسيو « داليسبس »
وذهب السلطان عبد العزيز بنفسه إلى مصر ، وكان السلطان عبد العزيز سليم الطوية
جسوراً إلاّ أنه كان مسرفاً ترك على الدولة ديونا كثيرة . على أن من أهم مآثره
اعتناؤه بالأسطول، ففى زمانه كان للدولة قوة بحرية عظيمة ، وكانت هى الدولة
الثالثة فى البحر ، وقد كان فى أيامه من رجال الدولة « مدحت باشا » وكان مولعاً
بالحرية ، فنما بواسطته حزب الأحرار ، وصاروا يتحدثون بخلع السلطان لكثرة اسرافه
واستمالوا إليهم السر عسكر « حسين عونى باشا » ودبّروا على السلطان مكيدة فاتفقوا
مع ناظر البحرية وأتو بالأسطول فرسا أمام سراى طولمه بغجه ، بينما العساكر كانت
تحيط بالسراى من جهة البر ، ثم أدخلوا على السلطان من أبلغه أن الأمة خلعته .
فأراد السلطان أن يستخف بهذا الموضوع فأطلعوه على العساكر المحيطة بالقصر من
جهتى البر والبحر ، وأنزلوه من السراى ووضعوه فى قصر آخر .

السلطان مراد

و بايعوا السلطان مراد كبير أولاد السلطان عبد المجيد ، وما مضى عدة أيام على
خلع السلطان عبدالعزيز حتى وُجد فى قصره قتيلا ، فذهب الناس إلى أنه قُتل بأيدى
هؤلاء الذين خلعوه . وليس ذلك بصحيح ؛ بل كان الخلع فجأة قد أثّر جداً في عقل
السلطان ، فتناول مقراضا وقطع به عروق زنده فسال دمه إلى أن مات .

وكان ضابط اسمه « حسن الشركسى » شقيقاً لاحدى نساء السلطان ، فجاء إلى
الباب العالى ودخل على مجلس الوزراء فاغتال السر عسكر حسين عونى باشا وناظر
البحرية أحمد باشا القيصرلى ، وراشد باشا ناظر الخارجية وكان مراده قتل مدحت باشا
ولكن هذا فرّ ونجا بأعجوبة ، فجاء الجند ولم يتمكنوا من القبض على حسن الشركسى
إلاّ بقتله . وأما السلطان مراد فما مضت عليه إلا ثلاثة أشهر فى السلطنة حتى حصل له
اختلاط فى عقله ، فاتفق رجال الدولة على إقصائه عن السلطنة ونصب أخيه السلطان
عبد الحميد مكانه .

السلطان عبد الحميد الثاني

وكان ذلك سنة ١٢٩٤ هجرية . وكانت فى أواخر مدة السلطان عبد العزيز قد نجمت قرون الثورة فى البلقان ، وكانت بدايتها فى الهرسك ، وكان على رأسها « قره جيورجيوفتش » من ذرية قره جورج الذى تقدم الكلام عليه وهوجد ملك يوغوسلافيا الحالى . ثم امتدت الثورة الى بلاد السرب فأرسلت الدولة جيشا للتنكيل بالعصاة ، فاتسعت الثورة وكان مراد السربيين أن يستقلوا استقلالا تاما ولا يؤدوا جزية للسلطان .

فساقت الدولة جيشا بقيادة عثمان باشا الذى صار فيها بعد يلقّب بالغازى ، فهزم السربيين ودوّخت الدولة جميع ثوار البلقان من بلغار وسرب ، وهرسك . وكانت الروسيا تظاهر الثائرين كما لايخفى ، فلما سحقتهم العساكر العثمانية أعلنت الروسيا الحرب على الدولة العثمانية . وهذه الحادثة تشبه كثيرا إعلان الروسيا الحرب على النمسا عند ماساقت النمسا جيشها على السرب فى أول الحرب العامة ، أى أن الروسيا كانت دائما ترى نفسها مرجعاً للأمم السلافية ، ولا سيا الأمم السلافية الارثوذكسية ، فأما السلافيون الكاثوليكيون فلم يكونوا يرجعون إليها . فكانت بداية سلطنة عبدالحميد الثانى هي بالحرب مع الروسيا ، ونظراً لكون تاريخ هذه الحرب معلوما وعليه تأليف كبير بالأفرنسية « La Puerre Russo turque » فاننا لا نجد لزوماً للتطويل فى شأنها ، ولا للاسهاب فى تاريخ سلطنة عبد الحميد ، لأن حوادث أيامه معروفة مشهورة وقد كُتب عنها بكل اللغات . فالحرب الروسية التركية جاءت وبالا على الدولة إذ أن الروسية فى القرن الأخير قد نمت نمواً زائداً فصار عدد سكانها يفوق عدد سكان السلطنة العثمانية أربع مرات بالأقل ، وكانت البلاد البلقانية من سرب و بلغار وفلاخيين وأروام يداً واحدة مع الروسيا ، ولم تكن هذه الأسباب وحدها كافية للفشل الذى حل بالجيش العثماني ، بل حَصل خطأ كثير فى التدبير العسكرى ، وكانت لوازم الجيش ناقصة كما هو شأن الدولة فى حروبها فى العهد الاخير ، وتدخل السلطان كثيرا

فى أمور الحرب بدون معرفة . وخلاصة القول أن الروس عبروا نهر الطونة وتقدموا ظافرين وصار الجيش العثمانى بقيادة السردار عبد الكريم باشا يرجع إلى الوراء وكادت الحرب تنتهى بفشل تام للعثمانيين ، و إذا بعثمان باشا قاهر السرب جاء ودخل فى قلعة بلاڤنة واعتصم بها ، فجمع الروس جيوشهم وصمدوا إليه فكسرهم كسرة شنيعة فأعادوا الكرة عليه أولا وثانيا وفي كل مرة كان يهزمهم ، وفى إحدى المرار فقدوا خمسة عشر الف عسكرى ، ورجعت الحرب تبشر بحسن مآل العثمانيين ، ولكن عثمان باشا لم يبقَ عنده وهو محصور من كل الجهات ذخائر تساعده على الثبات ، وجاء قيصر الروسيا اسكندر الثانى بنفسه واستصرخ إمارة رومانيا ـ أى الفلاخ ـ ومولداڤيا وذلك باسم النصرانية قائلا : إنها كلها تحت الخطر ، فأنجده الرومانيون بسبعين ألف عسكرى انضافت هذه إلى الجيش الروسى المحاصر لعثمان باشا فى بلاڤنه . ومع هذا فلولاَ نفاد الذخيرة لم تكن تلك الجيوش كلها لتتغلب على عثمان باشا . وفى آخر وقعة أراد عثمان باشا أن يخرق جيوش الروس برغم كثافتها و ينفذ إلى الخارج ، فوقع جريحاً فاضطر إلى النكوص نحو بلاڤنه وعرض على أمبراطور الروسيا الاستسلام ، ولما دخل عليه وأراد أن يسلمه سيفه كما هى عادة كل المستسلمين قال له الأمبراطور : إن قائداً مثلك يحق له أن يُبقِي سيفه معه ، و بالغ القيصر فى إكرامه .

و بعد تسليم بلاڤنه زحفت جيوش الروس إلى الأستانة واحتلت أدرنة ، ووصلت إلى سان استفانو ؛ وكان العثمانيون قد أعدوا جيشا للدفاع عن الأستانة إلا أنهم كانوا يخشون أن تدور عليهم الدائرة بكثرة جيوش الروس ، فأما من جهة القوقاس فكان القائد الكبير أحمد مختار باشا الغازى قد انتصر على الروس فى وقعة « كدكلر » وتقدم إلى الأمام ، ولكن الروس عادوا فتغلبوا عليه بتفوقهم في العدد ، وكان درويش باشا قائد الجيش العثمانى المرابط فى باطوم تحت الحصار ، فهاجمه الروس مراراً فدحر جميع مهاجماتهم ، وانتهت الحرب و باطوم فى يده ، هذا وعند ماوصل الغراندوق نقولا إلى سان استفانو طلب السلطان عبدالحميد الصلح ، فاشترطت الروسيا شروطا ثقيلة جداً التزمت الدولة العثمانية أن تقبلها خوفا على الأستانة من السقوط ، إلاّ أن الانكليز وجدوا

الصلح على هذه الشروط عبارة عن استيلاء الروسيا القريب على سلطنة آل عثمان ووصولهم إلى البحر المتوسط ، فاعترضوا الروسيا ودخل أسطولهم إلى الأستانة وأجبروا الروس على تمزيق المعاهدة ، وفاوضوا الدول السبع فى عقد معاهدة ثانية بدلا عن معاهدة «سان استفانو» . فتقرر عقد مؤتمر برلين المشهور ، واتفقت الدول هناك على أن تكون إمارة رومانيا مملكة مستقلة تماما عن السلطنة العثمانية ، وأن تستقل تماماً أيضا إمارة السرب و يسمّى أميرها « ميلان أونوفتش » ملكا عليها ، وأن يستقل الجبل الأسود و يُعطى قسما من بلاد الأرناؤوط ، وأن تضاف تساليا وأبيروس إلى اليونان ، وأن تكون بلاد البلغار إمارة تحت سيادة السلطان و يليها ولاية ممتازة .

ومن جهة آسيا تضاف قارص وأردهان وباطوم وتوابعها إلى الروسيا ؛ وأن تدفع الدولة العثمانية غرامة حربية وتعويضات لتجار الروس الذين لحقتهم خسائر بسبب تدمير الأسطول العثمانى لسواحل الروسيا ، وهذا هو مجمل معاهدة برلين ، و بعد ذلك اتفقت الدولة مع انكلترة على أن تتخلى لها عن قبرص ، وتؤدى انكلترة للدولة خراجاً سنوياً عن هذه الجزيرة ، وبمقابلة هذا التخلى تعهدت انكلترة للدوله بأنه إن تجاوزت الروسيا على حدود تركيا من جهة آسيا تكون انكلترة مساعدة لها ثم تقرر بموجب «معاهدة برلين» هذه أن تحتل النمسا ولايتى بوسنة والهرسك احتلالا مؤقتاً ، ولما دخلت الجيوش النمساوية هاتين الولايتين ثار فى وجهها مسلمو تلك البلاد و بقيت المعارك بين الفريقين مدة أربعة أشهر ، ولم يساعدهم الأهالى السربيون فى شىء بل انحصرت المقاومة فى المسلمين . وكذلك ثار الارناؤوط فى وجه الجبل الاسود وأبوا أن يلتحق من بلادهم شىء بحكومة الجبل المذكور . وكان الشركس والطاغنسطانيون ثاروا على الروس فى أثناء الحرب بين الدولة والروسيا ، فلما انكسرت الدولة هاجر منهم مئات الوف إلى الأناضول . وبعد مضى عدة سنوات على معاهدة برلين شن اسكندر أمير البلغار الغارة على ولاية الروملل الشرقية ، وألحقها بامارة البلغار ، فصارت الولايتان واحداً ، وفكّر السلطان عبد الحميد فى سوق جيش لارجاع الشىء إلى

ما كان عليه ، إلا أن كامل باشا أشار بعدم الحرب ، و باقرار هذه المسألة ، فأعجب رأيه السلطان وجعله صدراً أعظم .

ولما رأت فرنسا ما حل بالدولة العثمانيـة من الضعف أرادت أن تستغل ضعفها بالاستيلاء على تونس ، فلم يصعب عليهـا أن توجد لذلك سبباً ، وشنّت الغارة على تونس ، وأجبرت باى تونس محمد الصادق على إمضاء معاهدة تضمن لتونس استقلالها الداخلى تحت حماية فرنسا ، وكان ذلك سنة ١٨٧٩ واحتجت الدولة على ذلك ولـكنها لم تقدر على محاربة فرنسا من أجل تونس . وزعمت فرنسا بأنه جاء وقت على تونس لم يكن فيه للباب العالى عليها إلا سيادة إسمية ، وثار بعض الاهالى والجند التونسى بقيادة على بن خليفة ولـكن لعدم تـكافؤ القوتين انتهت الثورة بتغلب الفرنسيس كما حصل فى الجزائر من قبل ولو لم تحتل فرنسا بلدة الجزائر لم تـكن لتستولى على المغرب الأوسط كله العمالات الثلاث ؛ الجزائر ، ووهران ، وقسنطينة ، ثم إنه بقيت فرنسا خمسين سنة تقاتل أهل الجزائر حتى أدخلتهم فى الطاعة . فلما انتهت منهم بدأت تفـكر فى الاستيلاء على تونس ، ولما انتهت من خطب تونس بدأت تفـكر فى الاستيلاء على المغرب الأقصى ، ولما رأت إيطاليا أن فرنسا استأثرت بهـذه الممالك الثلاث من دونها اعترضت على فرنسا من جهة ، واعترضت على انـكلترة من جهة أخرى وقالت لهما : إنـكما تقاسمتما قارة إفريقية ، فمصر والسودان لانـكلترة ، وتونس والجزائر والمغرب الاقصى وأواسط أفريقية لفرنسا ، ولم تدعا لايطاليا شيئاً ! . فاتفقت هذه الدول الثلاث على أن تـكون لايطاليا ولاية طرابلس مع برقة ، ومن هنا جاءت حرب طرابلس ، وهكذا الاستعمار سلسلة آخذ بعضها برقاب بعض . ومن تساهل فى أمر ملـكه فى البداية خوفاً من شر أعظم فانه لا يلبث أن يقع فى أعظم من الشر الذى تفاداه . وكذلك احتلال الانـكليز لمصر كان نتيجة وقوع تركيا فى الضعف لذى كانت الروسيا هى السبب فيه .

واذا نظرنا إلى حروب الروسيا نجد أنها كانت تقدم رجالها وأموالها ، وتنفق النفائس والأنفس فى سبيل غيرها ، فاستقلال اليونان ، والجبل الأسود ، والسرب

والبلغار ، والرومانيين واحتلال النمسا للبوسنة والهرسك ، واستيلاء فرنسا على تونس واحتلال الانكليز لوادى النيل والسودان ، واحتلال إيطاليا للاريترى ثم لطرابلس وبسط انكلترة حمايتها على لحج وحضرموت ، وظفار ، وسلطنة عمان ، وجزيرة البحرين ، ومدينة الكويت ، ونزولها فى جزيرة قبرص ، كل ذلك كان من نتائج الضعف الذى أوقعته الروسيا بتركيا ، فالروسيا كانت تطبخ والآخرون كانوا يأكلون

وفى زمن السلطان عبد الحميد وقعت الحادثة الجلّى وهى احتلال الانجليز لمصر و بسببها نفر السلطان من انكلترا نفوراً شديداً ، وصار الانكليز يعملون بكل الوسائل لهدم بنيان السلطنة العثمانية . وقد تقدم لنا في هذا التاريخ أن عيون الانكليز كانت طامحة إلى مصر منذ قرون ، وأنها على أثر خروج الفرنسيس من مصر أرادوا أن يستأثروا هم بها ، ولكن محمد على لم يكن كالمماليك ، فأجبر الانكليز على الخروج من مصر و بقيت انكلترا تترصد الفرصة لاحتلال وادى النيل فى أول فرصة ، لا سيما بعد فتح برزخ السويس الذى جعل طريق الهند على مصر .

وكأن انكلترا استأجرت قبرص من الدول العثمانية لتكون لها قاعدة بحرية فى وجه مصر ، وقد حدث أن الجيش المصرى كان فيه عنصران ؛ أحدهما عربى مصرى والآخر تركى وشركسى ، فحصل خلاف بين العنصرين لم يعرف العقلاء أن يتداركوه ولا حسبوا حساباً للعواقب ، فنشأ عن هذا الخلاف حزب وطنى مصرى ترأسه الميرالاى « أحمد عرابى » وصار هذا الحزب يطالب بحقوق المصريين الاقحاح ووقف موقفاً مناوئاً للخديوى توفيق باشا . فشعر الانكليز بأن هناك حركة يمكنهم أن يستفيدوا منها ، فأخذوا يتدخلون فيها بحجة أن لهم مصالح مالية فى مصر يخشون عليها ، وكانت أمنيتهم إنما هى إحداث ثورة فى مصر يتمكنون بسببها من الاحتلال ، وتحقيق تلك الأمنية القديمة وهى الاستيلاء على الديار المصرية . فأعملوا فى هذا الموضوع جميع الدسائس التى اشتهروا بها ، ولم تكن شهرتهم فيها بدون أساس . فأخذ الحزب الوطنى ينمو تحت زعامة عرابى ومحمود سامى وغيرهما من الزعماء ، وانقلب عن أصله فبدلا من أن يكون منحصراً فى دائرة ضيقة مناوئاً للأتراك والشركس ، أصبح حزبا هدفه

الأسمى كسر نفوذ الأوربيين فى مصر ، لأن نفوذهم كان بلغ فى زمن اسماعيل باشا مبلغا لا يكاد يتصوره العقل ؛ فان اسماعيل وضع نصب عينيه إدخال مصرفى المدنية العصرية الأوربية ، وظن أن من لوازم هذا المبدأ ترغيب الأوربيين فى السكنى بمصر وتمييزهم على الأهالى فى كل شىء ، فانتهى الأمر بأن أصبح الأهالى فى حكم العبيد للأجانب .

فلما تألف هـذا الحزب الوطنى نظر إلى حالة البلاد فوجدها أصبحت لا تطاق من جهة النفوذ الأوربى ، فترك مناوأة الترك والشركس واتحد معهم على مناوأة الأفرنج ، وأخذ الانكليز يشعلون النارحتى يحدثوا ثورة من المصريين على الأوربيين وكان السلطان عبد الحميد قد ارتكب هو وأعوانه خطأ كبيراً ساعد الانكليز فى الوصول إلى مرامهم ، وذلك أنه أخذ يقوّى الحركة العرابية بطريق غير مباشرة على أمل إسقاط الخديوى توفيق وعائلة محمد على كلها ، و إعادة مصر ولاية عثمانية كسائر الولايات ، وكان هذا رأياً سقيما جداً . إذ لا يعقل أن الدولة بمكانها من الضعف وكثرة المشكلات والخطوب تفتح على نفسها أبواباً كهذه يتعذر عليها سدها فيما بعد وتجعل العائلة الخديوية ضد الدولة أحوج ما كان الفريقين إلى الوئام لما هناك من الخطر الأجنبى على الاثنين ، ثم إنه لمـا شعر الأجانب بأن الحركة العرابية منظور إليها بعين الرضا فى الأستانة ، طلبوا من السلطان أن يصدر فرماناً بعصيان عرابى باشا ولم يسعه إلاّ إجابة طلبهم فبعد أن كانت سياسة الأستانة مشجعة للعرابيين على العصيان رجعت تحت الضغط الأجنبى إلى تقوية الخديوى وكسر نفوذ العرابيين بحيث انفض عنهم كثيرون بحجة أن السلطان الخليفة أعلن عصيانه .

ومع هذا فبقيت الثورة تمتد وتشتد حتى جرت مذبحة الاسكندرية ، وذهب فيها كثير من الأجانب ، وانتشرت الفوضى فى البلاد ، وهذا الذى كانت انكلترة تتمناه حتى تدخل من هذا الباب وهو حماية أرواح الأجانب ، و بالفعل دخلت منه وجاء الأسطول الانكليزى فضرب الاسكندرية ودمّر قلاعها بالقنابر ، ثم بعد تدميرها نزلت العساكر الانكليزية إلى البلدة ، ثم وقعت الحرب بين الانكليز والعرابيين

وكان الانكليز فى ظاهر الحال يحاربون باسم الخديوى والسلطة الشرعية .

وانقسم الناس فى مصر الى قسمين ؛ منهم من استمسك بالخديوى وقاوم العرابيين بحجة أنهم خارجون عن السلطة الشرعية ، ومنهم من انحاز إلى العرابيين بحجة أنهم المدافعون عن الوطن ، وحشد العرابيون جيشاً فى التل الكبير وصمموا على المقاومة هنالك فزحف إليهم الانكليز و بددوا شملهم فى أقل من ساعتين ، ثم سارت العساكر الانكليزية ودخلت القاهرة ، وكل هذا بزعمهم على نية تأييد الخديوى ، والرجوع من حيث أتوا ، ولبث الجيش الانكليزي مدة من الزمن في مصر بحجة توطيد سلطة الخديوى المتزعزعة ، فكلما طالبت الدولة الانكليز بالجلاء عن مصر كان جوابهم إن هذا يكون بعد توطيد الأمن ، وتمكين الخديوى وكيل السلطان الشرعى . ثم انهم عقدوا مجالس عسكرية ، وحاكموا العرابيين ، ونفوا عرابى باشا ومحمود سامى باشا وعددا من الباشوات إلى جزيرة سيلان فى الهند ، كما أنهم نفوا عدداً من الضباط الكبار إلى بيروت ، ونفوا أيضاً معهم اليها الشيخ محمد عبده ، وابراهيم اللقانى وغيرهما من الوطنيين أصحاب الأقلام ، وطال مكث الانكليز فى مصر والباب العالى يعترض عليهم و يطلب جلاءهم بحسب وعدهم ، حتى أنهم أحصوا مواعيدهم الرسمية بالجلاء فبلغت اثنين وستين وعداً نكثوا بها كلها ! وكان احتلال الانكليز لوادى النيل سنة ١٨٨٢ و بعد أخذ ورد طويلين بين انكلترة والباب العالى وصل الفريقان إلى اتفاق على الجلاء شاترطت فيه انكلترة حق احتلالها لمصر فيما إذا تجددت فيها حوادث مخلّة بالأمن ، أو وقائع ذات خطر على حياة الأوربيين ، وكاد السلطان عبد الحميد يوقع على هذا الاتفاق ، إلاّ أن فرنسا ألحت عليه برفضه فامتنع فى آخر ساعة من التوقيع عليه .

وكان مراد فرنسا الحقيقى أن تتفق هى رأساً مع انكلترة فتترك منازعتها على مصر بمقابلة تخلّى انكلترة عن منازعتها إياها على مراكش ، وهكذا تمّ بينهما فيما بعد وأصبحت انجلترة فى مصر لاينازعها سوى الدولة العثمانية التى كانت مشكلاتها الكثيرة وعداوتها مع الروسيا تقيدها تقييداً شديداً عن الاندفاع فى عداوة انكلترة . وأما فرنسا

فبطل اعتراضها على انكلترة فى احتلال مصر بمقابلة سكوت انكلترة عن احتلال فرنسا للمغرب .

و بقيت الحال على غير استواء بين انكلترة والدولة العثمانية مدة سلطنة عبدالحميد كلها ، وذلك كله بسبب مصر ، وكان السلطان قد أرسل إلى مصر الغازى مختار باشا مندوباً من قبله لملاحظة مصالح الدولة ، وكان المصريون يجلّون مختار باشا مزيد الاجلال باعتبار تمثيله للسلطان الخليفة ، وأيضاً بسبب كونه فى نفسه قائداً عظيما ، وعالماً كبيراً ، ولكن الانجليز لم يجعلوا له سبيلا لأى تدخل فى أمور مصر ، ووضعوا هناك مسيطراً على مصر السر « اڤلين بارنغ » الذى لقبوه فيما بعد « باللورد كرومر » . وكان هذا الرجل شديد الغطرسة ، متكبراً فظاً ، وله عداوة خاصة للاسلام ، فتصرف بأمور مصر كما لو كانت إحدى مستعمرات انكلترة ، وفى زمانه ثار السودانيون تحت قيادة محمد احمد الذى لقب نفسه « بالمهدى » فقالوا له المتمهدى ، وانقضُّوا على العسكر المصري الانجليزى الذى كان يقوده « غوردون باشا » فاستأصلوه ، وكان عدده عشرة آلاف جندى . واستولى المهدى على السودان وانقطع الحكم الانجليزى المصرى من هناك ، ومات المهدى فخلفه «التعايشى» وكان هذا ظالما عاتياً جبَّارا ، فأسرف فى سفك الدماء ، وأفنى كثيرا من الخلق فتغيرت عليه قلوب الاهالى وصاروا يريدون التخلص منه .

وفى ذلك الوقت قرر الانكليز استرجاع السودان ، فجهزوا جيشاً مصرياً عهدوا بقيادته إلى ضباط منهم ، وأنفقوا على الحملة من خزانة مصر ، وفتحوا السودان ولكن بدلا من أن يردوه إلى مصر كما كان جعلوا الحكم مشتركا بينهم وبين المصريين ـ بزعمهم ـ والحقيقة أنهم جعلوا شركة لمصر بالاسم فقط ، و برفع العلم المصرى ، وقبضوا على كل شىء ، وتصرفوا بكل شىء كما يشاؤن . وهم الذين أذنوا لايطاليا فى احتلال مصوع ، وعصب ، والاستيلاء على بلاد عثمانية واسعة كانت تحت إدارة الحكومة المصرية ، ولما احتل الانكليز مصر كانت الحكومة المصرية تدير من قبل الدولة

شمالي بلاد الحجاز ، فني الحال فطن والي الحجاز لمغبّة هذا الأمر ، وأخرج قضاء الوجه من تحت الادارة المصرية .

ولـكنه بقي في يد مصر القسم الأكبر من شبه جزيرة سينا ، فأراد العثمانيون إجراء تحصينات في القلاع التي إلى الغرب من العقبة ، فاعترضت انكلترة على الدولة في ذلك ، فأصر السلطان على التصرف ببلاده بحجة أنها بأجمعها بلاد عثمانية ، فاستبد الانـكليز في هذه المسألة استبداداً شنيعاً ، وأنذروا الدولة بالحرب . وكأن مصر أصبحت في نظرهم من جملة الأمبراطورية البريطانية ، فازداد السلطان عبد الحميد شنآنا لبريطانيا العظمى ، وكان ذلك من جمله أسباب موالاته لألمانيا . وانعقدت بينه وبين الأمبراطور غليوم الثاني مودة أكيدة صارت تزداد بمرور الايام ؛ وعوّل السلطان على المانيا في تدريب جيشه ، واستدعى « فون غولتس » من قواد المانيا ليكون على رأس المدرسة العسكرية في الأستانة واستجاد غيره من أهل العلم والصنعة في المانيا واستخدمهم في حكومته . وكان يرسل كل سنة عدداً كبيراً من الطلبة إلى المانيا ، وبقي السلطان عبد الحميد صديقاً للأمبراطور غليوم إلى نهاية ملـكه .

ولما أعلن الدستور العثماني وصار الأمر إلى جمعية الاتحاد والترقي ، ظن رجال هذه الجمعية أنهم يتركون صداقة المانيا التي كانت تعتمد على السلطان عبد الحميد وتنال بواسطته الامتيازات في تركيا ، ومن جملتها سكة حديد بغداد ، رأوا أن يرجعوا إلى صداقة انـكلترة ، وأخذوا يتزلفون الى هذه ويذكّرونها بالصحبة القديمة يوم كانت انـكلترة تساعد العثمانيين على الروس ، ويوم كان السلطان عبد المجيد في ثورة الهند الـكبرى يخاطب مسلمي الهند ناصحا لهم بعدم الاشتراك مع الهنادك في محاربة الانكليز ، الاّ أن المسألة المصرية منعت كل تقارب بين العثمانيين والانـكليز وما مضت ثلاثة أشهر على حكم الاتحاديين في تركيا حتى رجع الاتحاديون وأدركوا أن لا أمل في عطف الانـكليز وعادوا أصدقاء لالمانيا كما كان السلطان عبد الحميد وبقيت الاحوال بين تركيا وانـكلترة مُشربة بروح العداوة إلى الحرب العامة أي كانت قد بدأت العـداوة بين انـكلترة وتركيا من سنة ١٨٨٢ ، لأجل مصر

واستمرت إلى ١٩١٤ أى إلى سنة الحرب العامة وهى مدة اثنتى وثلاثين سنة . وذلك كله بسبب احتلال الانكليز لمصر والسودان وتوابعهما . ثم خاضت الدولة غمرات الحرب العامة إلى جانب ألمانيا نفوراً من انجلترة ، ولما بدأت الحرب الكبرى وحاولت دول الحلفاء الروسيا وفرنسا وانجلترة إقناع الدولة العثمانية باجتناب الحرب ؛ كان أول شرط اقترحه رجال الدولة هو إخلاء الانجليز لمصر ، وكان الأتراك مستعدين أن يقبلوا التحالف مع الانجليز إذا أراد هؤلاء إخلاء مصر ، فلم يقبل الانجليز أن يسمعوا كلمة واحدة فى هذا الموضوع .

وعند ما دخلت الدولة فى الحرب العامة أعلنت انجلترة الحماية على مصر ، وخلعت الخديوى عباس حلمى المنصوب بفرمان سلطانى ، ونصبت عمه الأمير حسين بن اسماعيل سلطاناً على مصر ، وأرادت تجنيد جيش من المصريين لقتال الأتراك فاعترض على ذلك السلطان حسين نفسه لأنه كان وطنياً صادقاً ، ورضى بعض زعماء مصر بالدخول فى الحرب إلى جانب انجلترة على شريطة أن انجلترة تعترف باستقلال مصر وتخلى وادى النيل فرفضت انجلترة هذا الطلب أيضاً وأصرّت على إرادتها وساقت من المصريين عشرات الألوف استخدمتهم فى جيوشها ، وتصرفت برجال مصر وأحوال مصر كما تتصرف بالهند أو بغيرها من المستعمرات الانجليزية .

وكانت انجلترة لا تفكر أصلا أن تلقى شيئاً من القوة الحيوية التى ظهرت من السلطنة العثمانية فى أيام الحرب الكبرى ، ولكن عند ما حمى الوطيس ورأت دول الحلفاء ما رأته من قوة تركيا ، وعظمة المقام الذى قامته بجانب المانيا ؛ علمت خطل رأيها وكونها استخفت بتركيا استخفافاً دلت الحوادث على أنه لم يكن فى محله . ففكر قواد الانجليز فى اختراق الدردنيل والاستيلاء على الأستانة ، وعبأ الحلفاء جيشاً جراراً وأرسلوا أساطيلهم وحاولوا عبور مضيق الدردنيل ، فقاتلهم العثمانيون قتالا شديداً وأغرقوا جانباً من بوارجهم ، فأتوا بجيوش أخرى وأنزلوها فى البر وحاولوا التقدم إلى الأمام ، فصادمهم الترك بشدة استبسلوا فيها إلى أقصى ما يتصور العقل . واستمرت

حرب الدردنيل هذه ثمانية أشهر والحلفاء يكرون والعثمانيون يصدونهم إلى أن قطع الحلفاء كل أمل من الفوز وركبوا بوارجهم خائبين ، وقد فقدوا بين قتيل وجريح ثلاثمائة وخمسة وعشرين ألف جندي حسبما قرأت في وثائق الحرب الكبرى المطبوعة في باريز ، وفيها أن هذا العدد هو خسائر الجنود البرية ، ولم يدخل فيه عدة آلاف من خسائر الأساطيل ، وقد جاء في هذا الكتاب أن بعض البوارج التي أغرقها العثمانيون بمدافعهم لم ينجُ من بحريتها إلاّ عشرون جندياً لاغير ، وقد كانت حرب الدردنيل هذه هي ألمع صفحة من تاريخ العثمانيين في الحرب الكبرى ، كما كانت حرب بلفنة ألمع صفحة من تاريخ الحرب الروسية التركية . وتعدّل خسائر العثمانيين في حرب الدردنيل بمئتي ألف مقاتل بين قتيل وجريح .

ولما رأت انجلترة بعينها أن حسبانها من جهة تركيا وقوة مقاومتها كان أكثره خطأ ؛ عادت ففكرت في فصل العرب عن الترك حتى تشغل العثمانيين بعضهم ببعض

وقد كان الشريف حسين بن علي ، أمير مكة قبيل الحرب الكبرى داخَل الانكليز في عقد محالفة معهم على أن يثور على الدولة وتمده انكلترة بالمال والسلاح إلى أن تستقل البلاد العربية وتنفصل عن تركيا ، فرفضت انجلترة اقتراح أمير مكة هذا استخفافاً بالقوة العربية ، واعتماداً على أنها لا تحتاج إلى العرب في القضاء على تركيا إذا نشبت الحرب ، وكان معلوماً أن الحرب العامة ستقع لامحالة ، ولذلك اتفق الانجليز والفرنسيس على اقتسام سورية وفلسطين منذ سنة ١٩١٢ ، أي قبل الحرب العامة بسنتين . وهذا من أوضح الدلائل على كون دول الحلفاء كانت تتأهب لقتال ألمانيا ولاقتسام تركيا بعد تغلبهم على ألمانيا ، وأيضاً يستدل على تلك النية التي كانت عندهن بأن تركيا في أول الحرب العامة عند ما صار الحلفاء يراودونها على عدم الدخول في الحرب أجابتهم بأنها لا تقدر أن تبقى على الحياد التام خوفاً من أن يتفق الجميع عليها و يتصالحوا على ظهرها ، فهي إن لم تدخل في الحرب إلى جانب ألمانيا ، فلابد لها من الدخول في الحرب إلى جانب الحلفاء تحت محالفة تعقد بينهم و بين تركيا . فرفضت انجلترة هذا الاقتراح ، ولم تجد من حاجة إلى عقد محالفة مع تركيا قد تمنعها فيما بعد

من الاستيلاء على البلاد العربية . وهذا مثل رفضها للتحالف مع مصر وللسبب نفسه وكذلك مثل رفضها للتحالف مع إيران وللسبب نفسه ، أى حتى لا تضطر إلى الاعتراف باستقلال هذه الممالك الاسلامية التى كان الانجليز وضعوا نصب أعينهم القضاء عليها .

ونعود إلى أخبار السلطان عبد الحميد فنقول : إن من أهم الحوادث التي جرت فى أيام هذا السلطان هو فتنة الأرمن ، وهذه الفتنة أساسها أن الأرمن كانت لهم فى الأعصر القديمة دولة ، وكان لهم استقلال ، وكانت مملكتهم واقعة فى شرقى الأناضول بين المملكة البيزنطية والمملكة الفارسيّة ، ولما استولى الأتراك على تلك البلاد فى أيام الأتراك السلاجقة ، و بعد واقعة ملازكرد التى وقع فيها قيصر القسطنطينية أسيراً رحل منهم جانب إلى غربى الأناضول ، وأقاموا فى جبال طوروس وفى سهول كيليكية . وكانت لهم هناك إمارات لعبت أدواراً فى الحروب الصليبية ، وسواء كانوا فى شرق الأناضول أو فى غربيّه ، لم تكن لهم أكثرية عدد بالنسبة إلى السكان المسلمين . وإذا وجدت منهم جماعة فى مقاطعة صغيرة كانت أكثر من غيرها فلم يكن ذلك ليقيم لهم ملكا مستقلا ، وقد كانت الدولة العثمانية أحصت عددهم فى جميع بلادها فكانوا لا يزيدون على ثلاثة ملايين مبعثرة مابين خمسة وعشرين إلى ثلاثين مليوناً من الأمم الأخرى . ففي بعض الولايات كانوا خمسة في المائة ، وفى بعضها عشرة فى المائة .

وأكثر الولايات سكانا من الأرمن كانت ولايات مُوش ، وبِتْلِيس ، فى شرقى الأناضول وكانوا هناك خمسة وثلاثين فى المائة ، و برغم هذا كله كانوا يزعمون أن لهم حقاً فى الاستقلال كما استقل اليونان ، والبلغار ، والسربيون ، والفلاخيون وغيرهم من الأمم المسيحية التى كانت خاضعة لسلطنة آل عثمان . ولكن هذا قياس مع الفارق ، فان الفلاخيين والبُغدانيين كانوا عدة ملايين من أمة واحدة ، وعلى حدود الروسيا ولم يكن بينهم إلا مئتان أو ثلاثمائة ألف من الترك ، و إن السربيين كانوا مليونى نسمة ، وليس بينهم سوى بضعة عشر ألف مسلم . وكذلك البلغار كانوا خمسة

ملايين وليس بينهم سوى مليون من الأتراك ، وكان اليونان من قبل أكثر من مليون فى بلادهم وليس بينهم إلا مائتان أو ثلاثمائة ألف من المسلمين . فلذلك تيسر لهذه الأمم أن تقوم وتدعى الاستقلال ، وتقاتل الدولة العثمانية قتالا لم يكن يخمد حتى يشتعل ، واستمر ذلك مئات من السنين ، فانتهى الأمر بانسلاخ هذه الأقوام عن السلطنة العثمانية بمساعدة أوربا .

فأما الأرمن فلم يكونوا فى أوربا مثل اليونان ، ولا البلغار ، ولا السرب ، ولا الرومانيين ، ولم يكونوا مجتمعين فى ولاية واحدة حتى تتألف منهم كتلة تستحق الاستقلال ، وإنما كانوا مشتتين فى جميع ولايات السلطنة ، وكانوا فى كل مكان هم الأقلية ، ولم يكن سائر السكان من أتراك وأكراد يقبلون الخضوع للأرمن . فلهذا كان ادّعاؤهم الاستقلال غير وارد ولا من جهة ، وكان بينه وبين إمكانه فملا بون شاسع . وهذا ما قد كان يدركه قدماء الأرمن ، فلذلك كانوا وطنوا أنفسهم على الارتباط بالدولة العثمانية التى كانت تعتمد عليهم ، وتستخدم كثيراً منهم حتى فى المناصب العالية . وفى ظلها نما عددهم ، وازدادت ثروتهم ، ولما كانوا هم أهل جد ونشاط ، وإقدام على الأعمال ؛ كان كثير من مرافق السلطنة فى أيديهم ، وأينما توجه الانسان فى البلاد العثمانية كان يجد على الأرمن آثار النعم . وكانت الدولة تثق بهم وكان الأتراك يخلطونهم بأنفسهم ، ويسمون الأرمن « الملّة الصادقة »

واستمرت الحال على هذا المنوال إلى أن بدأ الضعف فى السلطنة العثمانية ، فصار الأرمن يرفعون رؤوسهم وينتهزون الفرص من خطوب الدولة ليطالبوا بتجديد ملكهم القديم ، وإن كانت قد درست معالم ذلك الملك ، وكانوا هم تفرقوا شذر مذر وزاد هذا الادعاء عندهم أنهم أخذوا يرسلون أولادهم لتحصيل العلم فى أوربا وأمريكا فجميع هؤلاء الشبان الذين كانوا يتعلمون فى الديار الأوربية والأمريكية كانوا يعودون متشبعين بأفكار الانفصال عن الدولة العثمانية ، وكان الأوربيون بواسطة رسالاتهم الدينية الكثيرة يذهبون إلى الديار التى فيها أرمن من تركيا ويفتحون المدارس والملاجىء ، وكان جميع من يتعلم فى هذه المدارس الأوربية يخرج كارهاً للدولة ، عدواً

للمسلمين ، وذلك بسبب المبادىء التى كان الأوربيون ــ ولا سيما الأقسة والمبشرون ــ يرضعونهم إياها من الصغر . فأهم عوامل الشقاق الذى وقع بين الأرمن و بين سائر الرعية العثمانية ، كان هو التعليم فى مدارس الأوربيين ، فأصبح غير ممكن تساكن الجنسين بعضهم مع بعض ، وظهرت عند الأرمن نزعات شيطانية ، ونزعات عدوانية تخالف ما كان عند آبائهم بتمامه ، فلم يلبث أن وقع الاصطدام بينهم و بين المسلمين ودارت الدائرة على الدولة فى الحرب التركية الروسية .

طلب الأرمن من الدول الأوربية استقلالا داخلياً للبلاد التى فى شرقى الأناضول على أمل أن يجددوا هناك مملكة أرمينية القديمة ، و بديهيّ أن الدول فى مؤتمر برلين أمكنها أن تفصل الولايات الأوربية التى كانت للدولة بسبب كثرة المسيحيين فيها ، وقلة المسلمين الذين يساكنونهم ، ولكنها لم تقدر أن تفصل الأرمن عن حكم الدولة العثمانية نظراً لقلة عددهم بالنسبة إلى من يساكنهم من المسلمين ، فقررت اقتراح بعض اصلاحات إدارية فى البلاد التى فيها أرمن ، ولما كانت هذه الاصلاحات ليست هى مرمى الأرمن الحقيقى سواء أنفذها الأتراك أو لم ينفذوها ؛ لم تكن هذه المسألة لتشفى للأرمن غليلا .

فمن ذلك الوقت شرعوا يعدّون معدات الثورة و يتحفزون للقيام على الدولة حتى ينالوا ما يريدونه بالثورة ، فأخذوا بتشكيل جمعيات سرية جعلوا مركزها فى أوربا وهى ذات شعب وفروع فى جميع البلاد التى فيها أرمن ، فكان المركز الأرمنى بالوسائل الكثيرة التى له ؛ يجمع الأموال من الأوربيين ومن الأرمن الموسرين ، و يقرر الأعمال و يرسم الخطط والحركات ، و يشترى الأسلحة و يعين متطوعين فدائية يفادون بأنفسهم فى سبيل مصلحة أمتهم .

وهكذا جعلوا حركة الانتقاض على الدولة تكاد تكون عامة ، لاسيما بين النشء الجديد ، وكانوا إذا رأوا من أبناء قومهم من لا يريد أن يسايرهم فى طريقهم إما اقتناعاً بفساد عملهم ، أو خوفاً من سطوة الدولة ؛ بطشوا به وعدوه خائنا ، كانوا يستحلون دمه وقد قتلوا من هذا النمط عدداً غير قليل منهم ، وكانوا يعلّمون أحداثهم أسماء ملوك

الأرمن القدماء ، و يذكرون أسماء قديسى الأرمن فى الكنائس ليثيروا فى رؤوس الشبان الحمية الأرمنية ، ويحيوا تذكار الملك الأرمنى القديم . وكل هذا تحملته الدولة العثمانية مدة طويلة ، ولكنها فى الآخر رأت أن رعيتها المسلمين لن يستطيعوا على هذه الأحوال صبراً ، فأمرت باقفال بعض مدارس كانت تلقى فيها بعض التعاليم الثورية ، فثار الأرمن بسبب إقفال هذه المدارس ، وقاموا بحركة عصيان ، وكان الأتراك والأكراد قد امتلأت صدورهم وغرا منهم فحصلت حوادث وسالت دماء فى ولاية أرضروم ، وموش ، فجاء الأرمن يشكون إلى الدولة وقامت قيامتهم فى الأستانة وطلبوا من بطريركهم عشقيان افندى أن يراجع السلطان فى الاقتصاص من المسلمين الذين حملوا على الأرمن .

ولما وجدوا من عشقيان افندى فتوراً فى المراجعة هجموا عليه وهو فى كنيسة « قوم قبو » وحاولوا قتله ففرّ من بين أيديهم وتوارى ريثما جاءت الشرطة فقبضت على الثائرين وألقوا عدداً كبيراً من شبان الأرمن فى غيابات السجون . وكانت تشكلت فى استانبول لجنة أرمنية ثورية اسمها « اللجنة الحمراء » يديرها أرمنى من التبعة الروسية اسمه « آغوب بدريكوف » وأخذت هذه الجمعية السرية تفتك بالأرمن الذين كانوا لايوافقون على الثورة فقبضت السلطة على بدريكوف هذا وحكمت عليه المحاكم بالقتل ، ولكن السلطان عفا عنه وسلمه إلى سفارة الروسيا على شرط إخراجه من الاستانة وخرج ، ولكن اغتيال الأرمن الصادقين للدولة بقى مستمرا ، وكانت هذه الوقائع سنة ١٨٩٠ .

ثم إن جمعيات الأرمن لاسيما التى يقال لها « هيكان » ازدادت جرأة وأخذت تبث حركة العصيان فى الاناضول فاشتعلت الفتنة فى سيواس ، وأنقرة ، وقونية ، وأطنة وقبضت الدولة على المشاغبين ، وأخذت بمحاكمتهم ، وأكبر الناس ـ حتى عقلاء الأرمن أنفسهم ـ هذه الحركات وأصدر البطريرك عشقيان افندى منشوراً ينصح فيه أمته بالاخلاد إلى السكون وتجنب هذه الحركات المخالفة للأمانة للدولة ، ولمصلحة الأرمن أنفسهم . فما مضى على ذلك أيام قلائل حتى أطلق أحد المنسوبين إلى هذه

الجمعيات الرصاص على البطريرك وهو فى كنيسة قوم قبو ، ولكنه أخطأه ، فأخذت الحكومة العثمانية تشدد فى معاقبة ثوار الأرمن .

وفى أثناء ذلك نجمت بوادر الثورة فى جبل يقال له «جبل ساسون» من سنجق موش ، فى ولاية بِتِلس . وذلك بأن أهالى هذا الجبل كانوا امتنعوا عن تأدية الضرائب ، فأبرق والى بتلس إلى الباب العالى عن عصيان أهالى هذا الجبل ، ووجوب تأديبهم . فأرسلت الدولة المشير زكى باشا بقوة من المشاة والخيل والمدفعية فدمروا ديار العصاة ، وجعلوا عاليها سافلها . فما وصلت أخبار إيذاب الدولة لعصاة الأرمن إلى صحف أوربا حتى قامت قيامتها ، وأخذت تتكلم عن مذابح الأرمن كما هى عادتها كلما ثار ثائر أمة مسيحية على حكومة إسلامية .

وما زالت الصحف الأوربية تضرب على هذا الوتر حتى أمر السلطان عبد الحميد بارسال لجنة تحقيق إلى محل الواقعة ، ودعا الدول التى هنّ موقعات على معاهدة برلين أن ترسل معتمدين من قبلها مع اللجنة المذكورة ليشهدوا سير التحقيق ، فجرى التحقيق بحضورهم وثبت عصيان الأرمن بشهادات تفوق الاحصاء وأدلة لا تقبل المراء ومع ذلك فقد بقى قناصل الدول فرنسا وانكلترة والروسيا يدّعون أنهم لم يقدروا أن يتصلوا تمام الاتصال بالأهالى حتى يطلعوا على الحقائق . ثم عند ما وجدوا كون هذا العذر واهياً جعلوا يقولون إنه على فرض وقوع عصيان فلم يكن من العدل أن يتناول العقاب جميع أهالى الناحية والحال أنه قد بطش الأكراد بالأرمن الذين ثاروا على الدولة وذلك بمرأى ومسمع من العساكر العثمانية ، وأخذت الصحف الأوربية تحت تأثير الكنائس لاسيما فى انكلترة تستفز الدول إلى التدخل لرفع المظالم عن الأرمن ولما كانت انكلترة تسمع كثيرا لرؤساء الكنائس فى بلادها سعت لدى الدول فى التدخل بهذه المسألة فأجابتها فرنسا والروسيا ، واتفقت الدول الثلاث على تقديم اقتراحات للسلطان لأجل إصلاح الادارة فى البلاد التى كان الأوربيون يطلقون عليها اسم « أرمينية » وهى فى الحقيقة بلاد الأكراد .

فمن جملة هذه الاقتراحات تعيين مفتش عام لتلك الولايات ، وتشكيل لجنة

مختلطة دائمة لمراقبة سير الاصلاحات ، ويكون مركز اللجنة فى الأستانة . فرفض السلطان قبول تشكيل هذه اللجنة الدائمة المختلطة ، وعيّن المشير شاكر باشا مفتشاً عاما لولايات شرق الأناضول ، فرفضت الدول تعيين هذا المفتش ، وأصرّت على تعيين مراقبين أور بيين وجرى بينها و بين السلطان كثير من الأخذ والرد ، والسلطان ثابت لايتزعزع . فخطب اللورد ساليسبورى فى مجلس اللوردية خطابا أنذر به السلطان بسوء المصير إذا لم يقبل نصائح الدول ، فاشتد بذلك عزم ثوّار الأرمن وقاموا بمظاهرة عظيمة بحجة أنهم يطالبون بتنفيذ الاصلاحات الموعودة ، فعند ذلك هجم عوام المسلمين على الأرمن فى نفس العاصمة وذبحوا منهم عدداً كبيراً ، لأنهم رأوا الأرمن يتعمدون إثارة الفتنة سبيلا لادخال الدول الأوربية فى أمور السلطنة الداخلية . وهذا ما كان يقصده الأرمن فعلا ، وكان يعتقدون أن فى ذبحهم فائدة لأنفسهم فى المستقبل

فلما وقع هذا الانتقام من الأرمن ؛ واتهم الأجانب رجال الشرطة وناظم باشا ناظر الضبطية بأنهم أغضوا النظر على ذبح الارمن ، وأنهم كانوا يقدرون على منع الشر فلم يمنعوه ؛ أبعد السلطان ناظم باشا عن الاستانة وجعله والياً على بيروت، وعزل سعيد باشا الصدر الاعظم وجعل مكانه كامل باشا . ثم أصدر خطاً سلطانياً يتضمن قبول اقتراح الدول وتشكيل مجلس مراقبة لسير الاصلاحات ، ولكن خبر ثورة الأرمن والمذبحة التى حلّت بهم كان انتشر فى ولايات الاناضول وامتلأت صدور المسلمين غيظاً منهم .

وكان للأرمن حينئذ بطر يرك إسمه إزميرليان عقد الأرمن به جميع آمالهم ، وكانوا يبالغون فى مدح مناقبه لأنه كان يقوى عزائمهم ، و يجدد روحهم القومية ، فازدادت حركتهم نمواً . ولما كان الأرمن غير مقتصرين فى حركتهم هذه على البلاد العثمانية بل كانت هذه الحركة ممتدة إلى بلاد القوقاس ، فقد تنكر لها رجال الدولة الروسية أيضا ، وسعوا لدى الباب العالى فى استبدال بطر يرك آخر بالبطر يرك إزميرليان الذى كانت الروسيا ترى فيه مصدر هذه الحركات ، فانه كان يعارض فى الغاء التعليم الأرمنى فى القوقاس ، والروسيا تأبى إلا التعلم الروسى وحده ، ولما كان طلب الروسيا موافقاً

لهوى تركيا ، فقد حملت الدولة العثمانية هذا البطرك على الاستقالة فاستعفى فى ٢ أغسطس سنة ١٨٩٦ وعين مكانه بطريركا برلتماوس مطران بروسه ، فبلغ الأرمن من الحنق لهذا التبديل أن أجمعت جمعياتهم الثورية الهجوم على القصر السلطانى ، ووزعوا الاسلحة سرًّا على كثير من أعضاء الجمعيات ، وعينوا عيد الجلوس موعداً لهذه الحملة إذ يكون الشعب التركى غافلا منصرفا إلى إعداد الزينة بعيد السلطان . فوصل الخبر إلى السلطان بواسطة البطريرك برلتماوس نفسه ، ويقال إن الحكومة الروسية هى نفسها أبلغت السلطان خبر هذه المؤامرة لأنها كانت تكره جمعيات الأرمن الثورية وتعلم اتصالهم بحزب النيهيلست الذين كانوا اغتالوا القيصر اسكندر الثانى : فأخذ السلطان حذره وتهيأت الضابطة للتنكيل بثوار الأرمن . وفى ٢٦ أغسطس سنة ١٨٩٦ دخلت عصابة من الأرمن إلى البنك العثمانى بغتة ومعهم أكياس ملأى بقنابر الديناميت ، وقتلوا الجند المحافظ على البنك ، وقصدوا الاستيلاء على خزانة البنك فجاء الجند وأحاطوا بهم من الخارج وصاروا يطلقون النار عليهم وهم يقابلون الجند بالمثل ، وشاع فى الاستانة أن ثوار الأرمن حاولوا نسف البنك العثمانى ، فهاج الشعب التركى وصاروا يقتلون الأرمن أينما ثقفوهم ، فحصلت مذبحة استمرت ثلاثة أو أربعة أيام فقتل منهم ألوف ، وكان سيقتل أضعاف ذلك لولا أن كثيرين من المسلمين حموا كثيرين من الارمن وآووهم فى بيوتهم ، وكان كثير من أئمة المساجد ومن رجال الدين ينهون العامة عن أن يمسوا الأرمن بسوء ، وكذلك كثير من رجال الدولة وقوا الأرمن في الحارات التى تجاور بيوتهم . وامتاز بين هؤلاء المشير فؤاد باشا الجركسى .

فأما العصابة التى دخلت إلى البنك فقد أخرجوها تحت ضمان سفراء الدول وأبعدوها من الأستانة ، بعد أن كانت هذه العصابة هى سبب ذبح عدة آلاف من الأرمن ربما كان كثير منهم أو أكثرهم أبرياء .

وكانت جزيرة كريت ــ أو إقريطش ــ قد أخذت تتحرك وذلك لاختلاف وقع بين أهالى الجزيرة وبين الدولة ، وكانت الثورة فى كريت خُلُقاً متأصلا فى أهل هذه الجزيرة ، ويقال إنهم مفطورون على القلق والشغب وقد كانوا كذلك في القديم قبل

الدولة العثمانية بل قبل الدولة الرومانية نفسها ، وفى هذه الجزيرة حل ثوار قرطبة الذين بطش بهم الحكم الأموى أمير الأندلس فى وقعة الربض المشهورة ، فجلا منهم طائفة إلى فاس ، وسارت طائفة أخرى بضعة عشر الف نسمة إلى الشرق فنزلوا فى الاسكندرية وثاروا فيها على الدولة العباسية ، فقاتلهم عمال مصر من قبل بنى العباس وأخرجوهم من مصر إلى جزيرة إقريطش قائلين لهم ليتبوأوا منها مايشاؤن . فذهبوا ونزلوا بهذه الجزيرة ، وأسسوا لأنفسهم إمارة مستقلة فى جانب من إقريطش تحت رئاسة عبد العزيز بن شعيب البلوطى ، واستمرت هذه الامارة على استقلالها أكثر من مائة سنة . ثم أرسل عليهم الروم من بيزانطية جيشاً حصرهم حتى استسلموا وأخذ أميرهم أسيراً إلى القسطنطينية ، وشرّدهم من تلك الجزيرة ، ومن بقى منهم فيها تنصروا .

ويقال إنه لا يزال فى كريت قرى معروفة يقال إن أصل أهلها من العرب وسحناؤهم تدل على ذلك ، ولا تزال عندهم عادات عربية محفوظة إلى اليوم . وقد ذكرنا فى ما سبق كيفية فتح الدولة لكريت وأنها آخر فتوحات الدولة العثمانية وأنها بقيت تقاتل كريت سبعاً وعشرين سنة إلى أن دوّختها . وفى سنة ١٧٦٦ عصت هذه الجزيرة الدولة ثم ساقت الدولة عليها عسكراً أدخلها فى الطاعة ، وسنة ١٨٧٨ ثارت مرة ثانية فاتفقت الدولة مع أهلها على دستور خاص بهم وعيّنت لهم والياً مدته بحسب هذا الدستور خمس سنوات ، وتقرر أنه إذا كان الوالى مسلماً يكون له معاون مسيحى ، واذا كان مسيحياً يكون له معاون مسلم . وكذلك المتصرفون إذا كان المتصرف مسلماً كان المعاون مسيحياً ، وبالعكس . وكانت نواحى الجزيرة ٨٨ ناحية منها ٥١ مختلطة أى مسلمين ونصارى ، و٣٤ مأهولة بمسيحيين فقط ، وثلاث نواح ليس فيها غير مسلمين . وكان للجزيرة مجلس تشريعى يجتمع مدة أربعين يوماً فى السنة ، وعدد أعضائه ٨٠ منهم ٤٩ مسيحيون و٣١ مسلمون ، ولا يتقرر شىء إلا بثلثى الاصوات . ففى سنة ١٨٨١ طلب المسيحيون تعديل هذا الدستور بحجة أنه مجحف بحقوقهم ، وأن التمثيل فى المجلس غير متناسب مع عدد السكان ، فاذا كان أعضاء المسيحيين فيه ٥٠ وجب أن لا يزيد المسلمون على ٢٥ ، والحال أن الدولة جعلتهم ٣١

ولا شك فى أن الدولة كانت تعلم من استعداد أهل كريت للانفصال عنها ماجعلها تحتاط لمستقبل الحكم العثمانى فيها ، وتراعى الأقلية الاسلامية . ومع ذلك فمسلمو كريت كانوا لا يقلون عن ثلث السكان ، وكان بينهم عدد غير قليل من عرب برقة وجماعات وافرة من مهاجرى بوسنه والهرسك والبلغار المسلمين . ثم إن المسيحيين فى كريت اختلفوا مع الدولة من أجل الموازنة المالية لادارة الجزيرة ، واشتد الخصام فى سنة ١٨٨٧ فأرسل السلطان عبد الحميد المشير شاكر باشا لأجل إصلاح الأحوال فوجد أنه لا مناص من استعمال القوة ، فان المسيحيين خرجوا عن الطاعة وأبوا دفع الضرائب ، وصاروا يعتدون على المسلمين فى القرى التى أكثرها مسيحيون ؛ وصار المسلمون يرحلون من القرى إلى المدن لأنهم فى المدن كانوا هم الأكثريّة . فساق شاكر باشا القوى العسكرية على عصائب الأروام فشتت شملها ، وأخلد الجميع إلى السكون برغم أنه كان لكريت جمعية فى أثينا ترسل إلى كريت متطوعين وأسلحة فلما رأى اليونان أن الدولة العثمانية قهرت ثوار كريت هاجوا وطلبوا من حكومتهم إرسال الاسطول اليونانى إلى مراسى كريت بحجة حماية المسيحيين ، حيث كان الاتراك بطشوا بالأروام فى مدينتى « خانية » و « قندية » فلما رأت الدول استفحال الخطب أرسلن إلى مرسى « سودا » سفنا حربية فأنزلت عساكر فى الجزيرة وذلك فى ٣ فبراير سنة ١٨٩٧ ولم تشترك ألمانيا ولا النمسا فى هذه الحركة ، وإنما كانت الدول اللواتى تولينها انكلترة ، وفرنسا ، والروسيا ، وإيطاليا . فبدلا من أن الأروام يسكنون إلى عمل الدول هذا ؛ كان منهم أن أرسلوا فى ١٠ فبراير الكولونيل فاسوس ومعه عدة توابير من الجند المنظم ، وجماعة من المتطوعين ، فساروا بالأسطول اليونانى ونزلوا بقرب خانية ، وأنذرتهم الدول حتى يرجعوا ، وألقت عليهم النار من سفنها فابتعدوا إلى داخل الجزيرة ، وأعلنوا الحاق كريت بمملكة اليونان .

فعند ذلك أعلنت الدولة الحرب على اليونان ، وزحف المشير أدهم باشا بمائة وخمسين الف جندى على اليونان ، فما انقضت مدة شهرين حتى تمزق الجيش اليونانى كل ممزق ، ولولا أن أبرق قيصر الروسيا إلى السلطان عبدالحميد يرجوه العفو عن اليونان

والتوقف عن متابعة الحرب ؛ لـكان الأتراك دخلوا أثينا واستولوا على اليونان كلها . فلم يسع السلطان إلا إجابة رجاء القيصر ، وانعقد مؤتمر الصلح ؛ و بعـد مذاكرات طويلة تقررت إعادة الجيوش العثمانية من بلاد اليونان كما دخلت بدون أن تجنى الدولة العثمانية أدنى ثمرة من انتصارها عملا بالقاعدة الأوربية ؛ إن ما يؤخـذ من الهلال للصليب لا يعاد ، و إن ما يؤخذ من الصليب إلى الهلال لا بد من إعادته . . . فـكل نتيجة تلك الحرب كانت تصحيح بعض الحدود بين تركيا واليونان ، بحيث أن جميع ما استردت الدولة من تساليا كان عبارة عن قريتين ، ولـكن أجبرت الدول اليونان المغلوبة على دفع غرامة حربية أربعة ملايين جنيه كلفة الحملة العثمانية . على أن الدولة استفادت فائدة أدبية لا تنكر بهذه الحرب ، لأنهـا كادت في مدة شهرين لا غير تستولى على بلاد اليونان كلها ؛ واجتاز الجيش العثمانى جبالا يحار العقل كيف اجتازها بهذه السرعة ! ! ومن ذلك الوقت خمدت الحركة الأرمنية ، واستراحت الدولة مدة سنوات من مشكلات الأرمن ، ووقفت الدول عن مطالبتها بتنفيـذ برنامج المطالب الأرمنية .

فأما فى جزيرة كريت فـكان النصارى قد طردوا المسلمين من جميع القرى واقتلعوا أشجارهم ودمروا بيوتهم ، فالتجأ المسلمون إلى المدن واشتدت العداوة بين الفريقين ، فهجم الـكريتيون المسلمون ومعهم جماعة من عرب بنغازى على حارة النصارى فى قندية فأحرقوها ، و بطشوا بالمسيحيين ، وحصل مثل ذلك فى خانية حاضرة الجزيرة ، فتعصبت الدول وأنذرت الدولة بأن تخرج عساكرها من كريت أو تعلن هى استقلال الجزيرة ، وهي و إن لم تفعل ذلك دفعة واحدة فقد كانت تريد أن تصل إلى هذه الغاية تدريجاً ، فأتت بالبرنس جورج ابن ملك اليونان وجعلته والياً للجزيرة ، و بقيت هذه الحالة إلى أن انتهت الحرب البلقانية فى زمن السلطان محمد رشاد . فتقرر ضم كريت إلى اليونان ، وعانى المسلمون فى كريت شدائد كثيرة وهاجر منهم قسم كبير إلى بلاد الدولة العثمانية ، ومنهم جماعات وصلوا إلى دمشق ولهم حارة فى جبل الصالحية ، ومنهم جماعات تفرقوا فى سائر الاقطار . وأناس ذهبوا إلى

الاسكندرية ، وكانت الدولة أسكنت منهم جماعة فى الجبل الاخضر من برقة ولكن مهاجرتهم الكبرى وقعت بعد الحرب العامة ، وانعقاد مؤتمر لوزان سنة ١٩٢٣ وفيه تقررت مبادلة السكان ، فأخرجوا جميع المسلمين الذين فى الروماللى ، أى فى البلاد اليونانية من أوربا وفى الجزر وكريت من الجملة ، وقرروا إسكانهم فى تركيا ، و بمقابلة ذلك أخرجوا جميع الاروام الذين فى بلاد الأناضول بدون استثناء ، فلم يبق فى تركيا رومى واحد إلا من كان غريباً ، ولم يبق فى بلاد اليونان مسلم واحد إلا عابر سبيل وقد حصلت مبادلة الأملاك والأراضى أيضاً ، و إنما وقع استثناء للأروام الذين فى الأستانة ، فان مؤتمر الدول فى لوزان لم يشأ إخلاء القسطنطينية عاصمة الروم القديمة من المسيحيين ، فأبقوا فيها الأروام الذين لم يهاجروا من تلقاء أنفسهم ، وهم مائة وخمسون ألف نسمة وأبقوا فى مقابلة ذلك الاتراك الذين فى ولاية تراقية الغربية ، أى الولاية التى إلى الغرب من ولاية أدرنة ، وذلك لأن الأتراك المذكورين هم أكثرية هذه الولاية ، ولم تكن لهم رغبة فى المهاجرة .

وأما فى جزيرة كريت ، فلم يبق مسلم واحد ، ولا فى سائر جزر الأرخبيل الرومى ماعدا رودوس وأخواتها التى احتلتها إيطاليا فى أثناء حرب طرابلس الغرب ، ثم استلحقتها نهائياً ، فهذه الجزر لم تتبع قاعدة تبادل السكان لكونها خرجت من ملك تركيا واليونان معاً ، فلا يزال عشرة آلاف من المسلمين فى جزيرة رودوس ، و بضعة آلاف فى سائر الجزر العشر « dédocanaire » وذلك تحت حكم ايطاليا . وانطوى بساط كريت كما انطوى بساط الاندلس بعد أن ملكها المسلمون ثلاث مرات : الأولى فى زمن بنى أمية فى دمشق ، والثانية عند ما احتلها ثوار قرطبة تحت إمارة عبدالعزيز ابن شعيب ، والثالثة فى أيام الدولة العثمانية ، والله يرث الأرض ومن عليها .

وقد عرفت من أعيان كريت المسلمين رجلين ؛ أحدهما أحمد نسيمى بك ناظر الخارجية العثمانية فى أيام الحرب ، وهو من أعز إخوانى ، وأمثل من عرفت فى حياتى وأحسنهم أخلاقا ، فضلا عن ذكائه وسعة اطلاعه ، وكان يحدثنى عن كريت الأحاديث والآخر فاضل بك أحد أعيان المسلمين فى قندية ، وقد كنت أسأله مرة عما يقال من

حسن جزيرة كريت وزكاء تربتها ، ولذة فواكهها وطيب نجمتها فقال لى : جميع ماتسمعه من هذا القبيل عن كريت هو الواقع ، وربما أقل من الواقع ، ولكن لايوجد فى الدنيا أكثر شرًّا من أهلها . وفنزيلوس الوزير اليونانى المشهور كان من زعماء ثوار كريت على الدولة العثمانية ، ولما صار وزيراً للدولة اليونانية كان هو العامل مع دول الحلفاء فى خلع قسطنطين ملك اليونان كما لا يخفى وفى أخريات هذه الايام ترأس ثورة على الحكومة اليونانية وهو قد بلغ من الكبر عتيا .

وفى زمن السلطان عبد الحميد ساءت الاحوال فى مكدونية ، لأن السلطان كان أكثر همه فى المحافظة على شخصه ، وكان شديد التخيل إلى درجة الوسواس . فاستكثر من الجواسيس ، وصار بأيديهم تقريباً الحل والعقد ، وليس من الصحيح أن السلطان كان يعمل بموجب تقاريرهم كما هو شائع ، بل كان يرمى أكثرها ولا يصدق مافيها ، ولكن اهتمامه بقضية أخبار الجواسيس ألقى الخوف فى قلوب الرعية وصارت فى قلق دائم وأصبحت الناس تبالغ فى الروايات عن الجواسيس فساءت سمعة الحكومة ، وسخط الرأى العام على هذه الحالة ، وبرغم ما كان السلطان يعفو ويصفح ، ويجود ويمنح ، كانت سمعته بعكس ما كان يفعل . وذلك بسبب كثرة الجواسيس وحصولهم على الحظوة عنده ، فصار الناس يعللون جميع خطوب المملكة بسوء الادارة ، ويعللون سوء الادارة بانتشار الجواسيس وفقد الحرية . وهذا وإن كان صحيحاً إلى حد محدود ، فليس بصحيح على إطلاقه ؛ لأن خطوب المملكة كانت لها أسباب داخلية وخارجية ، لاتذكر قضية الجواسيس فى جوانبها شيئا . فأما العوامل الداخلية فهى انحطاط درجة التعليم عما يجب أن تكون ، واستيلاء الجهل ، وانقسام سكان المملكة إلى أقوام شتى كل منها له هدف غير هدف الآخر ، ومنها ماهو عدو عامل لا يرضيه إلا زوال الدوله العثمانية . ثم ما وقر فى صدور الناس أجمعين من قرب أجل هذه الدولة فصارت أشبه بالمريض الذى انقطع الأمل من شفائه .

فأما العوامل الخارجية فهى مطامع الدول الاوربية فى أجزاء هذه السلطنة

كل دوله منهن تحب أن ترث شقصا من هذه التركة فهى تدس الدسائس فى البلاد التى هى مطمح نظرها حتى تتوصل منها إلى مأربها

ولو كان سهم واحد لاتقيته ولكنه سهم وثان وثالث

بل كانت الأسهم التى تتلقاها الدولة العثمانية مما لا يعد ولا يحصى ، ولكن المسلمين فى السلطنة نظراً لمعرفتهم أن هذه الدولة هى ملجؤهم الوحيد ؛ كانوا لا يريدون أن يعتقدوا زوالها ، فكانوا يتأوهون من جهة لحالتها هذه ، ويجتهدون من أخرى فى إصلاحها ، و يظنون أن الاصلاح ليس بالمستحيل ، وأن فى استطاعة الدولة أن تنهض وتسترجع مكانها السابق ، وذلك إذا كان السلطان يقلع عن سياسته الخاصة وعن حصر الأمور فى يده ، و يترك الاهتمام بالجواسيس ، و يطبق على المملكة القانون الأساسى الذى كان بدأ به فى أول سلطنته ثم عطله تعطيلا مؤقتاً ، فاستمر هذا التعطيل ثلاثين سنة . وكان الشبان على الخصوص يعتقدون أن لا نجاة للمملكة من السقوط إلاَّ باعادة الدستور ، وانتخاب مجلس الأمة ؛ وكان لذلك العهد كثير من رجالات الأتراك المتشبعين بمبادىء الحرية قد هجروا بلادهم وأقاموا بباريز وصاروا ينشرون نشرات ينتقدون فيها الحكم الحميدى ، و يبثون روح الثورة بين الناشئة ، فكان السلطان يجتهد فى إسكات هذه الفئة التى كانت تشوّه سمعته فى العالم الأوربى ، وكثيراً ما كان يتمكن من إرضاء أناس من هؤلاء الشبان بتقليدهم مناصب عالية ، أو بإغداق النعم والعطايا عليهم ، ولكن بقى هناك من هذه الفئة من كانوا لا يبيعون من السلطان سكوتهم ، بل ابثوا يرفضون جميع ما يعرض عليهم من أموال أو مناصب . وكان فى طليعة هؤلاء أحمد رضا بك المقيم بباريز ، والذى كان يصدر جريده حرّة باسم « مشورت » تدخل إلى البلاد العثمانية سرّاً ، والدكتور ناظم الذى كان من أركان جمعية الاتحاد والترقى – وشنقة مصطفى كمال من عهد قريب — وغيرهما .

ولما كانت الجمعيات الأرمنية بطبيعة الحالة تميل إلى إسقاط السلطان عبد الحميد مدت أيديها إلى هؤلاء الاتراك الذين كانوا قد هجروا أوطانهم إلى أوربا ، وشرعوا

فى التحريك لأجل إعلان الحكم الشورى فى تركيا . وكان بعض المسيحيين من سورية مشتركين أيضا فى هذه الحركة ، وكل فئة من هذه الفئات كانت لها أغراض غير أغراض الأخرى في الحقيقة ، ولكنها كانت تجتمع في نقطة واحدة وهى ؛ مقاومة السلطان ، والعمل لاسقاطه ، وأخيراً انتدب بعض شبان الأتراك وألفوا جمعية سرية فى سلانيك ، وسموها « جمعية الاتحاد والترقى » وأخذوا يجتذبون إلى جمعيتهم كل الوطنيين المخلصين الذين قدروا على اجتذابهم برغم شدة المراقبة ، حتى أن بعض المستخدمين فى الحكومة انضموا إلى هذه الجمعية ، وكانوا يجتمعون فى المحافل الماسونية حتى يتقوا الشبهة فيهم . وكان معظم اجتهاد هذه الجمعية السرية متوجها إلى استجلاب الجيش حتى تصير فى أيديهم القوة اللازمة لخلع السلطان ، وتوفقت هذه الجمعية إلى استجلاب عدد كبير من الضباط ، ولما كان عصائب البلغار واليونان يعملون بدون انقطاع فى بلاد الروملى ، وكانت الدولة تسوق عليهم العساكر لأجل تطهير بلاد الروملى منهم ، وكانوا يعملون فى جوار سلانيك ؛ تسنى لرجال الاتحاد والترقى أن يتصلوا بضباط الجيش ، وأن يقنعوهم بأن هذه العصائب البلغارية واليونانية إنما تشاغب وتعثوا فى الأرض لأجل الحصول على إدارة حسنة يستريح فى ظلها السكان وهذه الادارة غير ممكنة ما دام السلطان عبد الحميد على عرش السلطنة فأما إذا أمكن خلعه ، وجعل الحكم فى السلطنة دستورياً شورياً كما هو فى سائر الممالك المتمدنة فان جميع هذه المشاغبات تنتهى من نفسها ، وتخلد جميع الأقوام إلى السكينة وهكذا تنجو السلطنة العثمانية من خطر السقوط المحدق بها . فشرب أكثر الضباط هذه المبادىء التى ليس بعجب أن تقبلها عقولهم ، لأن المسيحيين من أروام ، و بلغار ، وسربيين كانوا يدّعون أنهم لا يلجأون إلى الثورة إلاّ من سوء الادارة وأنه إذا اصطلحت الادارة فهذه تكون غاية أمانيهم ، و يدخلون فى الطاعة .

ولم يكن هذا الادعاء صحيحاً بل حقيقة الحال أنه سواء اصطلحت الادارة العثمانية أم لم تصطلح فالبلغار إنما يجتهدون في ضم البلاد المأهولة بالبلغار إلى مملكتهم ، واليونان إنما يسعون فى ضم البلاد التى أكثرها منهم إلى مملكتهم ،ولن يرضوا بالبقاء تحت حكم

الأتراك ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا . ولكن شبان الأتراك منهم من آمن بأقوال العصائب اليونانية والبلغارية ، ومنهم من لم يكن يؤمن بها لكنه كان يجد أن طريق النجاة لن تكون إلا باعادة الدستور ، وجعل الحكم فى السلطنة للشورى كما هو فى سائر البلاد .

و بلغ السلطان سريان هذه الحركة إلى الجيش المرابط فى الروملى ، فراعه الأمر وأرسل لجنة تحت رئاسة القائد إسماعيل ماهر باشا لأجل الفحص عن هذه الحركة فرجعت هذه اللجنة وقررت للسلطان أن أكثر الضباط دخلوا فى جمعية الاتحاد والترقى ، وأن الخطب عظيم ، وأن الخرق اتسع على الراقع ، وكان حسين حلمى باشا مفتشاً عاماً لولايات الروملى ، فكتب هو أيضاً إلى السلطان يعظّم من شأن حركة الجيش ، ويشير على السلطان باعلان الدستور . وفى أثناء ذلك ذهب أنور بك وعصى بشرذمة من الجند فى جوار سلانيك ، كما أن نيازى بك استولى على مدينة مَنَسْتر وكاد يعلن فيها الدستور ، ولما بلغ جمعية الاتحاد والترقى ماقام به أنور ونيازى من العصيان اشتدت عزيمتهم ، واجتمعوا حول منزل حسين حلمى باشا وطلبوا إعلان الدستور ، وأصبحت سلانيك فى أيديهم . ولما وصل الخبر إلى السلطان استشار الصدر الأعظم وكان الصدر يومئذ فريد باشا الأرناؤوطى ، فأشار إليه باعلان الدستور ، وذلك تسكيناً للفتنة ، وكذلك جمال الدين افندى شيخ الاسلام أبدى له ضرورة هذا الاعلان ، وكان أحمد عزّت باشا الدمشقى مستشاراً للسلطان — كما لايخفى — وهو المطلع على ماجريات هذا الخطب ؛ قد عارض فى إعلان الدستور بكل قوته ، ولكن الوزراء خالفوه ، وهو نفسه الذى قال لكاتب هذه السطور عند ما اجتمعت به بعد الحرب العامة هنا فى جنيف : بأن الذى أثّر فى السلطان بالدرجة الأولى حتى أعلن الدستور هو جمال الدين افندى شيخ الاسلام . أما كوچك سعيد باشا . ففى أول الأمر نصح للسلطان بالثبات ، و بقمع هذه الحركه بالقوة ، إلاّ أنه بعد ذلك جاءت الأخبار بأن الفيلق الثانى الذى مركزه أدرنة انضم إلى جمعية الاتحاد

والترقى ، فوقع الرعب فى قلوب الوزراء جميعاً ، وعادوا فأشاروا على السلطان باعلان الدستور اتقاء لشرّ أعظم ! ! والحقيقة أن القوة التى فى يد جمعية الاتحاد والترقى كانت ضئيلة ، وكان الجيش أكثره طائعاً للسلطان ، ولكن قوة الجمعية كانت معنوية ، والأمة – حتى فى نفس قصر يلدز – أصبحت تعتقد أن لانجاة للدولة إلا باعلان الدستور ، وعقد مجلس الأمة .

والخلاصة أن السلطان عبد الحميد أعلن القانون الأساسى ، وأمر بانتخاب المبعوثين ، وتعين كوجك سعيد باشا رئيساً للوزارة الجديدة . فأراد سعيد باشا إعطاء السلطان بعض حقوق فى تعيين الوزراء خلافاً للقانون الأساسى ، فوقع بسبب ذلك خلف بين الوزراء أدّى إلى استعفاء الوزارة ، فانتدب السلطان للصدارة كامل باشا وتألفت وزارة جديدة فيها رجال أماثل مثل رجب باشا الأرناؤوطى ناظر الحربية وحسن فهمى باشا ناظر العدلية ، وغيرهما . ولكن وزارة كامل باشا هذه شاهدت حوادث ذات بال ، مثل إعلان بلغاريا استقلالها التام ، ومثل أن دولة النمسا أعلنت استلحاق ولايتى البوسنة والهرسك ، ومثل أن الأروام أعلنوا إلحاق جزيرة كريت باليونان ، وكان إعلان البلغار لاستقلالهم بموجب كتاب من أميرهم فرديناند إلى السلطان عبد الحميد فى ٥ اكتوبر سنة ١٩٠٨ فأرسلت الدولة جواباً للحكومة البلغارية بأنها لاتستطيع الاعتراف بعمل مخالف لمعاهدة برلين ، وكتبت إلى الدول تدعوهن إلى عقد مؤتمر لأجل النظر فى ما أقدمت عليه بلغاريا من خرق هذه المعاهدة وكذلك احتجّت الدولة على استلحاق النمسا والمجر لبوسنه والهرسك برغم كون النمسا والمجر اجتهدتا فى استعطاف الدولة العثمانية ، وعرضتا عليها تعويضات مالية وردّتا لها (سنجق نوفيبازار) من أصل بوسنة .

وفى أثناء ذلك وقع الخلاف بين جمعية الاتحاد والترقى وبين وزارة كامل باشا على مسائل داخلية لأن الجمعية كانت هى سبب إعلان الحرية ، فكانت تريد بطبيعة الحال أن تسيطر على الحكومة ، ولم يكن هذا الأمر ليحصل بدون اصطدام آراء مفض إلى النزاع ، وكانت الأمة مشغولة بانتخاب المبعوثين ، ولم تكن الآراء

متفقة فى قضايا الانتخابات مما يحصل فى كل مملكة ، فانتهى الأمر بسقوط كامل باشا وكان مجلس الأمة قد انعقد وحضر السلطان عبد الحميد افتتاحه ، وأقسم يمين الأمانة للدستور ، ولكن لم يكد المجلس ينعقد حتى وقع الشقاق بين المبعوثين ، فمنهم مبعوثوا جمعية الاتحاد والترقى ومبدؤهم كان المركزية التامة ، أى حصر كل الادارة فى مركز الدولة ، و بناء الاصلاحات كلها على هذا الأساس ، ومن البديهى أن مبدأ كهذا سيُعطى السيادة للعنصر التركى الذى له المقام الأول فى السلطنة ، فلهذا كان العرب والأرناؤوط والأروام والأرمن ضد هذا المبدأ ، لأنه يُجحف بحقوقهم ، فتألف من هؤلاء حزب تسمى بحزب « الأحرار » انضم اليهم أيضاً كثير من الأتراك المناوئين لجمعية الاتحاد والترقى ، ففى مسألة كامل باشا وقع الخلاف بين الحزبين ، وتغلّب الاتحاديون على خصومهم ، وهكذا سقط كامل باشا وجاء مكانه حسين حلمى باشا ففى مدة هذا الصدر تسوّت بين تركيا والنمسا قضية بوسنة والهرسك ، وذلك بدون عقد مؤتمر دولى . لأن الأتراك كانوا يخشون من عقد المؤتمر الدولى فتح أبواب جديدة عليهم فاسترجعت الدولة سنجق نوڤيبازار ، واستأدت مليونين ونصف مليون جنيه بدلا عن الأراضى العائدة فى بوسنة للدولة خاصة ، وتقرر بقاء التشكيلات الدينية الاسلامية فى البوسنة والهرسك مربوطة بالدولة العثمانية ، كما كانت فى السابق وعقدت الدولة مع النمسا معاهدة تجارية ، ثم رجعت إلى مسألة البلغار فبعد أخذ ورد طويلين وحل مشكلات مالية يطول شرحها انتهى الخلاف وانعقدت المعاهدة فى ١٩ ابريل سنة ١٩٠٩ وفى هذه المعاهدة كل ما يضمن حقوق المسلمين وأوقافهم ومؤسساتهم الدينية فى مملكة البلغار ، فاستراح بال الدولة من جهة هاتين المشكلتين قضية استقلال البلغار التام ، وقضية استلحاق بوسنه والهرسك بالنمسا .

ولكن ثار تنُّور الخصام فى وسط السلطنة ، وتعددت الأحزاب ، و بسبب إعلان الحرية أظهر كلٌّ ما فى نفسه ، و بدلا من أن يكون هذا القانون الأساسى سبباً للانضمام وللسير على قاعدة (و إن هذه أمتكم أمة واحدة) وليس امتياز فيها لفريق على فريق ؛ كانت عاقبة هذا النظام الجديد أن كل أمة من الأمم الكثيرة التى

تتألف منها السلطنة العثمانية أخذت تحاول الانفصال عن السلطنة نفسها بالطرق الممكنة وغير الممكنة ، وجاءت هذه الحالة عذراً للسلطان عبدالحميد الذى كان يدعى أنه إنما أخَّر إعلان الدستور وجمع مجلس الأمة خوفاً من تفكك أجزاء السلطنة وفراراً من صدع الوحدة العثمانية لأنه فى ظل الحرية لا يمكن منع النزعات القومية التى هى كامنة فى صدور هذه الأمم المختلفة التى لا يجمع بينها سوى رهبة الدولة .

ولكن جمعية الاتحاد والترقى مع حسن نية رجالها كان ينقصها كثير من الخبرة وكان أكثر زعمائها شباناً لم يتمرسوا بالأمور ، ولم تنجّزهم الحادثات ، وقد جاء فوزهم بالقبض على ناصية السلطنة غير منتظر — حتى من أنفسهم — فسكروا بخمرة العزّ واستخفّوا بمن سواهم ، وظنوا أنهم هم قادرون على كل شىء ، والحال أنهم كانوا يواجهون صعاباً ، و يقابلون عقاباً ، لاقبل لهم بها ، فكانت أمامهم — وهى الطامة الكبرى — دسائس الدول الأوربية التى كل واحدة منهن كانت تحرك أهالى البلاد التى تطمح اليها من أجزاء السلطنة ؛ وكان هذا مرضاً مزمنا ، فلا الأجانب كانوا راجعين عن أطماعهم هذه ، ولا الأهالى الذين تعودوا رؤية نفوذ هذه الدول فى بلادهم كانوا عادلين عن الانقياد إلى وساوسهم ، ولأجل وضع سد فى وجه الأجانب كان ينبغى أن تكون الدولة أقوى وأرقى وأسعد حالا ، وأغزر مالا من جميع الدول العظام . ولم تكن هذه الشروط حاصلة فى الدولة العثمانية كما لا يخفى . ثم إن جميع الأمم التى كانت تتألف منها هذه السلطنة كانت أهدافها مختلفة ؛ فالاروام وهم جانب كبير فى المملكة لا ينسون ملكهم القديم ، وفى كل حركاتهم وسكناتهم كان هدفهم الوحيد استئناف الاستيلاء على القسطنطينية وطرد الترك منها إلى آسيا ، والأرمن كان هدفهم الوحيد استئناف ملكهم القديم فى نفس الأناضول ، والبلغار يريدون ضم مكدونية إلى المملكة البلغارية الجديدة ، وهذا من جهة المسيحيين .

فأما من جهة المسلمين فان الجامعة الوحيدة التى كانت تجمع بين الترك والعرب والكرد والأرناؤوط والجركس هى الجامعة الدينية ، ولولاها لكانت هذه السلطنا

تفككت منذ قرون، ولكن سوء الإدارة فى الداخل من جهة ؛ ودسائس الأجانب من الخارج من جهة أخرى ؛ حملا الكثيرين من العرب والأرناؤوط بنوع خاص على النزوع إلى الانفصال عن الدولة برغم الجامعة الدينية ، وقد بدأ ذلك عند الأرناؤوط قبل العرب ، فحاولت الدولة تأديب الثائرين منهم فاستلزم ذلك تجريد جحافل و وقعت معارك دموية ، فازداد الأرناؤوط من الدولة نفوراً . وأما العرب فكانت عندهم غيرة من الترك لأنهم كانوا أكثر من هؤلاء عدداً ، ولم تكن لهم الامتيازات التى للترك ، وكان الترك يزعمون أن العرب غير قائمين بما يجب عليهم تجاه السلطنة حتى يتمتعوا بالمساواة التامة مع الأتراك ، فمن البلاد العربية جانب كبير لايقوم بالخدمة العسكرية الاجبارية ، بل يكلف الدولة سوق عساكر لادخال أهله فى الطاعة ، وهذا النزاع بين العرب والترك لم يكن ينتهى بل كان يزداد بضعف الدولة وقد كان يظهر فى مواقع كثيرة . ولكن كان المانع الوحيد من انفجار بركان الشر بين الفريقين هو الخوف على بيضة الاسلام لاغير ، إلا أن الانكليز تمكنوا قبل الحرب العامة من استجلاب كثير من ناشئة العرب ، منهم مَن استجلبوهم بالمنافع الخاصة ، ومنهم من استجلبوه بطريقة الاقناع ، وأوهموا العرب أنهم إنما يريدون ليجددوا دولة عربية كدولة بنى العباس ، أو دولة بنى أميّة مثلا ، و يساعدوا العرب على تجديد مجدهم القديم ، وعلى عمارة بلادهم التى لم يحسن الترك إدارتها ، ولا عمارتها . فصار بين العرب حزب غير قليل ينزعون إلى الانفصال عن الدولة قلباً وقالباً متوقعين لذلك أول فرصه . ولا يمكن أن يقال إن هذا كان رأى الجمهرة من الأمة العربية ، بل فى الحقيقة كان عقلاء العرب يفقهون أنه إذا وقع الانفصال بين العرب والترك تسقط بلاد العرب تحت حكم الأفرنج ، فلذلك كانوا يختارون البقاء تحت حكم الدولة العثمانية خوفاً من حكم الأجانب ، واختياراً لأهون الشرّين .

نعم لو كانوا على يقين بأن الدول الأوربية تحترم استقلال البلاد العربية ولا تبسط أيديها إليها بالغصب والتقسيم ، لكانوا يرجحون بدون شك الانفصال عن الترك ، والاستقلال بدولة لانفسهم . ولكن عقلاء العرب كانوا لايجهلون مطامع

الدول الأجنبية ، فى بلادهم ولم يكن يخفى عنهم تصميم أوربا على تقسيمها ، وأنه لاعهد للدول المسيحية بازاء المسلمين مهما عاهدت ولم يكن يشذّ من العرب عن هذه العقيدة سوى بعض من لاتجربة لهم ، أو من لاتهمه الجامعة الإسلامية فى كثير ولا قليل . ومنهم من كان الانكليز يستخدمونهم فى بث دعايتهم كأجراء لاغير .

ثم إن الاتحاديين ساعدوا بسوء تصرفهم واستخفافهم بأعدائهم هذه الأمم غير التركية فى السلطنة على أنفسهم ، ودخل في الجمعية الاتحادية عناصر كثيرة مفسدة كرّهت الرعيّة بها . وكان رجال الحكم الجديد قد أقصوا عن وظائف الحكومة أكثر الذين كانوا يشغلونها ، واستبدلوا بهم شباناً من حزبهم ، فآسفوا جمعاً عظيما لهم تأثيراً فى السلطنة ، لأنهم أصابوهم فى أسباب معيشتهم ، فانكسرت خواطر وتراكمت أحقاد ، وتألفت فرقة جديدة من قدماء الرجال الذين كان يقال لهم الرجعيون ، وانتشرت لهم جرائد ، وأعصوصب حولهم كثير من العوام .

ولما كان الاتحاديون يتظاهرون بالتفرنج و يتساهلون بأمور الدين ، و يتكلمون أحياناً بما يخالف الشرع ؛ مال جمهور العلماء وأنصار المبادىء الاسلامية إلى هذا الحزب الذى شرع بمصادمة جمعية الاتحادوالترقى ، وألفوا تحت رئاسة الشيخ «درويش وحدتي » عصبة سموها « الوحدة المحمدية » وأخذ حزب الأحرار يمد يده إلى حزب الرجعيين ليكونا يداً واحدة على حزب الاتحاد والترقى ، فاشتدت المعارضة فى وجه الاتحاديين بينماهم مهملون للاحتياط ، واثقون بأنفسهم ، مستخفون بخصومهم . فاشتدت المناقشات فى الجرائد ، وازدادت العداوة بين الأحزاب ، و إذا بالناس فى ٨ إبريل سنة ١٩٠٩ تسمع أن حسن فهمى بك محرر جريدة « سربستى » قد قتل غيلة على الجسر وهو راجع من بيك أوغلى إلى استانبول ، وكان هذا الكاتب من أكبر أعداء الاتحاد والترقى ، فقيل إن الاتحاديين هم الذين أرسلوا من يغتاله ، وقيل إن الذين اغتالوه هم حزب الرجعيين ، وذلك لأنهم استشاروه فى القضاء على الدستور والرجوع إلى نظام الحكم القديم فأبى أن يسايرهم فى هذه المكيدة ، فخافوا أن يفشى سرهم للحكومة فأرادوا التخلص منه فقتلوه ، فهاجت الخواطر لقتل هذا الكاتب ، وقدّم ستة من

مبعوثى المجلس سؤالا لناظر الداخلية عن هذه الحادثة ، وتفاقم القلق فى الاستانة وكان الرجعيون قد اتصلوا ببعض توابير من الجيش ، واتهم السلطان عبد الحميد بأن له يداً فى الدسيسة رأساً أو بواسطة أنصاره القدماء ، فما شعر الأهالى إلا والعساكر قد ملأت ساحة أيا صوفيا ، وأخذوا ينادون بإسقاط الوزارة ، وعزل أحمد رضا بك رئيس مجلس الأمة ، و يطلبون تسليم على رضا باشا ناظر الحربية ، وأعضاء جمعية الاتحاد والترقى ليقتلوهم ، وكان بعض المشايخ علّموا العسكر أن ينادوا باعادة الشريعة و إلغاء القانون الأساسى حتى يملكوا بذلك قلوب العامة ، وفى ذلك الوقت هجموا على نادى الاتحاد والترقى ، وعلى ادارة جريدة « طنين » وعلى النادى العسكرى وعلى نادى النساء ونهبوها وجعلوا عاليها سافلها ، ثم انقضّ الجنود على ضباطهم فقتلوا منهم ثلاثمائة ، وفر من الضباط عدد كبير من الأستانة ، وتخبأ آخرون فيها . ثم هجم الجند على مجلس المبعوثين ليقتلوا منهم الاتحاديين المعروفين بمكانتهم فى الجمعية ، ولكن كان المبعوثون الاتحاديون قد علموا بالثورة وما يضمره الرجعيون المتستّرون باسم الشريعة من نية قتلهم ، فلم يحضروا إلى المجلس . وحضر الأمير محمد أرسلان رئيس لجنة الأمور الخارجية ومبعوث اللاذقية ، وقيل له فى ذلك اليوم إن ذهابه إلى المجلس خطر على حياته لأنه كان من الاتحاديين المعروفين ، فأبى إلاّ أن يذهب ليقوم بالواجب وكان بلغه أن فى نية الثوار إحداث مذبحة فى الاستانة تحمل الأجانب على التدخل لأجل حماية رعاياهم فتسقط بذلك حكومة الاتحاد والترقى ، فذهب ابن عمنا إلى المجلس ليحمل المبعوثين على مراجعة السلطان شخصياً ليبذل كلمته ونفوذه لأجل تسكين الثورة التى قد تجر و بالا عظيما على السلطنة ، فلما ذهب رحمه الله إلى المجلس لم يجد من نيّف ومائتى مبعوث إلا ثلاثين أو أربعين مبعوثاً فقط . فتكلم معهم فى الموضوع وتقرر بينهم إرسال وفد إلى قصر يلدز ليعرض الخطب على السلطان ، و يلتمس أمره الجازم للعسكر وللشعب بالسكون ، فانتخب المجلس أحد عشر مبعوثاً منهم محمد أرسلان ليقوموا بهذه المهمة . فلما خرجوا وركبوا العربات عرف محركوا هذه الثورة مقصدهم فردوهم من حيث أتوا و بينما هم على باب المجلس أوعز بعض المحركين لهذه الثورة إلى

الجند بأن يطلقوا الرصاص على محمد أرسلان ـ وهم لا يعرفونه ـ فوقع شهيداً . ثم قتلوا أيضاً ناظم باشا ناظر العدلية ، وكان مرادهم أن يفتكوا أيضا بسائر أعضاء المجلس الذين لبثوا ينتظرون الموت مدة ساعتين ، ومنهم من رمى بنفسه من النوافذ فسقطوا وتكسرت أرجلهم ، ومنهم من تخبأ فى أى مكان يتوارى به عن الأعين ، ولكن العسكر بعد أن فتك بناظر العدلية و بمبعوث اللاذقية سمعوا أنه سيأتى عسكر آخر بأمر السلطان فيقتص منهم ، فوقع الرعب فى قلوبهم وأمسكوا عن قتل سائر المبعوثين وصاروا يطلقون الرصاص فى الفضاء تهويلا .

وأما حسين حلمى باشا والوزراء رفاقه فقد تخبأوا حيث لايعلم بهم أحد ، وانسل محمود مختار باشا على باخرة انكليزية فذهب العسكر إلى بيته ليقتلوه فلم يجدوه . فأمر السلطان بتأليف وزارة جديدة تحت رئاسة توفيق باشا الذى كان سفيراً للدولة فى لندرة ، وأدخل فيها أدهم باشا قائد الجيش العثمانى الذى قهر اليونان ، وذهنى باشا ورفعت باشا الذى كان ناظراً للخارجية فى الوزارة السابقة ، فأبقوه فى الوزارة الجديدة كما كان ، وأبقوا أيضاً ضياء الدين افندى شيخ الاسلام . وأبقوا نورادونغيا افندى الأرمنى ناظر الاشغال النافعة ، وأبقوا خليل حماده باشا ناظر الاوقاف وتعيّن لنظارة العدلية ولرئاسة مجلس الشورى الوزير الشهير حسن فهمى باشا وتعين عادل بك ناظراً للداخلية ، والقائد ناظم باشا قائداً للفيلق الخامس مكان محمود مختار باشا ، وقد كان وقوع هذه الثورة في ١٣ ابريل سنة ١٩٠٩ وفى اليوم التالى لم ينعقد المجلس ولكن لما تم تشكيل الوزارة انعقد بحضور ١٩١ مبعوثا وأصدر المجلس منشوراً يحاول فيه تلطيف الحادثة ، ويحث الرعية على السكون . ونقلت جثة الأمير محمد أرسلان باحتفال عظيم إلى بيروت حيث كان له مأتم لم يسبق نظيره ، وبكى الجميع شبابه لأنه كان فى الرابعة والثلاثين من العمر ، وبكوا مزاياه العالية . وحزن عليه أبوه الأمير مصطفى أرسلان حزناً أثر فى صحته فلم يعش بعد ذلك طويلا .

ولما وصل الخبر إلى سلانيك وهى مركز الاتحاد والترقى هاج العسكر ولا سيما الضباط الذين علموا بقتل رفاقهم ، فلم يبطئوا أن زحفوا إلى الاستانة .

فاجتمع الفيلق الثالث ـ أى فيلق سلانيك ـ والفيلق الثانى ـ أى فيلق أدرنة ـ وساروا إلى العاصمة تحت قيادة محمود شوكت باشا ، فوقع الرعب فى الأستانة وخيف أن العساكر الآتية من أدرنة وسلانيك تنتقم من العساكر والأهالى الذين قاموا بالثورة الرجعية ، فأرسل الصدر الأعظم إلى محمود شوكت باشا يقول له : إن السكون تام في الأستانة وأنه لاخوف من حرب ، وكان توفيق باشا قد نصح للسلطان بعدم المقاومة خوفاً من حرب أهلية .

ولما اجتمعت الجيوش فى «سان ستفانو» وذلك فى ٢١ ابريل أقبل عليها النواب والشيوخ وانعقد مجلس الأمة تحت رئاسة احمد رضا بك ، ونشروا منشوراً يجعل الأمر والنهى والاقتصاص من الثائرين فى يد محمود شوكت باشا قائد الجيش المسمّى بجيش الحركة ، وكان العساكر البحرية قد اشتركوا فى الثورة من قبل ، ولكنهم لما رأوا القوة أقبلت أسرعوا إلى الخضوع . وبالاجمال لم يكن فى نية توفيق باشا ولا أدهم باشا ، ولا أحد من الوزارة الجديدة مقاومة الفيلقين القادمين من الروملى ولكن بعض العساكر الذين كانوا فى ثكنة «طاشقشلة» والذين كانوا هم الثائرين والفاجرين للدماء ، أطلقوا النار على جيوش الروملى فوقعت معركة انتهت بفوز جيوش الروملى ، وكذلك وقعت مناوشات خفيفة فى ثُكن أخرى وانتهت بفوز قوة محمود شوكت باشا ، وكان يحيط بقصر يلدز سبعة آلاف من الجيش المخلص للسلطان ، إلاّ أنهم لم يروا السلطان ناوياً المقاومة فخضعوا لمحمود شوكت باشا . وفى ٢٦ ابريل تقرر فى مجلس الأمة خلع السلطان . وصدرت الفتوى من مشيخة الاسلام بأنه إذا كان زيد ـ الذى هو أمير المؤمنين ـ يحذف مسائل مهمّة من كتب الشرع وقد يمنع تداول هذه الكتب أحياناً ، وكان يخالف الشرع فى استعمال بيت مال المسلمين ويقتل وينفى ويحبس بمجرد هواه ، ويحنث بيمينه الذى أقسمه ، ويُحدث الفوضى فى المملكة أفلا يجوز تخليص الامة من ضرره ؟ أفلا يكون من مصلحة الامة خلعه الخ ؟ الجواب ؛ نعم .

السلطان محمد الخامس

وهكذا تقرر خلع عبد الحميد الثانى ، ومبايعة أخيه السلطان محمد رشاد باسم محمد الخامس . وذهبت لجنة مؤلفة من عارف حكمت باشا وآرام افندى من أعضاء مجلس الأعيان، ومن أسعد باشامبعوث دراج، وفراسو افندى مبعوث سلانيك؛ فبلغوا السلطان قرار خلعه ، وفى يوم الأربعاء ٢٨ إبريل الساعة الثامنة والنصف مساء جاء القائد حسين حسنى باشا وعلى فتحى بك وأبلغا السلطان قرار نقله إلى سلانيك ، وسفّروه فى نصف الليل ، وكان معه نساؤه و إثنان من أولاده ؛ الأمير عبد الرحيم افندى وعمره ١٦ سنة والامير محمد عابد وعمره ٦ سنوات ، ولم يصحبه إلا أربعة من الخصيان ، وتسعة من الخدم . و بعد نقل السلطان إلى سلانيك ومبايعة أخيه سكنت الأمور وأعلنت الادارة العرفية فى العاصمة ، وتألف مجلس حربى لمحاكمة الذين أحدثوا الثورة وسفكوا الدماء فصدر الحكم بشنق عدد من هؤلاء ، ولا شك فى أنه كان قد بقى أناس كثيرون متحفزون لاعادة السلطان عبدالحميد إلى العرش فى أول فرصة ، ولكن هذا الحزب كان يرى لزوم السكينة إشفاقاً على الدولة . ولما اشتعلت الحرب البلقانية أعادت الدولة السلطان عبد الحميد إلى الأستانة ، وأنزلته فى قصر « بكلر بك » حيث بقى إلى أن مات سنة ١٩١٧ وحضرت مأتمه وشهد الجمهور بحقه شهادة حسنة لأنهم كانوا يعتقدون إسلامه و إيمانه ، و بعد أن بويع السلطان محمد الخامس ، أعيد حسين حلمى باشا إلى الصدارة ، و بقى النفوذ الحقيقى لجمعية الاتحاد والترقى ، فحصل بين الجمعية وحسين حلمى باشا اختلاف أدى إلى استقالته . فاستدعى الاتحاديون إبراهيم حقى باشا سفير الدولة فى رومة ، وجاء إلى الاستانة فى ١١ يناير سنة ١٩١١ فاختار حقى باشا لنظارة الحربية محمود شوكت باشا وصار طلعت بك ناظراً للداخلية ، وجاويد بك للمالية ، ورفعت باشا للخارجية ، ونجم الدين ملاّ بك للعدلية ، وحلاجيان افندى للنافعة ؛ والأميرال خليل باشا للبحرية ، والشريف على حيدر باشا للأوقاف ، وأمر الله افندى للمعارف ، وتولّى مشيخة الاسلام القاضى حسين حسنى أفندى .

وعند ما قُرِىء برنامج الوزارة الجديدة فى المجلس نالت ١٨٧ صوتاً ضد ٣٤ من المعارضين . واستنكف ٢١ مبعوثاً عن إعطاء أصواتهم ، فكان مبدأ وزارة حقى باشا مؤذناً بالنجاح ، إلا أنه كان الأمر لا يزال فى يد الاتحاديين ، فاشتدت من أجل ذلك المعارضة . وكان حقى باشا ومحمود شوكت باشا ورفعت باشا من أعضاء الوزارة معتدلين ، على حين أن طلعت بك وجاويد بك وحلاجيان افندى كانوا يريدون إجراء برنامج الاتحاد والترقى « بزرّه وعروته » فوقع الخلاف فى وسط الوزارة وصار الاتحاديون الغُـلاة يريدون إسقاط حقى باشا من الصدارة ، وفى ذلك الوقت جرت ثورة الأرناؤوط وأساسها أنه بعد مؤتمر برلين تألفت جمعية فى بلاد الأرناؤوط مبدؤها المحافظة على الوطن الألبانى ، وهذه المحافظة كانت تقتضى مقاومة الأروام من جهة ، والسربيين من جهة أخرى . فنظر السلطان عبد الحميد إلى الموضوع فوجده موافقاً لسياسته ولسياسة الدولة العثمانية ، فأخذ يقوّى الارناؤوط عمداً ويمدهم بالمال ، ويوليهم المناصب ويعتمد عليهم أكثر من سواهم . وما عاشت الجمعية الأرناؤوطية إلاّ بفضل إمداد السلطان عبد الحميد لها ، فقد كان يتخذ الأرناؤوط ردءاً له فى مقاومة البلقانيين الذين ينوون الاستيلاء على بلاد الروملى كالسرب والبلغار ، واليونان ، وكان أيضاً يتخذ الأرناؤوط بطانة له ضد حزب «جون تورك» الذى كان يعلم أنه لن يرضى عنه . وكان بلغ عدم ثقته بالترك أنه جعل الحرس السلطانى الخاص كله من العرب والأرناؤوط ، فكان حول قصر يلدز بضعة عشر تابوراً من العساكر نصفها من العرب بزى خاص بهم يلبسون العمائم وأكثرهم من عرب اليمن ، والنصف الآخر كان من الأرناؤوط بزيهم الخاص . وكان قد اعتنى جد الاعتناء بتعليم هذا العسكر الخاص وتدريبه وترفيه معيشته ، والتأنق فى كسوته حتى صار من الطبقة الاولى فى عساكر العالم ، لا يفضله عسكر آخر . ولما زار امبراطور ألمانيا غليوم الثانى صديقه السلطان عبد الحميد الثانى واستعرض أمامه هذا الحرس الخاص ؛ ابتهج الامبراطور به ابتهاجاً أكيداً وقال : إنه يضاهى أحسن عسكره فى ألمانيا . وكان إذا خرج السلطان يوم الجمعة للصلاة أقيمت له مراسم حافلة

تتجلى فيها الهيبة الملوكية إلى الدرجة القصوى ، وتسير الوزراء والقواد أمام مركبة السلطان مشاة على الأقدام ، وتصطف عساكر الحرس المذكور عن الجانبين ؛ العرب من جهة ، والأرناؤوط من جهة ، فيكون لذلك أبّهة وروعة لاينكرها أحد . وكان يسمّى هذا الاحتفال برسم السلاملك ، فتقصده كبار الأجانب والسياح من جميع الأقطار ، وقلّما كان السلطان يخرج من قصره إلاّ لصلاة الجمعة ، وكان سفراء الدول يذهبون غالباً لشهود هذه الحفلة ، وكان اقتصار السلطان فى حرسه على العرب والأرناؤوط دليلا واضحاً على عدم ثقته فى الأتراك الذين يوجد منهم غالباً من ينوي له السوء .

وقد كنا نلاحظ أيضاً أنه عند ما يخرج لصلاة الجمعة — سواء كان راكباً جواداً أو راكباً عربة — يكون عن جانبيه فارسان ؛ كلٌّ منهما سيفه مسلول فى يده وهما أيضاً عربيان أحدهما محمد باشا العرقسوسى من دمشق ، والثانى على باشا قيراط من طرابلس الغرب . فلما تولّى السلطان محمد رشاد وصار الأمر إلى حزب جون ترك نثروا هذا الحرس الخاص من أرناؤوط وعرب نثراً ، ولم يبقوا له أثراً .

ونعود إلى ذكر إقبال السلطان عبد الحميد على الارناؤوط فنقول : إنه أمتعهم بامتيازات كثيرة ، وأعلقهم حبال الارتباط بشخصه حتى صاروا لايبغون منه بدلا ولا عنه حِوَلا . ولما قام الاتحاديون بالانقلاب و إعلان القانون الأساسى ثقل ذلك على الأرناؤوط وتوجسوا خيفة قصر حريتهم ، لأن القانون الأساسى كان معناه المساواة التامة بين الرعية ، وهم لم يكن السلطان يعاملهم بالحقيقة بالمساواة ، بل كان يميزهم على غيرهم ، ويُسبغ عليهم من النعم مالا يعرفه فريق آخر من الرعية ، ولذلك اجتهدت جمعية الاتحاد والترقي فى استرضاء الأرناؤوط بجميع الوسائل حتى لا يناهضوا الدستور ، ووعدتهم بابقاء امتيازاتهم الأولى ، وبفتح مدارس تعلم فيها لغتهم ، وباعتبار اللغة الأرناؤوطية لغة رسمية فى بلادهم ، وبمعاملتهم فى كثير من الأحيان بحسب تقاليدهم وعاداتهم ،وبتعزيز الشرع الاسلامى فيما بينهم ، وأخذت توزّع الأسلحة على الأرناؤوط ليتمكنوا من مقاومة السربيين ، وأهالى الجبل الأسود

وكل هذا قصدت به جمعية الاتحاد والترقى اجتذاب الأرناؤوط إلى ناحيتها حتى لا يعارضوا نشر الدستور ، ولا يحدثوا عليه ثورة وهم أسرع الناس إلى الثورات . إلا أن الأرناؤوط كانوا لا ينسون منزلتهم الخاصة عند السلطان عبد الحميد ، وكانوا لا يثقون فى حزب « جون تورك » ففى أول سبتمبر سنة ١٩٠٩ أرسلوا وفداً إلى سلانيك يطالب باعادة الاحكام فى ألبانيا إلى الشرع الشريف، وبالاعتراف بامتيازاتهم وبتأسيس مكاتب أرناؤوطية على نفقة الدولة مما لم يكن ليُرضى جمعية الاتحاد والترقى التى داهنتهم فى أول الامر من قبيل التسكين وتخدير الاعصاب ، حتى لا يثوروا فى وجه النظام الجديد . فلما رأتهم ممعنين فى الادلال ، متعنتين على الدولة بصنوف المطالب قررت بازائهم إرهاف الحد ، و إدخالهم فى الطاعة كسائر أجناس الرعية . وكان بين الارناؤوط رجل اسمه « عيسى بولاطين » من زعمائهم ، ولم يكن يراعى القوانين ولا يتحرّج عن القتل والنهب إذا ألجأه الأمر . وكان السلطان عبد الحميد يصيبه بنعمه المتواترة حتى تسلم البلاد من عيثه ، فلما أعلن الدستور لزم عيسى بولاطين بيته ساكتاً ولكن الاتحاديين لبثوا يحسبون له حساباً ، فأصدروا الأوامر إلى الحكومة المحلية بنزع سلاح عيسى بولاطين والجماعة التى حوله ، ومن المعلوم أن الارناؤوطي يؤثر الموت على تسليم سلاحه ، فعصى عيسى بولاطين الأمر فساقت الدولة عسكراً بقيادة جاويد باشا فذهب هذا الجيش ودمرّ القرى وأوقع بأهلها ، ودك الحصن الذى يسكنه عيسى بولاطين ، فثار الارناؤوط فى كل الجهات من أجل ذلك ، واتسعت الثورة فضاعف جاويد باشا القوة و بطش بالثائرين بطشة جبّارين ، ونزع الأسلحة من أيدى الارناؤوط وتقاضاهم غرامات ثقيلة ، و قيل إنه قتل النساء والاولاد ـ وهذا ما لا نعتقده ، ولكنه أشيع يومئذ عمداً ـ فاجتمع ثلاثة آلاف أرناؤوطى فى « فيرازوفيتش » لأجل الاحتجاج فرماهم جاويد باشا بالقنابر ، وشرّد بهم من خلفهم ، ثم أخذت الدولة باحصاء النفوس فازداد قلق الأرناؤوط ، وعلموا من هذا أن الدولة تريد إجراء الخدمة العسكرية فى ألبانيا . وكان مقصد الجون تورك فى الواقع أن يلغوا امتيازات الارناؤوط تدريجاً ، وأن يجبروهم على دفع الضرائب التى تدفعها سائر الرعية ، وأن ينسوهم تلك الدالة

التى عوّدهم إياها السلطان عبدالحميد ، وكل هذا كان بعيداً عن أن يرضى به الأرناؤوط وفى ١٧ يوليو سنة ١٩٠٩ عقد الأرناؤوط فى « فريز وفيتش » مجمعاً عاما للتحدث فيما بينهم فى ما يجب أن يعملوه لمعالجة هذه الحالة ، فأرسلت جمعية الاتحاد والترقى نيازى بك أحد أركانها لأنه أرناؤوطى ، وأصحبته بجماعة من المخلصين لها على أمل أن يصرفوا الأرناؤوط عن المطالبة بما يخالف مصالح الدولة ، فلم تقترن مساعيها بالنجاح ، لأن المؤتمر الارناؤوطى قرر أن يكون للارناؤوط حق بتولى المناصب الادارية ، و بتعليم اللغة الأرناؤوطية ، واقترح توسيع سلطة مجالس الولايات و إنشاء الطرق وعقد اجتماع سنوى للأمة الارناؤوطية ، وعدم تقاضى الارناؤوط شيئاً من الضرائب عدا العشر ، وأن يؤخذ معدل خمس سنوات و يجعل منه متوسط و يصير جباية ثابتة ، وغير ذلك من الاقتراحات التى رأت فيها جمعية الاتحاد والترقى مقدمة لاستقلال داخلى فى ألبانيا ، وكانت بلاد البانيا الجنوبية ساكنة ، بخلاف البانيا الوسطى والشمالية إلا أن الحركة فى آخر الأمر شملت الجميع ، وقرر الارناؤوط فيما بينهم الحرب لأجل الاستقلال بادارتهم الداخلية وتحفزوا للقتال .

وفى سنة ١٩١٠ بدأت الثورة فى نواحى « برشتنه » بسبب الضرائب فأسرع الأرناؤوط من سائر الجهات إلى نجدة ارناؤوط برشتنة ، فأرسلت الدولة جيشاً نحو عشرين ألف مقاتل ، ومعهم ثلاثون بطارية من المدافع تحت قيادة شوكت طورغوط باشا ، فقاتلوا الارناؤوط قتالا شديداً ولكنهم لم يقدروا عليهم ولاسيما فى مضيق « كاتشانيق » وهو موقع شديد المنعة في ولاية قوصوه احتله الارناؤوط ، وعجز العسكر عن أخذه ، فما زالت ترد الامدادات إلى شوكت طورغوط باشا حتى تمكن من الاستيلاء على المضيق وهزم الارناؤوط بعد وقائع دموية ، ودمّر لهم قرى كثيرة فانتقلت مقاتلة الأرناؤوط إلى مضيق « تشرنالوقة » ولبثوا يقاتلون . فأرسلت الدولة محمود شوكت باشا ينصح للارناؤوط بالكف عن القتال و بالدخول فى طاعة الدولة فتوفق فى مهمته وأخلد الارناؤوط إلى السكينة . إلا أن عيسى بولاطين و إدريس صقر وعدة آلاف من الثائرين معهما لاذوا بالفرار إلى جهة الجبل الاسود ، وإلى

قرى الارناؤوط الكاثوليك ، وكانت الثورة الأرناؤوطية ، فى بداية الأمر قاصرة على الارناؤوط المسلمين ، ففى سنة ١٩١١ انضم إلى المسلمين قبائل الارناؤوط الكاثوليك وصارت جمعيات الارناؤوط فى ايطاليا ورومانيا تمد الثورة ، وجاءت إلى الأرناؤوط نجدات من الجبل الاسود ، وصار ثوار الارناؤوط يلجأون إذا ضاقت بهم الحال إلى أرض الجبل وعادت الثورة فازدادت اشتعالا ، وعبّت الدولة ستين تابوراً ، وأخذ شوكت طورغوط يدمّر قرى الماليسور الماردين من الارناؤوط الكاثوليكيين ، فعند ذلك توسطت دولة النمسا والمجر لدى الباب العالى لأجل الكف عن سفك الدماء ، فاستمعت الدولة نصيحة النمسا وأخذت فى تضميد جروح الارناؤوط بما أمكن ، وسكن الارناؤوط ولكنهم رجعوا إلى اقتراحاتهم الأولى وهى احترام الدولة لعاداتهم القومية واستقلال التعليم فى مكاتبهم ، واستعمال الحروف اللاتينية ومنح البانيا إدارة لامركزية ، وانفاق ما يفيض من واردات البانيا على منافع هذه البلاد ، واجتمع مبعوثو الارناؤوط تحت رئاسة حسن بك مبعوث اسكوب وقرروا هذه المطالب فأجابت الدولة بالقبول وأصدرت العفو عن جميع الثائرين ، وسامحت فى كثير من بقايا الاموال الأميرية ورضيت بأن تكون الخدمة العسكرية سنة فى الاستانة وسنتين فى نفس البانية ، وأوجبت أن يكون المأمورون فى البانيا عارفين باللغة الارناؤوطية ، وأخذت الدولة ترمم البيوت التى دمرتها العساكر ، ووزعت مبالغ من النقود على المصابين ، وهكذا سكنت الثائرة الارناؤوطية ، وذهب السلطان محمد الخامس بنفسه إلى بلاد الارناؤوط وصلى فى صحراء قوصوه ووراءه جمع قيل إنه مائة الف مصل ، ورجع إلى الاستانة مسروراً .

وفى تلك الأيام بدأ الشقاق بين أعضاء الاتحاد والترقى أنفسهم، واختلفت الآراء فى مجرى السياسة التى يجب على الجمعية اتباعها ، فخرج منها أناس مغاضبين ، منهم أمير الألاى صادق بك الذى كان من مؤسسى جمعية الاتحاد والترقى ، فانفصل عن الجمعية وألف حزباً جديداً معاكساً لها ثم استعفى طلعت بك ، وأمر الله افندى وحلاجيان افندى من النظارات ، التى كانوا يتولونها وظهر للناس ضعف الحكومة ولم يكن مجلس المبعوثين بأحسن منها حالا بل كانت تتوالى فيه المشاحنات والمهاترات

بين الأحزاب ، ومرة جرت حادثة بين نواب العرب ونواب الترك وكادوا يتضاربون
والخلاصة أن العثمانيين كانوا فى ذلك الوقت يمزّق بعضهم بعضا ، وكانت كل العلامات
تؤذن بسوء المصير ، و إذا بحادث طرأ بغتة وهو أن إيطاليا أعلنت الحرب على تركيا
أو تتخلى لها عن طرابلس الغرب و برقة ، وكانت مطالب إيطاليا عبارة عن خمسة
وهى : خروج العساكر العثمانية من طرابلس ، و بنغازى ، ودرنة ، وتشكيل جندرمة
فيها تحت قيادة ضباط من الطليان ، وأن تكون إدارة الجمارك بأيدى مأمورين من
الطليان أيضاً ، وأن لايتعين وال لطرابلس إلا برضى إيطاليا ، وأعطى الباب العالى
مدة أربع وعشرين ساعة ليجيب بالقبول . فاجتمع مجلس فوق العادة فى القصر
السلطانى ، وسمع حقى باشا الصدر الأعظم كلاماً مهيناً بسبب إهماله وعدم احتياطه
لأن سعيد باشا رئيس مجلس الأعيان ذكر له أن مطامع إيطاليا لم تكن مجهولة عند
تركيا ، وأنه سبق لايطاليا كونها قدمت مذكرة إلى الباب العالى سنة ١٩٠٤ بعد
اتفاق إيطاليا مع فرنسا وانكلترا تقول فيها : إنها مادامت الحالة غير متغيرة فى البحر
المتوسط ، فان إيطاليا لاتدعى بشىء فى طرابلس الغرب ، ولكن إذا حصل تغيير فى
البحر المتوسط يخل بالتوازن الدولى فهي مضطرة أن تتخذ تدابير لوقاية مصالحها . ثم
إن حقى باشا كان سفيراً في رومة ، فكان يجب عليه أن يطّلع على حقيقة نيات ايطاليا
وليس لحقى باشا عذر فى غفلته هذه . فثبت بحق حقى باشا ما أوجب استقالته ملوماً
بل مغضوباً عليه ، ولم يقدر هو أن يدافع عن نفسه . ثم أجاب الباب العالى برفض
مطالب إيطاليا قائلا لها : إذا كانت ستصمم على احتلال طرابلس فان الدولة تقوم
بالواجب عليها بأزاء اعتداء إيطاليا .

وحقيقة مسألة طرابلس الغرب من أولها إلى آخرها لا تخرج عن كون انكلترة
وفرنسا تقاسمتا أفريقية ، وذلك على أثر حادثة فاشودة المشهورة التى كادت توقع الحرب
بين هاتين الدولتين ، فمنذ ما اقتنعت فرنسا بارجاع جنودها من فاشودة اتفقت الدولتان
على تقسيم أفريقية كلها تقريباً بينهما على قاعدة أن فرنسا تسكت لانكلترة على وادى
النيل وجميع توابعه ، وعن امتلاك الخط الممتد من البحر المتوسط إلى الكاب ، وبمقابلة

ذلك توافق انكلترة على احتلال فرنسا للمغرب بحذافيره وتوابعه ، وقد كانت هذه السياسة التى اتفقت فرنسا وانكلترة عليها هى الأصل الأصيل فى الحرب العامة ولولاها كان يبعد كثيراً وقوع هذه الجزرة البشرية الكبرى ، وذلك لأن المانيا وجدت فى عمل فرنسا وانكلترة هذا استخفافاً بها ، وجهالة لمكانها بين الدول العظام وأخذت من ذلك الوقت تترصد الفرصة لاظهار ما فى نفسها من عمل انكلترة وفرنسا وأبت أن تعترف لفرنسا بحق احتلال مرا كش . وسيكون لهذه المسألة أدوار أخرى تمر بها وتزيد العداوة بين المانيا وانكلترة إلى أن تنشب الحرب العامة ، لأنه عند ما اشتدت الأزمة بين فرنسا والمانيا من أجل استيلاء فرنسا على مراكش ؛ كان الفرنسيس سألوا الانكليز عما يكون من موقفهم فى هذا الخلاف ؟ فأجابوهم بأن الأسطول الانكليزى حاضر للعمل فى جانب فرنسا . فكان هذا الجواب هو أعظم عامل فى زرع العداوة بين الالمان والانكليز . فالحرب العامة إذاً و إن تعددت أسبابها فقد كان السبب الأقوى فى نشوبها اتفاق انكلترة وفرنسا على تقسيم أفريقية وانتهاء الأمر باحتلال فرنسا للمغرب بمساعدة انكلترة، فانكلترة من زمن قديم تريد أن تربط شرقى أفريقية بالهند ، وتجعل من ذلك مستعمرة واحدة ، ولأجل تحقيق هذا المشروع توسلت بوسائل لا تحصى ، أولها القضاء على الدولة العثمانية حتى يتسنى لانكلترة وضع يدها على جزيرة العرب التى هى حائلة فى الوسط بين أفريقية والهند ، الثانى القضاء على استقلال الدولة الايرانية ، وقد كانت انكلترة اتفقت سنة ١٩١١ مع الروسيا على اقتسام المملكة الفارسية فجعلوها ثلاث مناطق ؛ الشمالية تحت تصرف الروسيا ، والجنوبية تحت تصرف انكلترة ، والمتوسطة مستقلة إلى حد محدود تحت نفوذ الدولتين .

وهكذا أصبح ممكناً أن تمد انكلترة خطاً حديدياً فى جنوبى فارس آتياً من الهند إلى العراق ، ثم تمدّه فى أراضى الدولة العثمانيــة من حدود فارس فى أرض العراق وفلسطين إلى مصر ، وهكذا إلى رأس الرجاء الصالح ، وتكون جميع البلدان التى سيمر بها هذا الخط من أملاك انكلترة خالصة لها. فما اكتفت انكلترة بالاستيلاء

على بلاد الهند التى فيها ٣٢٠ مليوناً من السكان ؛ بل حاولت أن تطفر من الهند إلى أفريقية ، وتجعل هاتين القارتين ؛ غربى آسيا ، وشرقى أفريقية قطعة واحدة ، لاينازعها فيها منازع . وكأنها تريد أن تأخذ موثقاً على الدهر ، وتجعل الفلك الدوّار يدور على محور إرادتها ، فجميع هـذه الأمم من هنود و إيرانيين وعرب ومصريين وأحباش وصوماليين وزنوج لم يوجدوا في نظر انـكلترة ليكون لهم حرية فى أنفسهم ! و إنما أوجدهم الله ليكونوا رعايا لانـكلترة حتى تـكون لها الـكبرياء فى الأرض ، ولاجل إتمام تصورها هذا لزم لها أن تسترضى فرنسا فتبيحها احتلال المغرب ، واسترضاء إيطاليا فتتفق مع فرنسا و يسمحان لها باحتلال طرابلس الغرب ، فهل تمـكنت انـكلترة من تطبيق برنامجها الواسع هـذا ؟ الجواب إنها قد لقيت فى تطبيقه ما لم تـكن تتوقعه بل ما لم يكن يخطر لها على بال ! فأول خرق وقع فى هذا البرنامج وقع من جهة فارس فان انـكلترة كانت تقاسمت فارس هى والروسيا قبل الحرب العامة ، ثم جاءت الحرب العامة فـكانت نتيجتها الظفر الأكبر لانـكلترة ، وكان من المعقول أن إيران بعد هذا الظفر تصبح ــ لاسيما المنطقة الجنوبية منها ــ مستعمرة انـكليزية ، فـكان الذى حصل هو عكس ذلك ، ورجعت إيران فأخرجت الانـكليز والروس من بلادها ، ورجع خط الاتصال بين الهند ومصر منقطعاً .

وأما الخرق الثانى فى برنامج السلطنة البريطانية هذا فقد وقع من جهة بلاد العرب ، فقد كانت انكلترة تفـكّر بأنها إذا قضت على الدولة العثمانية كانت هي الوارثة لها في بلاد العرب فتتصرف بهذه البلاد كما تشاء ، والملك حسين بن على الذى زعمت أنها حالفته واعترفت باستقلاله بدل قيامه على الأتراك ؛ إنما تجعل له الحـكم فى الحرمين الشريفين فقط ، وهو مع ذلك سيكون مضطراً إلى قبول أية كلمة تصدر منها . وأما نجد والعراق وفلسطين فهذه كانت فى نظر انكلترة مرشحة تـكونَ من المستعمرات البريطانية ، فظهر لها بعد الحرب العامة و بعد ظفرها مع حلفائها أن العراق لايرضى أنْ يكون من جملة مستعمرات انكلترة ، وما زال يثور حتى اضطرت انكلترة إلى الاعتراف باستقلاله ، وهى و إن كانت اتفقت مع العراقيين على تأمين المواصلات الأمبراطورية

كما يقال ، فهذا التأمين للمواصلات ليس بسرمد ، كما أن نجداً مع توابعه الواصلة إلى الجوف ، و إلى قريات الملح على مقربة من شرقى الأردن ؛ بقى مستقلا تمام الاستقلال ، يليه ملك عظيم الشأن هو « عبد العزيز بن سعود » وقد أوسع ملكه بالاستيلاء على الحجاز وصارت هناك دولة عربية مؤلفة من نجد والحجاز وعسير يسكنها زهاء خمسة ملايين من قبائل العرب المسلحة ، ولا يسهل على انكلترة أن تلعب بها كما تشاء ، ولا أن تجعل فيها خطوط مواصلات . فلذلك كان هو هذا الخرق الثانى فى البرنامج البريطانى .

ثم بينما هى تظن أنها قد تملكت مصر ولم يبقَ لها معارض فيها ولا فى السودان و بينما هى تقيم القيامة اليوم لأجل منع إيطالية ، من الاستيلاء على الحبشة حتى تؤمن السلطنة التى تحلم بها من البحر المتوسط إلى رأس الرجاء الصالح ؛ ظهر لها خرق ثالث فى هذا البرنامج ، وهو قيام المصريين عن بكرة أبيهم يبلّغون انكلترة أن جميع مماطلاتها لن تفيدها شيئا فى حل الخلاف الذى بينها و بين مصر ، وهو الخلاف الذى يأبى المصريون أن يعرفوا له حلاًّ غير مؤسس على استقلال مصر التام ! . فهذه إذاً ثلاثة خروق ؛ أولها إيرانى ، والثانى عربى ، والثالث مصرى ، فى هذا البرنامج الواسع الذى حلمت به انكلترة ، وليس الانكليز بأول كتلة بشريّة اتسع سلطانها حتى أفقدها رشدها ، وجعلها تحاول تخليد حكمها على آفاق لا تغرب الشمس عنها . بل من قبلها سكرت أمم كثيرة بخمرة العز ! و بينما هى تظن أن لم يبق لها منازع فى الدنيا ؛ جاءتها الحوادث بما لم يكن فى حسبانها ، وخسرت ما كانت قد تظنّنته مما ملكت أيمانها ، وظهر على الأمر من لم يكونوا لها على بال . ولا بد أن يصدق فيها قوله تعالى (فأورثناها قوماً آخرين فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين)

ونعود إلى غارة إيطاليا على طرابلس الغرب فنقول : إنها و إن كانت قد اعتذرت بكون الانكليز والفرنسيس تقاسمتا أفريقية ، ولم تبقيا لها شيئا غير طرابلس الغرب فاضطرت إلى احتلالها ؛ فانه لم يكن من ضمير حى ، ووجدان قوى ، ليقبل هذا التعليل و يجعله حجة ! ! . و إن كان مما لاشك فيه أن انكلترة وفرنسا كانتا على وفاق مع

إيطاليا فى قضية طرابلس . ولذلك عند ما استغاثت تركيا بدول أوربا جمعاء مما فعلته إيطاليا أصمّت انكلترة وفرنسا آذانهما عن سماع نداء تركيا !! وليتأمل المتأمل فى تلوّى السياسة ودناءة مباديها ، وذلك عند ما يرى أن اعتداء إيطاليا على طرابلس لم تقابله انكلترة بأدنى كلمة استنكار ، على حين أنها اليوم تحشد انكلترة ١٨٠ بارجة حربية ، وتجمع كلمة خمسين دولة من أعضاء جمعية الأمم على مقاطعة إيطاليا التجارية بحجة أن إيطاليا شنّت الغارة على الحبشة ظلماً وعدوانا ، كأن الغارة على طرابلس لم تكن ظلماً وعدوانا ! ! يحللونه عاما و يحرّمونه عاما ، و يفضحون أنفسهم أمام التاريخ ولا يبالون بما يقال عنهم .

أرسلت إيطاليا فى ٢٩ سبتمبر سنة ١٩١١ أسطولا عظيما إلى مرسى طرابلس فأنذر البلدة بالضرب إن لم تستسلم له ، فأبت البلدة الخضوع فبدأ يرميها بالقنابر وما زال يرميها حتى تمكن من احتلالها فى ٧ أكتوبر ولم يكن فيها قوة من الجيش التركى النظامى غير ألفين إلى ثلاثة آلاف عسكرى ، لم يكن لها قِبَل بتجريدة إيطاليا لافى العدد ولا فى العتاد ، و إنما كان الأهالى العرب هم الذين تولوا كبر المقاومة . و بعد أن نزل الطليان بساحة طرابلس حاول العرب أن يردوا العسكر الايطالى إلى البحر ، فاقتتل الفريقان من ٢٣ أكتوبر إلى ٢٦ منه بشدة نادرة المثال ، وكاد العرب يقلعون الطليان من طرابلس ، ولولا امتناع الطليان بقلاع طرابلس لأخرجوهم منها ولكنهم امتنعوا ريثما تكاملت جموعهم بوصول الامدادات من البحر ، وردّوا العرب إلى الوراء بعد أن لحقت بالطليان خسائر جسيمة . ومن شدة مالحق بهم من الخسائر ارتكبوا فظائع لاتزال وصمة عار عليهم فى التاريخ ، وذلك فى حادثة المنشية التى ذبحوا فيها الأهالى ولم يستثنوا أحداً ولا النساء ولا الأطفال !! ونشرت ذلك الصحف الأوربية — حتى الصحف المعادية منها للاسلام — فانكفأ الطرابلسيون إلى « واحة عين زارة » فتقدم الطليان بقوة كبيرة وأخرجوهم منها ، فانكفأوا إلى « غريان » وصاروا يناوشون الطليان القتال بينها و بين مدينة طرابلس . وقد طرح مبعوثو طرابلس قضية بلادهم فى مجلس الامة العثمانية ، فحصلت المناقشات فيها فتبين من إهمال الحكومة

العثمانية فى ظل الدستور والحرية مالم يكن معهوداً في زمن السلطان عبد الحميد الذى رموه بكل سوء . فمن جملة ذلك أن حامية طرابلس كان ينبغى أن تكون بحسب النظام ١٧ تابوراً من المشاة و ١٠ كواكب من الفرسان ، وست بطاريات من مدافع الصحراء ، والحال أنه لم يوجد فى كل طرابلس إلا أربعة آلاف جندى نظامى لايزيدون ، وأنه كان أهالى طرابلس قد اقترحوا التجنيد من تلقاء أنفسهم ، وقرر المجلس فى السنة السابقة النفقات المالية لذلك ، وعند ماحضر الشبان للتجنّد وكانوا ستة عشر ألفاً لم تقبل القيادة منهم إلا ثلاثة آلاف وأربعمائة . وكان يوجد فى طرابلس أربعون ألف بندقية من نوع مرتينى ونوع شنَيْدَر ، فاسترجعتها الحكومة إلى الأستانة على وعد أن ترسل بدلا عنها أربعين ألف بندقية موزر ، فنسيت الحكومة هذا الوعد ولم ترسل شيئاً ، وتبين أن المشير ابراهيم باشا الذى كان والياً لطرابلس قبل ذلك بسنوات اقترح تأسيس معمل سلاح وقراطيس للبنادق فى نفس طرابلس وكتب إلى الباب العالى بأن أهالى طرابلس أشداء ذوو بصائر فى الحروب إذا أغارت عليهم دولة أجنبية يقدرون أن يدفعوها عن بلادهم ، بشرط أن يكون عندهم الأعتدة والأسلحة الكافية ، ولما كان لايوجد عند الدولة قوة بحرية تؤمن إيصال الأسلحة إلى طرابلس فيما إذا أغارت على هذا القطر دولة كدولة إيطاليا ، فانه يجب إرسال كمية وافرة من الأسلحة إلى ثُكن طرابلس ، وتأسيس معمل للسلاح أو للرصاص بالأقل فى نفس طرابلس ، بحيث يكون فى أيدى الأهالى عدة كافية يدافعون بها عن أنفسهم عند الحاجة ، فهذا الاقتراح أهمله الباب العالى ولم ينظر فيه برغم النُّذُر الكثيرة التى كان يتلو بعضها بعضا بأن إيطاليا تتأهب من زمن طويل للاغارة على طرابلس و برقة .

بل حدثنى من أثق به من زعماء الطرابلسيين ، ومنهم كبيرهم السيد أحمد الشريف السنوسى رحمه الله بأن الدولة فى زمن السلطان عبد الحميد كانت ترغب فى تجريد أهالى طرابلس من السلاح ، وتكبس الزوايا السنوسية التى تظن فيها وجود أسلحة وأن انتقال السيد المهدى السنوسى من واحة جغبوب إلى واحة الكفرة على مسافة ٢٥

مرحلة من بنغازى إلى الجنوب كان أصل السبب فيه اعتقاد المهدى السنوسى أن هذا القطر سيتعرض فى يوم من الأيام لاحتلال إيطاليا ، وأنه سيحتاج الاهالى إلى السلاح حتما ، والحال أن الدولة العثمانية ـ بعماية قلب غير مفهومة ـ كانت تحاول تجريد الأهالى من أسلحتهم ، ولا تريد أن تدرك أن هذا القطر دون غيره هو تحت خطر غارة أجنبية لا تقدر الدولة أن تدفعها إلا إذا كان الاهالى متسلحين . فالسيد المهدى السنوسى رضى الله عنه كان يرى ضرورة التسلح فى وجه الأجانب ، ولكنه لم يكن يريد أن يخاصم الحكومة العثمانية التى كانت ضد هذا الأمر ، فأوغل فى الصحراء وسكن فى الكفرة بعيداً عن الحكومة ، وذلك حيث يمكنه أن يتسلح هو ومن معه ، وأن يستقل بآرائه . ولما ذهبت أنا إلى برقة لأجل الجهاد بعد الغارة الايطالية ببضعة أشهر ؛ سمعت أن متصرف بنغازى كان قبل حرب طرابلس بشهرين يكبس زاوية من زوايا السنوسيين اسمها زاوية القطفية بتهمة أنه مخبأ فيها سلاح . (إنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) ولما اجتمعت بأنور رحمه الله بمعسكر عيد منصور فوق درنه ، حيث أقمت ثمانية أشهر مجاهداً . كنت أتحدث اليه بما فى نفسى من تقصيرات الدولة العظيمة بحق طرابلس ، وكان يوافق على ذلك كله ولا يجد عن إهمالها عذراً .

ثم إنه كان تقرر لدى الدولة تعليم أهالى طرابلس الحركات العسكرية ، وأن هذا القرار أيضاً قد أهملته الحكومة ، ولهذا طلب مجلس الأمة محاكمة حقى باشا وزملائه الوزراء لأجل ما ارتكبوه من هذه الاهمالات كلها ، فلم ينفذا القرار بسبب أن بعض الوزراء كانوا من أركان الاتحاد والترقى ، فكيف يمكن الجمعية أن توافق على إداناتهم ومحاكمتهم ؟ فبقى هذا القرار من المجلس حبراً على ورق .

وكان الصدر الأعظم سعيد باشا قد جنح إلى الصلح ، لأن إيطاليا كانت قد احتلت رودوس والجزائر التى تجاورها ، وكان البحر فى يدها ، ولم يكن الأسطول العثمانى كفؤاً للاسطول الايطالى . فكان الصدر يرى وجوب الصلح على شرط إبقاء السيادة العثمانية على طرابلس ولو بالاسم ، وحفظ حقوق الخلافة الاسلامية ، وكانت

هذه سياسة دفع الضرر الأشد بالضرر الأخف ، إلا أن الرأى العام الاسلامى كان ضد التساهل فى قضية طرابلس ، لا سيما عند ما رأى المسلمون أن عرب طرابلس لبّوا داعى الجهاد بشكل لم يكن منتظراً ، ووقفوا فى وجه إيطاليا وقفة كان الأوربيون أنفسهم لا يصدقونها لو لم يروها بأعينهم ! . فايطاليا كانت تظن بحسب المعلومات التى عندها عن ضعف الحامية العثمانية فى طرابلس ؛ أنها تستولى على هذا القطر فى مدة لا تتجاوز ١٥ يوماً ، وهى لا تشك فى ذلك ، ولما سمع اللورد كتشنر بظن إيطاليا هذا ـ وهو القائد المحنك المشهور ـ وكان يومئذ المندوب السامى البريطانى فى مصر قال : إنى أرى الطليان مفرطين فى التفاؤل ، وإن تجاربى الطويلة فى حروب أفريقية تجعلنى أخَطِّىء هذا الرأى وأقول : إن احتلال إيطاليا لطرابلس الغرب و برقة قد يستغرق ثلاثة أشهر . . . فهذه الثلاثة الأشهر التى ضربها أمداً اللورد كتشنر القائد الانكليزى الكبير ، المنجّذ فى حروب العالم الاسلامى ، والخمسة عشر يوماً التى ضربتها إيطاليا أمداً لتمام الاستيلاء على طرابلس ؛ كانت لدى الفعل عشرين سنة تامة ، وما انتهت إلا بأسر الشهيد عمر المختار وشنق الطليان إياه وذلك سنة ١٩٣١ ولو كان أهالى طرابلس يملكون ما فيه بلغة من العتاد والذخيرة لكانوا إلى اليوم حامين لساحتهم . فايطاليا بعد غارتها على طرابلس بشهرين أو ثلاثة أوصلت جيش الاحتلال هناك إلى مئة الف عسكرى ، ولكنها لم تقدر أن تتقدم إلى الأمام شبراً واحداً ، بل كان جيشها فى نفس مدينة طرابلس ، وفى بلدة خُمُس ، وفى مدينة بنغازى التى لم تقدر العساكر الايطالية أن تنزل فيها إلا بعد معركة استمرت ثلاثين ساعة ، وجرى فيها من الوقائع ما تشيب له ذوائب الاطفال واحتل الطليان أيضاً بلدة درنة على البحر فى ذيل الجبل الأخضر ، وموقع طبرق من البطنان ، أى أنهم لم يكونوا داسوا من أرض طرابلس سوى هذه المدن الاربع ، بينما لهم هناك مائة الف عسكرى تمدها البوارج الحربية من البحر ! !

وكان أنور ملحقاً عسكرياً بسفارة الدولة فى برلين ، وكان على فتحى ملحقاً عسكرياً بسفارة الدولة فى باريز ، فخفّ أنور من برلين إلى الاستانة يقصد الجهاد فى طرابلس ، ولما أبدى اقتراحه وجوب تسفير جانب من الضباط إلى طرابلس لم يعتقد

أحد فى الاستانة بأن ذلك يؤدى إلى فائدة عملية ، ولما استأذن لنفسه فى الذهاب إلى طرابلس قال له محمود شوكت باشا ناظر الحربية : لا أرى فائدة من سفرك ، وربما يقتلك العرب فى الطريق لأن الطليان يقدرون أن يرشوهم بالمال فيغتالوك ؟ ! فقال له أنور : لقد أهملنا طرابلس إهمالا فظيعاً ضاقت فيه فسحة العذر ، فيجب علينا أن نعوّض تفريطنا فى حقها ، وأن نبذل كل مانستطيعه فى سبيل الدفاع عنها ، وإذا كان العرب يقتلوننا فى الطريق فيكون الذنب ذنبهم ، ونعود نحن معذورين . قال لى هذا أنور من فمه فى معسكر درنه ، وقد وقعت بينى وبينه مودّة أكيدة ، وخلطة ارتفع فيها التكليف بيننا ، واستمرت هذه المحبة منذ تعارفنا فى عين منصور سنة ١٩١٢ إلى أن استشهد رحمه الله فى أرض بخارى فى محاربته للروس البلاشفة سنة ١٩٢٢ .
ولما رأت الدولة إصرار أنور على الجهاد بنفسه فى طرابلس ؛ أدّت إليه خمسة آلاف جنيه لاغير لاعتقادها عقم حركته هذه ، فذهب ومعه عدة ضباط مرّوا من مصر متنكرين ، وكان مصطفى كمال من جملة هؤلاء الضباط .

ولم يصلوا إلى السلّوم حتى وافتهم الأخبار بأن قبيلة من العرب يقال لها الشلاوية وهي من القبائل الصغرى أوقعوا بتابورين من الطليان وردوهم مدحورين إلى درنة وغنموا منها أسلابا كثيرة . فاشتد بهذا الخبر عزم أنور ، وأغذّ السير ، فأول مالاقى زعماء العرب ومشايخ الزوايا السنوسية فى زاوية مرطوبة ، وكان العرب ناقمين على الدولة إهمالها أمر طرابلس ، ذاكرين تلك الحماقة التى كانت تظهر من عمالها فى تجريدهم من سلاحهم ، فقالوا لأنور : إننا لا نخشى ولا نقاتل حتى تأتينا بالأسلحة والذخائر الكافية وبالمدافع . فأجابهم بأنه سيأتى بكل ذلك ، وكان مقصده بهذا الوعد الفارغ إثارة حماستهم حتى ينغمسوا فى الحرب ، وإلاّ فهو كان يعلم صعوبة تهريب السلاح إلى طرابلس وبرقة ، فان الأسطول الايطالى كان مراقباً السواحل مراقبة شديدة فلم تتمكن تركيا من تسريب الأسلحة إلى المجاهدين إلاّ فى الأندر . والذى أعلمه أنه من محمول البواخر العديدة التى أرسلتها الدولة لم يصل إلاّ محمول باخرتين لاغير ، إحداهما

تمكنت من التفريغ فى سواحل برقة ، والأخرى تمكنت من التفريغ في ساحل طرابلس لأول هذه الحرب .

وقد كان من الممكن تهريب السلاح بواسطة سواحل مصر لولا أن الانكليز شدّدوا المراقبة إلى الدرجة القصوى بواسطة مصلحة خفر السواحل المصرية ، فلم تتمكن الدولة من تهريب بندقية واحدة بواسطة سواحل مصر . ولما كنتُ قد أقمت فى معسكر عين منصور عدة أشهر ؛ فقد علمت أن السلاح الذى كان يقاتل به العرب هناك قليل منه كان من بقايا سلاح الدولة ، ومنه قسم من السلاح اليونانى المهرّب الذى يقال له « غراه » والأكثر كان من البنادق الطليانية التى كان العرب يغنمونها فى أثناء الوقائع .

وقد أعجب العرب بحمية أنور و بسالته فأحبوه حباً جماً ، ولما وصلت إلى هناك وجدت فى مخيّم عين منصور من الجبل الأخضر على مسافة ساعتين من درنه إلى الجنوب سبعة أو ثمانية آلاف مقاتل من العرب من قبيلة العبيدات ، وقبيلة البراعصة وقبيلة الحاسة ، و بينهم المشايخ السنوسية لزوايا الجبل الأخضر ، مثل سيدى محمد العالمى الغمارى شيخ الزاوية البيضاء ، وسيدى محمد الدردفى شيخ زاوية شحّات ، وسيدى محمد الغزالى شيخ زاوية ترت ، وغيرهم من أشياخ السنوسية .

وكان مع أنور بضعة عشر ضابطاً من الأتراك ، منهم مصطفى كمال رئيس جمهورية تركيا اليوم ، و بضعة عشر ضابطاً آخرون من أبناء العرب . ولما مررت بطبرق كان الطليان احتلوها ، ولكنهم بنوا استحكاماً بقرب البحر امتنعوا من ورائه فلم يكونوا يقدرون أن يخرجوا منه ، وكان هناك أمامهم معسكر للعرب قائده أدهم باشا الحلبى ، ولا يزيد عدد المقاتلين فيه على ألفين ، و بينه و بين معسكر الطليان فى طبرق ساعة ونصف ، وكان عمدة المقاتلين للطليان في معسكر طبرق قبيلة يقال لها عائلة مريم من العبيدات ، وكان لها زعيم يقال له الشيخ المبرى قُتل فى الجهاد ، وكان القائمون بالجهاد فى برقة هم السادة السنوسية تحت رئاسة السيد احمد الشريف الذى استنفر القبائل كلها فانضوت تحت علم السنوسى ، وانقادت إلى الضباط العثمانيين تحت

رئاسة أنور القائد العام ، فكان معسكر صغير فى طبرق أمام الحامية الطليانية التى نزلت فى ذلك المرسى ، ومعسكر ثان فى عين منصور تحت قيادة أنور بنفسه وهو يقابل الطليان الذين فى درنة ، وكان عدد الطليان عشرين ألف مقاتل ، ولكنهم كانوا لا يقدرون على الخروج ، وكلما خرجوا ردّهم العرب إلى حيث كانوا ، وقد بنوا استحكامات حول درنة يعتصمون بها إذا هاجمهم العرب الى البلدة ، ولكن مهاجمة كهذه كان ينبغى لها مدافع ، ولم يكن فى معسكر أنور إلا مدفعان صغيران لاغير .

وكانت مدافع الطليان من أضخم المدافع ، وكانوا يقذفون علينا بالشرانبل بدون انقطاع ، وأظن أنه لولا المدافع الكبيرة ما استطاع الطليان الثبات فى درنة نفسها .

وأما المعسكر الثالث فى برقة فكان فى بنغازى تحت قيادة عزيز بك المصرى وكانت فيه قبائل العواقير ، والمغاربة ، والدرسة ، والعرُفا ، والعبيد ، وفيه من زعماء السنوسية سيدى عمران السكورى ، وسيدى محمد بن عبد المولى ، وجم غفير معهما وكان المعسكر العربى مخيما فى سهل يبعد ساعتين عن بنغازى إلى الجنوب ، وكنا نخمّن عدده بأربعين ألف مقاتل كلها تحت المضارب . وقد وقعت سواء فى درنة أو فى بنغازى وقائع فى غاية الشدة ، وخسر الطليان فيها ألوفا مؤلفة من الجنود ، وما استطاع الطليان أن يخرجوا مسافة شبر واحد إلا ردّهم العرب إلى المدن فاعتصموا بها تمدّهم بوارجهم من البحر .

وقد ذكرت هذه الحوادث فى حواشى « حاضر العالم الاسلامى » فى مبحث خاص بطرابلس الغرب أوسع من هذا . و بقيت هذه الحالة كما نحن واصفوها إلى أن نشبت الحرب البلقانية ، وهى التى هجمت فيها دول البلقان مجتمعة بسياسة قيصر الروسيا على تركيا مفاجأة ، فتغلبت عليها فبعثوا من الأستانة إلى أنور يستقدمونه إلى الأستانة بالحاح شديد ، فاضطر إلى ترك القيادة كارهاً ، وعاد إلى استانبول وخاض فى حرب البلقان ، ولكن بعد أن كانت دارت الدائرة على الدولة . وكان لأنور بلاء حسن بمعية القائد احمد عزّت باشا الأرناؤوطى عند ما استرجع الأتراك ولاية أدرنة

و بعد رجوع أنور إلى الأستانة صارت قيادة المجاهدين فى يد عزيز بك المصرى

فبقى يقاوم الطليان مدة من الزمن لكنه اختلف مع السنوسية اختلافاً شديداً ، وكانت إيطاليا قد اتفقت مع عباس حلمى خديوى مصر لذلك العهد ، وذلك على أنه يبذل جهده فى تسكين حركة المقاومة فاقتنع بذلك ، وأرسل وفوداً إلى السنوسية ينصحلهم بترك الجهاد فلم يقبلوا كلامه . وحدثنى السيد احمد الشريف أنه عند ما جاءه رسول الخديوى آخر مرة قال له : كنا نتلقاك بالاكرام والاحترام مراعاة للذى أرسلك و إن كنا لم نستطع إجابة طلبه ، ولكن بعد أن تكرر قدومك علينا بالطلب نفسه فاننا مضطرون أن ننذرك بأنك إذا جئت بعد هذه المرة من قبل سمو الخديوى تنصح لنا بترك الجهاد فليس لك عندنا أمان على نفسك .

ولما قطع الخديوى أمله من السنوسية استقدم عزيز بك المصري إلى مصر وكانت الدولة قد عقدت معاهدة الصلح مع إيطاليا وأمرت عزيز بك على باخلاء برقة فجاء ومعه أربعمائة جندى هم بقية العسكر العثمانى الذى كان فى برقة ، والتمس السنوسية من عزيز بك أن يترك لهم الأسلحة والأعتدة التى كانت فى يد العسكر ، فاحتج بعدم إمكانه ذلك لأن الدولة كانت صالحت إيطاليا على طرابلس بعد أن هاجمتها الدول البلقانية ، ومن أجل ذلك لا يقدر هو أن يسحب العسكر إلا بسلاحه ، فحصل بينه و بين العرب من أجل قضية السلاح هذه معركة فى سهل « دَفْنَة » من البطنان غير بعيد عن السلّوم ، قُتل فيها من العسكر بضعة عشر رجلا ، ومن العرب زيادة على ستين فتكاثرت العرب واستصرخ بعضهم بعضا وأحاطوا بالعسكر ومنعوه من المسير وكان مرادهم إصلاء عزيز بك والجند الذى معه معركة لم تكن تنتهى إلاّ بفناء الأربعمائة جندى ، وعدد كبير من العرب المهاجمين ، فوصل الخبر إلى السيد أحمد الشريف بمكانه من الجبل الأخضر ، فأرسل السيد عمر المختار الشهيد المشهور يأمر العرب بالانصراف ، وترك عزيز بك المصرى بعسكره يسير إلى جهة مصر ، وكانت المسافة بين مكان السيد السنوسى ومكان عزيز بك مسيرة أربعة أيام ، فقطعها الشيخ عمر المختار فى أربع وعشرين ساعة ، ولما وصل وجد العرب كلها تجمعت وقد أحاطت بعزيز بك وعسكره تريد الأخذ بالثأر ، فأبلغ عمر المختار قبائل العرب أمر السيد أحمد

الشريف وقال لهم : مهما كان قد حصل فانه لايليق بنا أن تكون نهاية مساعدة الدولة لنا فى هذه الحرب أن نفتك بعسا كرها لأجل مسألة سلاح ، وهم مجاهدون ومسلمون مثلنا . وهكذا ألقى عمر المختار السلام بين الفريقين ، ومضى عزيز بك بعسكره إلى مصر وقد ترك السلاح للعرب

ولا بد من التنويه بالمقام المحمود الذى كان لأهل مصر في هذا الجهاد ، فان هجوم الطليان على طرابلس وقع بغتة ، فما مضت أيام حتى بدأوا بالتفاوض مع العرب واستجلبوا أناساً منهم إلى جهتهم لأن الطرابلسيين رأوا أن الدولة لم ترسل قوة تدافع بها عن بلادها ، ووجدوا القوة التى لها من قبل فى طرابلس تكاد تكون عدماً ، فانقطعت آمالهم من إمكان الجهاد . و بينما هم فى منتهى الانكسار إذ وصلت اليهم قوافل من مصر موقرة أرزاقاً يتلو بعضها بعضا ، فكانوا كالأرض المَيّتة التى أصابها وابل فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، ومن ذلك الوقت بدأوا بالجهاد العظيم ، وعلموا أن المسلمين من وراثهم ظهير ، ثم لم يلبث أنور أن وصل فازدادت بذلك ثقتهم واشتدت حماستهم ، وكان منهم هذا الجهاد الذى استمر عشرين سنة . على أنه لو لا دعوة السيد احمد الشريف هذه القبائل إلى الجهاد ما كان مجىء أنور من الأستانة ولا كانت جمعية الاعانة المصرية التى ترأسها الامير عمر طوسون ليتمكنوا من تأسيس هذا الجهاد المبين على هذا الاساس المتين ، الذي أذن للعرب بأن يصدّوا دولة عظيمة كايطاليا مدة عشرين سنة !

وأما من جهة غربى طرابلس فقد كان الجهاد لايختلف فى شىء عما كان فى جهة برقة ، واجتمعت هناك الكلمة على الحرب دفاعاً عن الوطن ، والتفوا حول نشأت بك قائد الجند العثمانى الذى جاءه فتحى بك الملحق العسكرى العثمانى فى سفارة الدولة فى باريز ، وصار هو رئيس أركان الحرب ، وانضم إليهم رجالات طرابلس مثل الشيخ سليمان البارونى زعيم الأباضية ، وآل سيف النصر ، والمحاميد ، وأهالى مصراته وترهونه ، وزليطن ، وأُرفلّة ، وغيرهم . وكان للدولة معسكر أمام طرابلس ، ومعسكر آخر أمام خُمس ، وكان فى المعسكر الأول نشأت بك ، وفتحى بك ، وفى المعسكر

الثانى خليل بك خال أنور باشا ، ونورى بك أخوه . وكانت الحالة هناك كما كانت في برقة تماماً ، أى أن المجاهدين كانوا يصدون الطليان عن الخروج من طرابلس وخمس ، و بقى هذا الأمر إلى أن نشبت الحرب البلقانية وصالحت الدولة إيطاليا على طرابلس، فانفضت هذه الجموع ، وركب نشأت بك وفتحى بك ببقية العساكر إلى الأستانة ، وكما أن المصريين قاموا بالواجب تحت رئاسة الامير عمر طوسون من إمداد مجاهدي برقة ؛ فان التونسيين قاموا أيضاً بمثل ذلك من إمداد مجاهدى طرابلس وكلٌّ من الفريقين أنفق بدون حساب ، وتجلّى هناك تعاون المسلمين بما يسر الخواطر و يحقق قوله تعالى (إنما المؤمنون إخوة) .

وأحزّر أن المصريين أمدوا مجاهدى برقة بمبلغ لا يقل عن مائتى الف جنيه نقدا عدا قيمة الاقوات والارزاق التى كانت قوافلها متصله يلاقى بعضها بعضاً بين غاد ورائح ، وقادم وقافل ، فهذه لا أعلم حسابها ، وعدا ثلاث بعثات أرسلها الهلال الاحمر المصرى ، وقام فيها بمساعدات كبيرة . وكان للدولة العثمانية أيضاً بعثات هلال أحمر متعددة وجاءت بعثة هلال أحمر أيضاً من قبل أهالى مَنْشَستر فى الروملى ، وعدا ما كان من معالجة الجرحى فقد وجدت هذه البعثات الصحية أن الاهالى كانوا مصابين بأمراض مزمنة ، وأو بئة مستحكمة ، لا سيما مرض الزهرى المنتشر . فأخذت هـذه البعثات بمؤاساتهم بعد أن كانوا لا يعرفون شيئاً من أمر العلاج والوقاية ، فاستفاد الاهلون كثيرا فى صحتهم ، لا سيما عرب الجبل الأخضر . ولولا أن نشبت الحرب البلقانية والتزم المصريون تحويل إمداداتهم إلى جهة الأستانة ؛ لـكان الجهاد فى القطر الطرابلسى بقي على حاله ، وكان الطليان لا يقدرون أن يبرحوا مراكزهم وراء استحكاماتهم ولـكن الحرب البلقانية شغلت المسلمين عن حرب طرابلس ، وانصرفوا عن المهم إلى الأهم ، وأخذت لجنة الاعانة تحت رئاسة الأمير عمر طوسون «أمين الأمة» ترسل الاعانات إلى الدولة ، وأراد الأمير عمر أن يبعث أيضا ما بقى من الاعانة الطرابلسية إلى الأستانة فـكتبت إليه حينئذ أرجوه أن يبقى إعانة طرابلس لطرابلس لأنها فى الحرب البلقانية لا يكون لها غناء ذو بال ، وأما فى طرابلس فانها تسد أرماق المجاهدين

الذين كانوا يجاهدون مكتفين بالقوت الضرورى ، فقد كان الواحد منهم يعيش بقرش ونصف فى اليوم .

ولما طال القتال فى طرابلس على غير نتيجة لايطاليا ؛ أخذت هذه تفكر فى اشمال الحرب على تركيا فى أمكنة أخرى ، فأما الدردنيل فكانت الدولة قد بادرت بتحكيمه ووضعت فيه أربعين ألف عسكرى فلم يجرأ الاسطول الطليانى أن يقتحمه حذراً من الدمار ، ولكنه احتل موقعاً من جزيرة لمنى .

ثم ذهب فدمّر نسّافتين من الاسطول العثمانى كانتا فى بيروت ، ولما لم يجد الطليان فائدة من هذه التهويلات أجمعوا احتلال جزيرة رودوس وبقى مع ذلك العثمانيين مصممين على القتال ، وكان فريق من الترك يود فى الباطن مصالحة إيطاليا على طرابلس تخلصاً من الأخطار التى كان يخشى منها على الدولة باستمرار الحرب ، إلا أنهم خافوا هيجان العرب والعالم الاسلامى فيما إذا تخلوا عن طرابلس ، ولم يكن مساعداً لايطاليا يومئذ حسب زعم الطليان سوى الخديوى بالسبب الذى تقدم ذكره وقد أشار إلى ذلك جيولتّى رئيس نظار إيطاليا السابق ، وذلك فى مذكراته المطبوعة التى يذكر فيها تاريخ حياته ، فصرح بأن عباس حلمى خديوى مصر كان من أول حرب طرابلس إلى آخرها مساعداً لايطاليا بما أمكنه من الوسائل ، بحجة أن جده اسماعيل باشا عند ماخلع من إمارة مصر وسكن فى نابولى أحسنت الحكومة الايطالية معاملته! ولما اطلع الأتراك على هذا الكتاب بعد الحرب العامة ، وكان جيولتّى نشره قبل ذلك ببضع سنوات كان لذلك وقع سيىء لديهم ، وطعنت جرائدهم فى الخديوى السابق طعناً شديداً .

فالدولة كانت إذاً لا تجرأ على التخلى عن طرابلس حتى بعد احتلال رودوس وكان الطليان أصبحوا فى حيص بيص من تمادى هذه الحرب التى كلفتهم مبالغ طائلة من المال « منذ عشر سنوات كانت ايطاليا أحصت خسائرها المالية على طرابلس بثلاثمائة مليون من الجنيهات » وعشرات ألوف من الرجال ، فحدثتها نفسها أخيراً باحتلال بلاد الروملى ، وكان هذا مما يغيظ البلقانيين الطامحين إلى ميراثها من تركيا

وكانت الروسيا قد بدأت بسياسة التأليف بين البلغار والسرب واليونان ، حتى يهاجموا الدولة العثمانية يداً واحدة ، فوجدت إيطاليا فى احتلال الروملى سبباً للتنازع بينهاو بين البلقانيين ، فتوقفت عن ذلك وربما تكون إيطاليا كلفت الروسيا اتخاذ سياسة ضغط على الباب العالى حتى يرضى بالتخلى عن طرابلس .

فأخذت الروسيا تفاوض الدول العظام فى التوسط لدى الباب العالى فى هذا الأمر ، وأخيرا اتفقوا جميعاً على تقديم مذكرة إلى تركيا ينصحون لها فيها بوضع حد لهذا الخلاف ، فأجابت تركيا أن الصلح الوحيد الذى يمكنها أن ترضى به هو إلغاء قرار مجلس نواب إيطاليا استلحاق طرابلس الغرب ، وسحب جميع العساكر الطليانية من ذلك القطر ، و إلا فهى تقاتل إلى ما شاء الله قتال المظلوم المعتدى عليه ! و بينما تركيا على أشد ما يمكن من العزم للدفاع عن طرابلس لما شاهدته من بأس الطرابلسيين وشدة بلائهم فى هذه الحرب ، ولكونها لم تكن تتكلف عليهم فى الشهر الواحد أكثر من مئة ألف جنيه ؛ إذ راعها اتحاد الدول البلقانية الأربع : اليونان ، والبلغار ، والسرب والجبل الأسود ، وتحفزهم للزحف عليها فعند ذلك أجمعت الصلح مع إيطاليا مكرهة.

وكان أنور لا يزال فى الجبل الأخضر ، ووصل إلينا الخبر ونحن هناك . فعلمت أن الدولة لا تقدر أن تكافح البلقانيين جميعاً ومعهم إيطاليا . وفكرت أنه يمكنها إذا أكرهت على الصلح مع إيطاليا أن تستمر على إمداد الطرابلسيين سراً بواسطة مصر ، و يمكنها أيضاً أن تسحب عسكرها النظامى الباقى فى طرابلس بدون أن يُحدث ذلك فتوراً فى الدفاع . فبعد أن وقعت مذاكرات بينى و بين السنوسيين من أعوان السيد أحمد الشريف لأنه كان وقتئذ لم يزل فى الكفرة ، برحت الجبل الأخضر قادماً إلى مصر ومنها قصدت إلى الأستانة ، فوجدت الحرب البلقانية على وشك الانفجار وكان الصدر الأعظم حينئذ مختار باشا الغازى ، ولكن السياسة كان أكثرها فى يد كامل باشا ، وكان ناظر الحربية ناظم باشا ، وكان شيخ الاسلام جمال الدين أفندى فقابلتهم جميعاً وأوضحت لهم محاذير التخلى عن طرابلس ، فقال لى كامل باشا بالحرف : إننا لا نقدر أن نحارب أربع دول البلقان ، ونستمر على محاربة دولة عظيمة كايطالية .

فبيّنت له أن استمرار الدفاع عن طرابلس ممكن بدون تكليف الدولة مؤونة شاقة لأن المجاهدين هنالك إذا كفلت لهم الدولة والعالم الاسلامى قوتهم الضرورى فانهم يقدرون أن يصدّوا الطليان عن التقدم ، وليس المقصد من مسعانا سوى إقناع الدولة بأنها إن أكرهت على الصلح لا تتخلى عن إمداد الطرابلسيين بواسطة مصر . فهذا الرأى لم يرفضه كامل باشا ، وكذلك أكّد لى جمال الدين أفندى شيخ الاسلام بأن الدولة لن تهمل أهل طرابلس ، ولكنها مضطرة الآن أن تكفّ عن حرب إيطاليا حتى تكون انتهت من الحرب البلقانية .

و بالاختصار أرسلت الدولة نابى بك ، وفخر الدين بك إلى سويسرة حيث اجتمعا مع برتولينى وفولبى معتمدى إيطاليا و باشرا مذاكرات الصلح ، وانتهى الأمر بأن الدولة تترك سيادتها على طرابلس لأهاليها ، وتنصح لهم بالائتلاف مع إيطاليا ، وأن إيطاليا تعفو عن جميع الذين قاوموها فى طرابلس من الأهالى ، والعساكر التى للدولة فى طرابلس يخرجون منها ، كما أن العساكر الايطالية تجلو أيضاً عن رودوس ، وجزر الأرخبيل التى احتلتها .

وكان أيضاً من جملة الشروط أن تبقى طرابلس مرتبطة بالدولة من الجهة الدينية فالسلطان يبقى هو الخليفة الأعظم فى نظر الطرابلسيين ، و يدعى له على المنابر ، و يكون للسلطان وكيل فى طرابلس يقال له نائب السلطان ، وقد تعين بعد الاتفاق شمس الدين باشا لهذا المنصب ، ومعه يوسف بك شتوان مستشاراً .

وكانت وزارة سعيد باشا قد شعرت بأن المجلس لا يمشى معها فى قضية الصلح مع إيطاليا ، لا سيما بعد أن جاء يوسف بك شتوان وخطب فى مجلس المبعوثين خطاباً مآله أن الحالة الحربية هى فى طرابلس مرضية جداً لا تؤذن بأدنى خطر ، وأنه لا خوف على الدولة إلا من الشقاق الداخلى ، فتحمس المبعوثون وآلوا بعدم الموافقة على الصلح وكان الصدر الأعظم بدأ يشعر بقرب الحرب البلقانية ، و يرى أنه لابد من عقد الصلح مع إيطاليا ، وكان المجلس لا يزال فى شقاق بعيد بين الأحزاب ، فأقنع سعيد باشا السلطان بحل مجلس المبعوثين حتى يتسنّى للحكومة أن تمضى فى سياستها ، وكان

للسلطان حق في حل مجلس النواب بموافقة مجلس الأعيان على شرط مباشرة الانتخابات لانعقاد المجلس الجديد ، فصدر الأمر بحل المجلس وانتُخب مجلس جديد ، وما كاد ينعقد المجلس حتى جاءت الأخبار بأن الارناؤوط استأنفوا الثورة ، واتفقوا هذه المرة مسلمين وكاثوليكيين وأرثوذكسيين يداً واحدة فى وجه الدولة ، وعلى رأسهم اسماعيل بك مبعوث برات ، ونجيب دراغه مبعوث درشتنه ، و بصرى بك مبعوث دبره وحسن بك ، و يحيي بك ، وغيرهم . وانضم اليهم أيضاً ضباط أرناؤوط من ضباط الجيش العثمانى ، وعقد هؤلاء الأرناؤوط اجتماعاً حضره ٨٦ من رجالاتهم ، وقرّروا طلب حل المجلس الجديدوعزل الاتحاديين الذين فى الحكومة مثل محمود شوكت باشا ناظر الحربية ، وطلعت بك ناظر البوسطة والتلغراف ، وجاويد بك ناظر الاشغال النافعة ، فاشتد الخطب على الدولة ، واستعفى محمود شوكت باشا وظهر أن الاتحاديين أصبحوا بعد ثورة ألبانيا يخشون تحمّل المسئولية ، فصار الصدر الأعظم سعيد باشا يعرض نظارة الحربية على المقتدرين فلا يقبلها أحد منهم ، فاختار الاستعفاء . فانتدب السلطان لتأليف الوزارة الغازى مختار باشا المشهور .

وكانت تألفت فى الأستانة جمعية عسكرية يقال لها جمعية « الخلاص كاران » فوزَّعت منشوراً تطلب فيه تبديل الحكومة ، ومنع الاشخاص غير المسئولين من التدخل فى أمور الدولة ، وتقترح حل المجلس وانتخاب مجلس آخر بتمام الحرية وكانت الحكومة تريد سن قانون يمنع رجال العسكرية من التدخل فى السياسة فهذه الجمعية أعلنت أن رجال العسكرية لا يمتنعون عن التدخل في السياسة إلا بعد قبول هذه المطالب . فقرىء هذا المنشور فى المجلس وأثار حركة شديدة ، وأقسم المبعوثون بأنهم لا يتركون كراسيهم الاَّ موتى ، وطلبوا من الحكومة التحقيق عن الجمعية التى وزّعت هذا المنشور ، فجاء الصدر الاعظم مختار باشا ومعه ناظم باشا ناظر الحربية الجديد وطمأنا خواطر المبعوثين ، وتعهد ناظم باشا باعادة النظام الى الجيش كما كان وتلا الصدر الاعظم برنامج الوزارة الجديدة وفيه منع الضباط من الاشتغال بالسياسة

ومنع المأمورين من التدخل فى أمور الانتخابات ، والتقيّد بالقوانين الموضوعة فى أمر تعيين المأمورين ، وغير ذلك . وأما من جهة الصلح مع ايطاليا فلم تعلن الوزارة شيئاً ، ثم وقع الخلاف فى المجلس على قضية حق السلطان فى حل المجلس وعدمه وكان الاتحاديون الذين لهم الاكثرية فى المجلس يريدون إعطاء هذا الحق للسلطان على شروط كان يناقشهم فيها خصومهم حزب الحرية والائتلاف ، وكان هذا الحزب يرأسه لطفى فكرى ، فاشتد الجدل بين الفريقين ، وفى أثناء ذلك كانت ثورة الارناؤوط تتفاقم يوماً فيوماً ، ثم بدأ الشقاق بين أعضاء الوزارة نفسها ، وانتدب مختار باشا الصدر السابق فريد باشا الارناؤوطى لأجل نظارة الداخلية ، وحسين حلمى باشا الصدر السابق أيضاً لنظارة العدلية ، فأبى فريد باشا الدخول فى الوزارة ، ودخل حسين حلمى باشا ولكنه اضطر بعد قليل الى الاستعفاء ، وازداد تحرّج مركز الحكومة التى كانت ترى ازدياد مشكلاتها فى الداخل والخارج ، و بينما ثائرة الارناؤوط تتوقد إذا بعصائب البلغار فى مقدونية ــ أى الروملي ــ رجعت إلى العمل ، وأخذت بنسف السكك الحديدية ثم فى نهار العيد انفجرت قنبرة فى « جامع أشتب » وجرح بها أناس كثيرون ، فثار المسلمون وأوقعوا بكثير من البلغار ، ثم حصلت حوادث من هذا القبيل فى ولاية « أسكوب » فانتقم المسلمون أيضاً بقتل عدد من البلغار ، وأهم حادثة هى التى وقعت فى « كوتشانة » فى أول أغسطس سنة ١٩١٢ ؛ فانه كان قد وضع البلغار قنابر فى السوق فانفجرت وقتلت عدداً من المسلمين ، فأوقع المسلمون بالبلغار ، وقيل إنهم قتلوا منهم ١٥٠ شخصاً ، وهكذا استمرت الحوادث مدة طويلة ، فعصائب البلغار تلقى القنابر الديناميتية فى الاسواق والجامع عمداً لأجل إثارة المسلمين حتى ينتقموا من المسيحيين ، وتضطر الدول المسيحية للتدخل فتنسلخ مكدونية عن تركيا ، وهذا على نمط حركات الأرمن .

وكان البلقانيون أكثر الأحيان مختلفين بعضهم مع بعض ، نعنى بذلك البلغار واليونان ، والسرب ، وذلك لأن مكدونية التى يقول لها الترك الروملى فيها من جميع هذه الاجناس ، فالبلغار يدعون أنها يجب أن تكون لهم ، واليونان يحتجّون بأن

الأكثرية فى سلانيك ونواحيها وتراقيا هى للجنس الرومى ، والسربيون يحتجّون بأن الأكثرية فى شمالى مكدونية هى لهم ، وكل فئة تعزّز دعواها بأدلة . ولم يكونوا يفكرون بشىء من حقوق المسلمين هناك ، مع أن المسلمين فى البانيا ومكدونية كانوا أكثر من نصف السكان ! وكانت للدولة فى أوربا ست ولايات ؛ الاولى ولاية أدرنة الواقعة على البحر الاسود ممتدة من ضواحى الاستانة إلى حدود البلغار ، والثانية ولاية سلانيك التى يتبعها أكثر مكدونية ، والثالثة ولاية قوصوه التى هى الآن من ضمن مملكة يوغوسلافيا ، والرابعة ولاية مَنَسْتر الواقعة بين يوغوسلافيا و بلاد اليونان والخامسة ولاية يانيا من جنوبى بلاد الارناؤوط ، والسادسة ولاية شقودرة في شمالى بلاد الارناؤوط . وكان عدد المسلمين فى هذه الولايات الست من أرناؤوط وترك وبوماق — وهم نوع من البلغار دينهم الاسلام ولغتهم البلغارية — ومهاجرين يزيدون على عدد النصارى بقليل . فلم يكن للبلقانيين حق فى ادّعاء تقسيم هذه البلاد فيما بينهم لا سيما وقد كانوا هم أنفسهم غير متفقين فى التقسيم ، وكل فئة تريد أن تأخذ حصة الاخرى ، ولكن ضعف الدولة العثمانية وتكالب الدول الاوربية عليها من كل جهة أوسعا مطامع البلقانيين حتى أصبحوا لا يفكرون فى شىء سوى طرد الاتراك من أوربا تماماً ، بحجة أنهم طارئون على أوربا من آسيا ، وأنهم لم يكونوا ذوى ملك فى شبه جزيرة البلقان قبل القرن الرابع عشر للمسيح . ثم إن البلقانيين كانوا يعلمون أن الاتراك فى حال تغلبهم عليهم لا يقدرون أن ينالوا منهم شيئاً ، ولا أن يفتحوا من بلدانهم بلداً بخلاف مالو تغلبواهم على الاتراك فانهم حينئذ يقدرون أن ينالوا كل ما يريدون ، وذلك عملا بقاعدة إن ما يؤخذ من الهلال للصليب لا تمكن إعادته للهلال ، وأن ما يؤخذ من الصليب للهلال فلا بد من أن يرجع إلى مكانه . وهذه القاعدة متفق عليها فى أوربا تطبقها أوربا بقدر إمكانها ، والبلقانيون يعلمونها . وفى بداية الحرب البلقانية كان فى ظن الدول الاوربية أن تركيا تتغلب على البلغار والسرب واليونان والجبل الأسود ، فأرسل المسيو بوانكاره — وهو يومئذ رئيس نظار فرنسا — مذكرة إلى تركيا وإلى الدول البلقانية المتحالفة عليها ، يبلّغ الجميع بأنها إذا حصلت حرب بين الفريقين فالدول لا تسمح

للفريق الغالب أن يأخذ شيئاً من الفريق المغلوب . وقد كتب بوانكاره هذا تزهيداً للفريقين فى الحرب ، وكان مرجحاً عنده أن دول البلقان لا يقدرون على تركيا ، فلما وقعت الواقعة وانهزمت تركيا فى هذه الحرب بما كان فيها من الشقاق المستمر الذى صرف نظرها عن الاحتياط لحفظ ثغورها ؛ نسى بوانكاره بلاغه هذا الرسمى الذى كتبه باسم الدول ، وكان من جملة المساعدين للبلغار واليونان والسرب على اقتسام تركية أوربا . وكان مراد الدول - لاسيما انكلترة وفرنسا والروسيا - إلحاق ألبانيا أيضا بمكدونية وإعطاء جنوبيها لليونان ، وشماليها للسرب ، لولا معارضة النمسا وإيطاليا فى ذلك . فالنمسا كانت دائما تجتهد فى منع اتساع مملكة السرب ، وقد كان هذا من أكبر عوامل الحرب العامة ، وإيطاليا نفسها كان من مصلحتها حفظ ألبانيا للارناؤوط ، فلذلك بعد الحرب البلقانية وافقت الدول على تأسيس استقلال خاص لالبانيا ، ولكن بعد شدة عظيمة كادت النمسا فيها تقتتل مع الروسيا ، غير أنهم ظلموا الارناؤوط أيضا إذ أن هذه الامة تبلغ نحواً من ثلاثة ملايين يسكنون على ساحل بحر الادرياتيك بين الجبل الاسود من الشمال ، واليونان من الجنوب ، ومكدونية من الشرق ، وهم كتلة واحدة كلهم أرناؤوط ، ولسانهم هو اللسان الارناؤوطى ، وإن كان الثلثان منهم مسلمين ، والثلث الثالث كاثوليكيين وأرثوذكسيين .

وعلى كل حال فبعد أن تقرر إخراج الدولة العثمانية من أوربا وجب أن يُعطى الأرناؤوط البلدان التي هم فيها أكثرية السكان وهى ؛ ولايات يانيا ، واشقودرة وقوصوه ، ومَنَسْتر ، لاسيما أن الأتراك المسلمين كانوا بعد خروج الدولة العثمانية من الروملّلى يفضلون الانضمام إلى الأرناؤوط حتى يتخلصوا من حكم البلغار واليونان والسرب فالذى حصل فى مؤتمر لندرة بعد الحرب البلقانية بتأثير الروسيا ، ومساعدة فرنسا لها لم يكن مطابقا لحقوق الأمم من الجهة التى يقال لها « الاتنوغرافية » بل بشدة الحاح النمسا ، وموافقة إيطاليا جعلوا بلاد الأرناؤوط المستقلة عبارة عن ولايتى يانيا وشقودرة وألحقوا منهما شيئا للجبل الأسود ، وشيئا لليونان ، وكل الذى بقي للمملكة المستقلة لا يزيد عدد سكانه على مليون واحد . والحال أن جنوبى يوغوسلافيا لاسيما ولاية

قوصوه مأهول بالأرناؤوط ، فلذلك يوجد الآن من الأرناؤوط ضمن مملكة يوغسلافيا وعلى حدود ألبانيا أكثر مما يوجد فى ألبانيا نفسها ! ! وهذه من المسائل التى لم تصب فيها الدول ، و إنما كان الاعوجاج فيها هو بسبب تعصب الروسيا للسربيين . وستكون هذه من أسباب تجدد الحروب فى شبه جزيرة البلقان .

ولما كان الاختلاف شديداً بين العناصر المسيحية فى البلقان الرومى والسلافى والبلغارى ؛ ففى زمن السلطان عبد الحميد سعت الروسيا كثيراً فى التأليف بينهم حتى يتمكنوا من إخراج الدولة العثمانية من هناك ، ولكن السلطان عبد الحميد بدهائه و يقظته كان دائما يمنع الاتفاق بينهم ، و يستميل هذا العنصر تارة ، وذاك العنصر أخرى . أما جمعية الاتحاد والترقى فاغترت بقوّتها وظنّت أن اعلان الدستور قد نفى كل خطر عن السلطنة ، ونامت عن مراقبة السياسة الخارجية ، بل بلغ غرور بعض أعضائها فى أول الأمر أن اعتقدوا حركات البلغار واليونان والسربيين لخلع الحكم العثمانى إنما السائق فيها مجرّد سوء الادارة العثمانية ، وأنه لو اصطلحت الادارة العثمانية لأخلد هؤلاء إلى السكون ! وحقيقة الحال أن هؤلاء لم يكونوا براجعين عن حركاتهم حتى يطردوا الاتراك من شبه جزيرة البلقان ، وأن المسألة عندهم تاريخية محضة لا تعلق لها بالادارة فى حسنها وعدمه . فهذه البلاد لم يكن فيها مسلمون قبل السلطان مراد الأول ، فيجب أن أن تخلو تماماً من المسلمين مرة ثانية . هذه هى فكرتهم الحقيقية وأوربا كلها تميل إلى هذه الفكرة ، ولما افتتح البلقانيون سلانيك قال أحد وزراء الانكليز : لا يمكننا إلاّ أن نفرح باسترجاع المسيحيين للبلدة التى بها ابتدأ انتشار النصرانية .

و إذا رجعنا إلى الحقائق نرى أن الحرب الصليبية و إن كانت غير مستمرة إلى اليوم تحت هذا الاسم كما كانت فى القرون الوسطى ؛ فهى مستمرة بالفعل ، بالروح نفسها و إن كان قد تغير الاسم ! وكل بلاد وجدت تحت حكم المسيحيين فى الغابر تجتهد الدول الأوربية فى إخراجها من تحت حكم المسلمين ولو كان مضى على ذلك بضعة عشر قرناً ، أى أن الأندلس تمثل فى كثير من البلدان وليست هى منحصرة

فى اسبانيا ، فالمسلمون ليس لهم إلا القوة ليحافظوا على أنفسهم ، ولما كانت الدولة العثمانية قوية تغلبت ليس على بلاد اليونان والبلغار والسرب فقط ؛ بل على بلاد رومانيا ، والمجر ، وخرواطية ، وقسم من بولونيا ، وحاصرت ڤينا مرتين . فلما حل بها الضعف صارت تتقلص شيئا فشيئاً إلى الجنوب حتى لم يبق لها فى أوائل هذا القرن غير الولايات الست التى تقدم ذكرها ، ولم يكن من المأمول أن تحفظها إلا بالقوة القاهرة .

حدثنى حسين حلمي باشا الصدر الأعظم السابق وهو الذى كان مفتشا عاما للولايات المذكورة يوم أعلن الدستور العثمانى أن السر أدوارد غراى ناظر الخارجية الانكليزية المشهور سأله : ألا يوجد طريقة تنحل بها مشكلات مكدونية ؟ فأجابه: نعم يوجد طريقة وهى أن يكون عندنا نحن الأتراك القوة اللازمة لكسر البلغار واليونان ، والسربيين ، والجبل الأسود فى وقت واحد ، وليس من طريقة غير هذه .

هذا وقد كان السعى فى جمع كلمة الدول البلقانية الاربع قديماً . وسنة ١٨٨٨ قدم أمير الجبل الأسود نيقولا لائحة الى قيصر الروسيا تتضمن وجوب تحالف هذه الدول ضد تركيا تحت حماية القيصر ، وسنة ١٨٩٣ صارت مكالمة بين اليونان والبلغار فى هذا الصدد ولكن لم تسفر عن نتيجة ، ثم إن البلغار والسربيين اتفقوا على ذلك وبقى الخلاف بين السرب والجبل الاسود ، فتوسط البلغار بين الفريقين ومهدوا العقبات فبقى ناقصاً دخول اليونان في الاتحاد ، فالذين من اليونان قاموا بالسعى الحثيث للائتلاف مع البلغار برغم ما كان بين الفريقين من نقط الخلاف هم « باناس » سفير اليونان فى صوفيا ، و « فنزيلوس » رئيس نظار اليونان . وكان إهمال الاتحاديين للسهر على هذه المسألة من جملة أسباب اتفاق البلقانيين ، حتى أنه لما علم السلطان عبد الحميد المخلوع بخبر الاتحاد البلقانى هذا هز برأسه وقال : كم من مرة أوشك هذا الاتحاد أن ينعقد وسعيت كل سعى حتى منعته ! قال هذا عند ما جاؤا ينقلونه من سلانيك إلى الاستانة ، فسأل عن السبب فقالوا له : إن دول البلقان الاربع تحالفن على تركيا والحرب قريبة الوقوع . وفى ١٣ مارس سنة ١٩١٢ انعقدت أول محالفة بين السرب والبلغار

ضد تركيا . وفى ٢٩ مايو من السنة نفسها انعقدت المحالفة بين البلغار واليونان ، ولكن الأولى كان أمدها ست سنوات ، أما الثانية فكانت لثلاث سنوات . وفى ٥ اكتوبر من تلك السنة ذهب « دانف » رئيس مجلس النواب البلغارى إلى « ليفادية » فى القريم فأخبر القيصر الروسى والمسيو سازونوف ناظر خارجيته بانعقاد جميع المحالفات اللازمة بين البلقانيين ، وانحلال جميع العقد التى كانت تفرق بينهم ، لأن القيصر كان هو الحَـكَم فى ما اذا اختلفوا . وفى ذلك الوقت كانت ثورة الأرناؤوط أجبرت الدولة العثمانية على منح الارناؤوط بعض امتيازات رآها البلقانيون مضرة بهم ، فلما تحققت الدول أن الحرب بين البلقانيين وتركيا واقعة لامحالة ؛ توسطت النمسا فى الخلاف تفاديا للحرب وذلك على أساس إدخال الاصلاحات فى بلاد الروملى ، وأن تكون هذه الاصلاحات تحت إشراف لجنة دولية .

وبينما الدول فى المذاكرة حتى تمنع الحرب ؛ إذا بأمير الجبل الأسود يعلن الحرب على تركيا فى ٨ اكتوبر سنة ١٩١٢ وفى ١٣ منه عالنت الدول الثلاث اليونان والسرب والبلغار الدولة العثمانية طلب الاصلاحات فى الروملى بحسب المادة ٢٣ من معاهدة برلين ، وطلبت تفريق العساكر العثمانية المرابطة فى الروملى . وكانت مذكرة هذه الدول فى شكلها غير مقبولة ، فلم يبقَ أمام تركيا سوى إعلان الحرب . ولكن كامل باشا كان يرجو فصل اليونان عن الاتحاد البلقانى بالنزول لهم عن جزيرة كريت ، فذهب سعيه سدى لأن فنزيلوس أبى بتاتاً أن ينفصل عن حلفائه فنشبت إذاً الحرب .

وكان البلغار مستعدين للقتال من زمن طويل ، فزحفوا بمائتين وخمسين ألف مقاتل من أحسن الجيوش تدريباً ، وأكملهم عدة ، ولم يكن عند الدولة جيش متقن التدريب كهذا الجيش ، بل كان من أغلاط السلطان عبد الحميد التى لا يمكن التمارى فيها منع التمرينات العسكرية خوفاً من انتقاض الجيش عليه ، واستمر هذا طول مدة سلطنته . فالعسكر الممرّن الذى كان فى زمن عمه السلطان عبد العزيز ، والذى بمثله انتصر عثمان باشا على الروس فى بلفنة ، واحمد مختار باشا فى القوقاس ؛ ذهب ولم يقم

مقامه عسكر آخر مثله . فجميع العسكر فى زمن عبد الحميد لم يكن يعرف شيئاً من التمرينات التى كانت فى زمن عمه ، فكان الفرق إذاً كبيراً بينه وبين العساكر البلقانية . ولما جاء الاتحاديون وخلعوا السلطان عبد الحميد أرادوا إصلاح الجيش بعملية سموها عملية التصفية ، فأخرجوا إلى التقاعد جميع الضباط القدماء المجرّبين ووضعوا مكانهم شباناً خالين من التجربة ، وبعبارة أخرى انحلّ الجيش القديم ولم يمضِ الوقت الكافى حتى يتكوّن جيش جديد . ومن جملة أسباب الضرر الذى وقع هو اشتغال ضباط الجيش بالسياسة ، وانصرافهم عن واجباتهم إلى إحداث القلق فى المملكة ، والانتصار لفئة على فئة مما يجب أن ينزّه الجيش عنه .

فصار الجيش العثمانى بعد اعلان الدستور أشبه بجيش الانكشارية القديم فى الفوضى ، فهذه الفرقة تخرج عن الطاعة وتنحاز إلى العصاة مثلا ، وهذه الجمعية من ضباط الجيش تطلب إسقاط الحكومة وحلّ المجلس ، وهذه الفرقة الأخرى تهجم على مجلس الأمة وتسفك دماء بعض المبعوثين وبعض النظار بتحريك خفى من رجال السياسة ، وكم وقع من قتل جنود لضباطهم ، وعصيان ضباط على قوادهم .

نعم أن فون غولتس باشا الألمانى كان هو والضباط الذين معه أصلحوا كثيراً من حالة الجيش فى تركيا ، ولكن السلطان عبد الحميد كان يمنع التمرينات العسكرية خوفاً على نفسه ، وكانت هناك مصالح ضرورية للجيش ، وكانت هى بغاية الاهمال وهى مثل مصلحة الاعاشة . ومصلحة الصحة ، ومصلحة إركاب العساكر فى السكك الحديدية ، وغير ذلك مما لا غنى عنه في الجيوش العصرية . وأضف إلى كل هذه النواقص أن الدولة فى حرب البلقان احتقرت البلقانيين أشد الاحتقار ، وظنّت أنها فى شهر من الزمن تمزّق شملهم كل ممزّق ، حتى أن ناظم باشا ناظر الحربية أعلن الضباط وجوب أخذهم ألبستهم الرسمية إلى ميدان القتال ، حتى اذا دخلوا صوفيا و بلغراد وأثينا ووقع عرض الجيش يكونون بألبستهم الرسمية ، كأنّ أمر الظفر عنده كان لا يتطرق إليه الشك ، وهذا أشبه بزبيدة أم الأمين عند ماأعطت قائد جيش ولدها قيداً من فضة وقالت له : إن المأمون هو من أولاد الخلفاء ، ومتى وقع فى يدك

فلا يصح أن تقيده كما تقيد سائر الأسرى « أي بالحديد » فأنا أعطيك هذا القيد من الفضة لتقيده به ، عند ما يقع فى الأسر . فـكان من الأمر أن المأمون هو الذى قهر الأمين وأخذ منه الخلافة ، ثم قتل الأمين فى المعمعة . ثم بناء على هذا الاستخفاف لم تستنفر الدولة الجيوش التى لها فى سورية ، ولا فى العراق ، ولا فى شرقى الأناضول حيث كانت تخشى ثورة من جهة الأرمن ، فاقتصرت على جيش الروم‌للى وعساكر قسم من الأناضول . ولم يكن جيش الروم‌للى كله ليجتمع ، لأن الأرناؤوط كانوا فى حال ثورة ولم يقاتلوا فى هذه الحرب إلا قتال عصائب ، وبهذا كان عدد الجيوش البلقانية أعظم من عدد الجيش العثمانى ، ففى كل من الساحات الثلاث أى ساحة تراقية الشرقية أمام البلغار ، وساحة مكدونية العليا أمام السرب ، وساحة سلانيك أمام اليونان ؛ كان الجيش العثمانى أقل عدداً وأقل معدات من أعدائه . وفى ١٨ اكتوبر زحف البلغار لأخذ أدرنة فلم يتمكنوا من ذلك ، ولـكنهم ظهروا على الأتراك فى ناحية طونجة . وكان عبد الله باشا فى ٢٠ و ٢١ اكتوبر أعطى الأمر بالهجوم بدون أن يؤمّن خطاً للرجعة ، فارتكب فى ذلك خطأ حربياً ظهرت نتيجته حالا . وفى ٢٢ اكتوبر تلاقت الفرقة السادسة من الجيش الرابع العثمانى مع فرقة من الجيش الاول فلم تعرف إحداهما الأخرى وترامتا بالنيران ، إذ كل فرقة منهما كانت تظن أنها بإزاء البلغار . فمن أول الحرب ظهر سوء القيادة فى الجيش العثمانى .

وكان محمود مختار باشا قائداً لشـطر الجيش الثالث وهو ثابت فى مركزه ، وإذا بالبلغار يهجمون على الجيش الذى على جناحه الأيسر هجوما فجائياً ضعضع الاتراك فانهزموا ، فحاول محمود مختار أن يصدّ البلغار ويوقّف الهزيمة ولـكن كان الجنرال البلغارى ديمتريف جاء بدون أن يشعر به الأتراك أصلا فهاجم الجيش الذى على يمين محمود مختار ، فاضطر محمود مختار إلى التقهقر فانهزم العسكر العثمانى إلى قرق كليسة وهو الجيش الرابع ، ثم الجيش الثالث ، ثم حاول الجيش الأول أن يهاجم البلغار ليوقـف الهزيمة فلم يقدر على شىء بل تقهقر هو أيضاً . وكل هذا من عدم وحدة القيادة ؛ وعدم وجود خطة حربية مقررة . فكل فرقة وكل جيش من الاتراك كان يقاتل بدون أدنى صلة

مع رفاقه ، ولا علم له بما عليه سائر الجيوش العثمانية . لأن الأتراك فكروا أنه لا يلزم لهم إلاّ أن يقابلوا البلغار فى أى مكان كان ، وفى أي وقت كان ، حتى يولّى هؤلاء الادبار ، فمن شدّة استخفافهم بالعدو تغلّب عليهم العدو . ولما تقهقر عبدالله باشا بجيوشه قسم منها إلى جهة « ڤيزه » والقسم الآخر إلى لولى بورغاز ؛ لم يكن بين القسمين أدنى صلة ، ولا كان الواحد يعرف ما عند الآخر ، ومحمود مختار باشا هو القائد الوحيد الذى كان مالكا حركة جيشه ، بحيث عند ما التزم إلى التقهقر تقهقر بانتظام حقيقى . وكان ناظم باشا ذهب بنفسه ليتولى القيادة العامة ، وناجز البلغار القتال فى « لولى بورغاز » « وقره أغاتش » . وزحف محمود مختار باشا مهاجماً للعدو على ظن أن عبد الله باشا يتمكن من نجدته بالجيش الاول والجيش الثانى ، فتمكن محمود مختار من أن يشطر فرقة الجنرال خريستوف إلى شطرين ، إلاّ أنه كانت وردت نجدات عظيمة للبلغار ، وفي الوقت نفسه انهزم الجيش الثانى العثماني ، فلم يقدر محمود مختار أن يتمم خطته بسبب الفشل الذى حلّ بسائر القوّاد ، لكنه بقى ثابتاً فى مركزه . فأمر ناظم باشا القائد العام بتراجع القوات كلها إلى « شركس كُوى » فتراجعت كلها ومن الجملة جيش محمود مختار .

ومن أغرب الامور أنه بقدر ما استخف الاتراك بالعدو فى البداية ؛ وقع فيهم الرعب بعد أن حلّت بهم الهزيمة الاولى فنكصوا جميعهم إلى «شطلجه» . ولما علمت الجيوش العثمانية التى فى تراقية الغربية وفى مكدونية بالهزيمة التى وقعت فى تراقية الشرقية ؛ تلاشت قوتها المعنوية . وكان قائد الجيوش العثمانية فى مكدونية هو على رضا باشا ، فانكسر أمام السربيين فى « بورنيڤو » وفى « قوصوه » وفى « كومانوڤو » وهى هزيمة كان أكثر السبب فيها أن عصائب الأرناؤوط فى أثناء المعركة انسلّت من ميدان القتال مدبرة فوقع الفشل فى الجيش كله . وصارت المعارك هنالك عبارة عن سلسلة هزائم ، تتلو إحداها الأخرى بدون أن يوفّق الترك فى معركة واحدة إلا ما ندر فسقطت المراكز التركية المهمة مثل قوصوه ، ومناستر ، وأسكوب ، وجميع البلاد التى تتبعها ، وكل هذا بين ٢٣ اكتوبر و١٨ نوفمبر . ولو قيل إنه لم تقع مع تركيا حرب

أشأم من هذه الحرب من أول الدهر إلى ذلك الوقت لم تكن فى هذا القول مبالغة . وكان القائد الوحيد الذى حفظ جيشه هو جاويد باشا ، فانه لولا انهزام عصائب الارناؤوط فى واقعة « كومانوفو » مع السربيين لكانت الغَلَبَةُ فى تلك الوقعة للترك ، وكان الخبر وصل إلى الاستانة بأن السرب انهزموا فيها انهزاماً نهائياً ، ولكن المعركة انتهت بعكس ما ابتدأت . وكان جاويد باشا هزم اليونان فى إحدى الوقائع ، وتمكن من اللحاق ببلاد الأرناؤوط مع جيشه ، إلا أن الأرناؤوط كانوا عند ما رأوا هزيمة العثمانيين قد فصلوا أنفسهم عن الدولة ، وأسّسوا فى « ڤالونة » حكومة موقتة بمساعدة النمسا و إيطاليا .

وأمام من جهة الجيش اليونانى فانه لم يكن أمامه إلاّ قوة تركية ضئيلة ، فكان الجيش اليونانى يتقدم إلى الأمام قاصداً سلانيك ، وكان تحت قيادة ولى عهد اليونان ستون الف جندى يقابلها ٢٥ الفاً من الاتراك ، ولكن الترك ثبتوا برغم قلة عددهم ثباتاً عظيما ثم تقهقروا إلى الوراء لأن السربيين والبلغار كانوا اتصلوا باليونان ، واضطر تحسين باشا إلى تسليم « سلانيك » لهؤلاء . وكان جاويد باشا تغلب على اليونان فى وقعة «سيروڤيتش» التى استمرت يومين وانتهت بهزيمة اليونان فى ٥ نوفمبر ، إلاّ أنه وردت إمدادات عظيمة لليونان فتمكن بها ولى العهد اليونانى من الاقبال بعد الادبار . فتراجع جاويد باشا إلى « مناستر » وهناك هاجمه السربيون وجرت وقائع بين بقايا الجيوش العثمانية والسربيين واليونانيين والبلغار لم يقدر الترك أن ينالوا فيها كلها خيراً بعد أن انخذلت قواهم المعنوية ، وتقطع ما بينهم ، لأن البلغار كانوا استولوا على « ديموطقه » فقطعوا ما بين الاستانة وبين مكدونية ، واستولى الذعر على الدولة نفسها فى الاستانة فأصبح رجالها لا يعلمون ماذا يفعلون ، وكان عندهم جيوش كثيرة فى المملكة لا تزال فى أراضيها ، و إنما كانوا فى جمود تام بسبب الفشل غير المنتظر ، فلم يفكّروا فى استجماع قواهم . وكانت الادارة أشبه بالفوضى ، وقد رأينا ذلك بأعيننا ، وكان الهلال الأحمر المصرى أرسل بعثة عظيمة إلى الأستانة فيها المرحوم محمد باشا الشريعى ، والمرحوم كامل باشا جلال مفتشان ، وجاءنى أيضاً كتاب من رئاسة الهلال الأحمر المذكور

بأن انضم اليهما مفتشاً ثالثاً ، كما أن لجنة الاعانة المصرية التى يرأسها الأمير « عمر طوسون » كلفتنا بتوزيع الاعانات على مهاجرى المسلمين الذين فرّوا من الروملى إلى الاستانة بعد انهزام الجيوش العثمانية ، فكنا نحن الثلاثة المفتشين مضطرين أن نتصل برجال الدولة كل يوم لأجل تسهيل مهمة الهلال الأحمر ، ومهمة توزيع الاعانات على المهاجرين ، فشاهدنا من آثار الفوضى فى الادارة ما لا يصدّقه العقل ، وذهبنا فى نهار جمعة إلى نظارة الحربية للمراجعة بمصالح مستعجلة فلم نجد فى نظارة الحربية أحداً وقيل لنا : أفلا تعلمون أن دوائر الحكومة لا تشتغل نهار الجمعة ! فقلت : كلا ! إن الدولة التى يحل بها من المصائب ماحل بها هذه المرّة لا يحق لدوائرها أن تتمتع براحة يوم الجمعة ! نعم عند ما كنا نذهب إلى الباب العالى كنا نجد كامل باشا الصدر الأعظم دائما حاضراً ، وكنا دائما نراجعه فى أيام الجمعة أيضاً ، وكان يبيت فى الباب العالى بقرب مكتبه برغم علو سنّه . وجاءنا مرة الخبر بأن أربعة آلاف عسكرى فى سان استفانو قد أصيب أكثرهم بالكوليرة ، لأن من جملة مصائب الدولة فى هذه الحرب أن الكوليرة تفشّت فى عساكرها تفشّياً فظيعاً ، وفتكت بهم فتكا ذريعاً فقيل لنا إن هؤلاء العساكر الذين في سان استفانو على مقربة من الاستانة مطروحون بالعراء بدون خيام ولا بيوت يأوون اليها ! وكان ذلك فى وسط زمهرير الشتاء ، فذهبنا أنا ورفاقى إلى كامل باشا وأخبرناه بالخبر ، وروينا له ما سمعناه من أن نصف هؤلاء الجند قد ماتوا ، وأن رفاقهم جالسون إلى جانبهم فى انتظار الموت ، فأعطى الأوامر اللازمة إلى الحربية حتى يرسلوا إلى سان استفانو الأطباء والممرضين وجميع اللوازم لأجل معالجة هذه الحالة ، ولكننا ثانى يوم لحظنا أنه لم يحصل شىء ، فقلت لزملائى : إن كنتم تنتظرون فى أثناء هذه الفوضى إغاثة الدولة لهؤلاء العسكر فاعلموا أنه لا يذهب إلى هناك أحد من الأطباء والممرضين حتى يكون العسكر قد قضوا نحبهم جميعاً ، وعليه يجب أن نبادر نحن بالعمل ، فأرسلنا فى اليوم نفسه النجارين وحملوا الأخشاب اللازمة و بنوا للعساكر بيوت الخشب ، وأرسلنا اليها الأسرّة والأغطية اللازمة ، والاطباء

والمطلاين والأدوية ، وكل هذا تمّ فى ثلاثة أيام ، وبعد ذلك جاء المأمورون العثمانيون فوجدوا كل شيء خالصاً ، وعلى هذا يمكن أن يقاس غيره .

ونعود إلى تاريخ هده الحرب المشئومة التى انتهت بها ولاية الدولة العثمانية في شبه جزيرة البلقان فنقول : إنه بعد أن انهزمت الجيوش العثمانية فى تراقية الشرقية وتراجعت إلى « شطلجة » وتشتت العسكر العثمانى فى تراقية الغربية ، ومكدونية بقيت بلاد الارناؤوط لم يحتلها العدو ، و بقيت القوة هناك أيضاً ضعيفة ، فتقدم اليونان من جهة الجنوب وما زالوا يهزمون أمامهم تلك الشراذم المتفرقة حتى وصلوا إلى «يانيا» وأخيراً استولوا على يانيا . ثم إن الصربيين وعساكر الجبل الأسود استولوا أيضا على عدة مواقع من شمالى البانيا ، غير أن الأرناؤوط صدوهم عن « شقودرة » .

أما من جهة البحر فقد كان الاسطول العثمانى انحطّ انحطاطاً عظيما ، وكان السلطان عبد الحميد يخشى الاسطول كما يخشى الجيش البرّى ، وكان يكره العساكر البحرية أكثر مما يكره العساكر البريّة ، لأنه يتذكر أنه لما خلعوا عمه السلطان عبد العزيز فى سراى طولمه باغجة التى على ساحل البحر نظر السلطان إلى البحر فوجد الاسطول واقفاً أمامه ، مع أن عبد العزيز هو الذى أنشأ الأسطول ، وكان عبد العزيز شديد العناية به ، وكانت الدولة فى زمانه دولة بحرية من الدرجة الثالثة .

ولما جرت الحرب العثمانية الروسيّة كان البحر الاسود كله فى يد الدولة ، ولكن السلطان عبد الحميد أهمل الأسطول إهمالا تاماً ، فما زالت قوة تركيا البحرية فى أيامه تنحط حتى صارت دولة اليونان أقوى منها فى البحر ، و بعد خلع عبد الحميد اشتغلت الدولة بالفتن الداخلية ، وقامت الأحزاب تتناحر فيما بينها ، فلم يكن عند الدولة وقت لاصلاح الأسطول . فلما نشبت الحرب البلقانية أدركت الدولة عظم الضرر الذى جرّه عليها إهمال الاسطول ، وذلك بأنها بسبب ضعف أسطولها لم تقدر أن تستحضر جيش سورية من طريق البحر خوفاً من أن الأسطول اليونانى يتعرّض للبواخر التى تنقل الجيش من سواحل سورية وكيليكية إلى الأستانة أو الرومللى ، ولم تكن يومئذ بين الأناضول وسورية سكك حديدية متصلة حتى يمكن نقل العساكر برًّا . فجيوش

البلاد العربية بقيت جميعاً فى أرضها . وعدا هذا فقد استولى اليونان على جزائر الأرخبيل . نعم أن الأسطول اليونانى لم يجرأ أن يناطح حصون الدردنيل التى عجزت عنها جيوش الحلفاء الجرارة فى الحرب العامة ، ولكنه استولى على جزيرة لمنس وانبروس ، ومدلّى ، وساقس ، وسائر الجزر . وخرج الأسطول العثمانى من الدردنيل لمنازلة الاسطول اليونانى ، وألحق الأول بالثانى خسائر مهمة ، لكنه لم يتمكن من غلبة ظاهرة ، فرجع إلى الدردنيل محتمياً بالحصون .

وكان حسين رؤوف بك يومئذ قائداً لبارجة اسمها « حميديّة » فأشار بالكرة على الأسطول اليونانى فلم يقبلوا كلامه ، فخرج وحده ببارجته حميديَّة واخترق نطاق الحصر اليونانى ، وجاء إلى بلاد اليونان ودمَّر مينا « سيرا » وأغرق عدة بوارج لليونان ، وعجز الاسطول اليوناني عن مطاردته ولكنه كان يتجنّب الانتظار فى مكان واحد خوفاً من أن تجتمع قوة اليونان البحرية عليه . فكان ينتقل من مكان إلى آخر ، وكلما صادف لليونان سفينة أغرقها . وقد أخبرنى هو أنه كان ذهب إلى مرسى مالطة ونزل إلى البر ، ودعاه القائد الانكليزى واحتفى به ، وبينما هو على مائدته أخبروه بأن عدة سفن حربية لليونان وصلت على مقربة من مالطة تترصد خروجه لأجل الايقاع بحميديّة ، وقال لى : إنه لم يعتقد تلك المرة إمكان النجاة لأنه بسفينة واحدة لا يقدر أن يتغلّب على عدة سفن ، وإن كان يمكنه أن يدمّر بعضها فخرج من مالطة متوجسا الخوف وسار ببارجته أمام البوارج اليونانية ولم يجرأوا أن يتعرضوا له ! .

ورؤوف بك هذا هو الذى صار فيما بعد ناظراً للبحرية فى أيام الحرب العامة ، ثم بعد الحرب العامة كان من أكبر رجال تركيا الذين نهضوا بها ، وقاوموا معاهدة « سيفر » ونظّموا المقاومة العسكرية فى الاناضول ، وبعد استقلال تركيا تولّى رئاسة الوزارة فى أنقرة ، ولكنه لم يوافق مصطفى كمال على سياسته الداخلية وخروجه على قواعد الاسلام ، فاختلفا وأدّى الأمر إلى مغادرته تركيا ، فأقام فى فرنسا عدة سنوات ذهب في خلالها الى الهند ، ثم فى هذه السنة ١٩٣٥ دعته الحكومة التركية إلى العودة

وألحّوا عليه فأجاب الدعوة ، ولـكن على شرط أن يبقى بعيداً عن السياسة .

ثم نعود إلى الحرب البلقانية فنقول : إن سبب الفشل الفظيع الذى حل بتركيا فى تلك الحرب كان إقدام الأتراك على القتال بدون استعداد كاف ، وعلى ظن أنهم بمجرد اللقاء يهزمون البلقانيين كما هزموا اليونان سنة ١٨٩٤ ، فهاجموا البلغار فى تراقية بدون منهاج حربى معيّن ، معتقدين أنهم سائرون إلى تأديب رعية ثائرة ، والحال أن الجيش البلغارى كان على تمام الاستعداد من كل جهة . فلما انكسر الترك فى هذه الجهة فى الصدمة الاولى انـكسرت جميع قواهم المعنوية دفعة واحدة ، وصارت هذه الحرب عبارة عن سلسلة مصائب . على أن البلغار كانت لحقت بهم خسائر عظيمة ولما وصلوا أمام « شطلجة » كان القتال قد برّح بهم ، فلما هاجموا الأتراك فى شطلجة لم يقدروا عليهم . وكان هؤلاء قد تنبهوا للخطر المحدق بهم وتأملوا فى فظاعة دخول البلغار إلى الاستانة ، وأفاقوا بعض الشىء من عماياتهم الحزبية التى كانت إلى ذلك الوقت هى شغلهم الشاغل ، وأرسلت الحـكومة عدداً من الوعّاظ إلى شطلجة يثيرون الحميّة الدينيَّة فى رؤس العساكر ، وهذا خلاف ما كانوا عوّلوا عليه من قبل . فانه لما بدأت الدول البلقانية الأربع بالقتال أعلنت فى مناشيرها الرسمية أنها فى حربها هذه إنما تباشر حرباً صليبية ضد الهلال ، وصارت من أول الحرب على هذه الخطة ؛ ولـكن الدولة العثمانية تجنّبت فى مناشيرها مقابلة البلقانيين بالمثل ، وتحاشت فى هذه الحرب كل صبغة دينية . وبقيت كذلك إلى أن دارت عليها الدائرة فأرسلت إلى الجيش المرابط فى شطلجة الوعّاظ وخطباء الجوامع يستفزّون حمية الجنود باسم الاسلام الذى أصبح على شفا جرف هار ، وكان الجنود من أنفسهم أدركوا أنه لم يبق أمام البلقانيين ليقضوا على الدولة سوى عقبة شطلجة ؛ فاستجدّوا عزائمهم ، ونظراً لضيق خط الدفاع ـلأن شطلجة أشبه ببرزخ واقع بين البحر الأسود من الشرق، وبحر مرمرة من الغربـ تمـكن الجيش العثمانى من الثبات فيه برغم هجوم البلغار الشديد ، بل عند ما هجم هؤلاء دحرهم الاتراك وألحقوا بهم خسائر فادحة . وحاول البلغار مهاجمات أخرى فانـكسروا فيها .

وكان قد وصل من اليمن الجنرال أحمد عزّت باشا وهو من أمهر القوّاد العثمانيين وأوفرهم علما، وأوسعهم بصيرة، فذهب وشاهد حالة الجيش المعنوية والمادية فى شطلجة، وحادثته بعد رجوعه منها هل هناك أمل فى إمكان المقاومة بعد هذا الذعر الذى حل بالجيش؟ — وكان عنده عبد الهادى باشا الفاروقى وهو من القواد المعروفين — فقال لى: إن الجيش يقدر على المقاومة، نعم لا يعرف كل شىء يمكن أن يجد فى أثناء القتال. ولكن الحالة الحاضرة التى رأيتها فى شطلجة تؤذن بالتأكيد أن البلغار لايقدرون أن يخرقوا هذا الخط، وأن يدخلوا الى الاستانة، وكان كامل باشا قد باشر المساعى فى طلب الصلح، ولا شك أنه طلب الصلح راضياً بشروط البلقانيين الثقيلة، فجاء الجنرال محمود مختار باشا الى الاستانة ونهى الدولة عن هذا التهوّر فى طلب الصلح، وأكّد لها بأن الأعداء لم يقدروا أن يخرقوا خطوط شطلجة.

ولم أشاهد محمود مختار بنفسه؛ ولكن شاهدت والده الغازى مختار باشا، وشكا لى أعظم الشكوى من فسولة القوّاد الذين تولوا تلك الحرب، واستيلاء الرعب عليهم وقال لى: لولا محمود لدخل البلغار الأستانة، ولكن محمود كان السبب فى تثبيت قوة الجيش، وفى منع هذا الهلع الذى استولى على الدولة. وكان كامل باشا قال للسلطان محمد رشاد: إنه يكون الأوفق انتقال جلالته إلى بروسة خوفاً من دخول البلغار إلى الاستانة؛ فأجابه السلطان: إننى لا أتحرك من مكانى، فاذا كان لم يبق أمة عثمانية قادرة على منع سقوط سلطانها أسيراً فلا مانع عندى من السقوط أسيراً! وقد جرّب البلغار بكل قواهم أن يزحزحوا الاتراك عن مواقفهم فلم يقدروا على شىء.

فالرواية التى يذيعها بعض كتاب الاورببين بأن الروسيا هى التى منعت البلغار من دخول الأستانة، ولولا ذلك لدخلوها هى غير صحيحة. وقول القائد العام للجيش البلغارى: إننا لو أردنا أن نخرق خطوط شطلجة لأمكننا ذلك، لكن لا نريد أن نتجشم خسائر الهجوم الفادحة بدون فائدة مادية؛ هو كلام تَبَجُّح ليس عليه أدنى دليل. بل البلغار بعد أن دحرهم الأتراك صاروا يخشون أن يعود الأتراك فيكروا عليهم ويخسروا ثمرات انتصارهم، لا سيما أن الدولة كانت بدأت تستدعى قواها

التى كانت متفرقة وتجمعها فى شطلجة ، ومن جملة من زعم أن البلغار إنما ثبطهم عن دخول الاستانة نهى الروسيا لهم عن ذلك هو المسيو « دولاجونكيار »صاحب تاريخ السلطنة العثمانية .

Histoire de l'Empire Ottoman depuis les Origines Jusqu a nos Jours por le Vte de la Jonquière

وهو المطبوع فى باريز سنة ١٩١٤ وهو تاريخ غريب الشكل جداً ؛ كتابته من من أولها إلى آخرها تحامل على الأتراك وعلى الاسلام جميعاً ، ونقص من مزاياهم وبخس من أشيائهم ، وتحريف للوقائع عن حقائقها ، وليس يخلو سطر واحد من هذا الكتاب من عبارة بغضاء تخرج من فم مؤلفه مما هو مخالف لشروط التاريخ . ومع هذا فالفرنسيس يعتمدون على هذا الكتاب و يظنونه بالفعل تاريخاً للسلطنة العثمانية .

ثم نعود إلى قضية طلب الصلح فنقول إن البلغار لو كانوا علموا هم والسربيين أنهم يقدرون أن يناموا على ظفرهم هذا لما كانوا رضوا بالصلح ، بل كانوا مضوا فى الحرب إلى آخرها ليزدادوا ربحاً مادياً ، ومجداً معنويا ، ولكنهم علموا أن الدولة العثمانية قد تستجمع قواها وتهزمهم عن شطلجة ؛ وتذهب جميع مجهوداتهم سدى . فأما اليونان فأبو الصلح لأنه كان عليهم أن يستصفوا فتح البلدان التى يريدون ضمها إليهم ، ولم يكونوا يخشون استجماع الدولة قواها ، فأما فى البحر فلم يكونوا خائفين على سواحلهم ، لأن الأسطول العثماني كان أضعف من أسطولهم . أما فى البر فكان الجيش العثمانى لا يقدر أن يلتحم مع الجيش اليونانى إلا بعد أن يدحر الجيش البلغارى كله فى تراقية والجيش السربي كله فى مكدونية ، أما فى الاستانة فكان كامل باشا وحزبه مصممين على الصلح ، وكان الاتحاديون يريدون متابعة القتال حتى يغسلوا هذا العار الذى التحق بالدولة ، ولم يسبق له نظير لأنهم كانوا يقولون : إن تغلب دولة كالروسيا سكانها ١٦٠ مليوناً على تركيا التى سكانها ٢٦ مليوناً ليس بعجيب ولكن تغلب هذه الدويلات الصغيرة التى سكانها يومئذ لا يزيدون مجتمعين على اثنى عشر مليونا هو غير مفهوم ، ولا يجوز للدولة أن ترضى به بوجه من الوجوه إلا اذا

كانت ترضى بانحلالها التام . وكانوا يعدون الفشل الذى وقع فى الجيش العثمانى أشبه بقضاء نزل ، أو آفة سماوية لا ينبغى أن تكون قاعدة ، وعلى كل حال ينبغى متابعة الحرب حتى تسترد الدولة شأنها ، و إلا فلا حياة لها بعد ذلك . وذهب الأمير حليم سعيد باشا ، وطلعت بك إلى كامل باشا عند ما شاع عزمه على عقد الصلح وجادلاه طويلا حتى يصرفا نظره عن ذلك فقال لهما : إن الاتحاديين هم الذين أصروا على الحرب وهم الذين كانوا السبب فى هذه المصائب ، وأنه هو لا يريد أن ينقاد إلى آرائهم فرجعا بخفى حنين .

وفى ٣ دسمبر انعقدت المتاركة بين تركيا من جهة ، و بلغارية وسربيا والجبل الأسود من جهة أخرى ، وأبرق ناظم باشا ناظر الحربية من موقع القتال إلى كامل باشا بذلك وكانوا قرروا مباشرة المفاوضات الصلحية بعد عقد المتاركة بعشرة أيام وكانت أدرنة لا تزال محصورة لا يقدر الأعداء عليها ، فكانت شروط البلقانيين هي تسليم أدرنة ، ومناستر ، وشقودرة ، لأن المدن الثلاث لم يقدر البلقانيون عليها وكذلك كان اليونان يحاصرون يانيا ولم يقدروا عليها ، وطلب البلقانيون تخلية الجيش العثمانى لشطلجة ، وعدم إرسال قوة من قبل الدولة العثمانية إلى ساحات القتال فى أوربا ، وأجاب الترك برفض تخلية شطلجة ، و باقتراح تموين المدن التركية المحصورة و بعد أخذ ورد طويلين خيف فى أثنائهما من انقطاع المفاوضات اتفق ناظم باشا والجنرال ساڤوف البلغارى على أن تبقى العساكر العثمانية فى شطلجة ، وتبقى العساكر البلغارية والسربية فى مراكزها ، ويكون بين الفريقين منطقة متحايدة . ورفض اليونان الدخول فى المتاركة لأنهم كانوا يريدون فتح يانيا ، وكانت لا تزال ممتنعة عليهم .

ثم جاء ناظم باشا إلى الأستانة بعد عقد المتاركة وهو لا يشك أن الصلح واقع فذهب محرر هذه السطور لمقابلته وأبديت وأعدت معه فى أن شأن الدولة قد انكسر تماماً فى هذه الحرب ، وأن الدولة لا يمكن أن تحيى بعد أن انكسر شأنها إلى هذا الحد وأن الدولة لا يزال فى يدها قوى تقدر بها على تلافى مافرط ، وأن فى ولاياتها الأسيوية

عساكر كثيرة تقدر أن تجرّها إلى ميدان القتال وتستأنف الكرة ، وقلت له : إن البلقانيين بعصابهم التى كانت تعيث فى تراقية ومكدونية قد شغلوا الدولة أكثر مما شغلتها جيوشهم المنظمة ، فكان يجب على الدولة أن تقابلهم بالمثل ، وأن تأتى بجانب من القبائل الكردية والعربية وتبثها بشبه جزيرة البلقان ، فانه من الصعب جداً أن يستطيع البلقانيون تأمين البلاد التى احتلوها إذا شنّت هذه القبائل الغارات فى أطرافها . فقال لى ناظم باشا : إن الصلح كان مقرّر ، والقتال لن يتجدد ، وعبارته هكذا بالحرف « غوغا تكرر إيتمية جكدر » أى أن القتال لن يتكرر . فأبديت له عدم اعتقادى كون الحرب انتهت ، وذهابى إلى أنه لا بد من أن تشتعل الحرب من جديد ، فعلى الدولة أن تستحضر جميع عساكرها الباقية فى آسيا . وخرجت من عند ناظم باشا وأنا غير متعجّب من فشل الدولة فى هذه الحرب .

وأما أحمد عزت باشا الأرناؤوطى الذى كان والياً فى اليمن وجاء فى آخر الحرب وكان لايصدّق بانكسار الجيش العثمانى فى ظروف الأحوال التى انكسر بها لكثرة مارأى من أغلاط القيادة ، فقد كاشفته بما فى نفسى من قضية جمع العساكر التى فى آسيا ، واستنفار القبائل العربية والكردية ، فأجابنى بالموافقة على الشق الأول ، وأما الشق الثانى فقال لى : كان هذا موافقا جداً لو وقع فى أول الحرب ، أما الآن فلم يبق ميدان لشنّ هذه الغارات بعد أن احتلّ العدو جميع الروملّى ، وانحصر الجيش العثمانى فى شطلجة . نعم قال لى هذا ولكنه رجع فيما بعد إلى رأيى . ولما استرجع الأتراك تراقية الشرقية وأدرنة كما سيأتى الكلام عليه ، واستدعت الدولة وفداً من سورية إلى الأستانة ثمانية أعضاء كنت أنا من جملتهم لبعض المذاكرات المتعلقة بالأصلاحات الداخلية ، دعتنا أن نذهب إلى أدرنة ونهنىء أهلها على الخلاص ، فشاهدت فريقا من القبائل مخيّمين غير بعيد عن البلدة وهم من قبائل العراق ، وكانوا بزيّهم العربى أى بالعُقُل والكوفيات ، وزرتهم فى مضاربهم وشربت القهوة عندهم ، وعلمت أنه فى الكرّة التى كرّها الترك على البلغار وأخرجوهم فيها من أدرنة كان لهذه القبائل بلاء شديد ، وكان مجرد مشاهدتهم قبل فعلهم يوقع الرعب فى البلغار . ولو كانت

الدولة تنبهت لهذا الأمر وسحبت من بوادى الشام والزور والعراق ثلاثين ألف فارس من العرب والأكراد وجعلتهم ردءا للجيش المنظّم لما حلّ بها هذا الفشل العظيم الذى حلّ بها فى الحرب البلقانية ، ولكن الدولة استخفّت بأعدائها يومئذ استخفافا خُيِّل لها أنها ذاهبة إلى حرب لا يزيد على تأديب عصاة ! !

ولما جاؤا إلى المذاكرات الصلحية استندت الدولة على بيان البلقانيين أنهم لا يريدون من هذا الحرب إلا إصلاح إدارة البلدان التى يسكنها أقوام منهم، وأظهرت استعدادها لاعطاء مكدونية إدارة خاصة تحت مراقبة الدول ، فأجاب البلقانون بأنهم إنما كانوا رضوا بذلك الاقتراح أملا بتفادى الحرب ، والحال أن الحرب قد وقعت برفض الدولة لهذا المشروع فالآن هم يريدون العمل بنتيجة الحرب ، وهو إدخال إخوانهم فى ممالكهم رأساً ، ويطلبون غرامة حربية لتعويضهم مما تكلفوه ،وطلب البلغار أن تكون حدودهم خطاً يذهب من « ميديه » على البحر الأسود إلى بحر الأرخبيل وتكون « قَوَلَه » تابعة لهم . وطلب السربيون ولايتى « قوصوه » و « مناستر » . وطلب الجبل الأسود « شقودره » وتوابعها. وطلب اليونان جميع الجزائر وولاية يانيا ومكدونية السفلى داخلا فيها سلانيك وتراقية الغربية ، فرفض الأتراك هذه المطالب كلها ، وانعقد مؤتمر الصلح فى لندره وتواجهت الخصوم بعضها مع بعض .

وكانت الدولة حشدت ثلاثة جيوش أتت بها من آسيا ، وصممت أنها لدى الحاجة تزحف وترفع الحصار عن أدرنة التى كان البلقانيون عجزوا عن فتحها ، و بتوسط الدول رضيت تركيا أن تتخلى للبلغار عن بعض أماكن غربى أدرنة ، وأما من جهة جزائر الأرخبيل فرفضت أيضاً تركيا التخلى عنها لليونان ، واقترحت أن تترك للدول حل مسألة كريت . وأما البانيا فقد رضيت تركيا بأن يكون لها استقلال داخلى وأن تتعين حدودها بالاتفاق مع الدول ، فلما رأت الدول أن الدولة غير مستعدة لاجابة البلقانيين إلى مطالبهم ، وأن الحرب قد يستأنف نشوبها ، أرسلت إلى الدولة فى ١٠ يناير سنة ١٩١٣ مذكرة عمومية تنصح لها فيها بقبول مطالب البلقانيين ، و بالتخلى

عن أدرنة للبلغار ، وأنه يقع اتفاق على حماية مسلمى أدرنة ، وصيانة المساجد والمقابر الاسلامية التى فيها ، وأنه إذا كانت تركيا تصر على الحرب فهذه المرة يجوز أن الحرب تمتد إلى آسيا ، وأنه لا يمكن أن تقترض تركيا مالا من أوربا عند الاحتياج لأجل إصلاح ممالكها فى آسيا . وكان الاتحاديون معارضين أشد المعارضة فى الصلح على هذه الصورة ، وكانوا يقذفون بكامل باشا لجنوحه إلى السلم ، ويقولون لا يحق له أن يتخلى عن شبر من أراضى المملكة بدون قرار مجلس الامة ، والحال أن المجلس كان منفضاً . فأجمع كامل باشا على عقد مجمع كبير من رجال الدولة وأعيانها لاستشارتهم فى هذا الخطب الجلل ، وهى عادة قديمة عند الدولة بأنها فى الخطوب الكبرى تدعوا الوزراء الذين فى الخدمة ، والوزراء السابقين ، وقواد الجيش القائمين على الخدمة والمتقاعدين ، والعلماء الكبار ، ورؤساء الطرق ، وكبار أصحاب الأملاك ، وأعيان التجار والزراع ، ومثل هذا الديوان انعقد فى ديسمبر سنة ١٨٧٦ عند ما طلبت الدول وضع مكدونية وبلغاريا والبوسنة والهرسك تحت المراقبة الأوربية ، فرفض الديوان الذى انعقد يومئذ اقتراح الدول هذا ، وأدى ذلك إلى نشوب الحرب الروسية التركية . فالديوان الذى عقده كامل باشا هذه المرة لم يحل المسألة حلا نهائياً ، وانقضى بالمذاكرات على كيفية المقاومة . وبعد ذلك جاءت جماعة من الاتحادين إلى الباب العالى وبيدهم طلب يتضمن رفض تسليم أدرنة ، ودخل أنور إلى مجلس الوزراء يقدم هذا الطلب إلى الصدر الأعظم ، وفى أثناء وجوده داخلا حصلت جلبة أمام الباب العالى ، فخرج ناظم باشا ناظر الحربية وانتهر الذين كانوا يرفعون أصواتهم ليحدثوا الضوضاء ، فأطلق عليه أحدهم الرصاص فقتله . فخرج كامل باشا فوجد ناظم باشا صريعاً فاستقال من الصدارة بتلك الدقيقة ، وركب عربته وسار إلى بيته . وتولى الاتحاديون الحكومة تحت رئاسة محمود شوكت باشا بعد أن جاء أنور إلى سراى « طولمه باغجة » وحصل على الأمر السلطانى بذلك .

أما زعم بعضهم بان أنور هو الذى قتل ناظم باشا فليس بصحيح ، لأن كامل باشا نفسه روى فى مصر لمن حادثه من أصحاب الجرائد أن جماعة الاتحاديين اجتمعوا

أمام الباب العالى وكانوا نحواً من مئة شخص ، ودخل أنور عليه يقدم له الاحتجاج على تخلية أدرنة ، و بينما هو يقرأه سمع صوت الرصاص أمام الباب ، فخرج فوجد ناظم باشا صريعاً . إذاً أنور برىء من هذه التهمة بشهادة كامل باشا نفسه ، وأما كيفية قتل ناظم باشا و ياوره توفيق القبرصلى فقد اختلف فيها ، والأقرب أنه انتهر الجمع فأهانوه بالكلام فتصدّى ياوره للقبض على من استطالوا عليه فحينئذ أطلقوا الرصاص على الناظر والياور معاً وقتلوهما . و بعد ذلك وقع استعفاء الوزارة ، وذهب كامل باشا وجمال الدين افندى شيخ الاسلام إلى مصر ، وذهب فريد باشا الأرناؤوطى الصدر السابق أيضاً إلى مصر ، وشاهدتهم هناك ، وجرى بينى و بين فريد باشا جدال طويل فى سراى عابدين أمام جمال الدين افندى ، وكان صدره ملآن وغرا على الاتحاديين وكنت أقول له : إننى آسف من هذه المنازعات الحزبية فى أثناء ماالبلغار مخيمون على أبواب الاستانة ، وأتأسف من تفكره والحالة هى هذه بعداوة الاتحاديين . فامتعض جداً مما واجهته به ، وشرع جمال الدين افندى شيخ الاسلام فى تهدئة روع كل منا .

ثم فى ٣٠ يناير سنة ١٩١٣ ردت الدولة الجواب على الدول وما ل مذكرتها الجوابية وهى من جهة أدرنة التخلى عن أحد شطريها وهو ما يقع على الضفة اليمنى من نهر المريج ، فأما الضفة اليسرى التى فيها المدينة الحقيقية فتبقى لتركيا ، وكذلك لم توافق الدولة على ترك جزائر الأرخبيل . ثم اقترحت على الدول الغاء الامتيازات الأجنبية التى تعرقل سير الاصلاح الادارى فى تركيا ، وطلبت أن يكون لها الحق بضرب المكوس التى تستلزمها الحالة ، وطلبت إضافة أربعة فى المائة على رسوم الجمارك وغير ذلك مما لم تجب إليه الدول . ولما رأى البلغار أن تركيا لاتريد تسليم أدرنة جددوا الحرب وهاجموا أدرنة ، وجددوا القتال أيضاً فى شطلجة ، و بولايير . بقرب الدردنيل ، ومع كون واقعة بولايير لم يوفق فيها الترك فانه كان يتعذر على البلغار أن يربحوا شيئاً من استمرارهم على الحرب . ثم إن الترك كسروهم فى واقعة كالكترية ، وكانت الدولة استجدت نشاطها ، وقطع البلغار آمالهم من التغلب عليها . نعم أن مدينة يانيا فى جنوبى البانيا كانت استسلمت للجيش اليونانى بعد حصار طال

عدة أشهر ، ولم يبق فيها قوة ولا ذخيرة فاضطرت حاميتها إلى الاستسلام فى ٥ مارس ومثل ذلك مدينة أدرنة التى اضطر قائدها شكرى باشا إلى تسليمها فى ٢٦ مارس فتكون مدة حصارها ستة أشهر وثمانية أيام ، كما أن مدة حصار يانيا كانت نحوا من أربعة أشهر وكل من البلدتين لم يتمكن البلقانيون من الاستيلاء عليها إلا بالجوع ولو كان فيهما الميرة الكافية والعلف الكافي للبنادق والمدافع ؛ ما كان في استطاعة البلقانيين دخولها . والدفاع الذى دافعه شكرى باشا عن أدرنة يبقى صفحة تاريخية باهرة فى تاريخ تركيا ، وطالما اقترح عليه البلقانيون تسليم أدرنة تحت شرائط شريفة فأبى ، وأجاب بأنه لايسلمها إلا ميتاً ، ولكن بعد أن نفذت الذخيرة ، وانتهى القوت ، لم يبق فى استطاعته المقاومة . وأما فى الحرب فقد حمل عليه البلغار والسرب مراراً عديدة ، وكانوا يرتدون على أدبارهم ، وقضى هو وأهالى أدرنة من الجوع و إعواز ضروريات الحياة شيئاً كثيراً علمت منه أنا بنفسى حقائق مرة يوم كنت مفتشاً للهلال الأحمر المصرى فى الاستانة مع محمد باشا الشريعي ، وكامل باشا جلال . وذلك أنه جاءنا رسول من قبل شكرى باشا فى أثناء الحصار يقول إنه إنسل من ادرنة خفية ومعه كتابة إلى الباب العالى بطلب مبلغ من المال لشراء حنطة للعسكر ، وأن الجوع قد ضرس العسكر بنابه ، ولم يجدوا مالا فى الخزينة ذلك الوقت . فهل من الممكن أن الهلال الأحمر المصرى أو لجنة الاعانة المصرية تقرض الدولة مبلغاً لأجل إغاثة حامية أدرنة ، فتذاكرت مع رفاقى وأرسلنا بواسطة الدولة سراً عشرة آلاف جنيه من مبلغ الاعانة المصرية إلى شكرى باشا تحت اسم إعانة لجياع أدرنة

ثم إننا قررنا بعد ذلك إرسال بعثة من الهلال الأحمر المصرى إلى أدرنة ، فأبرقت إلى الأمير محمد على توفيق رئيس الهلال الأحمر المصرى و إلى الأمير عمر طوسون رئيس لجنة الاعانة المصرية بوجوب السعى لدى الدول حتى تتوسط مع البلغار لأجل إدخال بعثة إلى أدرنة لمعالجة الجرحى والمرضى ، وتم الأمر ودخلت البعثة المصرية وأعانت الجيش العثمانى ومسلمي أدرنة إعانة فوق الوصف ، وعرفت مقدارها . بنفسى وذلك أنه بعد استرداد الدولة لأدرنة كما سيأتى الكلام عليه ، استدعت الدولة

وفداً من سورية كان مؤلفا من ثمانية أشخاص : محمد فوزى باشا العظم ، وعبد الرحمن بك اليوسف ، وأمين افندى الترزى من دمشق ، ومحمد باشا المخزومى ، والدكتور حسن الأسير من بيروت ، والشيخ أسعد الشقيرى من عكا ، ونصرى افندى الشنتيرى من بيروت ، والأستاذ الشيخ عبد المحسن افندى الاسطوانى قاضى الشام الحالى ، وهذا العاجز كاتب السطور ، ولم يبق فى الحياة من هذا الوفد غيرى وغير الأستاذ الأسطوانى والشيخ الشقيرى ونصرى الشنتيرى . وكان ذهابنا من بيروت إلى الأستانة فى شهر أغسطس ١٩١٣ لأجل مذاكرات مع الدولة تتعلق بالاصلاحات الداخلية فى سورية و بتسكين الأمور بين العرب والترك ، وكانت الدولة استرجعت أدرنة ، فدعتنا إلى زيارتها لأجل تهنئة أهلها بالرجوع إلى حضن السلطنة العثمانية فذهبنا إلى هناك واحتفل الجيش المرابط بوصولنا ، وفى حضور الجيش تلوت قصيدة منشورة فى ديوانى الذى هو الآن تحت الطبع مطلعها :

فدى لحمانا كل من يمنع الحمى ومن ليس يرضى حوضه متهدما
فما العيش إلا أن نموت أعزّة وما الموت إلا أن نعيش ونسلما

وخطب فى الجمع الشيخ الشقيرى وخطب فى صلاة الجمعة الشيخ أحمد الفقيه المكي الذى جاء معنا خطبة بصوته الشجىّ وفصاحته الحجازيّة مما حقق قولى فى قصيدتى :

أدرنتنا لو كان للصخر ألسن بها يوم عاد الراجعون تكلما
فما من فتى إلا وأجهش بالبكا ولا من جواد عاد إلا وحمحما
ولا غادة إلا وكفكف دمعها مكر حماة العرض كالسيل مفعما
ولا منبر إلا وأورق بهجة وقام عليه ساجع مترنماً
وقرت عيون المصطفى في ضريحه وهناه فى الفردوس عيسى ابن مريما

ومنها :

فمن مبلغ البلغار أنا إلى الوغى وإخواننا الأتراك نزحف توأماً
وأن جميع العرب والترك أمة حنيفية بيضاء لن تتقسما
وقولوا لهم بانت سعاد فلا يزل فؤادكم صباً عليها متيما

فلا يُطمعنكم فى أدرنة مطمع ولا تفتحوا فى شأنها أبداً فما
أدرنة صارت عندنا تلو مكة وماء المريج اليوم أشبه زمزما

ولما أقبل الليل كان الوالى الحاج عادل بك أعدّ لنا مكاناً للمبيت فاستعفيت منه قائلا : إننى كنت مفتشاً للهلال الأحمر المصرى ، ولا يزال له بعثة فى أدرنة وكنت أنا السبب فى دخولها ، فأرغب فى المبيت بدائرة الهلال الأحمر المصرى . فذهبت و بت هناك وعند الصباح رأيت مئات من مسلمى أدرنة أمام دائرة الهلال الأحمر و بأيديهم سطول ، فسألت عن ذلك فقالوا : إنه كل يوم يتوزع عليهم حساء وخبز ، ولكنهم قالوا إنه فى أثناء حصار أدرنة بعد أن قلّت الأقوات واشتد الجوع كان الأربعون ألف نسمة من مسلمى أدرنة يعيشون كلهم من الهلال الأحمر المصري ، ولولاه لهلكوا بأجمعهم من الجوع ؛ لأنه لم يبق بأيديهم شىء من طول الحصار ، حتى أن الذين فى أيديهم شىء من النقود لو أرادوا شراء القوت لم يجدوه ، فالله تعالى أغاثهم بوجود هذه البعثة المصرية . ولما استرجعت الدولة أدرنة درّت الخيرات ، وارتفع الضيق ووزّعت الدولة عليهم الأقوات ، فلم يعودوا محتاجين إلى الهلال الأحمر ، وقالوا لى إن الذين تراهم الآن إنما هم خمسمائة أو ستمائة شخص من المساكين والعاجزين .

و بمناسبة هذه المعاونة التى لقيتها أدرنة من حمية أهل مصر ينبغى لى أن أذكر على وجه الاجمال ما قامت به مصر كنانة الله فى أرضه من إمداد الدولة العثمانية فى الحرب البلقانية المشئومة ، وأن لا أدع هذه الواقعة غُفْلا قياما بواجب الأمانة مع التاريخ ، وتوفيراً للحق لأهله ، فأهل مصر يومئذ حققوا قوله تعالى (إنما المؤمنون إخوة) وقوله صلى الله عليه وسلم : « المسلمون فى توادهم وتعاطفهم كالجسم الواحد إذا تألم منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى » فأول شىء أنهم جمعوا إعانة للدولة مبلغ نصف مليون جنيه ، وذلك بهمة لجنة الاعانة التى كان يرأسها الأمير « عمر طوسون » الذى هو يرأس كل عمل خيرى تقريباً فى مصر ، وأرسلوا بعثة من الهلال الأحمر المصرى قامت بأعظم الاعمال فى معسكر شطاجة ، ثم إن مسلمى الروملى بالنظر لما وقع عليهم من اعتداء البلقانيين ـ لاسيما البلغار واليونان ـ فرّوا من وجه العدو اتقاء القتل للنفوس

والهتك للاعراض ؛ فالتجأوا جميعاً إلى الأستانة ليجوزوا إلى بلاد الاناضول ، وجاء منهم فريق إلى غاليبولى ليجوزوا منها أيضاً إلى البلاد نفسها ، و بديهى أن هؤلاء الذين فروا من وجه العدو هاموا على وجوههم لا يلوون على شىء خوفاً على دمائهم وأعراضهم، ولم يكن ليتيسر لهم التريّث حتى يستحضروا النفقات اللازمة لهم من أجل السفر ، وأكثرهم خرجوا بعيالهم وهم لا يملكون القوت الضرورى ، وكان ذلك في قلب الشتاء ، وكان عددهم لايقل عن مائة وخمسين الف نسمة .

فلما دخلوا الأستانة أنزلتهم البلدية فى الجوامع والمدارس . فاستوعبتهم جميعاً ، ومن هنا يعرف الانسان فائدة هذه الجوامع العظيمة التى شيّدها سلاطين آل عثمان بالحجر الصلب ، وتوسعوا فى عمارتها إلى الدرجة القصوى ، حتى أن الجامع الواحد منها مع مضافاته والمدارس المتصلة به يكاد يكون بلدة ، فأبرقنا إلى مصر بحالة هؤلاء المهاجرين وكنت أنا المتولى الكتابة إلى الأمير عمر طوسون ، والأمير محمد علي توفيق ووصفت لها حالة إخواننا المهاجرين وما هم عليه من البأساء ، فلم نلبث إلا أياماً قلائل حتى فوضوا إلينا هذا العاجز ومحمد باشا الشريعى وكامل باشا جلال وعدة أشخاص آخرين من مستخدمى الهلال الأحمر توزيع الاعانات على هؤلاء المهاجرين على معدل ثلاثة ريالات مجيدية للنسمة ، فطلبنا من أمانة البلدة جداول أسمائهم جميعاً وأخذوا بتنظيمها لنا ، فكنا نذهب بأنفسنا إلى جامع جامع ومعنا البوليس يدعو كل رئيس عائلة باسمه ليأتى أمام اللجنة مع جميع أفراد عائلته ، فننظر فى الجدول الذى فى أيدينا ونسأله عن اسمه وأسماء أفراد عائلته فاذا طابق ما فى الجدول أدينا له ما يستحقه ، فكان صاحب العائلة يقبض عشرين ريالا ، أو ثلاثين ريالا ، أو أربعين ريالا بحسب عدد عائلته . وهكذا حصل لهؤلاء المهاجرين من الفرج ما لايوصف فى زمن كانت الدولة فى شغل شاغل عنهم بسبب الحرب و إعداد لوازم الجيوش .

وقد بقينا أكثر من شهر نوزّع هذه الاعانات عليهم حتى أخذ كل من المائة والخمسين ألف نسمة نصيبه ، وأرسلنا لجنة إلى غاليبولى فدفعت مثل ذلك من الاعانات إلى المهاجرين الذين اجتمعوا فيها ، وجميع هؤلاء المهاجرين عبروا إلى

الأناضول وسلموا من الاهانات والاعتداءات ، لا بل من الفظائع التى حلت بالذين تخلفوا من المسلمين فى بلاد البلقان ، وهى وصمة عار على البلقانيين لا يمحوها الدهر فقد ارتكبوا من الفظائع والفجائع بحق مسلمى الروملى المساكين بعد انهزام العساكر العثمانية ما لو ارتكب المسلمون بحق المسيحيين عشر معشاره لقامت أوربا وقعدت وملأ صراخها الآفاق ، وملأت أساطيلها مرافىء الشرق ، وتوالت احتجاجاتها فى العشى والاشراق ، ولكن هـذه الدول التى تدعى المحافظة على حقوق الانسانية وتزعم أنها تعلم الناس قواعد المدنية ؛ عرفت بجميع فظائع البلقانيين بحق المسلمين وما أتت بأدنى حركة .

ولى فى ذلك الوقت برقية شديدة إلى السر ادورد غراى ناظر الخارجية الانكليزية أبين له فيها دهشة العالم من وقوفهم بدون أدنى اكتراث لما هو واقع على مسلمى الروملى الوادعين فى بيوتهم من اعتداءات الدول البلقانية ، على حين أنهم كانوا يقيمون القيامة لو كان الاعتداء واقعاً من المسلمين على البلقانيين . و بعد ارسال البرقية طلب كامل باشا الصدر الاعظم صورتها وأعجب بها ، وجرى حديث بينى و بين فيسموريس مستشار السفارة الانكليزية فى الاستانة فى هذا الموضوع فلم يقدر أن يعترض بكلمة واحدة ، وغاية ما قدر أن يقول لى إن السر بيين كانوا أقل أذى للأهالى المسلمين من غيرهم .

ولما سقطت سلانيك فى أيدى البلقانيين كان قد اجتمع فيها جميع المسلمين الذين فى جوارها ، والذين فروا من وجه جيوش الأعداء فدخل اليونان والبلغار إلى سلانيك وفيها مائة وخمسون ألف نسمة من المسلمين اللاجئين اليها ، فضلا عن المسلمين الذين هم من أهلها ، وقد ضبط الأعداء جميع الأقوات والأرزاق التى فى البلدة لأجل جيوشهم ، فصار المسلمون على شفا الهلاك جوعا ، وحرص اليونان والبلغار على قطع أخبار سلانيك عن العالم حتى لا يعلم أحد ماذا يجرى فيها ، وهذا قد كان من أسوأ أعمالهم ، وكأنهم أرادوا أن يمحوا هؤلاء المسلمين الذين اجتمعوا هناك بواسطة الاجاعة فلم يجدوا وسيلة أحسن من قطع أخبار سلانيك عن العالم حتى لا يعرف المسلمون

ماذا جرى ، ولا يرد منهم أدنى مدد إلى مسلمى سلانيك ، ولـكن أبى الله إلاّ أن يغاثوا فجاء رئيس أطباء الجيش العثمانى فى سلانيك إلى الاستانة واسمه سلامى باشا وكان خروجه من سلانيك بمجرد دخول العدو ، فلم يطأ أرض الاستانة حتى اجتمعنا به ومنه أخذنا الخبر عن سقوط تلك البلدة لأن البلقانيين كانوا قطعوا الأسلاك التلغرافية ، فـكان لم يمض على سقوطها غير ثلاثة أيام . وهو الذى أخبرنا بأن فى سلانيك مائتى ألف مسلم بالأقل إذا مضى عليهم عشرة أيام ، ولم تأتهم أقوات يموتون كلهم جوعاً . فسرعان ماحرّكت قلمى بالابراق إلى مصر سواء إلى الأمير عمر طوسون أو إلى الهلال الأحمر ، وحيى الله لجنة الاعانة المصرية والهلال الاحمر المصرى ، فانه ما مضى أسبوع حتى كانت البواخر دخلت مرفأ سلانيك ملأى بالاقوات والارزاق والأكسية وجميع اللوازم الضرورية ، ومعها الرجال الموكلون بها ، فأغاثوا المسلمين وأنتاشوهم من خطر الهلاك جوعاً ، وكذلك سمعت أن الخديوى السابق أرسل بواخر إلى مرسى « قَوَلَة » موقرة أرزاقاً لأن قَوَلَة هى موطن محمد على باشا جد العائلة المالكة فى مصر . وكان اجتمع إليها أيضا عشرات ألوف من المسلمين الفارين من وجه البلقانيين .

وخلاصة القول أن المقام الذى قامه أهل مصر أبقاهم الله ركناً للاسلام من إغاثة مسلمى البلقان فى الحرب البلقانية يبقى لهم مأثرة خالدة لاتبليها الأيام فى تاريخ الاسلام

ونعود إلى وقائع الحرب فنقول : إن الحـكومة العثمانية بعد أن تولّى الوزارة محمود شوكت باشا كانت ترغب فى الصلح ، ولـكنها لم تـكن ترضاه على أى الوجوه ، وكان رجال الاتحاد والترقى يريدون استمرار الحرب على أمل الـكرّة على البلغار وأخذ الثأر منهم ، لأنهم كانوا جميعا يعتقدون أن الهزيمة التى انهزمها الجيش العثمانى فى الحرب البلقانية كانت حادثة على خلاف القياس . ولـكن الدول بدأت تضغط على الدولة فى أمر الصلح وفى ٣١ مارس سنة ١٩١٣ أرسلت الدول مذكرة إلى الباب العالى تلح فى عقد الصلح ولـكنها تصرّح بأنها لا تدعو الدولة إلى دفع غرامة حربية ؛ أما الخط الفاصل بين الأملاك العثمانية والمملكة البلغارية فـكان خطاً ممتداً من البحر الأسود

إلى بحر الأرخبيل يقال له خط « ميديا ــ أنوس » وهو فى الواقع خط لا يبعد كثيراً عن شطلجة ؛ وكان مؤتمر الدول فى لندرة قرر إرسال لجنة عسكرية لتحديد الخط المذكور بالفعل على قدر ما تسمح حالة الأراضى من تقويمه . وأما ألبانيا فقرر المؤتمر سلخها عن تركيا ، وجعلها مملكة مستقلة ، وكذلك جزائر بحر الأرخبيل كان المؤتمر يريد أن يجعل لها نظاما خاصاً ، ماعدا كريت فكانو قرّروا إلحاقها ببلاد اليونان .

• وكل ماجرى على الدولة من المصائب لم يضع حداً للشقاق فى الاستانة ، فقتل ناظم باشا ناظر الحربية بأيدى الاتحاديين أثار غضب أضدادهم حزب الائتلاف والحرية فصاروا يكيدون فى الخفاء للانتقام و إسقاط الوزارة الاتحادية ، و بلغ الخبر الاتحاديين فأهملوا الاحتياط اللازم ، وقيل لمحمود شوكت باشا : إن أناساً يأتمرون بك ليقتلوك فهزّ أكتافه لا لكونه لم يصدق الخبر بل لأنه لم يبالى بالحياة ، وكان متوكلاً معتقداً قوله تعالى (لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم) وهكذا تمّ لحزب الائتلاف والحرية ما أرادوا من الكيد ، وكان المتآمرون محيي الدين بك مدير الأمن العام فى وزارة كامل باشا ، ورشيد بك ناظر الداخلية السابق ، وصالح خير الدين باشا ابن خير الدين باشا التونسى الذى كان صدرا أعظم ، و كان صالح باشا من أصهار العائلة السلطانية ، وكان فى هذه المؤامرة أيضا صباح الدين بك ابن أخت السلطان ، فانتدبوا بعض الأشقياء و بعض الجناة من أصحاب السوابق فى القتل ورشوهم وكانوا يعتقدون أنه بمجرد قتل محمود شوكت باشا يستولون هم على الحكم حالا و يقتلون رفاقه مثل أنور وطلعت وجمال وغيرهم ، فذهبت هذه العصابة وترصدت محمود شوكت باشا عند مروره بسيارته من ساحة بايزيد آتيا من نظارة الحربية إلى الباب العالى وكان ذلك فى ٢٨ يونيو سنة ١٩١٣ نحو الساعة العاشرة والنصف قبل الظهر ، فقتلوه وهو فى سيارته ، وقتلوا معه ياوره إبراهيم بك .

وأما الياور الآخر أشرف بك فأمكنه الخلاص وذهب مستنجدا بالبوليس . فنقل محمود شوكت باشا إلى نظارة الحربية حيث مات بعد عشرين دقيقة من الواقعة لأنه كان خرق جسمه خمس رصاصات . فكان بين قتل ناظم باشا وقتل محمود شوكت

باشا أقل من ستة أشهر بخمسة أيام ، وأفظع شيء فى قتل محمود شوكت باشا أن اثنين من الذين تآمروا بقتله كانا سيقتلان بعد واقعة الثورة على الدستور ومجيء جيش الحرية من سلانيك إلى الأستانة ، فعفا عنهما محمود شوكت باشا القائد يومئذ وأنقذهما من القتل ، وعفا عن مجرمين سياسيين كثيرين برغم جمعية الاتحاد والترقى التى كانت تريد الاقتصاص منهم ، فكان أن الذين عفا عنهم محمود شوكت باشا هم أنفسهم المتآمرين على قتله . ولكنهم لم يبلغوا هذه المرة أمنيتهم ، فما أغمض محمود شوكت باشا عينه حتى تولّى الحكم الأمير سعيد حليم باشا مكانه ، وهو ابن الأمير حليم باشا المصرى ابن محمد على باشا والى مصر ، وكان الأمير حليم باشا يسكن الأستانة وأولاده نشأوا فيها ، وانضم كبيرهم الأمير سعيد حليم وأخوه الأمير عباس إلى جمعية الاتحاد والترقى ، وكانا من أماثل الرجال ، وكان الأمير سعيد واسع العلم ، ثابت الجنان عظيم الحمية ، وفي أيام صدارته استرجعت الدولة نشاطها ، وزال ما كان طرأ عليها من الوهل ، وتعيّن طلعت بك ناظرا للداخلية ، وكان هو روح الاتحاد والترقى ، وهو أجرأ الاتحاديين وأشدهم إقداماً ، وأسرعهم فهماً ، وأمضاهم في الامور ، وقد جمع إلى الذكاء والحزم عفّة النفس ، فانه كان مأمورا فى التلغراف من الدرجة الثانية ، فلما صار الانقلاب كان هو من أشد الاتحاديين مضاء ، وأعظمهم أثرا بالجمعية ، فصار ناظرا للتلغراف ، ثم صار ناظرا للداخلية ، وفى الحرب العامة تولّى الصدارة و بقى فيها إلى نهاية الحرب . ودخل فى الحكومة فقيراً وخرج منها فقيراً ، وكان يقول : ألا يكفى أن هذه الامة تحمّلت جهلى ، أفأجعلها تتحمل انحطاط أخلاقى . كان يتكلم عن جهله لأنه لم يكن من العلماء ، أو ممن لهم تحصيل للعلم كاف ، ولكن كان ذكاؤه الفطرى أعجوبة ، وكانت جرأته خارقة للعادة ، فصار سيد الاتحاد والترقى بدون منازع . وكانت نهايته فى برلين قتيلا بيد أرمنى أرسلته جمعيات الأرمن لاغتياله وكنا فى ذلك الوقت فى برلين ، وكنت بالمذاكرة معه أسّست ناديا يجمع جميع الشرقيين وانتخبت رئيساً له باتفاق الكلمة ، فاحتفلنا له باسم النادى الشرقى بمأتم عظيم ، وأبقينا تجاليده فى مكان خاص بالجبانة الاسلامية فى برلين .

وكانت الجبانة قد ضاقت جداً ولم يبق فيها مكان للدفن ، فراجعت الحكومة الألمانية فسمحت لنا بألف وخمسمائة متر مربّع أضفناها اليها ، وأدرنا حولها جداراً و بنينا فيها مسجداً صغيراً لايواء المصلين على الجنائز فى أيام المطر والثلج ، وأنشأنا بجانبه منزلا لأجل حارس الجبانة ، فجعلنا جثة المرحوم طلعت باشا فى غرفة من ذلك المحل ، وجرى تحنيطها حتى يتيسر نقلها إلى الأستانة ودفنها هناك . فلما استقلّت تركيا وجاءت الحكومة الكمالية الانقرية لم تسمح بدفن طلعت فى تركيا . فكان من الغرائب أن أعظم الاتراك حمية على وطنه لم يمكن دفنه فيه ، وما أبت الحكومة الكمالية دفن طلعت فى الاستانة إلا خوفاً من أن يكون له مأتم تقوم له تركيا وتقعد وتتجدّد فيها قوة الاتحاد والترقى . فسبحان الله الذى جعل طلعت ممن يخافه الناس فى حياته و بعد مماته ! وكان مع هذا من ألطف الناس خلقاً ، وأحلاهم عشرة ، وأودعهم نفساً . وأيام كنا فى برلين سنة ١٩٢٠ كنا نجتمع كل يوم تقريباً ، وقد ترجمته فى حواشى «حاضر العالم الاسلامى» ترجمة وافية .

هذا ودخل فى الوزارة أحمد عزت باشا الارناؤوطى ناظراً للحربية وقائداً للجيش وعثمان نظامى باشا للاشغال النافعة ، و بقى أكثر النظار الآخرين فى مناصبهم و بدأت الوزارة بمحاكمة الذين قتلوا محمود شوكت باشا ، والذين دخلوا فى مؤامرة قتله فحكموا على ٢٤ شخصاً منهم بالقتل ، منهم من كانوا فرّوا من الوجه مثل صباح الدين بك ابن أخت السلطان ، ورشيد بك ناظر الداخلية السابق ، واسماعيل بك مبعوث كوملجنة ، ومنهم من وقع فى اليد مثل صالح باشا خير الدين صهر العائلة السلطانية وجماعة يبلغون عشرة اشخاص فشنقوهم وصلبوهم فى ساحة بايزيد .

وقد اجتمعت سنة ١٩٣٦ باسماعيل بك مبعوث كوملجنة فى جنيف وروى لى كيفية فراره فى تلك الحادثة وتخلّصه من أيدى الاتحاديين .

ثم إن الدول البلقانية اختلفن بعضهن مع بعض فالحكومة البلغارية تنازعت مع الحكومة الصربية والحكومة اليونانية ، على اقتسام الأسلاب التى أخذوها من تركيا في الروملى ، ووصل الأمر بينهن إلى القتال . وكانت رومانيا أرادت أن

تستفيد من قتال هؤلاء الحلفاء ، فطلبت تعديل حدود « الدبروجة » بينها و بين بلغاريا فوقع الخلاف بين رومانيا و بلغاريا فرأت تركيا الفرصة سانحة لاسترداد ولاية أدرنة ، وفى ٦ يوليو أرسلت تركيا بواسطة عثمان نظامى باشا إلى الحكومة البلغارية إنذاراً بوجوب تخليتها الأراضى التى كان البلغار قد احتلوها ، وكانت الوقائع الحربية قد انتهت من شهر ابريل بموجب متاركة بين البلغار والعثمانيين ، ولكن بقيت الجيوش البلغارية محتلة جميع ولاية تراقية التى يفصلها عن تركيا خط انوس - ميديه الذى قرره المؤتمر الدولى بين الفريقين ، فأرسلت الحكومة البلغارية المسيو « نتشيڤيتش » معتمد بلغاريا سابقاً فى الاستانة لأجل الاتفاق مع تركيا لا سيما أنه كان من أنصار التقرب بين تركيا و بلغاريا ، فرضى نتشيڤيتش بتغيير خط انوس ـ ميديه الذى كان الاتراك غير راضين به ، وجعل الفاصل خطاً ماراً بقصبة شورلو ، ولكن الأتراك طلبوا أن بلغاريا تقبل النصيب المفروض عليها من الدين العثمانى على نسبة ما أخذته من أملاك تركيا ، وتقبل أيضاً باعطاء تأمينات متعلقة بحقوق المسلمين الذين فى المملكة البلغارية والبلاد التى استولت عليها هذه المرة ، وتتعهد بعدم تقاضى تضمينات حربية فلم يقدر نتشيڤيتش أن يتعهد صريحاً بقبول هذه المطالب ، فزحف الجيش العثمانى بقيادة احمد عزت باشا من جهتين؛شطر منه سار من جهة رودوستو والآخر من جهة شورلو وفى ٢٢ تموز وصل المتطوعون وخيالة العرب والأكراد إلى أدرنة تحت قيادة أنور باشا .

وأما البلغارفلما وجدوا الجيش العثمانى زحف عليهم نكصوا بدون قتال ولم يباشروا إلاّ مدافعات جزئية قتل فيها صاحبنا رشيد بك ابن المشير فؤاد باشا ، كنا معا فى حرب طرابلس ولم تكن من البلغار مقاومة إلا بعد أن وصلوا إلى حدود بلغاريا الأصلية ولكنهم لم يقدروا على مقاومة تذكر ، ولو شاء العثمانيون يومئذ أن يتوغلوا فى نفس بلغاريا الأصلية لأمكنهم ذلك ، لكنهم كانوا يخشون اعتراض الدول فأرسل الباب العالى إلى الدول مذكرة يقول فيها إن الدولة أبلغت بلغاريا بوجوب سحب عساكرها من الأراضى التى احتلّتها جنودها وذلك لأجل وضع حدود تتمكن بها تركيا من

المحافظة على الأستانة وعلى الدردنيل . وهذه الحدود غير ممكنة إلا باتباع مجرى نهر المريج ، بحيث كل ماهو جنوبى هذا النهر يبقى لتركيا .

فلما لم يجب البلغار طلب تركيا اضطرت الدولة إلى احتلال هذه الأراضى تاركة تعيين الحدود الموافقة للمذاكرات السياسية ، فغضبت الدول من أجل إخلال تركيا بقرار مؤتمر لندرة الذى عين خط أنوس ـ ميديه فاصلا بين تركيا و بلغاريا ، وأرسلت إلى الدولة تنذرها بأنها إن لم تسحب عساكرها من أدرنة فانها تتخذ جميع التدابير اللازمة لأجل تثبيت قرار المؤتمر ، فهذا الجواب لم يَرُعْ تركيا وقتئذٍ ، وذلك لأن الأتراك كانوا يرون الدول متمسكات بالقرار الذى يصدرنه فى مصلحة أعداء تركيا و يقلن لا يجوز تبديل هذا القرار بوجه من الوجوه ، بخلاف مالو كان القرار فى مصلحة تركيا فانه يتبدل حالا . وقبل الحرب البلقانية أبلغت الدول الفريقين بأن هذه الحرب يكون الغالب والمغلوب فيها سواء ، وتبقى الحدود مكانها . فلما تغلب البلقانيون على الأتراك نسيت الدول بلاغها هذا كما تقدم الكلام عليه ، فلهذا لم يكن لانذار الدول هذه المرة موقع خوف فى قلوب الأتراك ، وأبرق عزّت باشا قائد الجيش من أدرنة يقول : إن الجيش لا يمكن أن يتخلى عن أدرنة .

وكان بالفعل لو ضغطت أوربا على تركيا ، والحكومة ضغطت على الجيش والأهلين ، لجرت ثورة دموية ، فأجابت تركيا الدول بأن مذكرتها إلى الباب العالى تشير إلى أن الدول حاضرة للمذاكرة مع تركيا فى الشروط اللازمة لتأمين حدودها والحال أن خط أنوس ـ ميديه لا يتأمن به شىء ، وأن تركيا إنما احتلت البلاد التى كان احتلها البلغار محافظة على حياة الأهالى الذين كانوا صائرين لا محالة إلى الانقراض فتركيا ترجو من الدول إعادة النظر فى قضية الحدود . فلما وصلت هذه المذكرة إلى الدول خطب السر ادورد غراى خطبة فيها شىء من التهديد لتركيا إذا أصرّت على استرداد أدرنة . وأما الروسيا فأشارت بمنع كل معاملة مالية بين أوربا و تركيا ؛ ولكن كل هذا لم يرعب الترك ، لأن قضية أدرنة هى لهم قضية حيوية ، فأدرنة مفتاح

الأستانة كما لا يخفى ، وفى ولاية أدرنة مئات ألوف من المسلمين كانوا سينقرضون أو سيرحلون بأجمعهم لو بقى البلغار هناك ، لما كان عند البلغار من الوجد لاستئصال الاسلام من تلك البقعة . فالأتراك كانوا مصممين على عدم الرجوع عن أدرنة وتهددوا البلغار باعلان الحرب عليهم إذا لبثوا يطالبون بأدرنة ، فخاف البلغار من أن ينهزموا و يفقدوا ثمرات طوائلهم فى أول الحرب فجنحوا إلى السلم ، والتمسوا من تركيا المذاكرة رأساً . وكان مسلمو تراقية الغربية قد ثاروا وأسّسوا حكومة مستقلّة لانفسهم مركزها كوملجنة ففى ١٨ سبتمبر سنة ١٩١٣ تقررت شروط الصلح بين الفريقين واستعادت تركيا بموجب هذا الصلح أدرنة ، وقرق كليسه ، وديموطقة ، وأعيدت الحدود الأصلية التى كانت بين تركيا و بلغاريا قبل الحرب البلقانية ، سوى بعض قرى إلى جهة البحر الأسود أكثر سكانها من البلغار فهذه سمحت بها تركيا لبلغاريا .

وكذلك خسرت بلغاريا الخط الحديدى من أدرنة إلى دده آغاج البلدة التي على ساحل بحر الأرخبيل ، وكان البلغار سيجعلونها منفذاً لهم إلى البحر المتوسط ، وكذلك تقرر بين الدولتين أن يضرب أمد لسكان مكدونية وتراقية أربع سنوات ليختاروا التابعية العثمانية أو التابعية البلغارية ، فاذا مضت السنوات الأربع ولم يختاروا التابعية العثمانية يصيرون رعايا بلغاريا ، و إلا فيبقون كأجانب مرجعهم الدولة العثمانية . و إذا كان فى هذه البلدان يسكن عثمانيون من ولايات أخرى تابعة لتركيا فيبقون على تابعيتهم العثمانية ، ثم حصلت مذاكرات فى قضية الأوقاف الاسلامية ، وتقرر أن تكون إدارتها بأيدى الجماعات الاسلامية وفقاً للاتفاق التركى البلغارى المنعقد سنة ١٩٠٩ بحق الأوقاف الاسلامية فى بلغاريا القديمة فاشترطت تركيا أن تكون الأوقاف الاسلامية فى الأراضى الملحقة جديداً ببلغاريا تحت إشراف شيخ الاسلام فى الاستانة ، بخلاف الأوقاف فى بلغاريا القديمة التى كان للحكومة البلغارية حق لاشراف عليها . ثم تقرر أن يكون مسلمو البلغار تابعين للشرع الشريف فى أحوالهم الشخصية ، فيحكم بينهم فيها قضاتهم كما فى تركيا ؛ و يكون للمسلمين فى بلغاريا

منتون تنتخبهم الجماعات الاسلامية بتمام الحرية ؛ و يجرى تصديق انتخابهم بمعرفة تهيخ الاسلام فى تركيا ، وتقرر أن تكون المدارس والمكاتب الاسلامية فى بلغاريا معدودة من مؤسسات الحكومة البلغارية التى يجب أن تنفق عليها .

واستغرب الناس تساهل بلغاريا هذا مع تركيا ، وقد كانت هى الظافرة فى الحرب البلقانية ، والحقيقة أن قواد الجيش البلغارى وجدوا أنفسهم لو أصروا على العناد لكرّ الترك عليهم ، وكانوا من بعد غلبهم سيغلبون ، لأن الجيش التركى فى المدة الأخيرة كان غير الجيش التركى فى أول الحرب ، ثم إن البلغار كانوا اقتتلوا مع السرب من أجل « مَنَستر » التى كان البلغار والسرب يتنازعون عليها . وكذلك كانوا اقتتلوا مع اليونان من أجل مكدونية فصارت بلغاريا مضطرة بحكم الضرورة أن تسالم تركيا .

وانعقدت معاهدة الصلح النهائى بين تركيا و بلغاريا فى ٢٩ سبتمبر سنة ١٩١٣ واتفقت الدولتان على عدم اعتبار المعاهدة السابقة المنعقدة فى لندرة فى كل المواد المخالفة فيها للمعاهدة الأخيرة .

ثم جرت المذاكرات بين تركيا واليونان لأجل الصلح ، ولم تصل الدولتان إلى وفاق ، أولا لأن اليونان طلبوا التمتع بالامتيازات الأجنبية التى كانت الدولة حرمت اليونان إياها عند ما كسرتهم سنة ١٨٩٧ فتركيا أبت إرجاع الامتيازات وقالت : إن الدول العظام أنفسها أصبحت مستعدة لالغاء هذه الامتيازات ، ثم إن تركيا طلبت الحرية التامة فى اليونان لشعائر الدين الاسلامى ، وأن تكون إدارة الأوقاف الاسلامية فى بلاد اليونان تحت مراقبة شيخ الاسلام ، وتكون قضاة المسلمين هى الحاكمة في الأحوال الشخصية ، فطلب اليونان بمقابلة ذلك أن تعاد إلى بطريرك الروم فى الاستانة الامتيازات الدينية القديمة التى كان منحها السلطان محمد الفاتح ، فأجابت تركيا بأن لا مدخل لدولة أجنبية فى أمور داخلية فى تركيا .

ثم اختلفوا فى قضية الأوقاف لأن اليونان رضوا بالاعتراف بالأوقاف العائدة إلى المساجد رأساً ، فأما الأوقاف التى يقال لها وقف ذرية فادّعت دولة اليونان أنها تحل فيها محل الدولة العثمانية ، واختلفوا أيضاً في قضية الخدمة العسكرية ، فاقترحت اليونان

إعفاء الأروام الذين فى تركيا من الخدمة العسكرية على أن تعفى اليونان المسلمين الذين فى بلادها من الخدمة نفسها ، فرفض الباب العالى ذلك، فاقترحت اليونان وجهاً آخر وهو أن يكون للأروام في تركيا توابير مخصوصة لايدخلون فيها مع سائر العسكر وأن اليونان بمقابلة ذلك تجعل لمسلمى بلادها توابيرخاصة ولا تجبرهم على نزع الطربوش فرفض الباب العالى هذا أيضاً . وطلبت اليونان العفو العام عن الأروام العثمانيين الذين ساعدوا اليونان ، فأجابت تركيا هذا الطلب . ثم طلبت اليونان ثلاثة ملايين جنيه عثمانى تعويضاً لها عن ضبط مائة سفينة يونانية قبضت عليها تركيا فى أول الحرب فأبى الباب العالى دفع شىء ، وانقطعت المفاوضات مدة . ثم استؤنفت بميل الفريقين إلى الصلح ، وانعقدت المعاهدة فى ١٤ نوفمبر سنة ١٩١٣ وفازت تركيا بتأييد كلمتها فى قضية الامتيازات ، وفى قضية الأملاك السلطانية ، وكذلك فازت فى معاملة الجماعات الاسلامية فى أحوالهم الشخصية بموجب الشرع الشريف ، كما جرى الاتفاق مع البلغار . ولكن لم يمكن تركيا أن تنال من اليونان حق إشراف شيخ الاسلام على الأوقاف الاسلامية فى اليونان بل طلبت اليونان أن تكون إدارة هذه الأوقاف بأيدى مسلمى بلاد اليونان وهكذا تم . وبقيت مسألة الجزر معلقة وكانت الدول تريد إلحاق جميع الجزر باليونان عدا « تَنَدُس » و « إمبرِوس » و « كستيلوريزو » وذلك لقربها الشديد من السواحل العثمانية .

وبينما الدول تفكّر فى فض الخلاف بين تركيا واليونان إذ وقعت الواقعة الكبرى وهى الحرب الكبرى فتوقف كل شىء منذ سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩٢٣ أى مدة تسع سنوات فى خلالها جرت الحرب العامة ثم تبعتها حرب أخرى بين تركيا واليونان التى سلمتها انكلترة قسما من بلاد الأناضول ، فاستمرت الحرب بين الأتراك والأروام من سنة ١٩١٩ إلى سنة ١٩٢٢ وانتهت بانهزام اليونان ، فعند ذلك انعقد بين الدول وتركيا مؤتمر لوزان ، وتقرر الصلح ، وبموجبه ألحقت جميع الجزائر فى الأرخبيل إلى اليونان ، إلا الجزر التى أمام الدردنيل مثل لمنى وتندس ، ولكن تقررت أيضاً مبادلة الأراضي والسكان ، فجميع المسلمين الذين فى بلاد اليونان جاءوا إلى تركيا

كما أن جميع الأروام الذين فى تركيا أخرجوا إلى بلاد اليونان وأخذت تركيا أملاك اليونان فيها ، و بمقابلة ذلك أخذت اليونان أملاك المسلمين فيها . واستلحقت إيطاليا رودوس والجزر العشر التى حولها . ولم يبق فى مملكة اليونان سوى مسلمى تراقية الغربية ، فقد جرى استثناؤهم من المهاجرة ، ولم يبق من الأروام فى تركيا غير الأروام الذين فى القسطنطينية ، إذ أن الدول فى لوزان جعلن هؤلاء فى مقابلة هؤلاء .

وهذه مسائل عائدة إلى الحرب العامة وذيولها ، ونحن أحببنا الوقوف فى تاريخ الدولة العثمانية عند هذا الحد ، لأننا لو دخلنا فى موضوع الحرب العامة لطال بنا الموضوع جداً . ولما كنا نريد أن نفرد الحرب العامة وذيولها إلى أن انعقدت معاهدة لوزان سنة ١٩٢٣ بتأليف خاص ـ إن شاء الله ـ لم نجد لزوما للدخول فى هذا التاريخ بموضوع أكبر حرب عرفها العالم مما يجب أن يفرد بتأليف على حدة .

وربما يؤخذ علينا فى هذا الكتاب كوننا تكلمنا عن نفسنا فى بعض وقائع شهدناها بأعيننا ، وربما عد ذلك بعضهم من قبيل تزكية المرء نفسه ، والله يعلم أننا من أبعد الناس عن هذا الأمر (بل الله يزكّى من يشاء) وإنما قصدنا بذلك زيادة توثيق الوقائع التى نرويها بذكر ما شهدناه منها عيانا ، إذ هناك فرق كبير بين السماع والعيان وكثيراً ما روى المؤرخون أخبارا لم يكن لها أصل ، أو كان لها أصل ضعيف ، وذلك بسبب تلقفهم هذه الأخبار من أفواه الناس ، أو نقلهم لروايات غير ممحصة . فانا إذا رويت ما شهدته بعينى ، وما سمعته باذنى ؛ فانما يكون مقصدى فى ذلك زيادة التحرى والانتهاء إلى أقصى درجات التوثيق « وما راء كمن سمعا » وهكذا تظهر الوقائع بشكل بارز ، حتى كأن الانسان يراها بالعيان ، وليس هذا بمذهب لم يسبق اليه المؤرخون ، والله تعالى وحده من وراء السداد .

فهرس مواضيع

تعليقات الأمير شكيب أرسلان

على الجزء الأول من كتاب تاريخ ابن خلدون

(تم الفهرس)



صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
١٣٦	١٩	بلاد الشركى	بلاد الشركس
١٣٧	٢٣	المتعلقة للقضاة	المتعلقة بالقضاة
١٤٠	٢٢	الشير بالخيالى	الشهير بالخيالى
١٤٣	٩	ثم معلماً	ثم صار معلماً
١٦١	٢١	ان علياً بن ابى طالب	ان على بن ابى طالب
١٨٧	٦	قبر الامامى	قبر الامام
٢٠٠	٧	Szlgeth	Szigeth
٢٠٢	١٩	وما ذلى	وما دمى
٢٢١	٢٢	الموقعة	الواقعة



الخطأ والصواب

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
١	٩	esclaves	esclave
٢	٦	والحزوات	والخروات
٧	٢	او	و
٧	١٠	مُذحج	مَذْحج
٩	٧	بنصرايتهم	بنصرانيتهم
٢١	٥	هو هنزولون	هو هنزولرن
٢٢	٥	جدير	جديراً
٢٩	١٩	المفهمومة	المفهومة
٣٠	٧	بدم	بآدم
٣٢	١	بدون	دون
٥٨	٥	بدون	دون
٦٩	١٩	Goseph	Joseph
٦٩	١٩	Edoird	Edoard
٧٢	٢١	امرىء القيس	امرؤ القيس
٨٩	١٣	صلحة	صلحهِ
١٠٤	٧	سيكونوا امراؤنا	سيكونون امرآءنا
١١٢	٨	ومعه خمسين	ومعه خمسون
١٢٨	٧	وهزمه	فهزمه
١٢٨	١٢	المردريت	المرديت
١٣٦	١٠	نيفروبون	نيغروبون
١٣٦	١١	لوزون حسن	اوزون حسن